

رئيس الفريق العلمي

أ. د. حمد بن ناصر بن عبد الرحمن العمار

رعاية ودعم

صاحب السمو الملكي

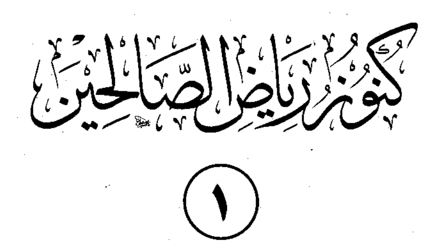
الأمير بندر بن عبد العزيز آل سعود

أجزل الله مثوبته

المجلد الأول



بسم الله الرحمن الرحيم


كنوز رياض الصالحين
١

ح دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، ١٤٣٠هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العمار، حمد ناصر

كنوز رياض الصالحين/ حمد ناصر العمار - الرياض ١٤٣٠هـ، ٢٢ مج.

٦٦٢ ص؛ ١٧ × ٢٤ سم

ردمك: ٢-٩٤-٨٠١١-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)

٩-٩٥-٨٠١١-٦٠٣-٩٧٨ (ج١)

١- الحديث - جوامع الفنون ٢- الحديث - شرح أ- العنوان

ديوي ٢٣٧,٣ ١٤٣٠/٤٢٨٨

رقم الإيداع: ١٤٣٠/٤٢٨٨

ردمك: ٢-٩٤-٨٠١١-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)

٩-٩٥-٨٠١١-٦٠٣-٩٧٨ (ج١)

الطَّبْعَةُ الأُولَى

١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م

دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية ص.ب ٢٧٢٦١ الرياض ١١٤١٧

هاتف: ٤٧٤٢٤٥٨- ٤٧٧٣٩٥٩ - ٤٧٩٤٣٥٤ فاكس: ٤٧٨٧١٤٠

E-mail: eshbelia@hotmail.com

تقديم

معالي الشيخ د. صالح بن عبدالله بن حميد

رئيس المجلس الأعلى للقضاء، عضو هيئة كبار العلماء

ورئيس مجمع الفقه الإسلامي الدولي



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد:

فإنّ العلم إرث الأنبياء، والأنبياء عليهم السلام لم يورثوا دينارًا ولا درهما، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر، فعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: ((إنَّ الأنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلاَ دِرْهَمًا، إِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَ بِهِ فَقَدْ أَخَذَ بِحَظٍ وَافِرٍ))[1].

والعلم مقدمٌ على القول والعمل، كما قال تعالى: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ﴿١٩﴾ ﴾[2].

والعلم يبقى نفعه إلى قيام الساعة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((إذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إلاَّ مِنْ ثَلاَثٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ))[3].

وأهل العلم هم القائمون على أمر الله تعالى حتى تقوم الساعة، كما جاء في حديث معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: ((مَنْ يُرِدِ اللّهُ به خَيرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّين. وإِنَّما أَنا قاسِمٌ، واللّهُ يُعطِي))[4].

والعلم طريق الجنة، كما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا، سَهَّلَ اللّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَىٰ الْجَنَّةِ))[5].

وقال الإمام أحمد رحمه الله: (إن فضيلة الشيء وشرفه يظهر تارة من عموم منفعته، وتارة من شدة الحاجة إليه وعدم الاستغناء عنه، وتارة من ظهور النقص والشرّ بفقده،

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: العلم، باب: الحث على طلب العلم رقم ٣٦٤١، وقال الألباني: حديث صحيح.

(٢) سورة محمد، الآية: ١٩.

(٣) أخرجه مسلم، كتاب: الوصية، باب: ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته رقم ١٦٣١.

(٤) أخرجه البخاري في كتاب: العلم، باب: من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين، رقم ٧١، ومسلم في كتاب: الزكاة، باب: النهي عن المسألة رقم ١٠٣٧.

(٥) أخرجه مسلم في كتاب: الدعوات، باب: فضل الاجتماع على تلاوة القرآن رقم ٢٦٩٩.

وتارة من حصول اللذّة والسرور والبهجة بوجوده لكونه محبوبًا ملائمًا، وتارة من كمال الثمرة المترتبة عليه، وشرف علّته الغائيّة، وإفضائه إلى أجلّ المطالب، وهذه الوجوه ونحوها تنشأ وتظهر من متعلّقه، فإذا كان في نفسه كمالًا وشرفًا - بقطع النظر عن متعلّقاته - جمع جهات الشرف والفضل في نفسه ومتعلّقاته، ومعلوم أن هذه الجهات بأسرها حاصلة للعلم، فإنه أعمّ شيء نفعًا، وأكثره وأدومه، والحاجة إليه فوق الحاجة إلى الغذاء، بل فوق الحاجة إلى التنفس، إذ غاية ما يُتصوَّر من فقدهما فقد حياة الجسم، وأما فقد العلم ففيه فقد حياة القلب والروح، فلا غنى للعبد عنه طرفة عين)[1].

ولقد تنافس علماؤنا الأجلاء رحمهم الله على تدوين أمهات الكتب والعلوم الإسلامية صيانة للشريعة، وتعليمًا لآدابها وأحكامها، وكان من ضمن هؤلاء العلماء الأجلاء الإمام الحافظ يحيى بن شرف النووي رحمه الله فإنه أسهم في خدمة الدين ولا سيّما سنة النبي الكريم محمد ﷺ فكان من آثاره الحميدة ومآثره السديدة كتابه المشهور "**رياض الصالحين**" الذي جمع فيه أحاديثًا في فضائل الأعمال والآداب، ولعلّ ذلك يعود إلى فضل الله أولًا، ثم إلى إخلاص مؤلفه رحمه الله.

وقد قام علماء الأمة قديمًا وحديثًا بخدمة هذا الكتاب وشرحه، إلا أنّ بين أيدينا شرحًا فريدًا ومميّزًا له بعنوان: "**كنوز رياض الصالحين**" قام به مؤلفه فضيلة الشيخ أ. د. حمد ابن ناصر بن عبدالرحمن العمار، حيث أفاد من كثير من شروحات العلماء السابقين والمتأخرين، كما أنه استكتب عددًا من العلماء المعاصرين في عدد من بلدان ودول العالم زاد عددهم على (١٠٠ عالم وباحث)، وقد جاءت مجلدات هذا العمل العلمي الموسوعي في (٢٢ مجلد) وزادت صفحاته على (١٣٠٠٠ صفحة) وتجاوزت مصادره ومراجعه على (١٠٠٠ مصدر ومرجع)، وازدان هذا الشرح بأنّه عني بمحاور علمية عديدة، منها: المحور العقدي، والحديثي، والفقهي، والأدبي، والتربوي، والدعوي، وغيرها، ندر أن تجتمع في كتاب علمي واحد.

---

(١) فضل العلم والعلماء، ابن القيم، جمع وترتيب: صالح أحمد الشامي ص ٣٦ - ٣٧، ط/١، المكتب الإسلامي، بيروت: ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.

وأحسب أن الجهد العلمي الذي قام به مؤلفه جهدٌ علمي مبارك ومميّز في شقه العلمي حيث استخرج كنوزه وفوائده، ودرره الدفينة، لا سيما وأنّ الكتاب عبارة عن مجموعة من الأحاديث النبوية الشريفة الذي نطق بها المعصوم ﷺ، الذي لا ينطق عن الهوى، كما تميّز جهد المؤلف أيضًا - وفقه الله - في إخراجه الطباعي، فإنه يستحق الشكر على هذا المشروع العلمي الرائد الذي يُتوقع منه النفع الكبير للأمة الإسلامية.

أسأل الله سبحانه أن يأجر مؤلفه ويكتب لهذا الكتاب القبول والانتشار، والنفع العام للمسلمين في مشارق الأرض ومغاربها.. وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين..

كتبه

د. صالح بن عبدالله بن حميد

رئيس المجلس الأعلى للقضاء، عضو هيئة كبار العلماء،

ورئيس مجمع الفقه الإسلامي الدولي



تقديم

معالي أ.د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي

الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد:

فإن منزلة السنة النبوية الشريفة في قلوب المسلمين، منزلة سميقة منيفة، فإنها صنو كتاب الله في التشريع، وإن تأخرت عنه في الرتبة والاعتبار، فلذلك كانت على الدوام منهلاً روياً للواردين، ورياضاً نضرة يستروح إليها الصالحون.

وقد جمعها أئمة المتقدمون، ورتبوها في منصفاتهم على طرائق شتى من أهمها الترتيب على الموضوعات والأبواب العامة، من العقائد، والعبادات والمعاملات، والأخلاق والآداب، والفضائل والمناقب، والأذكار والأدعية، وغير ذلك.

ولما كانت كتب السنة الجامعة؛ كالصحاح والسنن، وغيرها من المسانيد والمعاجم والمصنفات، من شأن المتخصصين من النقاد والحفاظ ومحدثي الفقهاء، واحتاج العامة من الناس إلى من ينتقي لهم منهم كتاباً جامعاً مختصراً، حسن الترتيب، قريب التناول، يشتمل على مهمات الدين في مختلف الأبواب، ليتعلموا منه ويعملوا به، انتدب إلى ذلك بعض الأئمة، فظهرت كتب مصل "مصابيح السنة" للحافظ البغوي الذي تممه وهذبه الخطيب التبريزي في "مشكاة المصابيح" و"المتجر الصالح في ثواب العمل الصالح" للحافظ الدمياطي، و"الترغيب والترهيب" للحافظ المنذري.

ويعد (**رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين**) للإمام الجليل أبي الفداء زكريا بن يحيى بن شرف النووي الدمشقي رحمه الله من هذا القبيل، جمع في زهاء تسعمائة وألف حديث، ضمنّها خمسة عشر كتاباً، كل كتاب يضم عدة أبواب، تختلف في عدتها باختلاف موضوعها، بلغت في مجموعها ثلاثة وسبعين وثلاثمائة باب، وصدر الأبواب بما جاء فيها من آيات الكتاب العزيز، لإتمام الفائدة والجمع بين الكتاب والسنة.

فجاء عمله هذا نسيج وحده، بديعاً في ترتيب موضوعاته وتنسيق أبوابه، وغزر نفعه حتى عمّ الحاضر والباد، وطبّقت شهرته الآفاق، فسارت به الركبان في الأغوار والأنجاد، وأقبل الناس عليه حفظاً وقراءة، واتخذوه مادة للتذكير والموعظة، في المساجد والمجالس.

وهذا من الدلائل الواضحة على شدة محبة المسلمين لكتاب ربهم وسنة نبيهم، وأنهما أفضل الكلام الذي يؤثر فيهم في الموعظة والدعوة إلى الخير.

ولعل من أسباب انتشار هذا الكتاب أيضاً، سيرة مؤلفه رحمه الله، فإنه كان جامعاً بين العلم والعمل، ملازماً للسنة وأدب الشريعة، زاهداً ورعاً، شهد له بذلك عامة من عاصره، وذكره في ترجمته التي أفردها بعض الحفاظ بالتصنيف، مثل تلميذه علاء الدين بن العطار، والحافظ شمس الدين السخاوي.

قال الذهبي رحمه الله في "تاريخ الإسلام": (قال شيخنا ابن العطار: ذكر لي شيخنا رحمه الله، أنه كان لا يضيع له وقتاً في ليل أو نار، إلا في وظيفة من الاشتغال بالعلم، حتى في ذهابه في الطريق، يكرر أو يطالع، وأنه بقي على هذا نحو ست سنين، ثم اشتغال بالتصنيف والاشتغال والنصح للمسلمين وولاتهم، على ما هو عليه من المجاهدة لنفسه، والعمل بدقائق الفقه، والحرص على الخروج من خلاف العلماء، والمراقبة لأعمال القلوب وتصفيتها من الشوائب؛ يحاسب نفسه على الخطرة بعد الخطرة) ا. هـ.

ولما كان (**رياض الصالحين**) كتاباً مقصوداً لاستظهار الأحاديث التي تكثر حاجة المسلم إليها، لقراءتها وحفظ ما تيسر منها والعمل به، مع صحة جمهرتها، لم ينصرف العلماء في القديم إلى شرحه، اكتفاء منهم بشروح أصوله، كشروح البخاري ومسلم وأبي داود والترمذي. وظل على هذه الحال، حتى القرن الحادي عشر، فكان أول من شرحه - فيما نعلم - العلامة محمد بن علان الصديقي المكي (ت ١٠٥٧هـ) صاحب التصانيف الكثيرة، في كتابه "دليل الفالحين"، ثم شرحه عدد من المعاصرين، شروحاً متنوعة بعضها صوتي وبعضها كتابي مطبوع، أثابهم الله جميعاً، ونفع بعلمهم.

لقد اطلعت على نموذج من هذا العمل العلمي الذي أعد وأخرج في هذا الإنجاز المسمى: (**كنوز رياض الصالحين**)، الذي يعتبر شرحاً مطولاً لأحاديث الكتاب، ببيان ما اشتملت عليه من دلالات وموضوعات دينية متنوعة، وصلتها بجملة صالحة من العبر والمعاني المستنبطة، والفوائد التي دل عليها كل حديث دلالة قريبة أو بعيدةً، بإعمال الفكر وتسريح النظر، ثم نظم خلاصتها في عقود جامعة؛ منها الأدبي والبلاغي، ومنها الفقهي، ومنها الدعوي، ومنها التربوي، بالإضافة إلى العمل الأساس في خدمة الكتاب

كتصحيح النص، وتخريج الأحاديث تخريجاً علمياً يمتاز بالدقة والاختصار، وترجمة راويه من الصحابة وشرح غريبه.

فوجدته موسوعة وافية ضافية، يُمل لها أن تأخذ مكانة مرموقة في المكتبة الإسلامية، وتكون زاداً مرصوداً للدعاة والوعاظ والخطباء، والباحثين والمربين، بفضل الله رب العالمين.

وقد عُهد بإنجاز هذا العمل النوعي المتميز، إلى ثلة مختارة من أنحاء العالم الإسلامي، منهم الباحثون المتخصصون، ومنهم القضاة وأساتذة الجامعات الإسلامية، فتقاسمته وتكامل البحث بتناول كل واحد ما يخص اختصاصه من جوانب الحديث.

والفضل يرجع بعد المولى سبحانه وتعالى، إلى الذين بدرت من عندهم الفكرة الأولى لهذا العمل المبرور، ثم إلى الذين حولوها إلى مشروع مفصل، وتابعوه إلى النهاية، وفي مقدمتهم المشرف العام عليه ورئيس الفريق العلمي، الخ الفاضل الأستاذ الدكتور حمد بن ناصر بن عبدالرحمن العمار، عميد كلية الدعوة والإعلام، ووكيل الجامعة لخدمة المجتمع والتعليم المستمر - سابقاً - والأستاذ بكلية الدعوة والإعلام بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، فقد تابع هذا المشروع في مختلف مراحله، من يوم كان نواة ألقيت في التراب، إلى أن صار شجرة باسقة ينظر الناس إلى ثمرها، فكان حرياً بوافر الشكر والتقدير.

وقد من الله تعالى بيد بيضاء سخية، رعت هذا الجهد المبرور المشكور، حتى تتابع إلى غايته، وخرج بهذه الحلة القشيبة، وهي يد صاحب السمو الملكي الأمير/ بندر بن عبدالعزيز آل سعود حفظه الله، الذي يتأثر سيرة أبيه طيب الله ثراه، فإنه كان محباً للعلم مكرماً لأهله، منفقاً على طباعة كتبه ونشرها بين الناس وورث هذه الخصلة الحميدة في أبنائه، فأجزل الله المثوبة للجميع، وأعمّ النفع بهذه الموسوعة المتميزة...

وصلىّ الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين...

كتبه

أ. د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي

الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي



تقديم

معالي الشيخ إبراهيم بن عبدالله الغيث

الرئيس العام لهيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - سابقاً -



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.. وبعد:

فبين أيدينا خدمة علمية قيّمة لأحد كتب السنة النبوية ألا وهو (رياض الصالحين) للإمام المحدّث يحيى بن شرف النووي رحمه الله فقد أعدّ النووي كتابه في فضائل الأعمال والآداب والأخلاق، وأحسب أنّ هذا الكتاب كُتب له القبول عند عموم المسلمين، فلا يكاد يخلو منه مسجد أو جامع أو مكتبة خاصة أو عامة إلا وتجده فيها.

وقد اهتم عدد من العلماء السابقين والمتأخرين لخدمة هذا الكتاب بالشرح والتحقيق، إلا أنّ هذه الموسوعة العلمية التي بين أيدينا - والتي زادت مجلداتها على عشرين مجلداً - والموسومة بـ (كنوز رياض الصالحين) امتازت عن غيرها من الأعمال العلمية التي سبقتها بمزيد عناية بشرح الحديث النبوي عبر جوانب علمية متعددة مثل: الجانب العقدي، والجانب الفقهي، والجانب الحديثي، والجانب التربوي، والجانب الدعوي، والجانب الأدبي وغيرها من الجوانب الأخرى.

كما امتازت بمشاركة كوكبة من العلماء والباحثين من دول العالم الإسلامي في إعدادها مما أكسب هذا العمل الجودة والتميز.

فأسأل الله عز وجل لهذا العمل العلمي الانتشار في أنحاء المعمورة، وأن يستفيد منه الراغبون من أبناء العالم الإسلامي ويجدوا فيه بغيتهم وأن يكون إحدى اللبنات العلمية التي تسهم في البناء العلمي للأمة، كما أسأله سبحانه أن يرزقنا الإخلاص في القول والعمل، وأشكر كل من شارك أو ساهم في إعداده أو بذل جهداً في نشره، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين..

كتبه

الشيخ إبراهيم بن عبدالله الغيث

الرئيس العام لهيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - سابقاً -



التعريف بالإمام النووي رحمه الله



بسم الله الرحمن الرحيم

التعريف بالإمام الجليل المحدث
محيى الدين أبي زكريا يحيى بن شرف النووي
كتبه شيخ الأزهر أ. د. محمد سيد طنطاوي

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ومن والاه.. وبعد:

فهناك أناس وفقهم الله تعالى منذ صباهم عشق العلم، الذي أمر الله تعالى نبيه محمدًا ﷺ أن يسأله المزيد منه فقال: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾﴾ [سورة طه، الآية: ١١٤].

ومن هؤلاء الرجال الإمام الحافظ، شيخ الإسلام محيى الدين أبو زكريا، يحيى بن شرف، بن مري، بن حسن، بن حسين، بن محمد، بن جمعة، بن حزام النووي.

ولد رحمه الله في شهر المحرم سنة ٦٣١هـ في بلدة "نوى" التابعة في ذلك الزمان لمدينة "دمشق"، وبها نشأ وحفظ القرآن الكريم.

وبدأت علامات النجابة وعشق العلم على ذلك الإمام الجليل منذ صباه، وقصّ علينا بعض مشايخه ما يدل على ذلك، فقد ذكروا أن الإمام النووي وهو في العاشرة من عمره، كان من هم في سنه من الصبيان يُكرِهونه على اللعب معهم إلا أنه يهرب منهم للتفرغ لما يعشقه وهو العلم النافع...

ورآه أحد المشايخ وهو على تلك الحالة فوقعت محبته في قلبه، وذهب إلى المعلم الذي كان الإمام النووي يتردد عليه وقال له: إن هذا الصبي سيكون أعلم أهل زمانه وأزهدهم وينتفع الناس به..

فقال له معلم الإمام النووي: أمنجم أنت؟ فقال الشيخ: لا، وإنما أنطقني الله بذلك..

وقد تحققت فراسة هذا الشيخ، فإن الإمام النووي بعد ذلك واصل مطالعة العلم بشغف ونهم، فحفظ الكثير منها في مدة وجيزة، ثم رحل إلى دمشق لطلب المزيد من العلم وهو في التاسعة عشرة من عمره... ويقول في ترجمة حياته في تلك المرحلة من عمره

"قدم بي والدي إلى دمشق، فسكنت المدرسة الرواحية، وبقيت نحو سنتين لا أضع جنبي بالأرض، وأتقوت بجراية المدرسة لا غير. وحفظت "التنبيه" في نحو أربعة أشهر ونصف، ثم حفظت ربع العبادات من المهذب في باقي السنة، وجعلت أشرح وأصحح على شيخنا "الكمال إسحاق المغربي" ولازمته فأعجب بي، لما رأى من ملازمتي للاشتغال - بالعلم -، وأحبني محبة شديدة، وجعلني معيد المدرس بحلقته لأكثر الجماعة، فلما كانت سنة إحدى وخمسين من القرن السادس الهجري أديت فريضة الحج...

وواصل الإمام - النووي رحمه الله - عشقه للعلم، وأصبح قلبه خاليا إلا من التزود من العلوم على اختلاف ألوانها وأصنافها، وتعلّم وعلّم... واتجه إلى التأليف، فصنف "شرح مسلم" و"رياض الصالحين" و"الأذكار" و"الأربعين النووية" و"المنهاج" و"الإرشاد" و"التقريب"... وغير ذلك من أمهات كتب العلم التي تمتاز بالإخلاص، وبالدقة، وبالتحقيق السليم، وبالرأي الصائب، وبالفهم القويم، وبالشرح الذي يقرب البعيد، وييسر العسير، ويدخل السرور إلى كل قلب نقي طاهر، وإلى كل عقل يحسن التدبر... وتمتاز جميع مؤلفاته بالقبول، ببركة إخلاصه، وجهده، وسهره، لخدمة العلم النافع الذي عشقه وشغله عن كل شيء سواه، حتى الزواج...

لقد كان رحمه الله على رأس العلماء الذين قضوا حياتهم في خدمة القرآن الكريم، وفي خدمة السنة النبوية، وفي خدمة شريعة الإسلام، وفي خدمة كل ما يعود عليه وعلى أمته بالخير..

كان رحمه الله مضرب الأمثال في الورع وفي الزهد، وفي التقلل من الدنيا ومتعها ولذاتها، وفي المراقبة لله تعالى في السر والعلانية.

وكان يواجه الملوك والأمراء بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويكتب لهم الرسائل ناصحا إياهم بالعدل وبالتحلي بمكارم الأخلاق...

قال فيه بعض العلماء: كان الإمام النووي قد صارت إليه ثلاث مراتب، كل مرتبة منها لو كانت لشخص لشدت إليه الرحال: المرتبة الأولى: العلم، والمرتبة الثانية: الزهد، والمرتبة الثالثة: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وكان رحمه الله مثالا للأدب العالي، وللطيب من القول، وللصالح من العمل، وللطاهر من السلوك، وللحسن من الأخلاق، وللجميل من المودة والمحبة لتلاميذه وشيوخه... ولذا كان موضع الإجلال والثقة والمحبة من العلماء ومن كل ذي عقل سليم.

وفي السنة التي لحق فيها بربه عز وجل وهي سنة ست وسبعين وستمائة، قفل راجعا إلى مسقط رأسه إلى بلدة "نوى" بعد أن رد الكتب المستعارة من الأوقاف، وزار مقابر شيوخه فقرأ ودعا وبكى، وزار أصحابه الأحياء وودعهم، فخرج جماعة منهم لتوديعه إلى خارج دمشق، وسألوه متى الاجتماع؟ فقال: علم ذلك عند الله تعالى.

وبعد أن زار والده، زار بيت المقدس، وقبر الخليل إبراهيم عليه السلام، ثم عاد إلى بلدته "نوى" فمرض بها، ولحق بربه في ليلة الأربعاء، ليلة أربع وعشرين من شهر رجب سنة ٦٧٦هـ.

وخرج الآلاف من سكان بلدته، ومن سكان دمشق لتوديعه وللصلاة عليه، وللدعاء له رحمه الله.

نسأل الله تعالى أن يحشرنا جميعا في زمرة الصالحين من عباده..

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين....

كتبه

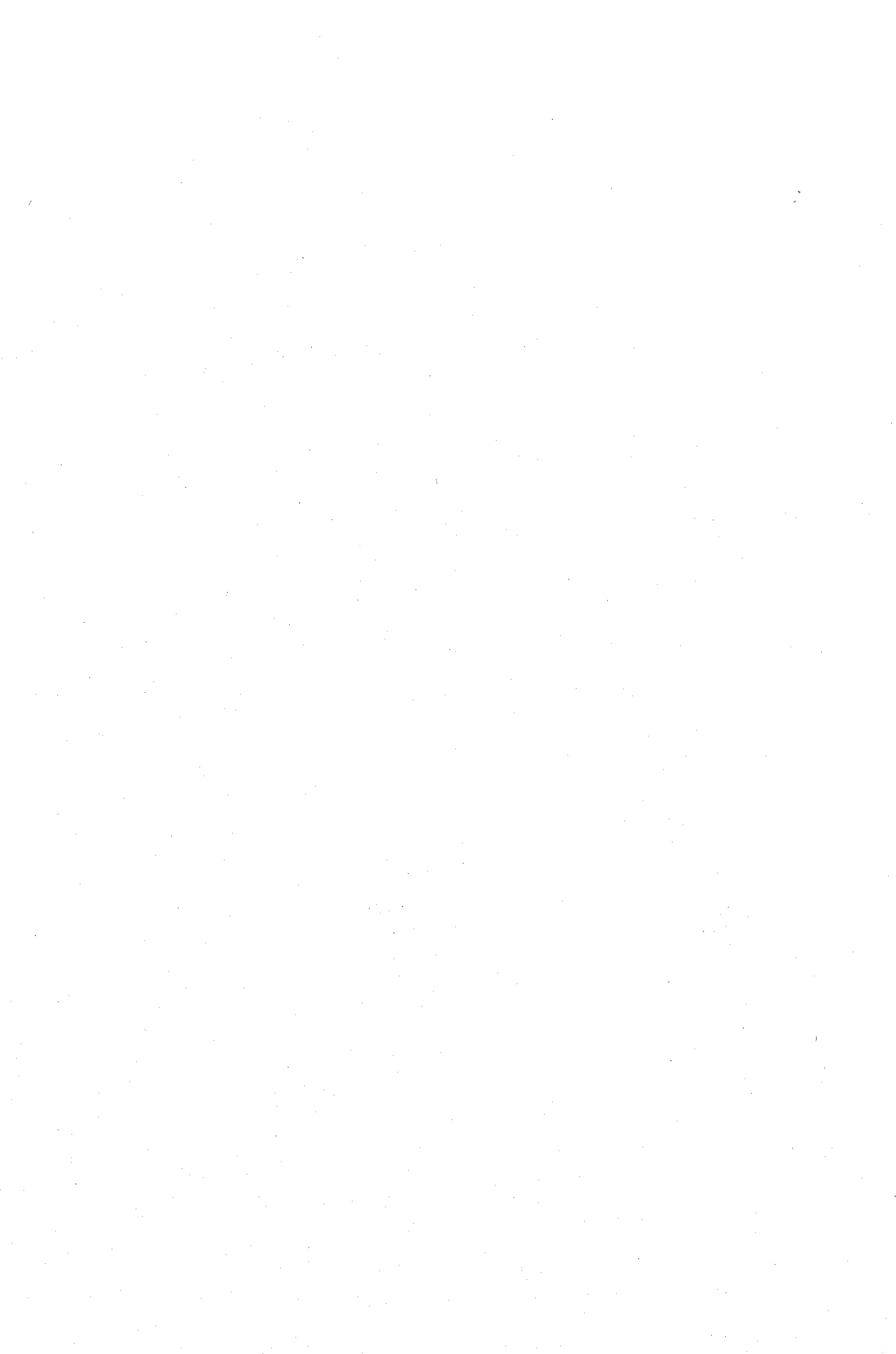
شيخ الأزهر

أ. د. محمد سيد طنطاوي



مقدمة رئيس الفريق العلمي

أ. د. حمد بن ناصر بن عبدالرحمن العمار



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة رئيس الفريق العلمي

أ. د. حمد بن ناصر بن عبدالرحمن العمار

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.. اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا.. إنك أنت العليم الحكيم وبعد:

فإن من أشرف ما يُعنى به خدمة السنة النبوية المطهرة، المصدر الثاني بعد القرآن الكريم لأن العناية بسنة سيد المرسلين ﷺ أمانة في أعناق العلماء العاملين، وما ذاك إلا بنشر سنته وحفظها وشرحها والعمل بها، ولذا فقد عُني السلف الصالح والعلماء المخلصون بخدمة السنة النبوية، فقاموا بتقديم الخدمات الجليلة والمتنوعة التي عنيت بتنقيحها والحكم عليها، وتصنيفها في كتب الصحاح، والجوامع، والسنن، والمسانيد وغيرها من الكتب النافعة والعظيمة التي صنّفها العلماء في السنة النبوية، حيث توارثت الأمة الإسلامية ممثلة في علمائها المختصين مسؤولية العناية بسنة النبي ﷺ، لأن العناية بسنة النبي ﷺ كانت من أبرز الغايات التي سعى إليها العلماء في كل عصر، مما أدى إلى حفظ السنة وتدوينها وتنقيحها وتصنيفها وتوثيقها.

لقد قام علماء الأمة في مختلف العصور بخدمة دين الأمة وتراثها لقول رسول الله ﷺ: ((العلماء ورثة الأنبياء))، وكان من هؤلاء العلماء الأفذاذ الإمام العلامة الحافظ: أبو زكريا يحيى بن شرف النووي الدمشقي رحمه الله وهو من علماء القرن السابع الهجري، حيث أدلى بدلوه في العناية بالسنة النبوية تصنيفًا، وشرحًا، وتنقيحًا وحفظًا، فألّف عددًا من الكتب النافعة التي كتب الله تعالى لها القبول، وشرح لها الصدور، فأقبل الناس على اقتنائها ودراستها وفهمها، والإفادة منها في مشارق الأرض ومغاربها، ومن أنفع وأبرز هذه الكتب التي صنّفها الإمام النووي رحمه الله، كتاب:

(رياض الصالحين) هذا الكتاب النافع في بابه، حيث انتُقيت أحاديثه من صحاح السنة والمسانيد، وقد قال الإمام النووي عن كتابه (رياض الصالحين): "فرأيت أن أجمع مختصرًا من الأحاديث الصحيحة، مشتملاً على ما يكون طريقًا لصاحبه إلى الآخرة، ومحصلاً لآدابه الباطنة والظاهرة، جامعًا للترغيب والترهيب، وسائر أنواع آداب السالكين: من أحاديث الزهد، ورياضات النفوس، وتهذيب الأخلاق، وطهارات القلوب وعلاجها، وصيانة الجوارح وإزالة اعوجاجها، وغير ذلك من مقاصد العارفين.

وألتزم فيه أن لا أذكر إلا حديثا صحيحًا من الواضحات، مضافًا إلى الكتب الصحيحة المشهورات، وأُصدِّر الأبواب من القرآن العزيز بآيات كريمات، وأُوشِّح ما يحتاج إلى ضبط أو شرح معنى خفي بنفائس من التنبيهات. وإذا قلت في آخر حديث: مُتفق عليه، فمعناه: رواه البخاري ومسلم.

وأرجو إن تم هذا الكتاب أن يكون سائقًا للمُعتَنِي به إلى الخيرات، حاجزًا له عن أنواع القبائح والمهلكات. وأنا سائل أخا انتفع بشيء منه أن يدعو لي، ولوالدي، ومشايخي، وسائر أحبابنا والمسلمين أجمعين وعلى الله الكريم اعتمادي، وإليه تفويضي واستنادي، وحسبي الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم"[(١)].

إن كتاب **(رياض الصالحين)** من أجل وأنفع ما صنّفه الإمام النووي رحمه الله، لأنه تضمّن نفحات نبوية عبقة الشذى، فواحة الأريج، تهذب الروح وتسمو بها، وتُولّد فيها حافزًا قويًا على التحلي بما خلقت له من العبادة، وتصل بها إلى ما فيه إسعادها وصلاح أمرها، وذلك لما اشتمل عليه من ترغيب وترهيب، إنه كتاب تربوي فذّ، تناول مختلف جوانب الحياة الفردية والاجتماعية بأسلوب واضح، يدرك مرماه الخاص العام، ذلك لأنه لغة أفصح الخلق الذي تنزل القرآن على قلبه ليكون للعالمين بشيرًا ونذيرًا[(٢)].

---

(١) مقدمة رياض الصالحين للإمام النووي.

(٢) انظر: رياض الصالحين للإمام النووي، تحقيق وتخريج: عبدالعزيز رباح، أحمد يوسف الدقاق، مراجعة: شعيب الأرناؤوط ص ٣، ط - ١١ دار عالم الكتب، الرياض: ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

لقد حرص الإمام النووي رحمه الله على جمع كل ما يدل الناس على تحقيق السعادة في الدنيا والآخرة، من خلال ما أورده من الأحاديث النبوية في كتابه الماتع (**رياض الصالحين**) فهو كتاب تربية ودعوة وآداب وأخلاق، وترغيب وترهيب، وبيان لمحاسن الإسلام وسماحته، ودعوة لكل مسلم ومسلمة للتخلق بالأخلاق الفاضلة.

وقد أحسن الإمام النووي صُنعًا في ترتيب وتبويب كتابه (**رياض الصالحين**) حيث قسَّمه إلى كتب وأبواب.

إن مما امتاز به كتاب (**رياض الصالحين**): حسن الانتقاء، وجودة الاختيار، وجمال الترتيب، وروعة التراجم، واقتصاره فيه على ذكر الأحاديث الصحيحة والحسنة من الكتب المعتمدة، بحذف الأسانيد اختصارًا مع عزوها إلى مخرجيها من أصحاب الكتب المعتمدة، فكان لبابًا لذوي الألباب، ونفعاً للعامة والخاصة، وأتاح نشر السنة الصحيحة، فكان لما فيه من إخلاص النية، وحسن القصد وجمال النفع من أنفع كتب السنة وأيسرها تناولاً وبحثًا وترتيبًا وتنسيقًا[1].

ونظرًا للمكانة السامقة التي حظي بها كتاب (**رياض الصالحين**) بين الكتب المصنفة في السنة النبوية فقد حظي باهتمام وعناية أهل العلم، فقد شُرح كتاب رياض الصالحين من خلال الكتب التالية:

- (دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين)، تأليف: محمد بن علان الصديقي الشافعي المكي، المتوفى سنة (١٠٥٧هـ)، (أربع مجلدات) ويُعّدُ من أقدم الشروح وأوسعها، وقد طبع سنة ١٩٢٨م.
- (نزهة المتقين شرح رياض الصالحين)، تأليف: د. مصطفى سعيد الخن، د. مصطفى البُغا، محيي الدين مستو، على الشربجي، محمد أمين لطفي (مجلدان).
- (منهل الواردين شرح رياض الصالحين)، تأليف: د. صبحي الصالح (مجلد).

---

(١) انظر: شرح رياض الصالحين، د. الحسيني عبدال يد هاشم ص ٩.

- (دليل الراغبين إلى رياض الصالحين)، تأليف: د. فاروق حمادة (مجلد).
- (بهجة الناظرين شرح رياض الصالحين)، تأليف: سليم بن عيد الهلالي (ثلاث مجلدات).
- (شرح رياض الصالحين)، تأليف: د. الحسيني عبدالمجيد هاشم (مجلد).
- (شرح رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين)، شرحه وأملاه: الشيخ العلامة محمد بن صالح العثيمين (أربع مجلدات).
- (تطريز رياض الصالحين)، تأليف فيصل بن عبدالعزيز آل مبارك (مجلد).

لقد أحسن هؤلاء العلماء صنعًا في سبقهم إلى شرح (رياض الصالحين) وقد أفدنا من جهودهم، ويحسن بنا في هذه المقدمة أن نشير إشارة سريعة إلى هذه الشروح التي ذكرناها، حتى يكون القارئ على بصيرة بالشروح التي سُبقنا بها إلى كتاب رياض الصالحين، ففيما يتعلق بشرح ابن علان الموسوم بـ (دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين) فهو من أقدم الشروح وأوسعها، إلا أن هذا الشرح لم يتناول الشرح الدعوي ولا التربوي ولا الأدبي الذي تناولناه وركزنا عليه في موسوعة (**كنوز رياض الصالحين**).

أما كتاب (نزهة المتقين شرح رياض الصالحين)، تأليف د. مصطفى الخن وآخرين فقد جاء هذا الكتاب في جزءين، حيث قام المؤلفون بعزو الآيات وتخريج الأحاديث، وبيان معاني المفردات اللغوية في الأحاديث وذكر بعض الفوائد الموجزة في نهاية كل حديث من أحاديث الكتاب.

أما كتاب (منهل الواردين شرح رياض الصالحين)، د. صبحي الصالح، وكتاب (دليل الراغبين إلى رياض الصالحين) د. فاروق حمادة، فهما من الشروح المعاصرة المختصرة.

أما (شرح رياض الصالحين)، شرح وتحقيق: د. الحسيني عبدالمجيد هاشم، فقد بيّن المؤلف معاني المفردات، وذكر بعض الفوائد الموجزة في كل حديث مع ذكر ما يؤخذ منه بشكل مختصر.

أما كتاب (بهجة الناظرين شرح رياض الصالحين) للشيخ سليم بن عيد الهلالي فهو

من الشروح المفيدة في بابها، حيث قام بتحقيق نص الأحاديث وتوثيقها من مظانها في كتب السنة، وشرح غريب الحديث، وبيان موجز بشكل مختصر لفقة الحديث، ثم ذكر فوائدة موجزة في الأحاديث الواردة في رياض الصالحين.

أما كتاب (شرح رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين)، شرح وإملاء: الشيخ العلامة محمد بن صالح العثيمين رحمه الله، حيث قام بتحقيق وتخريج أحاديثه عدد من المختصين في عدد من الطبعات وهو من أفضل الشروح لكتاب (رياض الصالحين) حيث قام الشيخ رحمه الله بشرح واضح وميسر وموجز لمعاني أحاديث رياض الصالحين، وذكر الفوائد العظيمة المستنبطة من الأحاديث النبوية، وقد أفدنا في موسوعة (كنوز رياض الصالحين) مما ذكره العلامة ابن عثيمين رحمه الله في شرحه لرياض الصالحين.

أما كتاب (تطريز رياض الصالحين) تأليف الشيخ: فيصل بن عبدالعزيز آل مبارك، فقد قام المؤلف بذكر فائدة إجمالية في نهاية كل حديث بشكل مختصر للغاية.

وبعد.. فهذا توصيف موجز ومركز للخدمات العلمية التي قُدِّمت لكتاب (رياض الصالحين) للإمام النووي رحمه الله، رأينا مناسبة ذكرها وشكرها لمن قاموا بها من العلماء الذين قدموا نوعًا من الخدمة العلمية التي أفدنا منها ونسأل الله تعالى أن يجزل مثوبة من قاموا بها.

ولما كان كتاب (رياض الصالحين) ذائع الصيت، واسع الانتشار، لا يكاد يخلو منه بيت، أو مكتبة، أو مسجد، أو مركز ثقافي، حيث جعل الله تعالى لهذا الكتاب قبولاً في نفوس الناس، ولما كانت الحاجة إلى الإفادة من الأحاديث النبوية الواردة فيه ملحة وقائمة بين العامة والخاصة، حيث إن الشروح التي أشرنا إليها لم تسدّ حاجة الناس، ورغبتهم في الإفادة من دُرر ومكنونات هذا الكتاب القيّم، فإننا استعنا بالله تعالى وتوكلنا عليه، وقصدنا إلى استخراج (كنوز رياض الصالحين) لنُجلّيها للعامة والخاصة، وللناس كافة في أصقاع الدنيا، وذلك بأسلوب علمي رصين يتيمز بالسهولة واليسر، وحرصنا في استجلاء كنوز رياض الصالحين على ربط الناس بكتاب الله

عز وجل وسنة رسوله ﷺ بأسلوب عملي وعلمي يجمع بين الأصالة والمعاصرة، وإننا في ذلك لا ندعي شرفًا لم نصنعه بمفردنا، بل أشرنا وأشدنا بجهود من سبقونا في خدمة هذا الكتاب القيِّم، وأفدنا من جهودهم بشكل مناسب وموثق، ومع هذا فإننا بفضل الله تعالى نحسبُ أننا قدمنا خدمة علمية متميزة وميسرة تناسب العامة والخاصة، وتتواءم مع فهم وفكر وتكوين كل مسلم في سائر المجتمعات الإسلامية وغير الإسلامية، وذلك بمنهج علمي يجمع بين الأصالة والمعاصرة وتبرز من خلاله عظمة الإسلام وتميزه.

وقد راعينا في ذلك شمولية الإسلام وواقعيته وسماحته ويسره، وحسن تعامله مع الآخر، حيث ركّزنا على تلك المعاني العظيمة والمهمة من خلال نصوص الأحاديث النبوية الواردة في رياض لصالحين، حتى نُجلّي الصورة الناصعة للإسلام الذي يتميز بالوسطية والواقعية والسماحة، وينبذ كافة مظاهر العنف والتشدد والتنطع والتطرف والغلو، وغير ذلك مما لا يتفق مع الأحكام السمحة للإسلام. لقد تمت معالجة كافة هذه الأمور وغيرها - مما لا يتسع المجال لذكرها في هذه المقدمة الموجزة - في موسوعة (**كنوز رياض الصالحين**) من خلال المحاور العلمية التالية:

المحور الأول: العناية بتخريج الأحاديث النبوية والحكم عليها وبيان درجتها، ويتضح ذلك من خلال عرض منهج العمل في هذا المحور:

منهج العمل في تخريج الكتاب [١]

للكلام عن هذا الموضوع لا بدَّ أن نشير إلى ثلاث نقاط مهمة، وهي:

النقطة الأولى:

الكلام على طبعات الكتاب:

طُبع كتاب رياض الصالحين لأوَّل مرّة كما في «معجم المطبوعات العربية»[٢]

---

(١) بقلم الشيخ - نظر محمد شاه الفريابي، رئيس لجنة المحور الحديثي في موسوعة (كنوز رياض الصالحين).

(٢) (٢ - ١٨٧٨) ط، دار صادر.

في المطبعة الأميرية، القاهرة، في عام (١٣٠٢هـ) في (٢٢٤) صفحة.

ثمَّ صدرت طبعة رضوان محمد رضوان، القاهرة، عام (١٣٧٩هـ)، مكتبة الجمهورية العربية، في (٧١١) صفحة.

هاتان الطبعتان لم أطّلع عليهما، لأعرف النسخ التي اعتمدوا عليهما في إخراج الكتاب.

ثمَّ صدرت الطبعة التي قام بإخراجها عبد العزيز رباح، وأحمد يوسف الدَّقاق، عام (١٣٩٦هـ) دار المأمون للتراث، في (٦١١) صفحة.

وقد اعتمدا في إخراج الكتاب على نسختين خطيتين مصورتين عن المكتبة الظاهرية بدمشق.

والطبعات التي توالت بعدها ترجع كلها أو في معظمها إلى هذه الطبعات التي وصفناها، ونشير باختصار إلى الطبعتين اللّتين اشتهرتا فيما بعد بين طلاب العلم:

الأولى: طبعة المكتب الإسلامي مع تعليقات الشيخ ناصرالدين الألباني، هي الطبعة التي قام بإخراجها الشيخ رضوان محمد رضوان، كما جاءت في مقدمة الكتاب، باعتراف زهير الشاويش المشرف على إخراج الكتاب، ولم يُعتمد في هذه الطبعة على أي نسخة من النسخ الخطية للكتاب.

الثانية: طبعة مؤسسة الرسالة والتي قام بإخراجها الشيخ شعيب الأرناؤوط، هي الطبعة التي قام بإخراجها عبد العزيز الرباح، وأحمد يوسف الدقاق، نفسها وصور النسخ التي وضعت في أول الكتاب، هما النسختان اللتان اعتمد عليهما عبد العزيز الرّباح، وأحمد يوسف الدقاق.

وجميع الطبعات التي توالت قبلها أو بعدها والتي لم يعتمد فيها ناشروها على النسخ الخطية هي طبعات تجارية لا تمتُّ أيّ صلة بالمنهج العلمي الدقيق.

إلى أن صدرت طبعة دار المنهاج بجدة، عام (١٤٢٧هـ) في (٦٥٥) صفحة. وقد جاء في مقدمة التحقيق (ص: ١١) أنهم اعتمدوا في طبعة الكتاب على سبع نسخ خطية، ومن خلال تصفّحي للكتاب إلى (ص: ١٢٠) لم أجد ذكراً لفروق النسخ الخطية إلا مرَّة واحدة في (ص: ٨٥).

النقطة الثانية:

مصادر الإمام النووي في هذا الكتاب:

معرفة مصادر المؤلف في أي كتاب يقوم الباحث بتحقيقه ودراسته، تعتبر من أهم الركائز لهذا العمل، فتخريج الأحاديث والحكم عليها من الممكن أن يستعان بها بالحاسوب والبرامج المتوافرة بين أيدينا من دون عناء كبير، وأمّا دراسة الكتاب ومعرفة مصادره أمران يتطلبان من الباحث جهدا وعناء كبيرا، وذلك لا يحصل إلا بالتأمل الدقيق في نصوص الكتاب، والتعايش معه مدة من الزمن.

وأمًّا بخصوص هذا الكتاب فإلى كتابة هذه السطور لم أجد أحدا ممن قام بشرح الكتاب أو تخريجه أو التعليق عليه أن يكون أشار من قريب أو من بعيد إلى مصادر الإمام النووي فيه، ومن خلال عملي الدؤوب والتوقف عند كل نصٍّ من نصوص هذا الكتاب توصلتُ والحمد الله إلى معرفة ذلك، وذلك بفضل الله وتوفيقه.

الإمام النووي رحمه الله في تأليفه لهذا الكتاب بجانب اعتماده على المصادر الأساسية لهذا الكتاب، اعتمد كثيرا على المصدرين الأساسيين، هما:

١- الجمع بين الصحيحين، للحافظ محمد بن فتوح الحُميديّ (ت٤٨٨هـ).

٢- الترغيب والترهيب، للحافظ عبد العظيم بن عبد القوي المنذريّ (ت٦٥٦هـ).

وفيما يلي نورد أمثلة لذلك:

أمّا بخصوص اعتماده على كتاب الجمع بين الصحيحين للحميدي، فليس غريبا إذ معظم من جاء بعده من العلماء كانوا يعتمدون في حفظ أحاديث الصحيحين على هذا الكتاب حيث رتّبه الحميدي على مسانيد الصحابة، ثمّ يذكر في مسند كلّ صحابي ما اتفقا عليه من الأحاديث، ثمّ ما انفرد به البخاري، ثمّ ما انفرد به مسلم، وهذه طريقة سهلة لمن يريد أن يحفظ أحاديث الصحيحين.

المثال الأول:

رياض الصالحين	الجمع بين الصحيحين للحميدي
٤٢[٣]- وعن أَبي بكرة نُفَيع بن الحارث ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: ((**ألا أُنَبِّئُكُمْ بأَكْبَرِ الكَبَائِرِ؟**)) - ثلاثاً - قُلْنَا: بَلَى، يَا رَسُول الله، قَالَ: ((**الإشْرَاكُ بالله، وَعُقُوقُ الوَالِدَيْنِ**))، وكان مُتَّكِئاً فَجَلَسَ، فَقَالَ: ((**ألاَ وَقَوْلُ الزُّورِ وَشَهَادَةُ الزُّورِ**)) فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّى قُلْنَا: لَيْتَهُ سَكَتَ. مُتَّفَقٌ عَلَيهِ.	٥٨٠[٥]- وعن أَبي بكرة نُفَيع بن الحارث ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: ((**ألا أُنَبِّئُكُمْ بأَكْبَرِ الكَبَائِرِ؟**)) - ثلاثاً - قُلْنَا: بَلَى، يَا رَسُول الله، قَالَ: ((**الإشْرَاكُ بالله، وَعُقُوقُ الوَالِدَيْنِ**))، وكان مُتَّكِئاً فَجَلَسَ، فَقَالَ: ((**ألاَ وَقَوْلُ الزُّورِ وَشَهَادَةُ الزُّورِ**)) فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّى قُلْنَا: لَيْتَهُ سَكَتَ. مُتَّفَقٌ عَلَيهِ.

الحديث أخرجه البخاري وأطرافه (٢٦٥٤، ٥٩٧٦، ٦٢٧٣، ٦٢٧٤، ٦٩١٩)، ومسلم (١٤٣ - ٨٧) والسِّياق للحميدي في جمعه (١ - ٣٦٤، رقم ٥٨٠).

المثال الثاني:

رياض الصالحين	الجمع بين الصحيحين للحميدي
٢٢٣- وعن أبي موسى قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**مَن مَرَّ فِي شَيْءٍ مِنْ مَسَاجِدِنَا، أَوْ أَسْوَاقِنَا، ومَعَه نَبْلٌ فَلْيُمْسِك، أَوْ لِيَقْبِضْ عَلَى نِصالِهَا بِكفِّهِ أَنْ يُصِيب أَحَداً مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِنْهَا بِشَيْءٍ**» متفق عليه.	٢٢٣- وعنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**مَن مَرَّ فِي شَيْءٍ مِنْ مَسَاجِدِنَا، أَوْ أَسْوَاقِنَا، ومَعَه نَبْلٌ فَلْيُمْسِك، أَوْ لِيَقْبِضْ عَلَى نِصالِهَا بِكفِّهِ أَنْ يُصِيب أَحَداً مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِنْهَا بِشَيْءٍ**» متفق عليه.

الحديث أخرجه البخاري وطرفاه (٤٥٢، و ٧٠٧٥)، ومسلم (١٢٣ - ٢٦١٥)، والسياق للحميدي في جمعه (١ - ٣٠١، رقم ٤٣٩).

المثال الثالث:

رياض الصالحين	الجمع بين الصحيحين للحميدي
٢٦[٣]- وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، قَالَ: أقبلَ رَجُلٌ إِلَى نَبيِّ الله صلى الله عليه وسلم، فقَالَ: أُبَايِعُكَ عَلَى الهِجْرَةِ وَالجِهَادِ أَبْتَغي الأَجْرَ مِنَ الله تَعَالَى. قَالَ: ((**فَهَلْ مِنْ وَالِدَيْكَ أحَدٌ حَيٌّ؟**)) قَالَ: نَعَمْ، بَلْ كِلاهُمَا. قَالَ: ((**فَتَبْتَغي الأَجْرَ مِنَ الله تَعَالَى؟**)) قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: ((**فارْجِعْ إِلَى وَالِدَيْكَ، فَأحْسِنْ صُحْبَتَهُمَا**)) مُتَّفَقٌ عَلَيهِ، وهذا لَفْظُ مسلِم. وفي رواية لَهُمَا: جَاءَ رَجُلٌفَاسْتَأذَنَهُ في الجِهَادِ، فقَالَ: ((**أحَيٌّ وَالِداكَ؟**)) قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: ((**فَفيهِمَا فَجَاهِدْ**)).	٢٩٣٤[٣]- وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، قَالَ: أقبلَ رَجُلٌ إِلَى نَبيِّ الله صلى الله عليه وسلم، فقَالَ: أُبَايِعُكَ عَلَى الهِجْرَةِ وَالجِهَادِ أَبْتَغي الأَجْرَ مِنَ الله تَعَالَى. قَالَ: ((**فَهَلْ مِنْ وَالِدَيْكَ أحَدٌ حَيٌّ؟**)) قَالَ: نَعَمْ، بَلْ كِلاهُمَا. قَالَ: ((**فَتَبْتَغي الأَجْرَ مِنَ الله تَعَالَى؟**)) قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: ((**فارْجِعْ إِلَى وَالِدَيْكَ، فَأحْسِنْ صُحْبَتَهُمَا**)) مُتَّفَقٌ عَلَيهِ، وهذا لَفْظُ مسلِم. وفي رواية لَهُمَا: جَاءَ رَجُلٌ فَاسْتَأذَنَهُ في الجِهَادِ، فقَالَ: ((**أحَيٌّ وَالِداكَ؟**)) قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: ((**فَفيهِمَا فَجَاهِدْ**)).

هذا الحديث بهذا السياق أورده الحميدي في جمعه (٣ - ٤٣٤، رقم ٢٩٣٤) أولاً بلفظ المتفق عليه، والذي ذكره المؤلف ثانيًا، ثمّ أورد ما تفرد به مسلم من حديث ناعم مولى أم سلمة، ولم يذكر البخاري، وهو الصواب. والنووي بعد أن تصرف في ترتيب الحديث ظنَّ أن اللفظين متفق عليهما.

والحديث أخرجه البخاري وطرفاه (٣٠٠٤، وو٥٩٧٢)، واللفظ الأول عند مسلم

بعد حديث (٦ - ٢٥٤٩ بدون رقم)، واللفظ الثاني برقم (٥ - ٢٥٤٩).

في اللفظ المتفق عليه عندهما زيادة: (إلى النبي ﷺ) بعد قوله: (جاء رجل) ولم يوردها الحميدي في جمعه فتبعه المؤلف عليه.

مثال لمتابعة الإمام النووي للحميدي في جمعه في تجزئته للأحاديث:

رياض الصالحين	الجمع بين الصحيحين للحميدي
٣٣٣- وعن أَبي ذرّ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: ((**إنَّكُمْ سَتَفْتَحُونَ أرْضاً يُذْكَرُ فِيهَا القِيرَاطُ**)) [١]. ((وفي روايةٍ: ((**سَتَفْتَحونَ مِصْرَ وَهِيَ أرْضٌ يُسَمَّى فِيهَا القِيراطُ**))[٢]، **فَاسْتَوْصُوا بأهْلِهَا خَيْراً؛ فَإنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَحِماً**)) [٣]. وفي روايةٍ: ((**فإذا افتتحتموها، فأحسنوا إلى أهلها؛ فإن لهم ذمة ورحماً**))، أَوْ قَالَ: ((**ذِمَّةً وصِهْراً**)) [٤] رواه مسلم.	٣٨٦- - وعن أَبي ذرّ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: ((**إنَّكُمْ سَتَفْتَحُونَ أرْضاً يُذْكَرُ فِيهَا القِيرَاطُ**)). ((وفي الرواية الأخرى: ((**سَتَفْتَحونَ مِصْرَ وَهِيَ أرْضٌ يُسَمَّى فِيهَا القِيراطُ**))، **فَاسْتَوْصُوا بأهْلِهَا خَيْراً؛ فَإنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَحِماً**)). وفي الرواية الأخرى: ((**فإذا افتتحتموها، فأحسنوا إلى أهلها؛ فإن لهم ذمة ورحماً**))، أَوْ قَالَ: ((**ذِمَّةً وصِهْراً**)) رواه مسلم.

تنبيه: هذا الحديث بهذا السياق وبهذه التجزئة للحميدي في جمعه (١ - ٢٧٦، رقم ٣٨٦) وتبعه المؤلف عليه.

---

(١) مسلم (٢٢٦ - ٢٤٥٣).

(٢) مسلم (٢٢٧ - ٢٥٤٣).

(٣) مسلم (٢٢٦ - ٢٥٤٣).

(٤) مسلم (٢٢٧ - ٢٥٤٣) وزاد: ((فإذا رأيت رجلين يختصمان فيها في موضع لبنة، فاخرج منها)).

مثال لمتابعة الإمام النوويِّ الحميديَّ في جمعه لعزوه بعض الأحاديث إلى الصحيحين، وقد تفرد أحدهما بإخراجه.

رياض الصالحين	الجمع بين الصحيحين للحميدي
٢٥٣- وعن أَبي العباسِ سهلِ بنِ سعدٍ الساعِديِّ رضي الله عنه قال: مرَّ رجُلٌ على النَبيِّ صلى الله عليه وسلم فقالَ لرجُلٍ عِنْدهُ جالسٍ: « **ما رَأيُكَ في هَذَا** ؟ » فقال: رَجُلٌ مِنْ أَشْرافِ النَّاسِ هذا وَاللَّهِ حَريٌّ إنْ خَطَب أَنْ يُنْكَحَ وَإِنْ شَفَع أَنْ يُشفَّعَ. فَسَكَتَ رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم ، ثُمَّ مَرَّ رَجُلٌ آخرُ، فقال له رسولُ اللَّه صلى الله عليه وسلم : « **مَا رأيُكَ في هَذَا** ؟» فقال: يا رسولَ اللَّه هذا رَجُلٌ مِنْ فُقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ، هذَا حريٌّ إنْ خطَب أَنْ لا يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَع أَنْ لا يُشفَّعَ، وَإِنْ قَالَ أَنْ لا يُسْمع لِقَوْلِهِ. فقال رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم : « **هَذَا خَيْرٌ مِنْ مِلءِ الأَرْضِ مِثْلَ هذَا** » متفقٌ عليه.	٩١٥- وعن أَبي العباسِ سهلِ بنِ سعدٍ الساعِديِّ رضي الله عنه قال: مرَّ رجُلٌ على النَبيِّ صلى الله عليه وسلم فقالَ لرجُلٍ عِنْدهُ جالسٍ: « **ما رَأيُكَ فِي هَذَا** ؟ » فقال: رَجُلٌ مِنْ أَشْرافِ النَّاسِ هذا وَاللَّهِ حَريٌّ إنْ خَطَب أَنْ يُنْكَحَ وَإِنْ شَفَع أَنْ يُشفَّعَ. فَسَكَتَ رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم ، ثُمَّ مَرَّ رَجُلٌ آخرُ، فقال له رسولُ اللَّه صلى الله عليه وسلم : « **مَا رأيُكَ فِي هَذَا** ؟ » فقال: يا رسولَ اللَّه هذا رَجُلٌ مِنْ فُقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ، هذَا حريٌّ إنْ خطَب أَنْ لا يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَع أَنْ لا يُشفَّعَ، وَإِنْ قَالَ أَنْ لا يُسْمع لِقَوْلِهِ. فقال رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم : « **هَذَا خَيْرٌ مِنْ مِلءِ الأَرْضِ مِثْلَ هذَا** » متفقٌ عليه.

هذا الحديث أخرجه البخاري برقم (٦٤٤٧) ولم يخرجه مسلم، وهو من أفراد البخاري.

تبع النوويُّ فيه الحميديَّ في جمعه (١ - ٥٥٣، رقم ٩١٥) حيث ذكر هذا الحديث في المتفق عليه، وقال في آخره: ذكره أبو مسعود في المتفق عليه.

والحديث من إفراد البخاريِّ، ولم يعزه المزي في تحفة الأشراف (٤ - ١١٤، رقم ٤٧٢٠) إلا إلى البخاري.

وقال الحافظ ابن حجر في النكت الظراف: قال الحميدي: ذكره أبو مسعود في المتفق، ولم أجده في: (م) انتهى.

وذكره ابن الجوزي في المتفق (٣ - ٣٢١، رقم ٢٤٣١)، وأهمل التنبيه الذي ذكره الحميدي، وذكره في إفراد (خ) خلف، والطرقي وغيرهما، وهو الصواب.

وتبع الحميدي أيضًا ابن الأثير في جامع الأصول (٩ - ٢٣٠) فعزاه للبخاري ومسلم.

مثال على إسقاط الحميدي شطرا من الحديث، وتبعه عليه الإمام النوويّ:

رياض الصالحين	الجمع بين الصحيحين للحميدي
٥٣٣- وعن أَبي عبدِ الرحمن عوف بن مالِك الأَشْجَعِيِّ ﷺ، قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رسول الله ﷺ تِسْعَةً أَوْ ثَمَانِيَةً أَوْ سَبْعَةً، فَقَالَ: ((**أَلاَ تُبَايِعُونَ رسولَ الله** ﷺ)) وَكُنَّا حَدِيثِي عَهْدٍ بِبَيْعَةٍ، فَقُلْنَا: قَدْ بَايَعْنَاكَ يَا رسولَ اللهِ، ثُمَّ قَالَ: ((**أَلا تُبَايِعُونَ رسولَ اللهِ**)) فَبَسَطْنا أيْدينا، وقلنا: قدْ بايعناكَ فَعَلامَ نُبَايِعُكَ؟ قَالَ: ((**عَلَى أنْ تَعبُدُوا اللهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً، وَالصَّلَوَاتِ الخَمْسِ وَتُطِيعُوا الله**)) وأَسَرَّ كَلِمَةً خَفِيفَةً ((**وَلاَ تَسْأَلُوا النَّاسَ شَيْئاً**)) فَلَقَدْ رَأَيْتُ بَعْضَ أُولئِكَ النَّفَرِ يَسْقُطُ سَوطُ أحَدِهِمْ فَمَا يَسأَلُ أحَداً يُنَاوِلُهُ إيّاهُ. رواه مسلم.	٢٩٧٢- وعن أَبي عبدِ الرحمن عوف بن مالِك الأَشْجَعِيِّ ﷺ، قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رسول الله ﷺ تِسْعَةً أَوْ ثَمَانِيَةً أَوْ سَبْعَةً، فَقَالَ: ((**أَلاَ تُبَايِعُونَ رسولَ الله** ﷺ)) وَكُنَّا حَدِيثِي عَهْدٍ بِبَيْعَةٍ، فَقُلْنَا: قَدْ بَايَعْنَاكَ يَا رسولَ اللهِ، ثُمَّ قَالَ: ((**أَلا تُبَايِعُونَ رسولَ اللهِ**)) فَبَسَطْنا أيْدينا، وقلنا: قدْ بايعناكَ فَعَلامَ نُبَايِعُكَ؟ قَالَ: ((**عَلَى أنْ تَعبُدُوا اللهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً، وَالصَّلَوَاتِ الخَمْسِ وَتُطِيعُوا الله**)) وأَسَرَّ كَلِمَةً خَفِيفَةً ((**وَلاَ تَسْأَلُوا النَّاسَ شَيْئاً**)) فَلَقَدْ رَأَيْتُ بَعْضَ أُولئِكَ النَّفَرِ يَسْقُطُ سَوطُ أحَدِهِمْ فَمَا يَسأَلُ أحَداً يُنَاوِلُهُ إيّاهُ. رواه مسلم.

هذا الحديث أخرجه مسلم (١٠٨ - ١٠٤٣) وعنده زيادة: (فقلنا: قد بايعناك يا رسول الله، ثمَّ قال: ألا تبايعون رسول الله) بعد قوله: (ألا تبايعون رسول الله)، وأسقط الحميدي هذا الشطر أو سقط من عنده، فتبعه عليه الإمام النووي، ولم يورد هذا الشطر من الحديث. كما تبعه على ذلك أيضًا المنذري في ترغيبه (١١٩٤) ولم يورده.

وأمَّا بخصوص كتاب الترغيب والترهيب للحافظ المنذري:

فكان اعتماد الإمام النووي عليه كثيرا، وعليه بنى كتابه رياض الصالحين، ولكنه انتهج منهجا آخر غير الذي انتهجه المنذري في كتابه، فقد اقتصر الإمام النووي فيه على الكتب الستة، وقليلا ما يتعرض إلى الكتب الأخرى، كما التزم فيه (أن لا يذكر إلا حديثا صحيحا من الواضحات).

ونورد فيما يلي عدّة أمثله لاعتماد الإمام النووي على هذا الكتاب، كما أنني إلتزمت بذكر الترغيب والترهيب عقب تخريج كلّ حديث إن كان فيه هذا الحديث.

المثال الأول:

رياض الصالحين	الترغيب والترهيب
١٦٩٥- وعن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: وَعَدَ رسُولَ اللهِ ﷺ جبْرِيلُ أنْ يَأتِيَهُ، فَرَاثَ عَلَيْهِ حَتَّى اشْتَدَّ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَخَرَجَ فَلَقِيَهُ جبريلُ فَشَكَا إلَيهِ، فَقَالَ: إنَّا لاَ نَدْخُلُ بَيْتاً فِيهِ كَلْبٌ وَلاَ صُورَةٌ. رواهُ البُخاريُّ.	٤٤٩٠- وعن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: وَعَدَ رسُولَ اللهِ ﷺ جبْرِيلُ أنْ يَأتِيَهُ، فَرَاثَ عَلَيْهِ حَتَّى اشْتَدَّ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَخَرَجَ فَلَقِيَهُ جبريلُ فَشَكَا إلَيهِ، فَقَالَ: إنَّا لاَ نَدْخُلُ بَيْتاً فِيهِ كَلْبٌ وَلاَ صُورَةٌ. رواهُ البُخاريُّ.

الحديث رواه البخاري وطرفاه (٣٢٢٧، ٥٩٦٠) وبهذا السياق أورده المنذري في ترغيبه (٣ - ٦٢٧، رقم ٤٤٩٠) وتبعه عليه الإمام النووي.

المثال الثاني:

الترغيب والترهيب	رياض الصالحين
٤٥٤٣- وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: واعدَ رسولَ اللهِ ﷺ، جبريلُ عليهِ السَّلامُ، في سَاعَةٍ أنْ يَأتِيَهُ، فَجَاءتْ تِلْكَ السَّاعَةُ وَلَمْ يَأتِهِ! قَالَتْ: وَكَانَ بِيَدِهِ عَصاً، فَطَرَحَهَا مِنْ يَدِهِ وَهُوَ يَقُولُ: ((**ما يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ وَلاَ رُسُلُهُ**)) ثُمَّ التَفَتَ، فَإذَا جَرْوُ كَلْبٍ تَحْتَ سَرِيرِهِ. فقال: ((**مَتَى دَخَلَ هَذَا الكَلْبُ؟**)) فَقُلْتُ: واللهِ مَا دَرَيْتُ بِهِ، فَأمَرَ بِهِ فَأُخْرِجَ، فَجَاءهُ جِبْرِيلُ عليه السلام، فقال رسُولُ اللهِ ﷺ: ((**وَعَدْتَنِي، فَجَلَسْتُ لَكَ وَلَمْ تَأتِني**)) فقالَ: مَنَعَنِي الكَلْبُ الَّذِي كانَ في بَيْتِكَ، إنَّا لاَ نَدْخُلُ بَيْتاً فِيهِ كَلْبٌ وَلاَ صُورَةٌ. رواه مسلم.	١٦٩٦- وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: واعدَ رسولَ اللهِ ﷺ، جبريلُ عليهِ السَّلامُ، في سَاعَةٍ أنْ يَأتِيَهُ، فَجَاءتْ تِلْكَ السَّاعَةُ وَلَمْ يَأتِهِ! قَالَتْ: وَكَانَ بِيَدِهِ عَصاً، فَطَرَحَهَا مِنْ يَدِهِ وَهُوَ يَقُولُ: ((**ما يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ وَلاَ رُسُلُهُ**)) ثُمَّ التَفَتَ، فَإذَا جَرْوُ كَلْبٍ تَحْتَ سَرِيرِهِ. فقال: ((**مَتَى دَخَلَ هَذَا الكَلْبُ؟**)) فَقُلْتُ: واللهِ مَا دَرَيْتُ بِهِ، فَأمَرَ بِهِ فَأُخْرِجَ، فَجَاءهُ جِبْرِيلُ عليه السلام، فقال رسُولُ اللهِ ﷺ: ((**وَعَدْتَنِي، فَجَلَسْتُ لَكَ وَلَمْ تَأتِني**)) فقالَ: مَنَعَنِي الكَلْبُ الَّذِي كانَ في بَيْتِكَ، إنَّا لاَ نَدْخُلُ بَيْتاً فِيهِ كَلْبٌ وَلاَ صُورَةٌ. رواه مسلم.

هذا الحديث أخرجه مسلم (٨١ - ٢١٠٤) وبهذا السياق للمنذري في ترغيبه (٣ - ٦٤٩، رقم ٤٥٤٣) والإمام النوويُّ تبعه عليه.

المثال الثالث:

رياض الصالحين	الترغيب والترهيب
١٦٥٥- وعن ابن مسعود ﷺ قال: لَعَنَ اللهُ الوَاشِمَاتِ والمُسْتَوشِمَاتِ وَالمُتَنَمِّصَاتِ، والمُتَفَلِّجَاتِ لِلْحُسْنِ، المُغَيِّرَاتِ خَلْقَ الله، فَقَالَتْ لَهُ امْرَأَةٌ في ذَلِكَ فَقَالَ: وَمَا لِي لاَ أَلْعَنُ مَنْ لَعَنَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَهُوَ فِي كِتَابِ اللهِ؟ قالَ اللهُ تعالى: ﴿ **وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا** ﴾ [سورة الحشر: ٧]. متفق عليه.	٣١١٣- وعن ابن مسعود ﷺ قال: لَعَنَ اللهُ الوَاشِمَاتِ والمُسْتَوشِمَاتِ وَالمُتَنَمِّصَاتِ، والمُتَفَلِّجَاتِ لِلْحُسْنِ، المُغَيِّرَاتِ خَلْقَ الله، فَقَالَتْ لَهُ امْرَأَةٌ في ذَلِكَ فَقَالَ: وَمَا لِي لاَ أَلْعَنُ مَنْ لَعَنَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَهُوَ فِي كِتَابِ اللهِ؟ قالَ اللهُ تعالى: ﴿ **وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا** ﴾ [سورة الحشر: ٧]. متفق عليه.

الحديث أخرجه البخاري وأطرافه (٤٨٨٦، ٤٨٨٧، ٥٩٣١، ٥٩٤٣، ٥٩٤٤، ٥٩٤٨)، ومسلم (١٢٠ - ٢١٢٥) والسياق للمنذري في ترغيبه (٣ - ٥٠، رقم ٣١١٣) وتبعه الإمام النوويُّ عليه.

متابعته للحافظ المنذري في اقتصاره بذكر شطر من الحديث:

رياض الصالحين	الترغيب والترهيب
١٥٣٧- وعن أَبي هريرة ﷺ: أنَّ رسُولَ الله ﷺ قَالَ: ((**كُلُّ المُسْلِمِ عَلَى المُسْلِمِ حَرَامٌ: دَمُهُ وَعِرْضُهُ وَمَالُهُ**)). رواه مسلم.	٤١٦٠- وعن أَبي هريرة ﷺ: أنَّ رسُولَ الله ﷺ قَالَ: ((**كُلُّ المُسْلِمِ عَلَى المُسْلِمِ حَرَامٌ: دَمُهُ وَعِرْضُهُ وَمَالُهُ**)). رواه مسلم.

هذا الحديث رواه مسلم (٣٢ - ٢٥٦٤) وهو الشطر الأخير من الحديث، اقتصر المنذري في ترغيبه (٣ - ٤٨٦، رقم ٤١٦٠) بذكر الشطر الأخير منه، وتبعه عليه الإمام النووي.

متابعته للأخطاء عند المنذري:

رياض الصالحين	الترغيب والترهيب
١٦١٨ـ وعنه: أنَّ النبيَّ ﷺ مَرَّ عَلَيْهِ حِمَارٌ قَدْ وُسِمَ فِي وَجْهِهِ، فَقَالَ: ((لَعَنَ اللهُ الَّذِي وَسَمَهُ)) رواه مسلم. وفي رواية لمسلم أيضاً: نهى رسول الله ﷺ عَنِ الضَّرْبِ فِي الوَجْهِ، وَعَنِ الوَسْمِ فِي الوَجْهِ.	٣٣٨٤ـ وعنه: أنَّ النبيَّ ﷺ مَرَّ عَلَيْهِ حِمَارٌ قَدْ وُسِمَ فِي وَجْهِهِ، فَقَالَ: ((لَعَنَ اللهُ الَّذِي وَسَمَهُ)) رواه مسلم. وفي رواية لمسلم أيضاً: نهى رسول الله ﷺ عَنِ الضَّرْبِ فِي الوَجْهِ، وَعَنِ الوَسْمِ فِي الوَجْهِ.

هذا الحديث أورده النووي في رياض الصالحين، بعد حديث ابن عباس، ثمَّ قال: (وعنه) وعطفه عليه يوهم أنه من حديث ابن عباس، وليس كذلك، بل هو من حديث جابر كما في مسلم (١٠٧ - ٢١١٦)، وأورده الحميدي في جمعه (٢ - ٣٩٥، رقم ١٦٦١) في مسند جابر، لكن المؤلف تبع فيه المنذري في ترغيبه (٣ - ١٧٠، رقم ٣٣٨٤) حيث قال عن ابن عباس، ثمَّ ذكره.

كما أن الرواية الثانية أيضًا من رواية جابر عند مسلم برقم (١٠٦ - ٢١١٦) وليس من حديث ابن عباس، كما وهم المنذري، وتبعه عليه النووي.

تنبيه مهم:

ذكرنا في البداية أن الإمام النووي رحمه الله اقتصر على أحاديث الصحيحين والسنن الأربعة، ونادرا يخرج عن هذا الشرط، وإذا كان المنذري يذكر مصادر أخرى مع الصحيحين، أو السنن الأربعة، يحذف الإمام النووي أي مصدر ذكر مع الصحيحين، ويكتفي بذكر الصحيحين، أو أحدهما إذا كان الحديث فيهما أو عند أحدهما، ويحذف المصدر الآخر الذي ذكره المنذري، وهذا ما أوقع الإمام النووي في إشكالات كثيرة، حيث لا يلتزم المنذري أحيانا بذكر لفظ الصحيحين عندما يذكر مصدرا أو مصادر أخرى معهما وقد يكون اللفظ لغيره، وفيما يلي أمثلة لذلك:

المثال الأول:

رياض الصالحين	الترغيب والترهيب
٩٦٢- عن ابن عمرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رسولُ الله ﷺ: ((**لَوْ أنَّ النَّاسَ يَعْلَمُونَ مِنَ الوحدَةِ مَا أعْلَمُ، مَا سَارَ رَاكِبٌ بِلَيْلٍ وَحْدَهُ!**)) رواه البخاريُّ.	٤٥٤٧- عن ابن عمرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رسولُ الله ﷺ: ((**لَوْ أنَّ النَّاسَ يَعْلَمُونَ مِنَ الوحدَةِ مَا أعْلَمُ، مَا سَارَ رَاكِبٌ بِلَيْلٍ وَحْدَهُ!**)) رواه البخاريُّ.

هذا الحديث عزاه المؤلف إلى البخاري، وهو عنده برقم (٢٩٩٨) بنحوه، نقله الإمام النووي هذا الحديث من الترغيب والترهيب (٣ - ٦٥٢، رقم ٤٥٤٧) حيث قال المنذري: (رواه البخاري، والترمذي، وابن خزيمة في صحيحه) اقتصر الإمام النووي بذكر البخاري، وحذف المصدرين الآخرين، ولم ينتبه أن هذا اللفظ لابن خزيمة في صحيحه (٢٥٦٩) فظنَّ أن اللفظ يكون للبخاري، وبحذفه المصدرين الآخرين، قد أحسن الصنعة.

المثال الثاني:

رياض الصالحين	الترغيب والترهيب
١١٣٦- عن زيد بن ثابت رضي الله عنه: أنَّ النَّبيَّ ﷺ، قَالَ: ((**صَلُّوا أيُّهَا النَّاسُ فِي بُيُوتِكُمْ، فَإنَّ أفْضَلَ الصَّلاةِ صَلاةُ المَرْءِ في بَيْتِهِ إلاَّ المَكْتُوبَةَ**)) متفقٌ عَلَيْهِ.	٦٢٣- عن زيد بن ثابت رضي الله عنه: أنَّ النَّبيَّ ﷺ، قَالَ: ((**صَلُّوا أيُّهَا النَّاسُ فِي بُيُوتِكُمْ، فَإنَّ أفْضَلَ الصَّلاةِ صَلاةُ المَرْءِ في بَيْتِهِ إلاَّ المَكْتُوبَةَ**)) متفقٌ عَلَيْهِ.

هذا الحديث أورده المنذري في ترغيبه (١ - ٣٥٦، رقم ٦٢٣) وقال: (رواه النسائي بإسناد جيد، وابن خزيمة في صحيحه).

الإمام النووي كان أدّق من المنذري وكان يستحضر ألفاظ الصحيحين، فعزاه إلى الصحيحين بدليل أن أصل هذا الحديث عندهم، ولم يتأكد من لفظهما، وهو عند البخاري برقم (٧٣١)، ومسلم (٢١٣ - ٧٨١) بنحوه ضمن حديث، واللفظ للنسائي في المجتبى (١٦٠٠).

وهذا ما جعل الناجي في عجالة الإملاء يستدرك على المنذري بقوله: رواه البخاري ومسلم وأحمد في حديث، ورواه أبو داود والترمذي والنسائي مختصرا، فلو أن المصنف اطّلع على هذا لم يبعد النجعة.

المثال الثالث:

رياض الصالحين	الترغيب والترهيب
١٥٩٩ - وعن عياضِ بن حمارٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: ((**إنَّ اللهَ تَعَالَى أوْحَى إلَيَّ أنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لا يَبْغِيَ أحَدٌ عَلَى أحَدٍ، وَلاَ يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أحَدٍ**)) رواه مسلم.	٤٢٦٥ - وعن عياضِ بن حمارٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: ((**إنَّ اللهَ تَعَالَى أوْحَى إلَيَّ أنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لا يَبْغِيَ أحَدٌ عَلَى أحَدٍ، وَلاَ يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أحَدٍ**)) رواه مسلم.

هذا الحديث أورده المنذري في ترغيبه (٣ - ٥٣٠، رقم ٤٢٦٥) وقال: (رواه مسلم، وأبو داود، وابن ماجه)، نقله الإمام النووي واكتفى على ذكر مسلم وحده، وحذف مصدرين آخرين، وهذا ما أوقعه في الإشكال، حيث لم يتأكد أن اللفظ لأبي داود برقم (٤٨٩٥)، وليس لمسلم.

تنبيه:

كما أن الإمام النووي اعتمد في كتابه على كتاب الترغيب والترهيب للحافظ المنذري في نقله للأحاديث، استفاد أيضًا من شرحه للكلمات الغريبة، وحكمه على بعض الأحاديث، وقد أشرنا إلى ذلك عقب تخريجنا للأحاديث، أو عند نقله للكلمات الغريبة، فلا حاجة للإعادة هنا.

النقطة الثالثة:

الكلام على تخريج الأحاديث والحكم عليها:

لا يخفى على القارئ البصير مكانة الإمام النووي رحمه الله ثمّ كتابه رياض الصالحين، فلا تكاد تجد طالب علم إلا وهو يقتني نسخة من هذا الكتاب.

يقول ابن علان المكيّ: لأنّه قد جمع ما يحتاج إليه السالك في سائر الأحوال، واشتمل على ما ينبغي التخلق به من الأخلاق، والتمسك به من الأقوال والأفعال، مغترفا له من عباب الكتاب، والسنة النبوية، ناقلا لتلك الجواهر من تلك المعادن السنية[1].

والإمام النوويُّ رحمه الله رغم شهرته الفقهية، كانت له مشاركات في السنة النبوية لا تقلّ عن مشاركاته الفقهية، فقد بلغت مجموع ما ألفه من الكتب في الحديث (١٠) كتب، منها شرحه على صحيح مسلم، وشرح قطعة من صحيح البخاري، وأبي دواد، كما ألّف في مصطلح الحديث كتابين مشهورين، وكتبه الثلاثة: الأربعون في مباني الإسلام، ورياض الصالحين، وخلاصة الأحكام، لخير شاهد على إمامته في هذا الفن الجليل، بلغت مجموع الأحاديث التي حكم عليها في كتابه: خلاصة الأحكام (٣٨٨٣) حديثا، وصل إلى نهاية كتاب الجنائز، وجزءا من كتاب الصيام، وتوفي قبل أن يكمله، هذا غير الأحاديث التي حكم عليها في كتبه الأخرى، مثل: رياض الصالحين، والمجموع وغيرهما.

وانتهج رحمه الله في مقدمة كتابه: أن لا يذكر إلا حديثا صحيحا من الواضحات، مضافا إلى الكتب الصحيحة المشهورات[2].

وقام الشيخ ناصرالدين الألباني بتخريج كتاب رياض الصالحين، ومجموع الأحاديث التي حكم عليها بالضعف (٦٥) حديثا، وإذا طرحنا منها المكرر وما تراجع عنها، وهي تسعة أرقام، تبقى (٥٥) حديثا، من مجموع (١٩٠٥) حديثا من كتاب رياض الصالحين، وهي نسبة (٢,٨٪) من المئة، وهو العدد نفسه في تحقيق الشيخ سليم الهلالي

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان (١ - ٢٣).

(٢) (ص: ٣٣).

لكتاب رياض الصالحين، وتقسيمه إلى الصحيح والضعيف.

وبلغت مجموع الأحاديث الضعيف في تخريج الشيخ شعيب الأرناؤوط (٤٦) حديثا، من مجموع أحاديث الكتاب.

وهذا العدد من الضعيف في كتاب رياض الصالحين، لا يخرج عن دائرة القبول فيما صنّف الكتاب من أجله، فإنه كتاب زهد ورقائق، وحثّ على المسابقة في الخيرات، فهي لم تخرج عمّا التزم به، ولو سلّم خروجها، فهي قليلة جدا بالنسبة للأحاديث الصحيحة والحسنة، فالحكم يكون إذًا على الأعمّ الأغلب. خصوصا إذا وضعنا في الاعتبار أن الحكم على الأحاديث يرجع إلى الاجتهاد، فربّما حديث يراه عالم ضعيفا، يراه الآخر غير ذلك.

يقول الشيخ شعيب الأرناؤوط: ومهما يكن من شيء، فإن وجود هذه الأحاديث الضعيفة وعددها ستة وأربعون حديثا، لا تغضُّ من قيمة هذا الكتاب العظيم، ولا تحطّ من شأنه، فإنها لا تكاد تذكر بجانب ذلك العدد الضخم من الأحاديث التي اشتمل عليها الكتاب[1].

هذا وقد رسمتُ خطة للعمل في تخريج أحاديث هذا الكتاب، اختصرها فيما يلي:

أقوم بتوثيق الحديث من المصادر التي نقل منها.

إذا كان الحديث في مصدر من هذه المصادر في مواضع متعددة كالبخاري مثلا، استغني عن ذكر أطرافه بتحديد لفظ الحديث عنده بذكر رقمه فقط.

إذا خرّج الإمام النوويُّ الحديثَ من عدّة مصادر، أقوم بعد توثيق الحديث من هذه المصادر، بتحديد لفظ الحديث الذي أورده من بين هذه المصادر، وهذا أمر شاقٌّ لم يسبقني إليه أحد ممن قام بتخريج أحاديث الكتاب.

حَكَم الإمام النوويُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ على كثير من الأحاديث التي يوردها من غير الصحيحين، وذلك لما يتبوأ من مكانة علمية ومشاركة قوية في علم الحديث، ونقل

---

(١) مقدمة رياض الصالحين (ص: ١٠) من تحقيقه.

أيضًا أحكاما من الأئمة ممن لهم مشاركة في هذا العلم، أضفتُ أحكاما لغيرهم ممن لم يذكرهم الإمام النووي أو من جاؤا بعده.

سبق أن أشرت في الدِّراسة أن الإمام النووي رحمه الله اعتمد على الجمع بين الصحيحين للحميديّ، وبنى كتابه على كتاب الترغيب والترهيب للمنذريّ، أذكر عقب تخريج الحديث إذا كان السياق للحميدي، أو أن الحديث في الترغيب والترهيب.

استفاد الإمام النوويُّ من شرح الحافظ المنذري في ترغيبه لبعض الكلمات الغريبة، أشير في الهامش إذا كان شرح هذه الكلمة الغريبة عند الحافظ المنذري.

المحور الثاني: ترجمة راوي الحديث.

المحور الثالث: شرح غريب الألفاظ.

المحور الرابع: الشرح الأدبي لكافة الأحاديث النبوية وإبراز البلاغة النبوية، وبيان الفصاحة النبوية التي أعجزت البلغاء، وإبراز النكت البلاغية في الأحاديث النبوية بأسلوب علمي مُيسّر يُبرز بلاغة النبي ﷺ في البيان والتعبير عن المعاني العظيمة التي وردت في الأحاديث النبوية، مما يُيسر عملية الفهم والاستيعاب.

المحور الخامس: الشرح الفقهي للأحاديث النبوية التي تشتمل على الأحكام الفقهية، وذلك بشكل إجمالي دون الدخول في الخلافات الفقهية، مع ذكر المصادر والمظان حتى يتيسر للقارئ التوسع في معرفتها، ومما تجدر الإشارة إليه في هذا السياق أنه ليست كل الأحاديث في كتاب (**رياض الصالحين**) مشتملة على أحكام فقهية، ومن ثم فلم تشرح تلك الأحاديث شرحًا فقهيًا لخلوها من الأحكام الفقهية، وكذلك فقد تم دمج مجموعة من الأحاديث وشرحت شرحًا فقهيًا إجماليًا سواء على مستوى الأبواب أم على مستوى مجموعة من الأحاديث.

المحور السادس: الشرح الدعوي لأحاديث رياض الصالحين، وذلك باستخراج المضامين الدعوية لكل حديث في رياض الصالحين، وقد سلكنا في ذلك منهجًا علميًا متميزًا، حيث قمنا بالتحليل الدعوي الدقيق لنصوص الأحاديث النبوية، وقد حرصنا في ذلك على ربط المضامين الدعوية بشواهد من نص الحديث، مع مراعاة الترتيب في

المضامين الدعوية من خلال التسلسل والتحليل لألفاظ الحديث حسب ورودها، دون تقديم أو تأخير مع تنزيل الشاهد من الحديث على المضمون الدعوي حتى لا يكون الكلام مرسلاً أو إنشائيًا.

وقد تم معالجة ذلك من خلال منهج علمي أصيل بأسلوب يناسب العامة والخاصة، لا سيما الدعاة إلى الله وطلاب العلم، وقد راعينا في معالجتنا للمحور الدعوي الاستشهاد بنصوص الكتاب والسنة مع عزوها وتوثيق الأحاديث النبوية والحكم عليها.

وقد تميز منهج المعالجة في المحور الدعوي بالتركيز، وعدم التعرض للتفصيلات التي يتعذر استقصاؤها بشكل مفصل نظرًا لكثرة أحاديث **(رياض الصالحين)**، لذا فإننا حرصنا كل الحرص على تقديم رؤية علمية دعوية تناسب المُعلِّم والداعية وكافة المشتغلين في حقل الدعوة أو في حقل التربية من خلال منهج علمي تميّز باليُسر والسهولة والموضوعية والإيجاز والتركيز مع بيان المصادر والمراجع التي تُيسِّر للقارئ الاستزادة والتوسع.

ولما كانت هناك أحاديث مكررة في كتاب **(رياض الصالحين)**، فإننا قمنا بذكر رقم الحديث الذي تقدم شرحه، وقمنا أيضًا بدمج أكثر من حديث مع الإشارة إلى أرقام الأحاديث التي تمّ دمجها.

المحور السابع: المحور التربوي: وقد سلكنا منهجًا علميًا متميزًا في هذا المحور، حيث تحدثنا إجمالاً عن المضامين التربوية لأحاديث كل باب، ورأينا مناسبة ذكرها في نهاية كل باب من أبواب رياض الصالحين، حتى يكون القارئ قد قرأ أحاديث الباب وتعرف على شروحها.

إن المعالجة التربوية لأحاديث الباب تمت على أساس تنزيل الشواهد من أحاديث الباب على المضامين التربوية بأسلوب علمي ميسر، يركز على ربط نصوص الأحاديث النبوية بالمضامين التربوية، بشكل يفيد العامة والخاصة في مجال التربية.

وإن مما ينبغي الإشارة إليه في هذه المقدمة العلمية أن هذه الموسوعة العلمية تميزت بالمنهجية العلمية في معالجة كافة المحاور التي اشتملت عليها، مما ساعد على إخراجها

على هـذا النحـو المتميـز الـذي أسـهم في هـذه الخدمـة العلميـة النوعيـة لكتـاب (**رياض الصالحين**) لأن كافـة الكتـب العلميـة الـتي تناولـت كتـاب (**رياض الصالحين**) - مـع قيمتها وجهد أصحابها المقدر - لم تسلك هذا المنهج العلمـي الـذي سـلكناه في موسوعة (**كنوز رياض الصالحين**) والذي أسهم في الشرح لكتاب (**رياض الصالحين**).

كما أنَّ مما تميز به هـذا الجهـد العلمـي أنـه استـكتب فيـه عـددٌ مـن علمـاء العـالم الإسلامي، ومن الباحثين والمختصين، ومن القضاة، وأساتذة الجامعات الإسلامية الذين أسهموا بدور علمي فاعل في محاور هـذه الموسوعة العلميـة الفـاخرة والموسومة بـ (**كنوز رياض الصالحين**) فقد اشترك هؤلاء العلماء من الدول التالية:

المملكة العربية السعودية، مـصر، السودان، العـراق، الأردن، اليمن، أندونيسيا، بوركينا فاسو، مالي، أوغندا، الهند، وتفصيل ذلك مـن خـلال هـذا الجـدول التفصيلي الـذي يبين محـاور العمـل العلمـي ونوعيـة المساهمة العلميـة فيـه مـن خـلال هـؤلاء العلمـاء والباحثين:



أسماء اللجان العلمية في كنوز رياض الصالحين

- **الإشراف العام:**

أ. د. حمد بن ناصر بن عبدالرحمن العمار.

المشرف العام على أعمال الموسوعة ورئيس الفريق العلمي.

- **التقديم:**

١ - معالي رئيس المجلس الأعلى للقضاء، عضو هيئة كبار العلماء ورئيس مجمع الفقه الإسلامي الدولي

الشيخ د. صالح بن عبدالله بن حميد

٢ - معالي الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي، عضو هيئة كبار العلماء

أ. د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي

٣ - معالي الرئيس العام لهيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر -سابقاً -

الشيخ - إبراهيم بن عبدالله الغيث

٤ - فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر

أ. د. محمد سيد طنطاوي

- **المقدمة:**

رئيس الفريق العلمي: أ. د. حمد بن ناصر بن عبدالرحمن العمار.

وكيل جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية لخدمة المجتمع والتعليم المستمر - سابقاً - بالسعودية.



• اللجان العلمية والفنية والباحثون:

أولاً: لجنة ضبط خطة العمل:

م	الاسم	البلد	المنصب العلمي
١	أ.د. حمد بن ناصر بن عبدالرحمن العمار	السعودية	الأستاذ بقسم الدعوة والاحتساب بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
٢	أ.د. محيي الدين عفيفي أحمد عبدالمجيد	مصر	الأستاذ بقسم الدعوة والثقافة الإسلامية بجامعة الأزهر
٣	أ.د. صالح بن حسين العايد	السعودية	الأمين العام للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية
٤	أ.د. تركي بن سهو العتيبي	السعودية	الأستاذ بكلية اللغة العربية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
٥	أ.د. أحمد بن عبدالله الباتلي	السعودية	الأستاذ بقسم السنة وعلومها بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
٦	د. عبدالعزيز بن إبراهيم الشهوان	السعودية	الأستاذ المشارك بقسم العقيدة والمذاهب المعاصرة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
٧	د. عبدالله بن وكيّل الشيخ	السعودية	الأستاذ المشارك بقسم السنة وعلومها بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
٨	د. عبدالله بن عبدالرحمن التويجري	السعودية	الأستاذ المشارك بقسم السنة وعلومها بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
٩	د. عبدالرحمن بن عبدالله الجبرين	السعودية	الأستاذ المشارك بقسم أصول الفقه بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

ثانياً: لجنة الصياغة العلمية والإخراج:

م	الاسم	البلد	المنصب العلمي
١	أ. د. حمد بن ناصر بن عبدالرحمن العمار	السعودية	الأستاذ في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
٢	أ. د. محيي الدين عفيفي أحمد عبدالمجيد	مصر	الأستاذ في جامعة الأزهر

ثالثاً: لجنة المراجعة العامة:

م	الاسم	البلد	المنصب العلمي
١	أ. د. بكر زكي عوض (رئيس اللجنة)	مصر	رئيس قسم الدعوة والثقافة الإسلامية في كلية أصول الدين بجامعة الأزهر بالقاهرة
٢	أ. د. يسري هاني	مصر	رئيس قسم الدعوة والثقافة الإسلامية في كلية أصول الدين بجامعة الأزهر بالمنصورة
٣	أ. د. مشرح علي أحمد	مصر	وكيل كلية أصول الدين بجامعة الأزهر بالمنصورة – سابقا –

رابعاً: لجنة المحور الحديثي:

م	الاسم	البلد	المنصب العلمي
١	الشيخ: نظر محمد شاه الفريابي (رئيس اللجنة)	أفغانستان	الباحث في علوم السنة النبوية
٢	الشيخ: ناصر بن حمد بن ناصر العمار	السعودية	جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

خامساً : لجنة المحور الأدبي :

م	الاسم	البلد	المنصب العلمي
١	أ. د. صابر عبدالدائم يونس (رئيس اللجنة)	مصر	عميد كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر فرع الزقازيق
٢	د. حسن عطية أحمد طاحون	مصر	الأستاذ المساعد في قسم الأدب والنقد بكلية اللغة العربية بجامعة الأزهر فرع الزقازيق
٣	أ. د. حسين علي محمد	مصر	الأستاذ في قسم الأدب والنقد بكلية اللغة العربية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
٤	أ. د. عبدالجواد محمد طبق	مصر	الأستاذ في قسم الأدب والنقد بكلية اللغة العربية بجامعة الأزهر فرع الزقازيق
٥	د. خليل أبو ذياب	فلسطين	الباحث في علوم اللغة العربية
٦	د. ناصر راضي الزهري إبراهيم	مصر	الأستاذ المساعد في قسم البلاغة بكلية اللغة العربية بجامعة الأزهر فرع أسيوط

سادساً : لجنة المحور الفقهي :

م	الاسم	البلد	المنصب العلمي
١	أ. د. عبدالقادر محمد أبو العلا عمر (رئيس اللجنة)	مصر	عميد كلية الشريعة والقانون بجامعة الأزهر – فرع أسيوط
٢	د. خالد محمد حسين إبراهيم	مصر	المدرس بقسم الفقه المقارن، بكلية الشريعة والقانون، بجامعة الأزهر – فرع أسيوط
٣	د. محمود صديق رشوان	مصر	المدرس بقسم الفقه المقارن، بكلية الشريعة والقانون، بجامعة الأزهر – فرع أسيوط
٤	د. سمير أبو المجد محمد عبدالله	مصر	المدرس بقسم الفقه المقارن، بكلية الشريعة والقانون، بجامعة الأزهر – فرع أسيوط
٥	د. عبدالرحمن محمد إبراهيم	مصر	المدرس بقسم الفقه المقارن، بكلية الشريعة والقانون، بجامعة الأزهر – فرع أسيوط
٦	د. أيمن فتحي محمد علي	مصر	المدرس بقسم الفقه المقارن، بكلية الشريعة والقانون، بجامعة الأزهر – فرع أسيوط

سابعاً : لجنة شرح الغريب :

م	الاسم	البلد	المنصب العلمي
١	د. عطية مختار عطية حسين	مصر	الباحث في مجال الدراسات الإسلامية
٢	د. إبراهيم طلبة حسين	مصر	الباحث في مجال الدراسات الإسلامية
٣	الشيخ: أحمد حسين محمد عبدالرحيم	مصر	الباحث في مجال الدراسات الإسلامية
٤	الشيخ: خالد أحمد محمد أبو العلا	مصر	الباحث في مجال الدراسات الإسلامية

ثامناً: لجنة المحور الدعوي:

م	الاسم	البلد	المنصب العلمي
١	د. محيي الدين عفيفي أحمد عبدالمجيد (رئيس اللجنة)	مصر	الأستاذ بكلية الدعوة الإسلامية بجامعة الأزهر
٢	د. عطية مختار عطية حسين	مصر	الباحث في مجال الدراسات الإسلامية
٣	د. إبراهيم طلبة حسين	مصر	الباحث في مجال الدراسات الإسلامية
٤	الشيخ: أحمد حسين محمد عبدالرحيم	مصر	الباحث في مجال الدراسات الإسلامية
٥	الشيخ: خالد أحمد محمد أبو العلا	مصر	الباحث في مجال الدراسات الإسلامية
٦	الشيخ: مصطفى عبدالمعطي سيد أحمد	مصر	الباحث في مجال الدراسات الإسلامية
٧	الشيخ: علي أحمد علي سالم فرحات	مصر	الباحث في مجال الدراسات الإسلامية
٨	الشيخ: ناصر بن حمد بن ناصر العمار	السعودية	جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

تاسعاً: لجنة المحور التربوي:

م	الاسم	البلد	المنصب العلمي
١	أ. د. مصطفى محمد أحمد رجب	مصر	عميد كلية التربية بسوهاج، جامعة جنوب الوادي - سابقا -
٢	أ. د. بكر زكي عوض	مصر	رئيس قسم الدعوة والثقافة الإسلامية في كلية أصول الدين بجامعة الأزهر بالقاهرة
٣	أ. د. محيي الدين عفيفي أحمد عبدالمجيد	مصر	الأستاذ بكلية الدعوة الإسلامية بجامعة الأزهر
٤	د. عطية مختار عطية حسين	مصر	الباحث في مجال الدراسات الإسلامية
٥	د. إبراهيم طلبة حسين	مصر	الباحث في مجال الدراسات الإسلامية
٦	الشيخ: أحمد حسين محمد عبدالرحيم	مصر	الباحث في مجال الدراسات الإسلامية
٧	الشيخ: خالد أحمد محمد أبو العلا	مصر	الباحث في مجال الدراسات الإسلامية
٨	الشيخ: مصطفى عبدالمعطي سيد أحمد هاشم	مصر	الباحث في مجال الدراسات الإسلامية

عاشراً: لجنة المراجعة اللغوية:

م	الاسم	البلد	المنصب العلمي
١	أ. مصطفى عبدالمولى محمد عطية	مصر	مجمع اللغة العربية بالقاهرة
٢	أ. حمدي ربيع رمضان فتوح	مصر	الباحث في علوم اللغة العربية

حادي عشر: لجنة الصف والإخراج الفني:

م	الاسم	البلد
١	أ. منصور بن حمد العمار	السعودية
٢	أ. عبدالعزيز عبدالماجد أحمد العالم	السودان
٣	أ. محمد حامد الأمين	السودان
٤	أ. خالد توفيق عبدالوهاب زهران	مصر

ثاني عشر: الباحثون:

م	الاسم	البلد	المنصب العلمي
١	أ. د. إبراهيم بن سليمان الهويمل	السعودية	وكيل الرئاسة العامة لهيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
٢	د. محمد بن عبدالله العيدي	السعودية	الرئاسة العامة لهيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
٣	أ. د. عبدالرحيم بن محمد المغذوي	السعودية	عضو هيئة التدريس بالجامعة الإسلامية
٤	د. خالد مرغوب محمد أمين الهندي	السعودية	عضو هيئة التدريس بالجامعة الإسلامية
٥	أ. د. سيد محمد ساداتي الشنقيطي	السعودية	عضو هيئة التدريس بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
٦	أ. د. إبراهيم بن علي آل مغيرة	السعودية	عضو هيئة التدريس بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
٧	د. عبدالله بن محمد الرشيد	السعودية	عضو هيئة التدريس بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

م	الاسم	البلد	المنصب العلمي
٨	د. عبدالله بن عبدالمحسن التويجري	السعودية	عضو هيئة التدريس بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
٩	د. خالد بن إبراهيم الرومي	السعودية	عضو هيئة التدريس بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
١٠	د. حمزة بن سليمان الطيار	السعودية	عضو هيئة التدريس بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
١١	د. عبدالله بن إبراهيم الشويمان	السعودية	عضو هيئة التدريس بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
١٢	د. محمد بن عبدالرحمن العمر	السعودية	عضو هيئة التدريس بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
١٣	د. محمد بن إبراهيم الزهراني	السعودية	عضو هيئة التدريس بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
١٤	د. محمد بن إبراهيم الرومي	السعودية	عضو هيئة التدريس بجامعة الملك سعود
١٥	د. علي بن محمد عبدالله الطالب الأمين الشنقيطي	السعودية	عضو هيئة التدريس بجامعة طيبة
١٦	د. عبدالعزيز بن عبيد النفيعي	السعودية	وزارة الداخلية
١٧	أ. د. أحمد عمر هاشم	مصر	رئيس جامعة الأزهر – سابقا –
١٨	أ. د. حسن عبدالحميد حسن	مصر	عميد كلية أصول الدين بالمنوفية بجامعة الأزهر – سابقا –
١٩	أ. د. طلعت محمد عفيفي	مصر	عميد كلية الدعوة الإسلامية بالقاهرة بجامعة الأزهر – سابقا –
٢٠	أ. د. عبدالله حسن بركات	مصر	عميد كلية الدعوة الإسلامية بالقاهرة بجامعة الأزهر – سابقا –
٢١	أ. د. أحمد ربيع أحمد يوسف	مصر	عميد كلية الدعوة الإسلامية بالقاهرة بجامعة الأزهر
٢٢	أ. د. عبدالله علي عبدالحميد سمك	مصر	رئيس قسم الأديان في كلية الدعوة الإسلامية بالقاهرة بجامعة الأزهر
٢٣	أ. د. محمود أبو الفتوح	مصر	الأستاذ في قسم الأديان في كلية الدعوة الإسلامية بالقاهرة بجامعة الأزهر
٢٤	أ. د. زكي محمد عثمان	مصر	الأستاذ في قسم الثقافة الإسلامية بكلية الدعوة الإسلامية بالقاهرة بجامعة الأزهر

م	الاسم	البلد	المنصب العلمي
٢٥	أ. د. عادل محمد درويش	مصر	الأستاذ في قسم الأديان في كلية الدعوة الإسلامية بالقاهرة بجامعة الأزهر
٢٦	أ. د. صابر أحمد طه	مصر	الأستاذ في قسم الأديان في كلية الدعوة الإسلامية بالقاهرة بجامعة الأزهر
٢٧	أ. د. علي عبدالعال ربيع	مصر	الأستاذ في قسم الأديان في كلية الدعوة الإسلامية بالقاهرة بجامعة الأزهر
٢٨	د. محمد محمود متولي	مصر	الأستاذ المساعد في قسم الثقافة الإسلامية في كلية الدعوة الإسلامية بالقاهرة بجامعة الأزهر
٢٩	د. حسن يونس عبيدو	مصر	الأستاذ المساعد في قسم الثقافة الإسلامية في كلية الدعوة الإسلامية بالقاهرة بجامعة الأزهر
٣٠	د. عبدالباسط السيد مرسي	مصر	الأستاذ المساعد في قسم الثقافة الإسلامية في كلية الدعوة الإسلامية بالقاهرة بجامعة الأزهر
٣١	د. سمير السيد محمد	مصر	الأستاذ المساعد في قسم الثقافة الإسلامية في كلية الدعوة الإسلامية بالقاهرة بجامعة الأزهر
٣٢	أ. د. حكمت بشير ياسين	العراق	عضو هيئة التدريس بالجامعة الإسلامية
٣٣	أ. د. إبراهيم فاضل الدبو	العراق	عضو هيئة التدريس بجامعة البحرين
٣٤	أ. د. يوسف محي الدين أبو هلالة	الأردن	عميد كلية العلوم التربوية بجامعة الحسين
٣٥	أ. د. محمد علي قاسم العمري	الأردن	عميد كلية الشريعة بجامعة اليرموك
٣٦	الشيخ العلامة: عبدالمجيد بن عزيز الزنداني	اليمن	رئيس جامعة الإيمان
٣٧	القاضي: يحيى بن يحيى الشبامي	اليمن	وكيل وزارة الأوقاف – سابقا –
٣٨	الشيخ: محمد بن الصادق مغلس	اليمن	القاضي بوزارة العدل
٣٩	د. حيدر بن أحمد الصافح	اليمن	نائب رئيس جامعة الإيمان

م	الاسم	البلد	المنصب العلمي
٤٠	د. صالح بن أحمد الوعيل	اليمن	عميد الدراسات العليا بجامعة الإيمان
٤١	د. أحمد بن حسان علي حسان	اليمن	عميد كلية الدعوة والإعلام بجامعة الإيمان
٤٢	الشيخ: حسن بن عبدالله يحيى النهاري	اليمن	عضو هيئة التدريس بجامعة الإيمان
٤٣	الشيخ: عادل بن حسن الدميني	اليمن	عضو هيئة التدريس بجامعة الإيمان
٤٤	الشيخ: علي بن محمد حسين الفقيه	اليمن	عضو هيئة التدريس بجامعة الإيمان
٤٥	الشيخ: خالد محمد حمود العربة	اليمن	عضو هيئة التدريس بجامعة الإيمان
٤٦	معالي د. محمد هداية نور واحد	أندونيسيا	رئيس مجلس الشورى
٤٧	أ. د. سليمان عثمان محمد تولا	السودان	مدير جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية
٤٨	أ.د. إبراهيم علي محمد	السودان	عميد معهد بحوث ودراسات العالم الإسلامي بجامعة أم درمان الإسلامية
٤٩	أ. د. مهدي رزق الله أحمد	السودان	عضو هيئة التدريس بجامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية
٥٠	د. ربيع بن محمد القمر الحاج	السودان	الندوة العالمية للشباب الإسلامي
٥١	د. بله الحسن عمر مساعد	السودان	الباحث في مجال الدراسات الإسلامية
٥٢	د. تراوري مامادو	بوركينا فاسو	الباحث في مجال الدراسات الإسلامية
٥٣	د. هارون المهدي ميغا	مالي	عضو هيئة التدريس بالجامعة الإسلامية بالنيجر
٥٤	د. ساموكا داود سوماورو	ليبيريا	عضو هيئة التدريس بالجامعة الإسلامية بالنيجر
٥٥	د. حسين محمد بوا	أوغندا	عميد كلية الدراسات الإسلامية واللغة العربية بالجامعة الإسلامية
٥٦	د. شعيب محمود سويمبا	أوغندا	الباحث في مجال الدراسات الإسلامية
٥٧	د. محمد بن عبدالله العروسي	أثيوبيا	عضو هيئة التدريس بمعهد الأئمة والدعاة برابطة العالم الإسلامي
٥٨	د. محمد مرتضى بن عائش	الهند	الباحث في مجال الدراسات الإسلامية

ولولا فضل الله تعالى ومنّته وكرمه وتوفيقه لصاحب السمو الملكي **الأمير - بندر بن عبدالعزيز آل سعود** - حفظه الله - حيث تحمل كافة تكاليف هذا العمل العلمي الضخم وأنفق عليه بسخاء رغبة في خدمة السنة النبوية المطهرة، وتقديم العلم النافع ونشر العلم الشرعي، وهذا لا يستغرب من سموه حفظه الله، لأن حياته حافلة بالدعم السخي لنشر كتب العلم النافع، وقد ورث ذلك من والده **الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود** رحمه الله الذي اهتم بالعلم والعلماء وطلاب العلم.

إن صاحب السمو الملكي **الأمير - بندر بن عبدالعزيز آل سعود** حفظه الله بهذا العمل الصالح يسهم في خدمة العلم وطلابه، ولولا فضل الله تعالى ثم دعم سموه ما كان لهذا العمل العلمي أن يُنجز، فجزى الله سموه كل خير، وأجزل مثوبته، وجعل ذلك في موازين حسناته، وشكر الله له دعمه المتواصل لنشر العلم وخدمة سنة النبي ﷺ.

كتبه

أ.د. حمد بن ناصر بن عبدالرحمن العمار

رئيس الفريق العلمي





مقدمة الإمام النووي رحمه الله



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الإمام النووي رحمه الله

الحمْدُ للهِ الواحدِ القَهَّارِ، العَزيزِ الغَفَّارِ، مُكَوِّرِ اللَّيْلِ على النَّهارِ، تَذْكِرَةً لأُولي القُلُوبِ والأَبصَارِ، وتَبْصرةً لِذَوي الألبَابِ والاعتِبَارِ، الَّذي أيقَظَ مِنْ خَلْقهِ مَنِ اصطَفَاهُ فَزَهَّدَهُمْ في هذهِ الدَّارِ، وشَغَلَهُمْ بمُراقبَتِهِ وإدَامَةِ الأفكارِ، ومُلازَمَةِ الاتِّعَاظِ والادِّكَارِ، ووَفَّقَهُمْ للدَّأْبِ في طاعَتِهِ، والتّأهُّبِ لِدَارِ القَرارِ، والْحَذَرِ مِمّا يُسْخِطُهُ ويُوجِبُ دَارَ البَوَارِ، والمُحافَظَةِ على ذلِكَ مَعَ تَغَايُرِ الأَحْوالِ والأَطْوَارِ، أَحْمَدُهُ أبلَغَ حمْدٍ وأَزكَاهُ، وأَشمَلَهُ وأَنْمَاهُ، وأَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إلا اللهُ البَرُّ الكَرِيمُ، الرؤُوفُ الرَّحِيمُ، وأشهَدُ أَنَّ سَيِّدَنا مُحمّدًا عَبدُهُ ورَسُولُهُ، وحبيبُهُ وخليلُهُ، الهَادي إلى صِرَاطٍ مُسْتَقيمٍ، والدَّاعِي إلَى دِينٍ قَويمٍ، صَلَوَاتُ اللهِ وسَلامُهُ عليهِ، وعَلَى سَائِرِ النَّبيِّينَ، وآلِ كُلٍّ، وسَائِرِ الصَّالِحينَ.

أما بعد: فقد قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾[الذاريات: ٥٦-٥٧] وَهَذا تَصْريحٌ بِأَنَّهُمْ خُلِقوا لِلعِبَادَةِ، فَحَقَّ عَلَيهِمُ الاعْتِنَاءُ بِمَا خُلِقُوا لَهُ وَالإعْرَاضُ عَنْ حُظُوظِ الدُّنْيَا بالزَّهَادَةِ، فَإنَّهَا دَارُ نَفَادٍ لاَ مَحَلُّ إخْلاَدٍ، وَمَرْكَبُ عُبُورٍ لاَ مَنْزِلُ حُبُورٍ، ومَشْرَعُ انْفصَامٍ لاَ مَوْطِنُ دَوَامٍ، فلِهذا كَانَ الأَيْقَاظُ مِنْ أَهْلِهَا هُمُ الْعُبَّادُ، وَأَعْقَلُ النَّاسِ فيهَا هُمُ الزُّهّادُ. قالَ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَـٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَـٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[يونس: ٢٤]. والآيات في هذا المعنى كثيرةٌ.

ولقد أَحْسَنَ القَائِلُ:

إنَّ لِلَّـــه عِبَـــادًا فُطَنـــا ... طلّقـــوا الـــدُّنيا وخـــافوا الفِتَنـــا

نظَـــروا فيهـــا فلّمـــا علمـــوا ... أنّهـــا ليـــست لحـــيٍّ وطنـــا

جعلوهـا لُجَّـة واتّخـذوا صـالح الأعمـال فيهـا سـفنا[١]

فإذا كَانَ حالُها ما وصَفْتُهُ، وحالُنَا وَمَا خُلِقْنَا لَهُ مَا قَدَّمْتُهُ؛ فَحقٌّ عَلَى الْمُكلَّفِ أَنْ يَذْهَبَ بنفسِهِ مَذْهَبَ الأَخْيارِ، وَيَسلُكَ مَسْلَكَ أُولي النُّهَى وَالأَبْصَارِ، وَيَتَأَهَّبَ لِمَا أَشَرْتُ إليهِ، وَيَهْتَمَّ لِمَا نَبَّهتُ عليهِ. وأَصْوَبُ طريقٍ لهُ فِي ذَلِكَ، وَأَرْشَدُ مَا يَسْلُكُهُ مِنَ المسَالِكِ، التَّأَدُّبُ بمَا صَحَّ عَنْ نَبِيِّنَا سَيِّدِ الأَوَّلِينَ والآخرينَ، وَأَكْرَمِ السَّابقينَ واللَّاحِقِينَ، صَلَواتُ اللهِ وسَلامُهُ عَلَيهِ، وَعلَى سَائِرِ النَّبيِّينَ.

وقـدْ قـالَ اللهُ تعـالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾ [المائدة:٢].

وقد صَحَّ عَنْ رسولِ الله ﷺ أَنَّهُ قالَ: ((واللهُ فِي عَوْنِ العَبْدِ مَا كَانَ العَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ))[٢].

وَأَنَّهُ قالَ: ((مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أجْرِ فَاعِلِهِ))[٣].

وأَنَّهُ قالَ: ((مَنْ دَعَا إِلى هُدىً كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ لاَ يَنْقُصُ ذلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيئًا))[٤].

وأَنَّهُ قَالَ لِعَلِيٍّ ﷺ: ((فَوَاللهِ لأَنْ يَهْدِي اللهُ بِكَ رَجُلاً وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ))[٥].

فَرَأَيتُ أَنْ أَجْمَعَ مُخْتَصَرًا منَ الأحاديثِ الصَّحيحةِ، مشْتَمِلاً عَلَى مَا يكُونُ طَرِيقًا لِصَاحبِهِ إِلَى الآخِرَةِ، ومُحَصِّلاً لآدَابِهِ البَاطِنَةِ وَالظَّاهِرَةِ. جَامِعًا للترغيب والترهيب وسائر أنواع آداب السالكين: مِن أحاديث الزهد ورياضات النُّفُوسِ، وتَهْذِيبِ الأَخْلاقِ،

---

(١) الأبيات للشافعي في ديوانه قافية النون. وانظر: نفح الطيب ٨٦/٢، وفيات الأعيان ٢٦٢/٤، ومرآة الجنان ٢٢٦/٣.

(٢) سيأتي تخريجه برقم (٢٤٥).

(٣) سيأتي تخريجه برقم (١٧٣).

(٤) سيأتي تخريجه برقم (١٧٤).

(٥) سيأتي تخريجه برقم (١٧٥).

وطَهَارَاتِ القُلوبِ وَعِلاجِهَا ، وصِيانَةِ الجَوَارحِ وَإِزَالَةِ اعْوِجَاجِهَا ، وغَيرِ ذلِكَ مِنْ مَقَاصِدِ الْعارفِينَ.

وَأَلتَزِمُ فيهِ أَنْ لا أَذْكُرَ إلاّ حَدِيثًا صَحِيحًا مِنَ الْوَاضِحَاتِ، مُضَافًا إلى الْكُتُبِ الصَّحِيحَةِ الْمَشْهُوراتِ[1]. وأُصَدِّر الأَبْوَابَ مِنَ الْقُرْآنِ الْعَزِيزِ بآياتٍ كَرِيماتٍ، وَأَوشِّحَ مَا يَحْتَاجُ إلى ضَبْطٍ أَوْ شَرْحِ مَعْنَىً خَفِيٍّ بِنَفَائِسَ مِنَ التَّنْبِيهاتِ. وإذا قُلْتُ في آخِرِ حَدِيث: مُتَّفَقٌ عَلَيهِ فمعناه: رواه البخاريُّ ومسلمٌ.

وَأَرجُو إنْ تَمَّ هذَا الْكِتَابُ أنْ يَكُونَ سَائِقًا للمُعْتَنِي بِهِ إلى الْخَيْرَاتِ حَاجزًا لَهُ عَنْ أنْواعِ الْقَبَائِحِ والْمُهْلِكَاتِ. وأَنَا سَائِلٌ أخًا انْتَفعَ بِشيءٍ مِنْهُ أنْ يَدْعُوَ لِي، وَلِوَالِدَيَّ، وَمَشَايخي، وَسَائِرِ أَحْبَابِنَا ، وَالمُسلِمِينَ أجْمَعِينَ. وعَلَى اللهِ الكَرِيمِ اعْتِمادي، وَإِلَيْهِ تَفْوِيضي وَاسْتِنَادي، وَحَسبِيَ اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ، وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إلاَّ بِاللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ.



(١) راجع مقدمة رياض الصالحين، الإمام النووي ص ٩، ١٠.

١- باب الإخلاص وإحضار النية
في جميع الأعمال والأقوال والأحوال البارزة والخفية

قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ۝﴾[البينة: ٥] وقال تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾[الحج: ٣٧] وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن تُخْفُواْ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾[آل عمران: ٢٩].

الحديث رقم (١)

١- عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أبي حفْصٍ عُمرَ بنِ الْخَطَّابِ بْن نُفَيْل بْنِ عَبْد الْعُزَّى بن رياح بْن عبدِ اللَّهِ بْن قُرْطِ بْنِ رزاح بْنِ عَدِيِّ بْن كَعْبِ بْن لُؤَيٍّ بن غالبٍ القُرَشِيِّ العدويِّ. رضي الله عنه، قال: سمعْتُ رسُولَ الله ﷺ يقُولُ: ((إِنَّما الأَعمالُ بالنِّيَّات، وإِنَّمَا لِكُلِّ امرِئٍ مَا نَوَى، فمنْ كانَتْ هجْرَتُهُ إِلَى الله ورَسُولِهِ فهجرتُه إلى الله ورسُولِهِ، ومنْ كانْت هجْرَتُه لدُنْيَا يُصيبُها، أَو امرَأَةٍ يَنْكحُها فهْجْرَتُهُ إلى ما هَاجَر إليْهِ)) متَّفَقٌ على صحَّتِه[(١)].

رواهُ إماما المُحَدِّثِين:

أَبُو عَبْدِ الله مُحَمَّدُ بنُ إِسْمَاعيل بْن إِبْراهيمَ بْن الْمُغيرة بْن برْدزْبَهْ الْجُعْفِيُّ الْبُخَارِيُّ، وأَبُو الحُسَيْن مُسْلمُ بْن الْحَجَّاجِ بن مُسلمٍ القُشَيْرِيُّ النَّيْسَابُورِيُّ رَضيَ الله عَنْهُمَا، فِي صَحيحيهِما اللَّذَيْنِ هما أَصَحُّ الْكُتُبِ الْمُصَنَّفَة فِي علم الحديث.

ترجمة الراوي:

عمر بن الخطاب: هو عمر بن الخطاب بن نفيل القرشي العدوي أبو حفص ثاني الخلفاء الراشدين أمير المؤمنين الفاروق.

---

(١) رواه البخاري (٥٤)، ومسلم (١٩٠٧/١٥٥)، وبهذا اللفظ رواه البيهقي في الاعتقاد (ص: ٢٠٥). أورده المنذري في ترغيبه (١٥).

كان قبل أن يسلم شديدًا على المسلمين، وكان من أشراف قريش، له السفارة فيهم، فكان يشبه وزير الخارجية في عصرنا، دعا النبي ﷺ أن يُعزّ الإسلام به فقال: ((اللَّهُمَّ أعِزَّ الإِسْلامَ بِعُمَرَ بنِ الخَطَّابِ خاصَّةً))[١] فأسلم في السنة السادسة من البعثة، فكان إسلامه فتحًا للمسلمين ومنعة لهم. قال ابن مسعود رضي الله عنه: ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر. فصلى المسلمون عند الكعبة وأظهروا أمرهم. قال عكرمة مولى ابن عباس: لم يزل الإسلام في اختفاء حتى أسلم عمر.

وهاجر إلى المدينة وشهد مع النبي ﷺ المشاهد كلها، وأثنى عليه ثناء كبيرًا، من ذلك أنه قال: ((إنَّ اللّهَ جَعَلَ الْحَقَّ عَلَى لِسَانِ عُمَرَ وقَلْبِهِ))[٢] وقال: ((لَوْ كانَ نَبِيٌّ بَعْدِي لَكَانَ عُمَر))[٣]. وكان هو وأبوبكر الصديق وزيري النبي ﷺ يشاورهما، وكان القرآن ينزل موافقًا لرأيه أحيانًا، وتوفي النبي ﷺ وهو عنه راضٍ، فلما تولى أبوبكر رضي الله عنه كان وزيره ومعاونه الأول، واستخلفه عند موته سنة ١٣هـ، فكانت خلافته خيرًا للمسلمين، فقد فتحت البلاد وبنيت المدن، ففتحت الشام ومصر وفارس وغيرها. وأمر ببناء البصرة والكوفة، حتى قيل: انتصب في خلافته اثنا عشر ألف منبر.

وكان سابقًا لأمور تنظيمية في عهده، فدوّن الدواوين وكتب أسماء المسلمين وأعطاهم العطاء والمرتَّبَات حسب سبقهم إلى الإسلام وبلائهم فيه. وهو أول من أرّخ بالتاريخ الهجري بعد مشورة الصحابة رضي الله عنهم. كل ذلك وهو يَسُوسُ الناس بالعدل، وقد أنزل نفسه من مال الله تعالى بمنزلة كافل اليتيم واتخذ نقشًا لخاتمه: كفى بالموت واعظًا يا عمر.

وقد كان آدم شديد الأدمة – أي أسمر شديد السمرة– طوالاً مشرفًا على الناس كث اللحية أصلع أعسر أيسر، له من الأحاديث ٥٣٧ حديثًا، قتله أبو لؤلؤة المجوسي غلام المغيرة بن شعبة وهو في صلاة الصبح سنة ٢٣هـ، فكانت مدة خلافته عشر

---

(١) أخرجه ابن ماجه (١٠٥) وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ٨٥).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٦٨٢) وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٩٠٨).

(٣) أخرجه الترمذي (٣٦٨٦) وحسنه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٩٠٩).

سنوات ونصفًا. وفيه قال عبدالله ابن مسعود رضي الله عنه: كان إسلام عمر فتحًا وكانت هجرته نصرًا، وكانت إمارته رحمة[1].

غريب الألفاظ:

يصيبها: يحصلها[2].

الشرح الأدبي

إن كل من يتأمل بلاغة الرسول صلى الله عليه وسلم في أحاديثه الشريفة يدرك عن يقين أن المعنى والمبنى يمتزجان في البيان النبوي الكريم، وأن الفكر والأسلوب يتعانقان في هذا الأدب الفصيح المشرق بالتوحيد والهداية، ليقدما للبشرية المنهج الإسلامي السديد المنبثق من هدي القرآن العظيم.

يقول القاضي عياض في معرض الإشادة بأدب النبوة، وأسرار البيان في الحديث النبوي: "إن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يحمل سلاسة طبع، وبراعة منزع، وإيجاز مقطع، ونصاعة لفظ، وجزالة قول، وصحة معانٍ، وقلة تكلف، أوتي جوامع الكلم. وخص ببدائع الحِكَم، وعُلِّم ألسنة العرب، فكان يخاطب كل أمة بلسانها، ويحاورها بلغتها، ويباريها في منزع بلاغتها، حتى كان كثير من أصحابه يسألونه في غير موطن عن شرح كلامه، وتفسير قوله، ومن تأمل حديثه وسِيَره علم ذلك وتحققه"[3].

والحديث الشريف الذي بين أيدينا يدعونا إلى أن نتأمل معانيه في ضوء مبانيه، فالبناء اللغوي هو مفتاح النص للوصول إلى المعاني الممتدة التي لا تتناهى كما يقول

---

(١) انظر: الطبقات الكبرى، ابن سعد ٢٦٥/٣، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ٤٧٣، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير ١٣٧/٤، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني ٩٤٩، وسير أعلام النبلاء، الذهبي ٣٦٠/١، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي ٣٤١/٥، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني ٢٢١/٣، والأعلام، خير الدين الزركلي ٤٥/٥، وموسوعة عظماء حول الرسول، خالد عبدالرحمن العك ٢٩٠/١.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٤/١.

(٣) الشفا، بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض ص ١٥٨.

الجاحظ، وفي ظل إشراقات وخصائص أساليب الحديث النبوي الشريف، واتكاءً على يقين المؤمن بأنه ﷺ، أوتي جوامع الكلم.

إن هذا الحديث النبوي الشريف يحدد المنهج الصحيح للمسلم في حياته السلوكية والقولية والعملية، وافتتح به الإمام النووي كتابه "رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين" وكأن هذا الافتتاح إشارة من صاحب هذا المصنَّف الجليل أن يكون إقدامه على هذا العمل مصاحبًا بالنية الحسنة، والعمل الصالح، وأن يتقبل الله منه هذا العمل، وأن تكون ثمرته المغفرة والرضوان، وأن ينتفع به المسلمون وغيرهم في كل زمان ومكان، وشاهِدُ ذلك أنه جعل هذا الحديث في بداية باب "الإخلاص وإحضار النية في جميع الأعمال والأقوال والأحوال البارزة والخفية".

ومما يؤكد هذا المنهج السديد في الحرص على سلامة النية والإخلاص في القول والعمل أن النووي صدر هذا الباب بأربع آيات بينات تحض على الإخلاص في العبادة، وفي إقامة الشعائر وفي الإنفاق ، والقربات، وحتى في أحاديث النفس، وحصائد الألسن، وفي كل ما تدبجه أقلام العلماء والأدباء والمفكرين في كل زمان ومكان. قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن تُخْفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ﴾[1].

ولنتأمل جمال الصياغة، ودقة اللغة، وعمق الدلالة، وإشعاع الأسلوب في البناء اللغوي والأدبي.

إن الحديث يتكون في مبناه ومعناه من أربع جمل.. تتصاعد من التعميم إلى التخصيص، وتجنح إلى الإيحاء في ثوب التعريض، وتنأى عن التصريح والتشهير.

الجملة الأولى أو البارقة الأولى تمثل قاعدة كلية من قواعد المنهج الإسلامي: "إنما الأعمال بالنيات" ودلالة هذه الجملة التي صيغت في أسلوب القصر توحي وترشد وتنبئ عن مناسبة الحديث وعن القصة التي أشرقت في سياقها هذه القاعدة الكلية: "إنما الأعمال بالنيات".

(١) سورة آل عمران، آية: ٢٩.

والتعبير بـ"إنما" يفيد القصر والتأكيد، و"الأعمال" جاءت معرفة بأل: لتفيد العموم، فالأعمال في هذا السياق هي كل ما يقدم عليه الإنسان في حركته الحياتية، فلابد أن تكون هذه الحركة متلبسة بالإخلاص أو مصاحبة له أو مستعينة به.

وفي الجملة إشعاع أسلوبي آخر وهو مجيء "الأعمال" جمعًا وفي بعض الروايات جاء لفظ النية مفردًا "إنما الأعمال بالنية" وقيل إن هذا التصرف اللغوي جمع الأعمال مقابل إفراد النية. لأن النية محلها القلب وهو متحد فناسب إفرادها، بخلاف الأعمال فإنها متعلقة بالظواهر والجوارح فناسب جمعها. فاختلاف الرواية في ألفاظ الحديث خير شاهد على بلاغة الرسول ﷺ وأن كل رواية لها مدلولها وإشعاعها في اتساع المعنى نظرًا لتغير المبنى.

وأما الجملة الثانية في هذا الحديث الشريف فهي : "وإنما لكل امرئ ما نوى"، وهى كذلك تأتي في صيغة : القصر وهذه الصيغة الأسلوبية تجمع بينها وبين الجملة السابقة، ويجمعها كذلك قالب الجملة الاسمية التي تؤكد ثبات المعنى ورسوخ القاعدة، ولا يضعف من ثباتها ارتباطها بزمن دون آخر فكل نفس بما كسبت رهينة، ولكل إنسان في هذا الوجود ما اتجهت إليه مداركه واكتسبته جوارحه، وجاءت هذه الجملة المتممة والموضحة للقاعدة الأولى لبيان أن الأعمال لا يعتد بها شرعًا إلا بالنية المصاحبة لها،وجزاء العامل على عمله بحسب نيته من خير أو شر؛ وبعد هذا الإجمال المشع ببريق الهداية النبوية يفصل المصطفى ﷺ القول ويُضئُ جوانب القصة، ويومئ إلى الظروف والملابسات التي من أجلها كانت هذه المقدمة الكلية التي تصلح من أمر العباد: في السر والعلن، وتجعل للقصد والإرادة دورًا في شرعية العمل، ومسؤولية الفعل.

وحين نتساءل – لماذا جاءت الهجرة في هذا السياق، ولم تأت الإشارة إلى أي حادث آخر؟ ولماذا لم يحدد رسول الله ﷺ اسم ذلك المهاجر لدنيا يصيبها؟، ولماذا كرر الجملة الكريمة فهجرته إلى الله ورسوله؟، ولماذا لم تتكرر العبارة الأخرى المقابلة للحدث الأول المصاحب للنية الإيمانية، واكتفى المصطفى ﷺ بقوله " فهجرته إلى ما هاجر إليه"؟ والحادثة التي يومئ إليها رسول الله ﷺ هي كما يروي عن ابن مسعود رضي الله عنه حيث يقول: "كان فينا رجل خطب امرأة يقال لها أم قيس، فأبت أن

تتزوجه حتى يهاجر، فهاجر فتزوجها: يقول ابن مسعود ﷺ: فكنا نسميه مهاجر أم قيس، وقيل اسمها قيلة؛ ولم يحدد الرسول ﷺ اسم الرجل: سترًا عليه"، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ولأن المصطفى ﷺ: أوتي جوامع الكلم، فقد أراد أن لا يكون الحكم مرتبطًا بحدث واحد، ومحدودًا بإطار زماني ومكاني محدد، ولكن لابد أن يكون التوجيه النبوي لكل صاحب نية وقصد وإرادة، ولكل من يُقْدم على إنجاز عمل، وصياغة فكر، وأداء شعيرة.

وهذا التميز الأسلوبي، وصفاء الحاسة، وثقوب الذهن، واجتماع النفس، وقوة الفطرة، كل هذه السمات نبعت من التوفيق والنشأة، مع عنصر التوفيق الإلهي حيث اصطنعه لوحيه، ونصبه لبيانه، وخصه بكتابه، واصطفاه لرسالته – كما قال الرافعي.

وبهذا البيان السامق يشيد الأديب الانجليزي "توماس كارليل". حيث يقول: "وقد لاحظوا: أن ما من كلمة تخرج من فيه إلا وفيها حكمة بليغة وإني لأعرف أنه كان كثير الصمت. يسكت حيث لا موجب للكلام، فإذا نطق فما شئت من أدب وفضل وإخلاص وحكمة، لا يتناول غرضًا فيتركه إلا وقد أنار شبهته، وكشف ظلمته وأبان حجته واستثار دفينته وهكذا يكون الكلام ... وإلا فلا".

وجاءت الجملتان الثالثة والرابعة في قالب الشرط والجواب لكي يعرف كل إنسان أن الجزاء من جنس العمل "فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله" فالجزاء كناية عن شرف الهجرة وكونها بمكانة عنده تعالى، أو عن كونها مقبولة مرضية والتعبير بالفعل "كان" هنا لا يرتبط بالزمن الماضي، وإنما يدل على الكينونة وثبات الفعل، لأن الأزمنة تستوي في الحكم التكليفي إلا لمانع -كما يقول العلماء، وكرر جملة الجواب بالصيغة نفسها في قوله "فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله" لكون ذلك أبلغ في الهجرة إليهما.

ولم تتكرر عبارة الجواب في قوله ﷺ: "ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه" لأن عدم التكرار هنا يدل على رفض

الرسول ﷺ لهذه النية التي لم تُخْلص لله ولا لرسوله، وكذلك يرشد عدم تكرار جملة الجواب إلى أن العدول عن ذكرهما أي ذِكْر الدنيا والمرأة أبلغ في الزجر عن قصدهما.

وقال بعض الصالحين "إنما الأعمال بالنيات" يتعلق بما وقع في القلوب من أنوار الغيوب، والنية جمع الهمة في تنفيذ العمل للمعمول له، وألا يسنح في السر ذكر غيره.

إن هذا الحديث الجامع يهذب السلوك الإنساني، ويضع سلوك المؤمن الذي يبتغي وجه الله تعالى في كل أحواله في قمة الأعمال الصالحة التي في ظلالها المؤمنة تتقدم المجتمعات وتصلح الأمم.

وفي أحاديث كثيرة يتأكد هذا المنهج الإسلامي السديد وهو الإخلاص وإحضار النية في جميع الأعمال والأقوال والأحوال البارزة والخفية .

ومن هذه الأحاديث النبوية الهادية إلى هذا الطريق السوي حديث رواه جابر بن عبدالله رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: ((يحشر الناس على نياتهم))(١).

وروى عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال:

((من غزا في سبيل الله ولم ينو إلا عقالاً فله ما نوى))(٢) وقيل صلاح القلب بصلاح العمل وصلاح العمل بصلاح النية.

فقه الحديث

هذا الحديث الشريف هو الأساس الذي بنيت عليه القاعدة الفقهية الكبرى: "الأمور بمقاصدها"(٣) قال الخطابي: (وهذا الحديث أصل كبير من أصول الدين، ويدخل في أحكام كثيرة ... ومعناه أن صحة أحكام الأعمال في حق الدِّين إنما تقع بالنية، وأن النيات هي الفاصلة بين ما يصح منها وبين ما لا يصح)(٤). وقال الشاطبي:

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده ٣٩٢/٢ رقم ٩٠٩٠، وقال محققو المسند: صحيح لغيره.

(٢) أخرجه النسائي ٣١٣٨، وحسنه الألباني (صحيح سنن النسائي، ٢٩٤١).

(٣) انظر: الأشباه والنظائر، السيوطي ص ٣٩ وما بعدها، والأشباه والنظائر، ابن نجيم ص ٩ وما بعدها.

(٤) أعلام الحديث في شرح صحيح البخاري، الخطابي ١١٢/١.

(إن الأعمال بالنيات والمقاصد معتبرة في التصرفات من العبادات والعادات، والأدلة على هذا المعنى لا تتحصر، ويكفيك منها أن المقاصد تفرق بين ما هو عادةً وما هو عبادة، وفي العبادات ما هو واجب وغير واجب، وفي العادات بين الواجب والمندوب والمباح والمكروه والمحرم والصحيح والفاسد وغير ذلك من الأحكام ... وأيضًا: فالعمل إذا تعلق به القصد تعلقت به الأحكام التكليفية وإذا عرى عن القصد لم يتعلق به شيئ منها كفعل النائم والغافل والمجنون)[1].

وقال ابن رجب في شرح الحديث: (هاتان كلمتان جامعتان وقاعدتان كليتان لا يخرج عنهما شيء)[2] وخلاصة الموضوع أن (هذا الحديث من جوامع الأحاديث للأحكام الشرعية)[3] (والواقع أنها قاعدة عالمية الاعتبار ولها تفاريع جمة واسعة النطاق في كتب الفقه والقانون)[4]. ويذكر ابن رجب صورًا لبيان أثر النية في التكاليف الشرعية فيقول: (وأما النية بالمعنى الذي يذكره وهو أن تمييز العبادات من العادات وتمييز العبادات بعضها من بعض، فإن الإمساك عن الأكل والشرب يقع تارة حِمْية[5] وتارة لعدم القدرة على الأكل، وتارة تركًا للشهوات لله عز وجلّ، فيحتاج في الصيام إلى نية ليتميز بذلك عن ترك الطعام على غير هذا الوجه، وكذلك العبادات: كالصلاة والصيام منها فرض ومنها نفل. والفرض يتنوع أنواعًا فإن الصلوات المفروضات خمس صلوات كل يوم وليلة، والصوم الواجب تارة يكون صيام رمضان، وتارة صيام كفارة، أو عن نذر، ولا يتميز هذا كله إلا بالنية، وكذلك الصدقة تكون نفلاً وفرضًا، والفرض منه زكاة، ومنه كفارة، ولا يتميز إلا بالنية، فيدخل ذلك في عموم قوله ﷺ: "إنما لكل لامرئ ما نوى" وفي بعض ذلك اختلاف مشهور

(١) الموافقات في أصول الشريعة، الشاطبي ٢/٣٢٣-٣٢٤.

(٢) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ١/٧٢.

(٣) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير ٢/٣٤٠ نقلاً عن جمهرة القواعد الفقهية في المعاملات المالية، د. علي أحمد الندوي ١/١٣٠.

(٤) جمهرة القواعد الفقهية في المعاملات المالية، د. علي أحمد الندوي ١/١٣٢.

(٥) الحمية: الإقلال من الطعام ونحو مما يضر. الوسيط "حمى".

بين العلماء...)[١]. وهو يسقط الألم النفسي عن كثير غاب عنهم الذكر باللسان مع ربط الفعل بالقلب، كالإمساك عن الطعام خشية أذان الفجر، والاغتسال لرفع الجنابة مع نسيان النطق وسبق اللسان بما يخالف القلب ومقتضى الحال كمن نطق صلاة العصر بلسانه وهو ينوي الظهر بقلبه ويصليه في الوقت نفسه.

المضامين الدعوية

أولاً- من موضوعات الدعوة: بيان أهمية النية في الأعمال.

ثانيًا- من صفات الداعية: إرشاد المدعوين إلى ما ينفعهم.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: بيان فضل الهجرة.

رابعًا- من موضوعات الدعوة: ارتباط النوايا بالأعمال وأثر النية في العمل.

خامسًا- من أساليب الدعوة: الترغيب والترهيب.

أولاً- من موضوعات الدعوة: بيان أهمية النية في الأعمال:

لقد اشتمل هذا الحديث النبوي الشريف على بيان أهمية النية في الأعمال. حيث بيّن النبي ﷺ ذلك في قوله: "إنما الأعمال بالنيات"، قال النووي: (أجمع المسلمون على عظم موقع هذا الحديث وكثرة فوائده وصحته)[٢]، وقال القاضي عياض: (ذكر الأئمة أن هذا الحديث ثلث الإسلام وقيل: ربعه، وأن أصول الدين وعمده من عمل الطاعات)[٣]، ومفسر لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[٤].

قال بعض شيوخنا: (قوله "إنما الأعمال بالنيات" يرجع إلى معنيين: أحدهما: تجريد العمل من الشرك بالله بخالص التوحيد، والآخر: تجريده بخالص السنة)[٥].

---

(١) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ١/٨٥.

(٢) المنهاج في شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٢٢١.

(٣) كذا في المطبوع والغالب على الظن أن هناك سقطًا، وأن العبارة هي: "وأنه أصل من أصول الدين وعمدة من عمل الطاعات" والله أعلم.

(٤) سورة البينة، آية: ٥.

(٥) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض ٦/٣٢٢.

قال جماهير العلماء من أهل العربية والأصول وغيرهم: (لفظة "إنما" موضوعة للحصر تثبت المذكور وتنفي ما سواه، فتقدير هذا الحديث: إن الأعمال تحسب بنية، ولا تحسب إذا كانت بلا نية، وفيه دليل على أن الطهارة وهي: الوضوء والغسل والتيمم لا تصح إلا بالنية، وكذلك الصلاة والزكاة والصوم والحج وسائر العبادات)[(١)].

إن النية لها منزلة عظيمة في كل عمل خير يقوم به الإنسان، ليحقق من خلاله مرضاة الله تعالى ورسوله ﷺ، لذا ينبغي للداعية أن يؤكد على هذه المعاني العظيمة في الدعوة إلى الله تعالى، فيرسخ في أذهان المدعوين أهمية النية لكل عمل يقوم به الإنسان، ويحثهم على الإخلاص لله تعالى، لأن النية لها مدار عظيم في الأعمال، فلربما لا يتمكن الإنسان من إنجاز العمل -الذي نواه- أو إكماله فيجازيه الله تعالى على نيته الحسنة، قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[(٢)].

قال السعدي في بيان معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ﴾: (أي: لا يجدون زادًا، ولا راحلة يتبلغون بها في سفرهم، فهؤلاء ليس عليهم حرج، بشرط أن ينصحوا لله ورسوله، بأن يكونوا صادقي الإيمان، وأن يكون من نيتهم وعزمهم أنهم لو قدروا لجاهدوا، وأن يفعلوا ما يقدرون عليه من الحث والترغيب والتشجيع على الجهاد.

﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ أي: من سبيل يكون عليهم فيه تبعة، فإنهم - بإحسانهم فيما عليهم من حقوق الله تعالى وحقوق العباد- أسقطوا توجه اللوم عليهم، وإذا أحسن العبد فيما يقدر عليه، سقط عنه ما لا يقدر عليه.

---

(١) انظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٢٢١.

(٢) سورة التوبة، آية: ٩١.

ويستدل بهذه الآية على قاعدة وهي: أن من أحسن إلى غيره، في نفسه أو في ماله، ونحو ذلك، ثم ترتب على إحسانه نقص أو تلف، أنه غير ضامن لأنه محسن، ولا سبيل على المحسنين، كما أنه يدل على أن غير المحسن -وهو المسيء- كالمفرط، أن عليه الضمان)[١].

ومما يؤكد ذلك قول النبي ﷺ لأصحابه رضي الله عنهم: ((لَقَدْ تَرَكْتُمْ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَامًا مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا، وَلا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ، وَلا قَطَعْتُمْ مِنْ وَادٍ إلاَّ وَهُمْ مَعَكُم فِيهِ. قالُوا: يا رَسُولَ الله وَكَيْفَ يَكُونُونَ مَعَنَا وَهُمْ بالمَدِينَةِ؟ قال: حَبَسَهُم الْعُذْرُ))[٢].

قال المهلب: يشهد لهذا الحديث قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ﴾، الآية. فإنه فاضل بين المجاهدين والقاعدين ثم استثنى أولي الضرر من القاعدين فكأنه ألحقهم بالفاضلين. وفيه أن المرء يبلغ بنيته أجر العامل إذا منعه العذر عن العمل[٣].

ثانيًا- من صفات الداعية: إرشاد المدعوين إلى ما ينفعهم:

إن ذلك يتأكد من خلال إرشاد النبي ﷺ لأهمية النية في الأعمال، وتأكيده ﷺ "أن لكل امرئ ما نوى" ثم ذكره ﷺ لما يؤكد ذلك من قوله: (فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ...)، ولا شك أن ذلك مما ينبغي أن يتصف به الداعية، حيث يكون مرشدًا للمدعوين إلى ما ينفعهم، وقد كان النبي ﷺ أسوة في ذلك، حيث قام بإرشاد أمته إلى فعل ما ينفعها، من تصحيح النية وإخلاصها لله تعالى، وهذا مما ينبغي أن يتحلى به الداعية في إرشاد المدعوين إلى ما ينفعهم، مثل بيان أهمية النية في الأعمال.

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٣٤٨.

(٢) أخرجه البخاري ٤٤٢٣، وأبو داود ٢٥٠٨، واللفظ لأبي داود.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٥٦/٦.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: بيان فضل الهجرة:

إن للهجرة منزلة عظيمة في الإسلام، لأنها كانت مرحلة تحول عظيمة بالنسبة للدعوة الإسلامية، فكانت الهجرة برهانًا عظيمًا على صدق الإيمان والاتباع للنبي ﷺ حيث ترك المهاجرون ديارهم وأموالهم، وكل ما يملكون رغبة في نصرة الإسلام، وتحملوا ألوان المشقة والعذاب، وصبروا واحتسبوا طمعًا في نشر الدعوة الإسلامية، من خلال الإسهام في توفير المناخ الاجتماعي المناسب، الذي يمكن أن تترعرع فيه الدعوة الإسلامية، ويتسنى للمسلمين الانسياح في الأرض، والنهوض بالمسؤولية التي حملّهم الله تعالى إياها في البلاغ، ولذا أثنى الله تعالى على هؤلاء الذين هاجروا لنصرة دينه ومؤازرة نبيه ﷺ.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾[1].

قال ابن كثير: "لقد أثنى الله ورسوله على المهاجرين والأنصار في غير ما آية في كتابه فقال: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ﴾[3].

وأحسن ما قيل في قوله: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ﴾[4]. أي: لا يحسدونهم على فضل ما أعطاهم الله تعالى على هجرتهم، فإن ظاهر الآيات تقديم

---

(١) سورة الأنفال، آية: ٧٤.

(٢) سورة التوبة، آية: ١٠٠.

(٣) سورة التوبة، آية: ١١٧.

(٤) سورة الحشر، جزء من آية: ٩.

المهاجرين على الأنصار، وهذا أمر مجمع عليه بين العلماء، لا يختلفون في ذلك[(١)].

(إنه لعِظَم شأن الهجرة فقد فضل الله تعالى المهاجرين على الأنصار، لأن هؤلاء المهاجرين تركوا ديارهم وأوطانهم وأهليهم وأموالهم، وفَرُّوا بدينهم مهاجرين إلى الله تعالى ورسوله، لأن أعظم الهجرة: الهجرة من بلد الكفر إلى بلد الإسلام)[(٢)].

لقد فصّل النبي ﷺ في هذا الحديث الإجمال بمثال تطبيقي واضح فقال: "فمن كانت هجرته" من دار الكفر إلى دار الإسلام "إلى الله ورسوله" أي مخلصًا قصدًا ونية ابتغاء رضوان الله تعالى "فهجرته إلى الله ورسوله" ثوابًا وخيرًا، فالشرط إذًا غير متحد مع الجزاء، لأنهما وإن اتحدا لفظًا فقد اختلفا معنى. "ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها" أي من هاجر لتحصيل منفعة دنيوية، من جاه أو مال أو (امرأة ينكحها) يتزوجها (فهجرته إلى ما هاجر إليه) أي مقصورة على قصده، لا تترقى إلى مثوبة الله سبحانه وتعالى، وقد قسم العلماء الهجرة إلى ستة أقسام:

القسم الأول: الخروج من دار الحرب إلى دار الإسلام، وهي باقية إلى يوم القيامة، والتي انقطعت بالفتح في قوله ﷺ: (لا هجرة بعد الفتح)[(٣)] هي القصد إلى رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة للإقامة بها.

القسم الثاني: الخروج من أرض البدعة، قال ابن القاسم: سمعت مالكًا يقول: لا يحل لأحد أن يقيم بأرض يُسبّ فيها السلف[(٤)]، وليس ذلك فحسب، بل ينبغي للمسلم أن يهجر كل عمل نُهي عنه، وأن يهجر ما نهاه الله تعالى عنه من المعاصي والفسوق، كما قال النبي ﷺ: ((المُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِنْ لِسانِهِ وَيَدِهِ، والمهاجِرُ مَن هَجَرَ ما نَهى اللّهُ عنه))[(٥)]، فاهجر كل ما حرّم الله تعالى عليك، سواء كان مما يتعلق بحقوق الله

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٤/٩٦.

(٢) شرح رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين، محمد بن صالح العثيمين ١/١٢.

(٣) أخرجه البخاري ٣٠٧٧، ومسلم ١٨٦٤.

(٤) انظر: شرح رياض الصالحين، د. الحسيني هاشم ص ١٥.

(٥) أخرجه البخاري واللفظ له ٦٤٨٤، ومسلم ٦٥.

تعالى أو مما يتعلق بحقوق عباد الله تعالى.

بل تشرع هجرة مَنْ يجاهر بالمعصية - أي تركه أو الإعراض عنه- قال أهل العلم: مثل الرجل المجاهر بالمعصية الذي لا يبالي بها، فإنه يُشرع هجره إذا كان في هجره فائدة ومصلحة، والمصلحة والفائدة أنه إذا هُجر عرف قدر نفسه، ورجع عن المعصية.

أما إذا كان الهجر لا يفيد ولا ينفع وهو من أجل معصية لا من أجل كفر، لأن الكافر المرتد يُهجر على كل حال -أفاد أم لم يفد- لكن صاحب المعصية التي دون الكفر إذا لم يكن في هجره مصلحة؛ فإنه لا يحل هجره؛ لأن الرسول ﷺ قال: ((لاَ يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلاَثِ لَيَالٍ. يَلْتَقِيَانِ فَيُعْرِضُ هذَا وَيُعْرِضُ هذَا. وَخَيْرُهُمَا الَّذِي يَبْدَأُ بِالسَّلاَمِ))[1][2].

القسم الثالث: الخروج من أرض يغلب عليها الحرام؛ فإنَّ طَلَب الحلال فريضة على كل مسلم[3]، وتسمى هذه: هجرة المكان كأن ينتقل الإنسان من مكان تكثر فيه المعاصي ويكثر فيه الفسوق، وربما يكون بلد كفر إلى بلد لا يوجد فيه ذلك، وأعظمه الهجرة من بلد الكفر إلى بلد الإسلام، وقد ذكر أهل العلم أنه تجب الهجرة من بلد الكفر إلى بلد الإسلام إذا كان الإنسان لا يستطيع أن يُظهر دينه، وأما إذا كان قادرًا على إظهار دينه ولا يُعارض إذا أقام شعائر الإسلام؛ فإن الهجرة لا تجب عليه ولكنها تستحب، وبناءً على ذلك يكون السفر إلى بلد الكفر أعظم من البقاء فيه، فإذا كان بلد الكفر الذي كان وطن الإنسان إذا لم يستطع إقامة دينه فيه وجب عليه مغادرته والهجرة منه فكذلك إذا كان الإنسان من أهل الإسلام ومن بلاد المسلمين فإنه لا يجوز له أن يسافر إلى بلاد الكفر لما في ذلك من الخطر على دينه وعلى أخلاقه ولما في ذلك من إضاعة ماله ولما في ذلك من تقوية اقتصاد الكفار...)[4].

---

(١) أخرجه البخاري ٦٠٧٧، ومسلم واللفظ له ٢٥.

(٢) انظر: شرح رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين، محمد بن صالح العثيمين١/١٤.

(٣) شرح رياض الصالحين، د. الحسيني هاشم ص ١٥.

(٤) انظر: شرح رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين، محمد بن صالح العثيمين ١/١٢.

القسم الرابع: الفرار من الأذية في البدن. وذلك فضل من الله تعالى أرخص فيه، فإذا خشي على نفسه في مكان فقد أذن الله تعالى له في الخروج عنه. والفرار بنفسه يخلصها من ذلك المحذور.

القسم الخامس: الخروج خوف المرض من البلاد الوخمة إلى الأرض النزهة، وقد أذن ﷺ للعرنيين في ذلك حين استوخموا المدينة أن يخرجوا إلى المرج[١].

القسم السادس: الخروج خوفًا من الأذية في المال، فإن حرمة مال المسلم كحرمة دينه[٢].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: ارتباط الأعمال بالنوايا وأثر النية في العمل:

إن من مظاهر عظمة الإسلام وتميّزه على سائر الأديان وسمو تعاليمه، أن ربط بين الأعمال والنوايا، فكل عمل يستمد أجره من خلال نية صاحبه، ويُسلب أجره من خلال النية السيئة؛ ولذا فإنه يمكن القول أن الأعمال تدور مع النوايا، ومما يؤكد ذلك قوله ﷺ في هذا الحديث: "إنما الأعمال بالنية"، هذا الحديث من أعظم أصول الإسلام، وذكر القاضي عياض عن الأئمة أن هذا الحديث ثلث الإسلام، وجّهه العيني: في عمدة القاري بأن الإسلام قول، وفعل، ونية. فالنية ثلث الإسلام، وهذا الحديث يتضمنها. وقال ابن مهدي الحافظ: من أراد أن يصنف كتابًا: فليبدأ بهذا الحديث ولو صنفت كتابًا لبدأت في كل باب منه بهذا الحديث.

وقال أبو بكر بن داسة: سمعت أبا داود يقول: كتبت عن النبي ﷺ خمسمائة ألف حديث انتخبت منها أربعة آلاف حديث وثمانمائة حديث في الأحكام، فأما أحاديث الزهد والفضائل فلم أخرجها. ويكفي الإنسان لدينه من ذلك أربعة أحاديث: الأعمال بالنيات، والحلال بيّن والحرام بيّن[٣]، ومن حسن إسلام المرء تركه ما لا

(١) أخرجه البخاري ٢٣٣، ومسلم ١٦٧١.

(٢) انظر: شرح رياض الصالحين، د. الحسيني هاشم ص ١٦.

(٣) أخرجه البخاري ٥٢، ومسلم ١٥٩٩.

يعنيه[1]، ولا يكون المؤمن مؤمنًا حتى يرضى لأخيه ما يرضى لنفسه[2][3].

والنية كما فسّرها البيضاوي: عبارة عن انبعاث القلب نحو ما يراه موافقًا لغرض من جلب نفع، أو دفع ضر حالاً أو مآلاً. والشرع خصّصه بالإرادة المتوجهة نحو الفعل لابتغاء رضاء الله تعالى وامتثال حكمه. والنية في الحديث محمولة على المعنى اللغوي ليحسن تطبيقه على ما بعده، وتقسيمه أحوال المهاجر، فإنه تفصيل لما أجمل.

ثم تقدير عبارة الحديث: "إنما الأعمال تثاب بالنية" فلا يثاب الرجل على عمل صالح إلا إذا أراد به وجه الله تعالى ، والمراد من الأعمال: الأعمال المشروعة، كما دل عليه تمثيلها بالهجرة، فالأعمال غير المشروعة لا يثاب عليها، وإن باشرها المرء بنية صالحة. أما الأعمال المشروعة سواء كانت واجبة أو مسنونة أو مباحة، فيؤجر عليها بحسب النية، فالأمور المباحة لا ثواب عليها ولا عقاب، ولكن إذا أتى بها الإنسان بنية حسنة أثيب عليها، مثل: أكل الطعام، فإنه مباح، ولكن إذا أكَلَ الرجل بنية التقوِّي على الحسنات، أثيب عليه أيضًا.

ومقصود الحديث التأكيد على إخلاص الأعمال الصالحة لله تعالى، وتطهيرها عن شوائب الرياء والسمعة، والأغراض الدنيوية، وقد أطال العلماء رحمهم الله في بيان حقيقة النية والإخلاص وأحكام ما يشوبها من الشوائب.

قوله: "وإنما لكل امرئ ما نوى" قال النووي: (قالوا: فائدة ذكره بعد "إنما الأعمال بالنية" بيان أن تعيين المنوي شرط، فلو كان على الإنسان صلاة مقضية لا يكفيه أن ينوي الصلاة الفائتة، بل يشترط أن ينوي كونها ظهرًا أو غيرها، ولولا اللفظ الثاني لاقتضى الأول صحة النية بلا تعيين، أو أوهم ذلك)[4]. أي دلّ عليه.

وذكر السمعاني في أماليه ما يفيد أن اللفظ الأول ينبئ عن اشتراط الإخلاص في

---

(١) أخرجه الترمذي ٢٣١٧، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٨٨٦).

(٢) أخرجه البخاري ١٣، ومسلم ٤٥، وهو بلفظ "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه".

(٣) انظر: عمدة القاري، العيني ١/ ٢٧.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٢٢.

ثواب الطاعات، واللفظ الثاني لبيان أن الأعمال الخارجة عن العبادة لا تفيد الثواب إلا إذا نوى بها فاعلها القربة، كالأكل إذا نوى به التَّقَوِّي على الطاعة. وهذا أوضح ما قيل في الفرق بين الجملتين[١].

قال ابن القيم: "أما العبادات فتأثير النيات في صحتها وفسادها أظهر من أن يحتاج إلى ذكره؛ فإن القربات كلها مَبْنَاها على النيات، ولا يكون الفعل عبادة إلا بالنية والقَصْدْ[٢].

وقال السيوطي: "ومن أحسن ما استدلوا به على أن العبد ينال أجرًا بالنية الصالحة في المباحات والعادات، قوله ﷺ "ولكل امرء ما نوى" فهذه يثاب فاعلها إذا قصد بها التقرب إلى الله تعالى، فإن لم يقصد ذلك فلا ثواب له..."[٣].

وقوله ﷺ: ((وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ)) قَالُوا: يَا رَسُولَ اللّهِ، أَيَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ؟ قَالَ: ((أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ))[٤].

وقال النووي: "وفي هذا دليل على أن المباحات تصير طاعات بالنيات الصالحات، فالجماع يكون عبادة إذا نوى به قضاء حق الزوجة ومعاشرتها بالمعروف الذي أمر الله تعالى به أو طلب ولد صالح، أو إعفاف نفسه أو إعفاف الزوجة ومنعهما جميعًا من النظر إلى الحرام، أو الفكر فيه، أو الهم به أو غير ذلك من المقاصد"[٥].

وقد دلّ هذا الحديث الذي نحن بصدده على ما يلي:

١- أن النية من الإيمان، لأنها عمل القلب، والإيمان عند أهل السنة والجماعة تصديق بالجنان، ونطق باللسان وعمل بالأركان. لذلك أورد الإمام البخاري هذا الحديث في كتاب الإيمان.

---

(١) انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني١٤/١، وتكملة فتح الملهم، محمد تقي العثماني٣/٣٧٠ ، ٣٧١.

(٢) إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن القيم ص ٦٠٠ - ٦٠١.

(٣) شرح السيوطي على سنن النسائي، السيوطي ١٩/١.

(٤) أخرجه مسلم ١٠٠٦.

(٥) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٦٤١.

٢- كما في الحديث دليل على أنه يجب على المسلم قبل القدوم على العمل أن يعرف حكمه، هل هو مشروع، أم لا، هل هو واجب أم مستحب، لأن في الحديث العمل يكون منتفيًا - من الأجر- إذا خلا من النية المشروعة فيه.

٣- والحديث يدل على اشتراط النية في أعمال الطاعات، وأن ما وقع من الأعمال بدونها غير مُعْتَدٍّ به[١].

خامسًا- من أساليب الدعوة: الترغيب والترهيب:

إن الترغيب من الأساليب الدعوية الناجحة التي يمكن أن يفيد منها الداعية في دعوته.

وقد رغب رسول الله ﷺ في هذا الحديث في إخلاص النية لله تعالى والتوجه بالأعمال خالصة لوجهه سبحانه، وقد بيّن النبي ﷺ ذلك بأسلوب عملي من خلال بيان الهجرة الخالصة لله ورسوله، حيث قال ﷺ: (فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله). وذلك للترغيب في الإخلاص في الأعمال، والترهيب من عدم الإخلاص في العمل، والحث على فعل الخير، وأداء الطاعات، والاستقامة على أمر الله تعالى في الكتاب والسنة مقرونًا ببُشريات كثيرة في الدنيا والآخرة معًا، ولذا وجب على الداعي أن يقدم البشارة قبل النذارة والترغيب قبل الترهيب.

فالداعي يقدم الترغيب في الإخلاص قبل الترهيب من الرياء، والترغيب في نشر العلم على الترهيب من كتمانه، والترغيب في الصلاة في وقتها قبل الترهيب من تركها وهكذا؛ لأن أسلوب الترغيب قد يكون أجدى وأنفع من تقديم الترهيب دائمًا في كل حديث فليست طبيعة الناس واحدة.

إنه لا يمكن تجاهل الترهيب لاختلاف طبائع النفوس، ولكنه يبشر أولاً قبل أن ينذر، علّ القلب يستجيب والنفس تستقيم وهذا أسلوب القرآن الكريم وسنة رسول الله ﷺ كمنهج واضح المعالم في التعامل مع نفوس البشر، قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[٢]. وقال تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي

(١) انظر: قواعد وفوائد من الأربعين النووية، ناظم محمد سليمان ص ٣٢ - ٣٥.

(٢) سورة الملك، آية: ١٤.

هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴾[(١)]. وفي سورة غافر قال: ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾[(٢)].

ويدعو القرآنُ الناسَ إلى الإيمان فيشعرهم بالجائزة التي تنتظرهم فيقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[(٣)]، فينبغي الترغيب في الإيمان، والعمل الصالح وما يجلبان من خير للمسلم في دنياه؛ لأن من طبيعة النفس الإنسانية أنها تطمع في سعة العيش، ويسر الرزق.

ولذا وجدنا رسول الله ﷺ لا يقنِّط الناس من رحمة الله تعالى بل يحببهم ويرغبهم في الطاعات، واسمع إلى أبي هريرة رضي الله عنه يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهْرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ. هَلْ يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ؟)) قَالُوا: لاَ يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ. قَالَ: ((فَذَلِكَ مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ. يَمْحُو اللهُ بِهِنَّ الْخَطَايَا))[(٤)].

فأنت ترى ترغيبًا قبل ترهيب لتتفتح القلوب الغلف والعيون العمي والآذان الصم، وتشتاق النفس إلى هذا الخير الذي ينتظرها، فتنجذب إليه، ولا تستثقل فعله فإذا بها تسارع إلى الخيرات حين تستشعر رحمات الله عليها.

فعلى الداعي أن يفقه حال المدعو حين يدعوه فلا يرهب أحدًا قبل أن يرغبه فبعض الناس وهم يعيشون بعيدًا عن طاعة الله تعالى يوسوس لهم الشيطان كأن أملاكهم ستسلب وأعمارهم ستنتهي بمجرد التزامهم بمنهج الله تعالى، فلا ملك عريض ولا حياة طيبة فإن أطاعوا أوامر الله انتهت حرياتهم التي لا حدود لها، وسينتقلون إلى شظف العيش ومرارة الحرمان... هؤلاء يحتاجون إلى أن نبين لهم خزائن الله تعالى التي لا تنفد والحياة الرغدة التي تنتظرهم[(٥)].

---

(١) سورة الحجر، الآيتان: ٤٩، ٥٠.

(٢) سورة غافر، آية: ٣.

(٣) سورة الحديد، آية: ٢٨.

(٤) أخرجه البخاري ٥٢٨، ومسلم واللفظ له ٦٦٧.

(٥) انظر: الدعوة قواعد وأصول، أ. جمعة أمين عبدالعزيز ٢٠٨ - ٢٠٩.

الحديث رقم (٢)

٢- وَعَنْ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ أُمِّ عَبْدِ اللَّهِ عَائِشَةَ ﵂، قالت: قال رسول الله ﷺ: «يَغْزُو جَيْشٌ الْكَعْبَةَ فَإِذَا كَانُوا بِبَيْدَاءَ مِنَ الأَرْضِ يُخْسَفُ بِأَوَّلِهِم وَآخِرِهِمْ». قَالَتْ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ يُخْسَفُ بِأَوَّلِهِم وَآخِرِهِمْ وَفِيهِمْ أَسْوَاقُهُمْ وَمَنْ لَيْسَ مِنْهُمْ؟ قَالَ: «يُخْسَفُ بِأَوَّلِهِم وَآخِرِهِمْ، ثُمَّ يُبْعَثُونَ عَلَى نِيَّاتِهِمْ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[١]، هذا لَفْظُ الْبُخَارِيِّ.

ترجمة الراوي:

أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق ﵂: عائشة بنت أبي بكر الصديق عبدالله بن عثمان التيمي، كانت تكنى بابن أختها أسماء (عبدالله)، كناها بذلك رسول الله ﷺ، روت عن رسول الله ﷺ من العلم الكثير الطيب المبارك فيه، وروى لها الجماعة، ويبلغ مسندها (٢٢١٠) حديثًا، اتفق البخاري ومسلم منها على (١٧٤) حديثًا، وانفرد البخاري بـ (٥٤)، ومسلم بـ (٦٩).

وكان النبي ﷺ قد تزوجها قبل الهجرة، وبنى بها في المدينة وهي بنت تسع سنين، بعد منصرفه من غزوة بدر في شوال، ومكثت معه تسع سنين، ومات رسول الله ﷺ وعمرها ثمانية عشر سنة.

وكان النبي ﷺ قد أُريها قبل أن يتزوجها مرتين في المنام، فعن عائشة ﵂ قالت: قال رسول الله ﷺ: ((أُريتُك في المنام مرتين، إذا رجل يحملك في سَرَقَةٍ من حرير، فيقول: هذه امرأتك فاكشفها فإذا هي أنت، فأقول: إن يكن هذا من عندالله يُمضه))[٢] وكانت عائشة ﵂ أحب أزواج النبي ﷺ إليه وأفضلهن منزلة عنده، فعن أبي موسى الأشعري ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: ((كَمُل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام))[٣].

---

(١) أخرجه البخاري ٢١١٨ واللفظ له، ومسلم ٢٨٨٤/٨. أورده المنذري في ترغيبه ١٦.

(٢) أخرجه البخاري ٧٠١١، ومسلم ٢٤٣٨.

(٣) أخرجه البخاري ٣٤١١، ومسلم ٢٤٣١.

وعن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن النبي ﷺ بعثه على جيش ذات السلاسل، فأتيته فقلت: ((أي الناس أحب إليك؟ قال عائشة، فقلت: من الرجال؟ فقال: أبوها))[1] وكان حب رسول الله ﷺ لعائشة رضي الله عنها أمرًا مستفيضًا فكان الناس يتحرون بهداياهم يومها إرضاءً له ﷺ فعن هشام عن أبيه قال: كان الناس يتحرون بهداياهم يوم عائشة، قالت عائشة: فاجتمع صواحبي إلى أم سلمة، فقلن: يا أم سلمة، والله إن الناس يتحرون بهداياهم يوم عائشة، وإنا نريد الخير كما تريده عائشة، فمُري رسول الله ﷺ أن يأمر الناس أن يُهدوا إليه حيثما كان -أو حيثما دار- قالت: فذكرت ذلك أم سلمة للنبي ﷺ قالت: فأعرض عنها، فلما عاد إليَّ ذكرت له ذلك فأعرض عني، فلما كان من الثالثة ذكرت له، فقال: يا أم سلمة لا تُؤْذيني في عائشة فإنه والله ما نزل عليَّ الوحي وأنا في لحاف امرأة منكن غيرها))[2] ولم ينكح رسول الله ﷺ بكرًا غيرها.

وبرّأ الله ساحتها في حادثة الإفك من فوق سبع سماوات، وأنزل في ذلك قرآنًا يتلى إلى يوم القيامة.

أما علمها فكانت أفقه الناس وأعلمهم وأحسنهم رأيًا، قال الزّهْري: لو جمع علم عائشة رضي الله عنها إلى جميع أزواج النبي ﷺ وعلم جميع النساء، لكان علم عائشة أفضل، وقال عطاء بن أبي رباح: كانت عائشة أفقه الناس، وأعلم الناس، وأحسن الناس رأيًا في العامة، وقال هشام عن عروة عن أبيه: ما رأيت أحدًا أعلم بفقهٍ ولا بطب ولا بشعر من عائشة. ولها خطب ومواقف وما كان يحدث لها أمر إلا أنشدت فيه شعرًا، وكان أكابر الصحابة رضي الله عنهم يرجعون إلى علمها، عدَّها ابن سعد في الطبقات من أهل العلم والفتوى من أصحاب رسول الله ﷺ ورَوى بسنده عن محمود بن لبيد قال: كان أزواج النبي ﷺ يحفظن من حديث النبي ﷺ كثيرًا، ولا مِثلاً لعائشة وأم سلمة، وكانت عائشة رضي الله عنها تفتي في عهد عمر وعثمان رضي الله عنهما إلى أن ماتت، وكان الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ عمر وعثمان بعده يرسلان إليها فيسألانها عن السنة

---

(١) أخرجه البخاري ٣٦٦٢، ومسلم ٢٣٨٤.

(٢) أخرجه البخاري ٣٧٧٥، ومسلم ٣٧٧٥.

وكانت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مضرب المثل في الكرم والسخاء، فكانت من أكرم أهل زمانها وأعظمهم سخاءً، وفضائلها ومناقبها من الكثرة بمكان.

وكانت ممن نقم على عثمان عمله في حياته، ثم غضبت له بعد مقتله، وكان لها في هودجها بوقعة الجمل موقفها المعروف.

توفيت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بالمدينة المنورة، ليلة الثلاثاء لسبع عشرة خلت من رمضان أو شوال سنة (٥٧) أو (٥٨)، وصلى عليها أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكانت قد أمرت أن تُدفن ليلاً، فدفنت بعد الوتر بالبقيع، ونزل في قبرها خمسة من محارمها هم ابنا أختها أسماء "عبدالله وعروة"، وابنا أخيها محمد "القاسم وعبدالله"، وابن أخيها عبدالرحمن "عبدالله"[١].

غريب الألفاظ:

البَيْداءُ: الصحراء؛ سُمِّيت كذلك لأنها تُبيد مَن يحلُّها أي تهلكه[٢].

يُخسَفُ بأولهم: يُغَيَّبون في الأرض، فتغور بهم تحت أقدامهم[٣].

أسواقهم: جمع سُوقٍ، والمُراد أهل أسواقهم، فحذف المضاف إليه وأبقى المضاف، يعني الذين لا يقاتلون[٤]. وقيل العبيد الذين يؤمرون فيخرجون غير مقتنعين ولكنهم يساقون للقتال مكرهين[٥].

---

(١) انظر: الطبقات، ابن سعد ٢/٢٧٤، ٢٧٨، ٨/٥٨-٨١، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ٩١٨-٩٢١، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير ٧/١٨٦-١٨٩، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني ١٧٢٦، ٢٧٢٧، وسير أعلام النبلاء، الذهبي ٢/١٣٥-٢٠١، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي ٨/٥٥٢-٥٥٤، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني ٤/٦٨٠، ٦٨١، والأعلام، خير الدين الزركلي ٣/٢٤٠، وموسوعة عظماء حول الرسول، خالد عبدالرحمن العك ١/٩٦-١٢٨.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ب ي د)، لسان العرب، ابن منظور في (ب ي د).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير واللسان والوسيط في (خ س ف).

(٤) انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤/٣٩٩، والمعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (س و ق).

(٥) لسان العرب في (س و ق).

الشرح الأدبي

إن مكة المكرمة، بلد الله الحرام "والبلد الأمين" تنبع قيمتها من إجلال القرآن الكريم لها ... مكانًا ... وموقعًا وتأثيرًا في مسيرة التاريخ الإنساني، وهذا القدر من الجلال والجمال والكمال تشع أضواءه من بريق النص القرآني الكريم حيث يقول الله عز وجل: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(1).

وفي سورة المائدة يشرق هذا التعظيم للكعبة المشرفة في سياق التنبيه والحض على الحفاظ على حرمتها .. والإقرار بقداستها، وحتمية صد المعتدين عنها. فهي مثابة للناس وأمن للعالمين يقول الله عز وجل: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾(2).

والحديث النبوي الشريف ينبه جموع المسلمين إلى أن الكعبة المشرفة التي صانها الله عز وجل قد تتعرض لأذى المعتدين، وجموح المغيرين الحاقدين الذين يكيدون للإسلام، وهذا التنبيه النبوي جاء في صيغة إنذار مستقبلي حتى يستعد المؤمنون للدفاع عن بلد الله الحرام. تنفيذًا للأمر الإلهي: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ﴾(3).

---

(1) سورة آل عمران، الآيتان: ٩٦، ٩٧.

(2) سورة المائدة، آية: ٩٧.

(3) سورة الأنفال، آية: ٦٠.

والصيغة المستقبلية تكمن في التعبير بالفعل المضارع يغزو جيش الكعبة. ومن أسرار هذا التعبير المستقبلي أنه فيه إيحاء بأن هجوم أبرهة على الكعبة في عام الفيل ليس مقصودًا في هذا الحديث، وإنما يمكن أن يحاول الكفار تكرار مثل هذا الصنيع، وكما هُزِمَ السابقون وأرسل الله عليهم طيرًا أبابيل، ترميهم بحجارة من سجيل، وجعلهم الله كعصف مأكول، فإن أي محاولة من أعداء الإسلام تحاول النيل من قداسة البيت الحرام فإن مآلها الهلاك والخسران المبين -كما أنبأ رسول الله ﷺ.

ومجيء لفظ "جيش" في ثوب النكرة له دلالة وسر تعبيري حيث لم يحدد الرسول ﷺ الجيش ولم يُعرِّفه وإنما جعل الأمر مشاعًا حتى لا يتحدد هذا الجيش بزمان أو مكان أو عنصر أو مذهب وإنما تظل دلالته غائمة مجهولة، وذلك أدعى إلى زيادة الحرص واستمرارية الاستعداد والتصدي الدائم واليقظة الكاملة. ويحدد الرسول ﷺ مصير هؤلاء المغيرين الذين سيلقون مصير أصحاب الفيل. ويجئ هذا التحديد في قالب لغوي يشع بالدلالة المرادة حيث كان أسلوب الجزاء والشرط هو ذلك القالب اللغوي اليقيني في قول رسول الله ﷺ: ((فإذا كانوا ببيداء من الأرض يخسف بأولهم وآخرهم)).

وأداة الشرط "إذا" تفيد التحقق واليقين، والبيداء: هي الأرض الملساء التي لا شيء فيها كما يقول القرطبي والتحديد المكاني لهلاك هؤلاء المغيرين ينبئ عن رحمة الله بأهل البلد الأمين، وعن حمايته للكعبة المشرفة؛ لأنه لن يخسف بهؤلاء المعتدين وهم في مكة، فهي كلها بلد آمنٌ طيرها آمنٌ وشجرها آمنٌ، وجبالها تسبح بحمد ربها ولذلك يصف رسول الله ﷺ مكان الخسف بأنه بيداء ولم يحدد هذا المكان، وإنما قال بيداء من الأرض وكأن هذا إشارة إلى أن عذاب الله تعالى سيصيب المعتدين في أي مفازة يهربون إليها. وهذا العذاب يأخذ صفة العموم ويصاغ في أسلوب لغوي دال وهو صيغة المبني للمجهول "يخسف بأولهم وآخرهم" وكأن المصطفى ﷺ بهذه الصيغة ينبه إلى احتقار الله تعالى ونبذه لهؤلاء الطاغين الغازين فهم لا يستحقون أن يعرفوا

مصدر ذلك الخسف لأنهم لم يعظموا شعائر الله تعالى ولم يصونوا حرمة البيت العتيق، فهم ليسوا أهلاً للتعريف بأن الله هو الذي خسف بأولهم وآخرهم، وتبرق إشارة أخرى في سياق هذا التعبير وهو أنه لا يُلْحِقُ بالمعتدين الخسفَ إلا الله عز وجل وليس في مقدور أحد من البشر ذلك. وفي الخسف الذي لحق بقارون وبداره خير عظة وأعظم عبرة، قال تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾[1].

ولنتأمل هذا الحوار الرشيد بين رسول الله ﷺ وعائشة رضي الله عنها. وهو من أساليب الإقناع، وعوامل التأثير؛ حيث تعرض عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها لقضية من قضايا الإسلام الأساسية وهى: المسؤولية الخاصة عن الفعل الذي تدفع به الإرادة والنية وهذه القضية ومتعلقاتها هي التي جعلت الإمام النووي يدرج هذا الحديث الشريف في باب الإخلاص وإحضار النية فتأمل وليس في باب القتال؛ وتعجب أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ليس اعتراضًا ولكنه رغبة في معرفة الحقيقة قالت: يا رسول الله ... وفي هذا النداء الحبيب إلى النفس من عائشة رضي الله عنها تقدير ومحبة لرسول الله ﷺ ويوحي بأنها لا تنكر شيئًا من مقالة رسول الله ﷺ لأنه لا ينطق عن الهوى وإنما تريد معرفة الحكم في هذه القضية حتى لا يلتبس الأمر على جموع المؤمنين. قالت: "كيف يخسف بأولهم وآخرهم وفيهم أسواقهم ومن ليس منهم". ومعنى "أسواقهم" أي: أهل أسواقهم أو السوق أى العوام الذين لم يخرجوا للقتال وإنما يبيعون ويشترون أو أنهم ليسو من جنس هؤلاء المعتدين أو أنهم التقوا بهم في الطريق ولم يعرفوا مقصدهم.

وهذا السؤال الذي يبحث عن حقيقة الموقف لا يظل حائرًا ولكن يُحدِّد الرسول ﷺ الأمر في إيجاز وإقناع، ويجعل المصير مرتبطًا بالنية والقصد والإرادة فيقول في إجابته الكافية الشافية الوافية.. التي تطمئن كل مسلم يطوف بذهنه مثل هذه المسألة يخسف بأولهم وآخرهم ثم يبعثون على نياتهم.

---

(١) سورة القصص، آية: ٨١.

وفي الحديث الشريف تحذير من مصاحبة العصاة والملاحدة والكفار، فلا تكون الصحبة لهم إلا للاضطرار وبعض المنافع الدنيوية التي لا تؤثر في عقيدة المسلم ولا تجعل الشك يتسرب إلى نفسه.

فقه الحديث

قال ابن حجر: (قال المهلب: في هذا الحديث إن من كثّر سواد قوم في المعصية مختارًا، أن العقوبة تلزمه معهم، قال: واستنبط منه مالك عقوبة من يجالس شَرَبَة الخمر وإن لم يشرب. وتعقبه ابن المنير بأن العقوبة التي في الحديث هي الهجمة السماوية فلا يقاس عليها العقوبات الشرعية)(١).

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: بيان حرمة الكعبة.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: عدم الركون إلى الظلمة.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: أهمية النية وبيان فضلها.

رابعًا: من دلائل النبوة: إخبار النبي ﷺ ببعض الأمور.

خامسًا: من أساليب الدعوة: السؤال والجواب.

سادسًا: من مهام الداعية: توضيح الحقائق وإزالة الإبهام.

أولاً- من موضوعات الدعوة: بيان حرمة الكعبة:

يظهر هذا من قول النبي ﷺ "يغزو جيش الكعبة فإذا كانوا ببيداء من الأرض يخسف بأولهم وآخرهم" فيعاقب الله هذا الجيش بالخسف، لكونه قصد الكعبة بالأذى، وفي هذا بيان لحرمة هذا البيت وشرفه عند الله تعالى، ولا عجب في ذلك، فالكعبة هي أول بيت وضع للناس للعبادة في الأرض، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾(٢) وهي المكان الذي يثوب الناس إليه، قال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤/٣٤١.

(٢) سورة آل عمران، الآيتان: ٩٦، ٩٧.

وَأَمْنًا﴾[١] قال ابن كثير: (وعن ابن عباس رضي الله عنهما يقول: لا يقضون منه وطرًا، يأتونه ثم يرجعون إلى أهليهم ثم يعودون إليه، وعن أبي العالية يقول: أمنًا من العدو وأن يحمل فيه السلاح، وقد كانوا في الجاهلية يُتخطَّفُ الناس من حولهم وهم آمنون لا يُسْبَون)[٢] وجعلها الله تعالى قيامًا، قال سبحانه: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾[٣].

قال السعدي: (يقوم بالقيام بتعظيمه دينهم ودنياهم فبذلك يتم إسلامهم وبه تحط أوزارهم، وتحصل لهم - بقصده- العطايا الجزيلة، والإحسان الكثير. وبسببه تُنفق الأموال وتُقْتحم - من أجله - الأهوال. ويجتمع فيه من كل فج عميق جميع أجناس المسلمين، فيتعارفون، ويستعين بعضهم ببعض، ويتشاورون على المصالح العامة، وتنعقد بينهم الروابط، في مصالحهم الدينية والدنيوية، ومن أجل كون البيت قيامًا للناس قال: مَنْ قال من العلماء: إن حج بيت الله فرض كفاية في كل سنة، فلو ترك الناس حجه، لأثم كل قادر، بل لو ترك الناس حجه، لزال ما به قوامهم، وقامت القيامة)[٤] وإلى الكعبة يكون الهدي ﴿هَدْيًا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾[٥] وتوعد الله على إرادة السوء فيه ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[٦] وإلى الكعبة تكون قبلة الصلاة ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾[٧] وإلى الكعبة يكون الحج، وحولها يكون الطواف ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾[٨]. ومن خلال ما سبق يتضح فضل البيت الحرام، ومكانة الكعبة المشرفة.

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٢٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٤١٢/١.

(٣) سورة المائدة، آية: ٩٧.

(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٢٠٧.

(٥) سورة المائدة، آية: ٩٥.

(٦) سورة الحج، آية: ٢٥.

(٧) سورة البقرة، آية: ١٤٤.

(٨) سورة البقرة، آية: ١٢٥.

(إن الله سبحانه قضى في سابق علمه أن يضع فيه البذرة الطاهرة من ولد إبراهيم عليه السلام ليكونوا ركيزة للإسلام إلى يوم القيامة، وأمر الله تعالى خليله إبراهيم عليه السلام ببناء البيت ليكون مركز الدائرة للعالم الإسلامي وجعل الله البيت مرزوقًا يجبى إليه ثمرات كل شيء. ومن فضائل هذا البيت أنه مبارك، والبركة لها معنيان: أحدهما: النمو والتزايد، ثانيهما: البقاء والدوام وهذا البيت مبارك بجميع المعاني، فإن الطاعات يزداد ثوابها فيه ويتضاعف وهذا على تفسير البركة بالنماء أما على تفسيرها بالبقاء والدوام فإن الكعبة لا تخلو من الطائفين والعاكفين والركع السجود)[(١)].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: عدم الركون إلى الظلمة:

يتضح هذا من الحديث "كيف يخسف بأولهم وآخرهم وفيهم أسواقهم ومن ليس منهم" فقد دلَّ على أن الخسف يشمل الجميع، قال النووي: (وفي الحديث من الفقه التباعد من أهل الظلم والتحذير من مجالستهم ومن مجالسة البغاة ونحوهم من المبطلين لئلا يناله ما يعاقبون به، وفيه أن من كثَّر سواد قوم جرى عليه حكمهم في ظاهر عقوبات الدنيا)[(٢)]. وقال ابن حجر: (وفي الحديث التحذير من مصاحبة أهل الظلم ومجالستهم وتكثير سوادهم إلا لمن اضطر إلى ذلك، ويتردد النظر في مصاحبة التاجر لأهل الفتنة هل هي إعانة لهم على ظلمهم أو هي من الضرورة البشرية ثم يعتبر عمل كل أحد بنيته وعلى الثاني يدل ظاهر الحديث)[(٣)].

ونهى القرآن الكريم عن مجالسة الذين ظلموا والركون إليهم فقال: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾[(٤)] قال ابن كثير: (قال أبو العالية: لا ترضوا أعمالهم

---

(١) الحج أحكامه وأسراره ومنافعه، عبدالرحمن محمد الدوسري ص ٢٣، ٢٤.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٦٧٤.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤/ ٤٠٠.

(٤) سورة هود، آية: ١١٣.

وقيل: لا تداهنوا. وقيل: هو الركون إلى الشرك. وقال ابن جريج، عن ابن عباس رضي الله عنهما: ولا تميلوا إلى الذين ظلموا وهذا القول حسن، أي: لا تستعينوا بالظلمة فتكونوا كأنكم قد رضيتم بباقي صنيعهم فليس لكم من دون الله من وليٍّ ينقذكم، ولا ناصر يخلصكم من عذابه)[١]. وقال الشوكاني: (فيه إشارة إلى أن الظلمة أهل النار أو كالنار ومصاحبة النار توجب لا محالة مس النار ... والمعنى: أنها تمسكم النار حال عدم وجود من ينصركم وينقذكم منها ثم لا تنصرون من جهة الله تعالى إذ قد سبق في علمه أنه يعذبكم بسبب الركون الذي نُهيتم عنه فلم تنتهوا عنادًا وتمردًا)[٢].

وقال السعدي: (ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فإنكم إذا ملتم إليهم، ووافقتموهم على ظلمهم، أو رضيتم ما هم عليه من الظلم تمسكم النار إن فعلتم ذلك وما لكم من دون الله من أولياء يمنعونكم من عذاب الله تعالى، ولا يحصلون لكم شيئًا من ثواب الله تعالى ففي هذه الآية: التحذير من الركون إلى كل ظالم، والمراد بالركون الميل والانضمام إليه بظلمه وموافقته على ذلك، والرضا بما هو عليه من الظلم وإذا كان هذا الوعيد في الركون إلى الظلمة، فكيف حال الظلمة؟ نسأل الله العافية من الظلم)[٣].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: اعتبار الأعمال بنية العامل:

لقد أخبر النبي ﷺ أنه "يخسف بأولهم وآخرهم ثم يبعثون على نياتهم" قال ابن علان: (يعاملُ كلٌّ بقصده من الخير أو الشر)[٤]. ولا بأس بإيراد رواية مسلم فإن فيها بعض الزيادة، قالت عائشة رضي الله عنها: عَبِث رسول الله ﷺ في منامه[٥] فقلنا: يا رسول الله، صنعت شيئًا في منامك لم تكن تفعله، فقال: ((العجب إن ناسًا من أمتي يؤمون

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٣٥٤/٤.

(٢) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، الشوكاني ٥٣١/٢.

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٣٤٧.

(٤) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ٣٤.

(٥) قيل معناه: اضطرب بجسمه وقيل: حرّك أطرافه كمن يأخذ شيئًا أو يدفعه، شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٦/١٨/٩ ط/ دار الكتب العلمية.

بالبيت برجل من قريش، قد لجأ بالبيت حتى إذا كانوا بالبيداء خسف بهم)) فقلنا: يا رسول الله إن الطريق قد يجمع الناس. قال: ((نعم فيهم المستبصر والمجبور وابن السبيل، يهلكون مهلكًا واحدًا، ويصدرون مصادر شتى يبعثهم الله على نياتهم))[١]. قال النووي: (أما المستبصر فهو المستبين لذلك القاصد له عمدًا، وأما المجبور فهو المكره، وأما ابن السبيل فالمراد به سالك الطريق معهم وليس منهم، ويهلكون مهلكًا واحدًا، أي يقع الهلاك في الدنيا على جميعهم ويصدرون يوم القيامة مصادر شتى، أي يبعثون مختلفين على قدر نياتهم، فيجازون بحسبها)[٢] وقال ابن حجر: (وفي هذا الحديث أن الأعمال تعتبر بنية العامل)[٣].

وقد تكون بعض الأعمال خيرًا لكن لا ينال فاعلها الثواب إلا إذا قصد بها وجه الله تعالى وابتغاء مرضاته. قال تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[٤].

قال ابن رجب: (فنفي الخير عن كثير مما يتناجى به الناس إلا في الأمر بالمعروف وخصّ من أفراده الصدقة والإصلاح بين الناس، لعموم نفعهما، فدلّ ذلك على أن التناجي بذلك خير، وأما الثواب عليه من الله، فخصه بمن فعله ابتغاء مرضاة الله.

وإنما جعل الأمر بالمعروف من الصدقة والإصلاح بين الناس وغيرهما خيرًا، وإن لم يبتغ وجه الله، لما يترتب على ذلك من النفع المتعدِّي فيحصل به للناس إحسان وخير، وأما بالنسبة إلى الأمر، فإن قصد به وجه الله وابتغاء مرضاته، كان خيرًا له وأثيب عليه، وإن لم يقصد ذلك لم يكن خيرًا له ولا ثواب له عليه. وهذا بخلاف من صام وصلّى وذكر الله يقصد بذلك عَرَض الدنيا، فإنه لا خير له فيه بالكلِّيَّة، لأنه لا نفع

---

(١) أخرجه مسلم ٢٨٨٤، ٨.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٩/١٨/٦.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٤١/٤.

(٤) سورة النساء، آية: ١١٤.

في ذلك لصاحبه، لما يترتب عليه من الإثم فيه، ولا لغيره، لأنه لا يتعدى نفعه إلى أحد، اللهم إلا أن يحصل لأحد به اقتداء في ذلك)[١].

رابعًا- من دلائل النبوة: إخبار النبي ﷺ عن الغيوب المستقبلة:

هذا الحديث الشريف إخبار من النبي ﷺ عمّا يقع في المستقبل وهو واقع لا محالة لأنه الصادق المصدوق، وقد أطلعه على ذلك عالم الغيب والشهادة، كما وقع غيره مما أخبر به، وكان ذلك من دلائل نبوته، قال القاضي عياض: (ومن جملة معجزاته ﷺ ما أُطْلع عليه من الغيوب وما يكون، والأحاديث في هذا الباب بحر لا يُدْرك قَعْره ولا يُنْزف غَمْرُه وهذه المعجزة من جملة معجزاته المعلومة على القطع الواصل إلينا خبرها على التواتر لكثرة رواتها واتفاق معانيها على الاطلاع على الغيب)[٢].

(إن من معجزات الرسول ﷺ ودلائل نبوته ما أطلعه الله عليه من الغيوب الماضية والمستقبلة وإخباره عنها ومن المعلوم المقرر أن علم الغيب مختص بالله تعالى وحده دون خلقه، وقد جاءت أدلة تفيد أن الله تعالى استثنى من خلقه من ارتضاه من الرسل فأودعهم ما شاء من غيبه بطريق الوحي إليهم وجعله معجزة لهم ودلالة صادقة على نبوتهم، فما جاء على لسان رسول الله ﷺ من الإخبار بالمغيبات فبوحي من الله تعالى وهو من إعلام الله عز وجل لرسوله ﷺ للدلالة على ثبوت نبوته وصحة رسالته.

قال حسان بن ثابت:

نبي يرى ما لا يرى الناس حوله ... ويتلو كتاب الله في كل مشهد
فإن قال في يوم مقالة غائب ... فتصديقها في صحوة اليوم أو غد[٣]

خامسًا- من أساليب الدعوة: السؤال والجواب:

حيث جاء في الحديث "كيف يخسف بأولهم وآخرهم وفيهم أسواقهم ومن ليس منهم؟ وجاء الجواب: يخسف بأولهم وآخرهم ثم يبعثون على نياتهم" والسؤال والجواب

---

(١) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٦٧/١.

(٢) الشفا، بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض ٣٢٩/١.

(٣) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد وآخرين، ٥٤٢/١، ٥٤٣.

أسلوب من أساليب الدعوة يزيل ما قد يكون لدى المدعو من إشكال.

(إن مجالس السؤال والجواب لها قيمة تأثيرية عظيمة لدى طارحي الأسئلة الذين يتلقون الإجابات على أسئلتهم ممن وجهوها لهم، ولدى المستمعين الآخرين فمن طبيعة السائلين أن يطرحوا أسئلتهم عادة على من يحترمونه ويقدرونه ويثقون بعلمه وأمانته العلمية، وبقدرته على فهم أسئلتهم فهمًا دقيقًا فهم إذا تلقوا منه الجواب تلقفوه تلقفًا، لأن كل أبواب أفكارهم ونفوسهم متفتحة لتلقي الإجابة منه)[١].

سادسًا- من مهام الداعية: توضيح الحقائق وإزالة ما لدى المدعو من إشكال:

إن توضيح الحقائق من المهام الأساسية التي يقوم بها الداعية لأن دعوته تقوم على البيان والإيضاح لمسائل الدين، ولمصالح الدنيا والآخرة قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٢].

قال الماوردي: (ومن آداب العلماء أن لا يبخلوا بتعليم ما يحسنون، ولا يمتنعوا من إفادة ما يعلمون فإن البخل به لؤم وظلم، والمنع منه حسد وإثم وجاء عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: ما أخذ الله العهد على أهل الجهل أن يتعلموا حتى أخذ العهد على أهل العلم أن يعلّموا)[٣]. وقد بيّن رسول الله ﷺ في هذا الحديث حقيقة الخسف الذي يحدث لمن يغزون الكعبة، وأزال الإشكال الذي وقع عند عائشة رضي الله عنها ببيان أن الخسف يقع للجميع، ولكن كل يبعث حسب نيته.

---

(١) فقه الدعوة إلى الله، عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني، ٥٨/٢.

(٢) سورة النحل، آية: ٤٤.

(٣) أدب الدنيا والدين ٨٧.

الحديث رقم (٣)

٣- وعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَت قالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ، وَلكنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ، وَإِذَا اسْتُنْفِرتُمْ فانْفِرُوا» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[١].

ترجمة الراوي:

أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (٢).

غريب الألفاظ:

لا هِجْرَةَ: وَمَعْنَاهُ: لا هِجْرَةَ مِنْ مَكَّةَ؛ لأَنَّهَا صَارَتْ دَارَ إِسْلامٍ.

الفتح: فتح مكة وكان في ٢٠ رمضان ٨ هـ[٢].

الاستنفار: الاستنجاد والاستنصار، أي: إذا طلب منكم النصرة فأجيبوا وانفروا خارجين إلى الإغاثة[٣].

الشرح الأدبي

إن هذا الحديث النبوي الشريف تتمثل فيه بعض خصائص البيان النبوي الكريم- وأولى هذه الخصائص خاصية الإيجاز؛ والإيجاز والاختصار وحذف فضول الكلام يعد من شروط الفصاحة والبلاغة لأنه يعبر عن المعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة.

وقد ألمح إلى هذه الخاصية الجمالية في الحديث النبوي : هند بن أبي هالة حينما سأله الحسن عن منطق رسول الله ﷺ فقال في سياق وصفه لمنطق النبي ﷺ. (ويتكلم بجوامع الكلم فَصْلٌ لا فضول فيه ولا تقصير)[٤].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٨٠)، ومسلم واللفظ له (١٨٦٤/٨٦). وهو متفق عليه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما باللفظ الذي ذكره النووي، أخرجه البخاري ٢٧٨٣، ومسلم ١٣٥٣.

(٢) انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤٦/٦، وأطلس السيرة النبوية، د. شوقي أبو خليل ١٩٧-١٩٨، وأطلس الحديث النبوي، د. شوقي أبو خليل ٣٤٩.

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٩٣١.

(٤) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، البيهقي ١٤٣٠/١، ٢٨٧، والترمذي في مختصر الشمائل المحمدية ٢٠.

وأشاد الجاحظ بهذه الخاصية التي تؤكد اتساع الدلالة وقوة الأداء وعمق المعنى في البيان النبوي بقول الجاحظ واصفاً كلام رسول الله ﷺ: "هو الكلام الذي قل عدد حروفه وكثر عدد معانيه وجمع بين المهابة والحلاوة وبين حسن الإفهام وقلة عدد الكلام، وبين الخطب الطوال بالكلم القصار".

ولنقتبس من هذا الحديث الشريف بعض المعاني الوضيئة، ولنحدق في معانيه ومبانيه الموجزة المشعة بكثير من الدلالات التي تسبح في آفاق يرنو إليها كل مسلم حريص على دينه وأمته، وأول بارقة من بوارق هذا الحديث الشريف ترسي قاعدة كلية من قواعد الإسلام وهي "لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية".

فالهجرة في مدلولها اللغوي: هي ترك مكان إلى آخر وهي مشتقة من الهجر وهو مفارقة الإنسان ببدنه أو لسانه أو قلبه، واستعملت في لسان الشارع كما يقول صاحب كتاب الأدب النبوي في ترك دار الخوف إلى دار الأمن، كما فعل بعض الصحابة رضي الله عنهم في تركهم مكة إلى الحبشة في أول الأمر، وفي ترك دار الكفر إلى دار الإسلام فراراً بالدين كما فعل المسلمون في مغادرتهم مكة إلى المدينة لما انتشر الإسلام فيها؛ ومما ينبئ عن عمق الدلالة في هذا الحديث أن العلماء تعددت آراؤهم في تفسير المراد من قول رسول الله ﷺ: "لا هجرة بعد الفتح" أي: لا هجرة بعد فتح مكة لأنها صارت دار إسلام فلا يتصور منها الهجرة حيث ستظل آمنة محفوظة لأنها بلد الله الحرام "وهذا المعنى فيه بشارة للمؤمنين بنصر الله تعالى لهم، وفيه ارتباط بالحديث السابق: الذي توعد فيه رسول الله ﷺ المعتدين الغازين بأنه سيخسف بأولهم وآخرهم وسيفرون إلى البيداء ثم يهلكون مثل أصحاب الفيل، وفي إطار هذه الدلالة المشعة ببريق التأييد الإلهي والوعد بالنصرة وحفظ البيت الحرام، ويرى بعض العلماء أن الحديث يتضمن معجزة لرسول الله ﷺ وهي أن مكة تبقى دار إسلام لا يتصور منها الهجرة ، وهي كذلك -إن شاء الله- إلى يوم الدين، وصيغة النفي في الجملة الأولى تجعل القاعدة ثابتة ولكن هذا الثبات لا يعني عدم الحركة ولا يعني الاستسلام والخنوع، ولكن يظل التحرك للجهاد قائماً وتظل النية الخالصة لنصرة دين الله هي الدافع الأقوى لكل مسلم،

"ولكن" وهي للاستدراك الذي قال عنه العلماء أنه نفي ما يتوهم ثبوته وإثبات ما توهم نفيه، ولكن في إطار هذه الدلالة الاستدراكية تقتضي مخالفة ما بعدها لما قبلها أي: المفارقة عن الأوطان المسماةُ بالهجرة المطلقة انقطعت، لكن المفارقة بسبب الجهاد باقية مدى الدهر، وكذا المفارقة بسبب نية خالصة لله تعالى كطلب العلم والفرار بالدين وطلب الرزق، وطلب الأمان والبعد عن العصاة والظالمين... إلخ.

ولا يترك المصطفى ﷺ الأمر غامضًا قابلاً للتأويلات ولكنه يختم الحديث الشريف بهذا التوجيه الراشد السديد الذي يجعل المسلمين دائمًا على استعداد وفي حالة استنفار دفاعًا عن بلد الله الحرام وحرصًا على اتساع رقعة الإسلام وهذا الاستعداد يتكئ على ثلاثة أسس : الجهاد والنية والاستنفار.

وصياغة طلب الاستنفار في قالب الشرط والجزاء، في قوله: "وإذا استنفرتم فانفروا" يرشد إلى حتمية الاستجابة لأمر الإمام والقائد الذي يطلب من المسلمين الخروج للجهاد إما لمزيد من الفتوحات الإسلامية ونشر كلمة التوحيد ورفع راية الإسلام وإما للدفاع عن العرض والدين والمال والوطن: إذا تعرضت هذه المكونات التي تحفظ للمسلم كرامته وتصون هيبته- للعدوان والتشويه والإيذاء. يقول الله عز وجل: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَـٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[١].

وفي سورة النساء يأتي الأمر الإلهي مؤيدًا رسوله الكريم ﷺ في وجوب الاستنفار والاستعداد الكامل بقول الله عز وجل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا﴾[٢].

---

(١) سورة التوبة، آية: ٤١.

(٢) سورة النساء، آية: ٧١.

فقه الحديث

في هذا الحديث من الفقه ما يلي:

١- الهجرة من بلد الكُفْر: قال ابن حجر: (قوله "لا هجرة بعد الفتح" أي: فتح مكة، أو المراد ما هو أعمّ من ذلك، إشارة إلى أن حكم غير مكة في ذلك حكمها، فلا تجب الهجرة من بلدٍ قد فتحه المسلمون، أما قبل فتح البلد فمن به مِنْ المسلمين أحد ثلاثة:

الأول: قادر على الهجرة منها لا يمكنه إظهار دينه ولا أداء واجباته، فالهجرة منه واجبة.

الثاني: قادر لكنه يمكنه إظهار دينه وأداء واجباته [فهجرته] مستحبة، لتكثير المسلمين بها ومعونتهم وجهاد الكفار والأمن من غدرهم والراحة من رؤية المنكر بينهم.

الثالث: عاجز بعذر من أَسْر أو مرض أو غيره، فتجوز له الإقامة فإن حمل على نفسه وتكلف الخروج منها أُجِر)[(١)].

وقال ابن حجر في موضع آخر: (قوله "كان المؤمنون يفر أحدهم بدينه ... إلخ"[(٢)] أشارت عائشة رضي الله عنها إلى بيان مشروعية الهجرة وأن من سببها خوف الفتنة، والحكم يدور مع علته، فمقتضاه أن مَنْ قدر على عبادة الله في أي موضع اتفق، لم تجب عليه الهجرة منه وإلا وجبت. ومن ثم قال الماوردي: إذا قدر على إظهار الدين في بلدٍ من بلاد الكفر فقد صارت البلد به دار إسلام، فالإقامة فيها أفضل من الرحلة منها لما يترجى من دخول غيره في الإسلام)[(٣)].

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٩٠/٦.

(٢) هذه رواية البخاري (٣٨٩٨، ٤٣١٢).

(٣) المرجع السابق ٢٢٩/٧، وانظر للمزيد: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، الهروي ١٨٢/٤، والبحر الرائق شرح كنز الدقائق، ابن نجيم ٣٦٨/١، والمبسوط، السرخسي ٦/١٠، والمعيار المعرب، الونشريسي ١٢١/٢ وما بعدها، وروضة الطالبين وعمدة المفتين، الإمام النووي ٢٨٢/١٠، والمهذب في اختصار السنن الكبير، الذهبي ٢٢٨/٢، وتحفة المحتاج في شرح المنهاج، ابن حجر ٢٦٩/٩، ونهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، الرملي ٧٨/٨، ومعالم السنن، الخطابي ٣٥٢/٣، وشرح منتهى الإرادات، البهوتي ٩٤/٢، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي ٣٨/٣، والمبدع في شرح المقنع، ابن مفلح ٣١٤/٣، و موع فتاوى ابن تيمية، ابن تيمية ٢٤٠/٢٨، والمغني، ابن قدامة ٤٥٧/٨ (عن الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٨٣/٤٢-١٨٨).

٢- وجوب النفرة لقتال العدوّ:

قوله ﷺ "وإذا استنفرتم فانفروا" فيه أمر بالاستنفار والخروج للجهاد إذا استنفر الإمام، قال ابن حجر: (الجهاد بعده ﷺ فرض كفاية على المشهور إلا أن تدعو الحاجة إليه كأن يدهم العدو ويتعين على من عينه الإمام، ويتأدى فرض الكفاية بفعله في السنة مرة عند الجمهور، ومن حجتهم أن الجزية تجب بدلاً عنه، ولا تجب في السنة أكثر من مرة اتفاقًا فليكن بدلها كذلك، وقيل يجب كلما أمكن وهو قوي.

والذي يظهر أنّه استمر على ما كان عليه في زمن النبي ﷺ إلى أن تكاملت فتوح معظم البلاد وانتشر الإسلام في أقطار الأرض ثم صار إلى ما تقدم ذكره. والتحقيق أيضًا أن جنس جهاد الكفار متعين على كل مسلم إما بيده وإما بلسانه وإما بماله وإما بقلبه، والله أعلم)[1].

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: الحث على انقطاع الهجرة بعد فتح مكة.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: أهمية الجهاد في سبيل الله تعالى.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: فضل النية بالنسبة للأعمال.

رابعًا: من تاريخ الدعوة: فتح مكة.

خامسًا: من مهام الداعية: بيان الحقائق للمدعوين.

أولاً- من موضوعات الدعوة: انقطاع الهجرة بعد فتح مكة:

يتضح هذا من قوله ﷺ في الحديث: "لا هجرة بعد الفتح"، قال ابن علان: (قال

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٧/٦-٣٨، وانظر للمزيد حاشية ابن عابدين، محمد أمين بن عمر بن عبدالعزيز ٢١٩/٣، والمبسوط، السرخسي ٣/١٠، وحاشية الدسوقي على الشرح الكبير، محمد بن عرفة الدسوقي ١٧٥/٢، ١٨٢، وجواهر الإكليل ٢٥٠/١، ٢٥٢، والمهذب في اختصار السنن الكبير، الذهبي ٢٢٧/٢، ونهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، الرملي ٤٥/٨، والمغني، ابن قدامة ٣٤٥/٨، ٣٥٢، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي ٣٢/٣، ٣٣، والمحلى، ابن حزم ٢٩١/٧ (عن الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٢٩/٦-١٣٢).

الخطابي: كانت الهجرة على معنيين: أحدهما أنهم إذا أسلموا وأقاموا بين قومهم أوذوا، فأمروا بالهجرة ليسلم لهم دينهم ويزول عنهم الأذى. والآخر: الهجرة من مكة إلى المدينة، لأن أهل الدين بالمدينة كانوا قليلين ضعيفين، فكان الواجب على من أسلم أن يهاجر إلى رسول الله ﷺ إن حدث حادث استعان بهم في ذلك، فلما فتحت مكة استغنى عن ذلك؛ إذ كان معظم الخوف من أهلها، فأمر المسلمون أن يقيموا أوطانهم، ويكونوا على نية الجهاد مستعدين لأن ينفروا إذا استنفروا. قال المصنف: يتضمن الحديث على هذا القول معجزة لرسول الله ﷺ؛ وهي أن مكة تبقى دار إسلام لا يتصور منها الهجرة، قال: وقيل معنى الحديث: "لا هجرة بعد الفتح"، فضلها كفضل الهجرة قبل الفتح، قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ﴾، وقوله: "ولكن جهاد ونية"، قال الطيبي: (كلمة "لكن" تقتضي مخالفة ما بعدها لما قبلها أي: المفارقة عن الأوطان المسماة بالهجرة المطلقة انقطعت، ولكن المفارقة بسبب الجهاد باقية مدى الدهر وكذا المفارقة بسبب نية خالصة لله تعالى، كطلب العلم والفرار بدينه ونحوه وقال المصنف: تحصيل الخير بسبب الهجرة قد انقطع بالفتح، ولكن حصلوه بالجهاد والنية)[١].

قال ابن دقيق العيد: (اسم الهجرة يقع على أمور:

الهجرة الأولى: إلى الحبشة عندما آذى الكفار الصحابة رضي الله عنهم.

الهجرة الثانية: من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة.

الهجرة الثالثة: هجرة القبائل إلى النبي ﷺ لتعلم الشرائع، ثم يرجعون إلى المواطن ويعلّمون قومهم.

الهجرة الرابعة: هجرة من أسلم من أهل مكة ليأتي إلى النبي ﷺ ثم يرجع إلى مكة.

الهجرة الخامسة: هجر ما نهى الله عنه[٢].

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٣٥.

(٢) إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، تقي الدين بن دقيق العيد ص ٢٦.

وبيّن ابن القيم حال القلب المهاجر إلى ربه فقال: "وللعبد في كل وقت هجرتان: هجرة إلى الله تعالى بالطلب والمحبة والعبودية والتوكل والإنابة والتسليم والتفويض والخوف والرجاء والإقبال عليه وصدق الملجأ والافتقار في كل نفس إليه. وهجرة إلى رسوله ﷺ في حركاته، وسكناته الظاهرة والباطنة، بحيث تكون موافقة لشرعه الذي هو تفصيل محابِّ الله ومرضاته، ولا يقبل الله من أحد دينًا سواه، وكلُّ عمل سواه، فعيش النفس وحظها لا زاد المعاد"(١).

وإذا كانت الهجرة لها هذا الفضل فهل انقطعت بتمام الفتح أم هي باقية؟

جاء في الموسوعة الفقهية: "وأما بقاء الهجرة بعد فتح مكة: فقد وردت أحاديث ظاهرها التعارض في هذه المسألة: فبعض الأحاديث يدلُّ على أن الهجرة انقطعت بفتح مكة، مثل ما ورد عن النبي ﷺ أنه قال: "لا هِجرةَ بعدَ الفتحِ، ولكنْ جِهادٌ ونيَّة"(٢)، وما ورد أيضًا أن عبيد بن عمير سأل عائشة رضي الله عنها عن الهجرة؟ فقالت: ((لا هجرةَ اليوم، كان المؤمنونَ يَفِرُّ أحدُهم بدينهِ إلى اللَّه تعالى وإلى رسولهِ صلى الله عليه وسلم مخافةَ أن يُفتَنَ عليه، فأما اليومَ فقد أظهرَ اللَّه الإسلام، والمؤمن يَعبُدُ ربَّهُ حيث شاء، ولكن جهادٌ ونيَّة))(٣).

وكذلك ما ورد عن مجاشع بن مسعود رضي الله عنه قال: أتيت النبي ﷺ أنا وأخي فقلت: بايعنا على الهجرة قال: مَضَتِ الهجرةُ لأهلِها. فقلت: عَلامَ تُبايِعُنا؟ قال: ((على الإسلام والجهاد))(٤).

وبعضها الآخر يدل على أن الهجرة باقية إلى قيام الساعة، عن معاوية رضي الله عنه قال: ((لاَ تَنْقَطِعُ الهِجْرَةُ حَتَّى تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ، وَلاَ تَنْقَطِعُ التَّوْبَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا))(٥)، وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((لا تَنْقَطِعُ الهِجْرَةُ ما

---

(١) طريق الهجرتين، ابن القيم ص ٢٤.

(٢) هو حديث الباب.

(٣) أخرجه البخاري ٤٣١٢.

(٤) أخرجه البخاري ٢٩٦٢، ومسلم ١٨٦٣.

(٥) أخرجه أبو داود ٢٤٧٩، وصححه الألباني، (صحيح سنن أبي داود ٢١٦٦).

دَامَ العَدُوُّ يُقَاتَلُ))[١]، وعن جنادة بن أبي أمية رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: ((إِنَّ الهِجْرَةَ لا تَنْقَطِعُ مَا كَانَ الجِهَادُ))[٢].

وقد اختلفت طرائق الفقهاء في الجمع بين تلك الأحاديث التي ظاهرها التعارض، وتأويلها على ثلاثة أقوال:

الأول: أن الهجرة كانت في أول الإسلام مندوبًا إليها، ثم فرضت بعد هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، فلما فتحت مكة ارتفع وجوب الهجرة، وعاد الأمر فيها إلى الندب والاستحباب، فهما هجرتان: المنقطعة هي المفروضة، والباقية هي المندوبة. وهو قول الحنفية والخطابي[٣].

والثاني: أن الهجرة من مكة إلى المدينة ارتفعت يوم الفتح، لأن مكة صارت يوم الفتح دار إسلام، وكانت الهجرة منها قبل ذلك واجبةً، لكونها مساكن أهل الشرك، فمن حصل عليها فاز بها وانفرد بفضلها دون مَنْ بعدهم. وهذا هو الفرض الذي سقط. أما الهجرة الباقية الدائمة إلى يوم القيامة فهي هجرة من أسلم بدار الكفر، إذ يلزمه أن لا يقيم بها حيث تُجرى عليه أحكامهم[٤]، إلا أن هذه الهجرة لا يحرم على المهاجر بها الرجوع إلى وطنه إن عاد إلى دار الإسلام كما حرم على المهاجرين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الرجوع إلى مكة للذي ادخره الله لهم من الفضل في ذلك.

وقد توسع بعض أصحاب هذا القول في داعي الهجرة الباقية فقال: إن مفارقة الأوطان إلى الله ورسوله التي هي الهجرة المعتبرة الفاضلة المميزة لأهلها من سائر الناس

---

(١) أخرجه أحمد ١٩٢/١، رقم ١٦٧١، وقال محققو المسند: إسناده حسن ٢٠٦/٣.

(٢) أخرجه أحمد ٦٢/٤، رقم ١٦٥٩٧، وقال محققو المسند: إسناده صحيح ١٤٢/٢٧.

(٣) معالم السنن، الخطابي ٣٥٢/٣، ومرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، الهروي ١٨٢/٤، والمبسوط، السرخسي ٦/١٠.

(٤) شرح السنة، للبغوي ٢٩٥/٧، ٣٧٣/١٠، ومرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، الهروي، شرح مشكاة المصابيح، الملا علي القاري ١٨٢/٤، والمقدمات الممهدات، أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد الجد ١٥٣/٢، وعارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي، القاضي أبو بكر بن العربي ٨٨/٧، ونيل الأوطار، الشوكاني ٢٦/٧، وشرح الأبي على صحيح مسلم ٢١١/٥، وشرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٨/١٣، وعمدة القاري، العيني ٣١٧/١١، وفتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٩/٦، والمغني، ابن قدامة ٤٥٦/٨.

امتيازًا ظاهرًا انقطعت، لكن المفارقة من الأوطان بسبب نية خالصة لله تعالى كطلب العلم والفرار بدينه من دار الكفر ومما لا يُقام فيها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وزيارة بيت الله تعالى، ومسجد رسول الله ﷺ والمسجد الأقصى وغيرها أو بسبب الجهاد في سبيل الله تعالى باقية مدى الدهر.

والثالث: أن الهجرة الفاضلة التي وعد الله عليها بالجنة، كان الرجل يأتي النبي ﷺ ويدع أهله وماله، لا يرجع في شيء منه انقطعت بفتح مكة. أما الهجرة الباقية فهي هجر السيئات. حيث ورد عن النبي ﷺ أنه قال: ((إِنَّ الْهِجْرَةَ خَصْلَتَانِ إِحْدَاهُمَا أَنْ تَهْجُرَ السَّيِّئَاتِ وَالأُخْرَى أَنْ تُهَاجِرَ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلاَ تَنْقَطِعُ الْهِجْرَةُ مَا تُقُبِّلَتِ التَّوْبَةُ وَلاَ تَزَالُ التَّوْبَةُ مَقْبُولَةً حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنَ الْمَغْرِبِ فَإِذَا طَلَعَتْ طُبِعَ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ بِمَا فِيهِ وَكُفِيَ النَّاسُ الْعَمَلَ))[1].

وورد من حديث فضالة بن عبيد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((الْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ الْخَطَايَا وَالذُّنُوبَ))[2]، وورد عن النبي ﷺ قال: ((المهاجر من هجر ما نهى الله عنه))[3].

وقد صرح ابن قدامة بأن حكم الهجرة باقٍ لا ينقطع إلى يوم القيامة في قول عامة أهل العلم"[4].

هذا وقد مدح الله المهاجرين ووعدهم بالثواب العظيم والأجر الكبير، قال تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ﴾[5]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[6]، وسمّى الله تعالى المهاجرين من الصحابة بالصادقين:

---

(١) أخرجه أحمد ١٩٢/١ رقم ١٦٧١ وقال محققو المسند: إسناده حسن ٢٠٦/٣.

(٢) أخرجه ابن ماجه ٣٩٣٤، وصحح الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ٣١٧٨).

(٣) أخرجه البخاري ١٠، ومسلم ٤٠.

(٤) انظر: الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ومصادرها ١٨٠/٤٢ - ١٨٢.

(٥) سورة آل عمران، آية: ١٩٥.

(٦) سورة البقرة، آية: ٢١٨.

﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ﴾[1]، وأخبر عن رضاه عنهم، فقال: ﴿وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَـٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[2].

قال الكاندهلوي: "لقد ترك الصحابة رضي الله عنهم أوطانهم العزيزة، وكان ذلك أحب إليهم من الدنيا ومتاعها، وقدموا الدين على الدنيا فلم يبالوا بضياعها ولم يلتفتوا إلى فنائها، وفروا من بلاد إلى بلاد احتفاظًا لدينهم من الفتنة فكأنهم قد خُلقوا للآخرة وكانوا من أبنائها فصارت الدنيا كأنها خلقت لهم"[3].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: الحث على الجهاد في سبيل الله:

يتضح هذا من قوله صلى الله عليه وسلم: (ولكن جهاد ونية)، ما بينه ابن عثيمين: "أي: الأمر بعد هذا جهاد، أي يخرج أهل مكة من مكة إلى الجهاد والنية، أي النية الصالحة للجهاد في سبيل الله وذلك بأن ينوي الإنسان بجهاده أن تكون كلمة الله هي العليا"[4]، وقد حثَّت نصوص القرآن على الجهاد في سبيل الله، قال تعالى: ﴿وَجَـٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[6]، وقوله تعالى: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَـٰعِدِينَ دَرَجَةً﴾[7]، وبيّن الرسول صلى الله عليه وسلم فضل الجهاد، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم أيُّ العَمَلِ أَفْضَلُ؟ فقال: ((إيمانٌ باللّهِ ورَسولهِ)). قيل: ثم ماذا؟ قال: ((الجهاد في سبيل

---

(١) سورة الحشر، آية: ٨.

(٢) سورة التوبة، آية: ١٠٠.

(٣) حياة الصحابة، محمد يوسف الكاندهلوي ص ١٧٤.

(٤) شرح رياض الصالحين، محمد بن عثيمين ١/١٧.

(٥) سورة الحج، آية: ٧٨.

(٦) سورة التوبة، آية: ٤١.

(٧) سورة النساء، آية: ٩٥.

الله)). قيل: ثُمَّ ماذا؟ قال: ((حَجٌّ مَبْرور))(١).

ومن هذه النصوص يتبيّن فضل وأهمية الجهاد في سبيل الله، "ولما كان الجهاد من فرائض الإسلام فقد عظمت به الوصية، واشتدت إليه الحاجة وأصبح من لوازم الحياة الكريمة، حيث يبذل المسلم ماله ونفسه وجميع ما يملك لإعلاء كلمة الله سبحانه وتعالى امتثالاً لأمره جل وعلا، والجهاد يضمن بقاء أمة الإسلام قوية مهابة الجانب يحسب لها الطامعون ألف حساب، وهذا الأثر لو لم يكن إلا هو فقد كفى ذلك، لأن أعداء الإسلام والمسلمين قذف الله في قلوبهم حب الدنيا والتدافع عليها، والحرص على زخارفها وهذا يترك في النفس البشرية الخوف والجبن، أما المسلمون يقبلون على القتال في سبيل الله بشوق لما يعلمون ما أعده المولى جل وعلا للشهيد من مقام رفيع وأجر عظيم ومرتبة عالية"(٢).

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: فضل النية بالنسبة للأعمال:

يؤخذ هذا من قوله ﷺ: (ولكن جهاد ونية)، وما من شك في أن النية لها أثر كبير في الأعمال، عن أبي موسى رضي الله عنه قال: ((جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: الرجل يقاتل للمغنم والرجل يقاتل للذكر والرجل يقاتل ليرى مكانه، فمن في سبيل الله؟ قال: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله))(٣)، قال ابن تيمية: (فالمؤمن إذا كانت له نية، أتت على عامة أفعاله، وكانت المباحات من صالح أعماله لصلاح قلبه ونيته، والمنافق - لفساد قلبه ونيته- يعاقب على ما يظهره من العبادات رياءً)(٤).

وقال السعدي: "إن صلاح الأعمال وفسادها بالنيات، وأنه يحصل للعبد من الثمرات والنتائج بحسب نيته، ومعلوم أن جميع العبادات لا تصح إلا بالنية، بأن ينوي ذلك العمل، ويميز ذلك العمل، ويميز بين العادة والعبادات، وبين مراتب العبادات، ثم لا بد

---

(١) أخرجه البخاري ٢٦، ومسلم ٨٣.

(٢) قواعد الدعوة الإسلامية، د. الشريف حمدان الهجاري ص ٢٤١.

(٣) أخرجه البخاري ٢٨١٠، ومسلم ١٩٠٤.

(٤) مجموع الفتاوى، ابن تيمية ١٤/٤٧٠.

مع ذلك أن يكون القصد منها والغرض وجه الله وثوابه، وينبغي للعبد في العبادات أن يكون له فيها نية عامة مطلقة، ونية خاصة مقيدة. فأما النية العامة فإنه يعقد بقلبه عزمًا جازمًا لا تردد فيه أن جميع ما عمل من الأعمال الاعتقادية والبدنية والمالية والقولية والمركبة من ذلك مقصوده بها وجه الله تعالى والتقرب إليه وطلب رضاه واحتساب ثوابه. وأما النية الخاصة المقيدة أن يتعبد لله بإخلاص في كل جزء من أعماله، ويسأل الله تعالى أن يحقق له الإخلاص في كل ما يأتي وما يذر، وإذا حقق النية في العبادات فليغتنم النية في المباحات والعادات فليجعلها بالنية الصالحة عبادة أو قريبة منها"[١].

رابعًا- من تاريخ الدعوة: فتح مكة:

يتضح هذا من قوله ﷺ في الحديث: "لا هجرة بعد الفتح"، (ووقع فتح مكة لعشر بقين من رمضان سنة ثمان من الهجرة[٢]، ولقد كان فتح مكة تاريخًا فاصلاً في الدعوة الإسلامية وبفتحها انقطعت الهجرة، "لقد طويت منذ تلك اللحظة جاهلية قريش فلتطو معها سائر عاداتها وتقاليدها، ولتدفن في غياهب الماضي الذي أدبر ولتغتسل قريش من بقية أدرانها لتنضم إلى القافلة وتسير مع الركب)[٣]، ولم يسو القرآن بين قبل الفتح وبعده، قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَـٰتَلَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَـٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[٤].

قال ابن الأثير: "ولما دخل رسول الله ﷺ مكة كانت عليه عمامة سوداء، فوقف على باب الكعبة وقال: ((لاَ إله إلا الله وَحْدَهُ لاَ شريكَ لَهُ صدقَ وعدَهُ ونصرَ عبدَهُ وهزمَ الأحزابَ وحدَهُ))، ثم قال: ((يا معشر قريش ما ترونَ أني فاعلٌ بكُم ؟)) قالُوا: خيرًا أخٌ

---

(١) الرياض الناضرة والحدائق النيرة الزاهرة، عبدالرحمن السعدي ص ٢٠٨ - ٢٠٩.

(٢) الدرر في اختصار المغازي والسير، ابن عبد البر، تحقيق: د. شوقي ضيف ص ٢٢٣.

(٣) فقه السيرة، د. محمد سعيد رمضان البوطي ص ٤١٤.

(٤) سورة النساء، آية: ٩٥.

كريمٌ وابنُ أخٍ كريمٍ، قالَ: ((اذهبُوا فأنتُمْ الطلقاءُ))، فعفا عنهم، وكان الله قد أمكنه منهم، وكانوا له فَيْئًا[١]، فلذلك سمي أهل مكة: الطلقاء، وطاف بالكعبة سبعًا، ودخلها وصلى فيها، ورأى فيها صور الأنبياء فأمر بها فمحيت، وكان على الكعبة ثلاثمائة وستون صنمًا، وكان بيده قضيب فكان يشير به إلى الأصنام وهو يقرأ: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾[٢]، فلا يشير إلى صنم منها إلا سقط لوجهه، وقيل: بل أمر بها وحُطِّمت وكُسِّرت، ثم جلس رسول الله ﷺ للبيعة على الصفا وعمر بن الخطاب رضي الله عنه تحته، واجتمع الناس لبيعة رسول الله ﷺ على الإسلام، فكان يبايعهم على السمع والطاعة لله ولرسوله فيما استطاعوا"[٣].

خامسًا- من مهام الداعية: بيان الحقائق للمدعوين:

يستنبط هذا من بيان النبي ﷺ: "لا هجرة بعد الفتح" ولكن الذي ينبغي على المسلم الجهاد وإخلاص النية لله، وفي ذلك بيان للحقائق.

ذلك لأن الداعية منهي عن الكتمان ومأمور بالبيان والبلاغ وبهذا أمر الله رسوله ﷺ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[٤]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾[٥]، ونعى الله على أهل الكتاب كتمانهم: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾[٦]، ولذا كان من أبرز مهام الداعية: بيان الحقائق للمدعوين.

"لقد أمر الله تعالى الأنبياء عليهم السلام وأتباعهم أن يوضحوا الحق للناس، وأن يقولوا

---

(١) الفيء ما يحصل عليه النبي بلا قتال.

(٢) سورة الإسراء، آية: ٨١.

(٣) الكامل في التاريخ، عز الدين ابن الأثير، تحقيق: د. عمر عبدالسلام تدمري، ١٢٥/٢.

(٤) سورة النحل، آية: ٤٤.

(٥) سورة المائدة، آية: ٦٧.

(٦) سورة آل عمران، آية: ١٨٧.

لهم في أنفسهم قولاً بليغًا ولا يكون البيان على كماله إلا بالإيضاح الوافي، ولا يكون الكلام بليغًا إلا إذا كان واضحًا للنفوس المخاطبة وإن دعوة الإسلام دعوة واضحة، فعقيدتها بسيطة وسهلة وأدلتها في متناول الجميع، ولقد كان سيد الدعاة ﷺ يوضح للناس ولأتباعه ويكرر كلامه ثلاثًا ليتحقق الإيضاح"(١).

(١) فقه الدعوة، د. بسام العموش ص ٢٦ - ٢٧.

الحديث رقم (٤)

٤- وعَنْ أبي عَبْدِ اللَّهِ جابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الأَنْصَارِيِّ ﵄ قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي غَزَاة، فَقَالَ: **«إِنَّ بِالْمَدِينَةِ لَرِجَالاً مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا، وَلاَ قَطَعْتُمْ وَادِيًا إِلاَّ كَانُوا مَعَكُم، حَبَسَهُمُ الْمَرَضُ»**[1].

وَفِي روايَةٍ: **«إِلاَّ شَرِكُوكُمْ فِي الأَجْرِ»** رَواهُ مُسْلِمٌ[2].

ورواهُ الْبُخَارِيُّ، عَنْ أَنَسٍ ﵁ قَالَ: رَجَعْنَا مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: **«إِنَّ أَقْوَامًا خلْفَنَا بالمدِينةِ[3] مَا سَلَكْنَا شِعْبًا وَلاَ وَادِيًا إِلاَّ وَهُمْ مَعَنَا[4]، حَبَسَهُمُ الْعُذْرُ»**[5].

ترجمة الراويين:

الأول: جابر بن عبدالله الأنصاري: هو جابر بن عبدالله بن حرام الأنصاري ﵁.

صاحب رسول الله ﷺ، وابن صاحبه، شهد ليلة العقبة مع والده، وكان والده من النُقباءِ البدريين، استشهد يوم أحد، وكان جابر من أصغر الأنصار الذين بايعوا النبي ﷺ في ليلة العقبة، (وقد غزا مع رسول الله ﷺ تسع عشرة غزوة، وأراد شهود بدرٍ فخلفه أبوه على إخوته وكن تسعًا وخلفه أيضًا حين خرج إلى أحد، ولما قُتل أبوه عبدالله لم يتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة قط)[6]، وكان من أهل بيعة الرضوان، ومن أهل السبق في الإسلام. وقد قال النبي ﷺ للمسلمين يوم الحديبية. وكان فيهم جابر ((أنتم خيرُ أهلِ الأرض))[7] وكان عدد المسلمين آنذاك ألفًا وأربعمائة.

---

(١) أخرجه مسلم (١٩١١/١٥٩).

(٢) بعد حديث (١٩١١/١٥٩، بدون رقم).

(٣) لفظ البخاري: (بالمدينة خلفنا)، والمثبت لفظ المنذري في ترغيبه.

(٤) عند البخاري زيادة: (فيه)، وهي لا توجد عند المنذري في ترغيبه، فتبعه عليه المؤلف.

(٥) أخرجه البخاري الشطر الأول من قول أنس برقم (٢٨٣٨)، و (٤٤٢٣)، والمرفوع منه برقم (٢٨٣٩). أورده المنذري في ترغيبه (١٨) جمعًا، وتبعه عليه المؤلف.

(٦) أخرجه مسلم (١٨١٣) بنحوه.

(٧) أخرجه البخاري ٤١٥٤، ومسلم ١٨٥٦، ٧١.

وكان رضي الله عنه من المكثرين للحديث الحافظين للسنن، وقد بلغت روايته عن النبي صلى الله عليه وسلم ١٥٤٠ حديثًا، وكان ذا همة عالية في جمع أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم، فقد رحل في حديث القِصاص من المدينة إلى الشام ليسمعه من عبدالله بن أنيس، وقد رحل في آخر عمره إلى مكة في أحاديث سمعها، ثم انصرف إلى المدينة، وكانت له في آخر أيامه حلقة في المسجد النبوي يؤخذ فيها العلم، وقد كُفَّ بصره في آخر عمره، وكان آخر من مات بالمدينة من الصحابة.

وتوفي سنة ٧٣هـ، وقيل ٧٧هـ، وقيل ٧٩هـ، وقيل غير ذلك، وقال البخاري: صلى عليه الحجاج[١].

الثاني: أنس بن مالك: هو أنس بن مالك بن النضر الأنصاري.

صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وخادمه، ولد بالمدينة قبل عام الهجرة بعشر سنين وأسلم صغيرًا، وأتت به أمه "أم سُلَيْم" إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله هذا ابني وهو غلام كاتب، يخدمك، فَقَبِله صلى الله عليه وسلم، وقد دعا له النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: ((اللهمَّ، أكثر مالَهُ وَوَلَدَهُ وبارك لهُ فيما أعطيتهُ)) فقال أنس إن مالي لكثير، وإن ولدي وولد ولدي ليتعادُّن عَلَى نحوِ المائة، اليوم[٢].

وقد شهد بدرًا وهو غلام يخدم النبي صلى الله عليه وسلم، وشهد الحديبية وشهد عمرة النبي صلى الله عليه وسلم وحجه، وشهد الفتح وحنينًا والطائف وخيبر. فصحب النبي صلى الله عليه وسلم أتمَّ الصحبة، ولزمه أكملَ الملازمة إلى أن قُبض صلى الله عليه وسلم فرحل إلى دمشق ومنها إلى البصرة. وكان أحسن الناس صلاة في الحضر والسفر.

---

(١) الطبقات، ابن سعد ٥٦٢/٣-٥٦٣، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ١١٤-١١٥، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير ٤٩٢/١-٤٩٤، وسير أعلام النبلاء، الذهبي ١٨٩/٢-١٩٤، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني ١٦٦، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي ٤٢٥/١-٤٢٨، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني ٢٨١/١-٢٨٢، والأعلام، خير الدين الزركلي ١٠٤/٢، وموسوعة عظماء حول الرسول، خالد عبدالرحمن العك ٥٥٢/١-٥٥٥.

(٢) أخرجه البخاري ١٩٨٢، ومسلم واللفظ له ٢٤٨، ١٤٣.

قال فيه أبو هريرة ﷺ: ما رأيتُ أحدًا أشبه صلاةً برسول الله ﷺ من ابن أم سليم، أنس بن مالك.

وكان يطيل القيام حتى تَفَطَّر قدماه دمًا، وقد دخل عليه الزهري يومًا فوجده يبكي!! فقال ما يبكيك؟ فقال: ما أعرف شيئًا مما أدركنا إلا هذه الصلاة، وهذه الصلاة قد ضُيعت –أي بتأخيرها من قبل الولاة عن أول وقتها، فأحزنه ذلك وأبكاه.

وكان يقول: ما من ليلة إلا وأنا أرى فيها حبيبي ﷺ ثم يبكي وبلغ مسنده من الأحاديث ٢٢٨٦، وقد تجاوز عمره المائة. وتوفي في ٩٣هـ[١].

غريب الألفاظ:

الغزاة: الغزوة[٢].

قطعتم واديًا: اجتزتموه وسلكتموه[٣].

حَبَسهم المرضُ: منعهم[٤].

شركوكم: شاركوكم[٥].

تبوك: بلدة بين وادي القرى والشام، بين الحجر وأول الشام تبعد عن المدينة المنورة ٧٧٨كم، وقد توجه النبي ﷺ إليها ٩هـ، وهي آخر غزواته[٦].

الشِّعْبُ: الطريق في الجبل[٧].

---

(١) الطبقات، ابن سعد ١٧/٧، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ٥٢-٥٤، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير ٢٩٤/١-٢٩٧، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني ٨٣-٨٤، وسير أعلام النبلاء، الذهبي ٣٩٥/٣-٤٠٦، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي ٢٨٩/١-٢٩٥، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني ١٩٠/١-١٩١، والأعلام، خير الدين الزركلي ٢٤/٢-٢٥، وموسوعة عظماء حول الرسول، خالد عبدالرحمن العك ٤٦٥/١-٤٧١.

(٢) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (غ ز و).

(٣) اللسان والوسيط في (ق ط ع).

(٤) اللسان والوسيط في (ح ب س).

(٥) انظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٢٢٢.

(٦) أطلس الحديث النبوي، د. شوقي أبو خليل ٨٩.

(٧) اللسان والقاموس والوسيط في (ش ع ب).

الشرح الأدبي

هذا الحديث النبوي الشريف تدور معانيه في فلك ما قبله من أحاديث حيث تهدف كلها إلى بيان قيمة الإخلاص، واستحضار النية في جميع الأعمال والأقوال البارزة والخفية.

وراوي الحديث قدوة صالحة في العمل الصالح -والنية الخالصة- لأنه تربى في مدرسة النبوة، ونشأ قريبًا من المصطفى ﷺ حيث كان من أصغر الصحابة سنًا وكان من ساداتهم وفضلائهم المتحفين بحب رسول الله ﷺ.

وصيغة هذا الحديث تأتي في قالب الحكاية تشويقًا للسامع والقارئ وتثبيتًا لقيمة المحبة التي كان يكنها أصحاب رسول الله ﷺ له، ومن أمارات هذه المحبة أن المصطفى ﷺ كان حريصًا على إزالة كل الشبهات التي تطرأ على بال وفكر بعض الصحابة وكان حريصًا على إنصاف أصحاب الحاجات والمرضى الذين تقعدهم ظروفهم الصحية والاجتماعية وتحول بينهم وبين الجهاد في سبيل الله ولكن قلوبهم معقودة على الجهاد وحب الإسلام.

وحين نتأمل البناء اللغوي لهذا الحديث الشريف، ونحاول استخراج أسرار التعبير من خلال ما توحي به اللغة من معان وإشارات: فالتعبير بالمحبة في قول الراوي: كنا مع النبي ﷺ يفيد الصحبة الخيرة ويرشد إلى محبة الصحابة المجاهدين لقائدهم وحبيبهم محمد ﷺ، والتعبير بصيغة الجمع في قوله: "كنا"، يعلن عن التكاتف والقوة فليس الأمر متعلقًا بشخص، وليس الهدف من هذا الخبر الافتخار وادعاء التفرد بصحبة النبي ﷺ وإنما المسلمون كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا؛ وعدم تحديد الغزوة يخرج القضية من تحديدها الزمني والمكاني إلى فضاء أعم وأشمل، وهو، حقيقة الجهاد الخالص، والنية الخالصة، والغزوة كما يقول "الرواه" هي غزوة تبوك، وفيها حدثت معجزات حسية من شأنها تقوية شوكة المسلمين حيث فتح الله البلاد وأمدهم بالماء والرزق الوفير وأيدهم بالنصر والفتح المبين.

ويؤكد المصطفى ﷺ أمر إخلاص هؤلاء الذين حبسهم المرض، ويصفهم بالرجال، ويصوغ الخبر في أسلوب التوكيد، ويقدم لفظ المدينة وهي خبر على اسم إنَّ فيقول إن بالمدينة لرجالاً، وهذا التقديم من شأنه الإفادة بأهمية المدينة وكأن هؤلاء

المرضى بإخلاصهم النية لله. قادرون على حماية المدينة من أي معتد أو مغير، وهم في الوقت نفسه تتحرك قلوبهم وعزائمهم مع المجاهدين بالدعوات والأمنيات، والمحافظة على ما تركوه من متاع ومال وأهل وولد، وهذه المشاركة المعنوية الوجدانية يصوغها المصطفى ﷺ في أسلوب القصر (ما سرتم مسيرًا ولا قطعتم واديًا إلا كانوا معكم) ولكن كما يقول: "حبسهم المرض".

والأمر هنا على حقيقته؛ لأن الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى، وفي رواية أخرى يتأكد هذا المعنى حين يقول رسول الله ﷺ "وكان لهم مثل أجركم مضاعفًا" والحديث يؤكد على ضرورة الإخلاص والنية الصالحة والمؤازرة والتعاضد بين المسلمين، في السلم والحرب، وفي كل ميادين الحياة التي تعلي من شأن الإسلام.

وفي رواية البخاري لهذا الحديث الشريف تحدد الغزوة .. وهي غزوة تبوك ولا تعارض بين الروايتين فرواية مسلم تعمم الحكم؛ حيث يثيب الله سبحانه من صلحت نيته ولم يتمكن من أداء ما أراد القيام به، ورواية البخاري تحدد الغزوة ولكن لا تحدد الحكم فالأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى.

فقه الحديث

الجهاد فرض على الكفاية متى قام به البعض سقط عن الباقين، (أما إذا كان النفير عامًا فالجهاد يصبح فرض عين على كل قادر من المسلمين، وهذا الحكم في فرضية الجهاد متفق عليه بين الفقهاء، ولكن من لا قدرة له فلا يطالب بالجهاد لأنه معذور، وقد أشار سبحانه وتعالى في كتابه إلى أصحاب الأعذار فقال: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾[1])[2].

---

(١) سورة الفتح، آية: ١٧.

(٢) بدائع الصنائع، الكاساني ٧/٩٧-٩٨، وتبيين الحقائق، الزيلعي ٣/٢٤١، وحاشية ابن عابدين، محمد أمين بن عمر بن عبدالعزيز ٣/٢٢١، وبداية المجتهد ونهاية المقتصد، القرطبي ١/٣٨٠، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ١٠/٣٣١، ونهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، الرملي ٨/٥٥، والمغني، ابن قدامة ٨/٣٤٨، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي ٣/٢٦، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٦/١٣٨-١٣٩، ٣٠/٣١.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: فضل النية في الخير.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: سعة فضل الله على عباده.

ثالثًا: من ميادين الدعوة: ساحات القتال.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة على ملازمة النبي ﷺ في الغزوات.

أولاً- من موضوعات الدعوة: فضل النية في الخير:

يظهر هذا من قوله ﷺ في الحديث: "إن بالمدينة لرجالاً ما سرتم مسيرًا ولا قطعتم واديًا إلا كانوا معكم" قال النووي: (وفي هذا الحديث فضيلة النية في الخير، وأن من نوى الغزو وغيره من الطاعات فعرض له عذر منعه حصل له ثواب نيته، وأنه كلما أكثر من التأسف على فوات ذلك وتمنى كونه مع الغزاة ونحوهم كثر ثوابه)[1]. وقال ابن علان: (وفي قوله "إلا كانوا معكم" أي شركوكم في الأجر وكان لهم مثل أجركم مضاعفًا لصحة نيتهم في مباشرة كل ما باشره إخوانهم المجاهدون، وما حبسهم إلا المرض فلصحة النية أعطاهم الله الأجر المباشر)[2]. وقال ابن حجر: (في الحديث أن المرء يبلغ بنيته أجر العامل إذا منعه العذر عن العمل)[3] ولما كانت الأعمال كثيرة والقدرة محدودة والأعذار متعددة، والعوائق متكاثرة، لم يكن أمام المسلم إلا النية الصالحة في فعل الخير، وبهذا ينال أجر العاملين.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: سعة فضل الله على عباده:

إن هؤلاء المجاهدين قد حبسهم العذر عن الجهاد مع إخوانهم، فلم يقاتلوا كما قاتلوا ولم يقطعوا واديًا كما قطعوا ولا ساروا كما ساروا، ولا اغبرت أقدامهم كما اغبرت أقدامهم، ولم يعالجوا ملاقاة الأعداء كما عالجوا، ومع ذلك فقد أَخبَرَ رسول

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٢٢٢.

(٢) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٣٦.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤٧/٦.

الله ﷺ أن هؤلاء المعذورين قد نالوا أجر المقاتلين "إلا شركوكم في الأجر" وذلك بسبب صدق نيتهم في الجهاد والقتال، فإنهم ودوا لو كانوا معهم، سيوفهم قبل سيوفهم ورماحهم قبل رماحهم ونفوسهم قبل نفوسهم، لذا نالوا مثل أجرهم، وهذا من فضل الله ومنّه على عباده أن جعل النية الصادقة تحصّل للمعذور أجر العامل غير المعذور. قال القرطبي: (إن الناوي لأعمال البر الصادق النية فيها إذا منعه من ذلك عذر كان له مثل أجر المباشر مضاعفاً وقد دلّ عليه من الحديث ذكرُ قطع الوادي والمسير، فإن هذا إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[١] ولما كان القاعدون لأجل العذر قد صحت نيتهم في مباشرة كل ما باشره إخوانهم المجاهدون، أعطاهم الله تعالى مثل أجر من باشر)[٢].

وقال ابن حجر: (قال المهلب: يشهد لهذا الحديث قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ...﴾[٣]، فإنه فاضل بين المجاهدين والقاعدين ثم استثنى أولي الضرر من القاعدين فكأنه ألحقهم بالفاضلين)[٤].

فإذا أدرك المدعو ذلك حرص على الخير وفعله وإلا نواه فيصيبه فضل الله فيعطيه أجر العاملين. وعن أبي كبشة الأنماري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((إِنَّمَا الدُّنْيَا لأَرْبَعَةِ

(١) سورة التوبة، الآيتان: ١٢٠، ١٢١.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ٣/٧٤٥-٧٤٦.

(٣) سورة النساء، آية: ٩٥.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٦/٤٧.

نَفَر: عَبْدٍ رَزَقَهُ الله مَالاً وَعِلْماً فَهُوَ يَتَّقِي رَبَّهُ فِيهِ وَيَصِلُ بِهِ رَحِمَهُ وَيَعْلَمُ لله فِيهِ حَقًّا فَهَذَا بِأَفْضَلِ المَنَازِلِ، وَعَبْدٍ رَزَقَهُ الله عِلْماً وَلَمْ يَرْزُقْهُ مَالاً فَهُوَ صَادِقُ النِّيَّةِ يَقُولُ: لَوْ أَنَّ لِيَ مَالاً لَعمِلْتُ فِيهِ بِعَمَلِ فُلاَنٍ فَهُوَ بِنِيَّتِهِ فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ، وَعَبْدٍ رَزَقَهُ الله مَالاً وَلَمْ يَرْزُقْهُ عِلْماً فهو خبط فِي مَالِهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ لاَ يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ وَلاَ يَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ، وَلاَ يَعْلَمُ لله فِيهِ حَقًّا فَهَذا بِأَخْبَثِ المَنَازِلِ، وَعَبْدٍ لَمْ يَرْزُقْهُ الله مَالاً وَلاَ عِلْماً فَهُوَ يَقُولُ: لَوْ أَنَّ لِيَ مَالاً لَعَمِلْتُ فِيهِ بِعَمَلِ فُلاَنٍ فَهُوَ بِنِيَّتِهِ فَوِزْرُهُمَا سَوَاءٌ))[1].

ثالثًا- من ميادين الدعوة: ساحات القتال:

حيث جاء في الحديث "كنا مع النبي في غزاة" وفي رواية البخاري "رجعنا من غزوة تبوك" ولاشك أن الداعية لا يترك فرصة ولا ميدانًا يسنح له إلا ويدعو فيه إلى الله، حتى ولو كان هذا المكان هو ساحات القتال (ففي أعقاب الحرب تسنح الفرصة تمامًا للدعاة بأن ينتشروا في الأصقاع وينشروا الإسلام ويعرِّفوا الناس به وتُستغل في ذلك وسائل الإعلام الشخصية منها والجماهيرية للتبليغ والإنذار)[2]. وساحات القتال لا يكون فيها مع الداعية إلا أقوياء الإيمان، وقلوبهم مستعدة للموعظة وللترغيب وللترهيب (والجهاد دليل واضح على الإيمان بالله ورسوله لأن المسلم يبادر إليه امتثالاً لأمر ربه، وفي الجهاد تكون هناك عزة وقوة للمسلمين وفخر، وفي الجهاد تتحقق عوامل الاتحاد والائتلاف، ومن هنا كانت ساحات القتال أرضًا خصبة لنشر الدعوة)[3].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة على ملازمة النبي في الغزوات:

يتضح هذا من الحديث "كنا مع النبي في غزاة" وهذا يدل على فضل الصحابة رضي الله عنهم ومدى كفاحهم وجهادهم في سبيل نشر الدين وإعلاء كلمة الله عز وجل حتى في شدة الحر وقلة الزاد فإنهم يخرجون مجاهدين استجابة لقول الله تعالى:

---

(١) أخرجه الترمذي ٢٣٢٥ وهذا لفظه، وابن ماجه ٤٢٢٨، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٨٩٤٠)، وانظر جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٢/ ٣٢٠-٣٢١.

(٢) الدعوة الإسلامية الوسائل والأساليب، محمد خير رمضان يوسف ص ١٩، ٢٠.

(٣) قواعد الدعوة الإسلامية، د. الشريف حمدان راجح الهجاري، ٢٤٢.

﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾[1] فاستحقوا رضي الله عنهم ما أعدّ لهم من جنات وخيرات.

ومن أبرز صور ونماذج حرص الصحابة رضي الله عنهم على ملازمة النبي ﷺ في الغزوات ما حدث من أبي خيثمة في غزوة تبوك فيما ذكره ابن كثير عن ابن إسحاق قال: ((إن أبا خيثمة رجع بعد ما سار رسول الله ﷺ أيامًا إلى أهله في يوم حار فوجد امرأتين له في عريشين لهما في حائطه قد رشت كل واحدة عريشها وبرَّدت له فيه ماءً، وهيأت له فيه طعامًا فلما دخل ونظر إلى امرأتيه وما صنعتا له فقال: رسولُ الله ﷺ في الشمس والريح والحر وأبو خيثمة في ظل بارد وماء مهيأ وامرأة حسناء في ماله مقيم ما هذا بالنَّصف ثم قال: والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله ﷺ فهيئا زادًا ففعلتا، ثم قدم ناضحه[2] فارتحله ثم خرج في طلب رسول الله ﷺ حتى أدركه حين نزل تبوك قال الناس هذا راكب على الطريق مقبل فقال رسول الله ﷺ "كن أبا خيثمة" فقالوا: يا رسول الله، هو والله أبو خيثمة فلما بلغ أقبل فسلم على رسول الله ﷺ فقال له: "أولى لك يا أبا خيثمة" ثم أخبر رسول الله الخبر فقال خيرًا ودعا له بخير))[3].

ومن النماذج المضيئة في حرص الصحابة رضي الله عنهم على ملازمة النبي ﷺ في الغزوات ما حدث من حنظلة بن أبي عامر في غزوة أحد ففي صحيح ابن حبان عن ابن إسحاق، حدثني يحيى بن عباد بن عبدالله بن الزبير، عن أبيه عن جده، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: وقد كان الناس انهزموا عن رسول الله ﷺ حتى انتهى بعضهم إلى دون الأعراض[4]، إلى جبل بناحية المدينة، ثم رجعوا إلى رسول الله ﷺ، وقد كان

---

(١) سورة التوبة، آية: ٤١.

(٢) الجمل الذي يحمل عليه الزاد.

(٣) البداية والنهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ١٥٦/٧، ١٥٧، وانظر دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، البيهقي ٢٢٣/٥-٢٢٦.

(٤) أعراض المدينة: قال الأصمعي: هي قراها التي في أوديتها، وقال شمر: أعراض المدينة: هي بطون سوادها حيث الزرع والنخل. انظر: هامش صحيح ابن حبان لمحققه شعيب الأرناؤوط ٤٩٥/١٥.

حنظلة بن أبي عامر التقى هو وأبو سفيان بن حرب فلما استعلاه حنظلة رآه شداد بن الأسود، فعلاه شداد بالسيف حتى قتله وقد كاد يقتل أبا سفيان، فقال النبي ﷺ: إن صاحبكم تغسله الملائكة، فاسألوا صاحبته؛ فقالت: خرج وهو جنب لما سمع الهيعة[1]، فقال النبي ﷺ: فذاك قد غسلته الملائكة[2].

---

(١) الهيعة: الصوت الذي تفزع منه وتخافه من عدو. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير لابن الأثير في (هـ ي ع).

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه ٧٠٢٥، وقال محققه: حديث صحيح رجاله ثقات.

الحديث رقم (٥)

٥- وَعَنْ أبي يَزِيدَ مَعْنِ بْن يَزِيدَ بْنِ الأَخْنسِ ﷺ، وَهُوَ وَأَبُوهُ وَجَدّهُ صَحَابِيُّونَ[١]، قَال: كَانَ أبي يَزِيدُ أَخْرَجَ دَنَانِيرَ يَتصدَّقُ بِهَا فَوَضَعَهَا عِنْدَ رَجُلٍ فِي الْمَسْجِدِ فَجِئْتُ فَأَخَذْتُهَا فَأَتَيْتُهُ بِهَا. فَقَالَ: وَاللَّهِ مَا إِيَّاكَ أَرَدْتُ! فَخَاصمْتُهُ إِلَى رسول اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: «لَكَ مَا نويْتَ يَا يَزِيدُ، وَلَكَ مَا أَخذْتَ يَا مَعْنُ» رواه البخاريُّ[٢].

ترجمة الراوي:

معن بن يزيد بن الأخنس: هو معن بن يزيد بن الأخنس السلمي، له ولأبيه ولجده صحبة. شهد هو وأبوه وجده بدرًا. وقال يزيد بن حبيب: ولا أعلم رجلاً هو [أي الأخنس] وابنه وابن ابنه شهدوا بدرًا غيرهم[٣].

وكان له مكانة عند النبي ﷺ قال عن نفسه: بايعت النبي أنا وأبي وجدي وخاصمت إليه وخطب عليّ فأنكحني [أي طلب لي النكاح فأجيب][٤].

وكان صاحب شجاعة وبلاء في المغازي والفتوحات وشهد فتح دمشق. وكان عمر ابن الخطاب يجلّه ويقدره.

نزل الكوفة ودخل مصر ثم نزل الشام وسكن دمشق وكان مع معاوية بعد موقعة صفين، وقد جعله معاوية أميرًا على غزوة غزت الروم[٥]، وقتل في موقعة مرج راهط ٦٤هـ[٦].

---

(١) لفظ البخاري: (بايعتُ رسول الله ﷺ أنا وأبي وجدّي، وخطب عليَّ فأنكحني، وخاصمتُ إليه) وعبّر عنها النووي بقوله: (وهو وأبوه وجدّه صحابيون).

(٢) برقم (١٤٢٢). أورده المنذري في ترغيبه (٢٣).

(٣) قال الحافظ: ولم يتابع على ذلك. وينظر فتح الباري، ابن حجر العسقلاني (٣/٣٤٢).

(٤) أخرجه البخاري (١٤٢٢) وقصة المخاصمة هي التي بينه وبين أبيه في الصدقة وقد ذكرها النووي في الرياض وهو الحديث المشروح.

(٥) انظر: سنن أبي داود ٢٧٥٤، ومسند أحمد ٣/٤٧٠، رقم ١٥٨٦٢.

(٦) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ٦٩٠، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير ٥/٢٣٠، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني ١٢٧٧، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي ١٨٩/٧، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني ٤/١٣٠، والأعلام، خير الدين الزركلي ٢٧٤/٧، وموسوعة عظماء حول الرسول، خالد عبدالرحمن العك ١٨١٨/٣.

الشرح الأدبي

يموج هذا الحديث بكثير من القيم الإسلامية، والحقوق الاجتماعية التي تقوي روابط الأخوة بين أبناء الأمة الإسلامية، والتوجيهات النبوية الراشدة لا تُقدَّم دائمًا في قالب واحد، وإنما تتعاون أساليبها وتتنوع صيغها تشويقًا لكل سامع وقارئ، ومراعاة للمقام والسياق الذي قيلت فيه هذه التوجيهات، وهنا يوجه المصطفى ﷺ أصحابه وكل أبناء الأمة الإسلامية إلى وجوب اقتران النية الصالحة بالعمل الذي يترجم هذه النية إلى سلوك راشد، وثمرة نافعة صالحة، والقصة الواقعية هي الصيغة التي قُدِّم من خلالها هذا التوجيه النبوي.

وأشخاص هذه القصة الحوارية هم من الصحابة الأخيار: الابن: معن، والأب: يزيد ابن الأخنس رضي الله عنهما، والرجل الذي يلازم المسجد وأودعت عنده الأمانة ابتغاء الصدقة، والفعل "كان" يعلن عن أسلوب الحكاية في هذا النص النبوي، والفاء التي تربط بين الجمل وتعلن عن توالي مشاهد الحدث ف هذه الحكاية الواقعية بين الابن وأبيه، والفاء للترتيب والتعقيب، وسرعة الحركة وتوالي الزمن بلا فواصل، وتتوالى الأفعال في سرعة إيحاءً بحرص كلٍ من أطراف هذه الحكاية على إنجاز العمل حسب نيته، والأفعال المصورة لهذا الحدث تأتي في هذا النسق (كان أبي يزيد أخرج دنانير يتصدق بها: فوضعها عند رجل في المسجد، ثم يقول معن: فجئت فأخذتها فأتيته بها فقال) ولنتأمل توالي حرف العطف الفاء خمس مرات في مقام واحد ثم تتكرر مرتين بعد ذلك في قوله: "فخاصمته فقال".

والحوار بين الأب وابنه يوضح صدق نية الأب، وصدق نية الابن في حاجته لهذا المال ولكن الأب يواجه الابن في حسم وبأسلوب حازم يأتي في صيغة الحرص والقسم في قوله "والله ما إياك أردت" وإخلاص الأب في نيته الصادقة يتفوق على عاطفة الأبوة، فهو لم يضعف أمام ابنه الذي لم يأخذ المال على الرغم من حاجته إليه، وإنما أعطاه لأبيه مرة ثانية رغبة في أن يقدمه الأب له طواعية واختيارًا.

وفي الحديث توجيه وأدب يجب أن يتحلى به كل مسلم، وهو الاحتكام إلى

الكتاب والسنة في أي موقف خلافي، وهنا يلجأ الابن إلى رسول الله ﷺ لمعرفة الحكم في هذه المسألة، ويأتي جواب رسول الله ﷺ مُطَمئنًا ومرغبًا وجامعًا مانعًا ليقضي على أسباب المخاصمة الناشئة بين الأب وابنه، وهي ليست مخاصمة بين الأضداد ولكنها خلاف حول من الأحق بهذا المال الابن المحتاج، أم يعطى هذا المال للسائل والمحروم الذي لا يعرفه صاحب الصدقة رغبة في مضاعفة الثواب. فيقول رسول الله ﷺ: "لك ما نويت يا يزيد ولك ما أخذت يا معن".

أي لك ثواب نيتك الخالصة يا يزيد: لأنك نويت التصدق بهذا المال على محتاج، وابنك محتاج والمال حلال لمعن؛ لأنه أخذ المال أخذًا صحيحًا، وهنا تنبيه وإرشاد نبوي لكل الأبناء وهو حسن معاملة الآباء، وضرورة رعاية الآباء للأبناء، والحرص على إعطاء المال لمستحقه، ووضعه في المكان المناسب. وفي هذا الحديث دلالة رائعة على عدم محاباة الآباء لأبنائهم، وأهمية الالتزام بهدي الإسلام في سائر الأمور، وقد ضرب الأب -يزيد بن الأخنس- أروع الأمثلة للآباء في هذا المجال من التعامل الحياتي الذي كثيرًا ما يقع بين الناس، فتكون المحاباة والغفلة عن معرفة رأي الإسلام، إنها صورة رائعة في تعامل الأب مع ابنه، وعدم محاباته.

فقه الحديث

وفي هذا الحديث من الفقه ما يلي:

١- حكم إعطاء الزكاة لمن لا يستحقها: ينبغي لمن يخرج الزكاة أن يجتهد في معرفة من يصرفها إليه وأن الآخذ لها من مستحقي الزكاة، فإن اجتهد فأخطأ وأعطى الزكاة لمن ظنه من أهلها فظهر الأمر بخلاف ذلك، فقد اختلف الفقهاء في إجزائها عنه على قولين:

القول الأول: ذهب أبو حنيفة ومحمد[١] والشافعية في مقابل الأصح[٢] إلى أن دافع الزكاة في هذه الحالة تجزئه ولا تجب عليه مرة أخرى ولا يلزم الآخذ ردها أخذًا بهذا الحديث.

---

(١) تبيين الحقائق، الزيلعي ٣٠٤/١، العناية على الهداية، البابرتي ٢٧٥/٢.

(٢) الأم، الأمام الشافعي ٧٩/٢.

القول الثاني: ذهب جمهور الفقهاء ومنهم أبو يوسف[1] والمالكية[2] والشافعية في الأصح[3] والحنابلة[4] إلى أن دافع الزكاة لمن يظنه خطأ لا تجزئه الزكاة هكذا وإنما يجب عليه إخراجها ثانية إن لم يستردها من الآخذ، على أن المالكية قالوا بهذا الحكم فيما لو كان الدافع لها هو رب المال أما إن كان الدافع هو الإمام أو الوصي مثلاً فإنه إن لم يستطع استردادها أجزأت عنه.

٢- التحاكم بين الأب والابن: قال ابن حجر: (فيه جواز التحاكم بين الأب والابن وإن ذلك بمجرده لا يكون عقوقًا)[5].

٣- الاستخلاف في الصدقة: قال ابن حجر: (فيه جواز الاستخلاف في الصدقة ولا سيما صدقة التطوع لأن فيه نوع إسرار)[6].

٤- رجوع الأب عن الصدقة لابنه: قال ابن حجر: (فيه أن الأب لا رجوع له في الصدقة على ولده بخلاف الهبة)[7].

المضامين الدعوية

أولاً- من موضوعات الدعوة: الحرص على بذل الصدقات.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: أهمية الاحتكام إلى الله ورسوله.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: فضل النية.

رابعًا- من صفات الداعية: القدرة على الفصل في المنازعات.

خامسًا- من أساليب الدعوة: الحوار.

---

(١) تبيين الحقائق، الزيلعي ١/٣٠٤، العناية على الهداية، البابرتي ٢/٢٧٥.

(٢) مواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ٢/٣٥٩، حاشية الدسوقي على الشرح الكبير، محمد بن عرفة الدسوقي ١/٥٠١.

(٣) الأم، الأمام الشافعي٢/٧٩، أسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا بن محمد بن أحمد الأنصاري١/٤٠٥.

(٤) شرح منتهى الإرادات، البهوتي ١/٤٦٥، كشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي ٢/٢٩٥.

(٥) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣/٢٩٣.

(٦) المرجع السابق، الموضع نفسه.

(٧) المرجع السابق، الموضع نفسه.

أولاً- من موضوعات الدعوة: الحرص على بذل الصدقات:

يظهر هذا من خلال ما ورد في الحديث "كان أبي يزيد أخرج دنانير يتصدق بها" ولاشك أن المسلم يجب أن يحرص على بذل الصدقات قال تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾[1] ووعد بالأجر الكريم على الصدقة فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾[2] والحرص على بذل الصدقات من صفات المتقين ﴿كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝١٧ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝١٨ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾[3] وبين رسول الله ﷺ أن الصدقة تزيد المال فقال في الحديث ((ما نقصت صدقة من مال))[4]، وأن الصدقة تقي من النار فقال ((مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَتِرَ مِنَ النَّارِ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، فَلْيَفْعَلْ))[5] وفي الحديث أيضًا ((لاَ حَسَدَ إِلاَّ فِي اثْنَيْنِ: رَجُلٍ آتَاهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ فَهُوَ يَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ، وَرَجُلٍ آتَاهُ اللَّهُ مَالاً فَهُوَ يُنْفِقُهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ))[6]. وقال ابن أبي الجعد: (إن الصدقة لتدفع سبعين بابًا من السوء، وفضل سرها على علانيتها سبعين ضعفًا)[7] والآيات والأحاديث في فضل الصدقة كثيرة فعلى الدعاة إرشاد الناس لها.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: أهمية الاحتكام إلى الله ورسوله:

يتضح هذا من خلال ما ورد في الحديث "فخاصمته إلى رسول الله ﷺ أي: أخذ معن يزيد إلى رسول الله ﷺ ليفصل بينهما في الأمر. وهذا حال الصحابة رضي الله عنهم دائمًا

---

(١) سورة المزمل، آية: ٢٠.

(٢) سور الحديد، آية: ١٨.

(٣) سورة الذاريات، آية: ١٧-١٩.

(٤) أخرجه مسلم ٢٥٨٨.

(٥) أخرجه البخاري ١٤١٧، ومسلم واللفظ له ١٠١٦.

(٦) أخرجه البخاري ٥٠٢٥، ومسلم ٨١٥.

(٧) المتجر الرابح في ثواب العمل الصالح، الدمياطي ص ١٤٨.

وديدنهم، فيه دلالة على ورع الصحابة رضي الله عنهم وتثبتهم في معرفة الأحكام، وسؤالهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في كل ما أشكل عليهم[١]. وهذا من علامة الإيمان، قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[٢].

قال الشوكاني: (أي حتى يجعلوك حكمًا بينهم في جميع أمورهم لا يحكمون أحدًا غيرك فيما اختلف بينهم واختلط، ولا يجدون في أنفسهم إثمًا بإنكارهم ما قضيت، وينقادون لأمرك وقضائك انقيادًا لا يخالفونه في شيء ويسلمون لحكمك تسليمًا لا يدخلون على أنفسهم شكًا ولا شبهة فيه، والظاهر أن هذا شامل لكل فرد في كل حكم)[٣].

وفي أهمية الاحتكام إلى الله ورسوله قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[٤] وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١) وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾[٥].

قال الدكتور محمد محمود حجازي: (إن المؤمنين الصادقين قولهم الحق الناشئ عن إيمانهم الصادق، إذ دعوا إلى الله ورسوله في أي شيء يتعلق بهم وبخاصة في الحكم بكتاب الله وسنة رسول الله، إنما كان قولهم أن يقولوا بألسنتهم وقلوبهم: سمعنا وأطعنا، أي سمعنا دعوتكم للتحاكم لرسول الله وشرعه، وأطعناكم فيما تطلبون، وتلك مقالة المؤمنين الواثقين المتمكنين. ومن يطع الله ورسوله في أمور الدين كلها، ومن يخش الله أي يخف عذابه وعقابه فيما مضى من الذنوب ويتقه فيما يستقبل منها

---

(١) شرح رياض الصالحين، د. الحسيني هاشم ص ٢٠١.

(٢) سورة النساء، آية: ٦٥.

(٣) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، الشوكاني ١/٤٨٣.

(٤) سورة النساء، آية: ٦٤.

(٥) سورة النور، الآيتان: ٥١، ٥٢.

فأولئك هم الفائزون وحدهم، لأجل اتصافهم بطاعة الله وطاعة رسوله وبخشيته وتقواه)[١].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: فضل النية:

يظهر هذا من قول النبي ﷺ "لك ما نويت يا يزيد" والنية الصالحة يثاب عليها الإنسان، قال ابن حجر: (أي إنك نويت أن تتصدق بها على من يحتاج إليها وابنك يحتاج إليها فوقعت الموقع وإن كان لم يخطر ببالك أنه يأخذها، وفي الحديث أن للمتصدق أجر ما نواه سواء صادف المستحق أو لا)[٢]. وقال ابن عثيمين: (والحديث يدل على أن الأعمال بالنيات، وأن الإنسان إذا نوى الخير حصل له، وإن كان يزيد لم ينو أن يأخذ هذه الدراهم ابنه لكنه أخذها وابنه من المستحقين فصارت له فالإنسان يكتب له أجر ما نوى، وإن وقع الأمر على خلاف ما نوى)[٣].

إن النية أساس العمل وقاعدته قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[٤] وإذا دخل الشرك في العبادة أفسدها (لقد حصر الله أمر المكلفين كله في عبادته وجعل شرط ذلك الإخلاص، ولا يميز العمل الخالص من غيره إلا بالنية؛ فالنية رأس الأمر وعموده وأساسه وأصله الذي عليه يبنى فإنها روح العمل وقائده وسائقه، والعمل تابع لها يبنى عليها، يصح بصحتها، ويفسد بفسادها وبها يستجلب التوفيق، وبعدمها يحصل الخذلان، وبحسبها تتفاوت الدرجات في الدنيا والآخرة)[٥].

رابعًا- من صفات الداعية: القدرة على الفصل في المنازعات:

يظهر هذا من فصل النبي ﷺ في النزاع بين معن وأبيه يزيد، وقدرة الداعية على

---

(١) التفسير الواضح، د. محمد محمود حجازي ٨٣/١٨/٢.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٤٣/٣.

(٣) شرح رياض الصالحين ٢٠/١.

(٤) سورة البينة، آية: ٥.

(٥) النية وأثرها في الأحكام الشرعية، د. صالح السدلان ص ١٥١/١.

الفصل في المنازعات تحتاج إلى رجاحة عقل، وتوقد فكر، وذكاء ذهن (وإذا كان للإيمان نورانيته وآثاره، وللعلم فاعليته ودوره، فيبقى للذكاء والفطنة أهميتهما التي لا تنكر، فالداعية إذا توفر لديه الذهن الوقّاد والعقل السديد استطاع أن يرجح إذا اختلفت الآراء، ويحلل ويدلل إذا فقد الإدراك وغاب التصور، ويتقن ترتيب الأولويات، ويحسن التخلص من المشكلات، ويقوى على الرد على الشبهات)[١].

ومن الشواهد والأمثلة على القدرة على الفصل في المنازعات ما جاء في مسند أبي داود الطيالسي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قال: (لما بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليمن حفر قوم زبية[٢] للأسد فازدحم الناس على الزبية ووقع فيها الأسد فوقع فيها رجل وتعلق الرجل برجل وتعلق الآخر بالآخر حتى صاروا أربعة فجرحهم الأسد فيها فهلكوا وحمل القوم السلاح فكادوا أن يكون بينهم قتال قال: فأتيتهم فقلت أتقتلون مائتي رجل من أجل أربعة أناس تعالوا أقضِ بينكم بقضاء فإن رضيتموه فهو قضاء بينكم، وإن أبيتم رفعتم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو أحق بالقضاء، قال: فجعل للأول ربع الدية وجعل للثاني ثلث الدية وجعل للثالث نصف الدية وجعل للرابع الدية وجعل الديات على من حفر الزبية على القبائل الأربعة فسخط بعضهم ورضي بعضهم ثم قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقصوا عليه القصة فقال: "أنا أقضي بينكم" فقال قائل فإن عليًا قد قضى بيننا فأخبروه بما قضى علي رضي الله عنه عنه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((القضاء كما قضى علي)) قال هذا: حماد وقال: قيس فأمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم قضاء علي رضي الله عنه)[٣].

خامسًا- من أساليب الدعوة: الحوار:

يظهر هذا من الحوار الذي جرى بين معن وأبيه يزيد، ومما هو معلوم أن الحوار أسلوب من أساليب الدعوة، قال تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِ

---

(١) مقومات الداعية الناجح، د. علي بن عمر بادحدح ص ٩٢.

(٢) الزُّبْيَة: حفرة تحفر للأسد والصيد، ويُغطى رأسها بما يسترها ليقع فيها. المعجم الوسيط، مع اللغة العربية في (ز ب ي).

(٣) أخرجه أبو داود الطيالسي رقم ١١٦، وقال محققو المسند: إسناده حسن.

وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾[1] (ووصف الجدال بالتي هي أحسن يخرج الطرق السيئة ويلزم الداعي تجنب الغضب والإغضاب من جانبه، ويوطده على الصبر والتحمل والهدوء في الحوار أمام من يجادلهم ليصل إلى ما يريد من هدايتهم وبيان الحق لهم)[2].

والحوار أسلوب قرآني ونبوي (إن القرآن الكريم يكثر فيه الاعتماد على المناقشة والحوار، وللقرآن في ذلك أسلوب رائع عجيب فهو إذ يناقش ويحاور يثير النظر إلى الأدلة، ويعرض لها ويدع ثمارها ونتائجها مكشوفة في تضاعيف الكلام دون أي نص على هذه النتائج بل يترك الربط والاستنتاج للسامع المتأمل وفي سنة الرسول ﷺ كذلك تجد فيها الكثير من الحوارات التي استخدمها الرسول ﷺ في تعليم أصحابه لإثارة انتباه السامعين وتشويق نفوسهم إلى الجواب، وحضهم على إعمال الفكر بالجواب ليكون ذلك أقرب إلى الفهم في النفس)[3].

---

(١) سورة النحل، آية: ١٢٥.

(٢) قواعد الدعوة الإسلامية، د. الشريف حمدان الهجاري ص ٥٠٧.

(٣) الحوار آدابه وتطبيقاته في التربية الإسلامية، أ. خالد محمد المغامسي ص ٨.

الحديث رقم (٦)

٦- وَعَنْ أبي إِسْحَاقَ سعْدِ بْنِ أبي وَقَّاصٍ مَالك بن أُهَيْبِ بْنِ عَبْدِ مَنَافِ بْنِ زُهرةَ بْنِ كِلابِ بْنِ مُرَّةَ بْنِ كعْبِ بنِ لُؤيٍّ الْقُرشِيِّ الزُّهرِيِّ رضي الله عنه ، أَحدِ الْعَشرة الْمَشْهودِ لَهمْ بِالْجَنَّة رضي الله عنهم ، قال: «كانَ رسولُ الله ﷺ يَعُودُنِي عَامَ حَجَّة الْوَداعِ مِنْ وَجعٍ اشْتَدَّ بِي، فَقُلْتُ: [يا رسُول اللَّهِ][1] إِنِّي قَدْ بلغَ بِي مِن الْوجعِ [مَا تَرى][2]، وَأَنَا ذُو مَالٍ وَلاَ يَرِثُنِي إِلاَّ ابْنَةٌ [لِي]، أَفأَتَصَدَّق بثُلُثَيْ مالِي؟ قَالَ: ((لا))، قُلْتُ: بالشَّطْرِ يَا رسُولَ اللهِ[3]؟ فقالَ: ((لا))، قُلْتُ: ثم قال الثُّلُثُ يا رسول اللَّهِ[4]؟ قال: **((الثُّلثُ والثُّلُثُ كثِيرٌ (أَوْ: كَبِيرٌ) إِنَّكَ إِنْ تَذرَ وَرثتك أغنِياءَ خَيْرٌ مِن أَنْ تذرهُمْ عالَةً يَتكفَّفُونَ النَّاس، وَإِنَّكَ لَنْ تُنفِق نَفَقَةً تبْتغِي بِهَا وجْهَ الله إِلاَّ أُجرْتَ عَلَيْهَا[5] حَتَّى ما تَجْعلُ فِي فِي امْرَأَتِكَ))**.

قَالَ[6]: فَقلْت: يَا رَسُولَ الله أُخَلَّفُ بَعْدَ أَصْحَابِي؟ قَال: **((إِنَّكَ لن تُخلَّفَ فتعْمَل عَمَلاً[7] تَبْتغِي بِهِ وَجْهَ الله[8] إِلاَّ ازْددْتَ بِهِ دَرجةً ورِفعةً، و[9] لعلَّكَ أَنْ تُخلَّف حَتَى ينْتَفعَ بِكَ أَقْوامٌ وَيُضَرَّ بِكَ آخرُونَ. اللَّهُمَّ أَمْضِ لأِصْحابي هِجْرتَهُم، وَلاَ تردَّهُمْ عَلَى أَعْقَابِهِم))**[10]، لَكنِ الْبائسُ سعْدُ بْنُ خوْلَةَ «يَرْثِى لَهُ رسولُ الله ﷺ» أَن مَاتَ بمكَّةَ» متفقٌ عليه.

---

(١) قوله: (يا رسول الله) لا يوجد عند البخاري بهذا الرقم، وإنما عنده برقم (٣٩٣٦)، و (٤٤٠٩)، و (٦٣٧٣).

(٢) قوله: (ما ترى) لا يوجد عند البخاري بهذا الرقم، وإنما عنده برقم (٣٩٣٦)، و (٤٤٠٩)، و (٦٣٧٣).

(٣) قوله: (يا رسول الله) لا يوجدُ عند البخاري.

(٤) قوله: (قلت: فالثلث يا رسول الله) لا يوجد عند البخاري بهذا الرقم، وإنما عنده برقم (٢٧٤٢، ٢٧٤٤).

(٥) لفظ البخاري: (بها).

(٦) (قال) لا توجد عند البخاري.

(٧) عند البخاري في هذه الرواية زيادة: (صالحًا)، وأما قوله: (فتعمل عملاً تبتغي به وجه) فعنده برقم (٣٩٣٦).

(٨) (تبتغي به وجه الله) لا توجد عند البخاري في هذه الرواية، وإنما عنده برقم (٣٩٣٦).

(٩) لفظ البخاري في هذه الرواية: (ثم)، وأما بالواو، فعنده برقم (٣٩٣٦).

(١٠) أخرجه البخاري واللفظ له ١٢٩٥، ومسلم ١٦٢٨/٥. وسيكرره المؤلف برقم (٩١٦).

تنبيه: من قوله: (فقلتُ: يا رسول الله أخلف بعد أصحابي) إلى آخره بلفظه عند البخاري برقم (٣٩٣٦)، و (٤٤٠٩).

ترجمة الراوي:

سعد بن أبي وقاص: واسم أبي وقاص مالك بن أُهَيْب، ويُقَال: وُهَيْب بن عبد مناف ابن زهرة بن كلاب بن مُرَّة الزهري القرشي، يلتقي مع رسول الله ﷺ في كلاب بن مرة، ويكنى بأبي إسحاق.

قال إبراهيم بن المنذر: كان قصيرًا دَحْدَاحًا، غليظًا، ذا هامةٍ، شَثْن الأصابع، أشعر، جعد الشعر، وكان يخضب بالسواد[1].

كان رضي الله عنه من السابقين الأولين إلى الإسلام، قال ابن المسيِّب: سمعت سعد بن أبي وقاص يقول: ((ما أسلم أحدٌ إلا في اليوم الذي أسلمت فيه، ولقد مكثت سبعة أيام، وإني لثلث الإسلام))[2].

أسلم رضي الله عنه قبل أن تفرض الصلاة وهو ابن ١٧ سنة، جاهدته أمه ليرجع عن دينه فحلفت ألا تكلمه أبدًا حتى يكفر بدينه، ولا تأكل ولا تشرب حتى يَموت فيعير بقتلها، ومكثت ثلاثًا حتى غشي عليها من الجهد، فقام ابنٌ لها يسمى عمارة فسقاها[3] ولم يثنه ذلك عن إسلامه، وهو من أصحاب الرواية، روى جملة صالحة من الأحاديث، له في كتب الحديث ٢٧١ حديثًا، في الصحيحين منها ١٥ حديثًا، وانفرد البخاري بخمسة، ومسلم بثمانية عشر حديثًا، وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة، وكما في حديث سعيد بن زيد عن رسول الله ﷺ قال: ((عَشَرةٌ في الجنّة: النبي في الجنّة، أبوبكر في الجنة... الحديث)) وفيه ((وسعد بن مالك في الجنة))[4].

---

(١) الدَحْداح هو: الشثن الأصابع: أي الخشن مع غلظة، المعجم الوجيز في (ش ش ن)، الأشعر: كثيف الشعر، الخضب: الصبغ بما يغير اللون. المعجم الوجيز في (خ ض ب).

(٢) أخرجه البخاري ٣٧٢٧.

(٣) أخرجه مسلم ١٧٤٨ بعد الحديث ٢٤١٢، في باب فضائل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه من كتاب فضائل الصحابة.

(٤) أخرجه أبو داود ٤٦٤٩، والترمذي ٣٧٥٧، وابن ماجه ١٣٣، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٣٨٨٦).

هاجر قبل رسول الله ﷺ، وكان في مقدمة المجاهدين في سبيل الله فشهد بدرًا والمشاهد كلها مع رسول وهو أول من رمى بسهم في سبيل الله، حدث عن نفسه قائلاً: ((إني لأول العرب رمى بسهم في سبيل الله))[1].

وكان من أبرز الفرسان الصالحين الذين كانوا يدافعون عن رسول ﷺ ويحرسونه في المغازي، فعن عائشة رضي الله عنها قالت أَرِقَ رسول الله ﷺ ذات ليلة فقال: ((ليت رجلاً صالحًا من أصحابي يحرسني الليلة))، قالت: وسمعنا صوت السلاح فقال رسول الله ﷺ ((من هذا؟)) قال سعد بن أبي وقاص يا رسول الله جئت أحرسك، قالت عائشة رضي الله عنها: فنام رسول الله ﷺ حتى سمعت غطيطه[2]، وفي رواية فقال له رسول الله ﷺ: ((ما جاء بك؟)) فقال: وقع في نفسي خوف على رسول الله ﷺ فجئت أحرسه فدعا له رسول الله ﷺ ثم نام))[3].

وقال علي بن أبي طالب ((ما جمع رسول الله ﷺ أبويه لأحد غير سعد بن مالك فإنه جعل يقول له يوم أحد: فداك أبي وأمي))[4].

وهو الذي تولى قتال فارس، وفتح الله على يديه القادسية وغيرها. مما جعله جديرًا بأن يعرف بأنه فارس الإسلام.

وهو الذي كوّف الكوفة فجعلها خططًا، وابتنى بها دارًا فكثرت الدور فيها، ونفى الأعاجم منها، وكان أميرًا لعمر عليها، ثم عزله ثم أعاده ثم عزله، وقال في مرضه: إن وليها سعد فذاك، وإلا فليستعن به الوالي، فإني لم أعزله عن عجز ولا خيانة، وأقره عثمان عليها زمنًا ثم عزله فعاد إلى المدينة وفقد بصره.

وكان رضي الله عنه مشهورًا بأنه مجاب الدعاء لدعوة رسول الله ﷺ ((اللهم استجب له إذا دعاك يعني سعدًا))[5] فمناقبه وفضائله كثيرة جدًا وأخباره من الشجاعة والشدة في

---

(١) أخرجه البخاري ٣٧٢٨، ومسلم ٢٩٦٦

(٢) أخرجه البخاري ٢٨٨٥، ٧٢٣١، ومسلم ٢٤١٠، ٣٩.

(٣) أخرجه مسلم ٢٤١٠، ٤٠.

(٤) أخرجه البخاري ٢٩٠٥، ومسلم ٢٤١١.

(٥) أخرجه ابن حبان، كتاب أخباره ﷺ عن مناقب الصحابة، باب ذكر دعاء المصطفى ﷺ لسعد (١٥/٤٥٠) حديث رقم (٦٩٩٠)، وقال محقق ابن حبان: إسناده صحيح على شرط الشيخين، وقال الترمذي: حديث صحيح.

دين الله، وإتباع سنة رسول الله ﷺ وهديه وتواضعه وصدقه كثيرة واسعة.

وكان سعد قد اعتزل الفتنة بعد مقتل عثمان وطلب السلامة فعن عامر بن سعد بن أبي وقاص قال: كان سعد في إبله فجاء ابنه عمر فلما رآه سعد قال: أعوذ بالله من شر هذا الراكب، فنزل فقال له: أنزلت في إبلك وغنمك، وتركت الناس يتنازعون الملك بينهم؟ فضرب سعد في صدره فقال: اسكت سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((إن الله يحب العبد التقي الغني الخفي))[1].

توفي رضي الله عنه في قصره بالعقيق -على عشرة أميال من المدينة- وحمل إلى المدينة على رقاب الرجال، ودفن بالبقيع، وصلى عليه مروان بن الحكم وهو يومئذ والي المدينة.

وكان رضي الله عنه آخر العشرة المبشرين بالجنة وآخر المهاجرين وفاة بالمدينة، واختلف في تاريخ وفاته فقيل سنة ٥١، وقيل: ٥٤، وقيل ٥٦، وقيل ٥٧، وقيل: ٥٨، وقيل ٥٥ وهو المشهور، مات وهو ابن ٧٣ سنة، وقيل ٨٢، وقيل ٨٣[2].

غريب الألفاظ:

يعودني: يزورني[3].

الشطر: النصف[4].

عالة: فقراء[5]، مفردها: عَيِّل.

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الزهد، باب الدنيا سجن المؤمن ص ١٢٨٤، ١٢٨٥ حديث رقم ٢٩٦٥.

(٢) الطبقات الكبرى، ابن سعد الكبرى ١٣٧/٣-١٤٩، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ٢٧٥-٢٨٠، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير ٤٥٢/٢-٤٥٧، وسير أعلام النبلاء، الذهبي ٩٢/١-١٢٤، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي ١٢٠/٣، ١٣١، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني ٦٩٨/١، ٦٩٩، والسندي ٤٨٠/٣، والأعلام، خير الدين الزركلي ٨٧/٣، وموسوعة عظماء حول الرسول، خالد عبدالرحمن العك ٢٥٥/١-٣٦٥.

(٣) اللسان في (ز و ر).

(٤) اللسان في (ش ط ر).

(٥) اللسان في (ع ي ل).

يتكففون الناس: يسألون الناس بأكفهم[١].

أُخلَّف: تحتمل معنيين: أي أُترك في مكة وقد انصرف الرسول ﷺ وأصحابه عنها، أو أعيش بعد جماعات من أصحابي[٢].

الدَّرَجَةُ: المنزلة في الشرف[٣].

اللهم أمض لأصحابي هجرتهم: أنفذها وتممها لهم ولا تنقصها عليهم[٤].

ولا تردهم على أعقابهم: أي حالتهم الأولى من ترك الهجرة[٥].

البائس: هو الذي عليه أثر البؤس وهو الفقر والقلة[٦].

يرثى له رسول الله ﷺ: الرثاء ذكر محاسن الميت والمراد هنا: التوجع له لكونه مات في البلدة التي هاجر منها، وذلك أنه كان يحرم الإقامة بمكة على من هاجر منها قبل الفتح[٧].

الشرح الأدبي

ما أجمل المعاني والقيم التي نقتبسها من هذا الحديث الشريف، وما أروع هذه الصيغة الحوارية التي تشع بالمودة والرحمة بين البشير النذير وأصحابه الأخيار الأطهار الذين وصفهم بأنهم كالنجوم في الهداية، وبأيهم اقتدينا اهتدينا.

إن هذا الحوار المقنع الممتع يدور بين سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ونبي هذه الأمة حول قضية اجتماعية لها مكانتها وتأثيرها في سر تقدم الأمة الإسلامية، وهي قضية المال وكيفية كسب المؤمن وتحصيله له، وكيفية توزيعه، ولكن هذه القضية تقدم في

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٥/٤٣١.

(٢) انظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٠٢٥.

(٣) الوسيط في (د ر ج).

(٤) عمدة القاري، العيني ١٧/٦٨.

(٥) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ع ق ب).

(٦) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٠٣٦.

(٧) انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٧/٣١٣، ٣١٦، وعمدة القاري، العيني ١٧/٦٨.

إطار سلوك إنساني، وسياق اجتماعي، يقدمه النبي ﷺ حين يعود صاحبه في مرضه مقدمًا بذلك القدوة والأسوة الحسنة في التواضع ولين الجانب، وفيه كما يقول العلماء عيادة الكبير أتباعه.

والقيمة الثانية: التي نقتبسها من أضواء هذا البيان النبوي هي وجوب رعاية الأبناء، والعمل على إعزازهم في حياتهم وذلك لا يكون إلا بالجد والسعي على الرزق والكدح، واكتساب المال من الطرق المشروعة التي تُجَمِّل وجه الحياة في عيون الأبناء، وهذه القيمة الحضارية تشع بها هذه الوصية النبوية الهادية القويمة في خطابه لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، وهو في الوقت ذاته يوجه الخطاب إلى كل أب مسؤول عن رعيته وأبنائه إذ يقول " إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تتركهم عالة يتكففون الناس" فالمؤمن عزيز النفس بمنأى عن الذلة التي تدفع إليها الفاقة ويجلبها العوز.

وحتى لا يتسرب الظن إلى الذين يحاولون التشكيك في قيم الإسلام وعدالته وسماحته أردف المصطفى ﷺ هذه الوصية بوصية أخرى فيها حث على الإنفاق والتصدق، حتى لا يظل السعي قاصرًا على الجانب الذاتي بل يتعداه إلى المشاركة في رفع المعاناة عن الفئات الضعيفة وعن أصحاب الحاجات والفقراء والمساكين وغيرهم من الذين يستحقون الصدقات في ظل التكافل الاجتماعي الذي شرعه الإسلام، وهذه الوصية تأتي في أسلوب التوكيد وأسلوب القصر حتى تظل قيمة الإنفاق راسخة ومتأصلة في سلوكيات المؤمنين، ويظل إيقاع التعاون والتكافل لحنًا ساريًا بين أبناء الأمة الإسلامية.

والوصية تقدمها هذه الصيغة الموشاة بالتأكيد وأسلوب القصر: يقول رسول الله ﷺ عقب وصيته بضرورة ووجوبية رعاية الأبناء "وإنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت عليها".

ومن القيم الإنسانية الحضارية التي تشع بها كلمات هذا الحديث النبوي قيمة المودة والرحمة والسكن بين الزوج وزوجته، وهذه القيمة ذات البعد الاجتماعي تتمثل في حسن الرعاية والقوامة، وأن يدخل الزوج السرور على زوجته وأن يبادلها المودة والملاطفة، وله الثواب المضاعف حتى على أقل صور هذه المودة في الأثر الخارجي،

ولكن لها آثار نفسية عميقة ذات دلالة وجدانية اجتماعية تتمثل في محبة الزوج لزوجته، ومن أمارات هذه المحبة أن يطعمها وأن يشعرها بالدفء والحنان، والحرص على العلاقة الزوجية في إطار السكن والمودة والرحمة.

ومن القيم الإسلامية التي تفيض بها كلمات هذا الحديث الشريف في قالب حواري مقنع وممتع هو الإحساس بالمسؤولية الاجتماعية والمسؤولية الفردية ففي لحظة المرض واشتداد الوجع لا يحزن الصحابي الجليل على فراق ماله، ولا يخاف من الموت، ولكنه يفكر في أمر المسلمين، ويدور هذا الحوار البليغ الإيماني بين الصحابي الجليل والنبي الكريم ﷺ.

يا رسول الله: إني قد بلغ بي من الوجع ما ترى وأنا ذو مال ولا يرثني إلا ابنة لي أفأتصدق بثلثي مالي؟: قال رسول الله له: لا، قلت: فالشطر يا رسول الله، فقال: لا، قلت فالثلث يا رسول الله؟ قال: الثلث، والثلث كثير أو كبير.

إن هذا الأدب الجم في مخاطبة رسول الله ﷺ كان شأن كل الصحابة رضي الله عنهم مع الحبيب المصطفى ﷺ وهذا الزهد في متاع الحياة، والحرص على التصدق بثلثي المال: أو شطر المال يعطي درسًا جميلاً نبيلاً في العطاء والترفع والقوة أمام إغراء المال، وهذه المراجعة المتأدبة مع رسول الله ﷺ حول الميراث الذي يتنازل عن بعضه صاحبه إلى فقراء المسلمين، هذا السلوك الإيماني الذي يمثله الصحابي الجليل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أحد الستة أصحاب الشورى، وهو أول من أراق دمًا في الإسلام، وأول من رمى بسهم في سبيل الله، وأخباره في الشجاعة والشدة في دين الله، واتِّباع السنة والزهد والورع وإجابة الدعوة والصدق والتواضع شهيرة.

وتتوهج القيم الإسلامية ذات البعد الاجتماعي في هذا الحوار المشع ببريق العطاء، والنبوءة، والخوف من فراق الأصحاب والأخلاء، والمصطفى ﷺ في القسم الثاني مَن هذا الحوار يطمئن صاحبه وحارسه فارس الإسلام سعد بن أبي وقاص، ويدعو له بالشفاء وطول العمر ويستجيب الله لدعاء الحبيب المصطفى ﷺ ويُعافَى سعد من مرضه ويتحقق رجاء رسول الله ﷺ الذي قدمه في هذه الجملة الموشاة بالأمل، والاطمئنان، وما أرق هذه الكلمات، وما أجمل إيقاعها في سمع وقلب سعد بن

أبي وقاص وقد تحقق هذا الرجاء بقول رسول الله ﷺ: "ولعلك أن تخلف حتى ينتفع بك أقوام ويُضَرَّ بك آخرون".

وقد تحققت نبوءته عليه السلام وعاش سعد بن أبي وقاص وكان من أكبر القواد في المعارك ضد الفرس حيث تولى قيادة جيش المسلمين بعد وفاة المثنى بن حارثة الشيباني، وانهزم الفرس هزيمة نكراء وقتل قائدهم رستم في المعركة، وتقدم سعد بن أبي وقاص قائد الجيوش إلى عاصمة الفرس "المدائن" فاستولى عليها، وذلك في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ويقول العلماء في تفسير قوله ﷺ: "حتى ينتفع بك أقوام" في دينهم ودنياهم "ويُضَرَّ بك آخرون": يقولون: "هذا من جملة إخباره ﷺ بالمغيبات فإن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه عاش حتى فتح العراق وغيره وانتفع به قوم في دينهم ودنياهم، وتضرر به الكفار في دينهم ودنياهم: فإنهم قتلوا ومضوا إلى جهنم وسبيت نساؤهم وأولادهم، وغنمت أموالهم وديارهم، وولى سعد بن أبي وقاص العراق فاهتدى على يديه خلائق بإقامته الحق فيهم.

وهذا الحوار المتألق بالقيم الإيمانية يختمه المصطفى ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى، والذي أيده ربه بالمعجزات الحسية والمعنوية؛ ويأتي هذا الختام بعد هذه النبوءة التي صيغت في أسلوب الرجاء، وتحقق وعد الله لرسوله. واستجاب لدعاء حبيبه محمد ﷺ، وما أصدق هذا الختام وذلك الدعاء الصادر من القلب "اللهم امضي لأصحابي هجرتهم ولا تردهم على أعقابهم".

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى أكثر من حكم فقهي:

الأول: حكم عيادة المريض، وقد اختلف الفقهاء في حكمها على أقوال كثيرة، فذهب الجمهور(١) إلى أنها سنة، وذهب ابن حزم(٢) إلى أنها فرض ولو لمرة واحدة على

---

(١) البحر الرائق شرح كنز الدقائق، ابن نجيم ٣٢١/٤، الفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم المالكي ٣٢٧/٢، المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ١٠٢/٥ وما بعدها، أسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا بن محمد بن أحمد الأنصاري٢٩٥/١، إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، ابن دقيق العيد ٣٩٦/٢، المغني، ابن قدامة ١٦٠/٢، الفروع، ابن مفلح ١٧٤/٢، الآداب الشرعية، ابن مفلح ٢٠٠/٢، الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، المرداوي ٤٦١/٢.

(٢) المحلى، ابن حزم ٤٠٢/٣ وما بعدها.

الجار الذي لا تشق عيادته، وقيل هي سنة كفاية[١]، وقيل هي واجبة على الكفاية[٢]، ونقل النووي الإجماع على عدم الوجوب[٣].

الثاني: جواز قول المريض أنا وجع ونحو ذلك إذا لم يكن على سبيل التسخط وإظهار الجزع:

قال النووي: (قوله: "عادني من وجع أشفيت منه على الموت" ... فيه جواز ذكر المريض ما يجده لغرض صحيح من مداواة أو دعاء صالح أو وصية أو استفتاء عن حاله ونحو ذلك، وإنما يكره من ذلك ما كان على سبيل التسخط ونحوه، فإنه قادح في أجر مرضه)[٤].

الثالث: حكم الوصية، فقد اتفق الفقهاء على جواز الوصية وإن اختلفوا في حكمها من حيث الوجوب والندب، فذهب جمهور الفقهاء[٥] إلى أن الوصية بالمال ليست واجبة بل هي مستحبة أو مندوبة، ونقل ابن عبدالبر الإجماع على ذلك[٦]، وقال البعض[٧] إنها فرض للوالدين إذا كانوا ممن لن يرثوه، وقال آخرون إنها فرض للأقرباء الذين لا يرثون[٨].

---

(١) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٦٧/٣١.

(٢) الفتاوى الكبرى ٣٠٥/٥، الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، المرداوي ٤٦١/٢.

(٣) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ١٠٢/٥، نيل الأوطار، الشوكاني ٢٢/٤.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٦٥/١١/٦، وانظر: رياض الصالحين، الباب رقم ١٤٩، الأحاديث ٩١٥-٩١٧، والأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار، الإمام النووي ١٦٣-١٦٤ ط مكتبة الصفا، وفتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٢٣/١-١٢٥، الأحاديث ٥٦٦٥-٥٦٦٨.

(٥) المبسوط، السرخسي ١٤٢/٢٧، بدائع الصنائع، الكاساني ٣٧٨/٧، مواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ٣٦٤/٦، أسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا بن محمد بن أحمد الأنصاري٢٩/٣، الغرر البهية في شرح البهجة الوردية، القاضي أبو يحيى زكريا الأنصاري ٢/٤ وما بعدها، كشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي ٣٣٨/٤، الفروع، ابن مفلح ٦٥٩/٤.

(٦) المغني، ابن قدامة ٥٥/٦.

(٧) المبسوط، السرخسي ١٤٢/٢٧، بدائع الصنائع، الكاساني ٣٣١/٧.

(٨) وبه قال منذر بن سعيد، وأبوبكر بن عبدالعزيز وغيرهم، انظر: المبسوط، السرخسي ١٤٢/٢٧، بدائع الصنائع، الكاساني ٣٣١/٧، مواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ٣٦٤/٦، المغني، ابن قدامة ٥٥/٦.

الرابع: المقدار الذي يجوز الوصية به من المال، فقد اتفق الفقهاء[(١)] على أن الوصية تمليك مضاف إلى ما بعد الموت، وأنها لا تصح إلا من ثلث التركة فقط ولا تزيد عليها، فإن زاد الموصي عن الثلث لم ينفذ ما زاد إلا برضا كل الورثة وإجازتهم لها.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: فضل عيادة المريض.

ثانيًا: من تاريخ الدعوة: حجة الوداع.

ثالثًا: من واجبات المدعو: السؤال عما يشغله.

رابعًا: من أساليب الدعوة: السؤال والجواب.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: فضل النفقة على الزوجة والأولاد.

سادسًا: من موضوعات الدعوة: الحث على فضل النية الصالحة.

سابعًا: من موضوعات الدعوة: فضل الصدقة والوصية.

ثامنًا: من موضوعات الدعوة: خوف الصحابة المهاجرين من الموت في مكة.

تاسعًا: من صفات الداعية: الشفقة والرحمة بالمدعوين.

عاشرًا: من دلائل النبوة: الإخبار عن المغيبات.

أولاً- من موضوعات الدعوة: فضل عيادة المريض:

يتضح هذا من خلال ما ورد في الحديث: "جاءني رسول الله يعودني"، قال ابن هبيرة: (في هذا الحديث استحباب عيادة المريض، ومن آداب العيادة أن تكون بعد ثلاث، لأن ما دونها لا يؤثر في الانقطاع تأثيرًا يقتضي العيادة)[(٢)]، ولا يخفى أن عيادة

---

(١) بدائع الصنائع، الكاساني في ترتيب الشرائع للكاساني ٣٣١/٧، تكملة البحر الرائق شرح كنز الدقائق، ابن نجيم للطوري ٤٦٠/٨، شرح منح الجليل على مختصر خليل، الشيخ محمد بن أحمد بن محمد عليش لعليش ٥٠٣/٩، حاشية الدسوقي على الشرح الكبير، محمد بن عرفة الدسوقي ٤٢٤/٤، مغني المحتاج للشربيني ٧/٤، نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، الرملي ٤١/٦، المغني، ابن قدامة ٥٦/٦، ٥٧، الفروع، ابن مفلح ٦٦٠/٤.

(٢) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة ٣٢٥/١.

المريض لها فضل كبير فهي من حقوق المسلم، قال ﷺ: ((حَقُّ المسلمِ على المسلمِ خَمسٌ: ردُّ السلامِ، وعيادةُ المريضِ، واتِّباعُ الجَنائزِ، وإجابةُ الدَّعوةِ، وتشميتُ العاطِسِ))[١]، وفي الحديث أيضًا: ((إِنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا عَادَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، لَمْ يَزَلْ فِي خُرْفَةِ الْجَنَّةِ حَتَّى يَرْجِعَ))، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا خُرْفَةُ الْجَنَّةِ؟ قَالَ ((جَنَاهَا))[٢].

قال ابن عثيمين: (ولقد كان من هدي النبي ﷺ عيادة المرضى لأنه عاد سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، وفي عيادة المرضى جلب للمحبة والمودة بين المسلمين، لأنها تؤنس المريض وتشرح صدره، وتُذكّر العائد بنعمة الله عليه في الصحة، وبالعيادة يؤدي المسلم حق أخيه المسلم"[٣].

ثانيًا- من تاريخ الدعوة: حجة الوداع:

ويظهر هذا مما ورد في الحديث: (جاءني رسول الله يعودني في حجة الوداع)، قال ابن علان: "سميت بذلك لأنه ﷺ ودعهم فيها، وتسمى حجة البلاغ لأنه ﷺ قال لهم فيها: (هل بلغت؟)، وبحجة الإسلام لأنها الحجة التي حج فيها المسلمون وليس فيها مشرك"[٤]، وتمثل حجة الوداع تاريخًا هامًا في الدعوة الإسلامية، قال ابن حزم: "أعلم رسول الله ﷺ الناس أنه حاج، ثم أمر بالخروج للحج فقصد مكة عام حجة الوداع التي لم يحج من المدينة منذ هاجر إليها غيرها وذلك يوم الخميس لست بقين من ذي القعدة سنة عشر نهارًا بعد أن ترجّل وادهن، وبعد أن صلى الظهر بالمدينة[٥].

ولقد تجمع في هذه الحجة أعداد غفيرة من المسلمين للاقتداء بالنبي ﷺ والحج معه، فكان لها معنًى دعويًا مهمًا جدًا، قال البوطي: (إن لحجة رسول الله ﷺ هذه معنى جليلاً يتعلق بالدعوة الإسلامية، ويتعلق بحياته ﷺ، فيبدو أن الله ألقى في روعه

---

(١) أخرجه البخاري ١٢٤٠، ومسلم ٢١٦٢.

(٢) أخرجه مسلم ٢٥٦٨.

(٣) شرح رياض الصالحين ١/٢٥.

(٤) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ٣٩.

(٥) حجة الوداع، ابن حزم الأندلسي الظاهري ص ١١٥.

أن مهمته في الأرض توشك أن تنتهي فأراد أن يلتقي بهذه الحشود المسلمة ليُلخِّص لهم تعاليم الإسلام ونظامه في كلمات جامعة وموعظة مختصرة)(١).

ثالثًا- من واجبات المدعو: السؤال عما يشغله:

يبدو هذا من قول سعد رضي الله عنه: (يا رسول الله بلغ بي من الوجع وأنا ذو مال أفأتصدق بثلثي مالي؟) وقد قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾(٢)، وهذا السؤال يدل على حبّه للدين وتعاليمه والفقه فيه والعمل بما يرشده إليه واجتناب ما نهى عنه، وفي ذلك قال ابن القيم: (سؤال الناس هو عيب ونقص في الرجل وذلّة تنافي المروءة إلاّ في العلم، فإنه عين كماله ومروءته وعزّه كما قال بعض أهل العلم: خير خِصال الرجل السؤال عن العلم. وقيل: إذا جلست إلى عالم فَسَلْ تفقّها لا تعنتًا، وقيل: لا ينال العلم مستحي ولا متكبر هذا، يمنعه حياؤه من التعلم وهذا يمنعه كبره)(٣).

رابعًا- من أساليب الدعوة: السؤال والجواب:

حيث جاء في الحديث: (أفأتصدق بثلثي مالي؟ قال: لا، قلت: فالشطر؟ قال: لا، قلت: فالثلث، قال: الثلث، والثلث كثير) فقد سأل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه عن التصدق بثلثي ماله فأجابه النبي صلى الله عليه وسلم بالنفي وهكذا حتى أقرّه النبي صلى الله عليه وسلم على الثلث، فكان هذا بيان إلى الوصية بالثلث.

خامسًا- من موضوعات الدعوة: فضل النفقة على الزوجة والأولاد:

حيث جاء في الحديث: (وإنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس ولست تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت عليها حتى اللقمة تجعلها في فيّ امرأتك)، قال النووي: (والعالة: الفقراء، ويتكففون: يسألون الناس، وفي هذا الحديث حث على صلة الأرحام والإحسان إلى الأقارب والشفقة على الورثة، وأن صلة القريب الأقرب والإحسان إليه أفضل من الأبعد)(٤)، وقال ابن هبيرة: (وقوله: "أن تذر

---

(١) فقه السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، د. محمد بن محمد أبو شهبة ٤٨٠.

(٢) سورة النحل، آية: ٤٣.

(٣) فضل العلم والعلماء، ابن القيم ص ٢٢٦.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٠٣٥.

ورثتك أغنياء" خيرُ دليل على أن ترك الرجل ورثته أغنياء خير من تركهم فقراء إذا أمكنه، لأن الخلق عيال الله، وهذا المتصدق إنما يخرج ماله إلى بعض عيال الله عز وجلّ، وورثته هم من بعض عيال الله عز وجل. فإذا عزم على التصدق فالأولى أن يبدأ بمن يجمع بين الصدقة عليه وبين صلة الرحم فيه من ورثته، ولأن الرجل كاسب لورثته في حال حياته، فقد سعى لهم مدة حياته، فإذا ترك لهم بعده شيئًا كان أيضًا كالساعي لهم بما ترك لهم من ماله في أيديهم، فلذلك قال رسول الله ﷺ "إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير")[1].

سادسًا- من موضوعات الدعوة: على النية الصالحة:

يتضح هذا من قوله: (تبتغي بها وجه الله)، فدل على أن الإنسان يثاب بقدر نيته الصالحة، قال الله تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝١٩ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٠ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾[2]، قال ابن هبيرة: (فيه من الفقه أنه ينبغي للرجل المؤمن أن لا ينفق نفقة في بيته وعلى أهله وزوجته وولده إلا لله عز وجل)[3].

قال ابن حجر: "والنفقة مقيدة بابتغاء وجه الله وعلق حصول الأجر بذلك وهو المعتبر، ويستفاد منه أن أجر الواجب يزداد بالنية، لأن الإنفاق على الزوجة واجب، وفي فعله الأجر فإن نوى به ابتغاء وجه الله ازداد أجره بذلك، قال ابن دقيق العيد: فيه أن الثواب في الإنفاق مشروط بصحة النية وابتغاء وجه الله"[4].

وقال السيد سابق: "والعمل لا يعتد به، ولا يعتبر خيرًا إلا إذا كان عن نية طيبة خالصة لوجه الله لأن العمل حينئذ يناط بغاية واحدة ومثل أعلى هو الله، والله لا يأمر إلا بالخير، ولا يحب إلا الخير، فتكون وجهة الإنسان في الحياة وجهة الخير لنفسه، وللناس جميعًا"[5].

---

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة ٣٢٥/١.

(٢) سورة الليل، الآيات: ١٩ - ٢١.

(٣) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة ٣٢٦/١.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤٣٢/٥.

(٥) إسلامنا، الشيد سابق ص ٣٨.

سابعًا- من موضوعات الدعوة: فضل الصدقة والوصية:

لقد أقرّ النبي ﷺ سعدًا على الوصية بالثلث، فقال: "الثلث والثلث كثير"، وهذه الوصية إفادة لغير الورثة ونفع لهم، قال ابن هبيرة: (فيه [أي الحديث] أيضًا من الفقه أن رسول الله ﷺ جعل للرجل من ماله الثلث ليتصدق به في وجوه يراها أولى من ورثته، لأنه قد يكون في الناس من يعرف ناسًا ذوي ضرورة ملحفة فهم في العاجل أولى من ورثته، فلو كان محظورًا على الرجل أن يتصدق من ماله بشيء لكن ذلك إضرارًا بأولئك المستحقين، كما أنه لو كان مفسوحًا[1] للرجل أن يتصدق بكل ماله لكان ذلك إضرارًا بورثته، فلما كان الأمر في ذلك من الجانبين اقتضت حكمة الله ما قدّره رسول الله ﷺ بالثلث، إلا أنَّه إنما قدر الثلث من حيث ترجيح الورثة بجانب الفاقة وجانب الرحم، فصار الورثة يُدْلون بسببين والفقراء غيرهم يدلون بسبب واحد، فلذلك صار الثلث للأجانب والثلثان للأقارب)[2].

وبالجملة فإن الوصية يحتاج الناس إليها زيادة في القربات والحسنات وتداركًا لما فرط به الإنسان في حياته من أعمال الخير لذا شرعها الشارع تمكينًا من العمل الصالح، ومكافأة لمن أسدى للمرء معروفًا، وصلة الرحم والأقارب غير الوارثين، وسد خلة المحتاجين وتخفيف الكرب عن الضعفاء والبؤساء والمساكين"[3].

ثامنًا- من موضوعات الدعوة: خوف الصحابة المهاجرين من الموت في مكة:

حيث جاء في الحديث: (يا رسول الله أخلف بعد أصحابي) قال النووي: (معناه أخلف بمكة بعد أصحابي فقاله إما إشفاقًا من موته بمكة لكونه هاجر منها وتركها لله تعالى فخشي أن يقدح ذلك في هجرته أو في ثوابه عليها، أو خشي بقاءه بمكة بعد انصراف النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة وتخلفه عنهم بسبب المرض، وكانوا يكرهون الرجوع فيما تركوه لله تعالى)[4]، وقال ابن حجر: (وكانوا يكرهون الإقامة

---

(١) الفسح: شبه الجواز، فسح له الأمير في السفر: كتب له الفسح. القاموس المحيط في (ف س ح).

(٢) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة ٣٢٦/١.

(٣) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٢٢/٤٣.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٠٣٥.

في الأرض التي هاجروا منها وتركوها مع حبهم فيها لله تعالى، فمن ثم خشي سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن يموت بها، وتوجع رسول الله ﷺ لسعد بن خولة لكونه مات بها)[١]. وقال ابن عثيمين: (ومن فوائد الحديث: خوف الصحابة المهاجرين من مكة أن يموتوا فيها، لأن سعدًا رضي الله عنه قال: "أخلف بعد أصحابي" وهذه الجملة استفهامية والمعنى "أَأُخلف؟" وهذا استفهام توقعي مفروض يعني أنه لا يحب أن يتخلف فيموت في مكة وقد خرج منها مهاجرًا إلى الله ورسوله)[٢].

تاسعًا- من صفات الداعية: الشفقة والرحمة بالمدعوين:

يظهر هذا في الحديث من دعاء النبي ﷺ لأصحابه ومن عيادته لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه في مرضه، ودعائه ﷺ لسعد بالشفاء كما في رواية مسلم "اللهم اشف سعدًا اللهم اشف سعدً" ثلاث مرات[٣] قال ابن هبيرة: (فيه دليل على استحباب الدعاء للمؤمن بطول البقاء مشروع)[٤] ودعائه ﷺ للمهاجرين "اللهم أمضِ لأصحابي هجرتهم ولا تردهم على أعقابهم" قال ابن هبيرة: (في هذا الحديث دليل على أن المهاجر لا يستغني عن الدعاء له في إمضاء هجرته قبولاً وارتضاءً من الله سبحانه ... وقوله "ولا تردهم على أعقابهم" دليل على الخوف من الارتداد بعد الإيمان والنكوص على العقبين بعد الهجرة)[٥].

ومما لا شك فيه أن من أهم صفات الداعية الرحمة والشفقة بالمدعوين، "ولقد تحلى قدوة الدعاة النبي الخاتم ﷺ بالرحمة والرفق في أقواله وأفعاله مع من دعاهم إلى الله تعالى، وكان ذلك سببًا رئيسًا من أسباب نجاح دعوته"[٦].

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٩٦/٣.

(٢) شرح رياض الصالحين ٢٩/١، ٣٠.

(٣) أخرجه مسلم ١٦٢٨، ٨.

(٤) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة ٣٢٧/١.

(٥) المرجع السابق ٣٢٧/١.

(٦) صفات الداعية، د. حمد بن ناصر العمار ص ٥٤.

عاشرًا- من دلائل النبوة: الإخبار عن المغيبات:

يظهر هذا من قول النبي ﷺ: (إنك لن تخلف، ولعلك إن تخلف حتى ينتفع بك أقوام ويضر بك آخرون)، قال ابن علان: "هذا من جملة إخباره ﷺ بالمغيبات فإن سعدًا عاش حتى فتح العراق وغيره، وانتفع به قوم في دينهم ودنياهم، وتضرر به الكفار في دينهم ودنياهم، فإنهم قتلوا إلى جهنم وسبيت نساؤهم وأولادهم وغنمت أموالهم وديارهم، وولي العراق فاهتدى على يديه خلائق، وتضرر به خلائق بإقامته الحق فيهم من كفار ونحوهم"[1].

قال ابن عثيمين: (وهذا الحديث من معجزات الرسول ﷺ، فإن الأمر وقع كما توقعه ﷺ، فإن سعدًا عمَّر إلى خلافة معاوية، وهذه من آيات النبي ﷺ أن يخبر عن أمر مستقبل يقع كما أخبر به)[2].

وقد كان الإخبار من النبي ﷺ لسعد عن نفعه للمؤمنين وإضراره بالكافرين وغيرهم، فعرّفه ﷺ أن قول عمر المؤمن زيادة درجات له بمقتضى كل عمل يعمله في كل يوم وساعة ونفس، فإن المؤمن لا يستوي يومان أبدًا بل هو في زيادة، وفيه أيضًا ما يدل على أن المؤمن كما ينتفع به المؤمنون فكذلك يستضرّ به الفاسقون والمجرمون[3].

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٤١.

(٢) شرح رياض الصالحين ١/ ٣٠.

(٣) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة ١/ ٣٢٦.

الحديث رقم (٧)

٧- عَنْ أبي هُرَيْرة عَبْدِ الرَّحْمن بْنِ صخْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: قالَ رَسُولُ اللّه ﷺ: **«إنَّ الله لا يَنْظُرُ إلى ((أَجْسامِكْم))**[1]**، وَلا إلى صُوَرِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ»** رواه مسلم[2].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: هو أبو هريرة راوية الإسلام، اختلف في اسمه على أقوالٍ كثيرة أرجحها: عبدالرحمن بن صخر الدَّوسي اليماني، كُني بأبي هريرة، لأنه كان يلعب بقطة وهو يرعى غنمًا لأهله، فكنوه بذلك.

أسلم أول سنة سبع عام فتح خيبر، وكان فقيرًا لا مال له ولا أهل، فلازم النبي ﷺ أربع سنوات، فكان معه ﷺ حيثما كان، واجتهد في طلب الحديث والحرص عليه، فحفظ عن النبي ﷺ علمًا كثيرًا، حتى كان أكثر الصحابة رواية للحديث، فبلغ مسنده ٥٣٧٤ حديثًا، وروى عنه هذا العلم أكثر من ٨٠٠ من الصحابة والتابعين.

وقد كان حفظه من معجزات النبوة، قال: إنكم تقولون إن أبا هريرة يكثر الحديث عن رسول الله ﷺ وتقولون: ما للمهاجرين والأنصار لا يحدثون مثله؟ إن إخواني المهاجرين كان يشغلهم الصفق بالأسواق وكان إخواني من الأنصار يشغلهم عمل أموالهم، وكنت امرأً مسكينًا من مساكين الصُفَّة، ألزم رسول الله ﷺ على مِلء بطني فأحضر حين يغيبون وأعي حين ينسون. ولقد قال رسول الله ﷺ يومًا: ((أيكم يبسط ثوبه فيأخذ من حديثي هذا، ثم يجمعه إلى صدره، فإنه لم ينس شيئًا سمعه)). فبسطت بردة عليّ حتى فرغ من حديثه، ثم جمعتها إلى صدري. فما نسيت بعد ذلك اليوم شيئًا حدثني به[3].

---

(١) لفظ مسلم: (أجسادكم)، والمثبت لفظ المنذري في ترغيبه.

(٢) برقم (٢٥٦٤/٣٣)، وزاد في آخره: (وأشار بأصابعه إلى صدره). وبرقم (٣٤) زيادة: (وأعمالكم). أورده المنذري في ترغيبه (١٩).

(٣) أخرجه البخاري ٢٠٤٧، ومسلم ٢٤٩٢.

وقد شهد له الصحابة بذلك، قال له عبدالله بن عمر: (يا أبا هريرة أنت كنت ألزمنا لرسول الله ﷺ وأحفظنا لحديثه)[١].

وقال طلحة بن عبيد الله: والله ما أشك أنه سمع من رسول الله ﷺ ما لم نسمع وعلم ما لم نعلم.

وكان لشدة حيطته في رواية الحديث يبتدئ حديثه بأن يقول: قال رسول الله ﷺ أبو القاسم الصادق المصدوق: ((من كذب عليّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار))[٢].

واستعمله عمر على البحرين ثم عزله فأراد أن يستعمله مرة أخرى فأبى وقال: إني أخشى ثلاثًا: أن أقول بغير علم وأقضي بغير حكم ويُضرب ظهري ويُشتم عرضي ويُنزع مالي.

وكان صاحب عبادة، فكان هو وامرأته وخادمه يقسمون الليل ثلاثًا يصلي هذا ثم يوقظ هذا. وكان يسبح كل يوم اثنتي عشرة ألف تسبيحة ويقول: أسبح بقدر ديتي. وكان طيب الأخلاق كريم الشمائل متواضعًا، ولي المدينة مرة أيام معاوية بن أبي سفيان فأقبل يحمل حزمة حطب في السوق وهو يقول: أوسع الطريق للأمير.

وكان من فقهاء الصحابة، جاءت مسألة إلى ابن عباس ومعه أبو هريرة فقال له: أفته يا أبا هريرة فقد جاءتك مُعضلة.

ولما حضرته الوفاة بكى فقيل له: ما يبكيك؟ قال: ما أبكي على دنياكم هذه، لكن على بعد سفري وقلة زادي إني أمسيت في صَعُود ومهبطه على جنة أو نار، فلا أدري أيهما يؤخذ بي.

ومات بالمدينة سنة ٥٧هـ ودفن بالبقيع وشيعه ابن عمر وأبو سعيد الخدري[٣].

---

(١) أخرجه الترمذي ٣٨٣٦، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٣٠١٣).

(٢) أخرجه أحمد ٤١٣/٢ رقم ٩٣٥٠، وقال محققو المسند: حديث متواتر، وهذا إسناد قوي ٢٠٤/١٥.

(٣) الطبقات الكبرى، ابن سعد ٣٦٢/٢، ٣٢٥/٤، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ٨٦٢، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير ٣١٣/٦، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني ١٥٧٠، والسير ٥٧٨/٢، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي ٤٤٧/٨، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني ٦٠١/٤، والأعلام، خير الدين الزركلي ٣٠٨/٣، وموسوعة عظماء حول الرسول، خالد عبدالرحمن العك ٢٠٩٧/٣.

الشرح الأدبي

إن الإنسان في حركته الحياتية يحتاج إلى الجوارح المتمثلة في: الحواس الخمس، حتى يستطيع القيام بأعباء وتكاليف الحياة، وقد منح الله عز وجل الإنسان نعمًا لا تعد ولا تحصى ومنها: نعمة النطق – والبصر – والسمع – واليد التي من خلالها يؤدي عمله في إتقان وكذلك نعمة المشي حيث وهبه الرجلين؛ وهذه الحواس الظاهرة لا تتحرك إلا بمشيئة الله وإرادته وتسخير أجهزة الجسم المتعددة، مراكز الإحساس مع مكونات الجسم الأخرى وقد نبه الحق سبحانه وتعالى إلى الحفاظ على هذه النعم الظاهرة والباطنة فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾[1].

والحديث النبوي الشريف يرشد إلى أن هذه النعم التي وهبها الله لعباده هي الوسائل التي بها يجابه الإنسان متغيرات الحياة ويقوي على عمارة الكون.

هذه الوسائل الجسمانية والشكلية تفقد قيمتها ووظيفتها الحقيقية في الحياة إذا لم يكن القلب هو الميزان الذي ينظم حركتها، ويضبط إيقاعها بفضل توفيق الله، واستجابة العبد لأوامر الخالق ونواهيه.

وكل هذه المعاني تكمن في رياض كلمات هذا الحديث الشريف الذي يعد من جوامع كلمه ﷺ، ويتسم بالإيجاز والدقة والشمول، واتساع المعنى، وتعدد الدلالة، والخلوص والقصد والاستيفاء ("إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم") والمعنى المراد من نفي نظر الله عز وجل: انتفاء الثواب والقرب من الله عز وجل.

وفي القرآن الكريم آيات متعددة تؤكد هذا المعنى الذي يعد من سمات التصرف الإيماني وعلامات الشخصية الإسلامية في علاقتها بالله سبحانه وتعالى: يقول الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ

---

(١) سورة الإسراء، آية: ٣٦.

إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾[١].

وتجيء صياغة الحديث في قالب الجملة الاسمية المؤكدة لتدل على ثبات هذه الحقيقة التي تؤكد الاعتناء بحال القلب وصفاته بتحقيق علومه، وتصحيح مقاصده وتطهيره عن كل وصف مذموم، وتحليته بكل نعت محمود.

والقلب: ميزان الإيمان وعلامة القبول والاطمئنان؛ ومما يؤكد هذه الوظيفة الإيمانية أن المصطفى ﷺ نبه إلى مكانة القلب من الجسد: فهو مقياس الصلاح والفساد حيث يقول في حديثه الشريف. ((ألا وإن في الجسد مضغة: إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب))[٢].

وقال أحد الصالحين العابدين مصورًا خشية الله ومراقبته، وعدم الغفلة والنسيان: "إن لله عبادًا ذكروه فخرجت نفوسهم إعظامًا واشتياقًا، وقوم ذكروه فوجلت قلوبهم فرقًا وهيبة فلو حرقوا بالنار لم يجدوا مس النار وآخرون ذكروه في الشتاء وبرده فارفضوا عرقًا من خوفه، وقوم ذكروه فحالت ألوانهم غبرًا، وقوم ذكروه فجفت أعينهم سهرًا".

وهؤلاء العباد هم الأولى بفضل الله ورعايته ونظره ومعيته وهم الذين تصور واقعهم هذه الأبيات التي استشهد بها النووي في مقدمة كتاب رياض الصالحين قائلاً:

ولقد أحسن القائل:

إن لله عبـــــــادًا فطنـــــــا — طلقـــوا الـــدنيا وخـــافوا الفتنـــا

نظـــروا فيهـــا فلمـــا علمـــوا — أنهـــا ليـــست لِحَـــيٍّ وطنـــا

جعلوهـــا لجـــة واتخـــذوا — صـــالح الأعمـــال فيهـــا ســـفنا

وفي هذا الحديث عدة مسائل تفصح عنها لغة الحديث وصياغته ودلالته ومنها:

أ- الحض على النية الحسنة، وضرورة إصلاح القلب؛ لأن عمل القلب هو المصحح

---

(١) سورة الأنفال، آية: ٢.

(٢) أخرجه البخاري ٥٢، ٢٠٥١، ومسلم ١٥٩٩.

للأعمال الشرعية، والقلب منطلق الأحاسيس والمشاعر، ويجب أن تكون هذه المشاعر متسمة بالنبل والرأفة والحب لكل القيم الإنسانية والمبادئ الإسلامية.

ب- يرشد الحديث إلى مقاومة آفات الحواس الظاهرة، وآفات القلوب ومنها آفة النفاق، وآفة الرياء، وآفة الحسد وكل ما يشوه القيم الإسلامية ويمزق الأواصر الاجتماعية.

ج- مقاومة الغرور الذي يصيب بعض الأفراد الذين خدعتهم مقومات القوة المادية، فغدوا يتباهون بما رزقوا من جمال في الهيئة، وقوة في الجسد، وبهاء في الشكل الحسي الجسدي، وربما يؤدي ذلك إلى التعالي والكبر، والبطش والاستبداد والظلم، واحتقار الغير والانتقاص من قدره، وهذا المغرور الأحمق لا يفقه دلالة هذا الحديث الشريف، ولا يدرك فداحة الخطب ومرارة الحرمان حين يحرم من نظر الله عز وجل وحمايته، وحين يطرد من ساحة رضوانه ورحمته وهو بهذا الغرور والسفه، وإهمال إصلاح قلبه، واهتمامه بالعرض دون الجوهر، والأجسام دون الأحلام والإفهام، إن هذا الصنف ألقى بنفسه في دائرة الماديين والحمقى الذين اشتروا بعهد الله وأيمانهم ثمنًا قليلا: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾[(١)].

إن الآفات الشخصية والأمراض الاجتماعية يحذر منها هذا الحديث الشريف في أسلوب يتسم بالإيجاز، والإيحاء، والإيماء، وعدم الإطناب والتفصيل، وتلك الخصائص من أهم سمات البيان النبوي فهو كما قال الجاحظ: الكلام الذي قل عدد حروفه وكثر عدد معانيه، وجمع بين المهابة والحلاوة، وبين حسن الإفهام وقلة عدد الكلام، وبين الخطب الطوال بالكلم القصار.

وفي هذا الحديث الموجز يعثر كل قارئ وطالب للهداية على نسق البلاغة النبوية التي خضعت الأفكار لآيتها وحُسرت العقول دون غايتها، وألفاظ النبوة يعمرها قلب متصل بجلال خالقه ويصقلها لسان نزل عليه القرآن بحقائقه.

---

(١) سورة آل عمران، آية: ٧٧.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: التوكيد والاستدراك.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: أهمية العناية بسلامة القلب.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: العناية بالأعمال الصالحة.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: عدم الغلو في تعظيم صاحب الأعمال الصالحة في احتقار المقترف للأعمال السيئة.

خامسًا: من واجبات الداعية: الإخبار بأن الله تعالى لا ينظر إلى الأجسام وإنما ينظر إلى القلوب.

أولاً- من أساليب الدعوة: التوكيد والاستدراك:

لقد جاء الحديث النبوي الشريف في صيغة "التوكيد" ليؤكد مضمون ما بعده، وهو نفي نظر الله سبحانه وتعالى إلى الأجسام أو الصور من عباده، وفائدة التوكيد هنا إزالة ما يكون قد علق بأذهان بعض المدعوين من نظر الله إلى قوة الأجساد أو حسن الصورة، كما يقع ذلك من البشر، تعالى عن ذلك ربي علوًا كبيرًا، ولله المثل الأعلى. وبعد هذا النفي المؤكد يأتي الاستدراك، ليبين أهمية المستدرك وهو الأعمال ونظر الله إليها، مما يلزم عنه تحسينها وتجويدها وإخلاصها.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: أهمية العناية بسلامة القلب:

حيث جاء في الحديث "ولكن ينظر إلى قلوبكم" ومما هو معلوم أن القلب عليه المدار في الأعمال قال القرطبي: (وفي الحديث الاعتناء بحال القلب وصفاته بتحقيق علومه، وتصحيح مقاصده وعزومه، وتطهيره عن كل وصف مذموم، وتحليته بكل نعت محمود، فإنه لما كان القلب محل نظر الرب، حق على العالم بقدر اطلاع الله تعالى على قلبه أن يفتِّش عن صفات قلبه وأحواله، لإمكان أن يكون فيه وصف مذموم يمقته الله بسببه. والاعتناء بإصلاح القلب وصفاته مقدم على عمل الجوارح، لأن عمل القلب هو المصحح للأعمال الشرعية إذ لا يصح عمل شرعي إلا من مؤمن عالم بمن كلّفه، مخلص له فيما يعمله، ثم لا يكمل إلا بمراقبته تعالى فيه المعبر عنها بالإحسان)[١].

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ٥٣٨/٦، وانظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٤٣.

ولأهمية العناية بسلامة القلب قال ابن مفلح: (قال تقي الدين: إن صلاح القلب مستلزم لصلاح سائر الجسد، وفساده مستلزم لفساد سائر الجسد، فإذا رأى ظاهر الجسد فاسدًا غير صالح علم أن القلب ليس بصالح بل فاسد، ويمتنع فساد الظاهر مع صلاح الباطن، كما يمتنع صلاح الظاهر مع فساد الباطن، إذ كان صلاح الظاهر وفساده ملازمًا لصلاح الباطن وفساده)[١].

وقال ابن القيم: (ولله على كل قلب هجرتان، وهما فرض لزوم له على الأنفاس: هجرة إلى الله سبحانه بالتوحيد والإخلاص والإنابة والحب والخوف والرجاء والعبودية، وهجرة إلى رسوله ﷺ بالتحكيم له والتسليم والتفويض والانقياد لحكمه فما لم يكن لقلبه هاتان الهجرتان فليحثُ على رأسه الرماد، وليراجع الإيمان من أصله، فيرجع وراءه ليقتبس نورًا، قبل أن يحال بينه وبينه، ويقال له ذلك على الصراط من وراء السور)[٢].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: العناية بالأعمال الصالحة:

يظهر هذا من الحديث في قوله "ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم"[٣] وقد دلت النصوص الشرعية على فضل عمل الصالحات قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[٤] والعمل الصالح سبب لتبديل السيئات حسنات، قال تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَـٰلِحًا فَأُوْلَـٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[٥] والعمل الصالح سببٌ لدخول الجنة، قال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ

---

(١) الآداب الشرعية، حماد بن عبدالله الحماد ١/١٦٠.

(٢) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٣/٢٢٦.

(٣) كما في الرواية ٢٥٦٤، ٣٤ عند مسلم.

(٤) سورة التوبة، آية: ١٠٥.

(٥) سورة الفرقان، آية: ٧٠.

ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ﴾[١] والعمل الصالح يرفعه الله إليه ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ ﴾[٢] ومما يجب على المسلم في العمل الصالح أن ينقيه من الرياء والشرك ويجعله خالصًا لله تعالى حتى يثاب عليه قال ابن قدامة المقدسي: (والعمل بغير نية عناء، والنية بغير إخلاص رياء، والإخلاص من غير تحقيق هباء قال الله تعالى ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٍ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾[٣] فالوظيفة الأولى على كل عبد أراد طاعة الله تعالى أن يعلم النية أولاً لتحصل له المعرفة، ثم يصححها بالعمل بعد فهم حقيقة الصدق والإخلاص اللذين هما وسيلتان للعبد إلى النجاة)[٤].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: عدم الغلو في تعظيم صاحب الأعمال الصالحة وفي احتقار المقترف للأعمال السيئة:

قال القرطبي: (يستفاد من هذا الحديث فوائد: ... الثالثة: أنه لما كانت القلوب هي المصحِّحة للأعمال الظاهرة وأعمال القلب غيب عنا، فلا يقطع بمغيب أحد، لما يرى عليه من صور أعمال الطاعة أو المخالفة، فلعلّ من يحافظ على الأعمال الظاهرة يعلم الله تعالى من قلبه وصفًا مذمومًا لا تصحّ معه تلك الأعمال، ولعل من رأينا عليه تفريطًا أو معصية يعلم الله من قلبه وصفًا محمودًا يغفر له بسببه، فالأعمال أمارات ظنية لا أدلة قطعية، ويترتب عليها عدم الغلوِّ في تعظيم من رأينا عليه أفعالاً صالحة، وعدم الاحتقار لمسلم رأينا عليه أفعالاً سيئة؛ بل تحتقر وتذم تلك الحالة السيئة، لا تلك الذات السيئة، فتدبَّر هذا، فإنه نظر دقيق)[٥] لأن الموضوعية والتوسط في النظر للأمور مطلب

---

(١) سورة محمد، آية: ١٢.

(٢) سورة فاطر، آية: ١٠.

(٣) سورة الفرقان، آية: ٢٣.

(٤) مختصر منهاج القاصدين، ابن قدامة المقدسي تحقيق: زهير الشاويش ص ٣٩٣.

(٥) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ٦/٥٣٩.

هام وضروري، ينبغي على المؤمن أن يحرص عليهما، خاصة وإن قلوب العباد بين إصبعي الرحمن يقلب كيف يشاء.

خامسًا- من واجبات الداعية: الإخبار بأن الله تعالى لا ينظر إلى الأجسام وإنما ينظر إلى القلوب:

حيث أخبر النبي ﷺ بأن الله لا ينظر إلى الأجسام والصور ولكن إلى القلوب والأعمال. لذا يعتبر من أهم واجبات الداعية أن يخبر المدعوين بالحقائق الدينية التي يعلمها، وقد أمر الله رسوله بذلك ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ ﴾[1] وقال جل شأنه ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[2] وفي إخبار الداعية بالحقائق إقامة الحجة على المدعوين، حتى يكون كل واحد منهم على بيّنة يوجه اهتمامه وعنايته إلى قلبه، فيعمد إلى تطهيره من الغِلّ والحسد والحقد وغير ذلك من الأمراض التي تؤثر عليه، وبعد ذلك من الواجبات المناطة بالداعية.

قال السعدي: (أمر الله نبيه ﷺ بأعظم الأوامر وأجلها، وهو التبليغ لما أنزل الله إليه، ويدخل في هذا: كل أمر تلقته الأمة عنه ﷺ من العقائد والأعمال والأقوال والأحكام الشرعية والمطالب الإلهية. فبلغ ﷺ أكمل تبليغ ودعا وأنذر وبشّر ويسّر، وعلم الجهال الأميين حتى صاروا من العلماء الربانيين، وبلغ بقوله وفعله وكتبه ورسله فلم يبق خير إلا دلَّ أمته عليه، ولا شر إلا حذرها منه، وشهد له بالتبليغ أفاضل الأمة من الصحابة رضي الله عنهم فمن بعدهم من أئمة الدين ورجال المسلمين)[3].

---

(١) سورة المائدة، آية: ٦٧.

(٢) سورة النحل، آية: ٤٤.

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ٢٠١.

الحديث رقم (٨)

٨- وعَنْ أبي مُوسَى عبْدِ اللَّهِ بْنِ قَيْسٍ الأَشعرِيِّ ﷺ قالَ: سُئِلَ رسول الله ﷺ عَنِ الرَّجُلِ يُقاتِلُ شَجَاعَةً، ويُقاتِلُ حَمِيَّةً، ويقاتِلُ رِياءً، أَيُّ ذلِك في سَبِيلِ اللَّهِ؟ فَقَالَ رسول اللَّه ﷺ: «**مَنْ قاتَلَ لِتَكُون كلِمةُ اللَّهِ هِي الْعُلْيَا، فهُوَ في سَبِيلِ اللَّهِ**» مُتَّفَقٌ عليه(١).

ترجمة الراوي:

أبو موسى الأشعري: عبدالله بن قيس بن سُليم، كنيته أبو موسى الأشعري. مشهور باسمه وكنيته، لكن بكنيته أكثر.

أتى مكة فأسلم، ثم رجع إلى قومه باليمن فأقام بها حتى قدم مع الأشعريين - وكان عددهم نحو خمسين- في سفينة فألقتهم الريح إلى أرض الحبشة حيث وجدوا جعفر بن أبي طالب ﷺ هناك فأقاموا ثم خرجوا معه إلى المدينة، فأتوا النبي ﷺ بعد فتح خيبر، فقال لهم: ((لكم الهجرة مرتين: هجرتكم إلى الحبشة وهجرتكم إلى المدينة))(٢).

وشارك في الغزوات والجهاد، فشارك في غزوة أوطاس -وهي غزوة بعد غزوة حنين- وأبلى فيها بلاءً حسنًا فأتى النبي ﷺ فدعا له فقال: ((اللهم اغفر لعبدالله بن قيس ذنبه، وأدخله يوم القيامة مدخلاً كريمًا))(٣).

وبعثه النبي ﷺ هو ومعاذ بن جبل إلى اليمن، وولاه على بعض بلادها كزبيد وعدن وأعمالهما، فلما كانت الفتوحات شارك في فتوح الشام، وأقام هناك حتى استعمله عمر بن الخطاب واليًا على البصرة، فافتتح الأهواز ثم أصبهان، فلما عزله عثمان توجه إلى الكوفة يفقّه الناس ويعلمهم، حتى طلب أهلها من عثمان أن يوليه عليهم فولاه.

---

(١) أخرجه البخاري ٧٤٥٨، ومسلم واللفظ له ١٥٠/١٩٠٤. أورده المنذري في ترغيبه ١٩٨٧.

(٢) أخرجه البخاري ٤٢٣٠، ٤٢٣١، ومسلم ٢٥٠٢، ٢٥٠٣، وأحمد واللفظ له ٤١٢/٤ رقم ١٩٦٩٤.

(٣) أخرجه البخاري ٤٣٢٣، ومسلم ٢٤٩٨.

فلما وقعت الفتنة اعتزلها وكان أحد الحكمين اللذيْن حكما في أمر المسلمين وما وقع بينهم من خلاف وقتال.

أما عن صفاته فكان قصيرًا خفيف الجسم قليل شعر اللحية، أعطاه الله حسن الصوت، فكان أحسن الصحابة صوتًا، قال عنه النبي ﷺ وقد سمعه يقرأ القرآن ((لو رأيتني وأنا أستمع لقراءتك البارحة! لقد أوتيت مزمارًا من مزامير آل داود))[١]، ولذلك كانت أزواج النبي ﷺ يستمعن لقراءته إذا قرأ بالليل في المسجد. وقال عنه أبو عثمان النهدي - أحد الذين أسلموا على عهد النبي ﷺ ولم يلقه-: إن كان ليصلي بنا فنودُّ أنه قرأ البقرة من حسن صوته.

ولذا كان عمر بن الخطاب يطلب منه أن يقرأ عليه القرآن ويقول له: ذكرنا ربنا يا أبا موسى. وفي رواية: شوّقنا إلى ربنا.

وكان صاحب عبادة وعلم وفقه وزهد. قال الحسن البصري: ما قدم البصرة راكب خير لأهلها من أبي موسى. واجتهد قبل موته اجتهادًا شديدًا فقيل له: لو أمسكت ورفقت بنفسك. قال: إن الخيل إذا أُرسلت فقاربت رأس مجراها أخرجت جميع ما عندها، والذي بقي من أجلي أقل من ذلك. قال عنه الذهبي: "كان صوامًا قوامًا ربانيًا عابدًا ممن جمع العلم والعمل والجهاد وسلامة الصدر لم تغيره الإمارة ولا اغتر بالدنيا"[٢]. مات سنة ٤٤هـ بالكوفة أو المدينة وقيل غير ذلك في سنة وفاته[٣].

غريب الألفاظ:

الحَمِيَّة: الأَنَفَة والغيرة من أجل الأهل والعشيرة والصاحب ونحو ذلك[٤].

كلمة الله: حُكْمُه وإرادتُه[٥].

---

(١) أخرجه البخاري ٥٠٤٨، ومسلم ٢٣٦-٧٩٣.

(٢) سير أعلام النبلاء، الذهبي ٢/٣٩٦.

(٣) الطبقات الكبرى، ابن سعد ٢/٣٢٤، ٤/١٠٥، ٦/١٦، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ٤٣٢، ٨٥١، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير ٣/٣٦٤، ٦/٢٩٩، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني ٨٢١، والسير ٢/٣٨٠، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي ٤/٢٤٣، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني ٢/٤٠٥، والأعلام، خير الدين الزركلي ٤/١١٤.

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ح م ي)، وشرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٢١٩، وفتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٦/٣٤.

(٥) الوسيط في (ك ل م).

الشرح الأدبي

في هذا الحديث النبوي الشريف تتجلى خاصية أسلوبية لها أثرها في تقريب المعنى وتشويق السامع وإقناع المخاطب، وهى خاصية "الحوار" عن طريق السؤال والجواب؛ والحوار من شأنه أن يحدث تفاعلاً بين السائل والمجيب، وأن ينتهي إلى فائدة هي: الإقناع والإمتاع.

والبيان النبوي في الأحاديث الشريفة ينطوي على أسرار تعبيرية دقيقة تحتاج إلى التأمل والتفكر والتدبر في كل كلمة وكل جملة، وفي كيفية بناء الحديث أسلوبيًا، وهذا التأمل يقودنا إلى اكتشاف مواطن الجمال والقوة في كلام سيد المرسلين فكلامه ﷺ كلما زدْتَه فكرًا زادك معنى، وتفسيره قريب كالروح في جسمها البشري، ولكنه كالروح في سرها الإلهي كما يقول الرافعي: والأمر يزداد جلاء حين ينبه الرافعي إلى ضرورة التأمل في كلام رسول الله واستكشاف مقاصده وأسراره ومواطن جماله. "فهو معك على قدر ما أنت معه إن وقفت على حد وقف وإن مددت مدّ وما أدَّيت به تأدى.

وراوي الحديث أبو موسى الأشعري: هو الذي صاغ القالب الحواري عن طريق روايته، وهو نموذج للمؤمن الذي قاتل وجاهد لتكون كلمة الله هي العليا مع أصحاب المصطفى الأخيار.

وأول ما يلفت الانتباه في صياغة هذا الحديث الشريف هو بناء الفعل "سئل" للمجهول وعدم تحديد السائل، وذلك لأن القضية لا تتعلق بشخص السائل، وإنما تتعلق بمنهج الإسلام في إخلاص النية وسلامة العقيدة والحرص على إعلاء كلمة الإسلام ورفع راية التوحيد، وأن لا ينازع هذا المقصد الأسمى مقصد دنيوي آخر، وقيل أن السائل هو: لاحق بن ضمرة الباهلي.

ولم يأت لفظ الرجل في صيغة النكرة مجردًا من أل، ولكنه جاء مقترنًا بأل وهي للجنس أي جنس الرجل وهى ليست للتعريف؛ حتى يزول أي إيحاء بتحديد رجل معين لأن السياق يُعْنى به توضيح مبدأ عام من مبادئ الإسلام في الدفاع عن الدين، والجهاد في سبيل الله والاستشهاد في الميدان.

وصيغة يقاتل تنبئ عن حقيقة إسلامية وميدانية وهي الدفاع عن النفس والدين والعرض والمال؛ لأن الصيغة تدل على المفاعلة والقتال من الجانبين فالقتال ليس اعتداءً ولكنه دفاع ومقاتلة؛ وآية سورة التوبة دليل صدق هذا المنهج الإسلامي والقرآن تفيض آياته البينات بمعالم هذا المنهج في سبيل إعلاء كلمة الله : يقول الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[1].

وكرر الفعل يقاتل بهذه الصيغة التفاعلية ثلاث مرات.

وفي روايتي الحديث: حتى تستقر في الذهن هذه الصيغة التي تعلن عن جو الصراع وطبيعة الجهاد وهو الدفاع عن النفس وليس العدوان، وحتى يعلم المنافقون والملحدون وأعداء الإسلام بصفة عامة أن الدين الإسلامي ليس دين قتل كما يدعون، ويزعمون، ويبالغون في هذا الادعاء، حين يقولون بأن الإسلام انتشر بحدّ السيف، ولم يتدبر هؤلاء الجاحدون قول الله عز وجل: ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾[2].

والأسلوب الحواري في الحديث يوضح أنواع القتال، وأبعاد الصراع في الحياة ولكن هذا التحديد لم يُقدَّم في صيغة مألوفة تقديرية وإنما جاء في هذه الصيغة ليحمل لكل من تحدثه نفسه بإشعال نيران الفتنة، وإذكاء أسباب الصراع الذي تتعدد أشكاله وأبعاده، بأن كل صراع في الحياة وكل صراع في سبيل غاية ذاتية أو طبقية أو قبلية أو شعوبية أو مادية كل هذه الغايات تذهب سدى، وهي هباء تذروه الرياح ما لم تتحصن بالغاية المثلى والمقصد الأسنى، وهي أن تكون كلمة الله هي العليا، وهذا هو المنهج الإسلامي الصحيح.

---

(١) سورة التوبة، آية: ١١١.

(٢) سورة البقرة، آية: ١٩٠.

فالنية هنا هي: ثمرة نجاح العمل أو إخفاقه مهما تعددت دواعيه ومهما تشعبت نتائجه.

والجمع بين الروايتين يوضح أن أسباب طلب القتال خمسة وهي: (طلب المغنم، وإظهار الشجاعة، والرياء، والحمية، والغضب) إلا أنه لا يكون في سبيل الله إلا من كان سبب قتاله طلب إعلاء كلمة الله.

وحين نتأمل الموقع الإعرابي لهذه الكلمات التي ترصد أبعاد الصراع وأنواع القتال في هذا الحديث الشريف وهي: شجاعة، وحمية، ورياء، نرى أنها منصوبة في موقع "المفعول له" أي أن القتال لم يكن إلا بدافع خارجي بعيد عن الدافع الحقيقي وهو إعلاء كلمة الله ورفع راية التوحيد.

فالمقاتل يواجه الخصوم ويجول ويصول في ميدان المعركة من أجل أن يمدحه الناس، ويعددون مآثره ودلائل شجاعته وفروسيته؛ ولكن الشجاعة إذا سبقت بنية القتال في سبيل الله فهي مطلب محمود؛ لأن المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وقد ذهب المحققون إلى أنه إذا كان الباعث الأول قصد إعلاء كلمة الله لم يضره ما إنضاف إليه، وقد ورد عن أبي أمامه أنه قال: جاء رجل فقال: يا رسول الله ((أرأيت رجلا غزا يلتمس الأجر والذكر. ماله؟ قال: "لا شيء له"، ثم قال رسول الله ﷺ: إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا وابتغى به وجهه تعالى))[1].

والحمية هي الأنفة والغيرة والمحاماة عن العشيرة: والقتال في هذا الميدان مسؤولية اجتماعية، توجب على الإنسان التصدي لكل من يغير على حماه، وينتهك حرماته ولكن هذا التصدي وذلك الدفاع لن يصبغ بصبغة المنهج الإسلامي إلا إذا كانت النية متجهة إلى صيانة الحرمات، وحماية الأعراض والدفاع عن الديار والأوطان التي أمر الإسلام بالحفاظ عليها، والدفاع عنها وهذا السلوك من مكونات الرؤية الإسلامية في الحياة التي ترى في كل عمل صالح قوة للمسلمين، وإعلاءً لراية الإسلام، أما الرياء في

---

(١) أخرجه النسائي ٣١٤٠، وحسنه الألباني (صحيح سنن النسائي ٢٩٤٣).

النص النبوي الشريف "ويقاتل رياءً" فهو الدافع إلى المقاتلة لأنه "مفعول له"، وكأن هذا المقاتل لا يبتغي ثمرة إلا السمعة والإشادة ببطولته وشجاعته مثلما يفعل كثير من قادة الحروب في العالم قديمًا وحديثًا.

وإذا كان القتال شجاعة والقتال حمية مصحوبًا بإرادة القصد ونية إعلاء كلمة الله مقبولاً وله ثمرته المرجوة، فإن القتال رياءً لا تجدي معه إرادة أخرى ولا قصد آخر؛ لأن إرادة الرياء وقصديته تحجب كل بارقة من بوارق القبول والثواب.

وجملة الاستفهام "أي ذلك في سبيل الله" تحدد موقف السائل من دوافع القتال السابقة من خلال الإشارة إليها باسم الإشارة "ذلك" الذي يوحي بالبعد، وعدم التآلف مع هذه الدوافع، والتعبير بـ "هذا" يدل على القرب والتحقق والتميز حسب سياق الأسلوب.

ولنتأمل بعد هذه الجولة الأسلوبية التي تحاول استكشاف مواطن الجمال في البيان النبوي الكريم، كيف كانت إجابة المصطفى ﷺ على هذا السؤال. إنها إجابة غير متوقعة حيث لم يحدد الرسول ﷺ نوعًا واحدًا من الأنواع السابقة، ولكن الإجابة كما يقول "الأسلوبيون" في العصر الحديث: فيها عدول عن الطريق المعهود المتوقع، حيث عدل رسول الله كما يقول العلماء إلى لفظ جامع عدل به عن الجواب عن ماهية القتال إلى حال المقاتل، فتضمن الجواب وزيادة، وقيل بأنه لو أجاب بأن جميع ما ذكره السائل ليس في سبيل الله لاحتمل أن يكون ما عداه في سبيل الله، وليس كذلك كما يقول الحافظ في فتح الباري.

وهذه الإجابة الجامعة تفتح منافذ الرجاء لمن تحدثه نفسه بدوافع أخرى مع الحرص على إعلاء كلمة الله، فقد تتحقق الدوافع الأخرى وقد تستجد دوافع جديدة، ولكنها تظل في دائرة المنهج الإسلامي وصون الأعراض والحرمات والأموال والنفس والوطن والأهل، وكل ما يدخل تحت رعاية المسلم ومسؤوليته.

وحين نطيل التأمل في استكشاف معالم الجمال في أساليب الحديث النبوي ندرك كما يقول د. محمد رجب البيومي في كتابه "البيان النبوي" أنها: تلج بالمعنى إلى شعاب النفس فتزيده وضوحًا في الخاطر، وجلاءً في الذهن لتسيل أفكاره الهادية دمًا يترقرق في عروق المسلم، ونورًا يمتد في عقله وبصره ونَفَسًا يتردد في رئتيه، وذلك بعض ما يفيض به البيان الساحر والأدب الرفيع.

فقه الحديث

١- بيان أن الأعمال إنما تحسب بالنيات الصالحة، وأن الفضل الذي ورد في المجاهدين في سبيل الله يختص بمن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا[١].

٢- جواز السؤال عن العلة وتقدم العلم على العمل[٢].

٣- ذم الحرص على الدنيا وعلى القتال لحظ النفس في غير الطاعة[٣].

٤- وجوب الإخلاص في الجهاد والتصريح بأن القتال للشجاعة والحمية والرياء خارج عن ذلك[٤].

قال ابن دقيق العيد: (في الحديث دليل على وجوب الإخلاص في الجهاد وتصريح بأن القتال للشجاعة والحمية والرياء خارج عن ذلك)[٥].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: السؤال والجواب.

ثانيًا: من واجبات المدعو: السؤال عما أشكل عليه.

ثالثًا: من مهام الداعية: توضيح المسائل وبيان الحقائق للمدعوين.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: الإخلاص وحسن النية في الجهاد.

أولاً- من أساليب الدعوة: السؤال والجواب:

يظهر هذا من الحديث "سئل رسول الله ... أي ذلك في سبيل الله؟" والسؤال والجواب أسلوب من أساليب الدعوة حيث يعتمد على الحوار بين الداعية والمدعو (والأسلوب

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٤٩/١٣، فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٧/٦، نيل الأوطار، الشوكاني ٢١٥/٧.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٧/٦.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٧/٦.

(٤) مطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى، الشيخ مصطفى السيوطي ٥٢٠/٢، إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، تقي الدين بن دقيق العيد ٣٤١/٢.

(٥) إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، تقي الدين بن دقيق العيد ٣٨٤.

الحواري الاستجوابي يثير الانتباه، ويحرك الفطنة والذكاء، ويذهب الملل والسآمة، وقد سُئل رسول الله ﷺ عن أنواع من القتال أيها في سبيل الله؟ وقد أجاب ﷺ بأن من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله. ويصب في مشاعر الأحاسيس معين المعرفة وسلسبيل الهدى)[١].

ثانيًا- من واجبات المدعو: السؤال عما أشكل عليه:

يتضح هذا من سؤال النبي ﷺ في الحديث: (أي ذلك في سبيل الله؟) والمدعو واجب عليه أن يسأل عما لا يعلم، وعما أشكل عليه حتى يعمل عن علم فيعرف الصواب فيفعله، ويعرف نقيضه فيجتنبه، وقد أمر الله بالسؤال فقال: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[٢] وقال سبحانه: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾[٣].

وبسؤال المدعو عما خفي عليه يزول اللبس والإبهام لديه، حتى يعبد الله عز وجل على بينة من أمره (إن المدعو بعد أن وفق إلى الحق والخير، فإن عليه أن يسأل ويستوضح عن كل ما لا يعرفه أو يشكل عليه من أمور العقيدة والعبادات وأمور المعاملات وطرق الخير وأبواب البر، وعن كل شبهة ترد عليه في دينه حتى يعبد الله، وقد خلص قلبه وعقله من كل الشبهات، والأصل في المسلم أن يسأل عما لا يعلم، وكان الصحابة رضوان الله عليهم يسألون رسول الله ﷺ عن كل ما يعنّ لهم في شؤون الدين بل في الكثير من شؤون الدنيا، حتى أن بعضهم كان يسأل عن الشر مخافة أن يقع فيه)[٤].

ثالثًا- من مهام الداعية: توضيح المسائل وبيان الحقائق للمدعوين:

حيث بيّن النبي ﷺ مَنْ الذي يقاتل في سبيل الله، قال ابن حجر: (وفي إجابة النبي ﷺ من جوامع كلمه لأنه أجاب بلفظ جامع لمعنى السؤال مع الزيادة عليه)[٥].
قال ابن رجب: (وقد سئل النبي ﷺ عن اختلاف نيات الناس في الجهاد وما يقصد به

(١) صفات الداعية، د. حمد العمار ص ٩٧.

(٢) سورة النحل، آية: ٤٣.

(٣) سورة الفرقان، آية: ٥٩.

(٤) أصناف المدعوين وكيفية دعوتهم، د. حمود بن أحمد الرحيلي ص ١٧، ١٨.

(٥) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٦٨/١.

من الرياء، وإظهار الشجاعة والعصبية وغير ذلك، أي: ذلك في سبيل الله فقال: "من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله" فخرج بهذا كل ما سألوا عنه من المقاصد الدنيوية وسائر الأعمال كالجهاد في هذا المعنى، فصلاحها وفسادها بحسب النية الباعثة عليها، كالهجرة والحج)(١).

رابعًا- من موضوعات الدعوة: الإخلاص وحسن النية في الجهاد:

حيث جاء في الحديث "من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله"، قال الإمام النووي: (وفي الحديث أن الأعمال تحسب بالنيات الصالحة، وأن الفضل الذي ورد في المجاهدين في سبيل الله يختص بمن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا)(٢).

وقال السيد سابق: (والإخلاص: أن يقصد الإنسان بقوله وعمله وجهاده وجه الله، وابتغاء مرضاته، من غير نظر إلى مغنم أو جاه أو لقب أو مظهر أو تقدم أو تأخر، ليرتفع المرء عن نقائص الأعمال، ورذائل الأخلاق ويتصل مباشرة بالله، والعمل لا يعتد به، ولا يعتبر خيرًا إلا إذا كان عن نية طيبة خالصة لوجه الله، لأن العمل حينئذٍ يناط بغاية واحدة، ومثل أعلى هو الله)(٣).

وقال القرطبي: (قوله ﷺ: "من قاتل لتكون كلمة الله هي العلياء؛ فهو في سبيل الله" يعني بـ "كلمة الله": دين الإسلام. وأصله: أنَّ الإسلام ظهر بكلام الله تعالى؛ الذي أظهره على لسان نبيه ﷺ.

ويفهم من هذا الحديث: اشتراط الإخلاص في الجهاد، وكذلك هو شرطٌ في جميع العبادات؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾(٤). والإخلاص: مصدر من: أخلصت العسل وغيره: إذا صفَّيته، وأفردته من شوائب كدره. أي: خلَّصته منها. فالمخلِصُ في عباداته هو الذي يُخلِّصها من شوائب الشرك والرياء. وذلك لا يتأتى له إلا

---

(١) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٧٥/١ مع تصرف يسير.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٢١٩.

(٣) إسلامنا، السيد سابق ٣٧، ٣٨.

(٤) سورة البينة، آية: ٥.

بأن يكون الباعثُ له على عملها قصد التقرُّب إلى الله تعالى، وابتغاء ما عنده. فأمَّا إذا كان الباعثُ عليها غير ذلك من أعراض الدنيا؛ فلا يكون عبادةً، بل يكون مصيبةً موبقةً لصاحبها؛ فإمَّا كفرٌ، وهو: الشرك الأكبر؛ وإما رياءٌ، وهو: الشرك الأصغر. ومصيرُ صاحبه إلى النَّار، كما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه في الثلاثة المذكورين فيه[1]، هذا إذا كان الباعث على تلك العبادة الغرضُ الدنيوي وحده، بحيث لو فُقِد ذلك الغرض لتُرك العمل. فأمَّا لو انبعث لتلك الحالة -العبادة- لمجموع الباعثين -باعث الدنيا وباعث الدين- فإن كان باعثُ الدُّنيا أقوى، أو مساويًا ألحق القسم الأول في الحكم بإبطال ذلك عند أئمة هذا الشأن، وعليه يدل قوله صلى الله عليه وسلم حكاية عن الله تبارك وتعالى: ((مَن عَمِل عملاً أشركَ معي فيه غيري تركتُه وشريكه))[2]. فأمَّا لو كان باعث الدين أقوى؛ فقد حكم المحاسبي بإبطال ذلك العمل متمسكًا بالحديث المتقدم؛ وبما في معناه، وخالفه في ذلك الجمهور، وقالوا بصحة ذلك العمل، وهو الأقدم في فروع مالك. ويستدلُّ على هذا بقوله صلى الله عليه وسلم: ((إنَّ من خيرِ معايش الناس رجلاً ممسكًا فرسه في سبيل الله))[3] فجعل الجهاد مما يصح أن يتخذ للمعاش، ومن ضرورة ذلك أن يكون مقصودًا، لكن لمَّا كان باعثُ الدِّين على الجهاد هو الأقوى والأغلب، كان ذلك لغرض مُلْغى، فيكون معفوًّا عنه، كما إذا توضأ قاصدًا رفع الحديث والتبرُّد، فأما لو تفرَّد باعث الدين بالعمل؛ ثم عرض باعث الدنيا في أثناء العمل فأولى بالصحة[4].

---

(١) أخرجه مسلم ١٩٠٥.

(٢) أخرجه مسلم ٢٩٨٥.

(٣) أخرجه مسلم ١٨٨٩.

(٤) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ٣/٧٤٢-٧٤٣.

الحديث رقم (٩)

٩- وعن أبي بَكْرَة نُفَيْعِ بْنِ الْحَارِثِ الثَّقفِي ﷺ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «**إذَا الْتَقَى الْمُسْلِمَانِ بسيْفيْهِمَا فالْقَاتِلُ والمقْتُولُ في النَّارِ**» قُلْتُ: يَا رَسُول اللَّهِ، هَذَا الْقَاتِلُ فمَا بَالُ الْمقْتُولِ؟ قَال: «**إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ**» متفقٌ عليه[1].

ترجمة الراوي:

أبوبكرة الثقفي: اسمه: نُفيع بن الحارث، وقيل نُفيعٌ بن مَسْرُوح.

مولى رسول الله ﷺ، وقد تدلَّى في حصار الطائف ببَكْرة، وفرَّ إلى النبي ﷺ، وأسلم على يده، وأعلمه أنه عبد، فأعتقه النبي ﷺ وكناه أبا بكرة، وقد سألت ثقيف رسول الله ﷺ. أن يَرُدَّ إليهم أبا بكرة عبدًا، فأبى النبي ﷺ وقال ((هو طليقُ الله وطليقُ رسوله))[2]، وكان يقول: أنا أبوبكرة مولى رسول الله ﷺ فإن أبي الناس إلا أن ينسبوني، فأنا نُفيعُ بن مَسْرُوح.

وقد آخى النبي ﷺ بينه وبين أبي بَرْزَة الأسلمي، وكان رجلاً صالحًا ورعًا، وكان من خيار الصحابة.

وقد سكن البصرة. قال فيه الحسن البصري: لم ينزل البصرة من الصحابة ممَّن سكنها أفضل من عمران بن حصين، وأبي بكرة ﷺ.

وكان ممَّن اعتزل الفتنة يوم الجمل وأيام صفين، ولم يقاتل مع أحد من الفريقين وكان كثير العبادة حتى مات، وكان أولاده أشرافًا في البصرة، بكثرة المال والعلم والولايات.

وقد روى عن النبي ﷺ جُملة أحاديث بلغت ١٣٢ حديثًا.

وفي مرض موته أوصى أن يصلي عليه أبو برزة الأسلمي، فصلى عليه. وتوفي بالبصرة سنة ٥١هـ، وقيل ٥٢هـ[3].

---

(١) أخرجه البخاري ٣١ واللفظ له، ومسلم ٢٨٨٨/١٤.

(٢) أخرجه أحمد ١٦٨/٤، رقم ١٧٥٣٠، وقال محققو المسند: (إسناده صحيح ٧١/٢٩).

(٣) الطبقات، ابن سعد ١٥/٧، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ٧٨٢، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير ٣٥/٦-٣٦، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني ١٣٣٩-١٣٤٠، وسير أعلام النبلاء، الذهبي ٥/٣-١٠، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي ٣٥٨/٧-٣٥٩، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني ٢٣٩/٤، والأعلام، خير الدين الزركلي ٤٤/٨، وموسوعة عظماء حول الرسول، خالد عبدالرحمن العك ١٩٠٨/٣.

الشرح الأدبي

إن المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره، وكل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه، وهذه القاعدة الشرعية التي تصون دماء المسلمين، وتُحرِّم الاقتتال بين أبناء الأمة مهما كانت الأسباب الدافعة إلى ذلك.

وقد أرسى القرآن الكريم القانون الإلهي في إدارة الصراع بين الفريقين أو الطائفتين الإسلاميتين حيث قال سبحانه: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾[1].

فإذا اشتد الصراع وتحكم في المتصارعين الاندفاع، ولم يحتكما إلى الشرع القويم، وانساقًا وراء التعصب الذميم، وغاب عن أفق الصراع صوت العقل الحكيم ومنطق الهدى العظيم.

في ظل هذا الهوى الجامح، والطيش اللافح يأتي البيان النبوي السديد؛ ليقدم الحكم الرشيد، حتى يرتدع كل معتد أثيم، وكل باغ زنيم؛ ويؤكد المصطفى ﷺ أن المُسلِميْن إذا التقيا بسيفيهما -وتقاتلا- وقتل أحدهما الآخر فالقاتل مصيره النار، وكذلك المقتول يلقى المصير نفسه، ويا بؤسه من مصير يقود صاحبه إلى الشر المستطير، والهلاك الخطير والمأوى جهنم وبئس المصير.

ويشع في قلب هذا الجو السؤال الباحث عن الحقيقة: حيث يتساءل أبو بكرة نفيع ابن الحارث الثقفي قائلاً: يا رسول الله: هذا القاتل: أي هذا مصير القاتل فما بال المقتول؟! فيجيب رسول الله ﷺ "إنه كان حريصًا على قتل صاحبه".

وهنا في هذا المقام يعاقب الله سبحانه على النية التي سيطرت على هذين المتقاتلين، والنية تتأرجح بين الهم والعزم، فالهم مرور الفكرة بالنفس من غير استقرار فيها، وهذا

(١) سورة الحجرات: ٩.

الهم ربما لا يعاقب عليه الإنسان، وأما العزم فهو التصميم على فعل شيء ما، وتوطين النفس عليه، فهذان المتقاتلان: كل منهما عقد العزم على قتل صاحبه، وهما ما لم يعف الله عنهما أو عن أحدهما- في النار: لأنهما لم يتمسكا بجوهر العقيدة، ولم يتبعا تعاليم القرآن، وتوجيهات السنة النبوية، ولكن إذا اضطر المسلم إلى الدفاع عن نفسه أمام من يعتدي عليه فهذا حقه؛ لأنه لم يبادر بالعدوان والقتال وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة أنه جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله: أرأيت إن جاء رجل يريد أخذ مالي؟ قال: ((فلا تعطه مالك)) قال: أرأيت إن قاتلني؟ قالت: ((قاتله)) قال: أرأيت إن قتلني؟ قال: ((فأنت شهيد)) قال: أرأيت إن قتلته؟ قال: ((هو في النار))[1]، فعلى المسلمين أن يوحدوا كلمتهم، وأن يستعيدوا قوتهم وأن يتجمعوا تحت لواء التوحيد، وأن يعملوا على تقوية شوكتهم ونصرة عقيدتهم، حتى ينهضوا من عثرتهم، ويعودوا إلى هويتهم.

فقه الحديث

في الحديث نهي عن قتال المسلم أو رفع السلاح في وجهه، وأن من أعظم الكبائر عند الله عز وجل قتل امرئ مسلم بغير حق.

وحديث النفس على خمس مراتب، الخاطر وهو حديث النفس، والميل ولا يؤاخذ الإنسان بهما قطعًا، وكذا الهم، أما الهم المقرون بالعزم والعمل فهو مؤاخذ به عند المحققين من الفقهاء وقد عدوا[2] رفع المسلم سيفه في وجه أخيه من باب القصد والعزم من العمل المؤاخذ عليه واحتجوا بهذا الحديث على ما ذهبوا إليه، وقال البعض لا يؤاخذ به ما لم يكن هناك عمل.

---

(١) أخرجه مسلم ١٤٠.

(٢) بريقة محمودية في طريقة محمدية وشريعة نبوية في سرية أحمدية، محمد بن مصطفى الخادمي للخادمي ٢٤٢/٢، والأشباه والنظائر لابن نجيم ص ٣٤، وغمز العيون والبصائر للحموي ١٧٥/١ وما بعدها، والمنثور في القواعد الفقهية للزركشي ٣٦/٢، والزواجر عن اقتراف الكبائر، أبو العباس أحمد بن محمد الهيتمي ٣٧٥/٢، وحاشية العطار على شرح الجلال المحلى، حسن بن محمد العطار على الجلال المحلي ٥٢٠/٢، والفتاوى الكبرى لابن تيمية ٤٤٢/٣ وما بعدها، وغذاء الألباب للسفاريني ٥٧٢/٢. وانظر كذلك: جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٣٢٢/٢-٣٢٦، وفتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٢٧/١١، ٣٢٨، ١٩٧/١٢.

المضامين الدعوية

أولاً: من واجبات الداعية: كشف الشبهات وحل الإشكالات.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: حرمة الاقتتال لطلب الدنيا أو لأي غرض غير شرعي آخر.

ثالثًا: من أساليب الدعوة: السؤال والجواب.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: المؤاخذة بالعزم.

أولاً- من واجبات الداعية: كشف الشبهات وحل الإشكالات:

يتضح هذا من خلال بيان النبي ﷺ لذلك بقوله "إذا التقى المسلمان بسيفيهما" وإن من أوجب الواجبات على الداعية بيان الأمور المهمة للمدعوين، وكشف الشبهات وحلّ الإشكالات، وقد أمر الله رسوله ﷺ بالبيان فقال سبحانه: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[1] وقال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ ﴾[2].

قال ابن عثيمين: (وفي هذا الحديث دليل على أن الصحابة كانوا يوردون على الرسول ﷺ الشبهة فيجيب عنها، ولهذا لا نجد شيئًا من الكتاب والسنة فيه شبهة حقيقية إلا وقد وجد حلها. إما أن يكون حلها بنفس الكتاب والسنة من غير إيراد سؤال، وإما أن يكون بإيراد سؤال يجاب عنه)[3].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: حرمة الاقتتال لطلب الدنيا أو لأي غرض غير شرعي آخر:

لقد أخبر النبي ﷺ بمصير القاتل والمقتول في هذا الحديث بأنه في النار، وهذا يدل على حرمة اقتتالهما هذا، قال ابن حجر: (وقد أخرج البزار في حديث "القاتل والمقتول في النار" زيادة تبين المراد وهي"إذا اقتتلتم على الدنيا فالقاتل والمقتول في النار" ويؤيده ما أخرجه مسلم بلفظ: ((لا تذهب الدنيا حتى يأتي على الناس زمان لا يدري

---

(١) سورة النحل، آية: ٤٤.

(٢) سورة المائدة، آية: ٦٧.

(٣) شرح رياض الصالحين ٣٦/١.

القاتل فيم قتل ولا المقتول فيم قُتل، فقيل: كيف يكون ذلك؟ قال: الهرْج، القاتل والمقتول في النار))[١] قال القرطبي: (فبين هذا الحديث أن القاتل إذا كان على جهل من طلب الدنيا أو اتباع هوىً فهو الذي أريد بقوله ((القاتل والمقتول في النار))[٢])[٣].

وقال النووي: (وأما كون القاتل والمقتول من أهل النار فمحمول على من لا تأويل له، ويكون قتالهما عصبية ونحوها، ثم كونه في النار معناه مستحق لها وقد يجازى بذلك، وقد يعفو الله تعالى عنه، هذا مذهب أهل الحق... واعلم أن الدماء التي جرت بين الصحابة رضي الله عنهم ليست بداخلة في هذا الوعيد، ومذهب أهل السنة والحق، إحسان الظن بهم والإمساك عما شجر بينهم وتأويل قتالهم وأنهم مجتهدون متأولون لم يقصدوا معصية ولا محْض الدنيا، بل اعتقد كل فريق أنه المحق ومخالفه باغٍ فوجب قتاله، ليرجع إلى أمر الله، وكان بعضهم مصيبًا وبعضهم خطئًا معذورًا في الخطأ لأنه اجتهاد والمجتهد إذا أخطأ لا إثم عليه [وكان عليٌّ رضي الله عنه هو المحق المصيب في تلك الحروب]. هذا مذهب أهل السنة، وكانت القضايا مشتبهة حتى إن جماعة من الصحابة تحيروا فيها فاعتزلوا الطائفتين ولم يقاتلوا ولم يتيقنوا الصواب، ثم تأخروا عن مساعدة أي منهم [أي مساعدة من كان في حقه الصواب])[٤].

وقال ابن حجر: (كان الذين توقفوا عن القتال في الجمل وصفين أقل عددًا من الذين قاتلوا، وكلهم متأول مأجور إن شاء الله بخلاف من جاء بعدهم مما قاتل على طلب الدنيا، ومما يؤيد ما تقدم ما أخرجه مسلم عن أبي هريرة رفعه ((من قاتل تحت راية عَمِيّة يغضب لعصبة أو يدعو إلى عصبة أو ينصر عصبة فقتل فقتلته جاهلية))[٥])[٦].

---

(١) أخرجه مسلم ٢٩٠٨، ٥٦.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ٢١٥/٧.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٤/١٣.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٠/١٨/٩، وانظر فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٣/١٣-٣٤.

(٥) أخرجه مسلم ١٨٤٨، ٥٣.

(٦) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٤/١٣.

وقال الطبري: (لو كان الواجب في كل اختلاف يقع بين المسلمين الهرب منه بلزوم المنازل وكسر السيوف، لما أقيم حدٌّ ولا أبطل باطل، ولوجد أهل الفسوق سبيلاً إلى ارتكاب المحرمات من أخذ الأموال وسفك الدماء وسبي الحريم بأن يحاربوهم ويكف المسلمون أيديهم عنهم بأن يقولوا هذه فتنة، وقد نهينا عن القتال فيها وهذا مخالف للأمر بالأخذ على أيدي السفهاء)(١).

والخلاصة أن هذا الوعيد الذي تضمنه هذا الحديث الشريف كما يقول الخطابي: (لمن قاتل على عداوة دنيوية أو طلب ملك مثلاً، فأما من قاتل أهل البغي أو دفع الصائل فقتل فلا يدخل في هذا الوعيد لأنه مأذون له في القتال شرعًا)(٢).

ثالثًا- من أساليب الدعوة: السؤال والجواب:

حيث جاء في الحديث: يا رسول الله: هذا القاتل فما بال المقتول؟ فأجاب النبي ﷺ: "أنه كان حريصًا على قتل صاحبه".

ولا شك أن السؤال والجواب أسلوب من أساليب الدعوة وهو يعتمد على الحوار بين الداعية والمدعو، ويلفت انتباه المدعوين، ويجذب أسماعهم وعقولهم. (لذا كان تشجيع الناس على طرح الأسئلة وإبداء الرأي حول مختلف القضايا أمر في غاية الأهمية؛ لأن ذلك يعمق التواصل والمشاركة وتحمل المسؤولية، وهو من الطرق الفعالة في إيجاد القناعة لدى المدعوين لأن الناس يحتاجون إلى إقناع ولا يتأتى ذلك إلا بالمشاركة في عملية التعلم، والتفهم للموضوعات المطروحة، وهم بحاجة إلى التدريب على ذلك، والترحيب باستجابتهم لهذه الدعوة؛ بدلاً مما يحصل الآن من الحرص على صمتهم واستماعهم لما يلقى عليهم)(٣).

ومن صور استعمال القرآن الكريم لأسلوب السؤال والجواب قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى﴾(٤) وقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ﴾(٥).

---

(١) نقلاً عن فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٤/١٣.

(٢) نقلاً عن المرجع السابق ١٩٧/١٢.

(٣) مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي، د. عبدالكريم البكار، ١٥٥.

(٤) سورة البقرة، آية: ٢٢٢.

(٥) سورة الأحزاب، آية: ٦٣.

رابعًا- من موضوعات الدعوة: المؤاخذة بالعزم:

قال ابن حجر: (استدل بقوله ﷺ "إنه كان حريصًا على قتل صاحبه" من ذهب إلى المؤاخذة بالعزم وإن لم يقع الفعل، وأجاب من لم يقل بذلك أن في هذا فعلاً وهو المواجهة بالسلاح ووقوع القتال ولا يلزم من كون القاتل والمقتول في النار أن يكونا في مرتبة واحدة، فالقاتل يعذب على القتال والقتل، والمقتول يعذب على القتال فقط، فلم يقع التعذيب على العزم المجرد)[١]. وقال في موضع آخر: (احتج به الباقلاني ومن تبعه على أن من عزم على المعصية يأثم ولو لم يفعلها وأجاب من خالفه بأن هذا شرع في الفعل، والاختلاف فيمن همّ مجردًا ثم صمّم ولم يفعل شيئًا، هل يأثم؟)[٢].

ويحسن بنا أن نعرف العزم والعلاقة بينه وبين النية، ولهذا ساقه النووي في هذا الباب -باب الإخلاص وإحضار النية- وبين بعض صور العزم التي يؤاخذ عليها من التي لا يؤاخذ عليها.

العزم في الاصطلاح: جزم الإرادة بعد تردد[٣].

والصلة بين النية والعزم أنهما مرحلتان من مراحل الإرادة، والعزم اسم للمتقدم على الفعل، والنية اسم للمقترن بالفعل مع دخوله تحت العلم بالمَنْوِيّ[٤].

وقد أفاض ابن رجب الحنبلي في ذكر أنواع الهمّ بالسيئات من غير عمل ولخصّ معظمها ابن حجر، ونسوق تلخيصه من باب الإيجاز ومن أراد التوسع فليراجع ما كتبه ابن رجب الحنبلي وهو نفيس في بابه[٥].

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٤/١٣.

(٢) المرجع السابق ١٩٧/١٢.

(٣) قواعد الفقه للبركتي (عن الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٦٠/٤٢).

(٤) البحر الرائق شرح كنز الدقائق، ابن نجيم ٢٥/١، ورد المحتار ٧٢/١، والذخيرة ص ٢٣٥ ط/ وزارة الأوقاف، والمنثور في القواعد ٢٨٤/٣ ط/ وزارة الأوقاف، الكويت (عن الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٦٠/٤٢).

(٥) انظر: جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٣٢١/٢-٣٢٧ شرح الحديث ٣٧ من الأربعين النووي.

قال ابن حجر: (قسم بعضهم ما يقع في النفس أقسامًا: أضعفها: أن يخطر له ثم يذهب في الحال، وهذا من الوسوسة وهو معفو عنه وهو دون التردد، وفوقه أن يتردد فيه فيهمّ به ثم ينفر عنه فيتركه ثم يهمّ به ثم يترك كذلك ولا يستمر على قصده، وهذا هو التردد فيعفى عنه أيضًا وفوقه أن يميل إليه ولا ينفر عنه لكن لا يصمم على فعله وهذا هو الهمّ فيعفى عنه أيضًا. ومعرفة أن يميل إليه ولا ينفر منه بل يصمم على فعله فهذا هو العزم وهو منتهى الهمّ، وهو على قسمين:

القسم الأول: أن يكون من أعمال القلوب صرفًا كالشك في الوحدانية أو النبوة أو البعث فهذا كفر ويعاقب عليه جزمًا، ودونه المعصية التي لا تصل إلى الكفر كمن يحب ما يبغضه الله ويبغض ما يحبه الله ويحب للمسلم الأذى بغير موجب لذلك فهذا يأثم، ويلتحق به الكبر والعجب والبغي والمكر والحسد، وفي بعض هذا خلاف.

والقسم الثاني: أن يكون من أعمال الجوارح كالزنا والسرقة وشرب الخمر والقتل والقذف ونحو ذلك فهو الذي يقع فيه النزاع، فذهبت طائفة إلى عدم المؤاخذة بذلك أصلاً، ونقل عن نص الشافعي، ... وذهب كثير من العلماء إلى المؤاخذة بالعزم المصمم...)[1].

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١١/٣٢٧-٣٢٨.

الحديث رقم (١٠)

١٠- وَعَنْ أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**صَلاَةُ الرَّجُلِ فِي جماعةٍ تزيدُ عَلَى صَلاَتِهِ فِي سُوقِهِ وَبَيْتِهِ**[١] **بضْعًا وعِشْرينَ دَرَجَةً، وذلِكَ أَنَّ أَحَدَهُمْ إذا تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ، ثُمَّ أَتَى الْمَسْجِد لا يُرِيدُ إِلاَّ الصَّلاَةَ، لا يَنْهَزُهُ إِلاَّ الصَّلاَةُ**[٢]**، لَمْ يَخطُ خُطوَةً إلاَّ رُفِعَ لَهُ بِها دَرجةٌ، وَحُطَّ عَنْهُ بِهَا خَطيئَةٌ حتَّى يَدْخلَ الْمَسْجِدَ، فَإِذَا دخل الْمَسْجِدَ كانَ فِي الصَّلاَةِ مَا كَانَتِ الصَّلاَةُ هِيَ التي تحبِسُهُ، وَالْمَلائِكَةُ يُصَلُّونَ عَلَى أَحَدكُمْ ما دام في مَجْلِسهِ الَّذي صَلَّى فِيهِ، يقُولُونَ: اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ، اللَّهُمَّ اغفِرْ لَهُ، اللَّهُمَّ تُبْ عَلَيْهِ، ما لَمْ يُؤْذِ فِيهِ، مَا لَمْ يُحْدِثْ فِيهِ**» متفقٌ عليه[٣]، وهَذَا لَفْظُ مُسْلمٍ.

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

حُطَّ: أُسْقِط[٤]، والمراد: غُفرت.

بضعًا: ما بين الثلاثة والعشرة[٥].

ينهزه: يخرجه وينهضه[٦].

الشرح الأدبي

إن هذا الحديث النبوي يحث على صلاة الجماعة بصفتها مظهرًا من مظاهر توحد المسلمين، واجتماع شملهم ووحدة صفوفهم، وفي صلاة الجماعة بالمساجد يبدو المسلمون كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا، وأسلوب هذا الحديث بمكوناته في ألفاظه ..

---

(١) لفظ مسلم: (في بيته، وصلاته في سوقه)، والمثبت لفظ البخاري برقم ٢١١٩.

(٢) لفظ مسلم بتقديم وتأخير.

(٣) أخرجه البخاري ٢١١٩، ومسلم واللفظ له ٦٤٩/٢٧٢. أورده المنذري في ترغيبه ٤٥١.

(٤) الوسيط في (ح ط ط).

(٥) معجم لغة الفقهاء، أ.د. محمد رواس قلعة جي ٨٨.

(٦) رياض الصالحين ٤٤.

وتراكيبه والأدوات التي تربط بين الجُمَل، هذه المكونات كلها تشارك في توصيل المعنى المراد، وترغب المسلمين في ارتياد المساجد وكثرة الخطا إليها.

ومن سمات الترغيب في الحديث الشريف: تكرار لفظ "الصلاة" ست مرات وتكرار الفعل "صلىَّ"، مرتين: مرة في صيغة المضارع يصلون ومرة في صيغة الماضي "صلىَّ" وهذا التكرار من شأنه أن يرغب المسلم في الصلاة وأن يحببها إلى كل أجيال المسلمين وطوائفهم، استجابة لقول الرسول ﷺ: "مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين واضربوهم عليها وهم أبناء عشر"[(١)].

وكلمات الحديث الشريف تبوح بأسرار بلاغية توحي بما في الحديث من بلاغة وفصاحة وإبراز للمعنى.

ولنتأمل الجملة الأولى في هذا الحديث الشريف، ولنتعرف على أسرارها البلاغية واللغوية (صلاة الرجل في جماعة تزيد على صلاته في سوقه وبيته بضعًا وعشرين درجة).

فالصلاة في اللغة الدعاء وهي معنى الخضوع والخشوع، ولكنها تتجاوز المدلول اللغوي إلى المدلول "الاصطلاحي" الذي حدده الفقهاء لأركان الصلاة وواجباتها ولم يذكر المصطفى ﷺ مكان الصلاة التي تؤدى جماعة إشارة إلى أن الصلاة في المسجد لها أفضليتها وثوابها، وتنبيها إلى أن الصلاة في المسجد أمر معروف لا يحتاج إلى تنبيه ... وهذه السمة الأسلوبية يسميها البلاغيون بلاغة الحذف.

وفي رواية أخرى: صلاة الجميع والجميع ضد المتفرق.

ولفظ: السوق يوحي بأن المسلم لا يترك الصلاة حتى وهو مشغول بالبيع والشراء، وقال العلماء: الصلاة في البيت مطلقًا أولى منها في السوق لما ورد من كون الأسواق؛ محلاً للشياطين؛ وفي حديث آخر يحذر المصطفى ﷺ من الأسواق وما يحدث فيها من اضطراب، وتشويه، واختلاط في الأمور فيقول ﷺ "إياكم وهيشات الأسواق[(٢)] أي: اختلاطها وفسادها.

---

(١) أخرجه أبو داود، ٤٩٥، وحسنه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٤٦٦).

(٢) أخرجه مسلم ٤٣٢.

ولفظ البضع له دلالة تعددية: فقيل: من الثلاثة إلى العشرة، وقيل من ثلاث إلى تسع، ولكن الروايات الأخرى تحدد المراد من البضع حيث تحدد بعض هذه الروايات بأن صلاة الجميع تزيد على صلاته ... خمسًا وعشرين درجة وفي رواية أخرى سبعًا وعشرين درجة.

ولفظ الدرجة لا يعني العدد ولكنه يفيد الكثرة والارتفاع والسمو والعلو، وقد ذكر ذلك صاحب دليل الفالحين رواية عن ابن الأثير حيث يقول: (إنما قال درجة لأنه أراد الثواب من جهة العلو والارتفاع وأن تلك فوق هذه بكذا درجة لأن الدرجات إلى جهة فوق).

وهذه الجملة الأولى : تمثل قاعدة الحديث الكلية، وفيها تمام الفائدة، وفيها إشارة إلى أن المسلم لا يترك الصلاة في أي مكان: البيت أو السوق: أو أي مكان يتواجد فيه، ولكن الصلاة مع الجماعة في المسجد لها ثوابها العظيم ودرجاتها العلى.

وبعد هذا الإجمال يُفَصِّل المصطفى ﷺ الأمر ويزيده وضوحًا وترغيبًا، ويسوق هذا التوضيح في أسلوب القصة، وهي طريقة فيها إرشاد للمسلم وتعليم له لكيفية الذهاب إلى المسجد، والإخلاص في النية، وترك كل مشاغل الحياة أثناء التهيؤ لأداء الصلاة، وعن كيفية الذهاب إلى المسجد يقول ﷺ: ((إذا ثُوِّبَ[1] للصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون، وأتوها وعليكم السكينة، فما أدركتم فصلوا، وما فاتكم فأتموا))[2].

والجملة الثانية في الحديث الشريف .. تمثل كيفية إعداد المسلم نفسه للصلاة والذهاب إلى المسجد، وترك الصلاة في البيت والسوق.

وقد تكرر لفظ "المسجد" ثلاث مرات، وذلك ليس إطنابًا، ولا إسهابًا. ولكن هذا التكرار ينبئ عن تلذذ اللسان بذكر لفظ المسجد تعلقًا به، وحبًا للصلاة فيه، وكذلك

---

(١) معناها: نودي، المعجم الوجيز في (ث و ب).

(٢) أخرجه مسلم ٦٠٢.

لينبه القارئ والسامع بأفضلية الصلاة في المساجد، وكذلك لأن مادة "سجد" تفيد معنى الخضوع والطاعة، وهي صفات يتحلى بها المؤمن في عبادته وعلاقته بربه عز وجل.

ولفظ "ذلك" ليس للإشارة ولكنه للتعليل، حيث يعلل المصطفى ﷺ أفضلية الصلاة في المسجد، وهي لابد لها من مقدمات وحيثيات، وأداة الشرط "إذا" تفيد التحقق، وفعل الشرط متحقق وهو "توضأ فأحسن الوضوء" وجواب الشرط متحقق كذلك، وهو الثواب المضاعف المتمثل في رفع الدرجات، ومحو الخطايا؛ وما أجمل هذا الأسلوب النبوي في الترغيب، والإرشاد إلى الطريق الأمثل، والاستعداد الجميل لأداء الصلوات وجمال هذا الأسلوب يكمن في أنه عليه الصلاة والسلام لم يقدم تعليماته، وإرشاداته في جمل وأساليب آمرة، وتعاليم جافة، ولكنه وهو الذي لا ينطق عن الهوى يتمثل قول الله عز وجل ويستجيب لهذه الدعوة الإلهية: في : ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾[1].

ومجيء "الفاء" أداة للعطف: في قوله: "إذا توضأ فأحسن الوضوء" يرشد إلى المتابعة وعدم التمهل في الاستعداد والنظافة والتهيؤ للصلاة؛ وجاء التعبير بـ"ثم" في قوله "ثم أتى المسجد" لينبئ عن السكينة التي أمر بها رسول الله ﷺ في الذهاب إلى الصلاة في قوله: "إذا ثوب للصلاة، فلا تأتوها تسعون، وأتوها وعليكم السكينة".

وتنبيهًا إلى أن هذه الحركة نحو الصلاة يجب أن يصاحبها الإخلاص في النية، وعدم الانشغال بالأموال والأولاد، أو أي مشاغل أخرى يقول عليه الصلاة والسلام: "لا ينهزه إلا الصلاة" أي لا يشغله إلا الصلاة : وهذا الإخلاص ثمرته تعود عليه في كل مراحل طاعته سواء أكان جالسًا في المسجد أم مصليًا.

والإشارة إلى الإخلاص في النية مرة أخرى يتمثل في ختام الجزء الثاني من الحديث الشريف، وهي إشارة بليغة حيث صوَّر المصلي وهو فارغ البال من كل شواغل الدنيا ما عدا الصلاة بأن الصلاة تحبسه: أي أنه محاط بأسوارها الإيمانية، وجدرانها

---

(١) سورة النحل، آية: ١٢٥.

المعنوية، وستائرها الرضوانية، وإفادة العموم في الثواب ومضاعفة الأجر تتجلى في هذا الطباق بين اللفظين "رفع؛ وحط" وهما فعلان متضادان في الدلالة ولكنها متحدان في البناء للمجهول، والذي يرفع الدرجات ويحط الخطايا لا يحتاج إلى تعريف لأنه هو الذي يعلم السر وأخفى إنه الخلاق العليم رب العالمين، وما أعظم هذا الأجر الذي ينتظر ذلك المصلي الذي أخلص نيته لله وارتاد المساجد، مصليًا، ومعتكفًا، وداعيًا، ومستغفرًا، إن هذا الأجر يتضاعف إلى سبع وعشرين درجة أو خمس وعشرين، وقيل إن السبع مختص بالجهرية والخمس بالسرية.

ومع هذا الأجر المضاعف تستغفر الملائكة، وتدعو لذلك المؤمن الذي دخل المسجد وصلى ثم جلس داعيًا ومستغفرًا... وتدعوا الملائكة له بالرحمة والمغفرة والتوبة.

وفي الحديث تنبيه إلى آداب الجلوس في المسجد، وهي كثيرة متعددة ولكن المصطفى ﷺ أجمل هذه الآداب في جملة قصيرة مكثفة قليل لفظها وكثير معناها، وهي "ما لم يؤذ" وفي رواية: "لم يحدث فيه"، وقد جمع الحديث هنا بين الروايتين فالجالس في المسجد لا يؤذي غيره ولا يؤذي نفسه، ولا يرتكب ما ينقض الوضوء، أو يقدح في شخصيته فيبتعد عن الغيبة والنميمة والكذب والنفاق وغير ذلك.

وقيل: قد تأول أكثر العلماء الأذى بالغيبة والضرب، والجملة على الرغم من اختصارها في فعلين هما "يؤذي ويحدث" فإنها تتسع لكثير من السلوكيات التي تدور في حقلين لغويين هما "الأذى والحدث"، وهذان الفعلان لا يليقان بالمؤمن الذي تستغفر له الملائكة، وتدعو له بالرحمة والمغفرة والتوبة، فقد روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل، وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر ثم يعرج الذين باتوا فيكم، فيسألهم وهو أعلم بهم كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون وأتيناهم وهم يصلون))[1].

---

(١) أخرجه مسلم ٦٣٢.

فقه الحديث

لصلاة الجماعة فضل كبير، كما بينها هذا الحديث الشريف، ولأهميتها يقول الفقهاء: (الصلاة في الجماعة معنى الدين، وشعار الإسلام، ولو تركها أهل مصرٍ - بلد من البلدان - قوتلوا، وأهل حارة جبروا عليها وأكرهوا)(١).

ثم اختلفوا بعد ذلك في حكم صلاة الجماعة على ثلاثة أقوال:

القول الأول: ذهب الحنفية في الأصح(٢) وجمهور المالكية(٣) والشافعية في وجه(٤) إلى أنها سنة مؤكدة للرجال.

القول الثاني: ذهب الحنفية في قول(٥) والحنابلة(٦) إلى أنها واجبة وجوب عين فمن تركها فهو آثم.

القول الثالث: ذهب بعض المالكية(٧) والشافعية في الأصح(٨) إلى أنها فرض كفاية إذا قام بها البعض كَفَوْا، وإن تركها الجميع أثموا.

---

(١) المغني، ابن قدامة ١٧٦/٢-١٧٧، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ١٩٣/٤-١٩٤، والحطاب بهامشه المواق ٨١/٢، ومغني المحتاج ٢٢٩/١ (عن الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٦٥/٢٧).

(٢) تبيين الحقائق، الزيلعي ١٣٢/١.

(٣) مواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي الخطابي ٨١/٢، شرح منح الجليل على مختصر خليل، الشيخ محمد بن أحمد بن محمد عليش لعليش ٣٥١/١.

(٤) مغني المحتاج للشربيني ٤٦٥/١، نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، الرملي ١٣٥/٢.

(٥) بدائع الصنائع، الكاساني ١٥٥/١.

(٦) المغني، ابن قدامة ٣/٢، الفروع، ابن مفلح ٥٧٦/١.

(٧) مواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي الخطابي ٨١/٢، شرح منح الجليل على مختصر خليل، الشيخ محمد بن أحمد بن محمد عليش لعليش ٣٥١/١.

(٨) مغني المحتاج للشربيني ٤٦٥/١، نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، الرملي ١٣٥/٢.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الترغيب.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: فضل صلاة الجماعة.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: فضل الخطى إلى المساجد.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: فضل انتظار الصلاة.

أولاً- من أساليب الدعوة: الترغيب:

حيث رغب النبي ﷺ في الحديث في فضل صلاة الجماعة والذهاب للمسجد من خلال بيان رفع الدرجات، وحط الخطايا، ودعاء الملائكة، ولاشك أن أسلوب الترغيب له دوره الرئيس في تحفيز النفس للقيام بالأعمال الصالحة (لأن النفس البشرية جبلت على حب الخير والسعي في الحصول عليه ... لذا فإن أسلوب الترغيب فيما عند الله من أجر عظيم لعبده الذي أطاعه واتقاه محبب إلى النفس؛ لأنها تهفو إليه، وتسعد به، وتنصت له ... والداعية المتمكن الحكيم يكثر من المرغبات كبيان جنس الطاعة، كالإيمان بالله تعالى والتوجه الخالص له جل وعلا، والإخلاص في العبادات التي فرضها الإسلام على كل مسلم، وأنه إذا قام بما أوجبه الله تعالى عليه سينال أجر ذلك العمل في الدنيا والآخرة)[١]. ومن صور استعمال القرآن لأسلوب الترغيب قوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ۝ حَدَآئِقَ وَأَعْنَـٰبًا﴾[٢] وقوله جل شأنه: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾[٣].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: فضل صلاة الجماعة:

حيث جاء في الحديث "صلاة الرجل في جماعة تزيد على صلاته في سوقه وبيته بضعًا وعشرين درجة" قال ابن حجر: (ومن صور الفضل في صلاة الجماعة أن فيها إجابة المؤذن بنية الصلاة في الجماعة، ودخول المسجد داعيًا، وصلاة الملائكة عليه

---

(١) قواعد الدعوة الإسلامية، د. الشريف حمدان الهجاري ص ٤٤٠-٤٤١ بتصرف.

(٢) سور النبأ، الآيتان: ٣١، ٣٢.

(٣) سورة الانفطار، آية: ١٣.

واستغفارهم له، والسلامة من الشيطان حين يفر من الإقامة وإظهار شعائر الإسلام، وإرغام الشيطان بالاجتماع على العبادة والتعاون على الطاعة ونشاط المتكاسل، والسلامة من صفة النفاق والانتفاع بالاجتماع على الدعاء والذكر، وعود بركة الكامل على الناقص إلى آخر هذه الفضائل[(١)].

هذا وقد جاء عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: ((مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَلْقَى اللهِ غَدًا مُسْلِمًا فَلْيُحَافِظْ عَلَى هؤُلاءِ الصَّلَوَاتِ حَيْثُ يُنَادَى بِهِنَّ. فَإِنَّ اللهَ شَرَعَ لِنَبِيِّكُمْ سُنَنَ الْهُدَى وَإِنَّهُنَّ مِنْ سُنَنِ الْهُدَى. وَلَوْ أَنَّكُمْ صَلَّيْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ كَمَا يُصَلِّي هذَا الْمُتَخَلِّفُ فِي بَيْتِهِ لَتَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ. وَلَوْ تَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ لَضَلَلْتُمْ. وَمَا مِنْ رَجُلٍ يَتَطَهَّرُ فَيُحْسِنُ الطُّهُورَ ثُمَّ يَعْمِدُ إِلَى مَسْجِدٍ مِنْ هذِهِ الْمَسَاجِدِ إِلاَّ كَتَبَ اللهُ لَهُ بِكُلِّ خَطْوَةٍ يَخْطُوهَا حَسَنَةً. وَيَرْفَعُهُ بِهَا دَرَجَةً. وَيَحُطُّ عَنْهُ بِهَا سَيِّئَةً. وَلَقَدْ رَأَيْتُنَا وَمَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا إِلاَّ مُنَافِقٌ، مَعْلُومُ النِّفَاقِ. وَلَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ يُؤْتَى بِهِ يُهَادَى بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ حَتَّى يُقَامَ فِي الصَّفِّ))[(٢)].

ولأهمية صلاة الجماعة قال ابن القيم: (ومن تأمل السنة حق التأمل تبين له أن فعل الصلاة في المساجد فرض على الأعيان إلا لعارض يجوز معه ترك الجمعة والجماعة، فترك حضور المسجد لغير عذر كترك أصل الجماعة لغير عذر، وبهذا تتفق جميع الأحاديث والآثار)[(٣)].

لقد حث الإسلام على حضور الجماعة في المسجد، وبيّن فضل الخطى إلى المساجد حيث جاء في الحديث "ثم أتى المسجد لا يريد إلا الصلاة لم يخط خطوة إلا رفع له بها درجة، وحط عنه بها خطيئة" وقد دلت النصوص الشرعية على فضل الخطى إلى المساجد قال ﷺ ((مَنْ غَدَا إِلَى الْمَسْجِدِ أَوْ رَاحَ. أَعَدَّ اللهُ لَهُ فِي الْجَنَّةِ نُزُلاً. كُلَّمَا غَدَا أَوْ رَاحَ))[(٤)] وقال ﷺ أيضًا ((بَشِّرِ الْمَشَّائِينَ فِي الظُّلَم إِلَى الْمَسَاجِدِ بِالنُّورِ التَّامِّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ))[(٥)].

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢/١٥٧.

(٢) أخرجه مسلم ٦٥٤.

(٣) الصلاة وحكم تاركها، ابن قيم الجوزية ص ١٣٧.

(٤) أخرجه البخاري ٦٦٢، ومسلم ٦٦٩.

(٥) أخرجه الترمذي ٢٢٣، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٨٥).

وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((أعظم الناس أجرًا في الصلاة أبعدهم فأبعدهم ممشى، والذي ينتظر الصلاة حتى يصليها مع الإمام أعظم أجرًا من الذي يصلي ثم ينام))[١].

قال ابن رجب الحنبلي: (وهذا الحديث إنما يدل على فضل المشي إلى المسجد من المكان البعيد، وأن الأجر يكثر ويعظم بحسب بعد المكان عن المسجد[٢]، وقد بيّن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن المصلي له في كل خطوة يخطوها إلى المسجد درجة، فعن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: كانت ديارنا نائية عن المسجد، فأردنا أن نبيع بيوتنا فنقترب من المسجد، فنهاها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ((إن لكم بكل خطوة درجة))[٣].

وفي حديث أبي هريرة بيّن صلى الله عليه وسلم أنها ترفع المصلي درجة وتحط عنه خطيئة فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (من تطهر في بيته ثم مشى إلى بيت من بيوت الله، ليقضي فريضة من فرائض الله، كانت خطوتاه إحداهما تحط خطيئة، والأخرى ترفع درجة)[٤].

وقد دلت هذه الأحاديث على أن المشي إلى المساجد يكتب لصاحبه أجره، وهذا مما تواترت السنن به[٥].

وهذا فضل عظيم من الله به على عباده المشائين إلى بيته فهو الكريم وحق عليه أن يكرم زائره، وإكرامه تعالى يبدأ من أول خروج الإنسان من بيته للذهاب إلى الصلاة في المسجد.

رابعًا- من موضوعات الدعوة: فضل انتظار الصلاة:

حيث جاء في الحديث "فإذا دخل المسجد كان في الصلاة ما كانت الصلاة هي تحبسه والملائكة يصلون على أحدكم ما دام في مجلسه الذي صلى فيه..." وفي فضل

---

(١) أخرجه البخاري ٦٥١، ومسلم ٦٦٢.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤/٣٩.

(٣) أخرجه مسلم ٦٦٤.

(٤) أخرجه مسلم ٦٦٦.

(٥) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤/٤٤.

انتظار الصلاة قال ﷺ ((إنَّ أعْظَمَ النَّاسِ أجْرًا فِي الصَّلاَةِ أبْعَدُهُمْ إلَيْهَا مَمْشىً، فَأبْعَدُهُمْ. وَالَّذِي يَنْتَظِرُ الصَّلاَةَ حَتَّى يُصَلِّيَهَا مَعَ الإمَامِ أعْظَمُ أجْرًا مِنَ الَّذِي يُصَلِّيهَا ثُمَّ يَنَامُ))(١). قال ابن رجب الحنبلي: (وهذا الحديث يدل على فضل السبق إلى المسجد في أول الوقت، وانتظار الصلاة فيه مع الإمام)(٢).

وقد جعل الرسول ﷺ من يتعلق قلبه بالمسجد لانتظار الصلاة من الذين يظلهم الله في ظله ففي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((سَبعةٌ يُظِلُّهم اللهُ في ظِلِّهِ يومَ لا ظِلَّ إلا ظِلُّهُ: الإمامُ العادِلُ، وَشابٌّ نَشأَ في عِبادةِ ربِّه، ورجلٌ قلبُه مُعَلَّقٌ في المساجد، وَرجُلانِ تَحابّا في اللهِ اجتَمَعا عليهِ وتَفرَّقا عليه، ورجلٌ طَلَبَتهُ امرأةٌ ذاتُ مَنصِبٍ وجمال فقال: إني أخافُ اللهَ، ورجلٌ تَصدَّقَ بصدقةٍ فَأخْفَاهَا حتى لا تَعلمَ شِمالُه ما تُنفِقُ يمينُه، ورَجُلٌ ذكرَ اللهَ خاليًا ففاضَتْ عَيناه))(٣) (وهذا الحديث يبين أن الصلاة من الوسائل الفعالة التي اختارها الله تعالى لتنقية قلب العبد، وتطهير روحه ونفسه من شوائب الدنيا وعلائق المادة، وليكون العبد مندفعًا إلى المسجد مشتاقًا للصلاة فيه، ويضع نصب عينيه أن الملائكة تنتظره في رحاب هذا المسجد وأن بيت الله يشع نورًا وضياءً، وينعش النفس، ويربط قلبه بالله تعالى)(٤).

---

(١) أخرجه البخاري ٦٥١، ومسلم ٦٦٢.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٩/٤.

(٣) أخرجه البخاري واللفظ له ٦٦٠، ومسلم ١٠٣١.

(٤) انظر: دراسات تربوية في الأحاديث النبوية، د. محمد لقمان الأعظمي الندوي ص ٣٤٤.

الحديث رقم (١١)

١١- وَعَنْ أبي الْعَبَّاسِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِب رضي الله عنهما، عَنْ رسول الله ﷺ، فِيما يَرْوى عَنْ ربِّهِ، تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَالَ: **«إنَّ الله كتَبَ الْحسناتِ والسَّيِّئاتِ ثُمَّ بَيَّنَ ذلك: فمَنْ همَّ بحَسَنَةٍ فلَمْ يعْمَلْهَا كتبَهَا اللَّهُ تَبارَكَ وَتَعالَى عِنْدَهُ حسنةً كامِلةً وَإنْ همَّ بهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ[1] عَشْرَ حَسَنَاتٍ إلَى سَبْعِمَائَةِ ضِعْفٍ إلَى أضْعَافٍ كثيرةٍ، وَإنْ هَمَّ بسيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ تَعَالَى عِنْدَهُ حَسَنَةً كامِلَةً، وَإنْ هَمَّ بِهَا فعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً»** متفقٌ عليه[2].

ترجمة الراوي:

عبد الله بن عباس: صحابي مشهور، علم من أعلام الصحابة، حبر الأمة، وإمام التفسير، وهو عبدالله بن العباس بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قُصَيٍّ، القرشي الهاشمي، ابن عم رسول الله ﷺ، كنيته أبو العباس، وهو أكبر ولده، وُلِد عبدالله بن عباس في الشِّعْب قبل خروج بني هاشم منه، وكان ذلك قبل الهجرة بثلاث سنوات، لازم النبي ﷺ فأخذ عنه علمًا جمًّا، وكان ابن ثلاث عشرة سنة إذ توفي رسول الله ﷺ روى عن النبي ﷺ وروى له الجماعة، ومسنده (١٦٦٠)، له من ذلك في الصحيحين ٧٥ حديثًا متفق عليهما، وتفرد البخاري بـ (١٢٠) ومسلم بـ (٩) أحاديث.

دعا له رسول الله ﷺ بتعلم الحكمة، وتأويل القرآن، والفقه في الدين، فعنه رضي الله عنه أنه قال: ضمني رسول الله ﷺ وقال: ((اللهم علمه الكتاب))[3] وعنه أن النبي ﷺ دخل الخلاء فوضَعْتُ له وَضوء، قال من وضع هذا؟ فأُخبر، فقال: ((اللهم فقهه في الدين))[4] بلغ من المنزلة في العلم والفقه ما جعل الصحابة يُجلّونه، ومنهم عمر

---

(١) عند مسلم زيادة: (عنده).

(٢) أخرجه البخاري ٦٤٩١، ومسلم واللفظ له ١٣١/٢٠٧. أورده المنذري في ترغيبه ٢١.

(٣) أخرجه البخاري ٧٥.

(٤) أخرجه البخاري ١٤٣، ومسلم ٢٤٧٧.

- وهو أمير المؤمنين- كان يحبه ويدنيه ويقربه ويشاوره مع أجلّة الصحابة فعنه أنه قال: ((كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر فكأن بعضهم وجد في نفسه، فقال: لم تُدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه من قد عَلِمتُم، فدعاه ذات يوم فأدخله معهم، فما رُئيت أنه دعاني يومئذ إلا ليُرِيهم، قال: ما تقولون في قول الله تعالى ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾(١). فقال بعضهم: أُمرنا نَحْمَدَ الله ونستغفره إذا نُصِرنا وفُتِحَ علينا، وسكت بعضهم فلم يقل شيئًا، فقال لي: أكذاك تقولُ يا ابن عباس؟ فقلت: لا، قال: فما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلَمَه له، قال: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ وذلك علامة أجلك ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا﴾(٢) فقال عمر: ما أعلمُ منها إلا ما تقول))(٣) وقال ابن مسعود نعم ترجمان القرآن: عبدالله بن عباس وقال مسروق: كنت إذا رأيت عبدالله بن عباس قلت: أجمل الناس، فإذا تكلم: قلت أفصح الناس، فإذا تحدّث قلت: أعلم الناس، وقال عمرو بن دينار: ما رأيت مجلسًا أجمع لكل خيرٍ من مجلس ابن عباس، الحلال والحرام، والعربية والأنساب، والشعر، وقال عبيد الله بن عبدالله ما رأيت أحدًا كان أعلم بالسُّنة، ولا أجلَّ رأيًا، ولا أثقب نظرًا من ابن عباس، ولقد كان عمر يعده للمعضلات مع اجتهاد عمر ونظره للمسلمين.

وكان ابن عباس قد عَمِي في آخر عمره، فقال في ذلك:

إن يأخذ الله من عينيَّ نورهما ... ففي لساني وقلبي منهما نور
قلبي ذكيٌّ، وعقلي غيرُ ذي دَخَل ... وفي فمي صارم كالسيف مأثور(٤)

أما عن صفاته الخَلْقية: فكان وسيما، جميلاً، مديد القامة، مهيبًا، كامل العقل، ذكيّ النفس، من رجال الكمال، وقال ابن مَنْده: كان أبيض طويلاً مُشْرَبا

---

(١) سورة النصر، آية: ١.

(٢) سورة النصر.

(٣) أخرجه البخاري ٤٩٧٠.

(٤) الوافي بالوفيات ١٢/١٧.

بصفرة، جسيمًا، وسيمًا، صبيح الوجه له وفرة، يخضب بالحِنّاء.

شهد مع عبدالله بن أبي السرح غزو إفريقية، كما شهد مع عليٍّ الجمل وصفين والنهروان.

استعمله علي بن أبي طالب على البصرة، فبقي عليها أميرًا ثم فارقها قبل أن يقتل عليٌّ، وعاد إلى الحجاز، وحج بالناس لما حُصِرَ عثمان بن عفان رضي الله عنه.

توفي عبدالله بن عباس بالطائف سنة (٦٨) في أيام ابن الزبير، وكان ابن الزبير قد أخرجه من مكة إلى الطائف، ومات بها، وهو ابن (٧٠) سنة، وقيل (٧١)، وقيل (٧٤)، وصلى عليه محمد بن الحنفية، وكبر عليه أربعًا، وقال: اليوم مات ربانِيٌّ هذه الأمة، وضرب على قبره فسطاطًا[١]. والفسطاط هو البيت من الشَعْر.

غريب الألفاظ:

هَمَّ بحسنةٍ: عزم عليها[٢].

الشرح الأدبي

إن المسلم لا بد أن يكون يقظًا متنبهًا إلى الأمور والوساوس التي تأخذه بعيدًا عن طريق الطاعة، وحياة المؤمن مرآة ناصعة، وسلوكياته لا تخرج عن دائرة الإيمان ولا تجنح إلى مسالك الشيطان، وأبواب الرجاء مفتوحة على مصراعيها، وكرم الله لعباده المقبلين على رحابه يظللهم، ورحمته تحوطهم بجناحيها.

وفي ظل هذه الرعاية الإلهية تشرق معاني ومقاصد هذا الحديث الشريف، ومعالم هذه الرعاية الربانية تتمثل في هذه المقدمة المشعة لهذا الحديث في قول الراوي متحدثًا

---

(١) الطبقات، ابن سعد ٢/٣٦٥-٣٧٢، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ٤٢٣-٤٢٦، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير ٣/٢٩١-٢٩٥، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني ٧٩٥، ٧٩٦، وسير أعلام النبلاء، الذهبي ٣٣١-٣٥٩، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي ٤/١٧٦-١٧٨، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني ٣٦٤-٣٦٦، وموسوعة عظماء حول الرسول، خالد عبدالرحمن العك ١٢٢٦-١٢٣٤.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (هـ م م).

عن رسول الله ﷺ حيث يقول : فيما يروي عن ربه تبارك وتعالى.

ودلالة: الفعل "تبارك" لها صلة عضوية بجو الحديث وأفق العفو والكرم الإلهي اللامتناهي فالفعل "تبارك" معناه: تكاثر خيره، والبركة كثرة الخير ولمادة الفعل "تبارك" دلالة أخرى، وهي تفيد الزيادة أي: تزايد عن كل شيء وتعالى عنه في صفاته، وأفعاله فإن البركة تتضمن معنى الزيادة، والحديث الشريف يبشر كل مسلم يتوج مسيرته بالعمل الصالح بكثرة الثواب، وزيادة الجزاء الحسن ومضاعفة الأجر، وهذه المعاني المبشرة توحي بها هذه الجملة الدالة المباركة "فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى.

ويبدأ الحديث الشريف: بصيغة التوكيد ((إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك)).

وحين نتساءل : ما سر العطف بـ"ثم" وما دلالة اسم الإشارة "ذلك" والعطف هنا يفيد أن كل شيء بأمر الله عز وجل، وأنه على كل شيء قدير، وقد بين ذلك الخلاق العليم للكتبة من الملائكة حتى عرفوه، واستغنوا به عن الاستفسار كل وقت كيف يكتبونه – كما يقول صاحب دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين.

ولنتأمل كيف تكون كتابة الحسنات والسيئات التي أمرت بها الملائكة كما يقول الله عز وجل: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾[1].

وحياة الإنسان في نهجها وسلوكها على كفتي ميزان إلهي عادل: الحسنات والسيئات، والحسنات ثمرة ومقياس العمل الصالح، والسيئات نتيجة الإقدام على المنهيات، فما الطريق إلى النجاة من مغريات الحياة؟ وما الطريق إلى الفوز بالجنة والنجاة من النار؟

إن الطريق المضيء بالعدالة والفضل والرحمة والود والعفو والرجاء: يوضحه المصطفى ﷺ في هذا الحديث الشريف.

يأتي هذا التوضيح البين المعالم في ثلاث جمل متوالية –متماثلة في الصياغة،

---

(١) سورة الانفطار، الآيات: ١٠-١٢.

ولكنها متنوعة الدلالة، والصياغة جاءت في قالب: الشرط والجزاء، وهذه الصيغة اللغوية تتواءم مع منطق الثواب والعقاب؛ الثواب وهو ثمرة الحسنات، والعقاب ثمرة السيئات، وما أعظم كرم الله عز وجل، وما أجلّ رحمته حين يثيب على النية، والهم بالحسنات، دون العمل حيث يقول "فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله تبارك وتعالى عنده حسنة كاملة" وترك العمل هنا لا يكون متعمدًا- وإنما تحول بينه وبين التحقق ظروف وملابسات طارئة، ومعنى "الهم" هنا أي الإرادة وترجيح الفعل، وإذا كانت النية عزمًا وتصميمًا ثم لم يتم العمل لأمر خارج عن إرادة المسلم، فإن الرحمن الرحيم يكتبها حسنة كاملة، ويفسر العلماء التعبير بلفظ "عنده" بأنها عندية شرف ومكانة لتنزهه تعالى عن عندية المكان.

ووصف الحسنة بأنها "كاملة" ليس زيادة في الأسلوب، ولا إطنابًا في المعنى فالبيان النبوي كما يقول الرافعي: هو البلاغة الإنسانية التي خضعت الأفكار لآيتها، وحسرت العقول دون غايتها، وألفاظ النبوة يعمرها قلب متصل بجلال خالقه ويصقلها لسان نزل عليه القرآن بحقائقه، فهي إن لم تكن من الوحي ولكنها جاءت من سبيله، وإن لم يكن لها منه دليل فقد كانت هي من دليله.

ولذلك جاء وصف الحسنة بأنها "كاملة": لئلا يظن أنها لكونها مجرد هم ينقص ثوابها، والناس ينقسمون إلى أربعة أقسام في موقفهم من النية والعمل، والحديث هنا مرتبط ارتباطاً موضوعيًا بالباب كله الذي افتتحه صاحب رياض الصالحين بحديث إنما الأعمال بالنيات.

وحين نتأمل مصير الأقسام الأربعة نجد فضل الله وعفوه وكرمه يُظل عباده في ثلاث أقسام، فالمسلم في حركته لا يخرج عن نطاق هذه المنطقة ذات الزوايا الأربع:

أ- الهَمُّ بالحسنة وعدم العمل لعدم الإمكان.

ب- الهَمُّ بالحسنة والعمل لتوفر الأسباب.

ج- الهَمُّ بالسيئة وعدم العمل للعجز عن ذلك أو للخوف من الله.

د- الهَمُّ بالسيئة والعمل بالاختبار مع توفر الأسباب.

ففي **الحالة الأولى** توفرت النية الصالحة، ولكنها لم تترجم إلى عمل حياتي

وسلوكي لعدم توفر الأسباب المؤدية للقيام، والله هنا يثيب على النية الصالحة، ويكافئ العبد على ما نوى وكأنه قام بالتنفيذ حيث تكتب الحسنة كاملة، ولفظ "الحسنة" تتعدد دلالاته وتتسع آفاقه.. وهو من الألفاظ المشعة بكثير من المعاني، فكل إنجاز صالح في الحياة يفيد الفرد والمجتمع، ويقصد به التقرب إلى الله فهو حسنة كاملة.

والحالة الثانية وهي ذروة العمل الصالح حيث تجمع بين الحُسْنيين النية الصالحة والعمل الصالح، وتضم إلى الهم العزم والتصميم والتنفيذ، والجزاء في هذه الحالة مضاعف فالله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم، وإن هم بها فعملها كتبها عنده بعشرة حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

والحالة الثالثة تتجلى فيها رحمة الله بعباده، وفضله على خلقه فهو لا يسجل على العبد خواطره الخاصة، وأحاديثه النفسية إلا إذا كانت في صالحه، ومنبعها التوحيد والإيمان أما إذا كانت هذه الخواطر من باب الوساوس والنوايا السيئة والتفكير في إلحاق الأذى بالناس، فالله يفتح باب الخلاص والنجاة منها، وذلك بعدم تنفيذ ما يموج داخل الإنسان من انفعالات وأوهام وظنون، وحينئذ يثيب الله عبده ويكافئه على هذه المراجعة وهذه المقاومة ويكتب له حسنة كاملة مقابل كل خاطرة سيئة أقلع عنها.

وأما **الحالة الرابعة** فهي الحالة التي يسجل فيها الخالق سبحانه السيئة؛ لأن العبد أصر عليها حين هم بها، ثم نفذها ولكن فضل الله وعدله يجعل هذه السيئة؛ سيئة واحدة، أما الحسنة فهي تتضاعف إلى سبعمائة ضعف وإلى أضعاف كثيرة.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكم فقهي يتعلق بحديث النفس وما يتعلق به من أحكام وهل يؤاخذ الإنسان عليه أم لا؟

وقد ذكر الفقهاء[1] أن حديث النفس على خمس مراتب وهي الخاطر والميل والهم

---

(١) انظر في ذلك: بريقة محمودية في طريقة محمدية وشريعة نبوية في سرية أحمدية، محمد بن مصطفى الخادمي للخادمي ٢٤٢/٢، والأشباه والنظائر لابن نجيم ص ٣٤، وغمز العيون والبصائر للحموي ١٧٥/١ وما بعدها، والمنثور في القواعد الفقهية للزركشي ٣٦/٢، والزواجر عن اقتراف الكبائر، أبو العباس أحمد بن محمد الهيتمي ٣٧٥/٢، وحاشية العطار على شرح الجلال المحلى، حسن بن محمد العطار على الجلال المحلي ٥٢٠/٢، والفتاوى الكبرى لابن تيمية ٤٤٢/٣ وما بعدها، وغذاء الألباب للسفاريني ٥٧٢/٢ وفيه تفصيل جميل.

والعزم والقصد مع العمل، والمراتب الثلاثة الأولى لا يؤاخذ الإنسان عليها ما لم يقترن الهم بالعزم، أما العزم فيؤاخذ عليه عند المحققين من العلماء.

ويثور هنا سؤال ما الحكم إن سعى العبد في حصول المعصية بما أمكنه ولكن حال بينه وبينها القدر هل يحاسب عليها أم لا؟

ذكر جماعة من العلماء أنه يعاقب عليها حينئذ لأن سعيه جهده يدل على عمله لها ولكن عجز عن تحصيل النتيجة.

وذهب جماعة من المتأخرين إلى أنه لا يعاقب على المعصية التي تكلم بها ما لم تكن قولاً محرمًا كالقذف والغِيبة والكذب، أمَّا ما كان متعلقًا بعمل الجوارح فلا يأثم بمجرد التكلم به دون العمل.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: التفصيل بعد الإجمال.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: بيان كرم الله وفضله على عباده.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: تفاوت أجر العمل بتفاوت الإخلاص.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: الهمّ بالسيئات من غير عمل لها.

أولاً- من أساليب الدعوة: التفصيل بعد الإجمال:

لقد جاء الحديث في صيغة الإجمال "إن الله كتب الحسنات والسيئات"[1] ثمّ أعقبه التفصيل بعد ذلك، ولا شكّ أن الإجمال وإعقابه بالتفصيل مما يجذب الانتباه ويشد الأسماع ويجعل الأفهام أكثر وعيًا وإدراكًا لما يقال، ويُلقى عليها.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: بيان كرم الله وفضله على عباده:

حيث جاء في الحديث: (فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله تبارك وتعالى عنده حسنة كاملة، وإن هم بها فعملها كتبها الله عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى

---

(١) قال ابن هبيرة في الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة ٧٨/٣: أي قدر مبالغ تضعيفها فعرفت الكتبة من الملائكة ذلك التقدير. فلا يحتاجون أن يستفسروا في كل وقت كيف يكتبون ذلك، بل قد شرع سبحانه ما تعمل الملائكة بحسبه.

أضعاف كثيرة، وإن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإن هم بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة)، وهذا من كرم الله وفضله وإحسانه على جميع خلقه قال الإمام النووي: (وفي الحديث بيان ما أكرم الله تعالى به هذه الأمة زادها الله شرفًا وخفّفه عنهم مما كان على غيرهم من الإصر وهو الثقل والمشاق، وبيان ما كانت الصحابة رضي الله عنهم عليه من المسارعة إلى الانقياد لأحكام الشرع)(١).

وقد نص القرآن الكريم على مضاعفة الحسنات وهذا يدل على فضل الله وكرمه لعباده، قال تعالى: ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾(٢) وبين الله سبحانه أنه يضاعف بعد ذلك ﴿ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ ﴾(٣).

قال ابن حجر: (قال ابن بطال: في هذا الحديث بيان فضل الله العظيم على هذه الأمة لأنه لولا ذلك كاد أن لا يدخل أحد الجنة لأن عمل العباد للسيئات أكثر من عملهم للحسنات، وفي الحديث بيان ما يترتب للعبد على هجران لذّاته وترك شهوته من أجل ربه رغبة في ثوابه، ورهبة من عقابه، وفي الحديث بيان دليل على أن الحفظة لا تكتب المباح للتقييد بالحسنات والسيئات، وفيه أن الله سبحانه وتعالى بفضله وكرمه جعل العدل في السيئة والفضل في الحسنة فضاعف الحسنة ولم يضاعف السيئة، بل أضاف فيها إلى العدل الفضل فأدارها بين العقوبة والعفو)(٤).

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: تفاوت أجر العمل بتفاوت الإخلاص:

يظهر هذا من الحديث من قوله "وإن همَّ بها فعملها كتبها الله عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة"، قال ابن هبيرة: (ثم قوله: "إلى سبعمائة ضعف" فإنما يعني على مقدار ما يكون فيها من خلوص النية وإيقاعها في مواضعها التي يزيدها

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٧٦.

(٢) سورة الأنعام، آية: ١٦٠.

(٣) سورة البقرة، آية: ٢٦١.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١١/٣٣٦.

حسنًا، كما قال عز وجل: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا﴾[1] ... وعلى هذا جميع أعمال البرّ في معاملة الله عز وجل إذا خرجت سهامها عن نيةٍ وأغرقت في نزع قوس الإخلاص تلك السهام ممتدة لا تنتهي عن يوم القيامة)[2] وقال ابن رجب: (إن مضاعفة الحسنات زيادة على العشر تكون بحسب حسن الإسلام، وتكون بحسب كمال الإخلاص، وبحسب فضل ذلك العمل في نفسه وبحسب الحاجة إليه)[3]. قال ابن عثيمين: (وهذا التفاوت في المضاعفة مبني على الإخلاص والمتابعة فكلما كان الإنسان في عبادته أخلص لله كان أجره أكثر، وكلما كان الإنسان متبعًا للرسول ﷺ في عبادته كانت عبادته أكمل وثوابه أكثر ففي الحديث دليل على اعتبار النية وأن النية قد توصل صاحبها إلى الخير)[4].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: الهم بالسيئات من غير عمل لها:

جاء في الحديث "وإن همّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله تعالى عنده حسنة كاملة"، قال ابن رجب: (وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: ((إنما تركه من جرَّاي))[5] يعني: من أجلي. وهذا يدلُّ على أن المراد من قدر على ما هم به من المعصية، فتركه الله تعالى، وهذا لا ريب في أنه يكتب له بذلك حسنة؛ لأن تركه للمعصية بهذا القصد عمل صالحُ.

فأما إن همَّ بمعصية، ثم ترك عملها خوفًا من المخلوقين، أو مراءاةً لهم، فقد قيل: إنه يعاقب على تركها بهذه النية، لأن تقديم خوف المخلوقين على خوف الله محرم. وكذلك قصدُ الرياء للمخلوقين محرَّم، فإذا اقترن به ترك المعصية لأجله، عوقب على هذا الترك. وقد خرَّج أبو نعيم[6] بإسناد ضعيف عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: يا صاحب

---

(١) سورة الشورى، آية: ٢٣.

(٢) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة ٣/٧٨-٨٠.

(٣) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٢/٣١٦.

(٤) شرح رياض الصالحين ١/٣٩.

(٥) أخرجه البخاري ٤٢، ومسلم ١٢٩ وهذه لفظة مسلم ليست عند البخاري.

(٦) في الحلية ١/٣٢٤.

الذنب، لا تأمنن سوء عاقبته، ولما يتبع الذَّنب أعظم من الذنب إذا عملته، و ذكر كلامًا، وقال: وخوفُك من الريح إذا حرَّكت ستر بابك وأنت على الذنب، ولا يضطرب فؤادك من نظر الله إليك، أعظم من الذنب إذا عملته.

وقال الفضيل بن عياض: كانوا يقولون: تركُ العمل للناس رياءً، والعمل لهم شرك.

وأما إن سعى في حصولها بما أمكنه، ثم حال بينه وبينها القدر، فقد ذكر جماعةٌ أنَّه يعاقب عليها حينئذٍ لقول النبي ﷺ: ((إنَّ الله تجاوز لأمَّتي عمَّا حدَّثت به أنفُسَها، ما لم تكلَّمْ به أو تعمل))[1] ومن سعى في حصول المعصية جهده، ثم عجز عنها، قد عمل، وكذلك قول النبي ﷺ: ((إذا التقى المسلمان بسيفيهما، فالقاتِلُ والمقتولُ في النَّار))، قالوا: يا رسول الله، هذا القاتلُ، فما بالُ المقتول؟! قال: ((إنه حريصًا على قتل صاحبه))[2].

وقوله: "ما لم تكلَّم به، أو تعمل" يدل على أن الهام بالمعصية إذا تكلم بما هم به بلسانه أنه يعاقب على الهم حينئذٍ، لأنه قد عمل بجوارحه معصيةً، وهو التكلُّمُ باللِّسان، ويدلُّ على ذلك حديث الذي قال: ((لو أنَّ لي مالاً، لعملتُ فيه ما عَمِلَ فلان)) يعني: الذي يعصي الله في ماله، قال: ((فهُمَا في الوِزْرِ سَوَاءٌ))[3].

ومن المتأخرين من قال: لا يعاقب على التكلم بما هم به ما لم تكن المعصية التي هم بها قولاً محرمًا، كالقذف والغيبة والكذب؛ فأمَّا ما كان متعلقُها العمل بالجوارح، فلا يأثم بمجرَّد التكلُّم ما همَّ به، وهذا قد يستدلُّ به على حديث أبي هريرة المتقدم: "وإذا تحدث عبدي بأن يعمل سيئة، فأنا أغفرُها له ما لم يعملها". ولكن المراد بالحديث هنا حديث النفس، جمعًا بينه وبين قوله: "ما لم تكلّم به أو تعمل"، وحديث أبي كبشة يدلُّ على ذلك صريحًا، فإنَّ قول القائل بلسانه: "لو أنَّ لي

---

(١) أخرجه البخاري ٢٥٢٨ و٢٥٢٩ و٦٦٦٤، ومسلم ١٢٧.

(٢) أخرجه البخاري ٣١، ٦٨٧٥، ٧٠٨٣، ومسلم ٢٨٨٨.

(٣) هو جزء من حديث أبي كبيشة الأنماري مطولاً، أخرجه الترمذي ٢٣٢٥ وابن ماجه ٤٢٨٨، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ١٨٩٤).

مالاً، لعملتُ فيه بالمعاصي، كما عمل فلانٌ"، ليس هو العمل بالمعصية التي همَّ بها، وإنَّما أخبر عمَّا همَّ به فقط مما متعلقه إنفاقُ المال في المعاصي، وليس له مالٌ بالكلية، وأيضًا، فالكلام بذلك محرّمٌ، فكيف يكون معفوًّا عنه، غير معاقَبٍ عليه؟...).

وأما إن انفسخت نيته، وفترت عزيمته من غير سبب منه، فهل يعاقب على ما همَّ به من المعصية، أم لا؟ هذا على قسمين:

أحدهما: أن يكون الهم بالمعصية خاطرًا خطر، ولم يساكنه صاحبه، ولم يعقد قلبه عليه، بل كرهه، ونفر منه، فهذا معفو عنه، وهو كالوساوس الرديئة التي سئل النبي ﷺ عنها، فقال: ((ذاك صريح الإيمان))[1].

ولما نزل قوله تعالى: "إن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله" دليل على اعتبار النية، وأن النية قد توصل صاحبها إلى الخير"[2].

---

(١) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٢/٣٢١-٣٢٣، وانظر: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ١/٣٤٢-٣٤٣.

(٢) شرح رياض الصالحين ١/٣٩.

الحديث رقم (١٢)

١٢- وعن أبي عَبْد الرَّحْمَن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ الْخطَّابِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: سَمِعْتُ رسول الله ﷺ يَقُولُ: «انْطَلَقَ ثَلاثَةُ نَفَرٍ[1] مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَتَّى آوَاهُمُ[2] الْمبيتُ إِلَى غَارٍ فَدَخَلُوهُ، فانْحدَرَتْ صَخْرَةٌ مِنَ الْجبلِ فَسَدَّتْ عَلَيْهِمْ الْغَارَ، فَقَالُوا: إِنَّهُ لا يُنْجِيكُمْ مِنْ الصَّخْرَةِ إِلاَّ أَنْ تَدْعُوا الله بصالح أَعْمَالكُمْ.

قال رجلٌ مِنهُمْ: اللَّهُمَّ كَانَ لِي أَبَوانِ شَيْخَانِ كَبِيرانِ، وكُنْتُ لاَ أَغبِقُ قبْلهما أَهْلاً وَلا مالاً فنأَى بي طَلَبُ الشَّجرِ[3] يَوْمًا فَلَمْ أُرِحْ عَلَيْهِمَا حَتَّى نَامَا فَحلَبْت لَهُمَا غبُوقهمَا فَوَجَدْتُهُمَا نَائِميْنِ، فَكَرِهْت أَنْ أُوقظهمَا[4] وَأَنْ أَغْبِقَ قَبْلَهُمَا أَهْلاً أَوْ مَالاً، فَلَبِثْتُ - وَالْقَدَحُ عَلَى يَدِي- أَنْتَظِرُ اسْتِيقَاظَهُما حَتَّى بَرِقَ الْفَجْرُ وَالصِّبْيَةُ يَتَضاغَوْنَ عِنْدَ قَدَميَّ[5] فَاسْتَيْقظَا فَشَرِبَا غَبُوقَهُمَا. اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَفَرِّجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ، فانْفَرَجَتْ شَيْئًا لا يَسْتَطِيعُونَ الْخُرُوجَ مِنْهُ.

قَالَ[6] الآخَرَ: «اللَّهُمَّ إِنَّهُ[7] كَانتْ لِيَ ابْنَةُ عمٍّ كانتْ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَيَّ» وفي رواية: «كُنْتُ أُحِبُّهَا كَأَشد مَا يُحبُّ الرِّجَالُ النِّسَاءِ[8]، فَأَرَدْتُهَا عَلَى نَفْسهَا فَامْتَنَعَتْ مِنِّى حَتَّى أَلَمَّتْ بِهَا سَنَةٌ مِنَ السِّنِينَ فَجَاءَتْنِى فَأَعْطَيْتُهَا عِشْرِينَ وَمِائَةَ دِينَارٍ عَلَى أَنْ تُخَلِّيَ بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِهَا ففعَلَت، حَتَّى إِذَا قَدَرْتُ عَلَيْهَا» وفي رواية: «فَلَمَّا قَعَدْتُ بَيْنَ رِجْلَيْهَا، قَالتْ: اتَّقِ

---

(١) لفظ البخاري في هذه الرواية: (رهط)، وبهذا اللفظ برقم (٣٤٦٥)، و(٥٩٧٤).

(٢) لفظ البخاري في هذه الرواية: (أووا).

(٣) لفظ البخاري في هذه الرواية: (في طلب شيء)، وعنده برقم (٥٩٧٤) (وإنه ناء بي الشجر).

(٤) لفظ البخاري في هذه الرواية (أن أغبق) فقط، بدون: (أن أوقظهما)، وهذه الزيادة عند البخاري برقم (٢٢١٥)، و(٢٣٣٣).

(٥) قوله: (والصبية يتغاضون عند قدمي) لا يوجد عند البخاري في هذه الرواية، وإنما عنده برقم (٢٢١٥)، و(٢٣٣٣)، و (٥٩٧٤).

(٦) عند البخاري في هذه الرواية قبلها زيادة: (قال النبي @).

(٧) (إنه) لا توجد عند البخاري في هذه الرواية، وإنما عنده برقم (٥٩٧٤)

(٨) هذه الزيادة عنده برقم (٢٢١٥).

اللّه[١]، ولا تَفُضَّ الْخاتَمَ إلاَّ بِحَقِّهِ[٢]، فانْصَرَفْتُ عَنْهَا وَهِيَ أَحَبُّ النَّاسِ إلَيَّ وَتركْتُ الذَّهَبَ الَّذي أَعْطَيْتُهَا، اللَّهُمَّ إنْ كُنْتُ فَعْلتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ، فانفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ غَيْرَ أَنَّهُمْ لا يَسْتَطِيعُونَ الْخُرُوجَ مِنْهَا.

وقَالَ[٣] الثَّالِثُ: اللَّهُمَّ اسْتَأْجَرْتُ أُجراءَ وَأَعْطَيْتُهمْ أَجْرَهُمْ غَيْرَ رَجُلٍ وَاحِدٍ تَرَكَ الَّذي لَّه وذهب، فثمَّرت أجره حتى كثرت منه الأموال فجاءني بعد حين فقال يا عبد الله أَدِّ إلَيَّ أَجْرِي، فَقُلْتُ[٤]: كُلُّ مَا تَرَى منْ أَجْرِكَ: مِنَ الإبِلِ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَم وَالرَّقِيق فقال: يا عَبْدَ اللَّهِ لا تَسْتَهْزِئْ بي، فَقُلْتُ: لاَ أَسْتَهْزِئُ بك، فَأَخَذَهُ كُلَّهُ فاسْتاقَهُ فَلَمْ يَتْرُكْ مِنْه شَيْئًا، اللَّهُمَّ إنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتغَاءَ وَجْهِكَ فافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ، فَانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ فخرَجُوا يَمْشُونَ» متفقٌ عليه[٥].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمر بن الخطاب: صحابيٌّ جليل، من أعز بيوتات قريش، وهو: عبد الله بن عمر بن الخطاب بن نُفَيل، القرشي، العدوي، المكي، ثم المدني، يكنى بأبي عبدالرحمن.

أسلم مع أبيه وهو صغير لم يبلغ الحُلُمَ بعد، وهاجر إلى المدينة قبل أبيه، لم يشهد بدرًا، واختلف في حضوره غزوة أحد، والصحيح أن أول مشاهده الخندق، وشهد الحديبية وكان ممن بايع رسول الله ﷺ وشهد غزوة مُؤتة مع جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، أدرك فتح مكة وهو ابن عشرين سنة، كما شهد اليرموك، وفتح مصر، غزا إفريقية مرتين، مرة مع عبدالله بن سعد بن أبي السرح، ومرة مع معاوية بن حديج سنة (٣٤)، كما قدم الشام والعراق والبصرة وفارس غازيًا.

---

(١) هذه الزيادة عنده برقم (٢٢١٥).

(٢) في هذه الرواية زيادة: (فتحرجت من الوقوع عليها).

(٣) في هذه الرواية قبلها زيادة: (قال النبي ﷺ).

(٤) في هذه الرواية زيادة: (له).

(٥) أخرجه البخاري (٢٢٧٢) واللفظ له، ومسلم (٢٧٤٣/١٠٠). أورده المنذري في ترغيبه (١).

وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جريئًا جهيرًا -نشأ في الإسلام- معدودٌ في أهل العلم من الصحابة، رَوَى عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ورُوي عنه، له في كتب الحديث (٢٦٣٠) حديثًا، قال ابن سعد في الطبقات بسنده عن أبي جعفر قال: لم يكن أحد من أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا سمع من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حديثًا أحذر أن لا يزيد فيه ولا ينقص منه، ولا، ولا ... من عبدالله بن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وعن عمرو بن دينار قال: كان ابن عمر يُعد من فقهاء الأحداث، وقال مالك قد أقام ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ستين سنة يفتي الناس في الموسم وغير ذلك، وكان من أئمة المسلمين، وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كثير الإتباع لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى أنه لينزل منازله، ويصلي في كل مكان صلّى فيه، وحتى إن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نزل تحت شجرة فكان ابن عمر يتعاهدها بالماء لئلا تيبس.

وكان مضرب المثل في العبادة، أثنى عليه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فروى أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لزوجه حفصة بنت عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أخت عبدالله: ((نعم الرجل عبدالله، لو كان يصلي من الليل، فكان بعد لا ينام من الليل إلا قليلاً))[1] كما كان من أهل الورع، فكان شديد التحري والاحتياط والتوقي في فتياه، وقال جابر بن عبدالله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ((ما منا أحد إلا مالت به الدنيا وما بها ما خلا عمر وابنه عبدالله، وقال ميمون بن مهران: ما رأيت أورع من ابن عمر ولا أعلم من ابن عباس، وكان قد أشكلت عليه حروب عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقعد عنها تورعًا، ثم ندم على ذلك حين حضرته الوفاة، وقال ما أجدني آسى على شيء فاتني من الدنيا إلا أني لم أقاتل الفئة الباغية مع عليّ، وقال: "كففت يدي فلم أُقْدِم، والمقاتل على الحق أحق"، ولشدة ورعه ترك المنازعة في الخلافة، مع كثرة ميل أهل الشام إليه ومحبتهم له.

أما عن صفاته الخَلقية فكان ربعة[2]، جسيمًا[3]، آدم[4]، يتزر إلى أنصاف ساقيه، وكان يخضب بالصُفرة وله جُمَّة.

---

(١) الربعة: المتوسط الطول في القامة، المعجم الوجيز في (ر ب ع).

(٢) الآدم: من اشتدت سمرته، المعجم الوجيز في (آ د م).

(٣) الجُمّة: عظم الرأس، المعجم الوجيز في (ج م م).

(٤) أخرجه البخاري ١١٢٢.

وكان قد كف بصره في آخر حياته، ومات بمكة سنة (٧٣) بعد قتل عبدالله بن الزبير رضي الله عنهما بثلاثة أشهرٍ وقيل لستة أشهر، وكان قد أوصى أن يدفن في الحِلِّ فلم يُقْدَر على ذلك من أجل الحَجّاج، ودفن بذي طُوى في مقبرة المهاجرين، وسبب موته أن الحجاج أمر رجلاً فسمَّ زُجّ رمحه وزحمه في الطريق، ووضع الزج في ظهر قدمه، فمرض منها أيامًا ثم مات رضي الله عنه وهو ابن (٨٦) سنة، وصلى عليه الحجاج[١].

غريب الألفاظ:

آواهم المبيت إلى غار: أي دفعهم طلب البيات إلى أن يلجأوا إلى الغار[٢].

لا أَغْبُق قبلهما أهلاً ولا مالاً: أغبق أهلاً: أسقيهم الغَبُوق، و المال: الإبل: يعني يُرضع صغارها من أمهاتها. والغَبُوق: شُرْب اللبن العشاء، والصَّبُوح: شرب أول النهار[٣].

فنأى بي طلب الشجر: نأى: بعُد، والمراد: أنه بعد به طلب الرعي (الشجر) لغنمه عن المكان الذي اعتاده[٤].

أرح عليهما: أرجع إليهما[٥].

برق الفجر: طلع وظهر[٦].

يتضاغون: يصيحون ويستغيثون من الجوع[٧].

---

(١) الطبقات، ابن سعد ٣٧٣/٢، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ٤١٩-٤٢١، أسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير ٣٣٦/٣-٣٤١، الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني ٨٠٨-٨١١، سير أعلام النبلاء، الذهبي ٢٠٣/٣-٢٣٩، تهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي ٢١٧/٤-٢١٩، تهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني ٣٨٩، ٣٩٠، الأعلام، خير الدين الزركلي ١٠٨/٤، موسوعة عظماء حول الرسول، خالد عبدالرحمن العك ١٢٤١/٢-١٢٤٦.

(٢) انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٥٨٥/٦.

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير والوسيط في (غ ب ق).

(٤) انظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٦٠٦، وفتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٥٨٧/٦.

(٥) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، الفيومي في (ر و ح).

(٦) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، الفيومي والقاموس المحيط في (ب ر ق).

(٧) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٦٠٧.

ألمَّت: نزلت بها[١].

السنةُ: الجدب والفقر[٢].

الخاتم: البكارة؛ لأنها كانت عذراء[٣].

فثمرت أجره: كثّرته بالزرع أو التجارة ونحو ذلك[٤].

الشرح الأدبي

هذا الحديث الشريف يقدم درسًا إيمانيًا عظيمًا في ضرورة إخلاص النية ثم ترجمتها إلى عمل صالح، وهذا الدرس النبوي التربوي النموذجي يتخذ صيغة جديدة مشوقة ممتعة هي الصيغة القصصية،وفي القصص عبرة وقدوة وموعظة وأسوة،فالقصة فن التشويق والإمتاع والفائدة والإقناع.

وهذا الحديث الشريف نموذج للقصص النبوي الهادف الذي ينبع من آفاق التصور الإسلامي والواقع التاريخي،ويمثل الصراع بين قوى الخير وقوى الشر في النفس الإنسانية، ويزكي جانب الخير ويحث عليه في أسلوب مشوق، وهو بيان جزاء كل شخصية حسب عملها الذي قدمته.

والقصص النبوي له نسيج خاص وبناء متميز حيث يعتمد على المقدمات القصيرة وقد تبدو عقدة القصة في المقدمة، ويتخذ من تصعيد العُقد وتتابع المفاجآت وظهور الخوارق طريقًا للحل العادل، وتشويقًا للقارئ والسامع، وزيادة في الإقناع والإمتاع، وتأكيدًا للتأثير في النفوس والقلوب.

والقصة في بنائها الفني تتكون من شخصيات، وأحداث، وحوار، وعقدة، ولحظة تنوير، أو حل لما جاء في القصة من أحداث معقدة، وهذا الحل يمثل النهاية المصيرية

---

(١) اللسان والقاموس والوسيط في (ل م م).

(٢) اللسان والقاموس والنهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (س ن ن).

(٣) اللسان والقاموس والوسيط في (خ ت م).

(٤) اللسان والقاموس والوسيط في (ث م ر).

لكل شخصية حسب مكانها ودورها في القصة، وهذه المقدمات تقدم في أسلوب قصصي يعتمد على الحكاية والتشويق والتأثير والفائدة؛ وحين نتأمل مشاهد القصة في هذا الحديث الشريف حسب الرواية الموجودة ندرك أن القصة سماعية: حيث سمعها الصحابي الجليل عبدالله بن عمر رضي الله عنهما الذي حج ستين حجة واعتمر ألف عمرة وأفتى في الإسلام ستين سنة، وحمل على ألف فرس في سبيل الله.

وتتكون القصة من ثلاثة شخصيات لم تحدد أسماؤهم، ولم يحدد زمن وقوع هذه الحادثة، ولم يعين مكان وقوعها؛ وذلك لأن العبرة هي المقصود الأسمى من القصة، وتأكيد الثمرة الطيبة للنية الخالصة، والعمل الصالح هو الهدف من تقديم هذا الدرس الإيماني والأخلاقي العميق.

وجانب الإيحاء والرمز في القصص النبوي عامة -وفي هذه القصة بصفة خاصة من أدق الخصائص والسمات، فالقصص النبوي لا يسهب في الوصف، ولا يعني بتحديد الزمان ولا المكان، وإنما تصبح القصة نموذجًا سلوكيًا يتكرر في كل زمان وفي كل مكان، وثمرة القصة ونتيجتها ضوء إيماني يسير في طريقه كل من ينشد طريق الحق، وينأى عنه كل من اتبع هواه فأضله الله.

وفي ظل هذا التصور يظل القصص النبوي تصويرًا لأدواء النفوس البشرية، وعلاجًا ناجعًا لهذه الأدواء في ظل المنهج الإسلامي السديد.

وتبدأ القصة بالأزمة والعقدة التي تحتاج إلى حل، فالأشخاص الثلاثة يسعون على رزقهم، وحينما يُجنَّهم الليل لا يجدون غير غار يؤويهم، ودخلوا هذا الغار وتحدث المفاجأة التي لم يتوقعوها، حيث تسد باب الغار صخرة انحدرت من الجبل ولنتأمل دقة البيان النبوي الكريم في قوله: "حتى آواهم المبيت إلى غار" وحتى هنا توحي بالمسير والحركة، وأن هؤلاء الثلاثة لجأوا إلى الغار بعد إرهاق وتعب وكلل ونصب، ويشع بهذا المعنى قوله: "آواهم المبيت " أي: اضطرهم إلى دخول الغار حيث لم يجدوا مأوى غيره وتنكير لفظ "غار" يوحي بعدم تحديد هذا الغار، وعدم حرصه صلى الله عليه وسلم على تحديد المكان والزمان؛ لأن القصة يمكن أن تتكرر ولا ينفع الإنسان إلا ما قدم من عمل صالح.

والدرس الإيماني يتجلى في موقف هؤلاء الثلاثة حين حلت بهم هذه الكارثة، فالموت مصيرهم، والهلاك نهايتهم، وهذا الدرس يتمثل في ثبات المؤمن عند الشدائد، ولجوئه إلى ربه في مثل هذه المواقف، ولنتأمل كيف استقبل هؤلاء المحاصرون المسجونون في الغار هذا الحدث الجسيم إنهم استقبلوه بالحكمة، وبميراثهم من الأعمال الصالحة، وبالدعاء الخالص لله عز وجل، والدعاء منهج إسلامي اتباعًا لقول الله عز وجل: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾[1].

ويجيء الحل في صورة جماعية فكلهم له ميراث من صالح الأعمال.

فقالوا: إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله تعالى بصالح أعمالكم.

ولم يعترض أحد ولم يفزع ولم ييأس منهم أحد؛ لأنهم اطمأنوا إلى رحمة ربهم وفضل خالقهم فماذا قدم الأول من صالح الأعمال؟ إنه صوّر مشهدًا فريدًا من مشاهد البر بالوالدين: طاعة واحترامًا وبرًا وعطفًا ورعاية وتقديرًا: حيث يحكي قصة من قصص هذا البر في ذلك المشهد الرائع ومن ملامحه إنه كان لا يشرب اللبن في المساء قبل أبيه وأمه "كنت لا أغبق قبلهما أهلاً ولا مالاً" وحين يتأخر عنهما ذات ليلة لظروف اضطرارية، وليس إهمالا لهما يجدهما نائمين ولكن يأبى أن يقدِّم على أبيه أهله وماله، والأطفال يتضاغون أي: يصيحون من الجوع لأنه ظل مستيقظًا حتى الفجر حاملاً القدح على يده برًا بأبويه، وحين استيقظا شربا غبوقهما؛ ولأن النية خالصة لوجه الله استجاب الله لدعائه، وانفرجت الصخرة ولكن بمقدار الثلث؛ ويبقى الآخران فماذا قدما من عمل صالح؟

ويصور الثاني مشهدًا من مشاهد العفاف وصون الأعراض، والمحافظة على ذوي الأرحام والقريبات ويروي ويتذكر قصته مع ابنة عمه فهو يحبها كأشد ما يحب الرجال النساء، ولا يوجد أبلغ من هذا التعبير الدقيق في تصوير العاطفة الجامحة بين فتى

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٨٦.

وفتاة، ويحرك الشيطان رغبته وينسى في غمرة هذه الرغبة قرابته وعفته، فيراود ابنة عمه عن نفسها، ولكنها تأبى أن تنزلق معه في مهاوي الشيطان، ولا تستجيب لإغراءات الفجور والعصيان، وتتطور الأحداث وتقع هذه الفتاة في ذل الحاجة، وتضطر لأن تمد يدها لابن عمها طالبة المساعدة المادية حتى تسد رمقها، ولكن الشيطان يتحرك من جديد في دم هذا الفتى المحب: فيمزق كل روابط القرابة، ولا يَرْعى حقوق ذوي الأرحام، ويتعقد الحدث وتتفاقم الأزمة حين تستسلم الفتاة في بادئ الأمر استسلامًا شكليًا ظاهرًا، ولكن نيتها معقودة على التمنع وحفظ الرحم، ولنتأمل هذا الخطاب البليغ الذي يبوح بكل المشاعر النفسية المؤمنة "اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه إن هذه الكناية الجميلة المؤثرة، ترشدنا إلى ضرورة اختيار العبارات الموحية المؤثرة والبعد عن التصريح بالألفاظ الحسية التي تخدش الحياء وتعمل على إشاعة الفحشاء.

ويستجيب الله سبحانه وتعالى وتنفرج الصخرة التي تحركت بأمر مَنْ خلقها وأمرها وجعلها تسبح بحمده، ولكن لم يأت الفرج فالباب مازال ضيقًا، والصخرة مازالت تسد جزءًا من باب الغار بحيث لا يتسع للخروج .

ويتذكر الثالث عمله الصالح، ويقدم درسًا اجتماعيًا ودينيًا في أداء الأمانة، وإتقان العمل، وحفظ مال الشريك وتنمية مال الأجير، وحين يغيب الأجير لا يأخذ أجره، لا يكتفي صاحب العمل بحفظ الأجر فقط، ولكنه ينمي له هذا المال القليل حتى يصير واديًا من الإبل والبقر يقول: فثمرت أجره حتى كثرت منه الأموال وحين عاد صاحب الأجرة قال له صاحب العمل: (كل ما ترى من أجرك من الإبل والبقر والغنم والرقيق) فأخذه كله فلم يترك منه شيئًا!!!.

ويدعو هذا الرجل الأمين ربه بأن يفرج الكرب إذا كانت نيته خالصة لوجه الله، فانفرجت الصخرة: فخرجوا يمشون.

ما أجمل هذه المشاهد السلوكية، وما أعمق هذه الدروس الاجتماعية التي قدمتها هذه القصص الحقيقية الناطقة بالحكمة والفضيلة، وما أجدر المسلمين في كل مكان وزمان بالإصغاء إلى هذه الدروس النبوية الشافية الوافية.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى أكثر من حكم فقهي:

الأول: حكم بر الوالدين، وقد اتفق الفقهاء[1] على أن بر الوالدين واجب ما داما يأمران بالمعروف فإن كان أمرهما بمعصية فلا طاعة لهما، وأن من أكبر الكبائر عقوق الوالدين.

الثاني: حكم إعطاء الأجير أجره، وقد اتفق الفقهاء[2] على أنه يجب على المستأجر أن يعطي الأجير أجره بعد تمام العمل المؤجر عليه، ويحرم عليه أن يمنعه إياه، أو يؤخره عنه إلا برضاه.

الثالث: حكم جريمة الزنا، وقد اتفق الفقهاء[3] على أن الزنا من أكبر الكبائر وأن مرتكبه يقام عليه حد الله سواء أكان محصنًا أم غير محصن ولكل عقوبته

---

(١) أحكام القرآن للجصاص ٢٧٤/٢ وما بعدها، بدائع الصنائع، الكاساني ٩٨/٧، شرح السير الكبير على مختصر خليل، أبو البركات أحمد بن محمد الدردير ١٩٢/١، الفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم المالكي ٢٩٠/٢، أحكام القرآن لابن العربي ٥٤٤/١ وما بعدها، أسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا بن محمد بن أحمد الأنصاري٤٨٦/٢، مغني المحتاج ٥٧٤/٣، إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، تقي الدين بن دقيق العيد ١٦٣/١ وما بعدها، الفتاوى الكبرى ١٨٤/١، الفروع، ابن مفلح ١٩٩/٦، المغني، ابن قدامة ١٧٠/٩.

(٢) المبسوط، السرخسي ٧٤/١٥، بدائع الصنائع، الكاساني ١٧٤/٤، الزواجر عن اقتراف الكبائر، أبو العباس أحمد بن محمد الهيتمي ٤٣٧/١، شرح منتهى الإرادات، البهوتي ٢٧٣/٢، مطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى، الشيخ مصطفى السيوطي ٦٨٦/٣، سبل السلام الموصلة إلى بلوغ المرام، الصنعاني ١١٨/٢.

(٣) تبيين الحقائق، الزيلعي ١٧٥/٣، بدائع الصنائع، الكاساني ٣٣/٧، حاشية الدسوقي على الشرح الكبير، محمد بن عرفة الدسوقي ٣١٣/٤، مواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ٢٩٠/٦، أسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا بن محمد بن أحمد الأنصاري١٢٥/٤، تحفة المحتاج في شرح المنهاج، ابن حجر ١٠١/٩، كشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي ٨٩/٦، شرح منتهى الإرادات، البهوتي ٣٤٣/٣ وما بعدها.

التي قررها الشرع الشريف.

الرابع: حكم بيع الفضولي، وقد اختلف الفقهاء في حكم بيع الفضولي، فذهب الحنفية والمالكية[1] إلى أن بيع الفضولي جائز ويتوقف على إجازة المالك فإن شاء أمضى البيع وإن شاء رده، وذهب الشافعية والحنابلة[2] إلى أن بيع الفضولي باطل ويفسخ ولا يصح بإجازة أو غيرها لأنه بيع فيما لا يملك[3].

والراجح: القول الأول، لأنه لا ضرر فيه على البائع، لأن البيع لا ينفذ إلا بإجازته فإن أجازه نفذ وإلا فسخ.

المضامين الدعوية

أولاً: من وسائل الدعوة: القصة.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: اللجوء والتضرع إلى الله.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: فضل العمل الصالح.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: فضل بر الوالدين.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: فضل الإخلاص في الأعمال.

سادسًا: من موضوعات الدعوة: فضل العفة والخوف من الله.

سابعًا: من موضوعات الدعوة: فضل إعطاء الأجير حقه.

ثامنًا: من أساليب الدعوة: الترغيب.

أولاً- من وسائل الدعوة: القصة:

حيث جاء في الحديث "انطلق ثلاثة نفر" وذكر النبي ﷺ قصة هؤلاء الثلاثة نفر.

---

(١) بدائع الصنائع، الكاساني ١٤٧/٥ وما بعدها، تبيين الحقائق، الزيلعي ١٠٣/٤، مواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ٢٤٠/٤، شرح الخرشي ١٨/٥.

(٢) أسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا بن محمد بن أحمد الأنصاري١٠/٢، الغرر البهية في شرح البهجة الوردية، القاضي أبو يحيى زكريا الأنصاري ٤٠٦/٢، حاشيتا قليوبي وعميرة ٢٠١/٢، شرح منتهى الإرادات، البهوتي ٩/٢، كشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي ١٥٨/٣.

(٣) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١١٥/٩ وما بعدها.

ومما لاشك فيه أن القصة وسيلة هامة من وسائل الدعوة حيث (تمتاز القصة بأنها تصور نواحي الحياة فتعرض لك الأشخاص وحركاتهم وأخلاقهم وأفكارهم واتجاهات نفوسهم وبيئتهم الطبيعية والزمنية، وتمتاز القصة كذلك بأن النفس تميل إليها فغريزة حب الاستطلاع تعلق عين السامع وأذنه وانتباهه بنسق القصص البارع، استشرافًا لمعرفة ما خفي من بقية الأنباء)[1].

ومن أفضل أنواع القصص وتأثيره في نفس الإنسان هو قصص القرآن والسنة (فقصص القرآن والسنة مزيج من العقيدة والمعرفة ومن العاطفة والفكر، والحق والجمال، فهو لم ينس حظ العقل من حكمة وعبرة، ولا حظ القلب من ترقيق وتحذير)[2]. فعلى الدعاة إلى الله استخدام القصة كوسيلة من وسائل الدعوة بما فيها من عبرة وعظة، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾[3]. وقد كانت القصة في هذا الحديث وسيلة دعوية مهمة، ثَمَّ من خلالها التأكيد على أهمية إخلاص النية لله تعالى في كل عمل يقوم به الإنسان، لأن الأعمال الخالصة تكون سببًا في النجاة في الدنيا والآخرة، وقد بينت القصة أهمية الإخلاص من خلال ما دار من أحداث بين أطرافها، حيث تقرَّب كل واحد منهم بعمله الصالح راجيًا رحمة الله تعالى، طامعًا في تخفيفه سبحانه ما هم فيه من ضيق وشدة، لذا يحسن بالداعية أن يفيد من مثل هذه القصص النبوي في مجال الدعوة إلى الله تعالى ومعالجة الأمور.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: اللجوء والتضرع إلى الله:

حيث جاء في الحديث "إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعو الله" ويظهر أيضًا من لجوء الثلاثة نفر إلى دعاء الله سبحانه، ومما لاشك فيه أن المسلم ينبغي أن

---

(١) تذكرة الدعاة، البهي الخولي ص ٤٤.

(٢) القصة في القرآن الكريم، د. مريم عبدالقادر السباعي ص ٢٧٩.

(٣) سورة يوسف، آية: ١١١.

يتوجه إلى الله بالدعاء في كل وقت وخاصة عند الشدة وقد أخبر سبحانه أنه قريب من عباده ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[1].

وأخبر عن نفسه أنه يجيب دعوة المضطر ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾[2] وكان هذا حال الأنبياء دائمًا يلجؤون إلى الله عند الشدائد، فلما لجأ إبراهيم عليه السلام إلى الله أنجاه الله من النار ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾[3]، وكان حال موسى عليه السلام ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾[4]، ويونس عليه السلام، لما التقمه الحوت ﴿فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾[5] وامتن الله على عباده بأنه هو الذي ينجيهم من الكربات ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾[6] ولذا كان من تعليم الرسول لابن عمه عبدالله بن عباس رضي الله عنهما أن قال له ((احْفَظِ الله يَحْفَظْكَ، احْفَظِ الله تَجِدْهُ أَمَامَكَ، وإذَا سألْتَ فاسألِ الله، وإذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بالله))[7].

قال ابن رجب الحنبلي: (واعلم أن سؤال الله تعالى دون خلقه هو المتعين، لأن السؤال فيه إظهار الذل من السائل والمسكنة والحاجة والافتقار، وفيه الاعتراف بقدرة المسؤول

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٨٦.

(٢) سورة النمل، آية: ٦٢.

(٣) سورة الأنبياء، آية: ٦٨، ٦٩.

(٤) سورة الشعراء، آية: ٦١، ٦٢.

(٥) سورة الأنبياء، آية: ٨٧، ٨٨.

(٦) سورة الأنعام، آية: ٦٣.

(٧) أخرجه الترمذي ٢٥١٦، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٠٤٣).

على دفع هذا الضرر، ونيل المطلوب وجلب المنافع، ودرء المضار، ولا يصلح الذل والافتقار إلا لله وحده، لأنه حقيقة العبادة، والله سبحانه يحب أن يُسأل ويُرغب إليه في الحوائج، ويُلَحَّ عليه في سؤاله ودعائه، ويغضب على من لا يسأله، ويستدعي من عباده سؤاله، وهو قادر على إعطاء خلقه كلهم سؤلهم من غير أن ينقص من ملكه شيء والمخلوق بخلاف ذلك كله: يكره أن يُسأل، ويحب أن لا يسأل لعجزه وفقره وحاجته، وأما الاستعانة بالله عز وجل دون غيره من الخلق؛ فلأن العبد عاجز عن الاستقلال بجلب مصالحه، ودفع مضاره، ولا معين له على مصالح دينه ودنياه إلا الله عز وجل، فمن أعانه الله فهو المعان، ومن خذله فهو المخذول، ومن ترك الاستعانة بالله واستعان بغيره، وكله الله إلى من استعان به فصار مخذولا)[١].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: فضل العمل الصالح:

جاء في الحديث "إلا أن تدعو الله بصالح أعمالكم" وذكر كل منهم عملاً صالحًا له ففرج الله عنهم. قال الإمام النووي: (ويستدل من هذا الحديث على أنه يستحب للإنسان أن يدعو في حال كربه، وفي دعاء الاستسقاء وغيره بصالح عمله ويتوسل إلى الله تعالى به لأن هؤلاء فعلوه فاستجيب لهم وذكره النبي ﷺ في معرض الثناء عليهم وجميل فضائلهم)[٢].

وقد مدح الله الذين يعملون الصالحات فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[٣] وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾[٤] وأخبر الرسول ﷺ أن خير ما يوفق إليه الإنسان هو العمل الصالح ففي الحديث ((إِنَّ اللهَ إِذَا أَرَادَ بِعَبْدٍ خَيْرًا اسْتَعْمَلَهُ، فَقِيلَ: كَيْفَ يَسْتَعْمِلُهُ يا رسولَ اللهِ؟ قال: يُوَفِّقُهُ لِعَمَلٍ صَالِحٍ قَبْلَ المَوْتِ))[٥].

---

(١) جامع العلوم و الحكم، ابن رجب ١/٤٨١، ٤٨٢.
(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٦٠٦.
(٣) سورة البقرة، آية: ٨٢.
(٤) سورة الكهف، آية: ٣٠.
(٥) أخرجه أحمد في مسنده ٣/١٠٦ رقم ١٢٠٣٦، وقال محققو المسند: إسناده صحيح على شرط الشيخين ١٩/٩٤.

رابعًا- من موضوعات الدعوة: فضل بر الوالدين:

جاء في الحديث "اللهم كان لي أبوان شيخان كبيران وكنت لا أغبق قبلهما أهلاً ولا مالاً" قال ابن علان: (وفي تقديم النبي لعمل هذا الرجل على الرجلين بعده إشارة إلى شرف بر الوالدين، والاهتمام بشأنهما فإن التقديم في الذكر يكون للاهتمام وفي الحديث فضيلة بر الوالدين وفضل خدمتهما وإيثارهما على من سواهما من الولد والزوجة)[1] وقد وصى القرآن الكريم ببر الوالدين في غير ما موضع قال تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا﴾[2] وقال جلّ شأنه: ﴿قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا﴾[3] وقال سبحانه: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا﴾[4] وقال سبحانه: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗا﴾[5].

قال الطاهر ابن عاشور: (وعطف الأمر بالإحسان إلى الوالدين على ما هو في معنى الأمر بعبادة الله، لأن الله هو الخالق فاستحق العبادة لأنه أوجد الناس. ولما جعل الله الوالدين مظهر إيجاد الناس أمر بالإحسان إليهما فالخالق مستحق العبادة لغناه عن الإحسان، ولقد جبل الله الوالدين على الشفقة على ولدهما فأمر الولد بمجازاة ذلك بالإحسان إلى أبويه، وشمل الإحسان كل ما يصدق فيه هذا الجنس من الأقوال والأفعال والبذل والمواساة، وإذا بلغ أحد الوالدين أو كلاهما حد الكبر وهما عندك، وفي كفالتك فوطئ لهما خلقك ولين جانبك وخص حالة الكبر بالبيان لأنها مظنة انتفاء الإحسان بما يلقى الولد من أبيه وأمه من مشقة القيام بشؤونهما ومن سوء الخلق

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٥٢.

(٢) سورة النساء، آية: ٣٦.

(٣) سورة الأنعام، آية: ١٥١.

(٤) سورة الإسراء، آية: ٢٣.

(٥) سورة العنكبوت، آية: ٨.

منهما)[١].

وقد جعل الله تعالى شكر الوالدين في المرتبة الثانية بعد شكره سبحانه، فقال جلّ شأنه: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾[٢].

خامسًا- من موضوعات الدعوة: فضل الإخلاص في الأعمال:

حيث جاء في دعاء كل واحد منهم "اللهم إن كنتُ فعلتُ ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة" قال الإمام ابن حجر: (وفي الحديث فضل الإخلاص في العمل قال السبكي الكبير: وعلى الشخص أن يعتقد تقصيره في نفسه ويسيء الظن بها، ويبحث كل واحد من عمله ما يظن أنه أخلص فيه فيفوض أمره إلى الله ويعلق الدعاء على علم الله به فإن لم يغلب على ظنه إخلاصه، ولو في عمل واحد فليقف عند حده ويستحي أن يسأل بعمل ليس بخالص)[٣].

هذا وقد أمر الشرع الحنيف بالإخلاص قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾[٤] وقال: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[٥].

قال السيد سابق: (والاتصاف بصفة الإخلاص والصدق يكسب الفرد النجاح والظفر، والجماعة التي تتألف من أفراد مخلصين، تتجه إلى الخير، وتتنزه عن الدنايا، وتترفع عن شهوات الدنيا، وتسير إلى غاياتها تظللها المحبة ويعمها الأمن والسلام ولقد كان التحلي بحلية الإخلاص سببًا في تطهير أنفس الصحابة من الرياء والنفاق والكذب فاندفعوا إلى غاياتهم الكبرى ينشدون إقامة الحق والعدل، ويبتغون وجه

---

(١) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور ٦/١٥/٦٨، ٦٩.

(٢) سورة لقمان، آية: ١٤.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٦/٥٨٩.

(٤) سورة البينة، آية: ٥.

(٥) سورة الكهف، آية: ١١٠.

الله، وإعلاء كلمته فمكّن الله لهم في الأرض وجعلهم قادة الدنيا وسادة العالم، والأعذار التي تحول بين الإنسان وبين ممارسة الأعمال الصالحة لا تنقص من مكانته عند الله ما دام مخلصًا)[١].

سادسًا- من موضوعات الدعوة: فضل العفة والخوف من الله:

حيث جاء في الحديث "إنه كانت لي ابنة عم... فلما قعدت بين رجليها قالت: اتّق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه فانصرفت عنها وهي أحب الناس إلي" قال ابن عثيمين: (وهذا توسل إلى الله بالعفة التامة، وهذا يدل على فضيلة العفة عن الزنا، وأن الإنسان إذا عف عن الزنا مع قدرته عليه فإن ذلك من أفضل الأعمال)[٢].

هذا وقد جعل الرسول الكريم ﷺ من يتحلى بالعفة ممن يظله الله في ظله ففي الحديث ((سَبعةٌ يُظلُّهمُ اللَّهُ تعالى في ظِلِّهِ يومَ لا ظِلَّ إلاّ ظِلّهُ: ... ورجُلٌ دَعَتْهُ امرأةٌ ذاتُ مَنصِبٍ وجَمالٍ فقال: إني أخافُ اللَّهَ))[٣].

ووعد الله بالأجر الكبير لكل من يخافه ويتقيه قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾[٤] وقال سبحانه: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾[٥].

قال ابن القيم: (والخوف اضطراب القلب وحركته من تذكر المخوف وقيل: الخوف قوة العلم بمجاري الأحكام، وهذا سبب الخوف لا أنه نفسه وقيل: الخوف هرب القلب من حلول المكروه عند استشعاره قال أبو حفص: الخوف سوط الله يقوم به الشاردين عن بابه، وقال: الخوف سراج في القلب به يبصر ما فيه من الخير والشر،

---

(١) إسلامنا، السيد سابق ٤١.

(٢) شرح رياض الصالحين ١/ ٤١.

(٣) أخرجه البخاري ١٤٢٣، ومسلم ١٠٣١.

(٤) سور النازعات، الآيتان: ٤٠، ٤١.

(٥) سورة الرحمن، آية: ٤٦.

وكل أحد إذا خفته هربت منه إلا الله عز وجل فإنك إذا خفته هربت إليه. وقال أبو سليمان: ما فارق الخوف قلبًا إلا خرب، وقال إبراهيم بن سفيان: إذا سكن الخوف القلوب أحرق مواضع الشهوات منها، وطرد الدنيا عنها وقال ذو النون: الناس على الطريق ما لم يزل عنهم الخوف فإذا زال عنهم الخوف ضلوا الطريق، والخوف المحمود الصادق: ما حال بين صاحبه وبين محارم الله عز وجل فإذا تجاوز ذلك خيف منه اليأس والقنوط قال أبو عثمان: صدق الخوف هو الورع عن الآثام ظاهرًا وباطنًا. قال ابن تيمية: الخوف المحمود ما حجزك عن محارم الله)[1].

حيث جاء في الحديث "اللهم استأجرت أجراء وأعطيتهم أجرهم غير رجل واحد ... فجاءني بعد حين فقال: (يا عبدالله أدِّ إلي أجري فقلت: كل ما ترى من أجرك) وقد أمر الرسول الكريم بإعطاء الأجير أجره ففي الحديث ((أَعْطُوا الأجيرَ أَجْرَهُ، قبلَ أَنْ يَجِفَّ عَرَقُهُ))[2] وجعل الرسول ﷺ من يمنع حق الأجير بأنه خصمه يوم القيامة ففي الحديث ((قال اللهُ تعالى: ثلاثةٌ أنا خَصمُهمْ يومَ القِيَامةِ: رجلٌ أعطى بي ثمَّ غَدَر، ورجلٌ باعَ حُرًّا فأكلَ ثمَنَهُ، ورجلٌ استأجَرَ أجيرًا فاستْوفى منهُ ولم يُعطِهِ أجرَه))[3]. وقد أبرز النبي ﷺ فضل إعطاء الأجير حقه، وبين أن ذلك من أسباب تفريج الكروب وتيسير الأمور، ومما يُتقرب به إلى الله تعالى، حيث تضرع الرجل بعمله هذا الذي ابتغى به مرضاة ربه، طمعًا في تفريج كربته وكربة إخوانه ممن حُبسوا في الغار، ويحسن بالداعية أن يبرز فضل مثل هذا السلوك الإيجابي والإيماني خاصة في هذا العصر الذي أصبحت فيه فئة من الناس تتفنن في أكل حقوق العمال والأجراء مستغلة سيطرتها وسطوتها، وما خُوِّل لها من صلاحيات، فالأحرى بهؤلاء وبغيرهم ممن تتطلع نفوسهم إلى مثل هذا السلوك المشين أن يخافوا الله تعالى، ويتقربوا إليه بأداء الحقوق لأصحابها، وعدم ظلم الناس.

---

(١) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ١٣٩/٢، ١٤٠.

(٢) أخرجه ابن ماجه ٢٤٤٣، وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ١٩٨٠).

(٣) أخرجه البخاري ٢٢٧٠.

ثامنًا- من أساليب الدعوة: الترغيب:

حيث جاء في الحديث "فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون" ومما لا شك فيه أن أسلوب الترغيب من أساليب الدعوة حيث تميل النفس دائمًا إلى ما يسرها والترغيب يحفز النفس إلى العمل الصالح، وينهض بهمة الإنسان في الطاعات. (والترغيب هو تشويق الناس إلى ثواب الله والجنة وأسلوب الترغيب والترهيب في الشريعة يأتي حسب الأحوال والنفوس والمواقف، يأتي علاجًا وردعًا، يأتي بشيرًا ونذيرًا فمن النفوس من ترغب في الخير، وتهفوا إلى الهدى، وتشتاق إلى النور، ذكر الخير يرغبها، ودعوة الإحسان تدفعها، ونور الحق يدفئها)[1].

إن أسلوب الترغيب المستنبط من هذا الحديث يحمل كل مؤمن إلى المسارعة إلى مثل هذه الأعمال الصالحة من بر الوالدين والعفة عن محارم الله وتقوى الله، والبعد عن الفواحش، وكذلك عدم ظلم الناس بأكل حقوقهم سواء كانوا عمالاً أو غير ذلك، حيث كانت هذه الأعمال الخالصة سببًا في تفريج الكروب، مما يعد حافزًا للاستزادة من هذه الأعمال وغيرها مما يدخل في عدادها، للتقرب إلى الله تعالى واستحقاق رحمته سبحانه.

---

(١) الدعوة إلى الله الرسالة الوسيلة الهدف، د. توفيق الواعي، ١٩٩، ٢٠٠.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

جاء الإسلام ليربي الإنسان على مكارم الأخلاق، ويهذب النفس البشرية من خلال تلك الأنماط السلوكية التي يتم غرس أصولها في نفس المؤمن، ومن عظمة الإسلام أنه لا يميل إلى ناحية التنظير - التي تجعل الناس يختلفون في عملية التطبيق- وإنما يعمل على تنزيل تلك المبادئ التي يدعو إليها - على الواقع العملي للناس بأن يربيهم على ذلك مع تنوع ميادين التربية.

ولذا يحسن بنا في مستهل الحديث عن المضامين التربوية للباب الأول من كتاب رياض الصالحين - باب الإخلاص وإحضار النية- أن نشير إلى مفهوم التربية الإسلامية، حيث تعتبر التربية الإسلامية الوسيلة الفعّالة لتحقيق أهداف الإسلام لإعداد الإنسان الصالح الذي يعبد الله حق عبادته.

وإن محتوى التربية الإسلامية هو الإسلام حيث تترجم حقائقه بدون زيادة ونقصان إلى مواقف سلوكية في حياة المسلم، ليسير الإنسان في حياته على منهج الله الذي ارتضاه لخلقه[1].

ومن تعريفات التربية الإسلامية: "أنها تلك المفاهيم التي يرتبط بعضها ببعض في إطار فكري واحد يستند إلى المبادئ والقيم التي جاء بها الإسلام والتي ترسم عدداً من الإجراءات والطرائق العملية التي يؤدي تنفيذها إلى أن يسلك المرء سلوكاً يتفق وعقيدة الإسلام"[2].

ومن تعريفات التربية الإسلامية: أنها تنشئة وتكوين إنسان سليم مسلم متكامل من جميع نواحيه المختلفة من الناحية الصحية والعقلية والاعتقادية والروحية والأخلاقية والإرادية والإبداعية في جميع مراحل نموه في ضوء المبادئ والقيم التي بها الإسلام[3].

---

(١) انظر: التربية الإسلامية مفهومها - مصادرها، أسسها وأهدافها، ميادينها أساليبها وخصائصها، د. سليمان بن عبدالرحمن الحقيل، ص٥، ط١، ١٤١٢هـ/١٩٩١م.

(٢) عرض وتحليل كتاب: أصول التربية الإسلامية، د. إسماعيل علي ص٩٢، نقلاً عن التربية الإسلامية.

(٣) أهداف التربية الإسلامية، مقداد يالجن ص٢٠.

هذه بعض التعريفات للتربية الإسلامية، والتي تعني ترجمة حقائق الإسلام إلى مواقف سلوكية في ضوء مبادئ وقيم الإسلام ليسلك المسلم سلوكاً يتفق مع ما جاء به الإسلام.

أما بالنسبة لأحاديث الباب الذي معنا فهي عن الإخلاص وإحضار النية، وتتضمن عددًا من المضامين التربوية من أبرزها ما يلي:

أولاً- من أهداف التربية الإسلامية: تحقيق الإخلاص واستحضار النية الصالحة:

لا شك أن التربية الإسلامية تهدف إلى تحقيق عدد من الأهداف الرئيسة في حياة المسلم والتي من جملتها: تحقيق الإخلاص واستحضار النية الصالحة في سائر الأعمال، وقد كان في طليعة أحاديث هذا الباب قوله ﷺ: ((إنما الأعمال بالنيات ...))، حيث أكد النبي ﷺ في هذا الحديث على أهمية تربية النفس على استحضار النية الصالحة في كافة الأعمال، ثم جعل الهجرة كميدان تطبيقي لما يستصحبه الإنسان من نية، وهذا أمر تربوي عظيم ينبغي للمسلم أن يستشعره في حياته، حتى ينشأ ويتربى على الإخلاص في كل عمل يقوم به، وبيّن ﷺ أهمية النية واستصحابها من خلال أحاديث هذا الباب الذي أخبر فيه النبي ﷺ بالجيش الذي يغزو الكعبة وأنه سيخسف بأولهم وآخرهم وفيهم من ليس منهم، فبيّن ﷺ أنهم سيبعثون على نياتهم، مما يؤكد أهمية التربية الإسلامية -في تأصيل إخلاص النية لله تعالى، وأن النية تدفع بالمؤمن إلى المنازل الرفيعة حتى وإن قعدت به الأسباب المادية-.

ثانيًا- من أسس التربية الإسلامية: تعميق الصلة بين الإيمان والعمل:

إن أسس التربية الإسلامية أنها تربي الإنسان تربية روحية "عقائدية" عن طريق تكوين الرغبة في الاعتقاد وتثبيت العقيدة، وبيان التكافل بين الإيمان والعمل الصالح والإخلاص، وأداء الواجب.

إن طريقة عقد الصلة بين الإيمان والعمل الصالح من الطرق التي تتبعها التربية الإسلامية في تربية المسلم تربية روحية ... وعلى طريق التكامل بين الإيمان والعمل الصالح والإخلاص وأداء الواجب، يتم عقد الصلة الدائمة بين الإنسان وبين الله تعالى

في كل لحظة، في كل عمل وكل فكرة وكل شعور، وذلك عن طريق إثارة حساسية القلب برقابة الله الدائمة عليه، وإثارة وجدان التقوى والخشية الدائمة لله ومراقبته في كل عمل...

إن الضمير هو الأساس المهم من أسس تربية الخلق، فهو يرتبط مباشرة بالإيمان بالله تعالى، لأن الله تعالى هو الذي يعلم ما في السرائر، ويعرف خبايا النفوس، وإن النبي ﷺ حينما يركز على أهمية النية في الأعمال، فإنما يضع أساساً لتربية الضمير المستمدة من الإيمان بالله ... لأن كل سلوك يسلكه الإنسان في حياته قولاً وفكراً وعملاً والضمير ليس متوارثاً، بل يتأتى بالتربية والتدريب والتثقيف، فالضمير هو الوازع النفسي القوي الذي يكون للإنسان بمثابة المرشد لسلوكه في الحياة يبصره بعواقب أفعاله.

وقد كان الرسول ﷺ يربي ضمير المسلم[1].

ثالثًا- بيان أن الإخلاص سبب في قبول الأعمال والنجاة في الدنيا والآخرة:

إن الأعمال الصالحة المقبولة عند الله تعالى هي التي تقصد بها وجه الله تعالى وحده، فلابد فيها من النية الخالصة، ثم أن تكون موافقة للسنة مطابقة لأحكام الشريعة، أما إذا كانت الأعمال ظاهرها الصلاح والموافقة للشريعة، ولكن القصد منها المراءاة وحسن السمعة بين الناس، فمثل هذه الأعمال التي لم يرد بها وجه الله تعالى، ينال صاحبها جزاءه في الدنيا وتحبط في الآخرة، لكن إذا أخلص الإنسان في عمله الصالح واستحضر عند عمله النية، فلابد أن ينظر إلى مطابقة عمله للشريعة، لأن العمل لا يكون صالحاً إذا خالف الشريعة، وليس بصادق من ادعى محبة الله ومحبة رسوله ﷺ ثم خالف حكمها...[2].

ولذا فإن هؤلاء الثلاثة الذين آواهم المبيت إلى غار فسقطت صخرة فسدت فتحة الغار، وليس لهم منفذ إلا الله تعالى، فإذا بهم يضرعون إلى الله تعالى ويتقربون إليه

---

(١) انظر: فلسفة التربية الإسلامية في الحديث الشريف، أ. عبد الجواد السيد بكر، ص١٨١، ١٩٧، ٢٣١.

(٢) انظر: التربية الروحية والاجتماعية في الإسلام، د. أكرم ضياء العمري، ٦٩-٧٠.

سبحانه بصالح عملهم الذي كان ثمرة لتربية أنفسهم على الإخلاص والتوجه لله وحده بالعمل الذي لا يبتغى به الأجر إلا من الله تعالى، وأخذ كل واحد منهم يذكر ما قام به من عمل ابتغاء مرضاة الله تعالى ويقول: "اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة، فكانت الصخرة تنفرج حتى انفرجت وخرجوا جميعاً...".

إن تفريج تلك الكربة كان بفضل الله تعالى أولاً، ثم بهذا الإخلاص الذي تربَّت عليه تلك النفوس المؤمنة، مما يجعل المسلم يحرص أشد الحرص على التزام الإخلاص والنية الصالحة، وتحري ذلك في كافة شؤونه وأحواله، وتربية أولاده عليه.

لأن من ثمرات الإخلاص وصلاح النية قبول العمل والنجاة في الدنيا والآخرة.



٢- باب التوبة

قَالَ العلماءُ: التَّوْبَةُ وَاجبَةٌ مِنْ كُلِّ ذَنْب، فإنْ كَانتِ المَعْصِيَةُ بَيْنَ العَبْدِ وبَيْنَ اللهِ تَعَالَى لاَ تَتَعلَّقُ بحقِّ آدَمِيٍّ فَلَهَا ثَلاثَةُ شُرُوط:

أحَدُها: أنْ يُقلِعَ عَنِ المَعصِيَةِ.

والثَّانِي: أَنْ يَنْدَمَ عَلَى فِعْلِهَا.

والثَّالثُ: أنْ يَعْزِمَ أَنْ لا يعُودَ إلَيْهَا أَبَدًا. فَإِنْ فُقِدَ أَحَدُ الثَّلاثَةِ لَمْ تَصِحَّ تَوبَتُهُ.

وإنْ كَانَتِ المَعْصِيةُ تَتَعَلقُ بآدَمِيٍّ فَشُرُوطُهَا أرْبَعَةٌ: هذهِ الثَّلاثَةُ، وأنْ يَبْرأَ مِنْ حَقِّ صَاحِبِها، فَإِنْ كَانَتْ مالاً أَوْ نَحْوَهُ رَدَّهُ إليْه، وإنْ كَانَت حَدَّ قَذْفٍ ونَحْوَهُ مَكَّنَهُ مِنْهُ أَوْ طَلَبَ عَفْوَهُ، وإنْ كَانَت غِيبَةً استَحَلَّهُ مِنْهَا. ويجِبُ أنْ يَتُوبَ مِنْ جميعِ الذُّنُوبِ، فَإِنْ تَابَ مِنْ بَعْضِها صَحَّتْ تَوْبَتُهُ عِنْدَ أهْلِ الحَقِّ مِنْ ذلِكَ الذَّنْبِ وبَقِيَ عَلَيهِ البَاقي. وَقَدْ تَظَاهَرَتْ دَلائِلُ الكتَابِ والسُّنَّةِ، وإجْمَاعِ الأُمَّةِ عَلَى وُجوبِ التَّوبةِ.

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[النور: ٣١]، وَقالَ تَعَالَى: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾[هود: ٣]، وَقالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحا﴾[التحريم: ٨].

الحديث رقم (١٣)

١٣- وعَنْ أبي هُرَيْرَةَ ﵁ قال: سمِعتُ رسول الله ﷺ يَقُولُ: «**والله إنِّي لأَسْتَغْفرُ اللهَ، وَأَتُوبُ إليْه في اليَوْمِ أَكثر مِنْ سَبْعِين مرَّةً**» رواه البخاري[1].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

(١) برقم ٦٣٠٧. وسيكرره المؤلف برقم ١٨٧٢.

الشرح الأدبي

يعرض هذا الحديث الشريف أمام المسلم قضية من قضايا الإيمان، ومشهدًا من مشاهد السلوك الإسلامي، وأنموذجًا من نماذج العلاقة بين العبد وخالقه عز وجل.

وهذه القضية، وذلك المشهد يقدمان في أسمى نموذج، وأعظم قدوة: وهو سلوك المصطفى ﷺ وحرصه على التواصل مع ربه عز وجل.

ويأتي إقرار النبي ﷺ بالاستغفار في أسلوب القسم والتأكيد "والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه" وهذا القسم على لسان النبي ﷺ يؤكد قيمة الاستغفار، وفضل التوبة، وفيه أمر تشريعي وهو ندب الحلف لتأكيد الأمر وتقويته ليبادر كل من قصر إلى الإتيان بذلك.

ولكن هل استغفار النبي ﷺ وتوبته تكون من ذنب؟؟ وكيف وهو المعصوم من الخطأ، وهو لا ينطق عن الهوى، وهو الذي غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟! وللعلماء توجيه سديد لهذا الأمر حيث يفسرون استغفار النبي ﷺ بأنه: يطلب من ربه مغفرة تليق بمقامه المبرأ عن كل وصمة ذنب أو مخالفة ولو سهوًا وقبل النبوة (كما يقول صاحب دليل الفالحين إلى طرق رياض الصالحين).

وفي القرآن الكريم آيات بينات تخاطب النبي ﷺ وتأمره بالاستغفار في مثل قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[1].

والمراد من هذا الخطاب: "سلة غفران ذنوب المذنبين" وقد أومأ إلى ذلك تعميم حذف المستَغْفر منه حيث لم يحدد مجال الاستغفار، وقيل: إن الدعاء كلما كان أعم كان أتم وفي قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا﴾[2].

قيل أي استغفر عن أمتك، ولفظ توابًا جاء في صيغة المبالغة ليؤكد أن استغفار الرسول ﷺ كان عن أمته، حيث تدل المبالغة على كثرة عدد المغفور لهم، والذنوب المغفورة.

---

(١) سورة النساء، آية: ١٠٦.

(٢) سورة النصر، آية: ٣.

والاستغفار منهج إسلامي نقتدي به في سلوك الحبيب المصطفى ﷺ، وهو يفتح أبواب الرزق، ويسد منافذ العوز، ويسخر للمؤمن كل ما حوله من ظواهر الكون ويكون سببًا في كثرة الذرية، وكثرة المال، وخصوبة الأرض، وجريان الأنهار واستمرار مظاهر الحياة.

قال تعالى: على لسان نوح عليه السلام: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾[1].

وقد ورد ما يؤكد أن النبي ﷺ كان يستغفر لأمته ويكثر من ذلك، وبعض الطوائف كانوا لا يستجيبون ومنهم "المنافقون" الذين أعرضوا عن هذه النعمة وتلك المكرمة: يقول الله عز وجل: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾[2].

ولنتأمل دلالة الكثرة في الاستغفار "أكثر من سبعين مرة" ففي هذا كما يقول العلماء: تحريض للأمة على التوبة والاستغفار، فإنه ﷺ مع كونه معصومًا وكونه خير الخلائق يستغفر ويتوب أكثر من سبعين مرة، واستغفاره ليس من الذنب بل من اعتقاده أن نفسه قاصرة في العبودية عما يليق بحضرة ذي الجلال والإكرام، وعن الأغر المزني رضي الله عنه[3] أن رسول الله ﷺ قال: "إنه ليغان على قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة"[4]، والمراد بالغين : فترات عن الذكر الذي من شأنه أن يداوم عليه كما يقول صاحب فتح الباري رواية عن عياض فإذا فتر رسول الله عن الذكر - الذي شأنه أن يداوم عليه عد ذلك ذنبًا فاستغفر منه إظهارًا للعبودية والشكر لله عز وجل.

---

(١) سورة نوح، الآيات: ١٠- ١٢.

(٢) سورة المنافقون، آية: ٥.

(٣) الأغر بن يسار المزني، له صحبة وروى عن رسول الله ﷺ، انظر ترجمته في: الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني ١/٥٦.

(٤) أخرجه مسلم ٢٧٠٢.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: القسم - التوكيد.

ثانيًا: من صفات الداعية: القدوة الحسنة.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: الاستغفار.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: الحرص على التوبة والإنابة إلى الله.

أولاً- من أساليب الدعوة: القسم، التوكيد:

١- **القسم:** يعد القسم من الأساليب الدعوية المهمة لما يتضمنه من المعاني التي يُراد توجيه المدعو إلى أهميتها وفضلها ولذا أقسم النبي ﷺ وأكد على أنه يستغفر الله ويتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة، وذلك حيث جاء في الحديث: (والله) مما يؤكد على أهمية الاستغفار والتوبة والإنابة إلى الله تعالى، قال ابن حجر: (فيه القسم على الشيء تأكيدًا له وإن لم يكن عند السامع فيه شك)[١]. ومن المواضع التي أمر الله فيها نبيه بالقسم قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾[٢].

٢- **التوكيد:** حيث جاء في الحديث: (إني لأستغفر الله)، حيث أكد النبي ﷺ قوله: بـ"إنّ" والتوكيد أسلوب من أساليب الدعوة التي تؤكد على صدق الخبر، وصدق القائل وهو من أساليب القرآن الكريم ومنه قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾[٤].

ثانيًا- من صفات الداعية: القدوة الحسنة:

حيث جاء في الحديث: (والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة)، ولذا تعتبر القدوة الحسنة من أهم صفات الداعية، وقد كان رسول

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٧٥٨/٣.

(٢) سورة يونس، آية: ٥٣.

(٣) سورة النبأ، آية: ٣١.

(٤) سورة الكهف، آية: ١٠٧.

الله ﷺ ولا زال هو القدوة المطلقة: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ﴾(١)، (وعلى الداعية أن يبذل كل جهده ليكون قدوة في نظر المدعوين فإذا أمرهم بالصلاة كان أولهم، وإذا أمرهم بالصدقة كان أكرمهم، وإن الداعية الذي لا يراعي القدوة في دعوته يسهم في ابتعاد الناس عنه ونفورهم منه، وبهذا يكون داعية للسوء والشر، وهذا لا يقبله الداعية الصادق مع ربه والمحب لرسوله ﷺ)(٢).

إن الداعية الناجح يجب أن يتمثل القدوة في جميع تصرفاته: (فلا شك أن قيام الداعية بامتثال ما يدعو إليه والالتزام به من أهم عوامل نجاح دعوته؛ لأن المدعوين يرون في هذا الشخص الذي يبلغهم أمر دينهم المثل الصالح والقدوة لهم، والمدعو دائمًا ينظر إلى سلوك الداعية ومدى تمسكه وقيامه بما يقول ويحدث الناس عنه)(٣).

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: الاستغفار:

جاء في الحديث: (إني لأستغفر الله)، وهذا هو الرسول عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم الذي غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ومع ذلك يقول: "والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة" وهذا يدل على أهمية الاستغفار، والاستغفار مما أَمَر به نوح قومه، قال تعالى: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾(٤)، وأمر به هود قومه: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ﴾(٥).

---

(١) سورة الأحزاب، آية: ٢١.

(٢) انظر: فقه الدعوة، د. بسام العموش ص ٥٢.

(٣) عدة الداعية المسلم، د. الشريف حمدان الهجاري ص ٤٢.

(٤) سورة نوح، الآيات: ١٠- ١٢.

(٥) سورة هود، آية: ٥٢.

والاستغفار سبب لمغفرة الذنوب ففي الحديث القدسي: ((... يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا. فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ...))[١]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ، فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ، فَيَغْفِرُ لَهُمْ))[٢]، وعنه رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((يَنْزِلُ رَبُّنَا كُلَّ لَيْلَةٍ إِلى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حَتَّى يَبْقَى ثُلثُ اللَّيْلِ الآخِرُ فَيَقُولُ مَنْ يَدْعُونِي فأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فأُعْطِيَهُ، وَمَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فأَغْفِرَ لَهُ))[٣].

قال النووي: (جاء عن الفضيل بن عياض قال: استغفار بلا إقلاع توبة الكذابين، ويقاربه ما جاء عن رابعة العدوية قالت: استغفارنا يحتاج إلى استغفار كثير، وعن بعض الأعراب أنه تعلق بأستار الكعبة وهو يقول: اللهم إن استغفاري مع إصراري لؤم، وإن تركي الاستغفار مع علمي بسعة عفوك لعجز، فكم تتحبب إليَّ بالنعم مع غناك عني، وأتبغض إليك بالمعاصي مع فقري إليك، يا من إذا وعد وفَّى، وإذا توعد تجاوز وعفا، أدخل عظيم جرمي في عظيم عفوك يا أرحم الراحمين)[٤].

وجاء في منهاج الصالحين: "قال الربيع بن خثيم: تضرعوا إلى ربكم وادعوه في الرخاء فإن الله قال: (من دعاني في الرخاء أجبته في الشدة، ومن سألني أعطيته، ومن تواضع إليّ رفعته، ومن تضرع إليّ رحمته، ومن استغفرني غفرت له"[٥]، ومن خلال هذا يتضح فضل وأهمية الاستغفار، وإن الداعية الناجح هو الذي يوجه المدعوين إلى ذلك.

رابعًا- من موضوعات الدعوة: الحرص على التوبة والإنابة إلى الله:

حيث جاء في الحديث: (والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه)، وقد جاء الأمر بالتوبة في كثير من النصوص الشرعية منها قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ

---

(١) أخرجه مسلم ٢٥٧٧.

(٢) أخرجه مسلم ٢٧٤٩.

(٣) أخرجه البخاري ٧٤٩٤، ومسلم ٧٥٨ واللفظ له.

(٤) الأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار، الإمام النووي ٤٥٢.

(٥) منهاج الصالحين، عز الدين بليق ص ٩٥١.

تَوْبَةً نَّصُوحًا ﴾[١]، وقوله: ﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[٢]، وقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾[٣]، وقال: ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ ﴾[٤]، وقال: ﴿ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[٥].

وحث الرسول الكريم ﷺ على التوبة والإنابة إلى الله ففي الحديث: ((إِنَّ اللّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ، لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ. وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ، لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ. حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا))[٦]، وفي الحديث أيضًا: ((مَنْ تَابَ قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا، تَابَ اللّهُ عَلَيْهِ))[٧].

قال ابن مفلح: "والتوبة هي الندم على ما مضى من المعاصي والذنوب، والعزم على تركها دائمًا لله عز وجل، لا لأجل نفع الدنيا أو أذى، وأن لا تكون عن إكراه أو إلجاء، بل اختيارًا حال التكليف. وقال ابن عقيل: والندم توبة، مع شرط العزم أن لا يعود، ورد المظلمة من يده، وقال الحسن البصري: التوبة النصوح ندم بالقلب، واستغفار باللسان، وترك بالجوارح، وإضمار أن لا يعود، وقال الكلبي: هي أن يستغفر باللسان، ويندم بالقلب، ويمسك بالبدن، وذكر ابن الجوزي عن عمر ﷺ: أن التوبة النصوح أن يتوب العبد من الذنب وهو يحدث نفسه أن لا يعود"[٨].

---

(١) سورة التحريم، آية: ٨.

(٢) سورة المائدة، آية: ٧٤.

(٣) سورة البقرة، آية: ٢٢٢.

(٤) سورة الزمر، آية: ٥٤.

(٥) سورة المائدة: آية: ٣٩.

(٦) أخرجه مسلم ٢٧٥٩.

(٧) أخرجه مسلم ٢٧٠٣.

(٨) الآداب الشرعية، حماد بن عبدالله الحماد ١/١١٤ - ١١٦ بتصرف.

الحديث رقم (١٤)

١٤- وعن الأَغَرِّ بْن يَسار المُزنِيِّ ﷺ قال: قال رسول ﷺ: «**يا أيُّها النَّاس تُوبُوا إلى اللَّهِ ((واسْتغْفرُوهُ))**[1]، **فإني أَتوبُ في اليَوْمِ مائة مَرَّة**» رواه مسلم[2].

ترجمة الراوي:

الأغر بن يسار المُزَنيُّ: وهو: الأغرّ بن يسار المُزني، ويقال الجهني، والمزني أصح، وهو من المهاجرين.

له صحبة، ورواية محدودة، روى عن النبي ﷺ وعن أبي بكر الصديق، وروى عنه عمر بن الخطاب، ومعاوية بن قرة، وأبو بُرْدة بن أبي موسى الأشعري، وروى له البخاري في "الأدب" ومسلم وأحمد وأبو داود، والنسائي في "اليوم والليلة، وروى عنه أهل البصرة، ولم يؤرخ لحياته ولا لوفاته[3].

الشرح الأدبي

لقد فتح الله سبحانه وتعالى لكل مسلم باب التوبة والرجوع، ووعد التائبين بالأجر الكبير والثواب العظيم، وهذا الوعد يرد في سورة "الفرقان" حيث يقول الله عز وجل في سياق تعداد مناقب وصفات المؤمنين: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[4].

فالوعد الإلهي أكرم وأعظم من كل ما يحلم به التائبون، فهو غافر الذنب، وقابل التوب، ويزيد في الإكرام والمثوبة فيبدل سيئات التائبين حسنات، ويغفر لهم ويرحمهم

---

(١) قوله: (واستغفروه) لا يوجد عند مسلم.

(٢) برقم ٢٧٠٢/٤٢.

(٣) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ٦٤، ٦٥، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير ٢٥٩/١، ٢٦٠، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني ٦٤، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي ٢٨١/١، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني ١٨٥/١، والسندي ٣٩٠/٢٩.

(٤) سورة الفرقان ٧٠.

من ذنوبهم وأنفسهم وندمهم ووساوسهم.

والحديث الشريف ينادي البشرية جمعاء حيث يخاطب رسول الله ﷺ وينادي: الناس جميعًا وذلك ليفتح الباب أمام المشركين والكفار والملاحدة ليتوبوا إلى رشدهم ويعودوا إلى فطرتهم التي.فطر الله الناس عليها، والإسلام يَجُبّ ما قبله فهل تصغى الملايين التي ابتعدت عن ربها إلى النداء النبوي الكريم: فتنجو بنفسها من المصير الأليم.

وصيغة الأمر تغلّف الحض على التوبة والاستغفار (توبوا إلى الله واستغفروه) والأمر للوجوب فالتوبة واجبة على كل إنسان وخاصة "المسلم العاصي" وكذلك أهل الملل الأخرى، لأنهم مأمورون بإتباع الإسلام وبالدخول في دين الله أفواجا.

والمدلول اللغوي للتوبة لا يتعارض مع المدلول الشرعي والاصطلاحي: فالتوبة في اللغة تعني "الرجوع" ويقال تاب وأناب وآب بمعنى رجع فالتائب إلى الله في ظل هذا المدلول اللغوي، وفي ظل الدلالة الشرعية: هو الراجع من شيء إلى شيء، راجع من الأوصاف المذمومة إلى الأوصاف المحمودة، راجع عما نهى الله عنه إلى أمره، وعن معصيته إلى طاعته، وعما يكرهه إلى ما يرضاه.

وللتوبة مراحل تشع بها دلالة الألفاظ الدالة على كل مرحلة حسب عمق الشعور الإيماني والصلة الروحية بالله عز وجل، والإخلاص في التوبة واستحضار النية الصادقة، وهذه المراحل تمثلها هذه المقامات الثلاث.

فمن رجع عن المخالفات خوفًا من عذاب الله فهو تائب، ومن رجع حياء من الله فهو منيب، ومن رجع تعظيمًا لجلال الله سبحانه فهو أواب، والدرجات الثلاث عند الله مقبولة، والترقي في كمال الطاعة ومدارج المحبة رغبات صادقة مأمولة.

والتوبة والاستغفار يتفقان في الرجوع إلى العمل الصالح وقال بعض العلماء: إن التوبة لا تتم إلا بالاستغفار لقوله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾[1]. وكأن الاستغفار ثمرة التوبة، أو أنه الطريق إليها حتى تكون توبة نصوحا: وقيل في دلالة

---

(١) سورة هود، آية: ٣.

الاستغفار إنه: طلب المغفرة إما باللسان أو بالقلب أوبهما، فالاستغفار باللسان فيه نفع لأنه خير من السكوت، ولأن المستغفر بلسانه يعتاد على قول الخير، والاستغفار بالقلب نافع جدًا، لأنه يؤكد صدق التوبة، ويبعد صاحبه عن الرياء والنفاق والادعاء، والاستغفار باللسان والقلب أبلغ وأكثر تأكيدًا وأدل على صدق صاحبه اتباعًا لقول الله عز وجل: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[1].

وفي ختام الحديث الشريف يأتي التأكيد بإن مضافًا إلى ياء المتكلم والمتكلم هو أشرف الخلائق النبي المعصوم وخاتم النبيين ﷺ، وهو في هذا التأكيد يعلل أمره ونداءه الواجب التنفيذ، فهو القدوة في التوبة والاستغفار، إنه لا يتوب من ذنب، ولكن يواصل استغفاره وتوبته في اليوم مائة مرة، شكرًا لربه، وحمدًا لخالقه، ورحمة بأمته، ورجاءً في قبول توبة التائبين، وغفران ذنوب العاصين، وإجابةً لدعاء المنيبين، حتى يتم نصر الله لأمته، وتعود للإسلام شوكته، وترفع في العالمين رايته.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: النداء، الأمر.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: الحث على التوبة.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: الحث على الاستغفار.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: وجوب الاقتداء والتأسي بالنبي ﷺ.

خامسًا: من صفات الداعية: توجيه المدعوين إلى ما ينفعهم.

أولاً- من أساليب الدعوة: النداء، الأمر:

أ- النداء: وذلك في قوله "يا أيها الناس" والنداء من الأساليب الدعوية المفيدة لما فيه من تقريب المدعوين إلى الداعي بالنداء عليهم بما يحبون، وتوجيه الدعوة إليهم، والنداء في القرآن والسنة من أبرز الأساليب وقد تكرر كثيرًا في القرآن كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا

---

(١) سورة الفرقان، آية: ٧٠.

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾[١]

والله سبحانه إذا نادى عباده إنما يناديهم ليأمرهم بما فيه سعادتهم وكمالهم أو لينهاهم عما فيه شقاؤهم ونقصانهم أو ليبشرهم أو ينذرهم، أو ليعلمهم ما ينفعهم[٢].

ب- الأمر: وجاء هذا الأسلوب في قوله ﷺ "توبوا إلى الله واستغفروه" أمر بالتوبة إلى الله واستغفاره من الخطايا والذنوب، والأمر أحد الأساليب المفيدة في الدعوة إلى الله لما فيه من حمل المدعو على الالتزام بما ورد في الأمر الموجه إليه، لأن أسلوب الأمر من الأساليب ذات القيمة التأثيرية العالية، فهو أسلوب يتسابق المؤمنون لتحقيقه والوفاء بالمراد منه، فلا تأخر ولا تلكؤ ولا تراجع، وهذا هو مقتضى الإيمان، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه، وأسلوب الأمر يدل على أهمية المأمور به ووجوب الوفاء به وعدم الإخلال بمقتضاه[٣]، وقد تكرر أسلوب الأمر في القرآن كثيرًا ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾[٤].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: الحث على التوبة:

إن التوبة طريق للنجاة ودليل على صدق العبد ورجوعه والتجائه إلى الله، وقد جاء في الحديث الحث على التوبة في قوله ﷺ "توبوا إلى الله" والتوبة أهم قواعد الإسلام وهي أول مقامات سالكي طريق الآخرة[٥] والأمر بالتوبة في الحديث موافق لقول الله عز وجل ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا ﴾[٦] وقوله ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾[٧] ففي هذه الآية خاطب الله بها أهل الإيمان وخيار

---

(١) سورة الحج، آية: ٧٧.

(٢) نداءات الرحمن لأهل الإيمان، أبوبكر الجزائري ص ٧.

(٣) انظر: العهد والميثاق في القرآن الكريم، د. ناصر بن سليمان العمر ص ٥٠، ٥١.

(٤) سورة البقرة، آية: ٢١.

(٥) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٥٩٢.

(٦) سورة التحريم، آية: ٨.

(٧) سورة النور، آية: ٣١.

خلقه أن يتوبوا إليه، ثم علق الفلاح بالتوبة تعليق المسبب بسببه، وأتى بأداة "لعل" المشعرة بالترجي، إيذانًا بأنكم إذا تبتم كنتم على رجاء الفلاح، فلا يرجوا الفلاح إلا التائبون[١] وللتوبة ثلاثة شروط "أن يقلع عن المعصية وأن يندم على فعلها، وأن يعزم عزمًا جازمًا أن لا يعود إلى مثلها أبدًا، فإن كانت المعصية تتعلق بآدمي فلها شرط رابع وهو رد المظلمة إلى صاحبها أو تحصيل البراءة منه"[٢].

إن التوبة هروب من المعصية إلى الطاعة، ومن السيئة إلى الحسنة، ومن وحشة العصيان إلى الأنس بالرحمن، ...، وهروب من الجبار إلى رحابه، وعياذ برضاه من سخطه، وبمعافاته من عقوبته، وبه منه لا يُحصى ثناءٌ عليه، لا ملجأ منه إلا إليه، ولا مفرٌ عنه إلى سواه ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾[٣].

والتوبة ملاذ مكين، وملجأ حصين. دنس المعاصي يغسل بماء التوبة، ولوثة الخطايا تزال بزلال الاستغفار.

أسأت ولم أحسن وجئتك تائبًا ... وأنَّى لعبدٍ من مواليه مهربُ

يؤمّل غفرانًا فإن خاب ظنه ... فما أحدٌ منه على الأرض أخيبُ

إن في القلب شعث، لا يلمه إلا الإقبال على الله، وفيه وحشة لا يزيلها إلا الأنس به في خلوته، وفيه حزن لا يذهبه إلا السرور بمعرفته وصدق معاملته، وفيه قلق لا يسكنه إلا الاجتماع عليه والفرار منه إليه. وفيه نيران حسرات لا يطفئها إلا الرضى بأمره ونهيه، وقضائه ومعانقة الصبر على ذلك إلى لقائه، وفيه فاقة لا يسدها إلا محبته والإنابة إليه ودوام ذكره وصدق الإخلاص له. ولو أعطي الدنيا وما فيها لم تُسد تلك الفاقة منه أبدًا[٤].

---

(١) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٣٣٣/١ وما بعدها.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٥٩٢.

(٣) سورة الذاريات، آية: ٥٠.

(٤) انظر: مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٧٠٢/٣، كتاب: الله أهل الثناء والمجد، د. ناصر بن مسفر الزهراني ص ٦٠ - ٧٣.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: الحث على الاستغفار:

لقد جاء الحث على الاستغفار في الحديث في قوله ﷺ "واستغفروه" والاستغفار من "الغفر" وهو الستر والتغطية ومن أسماء الله تعالى "الغفار والغفور" وهما من أبنية المبالغة ومعناهما: الساتر لذنوب عباده وعيوبهم، المتجاوز عن خطاياهم وذنوبهم(١).

وقد أمر الله بالاستغفار في كثير من الآيات منها: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾(٢) وقد وعد الله على الاستغفار بالخير الكثير في الدنيا والآخرة قال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾(٣).

وقال على لسان نبيه نوح عليه السلام: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾(٤) وبيّن الحق تبارك وتعالى أن الاستغفار أمان من عذابه فقال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾(٥). فإن الله لا يعذب مستغفرًا(٦).

وقد أعطانا النبي ﷺ مثلاً تطبيقيًا في التوبة والاستغفار(٧) كما هو في الحديث الذي معنا "يا أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه فإني أتوب في اليوم مائة مرة" وما روى عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: ((إِنْ كُنَّا لَنَعُدُّ لِرَسُولِ الله ﷺ فِي الْمَجْلِسِ الْوَاحِدِ مِائَةَ مَرَّةٍ: رَبِّ اغْفِرْ لِي وَتُبْ عَلَيَّ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ))(٨).

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ص ٦٧٤.

(٢) سورة محمد، آية: ١٩.

(٣) سورة هود، آية: ٣.

(٤) سورة نوح، الآيات: ١٠-١٢.

(٥) سورة الأنفال، آية: ٣٣.

(٦) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٥٤٣/١.

(٧) انظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد ٢٩٩/٢.

(٨) أخرجه أبو داود ١٥١٦، وصححه الألباني، (صحيح سنن أبي داود ١٤٩٣).

رابعًا- من موضوعات الدعوة: وجوب الاقتداء والتأسي بالنبي ﷺ:

جاء في الحديث أمر رسول الله ﷺ بالتوبة والاستغفار في قوله "يا أيها الناس توبوا الله واستغفروه" عمليًا مثلاً تطبيقًا للتوبة والاستغفار وألمح إلي الاقتداء به فقال فإني أتوب في اليوم مائة مرة" ولقد حثنا القرآن على الاقتداء برسول الله ﷺ في أكثر من موضع منها: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾[١] فقوله أسوة حسنة أي قدوة حسنة[٢].

وقال ابن كثير: (هذه الآية الكريمة أصل كبير في التأسي برسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله)[٣] وما من شك أن القدوة الحسنة لها كبير الأثر في إنجاح الدعوة، فالناس بطبيعتهم يتطلعون إلى الإنسان المتصف بصفات الإيمان والمتحلي بأخلاق الإسلام الحسنة وصاحب المسالك والأفعال الحميدة الذي يحب الخير للناس ويبعد الشر عنهم ويصدقهم في معاملاتهم وعلاقاتهم[٤].

إن الإنسان يحتاج إلى قدوة صالحة، لأن المحاكاة غريزة كامنة في النفس، وإذا بحثنا عن السر في تأثير القدوة الحسنة في بناء الشخصية وجدنا ذلك يرجع إلى أسباب منها:

١- القدوة الحسنة تحتل مكانة مرموقة في المجتمع وتحظى بالاحترام والتقدير من غالب المجتمع، وهذا يكون حافزًا قويًا لمحاكاتها وتقليدها في السلوك الحسن، ومن هنا: يكتسب الفرد شخصية متحلية بالفضائل.

٢- نجد أن القدوة الحسنة ذات الفضائل الخلقية الرفيعة: تكون لدى الأفراد ممن حولها الاقتناع الكامل بأن الوصول إلى هذه الفضائل والتحلي بها ممكن وغير

---

(١) سورة الأحزاب، آية: ٢١.

(٢) زاد المسير في علم التفسير، ابن الجوزي ، ابن الجوزي، ٣٦٧/٦.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٣٩١/٦.

(٤) وسائل الدعوة، د. عبدالرحيم بن محمد المغذوي ص ٢٠٥.

مستحيل. والإنسان مفطور على المحاكاة والتقليد، وهذا مما يسهل عليه اكتساب الفضائل والسلوك الإسلامي إذا جعل أمام عينيه قدوة حسنة يقتدي بها والمنهج الإسلامي اتخذ من القدوة الحسنة وسيلة من وسائله لترقية الإنسان في سلم الكمال السلوكي[١].

فالله سبحانه وتعالى عندما أنزل القرآن الكريم: لم يكن مراده من ذلك أن يحفظه الناس كنظرية من النظريات، وإنما كان مراده أن يترجم إلى سلوك ويطبق في واقع الحياة. لذا اختار الله سبحانه وتعالى محمدًا ﷺ ليكون القدوة والمثل الأعلى للناس، فكان بشخصه وشمائله وسلوكه وتعامله مع الناس ترجمة عملية حية لتعاليم القرآن وآدابه تشريعاته.

وقد أشارت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها إلى ذلك بقولها: ((كَانَ خُلُقُهُ الْقُرآنَ))[٢]، أي كان سلوكه صورة عملية لما في القرآن.

وهذا الاختيار مبني على علم قال تعالى: ﴿...ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ...﴾[٣].

فسيرة النبي محمد ﷺ العطرة: لا يخفى منها شيء وذلك لكي يكون الاقتداء بها على أحسن وجه وأكمله[٤].

فالله سبحانه وتعالى اختار لنا وسيلة هامة لبناء الشخصية الإسلامية، وذلك بإرساله محمدًا ﷺ إلى هذه الأمة، وهو يجمع كل الصفات العظيمة والخلال الحميدة.

فكان يجمع في شخصيته الفريدة كل مزايا الإنسانية، مما جعله القدوة الكاملة والمثل الأعلى الذي كلما تعاقبت الأجيال وجدوا في شخصيته الأسوة الصالحة والمنار

---

(١) انظر: الأخلاق الإسلامية وأسسها، عبدالرحمن حسن حبنكة ٢٠٣/١ - ٢٠٤.

(٢) أخرجه مسلم ٦١١.

(٣) سورة الأنعام، آية: ١٢٤.

(٤) انظر: منهج القرآن في تربية ال تمع، د. عبدالفتاح عاشور ص ٢٣٧.

الهادي إلى الصراط المستقيم. ولهذا: كان بحق القدوة الصالحة لبني الإنسان في كل زمان ومكان يأخذون منه سمات الشخصية الإسلامية ويتحلون بها.

فشخصية الرسول ﷺ لم تتميز من بين الشخصيات الأخرى؛ لأنه نبي وصاحب رسالة سماوية فحسب، بل مع ذلك لأنه كان قدوة صالحة، ومثلاً رفيعًا للاستقامة الإنسانية والمبادئ السامية التي تضمنتها دعوته. وتلك المبادئ هي التي تصور لنا الرشد الإنساني والنضج البشري.

وأهمية هذه القدوة الحسنة التي امتاز بها الرسول ﷺ عامة ليست خاصة بالاقتداء به في العبادات أو الزهد فقط، بل تشمل الاقتداء به في سائر الأمور فيما ليس من خصوصياته ﷺ[١].

خامسًا- من صفات الداعية: توجيه المدعوين إلى ما ينفعهم:

إن من مهام الداعي وصفاته الرئيسة: توجيه المدعوين إلى الخير، وإلى ما ينفعهم في دنياهم وأخراهم، ففي هذا الحديث وجه النبي ﷺ الناس إلى ما يغفر ذنوبهم ويكفر سيئاتهم من التوبة والاستغفار فقال: "يا أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه فإني أتوب في اليوم مائة مرة" وتلك مهمة الداعي: دعوة الناس إلى الخير وما فيه صالحهم قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[٢]. أي ولتكن منه أمة منتصبة للقيام بأمر الله، في الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[٣].

إن الداعي لا بد أن يكون ذا قلب ينبض بالرحمة والشفقة على الناس وإرادة الخير لهم، والنصح لهم، ومن شفقته عليهم دعوتهم إلى الإسلام، لأن في هذه الدعوة نجاتهم

(١) انظر: الشخصية ومنهج الإسلام في بنائها ورعايتها، د. ناصر بن عبدالله بن ناصر التركي، إحدى رسائل سلسلة الرسائل الجامعية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ص ١٧٨ - ١٨١.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٠٤.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٢/ ٩١.

من النار وفوزهم برضوان الله تعالى. إنه يحب لهم ما يحب لنفسه الإيمان والهدى، فهو يحبب ذلك إليهم أيضًا[١]. والداعي يسعى بدعوته إلى دلالة الناس إلى ما ينفعهم في دنياهم وأخراهم.

(١) أصول الدعوة، د. عبدالكريم زيدان ص ٣٥٦.

الحديث رقم (١٥)

١٥- وعنْ أبي حَمْزَةَ أَنَس بن مَالِكٍ الأَنْصَارِيِّ خَادِمِ رسول الله ﷺ، رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((**للَّهُ أَفْرَحُ بتَوبةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ سقطَ عَلَى بعِيرِهِ، وقد أَضلَّهُ في أَرضٍ فَلاةٍ**)) متفقٌ عليه[1].

وفي رواية لمُسْلمٍ: «**للَّهُ أَشدُّ فرحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِين يتُوبُ إِلْيهِ مِنْ أَحَدِكُمْ كان عَلَى راحِلَتِهِ بِأَرْضِ فلاةٍ، فانْفلتتْ مِنْهُ وعلَيْها طعامُهُ وشَرَابُهُ فأَيِسَ مِنْهَا، فأَتَى شَجَرةً فاضْطَجَعَ في ظِلِّهَا، و**[2] **قد أَيِسَ مِنْ رَاحِلتِهِ، فَبَيْنما**[3] **هوَ كَذَلِكَ إِذْ هُوَ بِها قَائِمةً عِنْدَهُ، فَأَخذ بِخطامِهَا ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الفَرحِ: اللَّهُمَّ أَنت عبْدِي وأَنا ربُّكَ، أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الفرح**»[4].

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

أضلّه: فقده وذهب منه بغير قصده[5].

أرض فلاة: قفر لا ماء فيها[6].

أيس منها: يئس وانقطع رجاؤه[7].

الخطام: ما وُضع على خطْم الدابةِ -أنفها- لتُقاد به[8].

---

(١) أخرجه البخاري واللفظ له ٦٣٠٩، ومسلم ٢٧٤٧/٨. أورده المنذري في ترغيبه ٤٦١٩.

(٢) لفظ مسلم بدون الياء.

(٣) لفظ مسلم: (بينا).

(٤) أخرجه مسلم ٢٧٤٧/٧. أورده المنذري في ترغيبه ٤٦١٩.

(٥) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٦١٠، وفتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١١١/١١.

(٦) القاموس المحيط، والمصباح المنير في غريب الشرح الكبير، الفيومي في (ف ل و).

(٧) اللسان والوسيط في (أ ي س).

(٨) الصحاحي واللسان والقاموس والوسيط في (خ ط م).

الشرح الأدبي

ما أعظم رحمة الخالق بالمخلوقين وما أجمل نعمة الله وثوابه لعباده التائبين، وفي هذا الحديث الشريف تتجلى سمات هذه الرحمة، وتتوهج أشعة تلك النعمة حيث يقدمها رسول الله ﷺ في صورة بيانية مشرقة، ومشهد ترغيبي مؤثر، وأسلوب سهل ميسر، في إطار صورة تشبيهية قريبة نابعة من مشاهد البيئة التي تصافح وجدان الإنسان صباح مساء، ويتأملها ذووا الألباب ببصرهم وبصيرتهم، فيدركون أن رحمة الله وسعت كل شيء وأن الله غفور رحيم، وتواب حكيم.

ومن معالم هذه الصورة التي تقرب أمل التوبة، وترغب في الانتصار على المعصية جو الصحراء، وراكب الدابة، ثم فقدان المتاع والطعام والشراب، والبحث المضني عن هذه الممتلكات، وهي مقومات حياة هذا المسافر، ثم اليأس من العثور عليها، والركون إلى ظل شجرة طلبًا للراحة أو يأسًا من العثور على ما فقده أو انتظارًا للموت، وفجأة تهب نسائم الخير، وتشرق شمس الأمان، وإذا بذلك اليائس يجد راحلته وطعامه وشرابه، فتسري الفرحة في أوصاله، وتسبح بحمد الله وشكره مشاعره، وتتسابق الكلمات الحامدة الشاكرة على لسانه، فيسبق بعضها بعضًا وتختلط المفردات والمعاني في غمرة هذا الانفعال، وذلك الفرح الذي أعاده للحياة والأمان، ويغفر الله له هذا السهو الطارئ، هذه الصورة البهيجة المضيئة الراصدة للحظة انتصار الإرادة على اليأس، وانتصار هاتف الإيمان على وساوس الشيطان، يضعها المصطفى ﷺ في صورة تشبيه مركب عقلي من غير نظر إلى مفردات التركيب، بل تؤخذ الزبدة من المجموع فتكون غايته ونهايته، وفائدة إبرازه في صورة التشبيه، تقرير المعنى في ذهن السامع، والمعنى المراد هو أن الله عز وجل يفرح بعبده التائب أكثر من فرح ذلك الذي فقد كل مقومات حياته، ثم أكرمه الله وأعاد إليه الأمل وحقق له الرجاء، وفي هذا التشبيه إيحاء بضرورة نزع اليأس من قلوب العاصين وإرشاد إلى الإقبال على التوبة والإنابة مهما كان حجم الذنوب، استجابة لذلك النداء الإلهي الرحيم: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ

أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[١].

وقيل بأن الصورة الأدبية في الحديث جاءت في قالب "التشبيه التمثيلي" حيث يتوهم للمشبه الحالات التي للمشبه به وينتزع له منها ما يناسبه، فهي صورة تقريبية مؤثرة ترغب الذين ضعفوا أمام إغراءات الحياة فاتبعوا أهواءهم، واستسلموا لرغباتهم ونزواتهم أن ينيبوا إلى الله ويتوبوا توبة نصوحًا، والصورة البيانية في الحديث النبوي تجمع بين الجمال والجلال، وبين المهابة والحلاوة وبين الإقناع والإمتاع، وتغذي العقول، وتمتع الأسماع وحين نطيل التأمل في استكشاف معالم الجمال والجلال فيها ندرك أنها تلج بالمعنى إلى شعاب النفس فتزيده وضوحًا في الخاطر، وجلاءً في الذهن ونورًا يمتد في عقل المسلم وبصره ونَفَسًا يتردد في رئتيه، وذلك بعض ما يفيض به البيان الساحر والأدب الرفيع.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: منزلة التوبة عند الله تبارك وتعالى.

ثانيًا: من أساليب الدعوة: التشبيه وضرب المثل.

ثالثًا: من أساليب الدعوة: الترغيب.

رابعًا: من مهام الداعية: بعث الأمل في نفوس المدعوين.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: إثبات صفة الفرح لله عز وجل.

أولاً- من موضوعات الدعوة: منزلة التوبة عند الله تبارك وتعالى:

إن لتوبة العبد وإنابته إلى ربه منزلة لا تدانيها منزلة، والحديث يبين منزلتها وعلو شأنها وقبول الله لها: (لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره، وقد أضله في أرض فلاة)، وذلك بيان لسرعة قبول الله توبة عبده التائب، وأنه يقبل عليه بمغفرته ورحمته، ويعامله معاملة من يفرح به[٢].

---

(١) سورة الزمر، آية: ٥٣.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ٧/٧١-٧٢.

ففي الحديث شبه الرسول ﷺ قبول الله لتوبة العبد التائب ورضاه بها، ورحمته الواسعة بعباده، وشفقته عليهم برجل في أرض جدباء مهلكة ضاع منه بعيره الذي عزم اجتياز تلك الفلاة به، ثم وجده وقد أشرف على الهلاك، ويئس من النجاة؛ تشجيعًا للناس على التوبة ودفعًا لما يصرف عنها، وفتحًا لباب الرجاء أمام العباد، فالله تعالى مع قدرته العظيمة وعزه الكبير رؤوف رحيم، يشجع العباد على التوبة، ويكرمهم بقبولها، ويوجههم إلى ما فيه النجاة والسعادة في الدنيا والآخرة.

وفي الحديث كناية عن إحسان الله إلى عبده التائب، وتجاوزه عن سيئاته، لأن العاصي إذا وقع في المعصية صار في قبضة الشيطان وأسره، فأشرف على الهلاك، فإذا وفقه الله للتوبة خرج من شؤم تلك المعصية وتخلص من قبضة الشيطان، فأقبل الله عليه بمغفرته ورحمته، فالتمثيل إنما هو لحال العبد التائب، وما يتحصل له بسبب التوبة من النجاة والفوز، ولقد بلغ من روعة التصوير أن اشتملت الصورة على كل مؤثراتها، أخذًا بلب السامع وتحريكًا لخياله وأحاسيسه وأفكاره، لتنتج الأثر المطلوب. والصورة هنا هي صورة رجل في صحراء مقفرة، معه زاده من الطعام والماء ومركبه من الإبل، فضاع كل ذلك بغتة، وأعياه البحث حتى يئس من استرداد شيء من ذلك. لقد أحاطت به كل صور اليأس،وتمثل في نفسه اليأس من النجاة، وبين التعب والألم واليأس والاستسلام للموت والهلاك، إذ براحلته عليها طعامه وشرابه، فقام كالمأخوذ ممسكًا بها حتى لا تهرب منه، صائحًا من شدة الفرح: (اللهم أنت عبدي وأنا ربك) فأخطأ من شدة الفرح.

هذا الرجل بفرحته التي لا تضارع وسروره الذي لا يمكن تحديده، ليس أشد حرصًا على الحياة وقبولاً للراحلة وتلقيًا للنجاة من قبول الله لتوبة عبده المؤمن وإقباله عليه، لأن عودة الراحلة فيها حياته الدنيوية، وعودته بالتوبة فيها حياته الأخروية، وهي التي طلبها الله منه ودعاه إلى الحفاظ عليها والاستمساك بها[1].

(١) شرح رياض الصالحين، د. الحسيني هاشم ص ٣٥.

ففي الحديث حض على التوبة[١]، والإنابة والرجوع إلى الله، وقد علق الله سبحانه وتعالى الفلاح المطلق على فعل المأمور وترك المحظور، فقال: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[٢]، فكل تائب مفلح، ولا يكون مفلحًا إلا من فعل ما أمر به وترك ما نهي عنه، لذا كانت التوبة لها المنزلة الرفيعة عند الله، وكانت غاية كل مؤمن[٣].

ثانيًا- من أساليب الدعوة: التشبيه وضرب المثل:

ورد استخدام التشبيه وضرب المثل في الحديث في قوله ﷺ: (لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعير وقد أضله في أرض فلاة) قال القرطبي: (ووجه هذا المثل أن العاصي حصل بسبب معصيته في قبضة الشيطان وأسره وقد أشرف على الهلاك، فإذا لطف الله به ووفقه للتوبة خرج من شؤم تلك المعصية، وتخلص من أسر الشيطان ومن المهلكة التي أشرف عليها فأقبل الله عليه بمغفرته، وبرحمته)[٤]، فالتشبيه وضرب المثل يحدث في النفس حركة التفات بارعة يلتفت بها المرء من الكلام الجديد إلى صورة المثل المأنوس، فيلمح ما بينهما من التشابه أو التطابق، فلا يلبث أن يتلقى الأمر الجديد بمزيد من القبول والارتياح[٥].

(وتظهر أهمية ضرب الأمثال وفائدتها في أن الأمثال تبرز المعقول في صورة المحسوس، الذي يلمسه الناس فتقبله العقول، لأن المعاني المعقولة لا تستقر في الذهن، إلا إذا صيغت في صورة حية قريبة الفهم، وتكشف الأمثال عن الحقائق وتعرض الغائب في معرض الحاضر، وتجمع الأمثال المعنى الرائع في عبارة موجزة. ويضرب المثل

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٦٠٨.

(٢) سورة النور، آية: ٣١.

(٣) انظر: مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ١/٥٤٠ - ٥٤١.

(٤) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ٧/٧٢.

(٥) تذكرة الدعاة، البهي الخولي ص ٦٧ - ٦٨.

للترغيب في الممثل به حين يكون مما ترغب فيه النفوس، ويضرب المثل للتنفير حينما يكون الممثل به مما تكره النفوس، ويضرب المثل لمدح الممثل به، ويضرب المثل حين يكون الممثل به فيه صفة يستحقها الناس"[١].

ولضرب المثل أهداف تربوية ودعوية منها: أن الأمثال تقرب المعنى إلى الأذهان، فقد ألف الناس تشبيه الأمور المجردة بالأشياء الحسية، ليستطيعوا فهم تلك الأمور المعنوية أو الغيبية، بما قد ألفوه وعرفوه، حيث يتم تقريب المراد للعقل وتصويره بصورة المحسوس، أو تصوير المعاني بصورة الأشخاص لأنها أثبت في الأذهان، لاستعانة الذهن فيها بالحواس ومن ثم كان الغرض من المثل تشبيه الخفي بالجلي، والغائب بالشاهد.

ومنها: أن للأمثال قدرة على الاستحواذ على المشاعر، وإيقاظ النفوس، وتجديد نشاطها، فالإنسان يميل ببيعته إلى الاستشهاد بالأمثال لما يرى فيها من جمال حكمتها، ولطافة لفظها، وإصابتها المعنى)[٢].

ومنها: أن الأمثال وسيلة من وسائل الإقناع، فإن المورد للمثل، إنما هو في الحقيقة يقيس الأمر الذي يدعيه على أمر معروف ومسلم به عند من يخاطبه،ومن ثم لزم التسوية بينهما في الحكم[٣].

ثالثًا- من أساليب الدعوة: الترغيب:

ورد أسلوب الترغيب ضمنيًا في الحديث ترغيبًا في الإسراع بالتوبة إلى الله عز وجل ووعد بقبولها عند الله تبارك وتعالى، وجاء ذلك في قوله ﷺ: (لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد أضله في فلاة) فمعلوم ان الإنسان في هذه الحياة تحيط به صوارف كثيرة، تؤثر على قيامه بما كلف به من أمر الدين، وفي نفس الوقت جُبلت نفسه على حب الخير والسعي في الحصول عليه، وكُره الشر، والرغبة في البعد عنه، لهذا فإن أسلوب الترغيب فيما عند الله من أجر عظيم لعبده الذي أطاعه واتقاه محبب

---

(١) فلسفة التربية الإسلامية في الحديث الشريف، د. عبدالجواد سيد بكر ص ٣٤٢.

(٢) أسلوب الدعوة القرآنية بلاغة ومنهاجًا، د. عبدالغني محمد سعيد بركة ص ٢٢٩.

(٣) أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية، د. زياد محمود العاني ص ٤٢٣ - ٤٢٤.

إلى النفس البشرية تهفو إليه وتسعد به وتتصت له[(١)].

وأسلوب الترغيب من أبرز الأساليب استخدامًا في القرآن الكريم، ومن ذلك ترغيب الله وتبشيره المؤمنين بالجنة، قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[(٢)]، فالترغيب يجعل العبد يتوق إلى ما أعده الله للطائعين، فيزداد طاعة وتقوى، كما أنه يورث الصبر على المكاره في الدنيا، رجاء أن يعوض عنه بالنعيم المقيم في الآخرة، ويولد الأمل ويبعث على النشاط والعمل للآخرة[(٣)].

إن الترغيب يورث في قلب الإنسان الرجاء وحسن الظن بالله تعالى، والإقبال على الأعمال الصالحات والإعراض عن الطالحات، فالرجاء حاد يحدو القلوب إلى بلاد المحبوب، ويطيّب السير إلى العزيز القدير، إنه استبشار بجود الرب، وطمع في كرم الكريم وأمل في رحمة الرحيم، وثقة في فضل العظيم، ونظر إلى سعة الرحمة، وجميل العفو، والامتنان بالغفران، والتعلق بالمحسن المتفضل، ولولا روح الرجاء لعُطلت عبودية القلب والجوارح، وهدمت صوامع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرًا. لولا روح الرجاء ما تحركت الجوارح بالطاعة، ولا ترنمت الألسنة بالدعاء، ولا فاضت القلوب بالثناء.

إن من الواجب على العالم في علمه، والمربي في تربيته، والواعظ في وعظه أن يجمع بين الأمرين، ويقرن بين الحسنيين، ويمزج بين الغرضين، فليس التخويف بمفرد في سبيل للعلاج، وأداة للتقويم، وطريقة للدعوة، بل قد يكون الرجاء أجمل، والترغيب أوقع، وإن المتأمل لكتاب الله تعالى ولسنة نبيه ﷺ يجد جانب الترغيب، ونصوص الرجاء أكثر عددًا وأجمل موقعًا، وألذ سماعًا، وأطرب استمتاعًا.

---

(١) قواعد الدعوة الإسلامية، د. الشريف حمدان راجح المهدي الهجاري ص ٤٤.

(٢) سورة البقرة، آية: ٢٥.

(٣) انظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد ٢١٥٦/٦.

والرجاء ليس له قيمة ولا تبدو له فائدة، ولا تنال منه ثمرة إن لم يكن مصحوبًا بالعمل، مقرونًا بالطاعة ممزوجًا بالعطاء، فليس معنى الرجاء أن ينغمس المرء في الذنوب ويتقاعس عن الطاعة، ويتنكر للعبادة، ويفرط في الحقوق، ويضيع الواجبات، ثم يرجو النجاة من النار والفوز بالجنة، بل هو يعمل ويرجو، ويجتهد ويطمع، ويبذل ويرغب، وهو معترف بتقصيره مقرٌ بذنوبه، مؤمل في نيل غفران ربه.

وإذا تأملت الآيات القرآنية أدركت هذه الحقيقة، وآمنت بهذا المبدأ:

انظر إلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢١٨﴾ ﴾[1].

وانظر إلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرْجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ ﴾[2].

وانظر إلى قوله تعالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحْذَرُ ٱلْأٓخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[3].

فهؤلاء الذين تعلقوا بالرجاء وطمعوا في العطاء كانت لهم مؤهلات ولديهم أسباب[4]، أهمها شفاعة الرجاء بالعمل الصالح.

رابعًا- من مهام الداعية: بعث الأمل في نفوس المدعوين:

إن بعث الأمل في نفوس المدعوين، وزرع الرجاء في نفوسهم إلى الأفضل من أهم صفات الداعية، وفي هذا الحديث تبرز تلك الصفة من خلال بعث الأمل في نفوس المدعوين، وطمأنتهم بأن باب التوبة مفتوح، حيث ورد في الحديث: (لله أفرح بتوبة عبده

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢١٨.

(٢) سورة فاطر، الآيتان: ٢٩ - ٣٠.

(٣) سورة الزمر، آية: ٩.

(٤) انظر: كتاب الله أهل الثناء وال د، د. ناصر بن مسفر الزهراني ص ٦٦٣ - ٦٦٥.

من أحدكم سقط على بعيره وقد أضله في فلاة) فإذا ما علم الإنسان سعة رحمة ربه عز وجل وقبول توبته وتكفير سيئاته وغفران ذنوبه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ﴾(١)، وتبديل سيئاته حسنات: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾(٢)، فإن ذلك وغيره مما يفتح للعباد باب الأمل والرجاء في رحمة الله تعالى، فتعلو همتهم عن دناءة المعصية إلى شرف الطاعة والتقرب إلى الله، والإقلاع عن مستوى المعصية، والصعود إلى علو الطاعة وشرف التقرب إلى الله.

خامسًا- من موضوعات الدعوة: إثبات صفة الفرح لله عز وجل:

ورد إثبات صفة الفرح لله عز وجل في قوله ﷺ (لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم...) قال ابن أبي العز الحنفي: "ما أثبته الله ورسوله أثبتناه، وما نفاه الله ورسوله نفيناه"(٣)، فالواجب إثبات أسمائه سبحانه وتعالى وصفاته واعتقاد ما تدل عليه من صفات كماله ونعوت جلاله من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل على حد قوله سبحانه: ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾(٤)(٥).

وقال ابن تيمية: (وفي هذا الحديث إثبات صفة الفرح لله عز وجل، والكلام فيه كالكلام في غيره من الصفات: أنه صفة حقيقة لله عز وجل، على ما يليق به، وهو من صفات الفعل التابعة لمشيئته تعالى وقدرته)(٦).

---

(١) سورة التحريم، آية: ٨.

(٢) سورة الفرقان آية: ٧٠.

(٣) شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز الحنفي، تحقيق: جماعة من العلماء ص ٢١٨.

(٤) سورة الشورى، آية: ١١.

(٥) الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد، والرد على أهل الشرك والإلحاد، د. صالح بن فوزان بن عبدالله الفوزان ص ١٦٦.

(٦) شرح العقيدة الواسطية، ابن تيمية ص ٢٠٠.

الحديث رقم (١٦)

١٦- وعن أبي مُوسى عَبْدِ اللَّهِ بنِ قَيْسٍ الأَشْعَرِيِّ ﷺ، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**إن الله تعالى يبْسُطُ يدهُ بالليْلِ ليتُوب مُسيءُ النَّهارِ وَيبْسُطُ يَدهُ بالنَّهارِ ليَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ حتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِن مغْرِبِها**» رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

أبو موسى الأشعري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٨).

الشرح الأدبي

إن المصطفى ﷺ الذي أرسله ربه رحمة للعالمين، ووصفه بأنه: ﴿رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[2]. إنه يقدم مشهدا جليلاً مهيبًا من مشاهد قبول توبة التائبين وفرح الله عز وجل بعباده المذنبين الذين استجابوا لنداء الله عز وجل: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[3].

إن هذا المشهد الجليل المرتبط بعزة الله وجلاله وقدرته وكماله يتجلى في فتح باب التوبة في كل زمان وفي كل مكان ليلاً ونهارًا، صبحًا ومساءً، فالمسيئون ليلاً الذين ارتكبوا المعاصي في الخفاء ظنًا بأن الله يخفي عليه ذلك وهم يجهلون بأن الله يعلم السر وأخفى، هؤلاء الغافلون حينما يستيقظون ويستجيبون لهواتف الطاعة وإشراقات التوبة، يتوب الله عليهم، وهذه التوبة تكون في العلن، ويشهدها الجميع وكأن الإشارة إلى الزمن هنا... إيحاء بأن هؤلاء الذين أوغلوا في كتمان معاصيهم يصبحون وقد تاب الله عليهم منخرطين في سلك المؤمنين، لا يخافون لومة لائم، ولا يخشون ضعفًا أمام

(١) برقم (٢٧٥٩/٣١). أورده المنذري في ترغيبه (٤٥٨٧).

(٢) سورة التوبة، آية: ١٢٨.

(٣) سورة النور، آية: ٣١.

إغراءات الحياة، وكذلك الذين جاهروا بالمعاصي نهارًا وتجرأوا على حرمات الله عز وجل حين يعودون إلى حديقة الطاعة، وينعمون بعفو الله عز وجل ويتوب الله عليهم، ولا يفضحهم أمام الخلائق، بل يبدل سيئاتهم حسنات؛ وينصر بهم الإسلام بعد أن يفيئوا إلى ظلاله وينعموا ببهائه وجلاله.

إن هذا الكرم الإلهي، والفيض الرباني يقدمه رسول الله ﷺ في هذا الأسلوب البياني المشوق، ويبدأ بصيغة التوكيد المقترنة بلفظ الجلالة وصفة العزة والجلال في قوله: "إن الله عز وجل" ثم يأتي إنعام الله في قوله: "يبسط يده" وهذا البسط من علامات الجود والتنزه عن المنع، ومن أمارات رحمة الله، وكثرة تجاوزه عن الذنوب وجاء فعل البسط في صيغة "المضارع" دلالة على الاستمرار وعدم الانقطاع وكذلك الفعل "يتوب" في صيغته الآنية والمستقبلية يرشد إلى أن باب التوبة مفتوح لا يغلق في أي لحظة، والجمع بين الليل والنهار في قبول التوبة فيه اطمئنان لكل من تحدثه نفسه بالرجوع إلى الله عز وجل طيلة الدهر ليلاً ونهارًا، وقيل في تفسير سر هذه المقابلة في الموقف وذلك الطباق في الألفاظ إن الله عز وجل يوسع جوده وفضله على العصاة بالليل ليلهموا التوبة بالنهار، وعلى العصاة بالنهار ليلهموا التوبة بالليل، وفي ذلك إرشاد إلى عدم الإصرار على المعصية يومًا واحدًا، حتى يكون العاصي حريصًا على قطع أسباب العصيان، وحريصًا على مجابهة ومخاصمة مسالك الشيطان.

ولنتأمل اتساع مجال التوبة في الزمان والمكان الذي تفيده "حتى" في قوله: "حتى تطلع الشمس من مغربها" وحتى تفيد الغاية حيث سيظل باب التوبة مفتوحًا، ويظل كرم الله وبسط يده ليلاً ونهارًا مادام للحياة أنفاس، وللمعصية وسواس وللطاعة أقباس وللإيمان حراس؛ وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: "من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه"[1]، وعن صفوان بن عسال: عن النبي ﷺ قال: ((إن الله عز وجل جعل بالمغرب بابا مسيرة عرضه سبعون عامًا للتوبة لا يغلق ما لم تطلع

---

(١) أخرجه مسلم ٢٧٠٣.

الشمس من قِبله وذلك قول الله عز وجل: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا﴾[١]))[٢] وفي المسند عن عبدالرحمن بن عوف وعبدالله بن عمرو ومعاوية عن النبي ﷺ قال: ((لا تزال التوبة مقبولة حتى تطلع الشمس من المغرب فإذا طلعت طبع على كل قلب بما فيه وكفى الناس العمل))[٣].

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: بيان سعة رحمة الله وفضله على عباده.

ثانيًا: من أساليب الدعوة: الترغيب.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: بيان فتح الله لأبواب التوبة إلى أن تطلع الشمس من مغربها.

رابعًا: من مهام الداعية: عدم تقنيط الناس من رحمة الله عز وجل.

أولاً- من موضوعات الدعوة: بيان سعة رحمة الله وفضله على عباده:

جاء في الحديث بيان للون من ألوان رحمة الله عز وجل وكرمه وأنه تعالى يقبل التوبة حتى وإن تأخرت، فإذا أذنب الإنسان ذنبًا في النهار فإن الله تعالى يقبل توبته ولوتاب في الليل، وكذلك إذا أذنب في الليل وتاب في النهار فإن الله يقبل توبته بل إن الله يبسط يده حتى يتلقى هذه التوبة التي تصدر من عبده المؤمن[٤] فهو سبحانه كما قال عن نفسه ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾[٥] وقال ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾[٦] وقال ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾[٧]. أي: كل من تاب إليَّ تبت عليه من أي ذنب كان[٨].

---

(١) سورة الأنعام، آية: ١٥٨.

(٢) أخرجه أحمد ٢٤١/٤، رقم ١٨١٠٠، وقال محققو المسند: إسناده حسن.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، ١٩٢/١، رقم: ١٦٧١، وقال محققو المسند: إسناده حسن.

(٤) المرجع السابق ٥٣/١.

(٥) سورة الأعراف، آية: ١٥٦.

(٦) سورة غافر، آية: ٣.

(٧) سورة طه، آية: ٨٢.

(٨) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٣٠٨/٥.

فهو سبحانه غفار كثير الغفران لمن تاب عمن كان فيه من كفر أو شرك أو معصية أو نفاق وعمل صالحًا بجوارحه ثم اهتدى، أي: استقام وثبت على الهدى المذكور، وهو التوبة والإيمان والعمل الصالح، ونحوه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾[1]، وفي الآية ترغيب لمن وقع في وهدة الطغيان ببيان المخرج منه كي لا ييأس[2].

ثانيًا- من أساليب الدعوة: الترغيب:

جاء الترغيب في الحديث في دعوة من وقع في معصية بالتوبة إلى الله، والوعد بقبول الله لتوبته وهذا في قوله ﷺ "إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها" والترغيب من الأساليب الدعوية المفيدة التي تحمل الناس على التوبة والتشمير عن ساعد الجد في طاعة الله تعالى لنيل السعادة في الدنيا والآخرة[3]. ولقد حفلت آي الذكر الحكيم، ووردت الأحاديث بالترغيب في رضا الله والجنة والفوز بالنعيم الأبدي المقيم، وبيان ما أعده الله للمتقين، قال تعالى: ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾[4] ترغيبًا للمؤمنين وحثًا لهم على الطاعات وتحمل مشاق العبادة، ذلك أن الإنسان إذا علم أن الله قد أعد له دارًا فيها كل ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين (ورضوان الله أكبر) تولدت عنده الرغبة الصادقة في أن يكون من أهل هذه الجنة وسعى لها سعيها فكان من عباد الله الأوابين المنيبين الذين ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾[5])[6].

---

(١) سورة الأحقاف، آية: ١٣.

(٢) محاسن التأويل، جمال الدين القاسمي، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي ١٨٣/١١/٧.

(٣) انظر: هداية المرشدين إلى طرق الوعظ والخطابة، علي محفوظ، دار الاعتصام ص ١٩٢.

(٤) سورة النبأ، آية: ٣٦.

(٥) سورة السجدة، آية: ١٦.

(٦) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد ٢١٢٧/٦.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: بيان فتح الله لأبواب التوبة إلى أن تطلع الشمس من مغربها:

إن من فضل الله على عباده أن فتح لهم باب التوبة، إلى طلوع الشمس من مغربها إيذانًا بقيام الساعة كما نص على ذلك الحديث "إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها" فهو سبحانه يوسع جوده وفضله على العصاة بالليل لِيُلْهَموا التوبة بالنهار، وبالنهار لِيُلْهَموا التوبة بالليل، فسبق ذلك الكرم والجود علة للتوبة ما دام بابها مفتوحًا[1] فماعلى الإنسان إلا أن يتوب فإن تاب قبله الله ولم يمنعه رفده، وعن أبي هريرة ﵁ قال قال رسول الله ﷺ: ((مَنْ تَابَ قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا، تَابَ اللّهُ عَلَيْهِ))[2]، قال العلماء: (هذا حد لقبول التوبة، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾[3])[4].

رابعًا- من مهام الداعية: عدم تقنيط الناس من رحمة الله عز وجل:

إن أهم ما يجب أن يتصف به الداعية بيان سعة رحمة الله وعدم تيئيس الناس من رحمة الله، وليقتدي في ذلك برسول الله ﷺ الذي بيّن لنا سعة رحمة الله في الحديث قائلاً: "إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها" فإن رحمة الله وسعت كل شيء قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾[5].

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ٦٢.

(٢) أخرجه مسلم ٢٧٠٣.

(٣) سورة الأنعام، آية: ١٥٨.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٥٩٢.

(٥) سورة الأعراف، آية: ١٥٦.

وقد ذم الله اليأس وأهله فقال: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾[(١)] وقال على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾[(٢)] ونهانا الله عن القنوط من رحمته في كثير من النصوص القرآنية منها: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[(٣)].

فهذه الآية الكريمة وما شابهها دعوة لجميع العصاة، من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة وإخبار بأن الله يغفر الذنوب جميعًا لمن تاب منها ورجع عنها، وإن كانت مهما كانت وإن كثرت وكانت مثل زبد البحر، ولا يصح حمل هذه الآية على غير توبة لأن الشرك لا يغفر لمن لم يتب منه وفي سبب نزول هذه الآية: عن ابن عباس رضي الله عنهما: ((أنَّ ناسًا من أهل الشِّركِ كانوا قد قتلوا وأكثروا، وزنوا وأكثروا، فأتَوا محمدًا صلى الله عليه وسلم فقالوا: إنَّ الذي تقولُ وتَدعو إليه لَحَسن، لو تُخبِرُنا أنَّ لما عملنا كفَّارةً. فنزل ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾[(٤)]، ونزل قوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[(٥)]))[(٦)].

فهذه الآيات وغيرها دالة على مغفرة الله لمن تاب، فلا يقنط عبد من رحمة الله وإن عظمت ذنوبه وكثرت، فإن باب التوبة والرحمة واسع.

---

(١) سورة يوسف، آية: ٨٧.

(٢) سورة الحجر، آية: ٥٦.

(٣) سورة الزمر، آية: ٥٣.

(٤) سورة الفرقان، آية: ٦٨.

(٥) سورة الزمر، آية: ٥٣.

(٦) أخرجه البخاري ٤٨١٠، ومسلم ١٢٢.

قال الله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾[٢]، وقال تعالى في حق المنافقين: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ ﴾[٣]، وقال: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[٤]، ثم قال: ﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[٥]، وقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ ﴾[٦].

قال الحسن البصري: انظر إلى هذا الكرم والجود، قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة! والآيات في هذا كثيرة جدًا[٧].

---

(١) سورة التوبة، آية: ١٠٤.

(٢) سورة النساء، آية: ١١٠.

(٣) سورة النساء، الآيتان: ١٤٥ - ١٤٦.

(٤) سورة المائدة، آية: ٧٣.

(٥) سورة المائدة، آية: ٧٤.

(٦) سورة البروج، آية: ١٠.

(٧) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٧/١٠٧.

الحديث رقم (١٧)

١٧- وعَـنْ أبـي هُرَيْـرةَ ﵁ قـال: قـال رسـول الله ﷺ: «**مَـنْ تـاب قَبْـلَ أنْ تطلُـعَ الشَّمْسُ مِنْ مغْرِبِهَا، تَابَ الله علَيْه**» رواه مسلم(١).

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

الشرح الأدبي

إن الإنسان في سيرته الحياتية يظل في صراع بين رغباته وواجباته، ويظل مؤرجحًا بين السلوك الملتزم بالتعاليم الشرعية، والرغبة الجامحة في تحقيق أمانيه الدنيوية؛ وتلك طبيعة النفس الإنسانية في استقبالها لمتقلبات الحياة وإغراءاتها، والاستقرار لا يناله إلا صاحب الإرادة القوية، والنزعة الوجدانية الإيمانية، وفي سورة الشمس تتوهج هذه الحقيقة التي تعلن عن فوز المؤمن الذي انتصر على نفسه، وأما من استسلم لأهوائه فمآله الخسران المبين.

يقول الله عز وجل: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾(٢).

والتوبة: واجبة من كل ذنب ووجوبها مجمع عليه: لا فرق بين الصغائر والكبائر وغير ذلك من أنواع الذنوب.

والتوبة النصوح من أعظم دلائل الانتصار على النفس وهى تفتح آفاق الرجاء والأمل أمام كل من أسرف على نفسه، فهو لا يقنط من رحمة الله وهذا الرجاء لا يخبو ضياؤه، ولا ينطفئ بهاؤه، وهذا الحديث الشريف يقدم هذا الرجاء في صيغة "الشرط والجزاء" فالجزاء من جنس العمل، فالتوبة تظل ممتدة أمام أى إنسان حتى يأذن الحق سبحانه وتعالى.

---

(١) برقم (٢٧٠٣/٤٣). أورده المنذري في ترغيبه (٤٥٨٨).

(٢) سورة الشمس ٧- ١٠.

ولنتأمل بلاغة الإيجاز في هذا النص النبوي الشريف، حيث يدخل الملايين من البشر إلى أن تقوم الساعة في دائرة أداة الشرط "من" وهى تتكون من حرفين، ولكنها تضم في دائرتها الكبرى التي تتسع باتساع الزمن واتساع الأماكن، وعبر توالي الأجيال، فكل من يقبل على ربه تائبًا قبل أن يغلق باب التوبة بطلوع الشمس من مغربها يقبل الله توبته.

ولكن كما قال العلماء للتوبة المقبولة شروط حسب نوع المعصية فإن كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى: لا تتعلق بحق آدمي فلها ثلاثة شروط: وهي: الإقلاع عن المعصية، والندم على فعلها، والعزم على أن لا يعود المذنب إلى المعصية أبدًا.

وحتى لا تضيع حقوق العباد يضاف شرط رابع إذا كانت المعصية تتعلق بآدمي: وهو أن يبرأ المذنب من حق صاحب الذنب: أي الذي ارتكب في حقه ذلك الذنب، ويجب على من ظلم إنسانًا أو اغتصب ماله أو ألحق به الأذى يجب عليه أن يعيد الحقوق إلى أصحابها في صورة ملائمة مناسبة لا تؤدي إلى فتنة أو تجديد العداء، وإثارة الشحناء، وهذه الشروط التي يجب على التائب تنفيذها حتى تقبل توبته لا يجني ثمرتها التائب فقط ولكنها لها الأثر الحميد في السلوك الاجتماعي وفي إصلاح أحوال المجتمع، وفي تماسك بنيان الأمة بكل طوائفها؛ لأن خير الخطائين التوابون، وإذا حرص كل إنسان على التوبة النصوح بكل ما تحمل من سمات الإخلاص فإن عاطفة المحبة ستسود بين كل أبناء الأمة، وميزان التسامح سيكون هو الإيقاع الخلقي الساري في أقوال الناس وأفعالهم، وآمالهم، وأحلامهم وهم في ظل هذا السلوك الإيماني يتضرعون إلى الله عز وجل ويدعونه في صدق ويقين: ﴿رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾[1].

(١) سورة آل عمران ١٩٣-١٩٤.

المضامين الدعوية[١]

أولاً: من موضوعات الدعوة: الحث على المسارعة في التوبة والإنابة إلى الله تعالى.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: بيان فضل الله على عباده.

ثالثًا: من أساليب الدعوة: الترغيب.

رابعًا: من مهام الداعية: إرشاد المدعوين وبيان الحقائق.

أولاً- من موضوعات الدعوة: الحث على المسارعة في التوبة والإنابة إلى الله تعالى:

إن مما رغب الشرع فيه: الحث على المسارعة في التوبة والإنابة إلى الله لأن الإنسان لا يدري متى ينقضي أجله، لذا وجبت المسارعة والتوبة، ويظهر ذلك من قوله ﷺ "من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه" وقوله "إن الله عز وجل يقبل توبة العبد ما لم يغرغر" من الغرغرة أي ما لم تبلغ الروح إلى الحلقوم يعني ما لم يتيقن بالموت[٢].

قال القرطبي: (يعني: أن التوبة تصح وتُقبل دائمًا إلى الوقت الذي تطلع فيه الشمس من حيث تغرب، فإذا كان ذلك طبع على كلِّ قلب بما فيه، ولم تنفع توبة أحد، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾[٣]، وسر ذلك وسببه: أن ذلك هو أول قيام الساعة؛ فإذا شوهد ذلك، وعوين الإيمان الضروري، وارتفع الإيمان بالغيب الذي هو المكلف به)[٤].

وقال النووي: (قال العلماء في الحديث بيان لحدّ قبول التوبة، وذلك يضيف للتوبة شرطًا آخر وهو: أن يتوب العبد قبل الغرغرة، وأما في حالة الغرغرة وهي حالة النزع فلا تقبل توبته ولا غيرها ولا تنفذ وصيته ولا غيرها)[٥].

---

(١) تم د المضامين الدعوية لهذا الحديث -١٧- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (١٨).

(٢) تحفة الأحوذي، المباركفوري، ٢/٢٤٩٧.

(٣) سورة الأنعام، آية: ١٥٨.

(٤) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم ١٠٥/٧.

(٥) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٥٩٣.

لذا ينبغي على الإنسان الإسراع بالتوبة قبل معاينة الموت وتيقنه فإن التوبة ساعتها لا يعتد بها وكما قال تعالى: ﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾[1] ففي الآية تنبيه على نفي القبول عن نوع من التوبة وهي التي تكون عند اليأس من الحياة، لأن المقصد من العزم ترتب آثاره عليه وصلاح الحال في هذه الدار بالاستقامة الشرعية، فإذا وقع اليأس من الحياة ذهبت فائدة التوبة[2].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: بيان فضل الله تعالى على عباده:

إن من فضل الله على عباده أن فتح لهم باب التوبة، ولا يأذن له بالانغلاق إلا عند طلوع الشمس من مغربها وعند وصول الروح إلى الحلقوم وتيقن الموت "من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه" فإذا طلعت الشمس من مغربها أغلق باب التوبة وهذا معنى قول الله عز وجل ﴿ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَـٰنِهَا خَيْرًا ۗ ﴾[3] أي ولا يقبل منها كسب عمل صالح إذا لم يكن عاملاً به قبل ذلك[4].

لذا ينبغي التعجيل والمبادرة إلى التوبة، كما أمر الله بالمسارعة في ذلك فقال تعالى: ﴿ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[5].

---

(١) سورة النساء، آية: ١٨.

(٢) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، ٢/٤/٢٨١.

(٣) سورة الأنعام، آية: ١٥٨.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٣/٣٧٦.

(٥) سورة آل عمران، الآيات: ١٣٣-١٣٥.

أي: سارعوا إلى ما يؤدى إليهما من الاستغفار والتوبة والأعمال الصالحة[١]، فذلك أمر بالمسارعة إلى مغفرته وإدراك جنته التي عرضها السماوات والأرض فكيف بطولها التي أعدها الله للمتقين فهم أهلها وأعمال التقوى هي الموصلة إليها[٢].

ثالثًا- من أساليب الدعوة: الترغيب:

لقد رغّب رسول الله ﷺ في هذا الحديث ببيان قبول الله لتوبة العبد ما لم يغرغر أو تطلع الشمس من مغربها فقال: "من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه" وقال "إن الله عز وجل يقبل توبة العبد ما لم يغرغر" والترغيب من الأساليب الدعوية النافعة المفيدة، وله تأثيره في نفوس كثير من البشر، فإن الإنسان جبل على حب الخير والرغبة في الحصول على كل محبوب، فغريزة حب الإنسان لنفسه تدفعه إلى أن يحقق كل خير لنفسه سواء كان ذلك عاجلاً أو آجلاً[٣]، لذا وجدنا القرآن يرغب في الخير ويبشر بحسن المثوبة، ويرهب من الشر ويتوعّدُ المخالفين المتعدين لحدوده ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[٤].

رابعًا- من مهام الداعية: إرشاد المدعوين وبيان الحقائق:

إن من أهم مهام الداعية: إرشاد المدعوين إلى ما ينفعهم، وبيان الحقائق لهم حتى يكونوا على بينة من أمرهم وأن يأخذوا حذرهم ولا يردوا أنفسهم موارد التهلكة وفي الحديث نجد أن الرسول ﷺ أرشد الناس إلى التوبة وبين لهم حقيقة قبولها وأن ذلك ليس على إطلاقه وإنما قبول التوبة مقيد بعدم طلوع الشمس من مغربها، وعدم صعود

---

(١) محاسن التأويل، جمال الدين القاسمي، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي ٢/٤/٢٢٨ - ٢٢٩.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ١١٥ - ١١٦.

(٣) الحكمة في الدعوة إلى الله تعالى، سعيد بن علي بن وهف القحطاني ص ٤٨٦.

(٤) سورة الإسراء، الآيتان: ٩، ١٠.

الروح إلى الحلقوم[١] وقد ذكر القرآن الكريم لنا أنموذجًا من الدعاة من غير الأنبياء والمرسلين تحملوا أمانة إرشاد الناس وتبيين الحقائق لهم، فذكر لنا قصة مؤمن آل فرعون الذي حكى القرآن من كلامه لقومه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾[٢]. مما يؤكد على أن إرشاد المدعوين وبيان الحقائق لهم، والأخذ بأيديهم إلى سبل الهداية يُعد من المهام الأساسية للداعية.

---

(١) انظر: تحفة الأحوذي، المباركفوري، ٢/٢٤٩٧.

(٢) سورة غافر، آية: ٣٨.

الحديث رقم (١٨)

١٨- وعَنْ أبي عَبْدِ الرَّحْمن عَبْدِ اللَّهِ بن عُمرَ بن الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنهُمَا، عن النَّبيِّ صلّى اللّهُ عَلَيْهِ وسَلَّم قال: «إِنَّ الله عزَّ وجَلَّ يقْبَلُ توْبة العبْدِ مَا لَم يُغرْغرِ» رواه الترمذي وقال: حديث حسنٌ[1].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٢).

غريب الألفاظ:

ما لم يغرغر: أي: لم تبلغ روحه حلقومه فتكون بمنزلة الشيء الذي يتغرغر به المريض[2].

الشرح الأدبي

إن هذا الحديث الشريف يفتح أبواب الأمل والرجاء أمام كل الخلائق من البشر الذين ضلوا الطريق الصحيح، وحادوا عن المنهج السليم، وأوغلوا في اتباع أهوائهم، وغرقوا في التعصب لمذاهبهم ومناهجهم الفاسدة، وسلوكياتهم المنحرفة وممارساتهم الحياتية الضالة.

إن هذه الطوائف المتشعبة والممتدة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها لا نغلق في وجوههم أبواب القبول ومداخل التوبة، وفي كلمة واحدة ينطق بها رسول الله صلى الله عليه وسلم تتجمع كل هذه الوجوه التي تتعدد ثقافاتها، وتتباين اتجاهاتها وكلمة "العبد" تندرج في دلالتها كل الدلالات السابقة للجموع التي ضلت طريق الرشاد فكل بني آدم يدينون بالعبودية لله عز وجل لأنه خلقهم ورزقهم، وهو الذي يهيمن على كل أمورهم في حياتهم وأخراهم.

فتأمل أخي المسلم سر الجمال في حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم ومن منابع أسرار هذا الجمال الإيجاز والقصد والاستيفاء.

وصيغة الحديث تقدم في ثوب التوكيد والأداة "إن" في قوله عليه الصلاة والسلام

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٣٧) وقال: هذا حديثٌ حسنٌ غريب، وكذا في تحفة الأشراف (٥/٣٢٨، رقم ٦٦٧٤). وصحّحه ابن حبان (الإحسان ٦٢٨)، وقال الحاكم (٤/٢٥٧): هذا حديثٌ صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال الذهبي في السير (٥/١٦٠): هذا حديث عال صالح الإسناد. أورده المنذري في ترغيبه (٤٦٠٠).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (غ ر غ ر).

"إن الله عز وجل يقبل توبة العبد مالم يغرغر".

وهذا التأكيد يطمئن كل من تبرق في نفسه أشعة التوبة والرجوع إلى الطريق الصحيح طريق الهداية والرشاد والفعل "يقبل" بدلالته الزمنية يجعل هذا القبول مستمرًا وغير محدود بزمان أو مكان: فالفعل المضارع من خصائصه الوقوع في الحال والاستقبال، فقبول التوبة عام وشامل إذا التزم العبد بشروط التوبة النصوح ولابد أن تكون التوبة قبل لحظة الاحتضار التي عبر عنها رسول الله ﷺ بقوله: "مالم يغرغر" أي: تصل روحه حلقومه؛ وهذا الفعل مأخوذ من الغرغرة: وهي جعل الشراب في الفم والغرغرة كلمة فصيحة ولكنها تجرى على ألسنة العامة وكأنها كلمة عامية.

ويمكن أن يكون هذا اليسر الواضح في هذه الكلمة والذي كنى به رسول الله ﷺ عن لحظة الموت وساعة خروج الروح يمكن أن يكون هذا الشيوع للكلمة تذكيرًا بهذه اللحظة الفارقة حتى يستعد كل الناس لها.

وفي القرآن الكريم تحديد لهذه القضية، وحسم لهذا الأمر، وتوضيح للمعنى المراد في الحديث الشريف: حيث يقول الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١٧ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[١].

والله يحب التوابين، ويحب المتطهرين، ويرغب رسول الله ﷺ في التوبة والاستغفار: حيث يروى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: ((والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله تعالى بكم، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله تعالى فيغفر لهم))[٢]. فاللهم اغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار.

المضامين الدعوية[٣]

---

(١) سورة النساء، الآيتان: ١٧، ١٨.

(٢) أخرجه مسلم ٢٧٤٩.

(٣) تم د ها مع مضامين الحديث السابق.

الحديث رقم (١٩)

١٩- وعَنْ زِرِّ بْنِ حُبَيْشٍ، قَالَ: أَتيْتُ صفوانَ بْنِ عسَّالٍ رضي الله عنه أَسْأَلُهُ عن الْمَسْحِ عَلَى الْخُفَّيْنِ فقال: مَا جَاءَ بِكَ يَا زِرُّ؟ فقُلْتُ: ابْتغَاءُ الْعِلْمِ، فقَال: إِنَّ الْملائِكَةَ تَضَعُ أَجْنِحتِها لِطَالِبِ الْعِلْمِ رِضًا بمَا يَطلُبُ، فَقلْتُ: إِنَّه قدْ[1] حَكَّ في صدْرِي الْمسْحُ عَلَى الْخُفَّيْنِ بَعْدَ الْغَائِطِ والْبوْلِ، وكُنْتَ امْرَءًا مِنْ أَصْحاب النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، فَجِئْت أَسْأَلُكَ: هَلْ سمِعْتَهُ يذْكرُ في ذَلِكَ شيْئًا؟ قال: نعَمْ. ((**كانَ يأْمُرنا إذا كُنا سَفْرًا أوْ مُسافِرينَ: أَن لا ننْزِعَ خفافَنا ثلاثة أيَّامٍ ولَيَالِيهنَّ إلاَّ مِنْ جنَابةٍ، ولكِنْ مِنْ غائطٍ وبَوْلٍ ونَوْمٍ**)).

فقُلْتُ: هَل سمِعتَهُ يذكُر في الْهوى شيْئًا؟ قال: نعمْ. كُنَّا مَع رسول اللهِ[2] صلى الله عليه وسلم في سفرٍ، فبيْنا نحنُ عِنْدهُ إِذ نَاداهُ أَعْرابي بصوْتٍ له جهوريٍّ: يا مُحمَّدُ، فأَجَابهُ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم نحْوا مِنْ صَوْتِه: «هاؤُمْ» فقُلْتُ[3] لهُ: وَيْحَكَ اغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ فإِنَّك عِنْد النَّبِيِّ صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلَّم وقدْ نُهيت عَنْ هذا، فقال: واللّه لا أَغْضُضُ: قَالَ الأَعْرابيُّ: الْمَرْءُ يُحِبُّ الْقَوم ولَمَّا يلْحق بهِمْ؟ قال النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «**الْمرْءُ مع منْ أَحَبَّ يَوْمَ الْقِيامةِ**» فما زَالَ يُحدِّثُنَا حتَّى ذكر بابًا مِنْ[4] الْمَغْرب مَسيرةُ[5] عرْضِه أوْ يسِير الرَّاكِبُ في عرْضِهِ أَرْبَعِينَ أَوْ سَبْعِينَ عَامًا.

قَالَ سُفْيانُ (أَحدُ الرُّوَاةِ)[6]: قِبَلَ الشَّامِ خلقَهُ اللَّهُ تعالى يوْم خلق السموات والأَرْضَ مفْتوحًا[7] لِلتَّوبة لا يُغلقُ حتَّى تَطلُعَ الشَّمْسُ مِنْهُ» رواه التِّرمذي وغيره وقال: حديث حسن صحيح[8].

---

(١) (قد) لا توجد عند الترمذي.

(٢) لفظ الترمذي: (النبي).

(٣) لفظ الترمذي: (وقلنا له).

(٤) عند الترمذي زيادة: (قِبَل).

(٥) عند الترمذي زيادة: (سبعين عامًا).

(٦) هذا التفسير من المؤلف.

(٧) عند الترمذي زيادة: (يعني).

(٨) أخرجه الترمذي (٣٥٣٥). قال ابن عبد البر في جامع بيان العلم (١٥٩/١): حديث صفوان هذا وقفه قومٌ عن عاصم، ورفعه عنه آخرون، وهو حديث صحيحٌ حسنٌ ثابتٌ محفوظٌ مرفوعٌ، ومثله لا يقال بالرأي.

ترجمة الراوي:

صفوان بن عسال: صحابي مشهور، علم من أعلام الصحابة، وهو صفوان بن عسال من بني زاهر بن عامر المراديّ، عرف بالصحبة والرواية عن رسول الله ﷺ وهو ممن سكن الكوفة وكان رضي الله عنه حريصًا على الجهاد في سبيل الله إعلاءً لكلمة الحق والدين، وبلغت غزواته مع رسول الله ﷺ اثنتي عشرة غزوة، وحدَّث بذلك عن نفسه فقال ((غزوت مع رسول الله ﷺ اثنتي عشرة غزوة))[1].

كما كان حريصًا شغوفًا بطلب العلم، والاستزادة منه، وفرح به رسول الله ﷺ وأثنى عليه، وبين له فضل العلم والعلماء فجاء في الطبراني عنه أنه قال: أتيت النبي ﷺ وهو متكئ على بُرْدٍ له، فقلت له: يا رسول الله إني جئت أطلب العلم، فقال: مرحبًا بطالب العلم، طالب العلم تحفه الملائكة وتظله بأجنحتها ثم يركب بعضه بعضًا حتى يبلغوا السماء الدنيا من حبهم لما يطلب))[2].

توفي رضي الله عنه في حدود الأربعين للهجرة[3].

غريب الألفاظ:

حكّ في صدري: لم أكن منشرح الصدر وداخلني منه شيء من الشك والريبة في قلبي[4].

صوت جَهْوري: شديد عالٍ[5].

---

(١) أخرجه أحمد ٢٣٩/٤ رقم ١٨٠٩٠، وقال محققو المسند: إسناده حسن، ١٠/٣٠.

(٢) الطبراني في الكبير ٥٤/٨ رقم ٧٣٤٧، وقال الهيثمي في مع الزوائد ١٣١/١: رجاله رجال الصحيح.

(٣) الطبقات، ابن سعد ٢٧/٦ والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ٣٤٤، ٣٤٥، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير ٢٨/٣، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني ٦١٢، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي ٤٦٠/٣، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني ٢١٣/٢، وحاشية السندي ٩/٣٠، وعظماء حول الرسول ١٠٦٤/٢-١٠٦٥.

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ح ك ك).

(٥) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ج هـ ر)، وتحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري ٢٤٩٦/٢.

هاؤم: أي تعال أو خُذ[1].

ويحك: ويح: كلمة ترحم وتوجع تقال لمن وقع في هلكة لا يستحقها، وقد تقال بمعنى المدح والتعجب[2].

الشرح الأدبي

ما أجمل الحوار بين أبناء الأمة وما أعظم فائدته حين يكون بين المسلمين وغيرهم من أبناء الملل الأخرى ولقد أمر الله نبيه محمدًا ﷺ بذلك وأمر كل مسلم يحرص على نشر كلمة التوحيد وتعاليم الإسلام حيث يقول الله عز وجل: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾[3].

وفي هذا الحديث الشريف تتجلى قيمة الحوار في الإسلام وتظهر ثمرته النافعة في الإقناع والتعليم والتوجيه وبيان قيمة طلب العلم وحسن الصحبة وقيمة المودة والمحبة بين الناس والحرص على القدوة الحسنة والتآسي بسلوكها وقولها وشمائلها بصفة عامة.

وقد يستغرب القارئ من وضع هذا الحديث في "باب التوبة" وهو الحديث السابع في هذا الباب ويتساءل: لماذا وضعه الإمام أبو زكريا النووي في هذا السياق وأين الحض على التوبة؟ وأين الترغيب في الاستغفار.

وإذا تأملنا الحديث وتتبعنا الحوار الدائر بين زر بن حُبَيْش وهو تابعي وصفوان بن عسال رضي الله عنه وهو صحابي غزا مع رسول الله ﷺ اثنتي عشرة غزوة ندرك أن زر بن حُبَيْش من طلاب العلم وراغبي المعرفة ومن الحريصين على فقه الأمور كلها حيث يقول: قال لي أُبيّ ابن كعب "يازر ما تريد أن تدع آية إلا سألتني عنها".

إن الحوار في هذا الحديث الشريف يختم بقول رسول الله ﷺ "المرء مع من أحب يوم القيامة" ثم يتابع الراوي عناصر الحوار وهو يحكي عن النبي ﷺ ويحدث عنه:

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (هاؤم).

(٢) المرجع السابق في (و ي ح).

(٣) سورة النحل، آية: ١٢٥.

فيقول: "فما زال رسول الله ﷺ يحدثنا حتى ذكر بابًا من المغرب مسيرة عرضه أو يسير الراكب في عرضه أربعين أو سبعين عامًا".

ويقول سفيان أحد الرواة محددًا صلة هذا الحديث بباب التوبة ومجيبًا على ما ينشأ من تساؤل عند بعض الراغبين في المعرفة أو يزيل الشك من نفوس بعض المعاندين والمكابرين: يقول مستكملاً الرواية السابقة بعد قول الرسول عليه الصلاة والسلام أو سبعين عاما: ((قبل الشام خلقه الله تعالى يوم خلق السماوات والأرض مفتوحًا للتوبة لا يغلق حتى تطلع الشمس منه)).

فالحديث هنا يفتح باب الرجاء والتوبة أمام البشر أجمعين إلى قيام الساعة، وهذا المعنى في هذا الإطار الزمني ورد في الحديثين السابع عشر والثامن عشر فالحديث هنا ليس مقحمًا وليس غريبًا عن آفاق التوبة.

وهذا الحديث الشريف ليس فيه إيجاز وليس فيه إطناب وإنما صيغ في قالب بلاغي هو: المساواة، فالإجابة تأتي واضحة مقنعة للسائل ولا تترك في ذهنه بذرة من الحيرة أو الجهل أو الشك .

وقد قسم العلماء دلالة الألفاظ على المعاني ثلاثة أقسام:

أحدها: المساواة: وهو أن يكون المعنى مساويًا للفظ.

والثاني: التذييل: وهو أن يكون اللفظ زائدًا على المعنى وفاضلاً عنه.

والثالث: الإشارة: وهو أن يكون المعنى زائدًا على اللفظ أى أنه لفظ موجز يدل على معنى طويل على وجه الإشارة واللمحة[1].

وهذه المساواة بين المعاني والألفاظ في هذا الحديث الشريف تتجلى فيها عدة أمور يظهر الحديث قيمتها. وهى قيمة طلب العلم لما له من أثر نافع مفيد في تقوية الصلة بين العبد وربه وفي العمل على تقدم الأمة وأخذها بأسباب الحضارة والرقى وفي ضرورة معرفة الأحكام والحقوق والواجبات حتى يكون المسلم على بصيرة من دينه ومن الأحكام التي حرص السائل على معرفتها "حكم المسح على الخفين" وهو من أبواب

(١) انظر: سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجى ص ٢٠٧.

الفقه المعروفة ويعطي صورة واضحة مشرقة عن سماحة الإسلام وتيسيره في العبادات، وهذا التيسير من شأنه أن يلقي على المسلم عبء القيام بالواجبات وعدم التهاون في شأنها وعدم التقصير في أدائها؛ ومحبة رسول الله ﷺ من أدق صفات المؤمنين وهي ليست قولاً باللسان وإنما اقتداء وقيام بالأركان وشعور صادق ينبع من الجنان وثناء وصلاة وتسليم على المصطفى المُجتبي الذي أرسله ربه رحمة للعالمين وتأتي إجابة رسول الله ﷺ على من يحبه ويظن أنه سيظل بعيدًا عنه فيطمئنه المبعوث رحمة للعالمين بقوله: "المرء مع من أحب يوم القيامة"، وهذا الحب الخالص الذي يتوج حياة المؤمن تضيء معالمه في سورة آل عمران: بقول الله عز وجل: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

وحين نتأمل ما في الحديث من أسرار تعبيرية وجماليات أسلوبية نجد أن أسلوب النبي ﷺ في أحاديثه الشريفة يجمع بين خاصيتى: المساواة والإشادة وليست فيه ألفاظ زائدة على المعنى لأن الزيادة اللفظية تعد عيبًا من عيوب فصاحة اللسان العربي وخاصية الإيجاز تعد صدى مضيئًا وترجمانًا قوليًا صادقًا لقوله ﷺ أوتيت جوامع الكلم.

وخاصية المساواة في هذا الحديث الشريف تتمثل في حرص السائل على المعرفة وحرص المجيب على الإفادة والسؤال الأول الذي سأله زر بن حُبَيْش كان عن المسح على الخفين وأشاد صفوان بن عسال بهذا الحرص على المعرفة وقال مشيدًا بذلك في أسلوب التوكيد "إن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضًا بما يطلب" وأي تقدير أعظم من هذا التقدير، حيث تكف الملائكة أجنحتها عن الطيران وتنزل لسماع العلم وقال بعض العلماء إن هذا التعبير على سبيل الحقيقة وإن لم نشاهده عملاً بالقاعدة المشهورة "أن كل ما ورد وأمكن حمله على ظاهره حمل عليه ما لم يرد ما يصرفه عنه"[2].

وتتابع الحوار بين السائل والمجيب نلمسه في تتابع الأسلوب وتدفقه من خلال فاء العطف التي تفيد الترتيب والتعقيب. وهذه الجمل ترد على هذا النحو فقال – فقلت؛

---

(١) سورة آل عمران، آية: ٣١.

(٢) انظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ١/ ٩٠.

فقال؛ فقلت، فجئت، والأسلوب يكشف عن حيرة زر بن حُبَيْش حيث يقول مؤكدا إنه قد حك في صدري المسح على الخفين.. وجملة حك في صدري كناية عن الحيرة وعدم الاطمئنان وقوله: "وكنت أمرءًا من أصحاب النبي ﷺ" فيه تقدير للصحابة وهم كالنجوم في الهداية وفيه حرص على الدقة العلمية وتحرى الصواب في الأحكام والتعبير بالفعل "يأمرنا" يدل على وجوب هذا الأمر وقد توسع الفقهاء في هذا الباب كل حسب أدلته ومذهبه.

والسؤال عن الهوى: وهو الميل في قصد واعتدال إلى محبة الآخر فما بالنا إذا كان المحبوب هو رسول الله ﷺ، ويتجلى حلم رسول الله ﷺ في استجابته لنداء الأعرابي البدوي الذي يأبى أن يغض صوته، ويراعي رسول الله حالته في ضوء الحكمة التي منحها الله له ومراعاة لمقتضى حال الرجل الذي يحب رسول الله ويخشى أن لا يلحق به في الأعمال وطرق الكمال فيبشره الحبيب المصطفى ﷺ بقوله: "المرء مع من أحب يوم القيامة" وفي ذلك فضل محبة الله ورسوله ﷺ وقال أنس: "ما فرحنا بعد الإسلام فرحًا أشد مما فرحنا بقول النبي ﷺ: المرء مع من أحب" ويختم الحديث بفتح باب التوبة أمام الناس أجمعين إلى يوم القيامة وما أعظم البشارتين بشارة محبة رسول الله وبشارة القرب من الله عز وجل.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكمين فقهيين:

الأول: حكم طلب العلم، وقد ذكر الفقهاء[1] أن طلب العلم لمعرفة الحلال والحرام ومعرفة فروض الإسلام وكيفية أداء الصلاة والصيام وفرائض الإسلام فرض على كل مسلم ومسلمة ويحمل عليه حديث الرسول ﷺ في هذا الشأن ((طلب العلم

(١) أحكام القرآن للجصاص ٣/٢٣٤، والمبسوط، السرخسي ١/٢، ٣٠/٢٦٠، والفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم المالكي ٢/٢٧٢، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٤٩، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا بن محمد بن أحمد الأنصاري٤/١٨١، والآداب الشرعية، ابن مفلح ٢/٣٤.

فريضة على كل مسلم))[١]، أما طلب الأدلة والتفصيلات وتعليمها فهو فرض من فروض الكفايات متى قام به البعض سقط عن الباقين.

الثاني: حكم المسح على الخفين وشرائطه المعتبرة، وقد اتفق الفقهاء[٢] على مشروعية المسح على الخفين وأنه رخصة رخصها حديث رسول الله ﷺ المذكور هنا متى كان الماسح لابسًا للخف على طهارة، وقدنقل ابن المنذر الإجماع على مشروعيته، ولم يخالف في ذلك إلا ابن عباس فيما روي عنه وكذا قول للرافضة، واختلفوا في مدة المسح الجائزة فقيل: ثلاثة أيام بلياليهن للمسافر ويوم وليلة للمقيم، وهو ما عليه عامة أهل العلم، وقيل: سبعة أيام بلياليهن للمسافر وهو ما قال به بعض الصحابة وما نص عليه المالكية، وقيل: ليست له مدة وهو قول ضعيف عند البعض.

وشرط ذلك ألا تقوم جنابة بالماسح في هذه المدة فإن وقعت وجب خلع الخفين والاغتسال ثم اللبس ثانية مع جواز المسح في حدود المدة المذكورة.

المضامين الدعوية

أولاً: من واجبات المدعو: السؤال عما أشكل عليه.

ثانيًا: من أساليب الدعوة: السؤال والجواب.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: فضل طلب العلم.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: يسر الشريعة الإسلامية.

خامسًا: من صفات الداعية: بيان الحقائق للمدعو.

سادسًا: من صفات الداعية: التلطف مع المدعو.

سابعًا: من موضوعات الدعوة: الحرص على محبة المؤمنين الأتقياء.

---

(١) أخرجه ابن ماجه ٢٢٤، وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ١٨٣).

(٢) بدائع الصنائع، الكاساني ١/٨ وما بعدها، وتبيين الحقائق، الزيلعي ١/٤٥ وما بعدها، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ١/٣١٨ وما بعدها، وشرح منح الجليل على مختصر خليل، الشيخ محمد بن أحمد بن محمد عليش ١/١٣٤ وما بعدها، ومغني المحتاج ١/١٩٧ وما بعدها، ونهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، الرملي ١/١٩٨ وما بعدها، والمغني، ابن قدامة ١/١٤ وما بعدها، والفروع، ابن مفلح ١/١٥٨ وما بعدها.

أولاً- من واجبات المدعو: السؤال عما أشكل عليه:

إن مما يجب على المدعو: السؤال عما أشكل عليه، وما عنَّ له من القضايا والمسائل، ليعبد ربه على بصيرة، وذلك ما حمل زرٍّ بن حبيش أن يأتي صفوان بن عسّال يسأله فعن زر بن حبيش قال: أتيت صفوان بن عسال رضي الله عنه أسأله عن المسح على الخفين "وذكر له الدافع على هذاالسؤال بقوله "إنه قد حكَّ في صدري المسح على الخفين بعد الغائط والبول". وقد عتب النبي صلى الله عليه وسلم على قوم أفتوا بلا علم وبين أن شفاء الجهل السؤال، فعن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما قال: أصاب رجلاً جرح في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم احتلم، فأُمر بالاغتسال، فاغتسل، فمات، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ((قَتَلُوهُ قَتَلَهُمُ الله، أَلَمْ يَكُنْ شِفَاءُ الْعِيِّ السُّؤَالُ))[1] أي لِمَ لم يسألوا حين لم يعلموا لأن شفاء الجهل السؤال[2].

ثانيًا- من أساليب الدعوة: السؤال والجواب:

تكرر هذا الأسلوب في الحديث "فقلت أنه قد حكّ في صدري المسح على الخفين بعد الغائط والبول وكنت امرءًا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فجئت أسألك هل سمعته يذكر في ذلك شيئًا؟ قال: نعم كان يأمرنا إذا كنا سفرًا -أو مسافرين- ألا ننزع خفافنا ثلاثة أيام ولياليهن إلا من جنابة، لكن من غائط وبول ونوم" كما سأله "هل سمعته يذكر في الهوى شيئًا؟ ... الحديث" وأسلوب السؤال والجواب من الأساليب المفيدة في الدعوة إلى الله عز وجل وذلك لما فيه من إقبال المدعو على الدعوة واستفادة الداعي من ذلك في تبليغ دعوته، وفي نشر المعرفة وتثبيتها، وتناقلها بين الناس، بشرط أن تكون الإجابات واضحات جليات مفصلات لا غموض فيها ولا التباس، وأن يكون المجيب على علم مؤكد بالجواب الصحيح[3].

---

(١) أخرجه أبو داود ٣٣٦، وحسنه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٣٢٥).

(٢) عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم آبادي ص ١٨٦.

(٣) فقه الدعوة إلى الله، عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني، ٢/٦٢.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: فضل طلب العلم:

وقد ورد التصريح بفضل طلب العلم في الحديث فعندما سأل صفوان بن عسال زرَّ بن حبيش رضي الله عنهما ما جاء بك يا زرُّ؟ فقال: ابتغاء العلم، فقال: "إن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضىً بما يطلب" ووضع الملائكة أجنحتها لطالب العلم تواضعًا وتوقيرًا وإكرامًا لما يحمله من ميراث النبوة ويطلبه وهو يدل على المحبة والتعظيم، فمن محبة الملائكة له وتعظيمه تضع أجنحتها له، لأنه طالبٌ لما به حياةُ العالم ونجاتُه ففيه شَبَهٌ من الملائكة وبينه وبينهم تناسب[1].

وقد جاءت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية مبينة فضل العلم حاضّة عليه، ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[2] وقوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[3] وقوله: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[4] وقال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[5].

قال ابن القيم: (استشهد الله عز وجل بأهل العلم على أجلِّ مشهود به وهو التوحيد، وقرن شهادتهم وشهادة ملائكته، وفي ضمن ذلك تعديلهم، فإنه تعالى لا يستشهد بمجروح[6]، وهذا أعلى درجات تكريم العلم وأهله، أن يعتد الله بشهادة العلماء على أكبر حقيقة من الحقائق الإلهية وينزلها المنزلة التي تلي شهادة الملائكة[7]. وعن أبي

(١) فضل العلم والعلماء، ابن قيم الجوزية ص ٦٥.

(٢) سورة فاطر، آية: ٢٨.

(٣) سورة الزمر، آية: ٩.

(٤) سورة الرعد، آية: ١٩.

(٥) سورة آل عمران، آية: ١٨.

(٦) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٢/٤٧٠.

(٧) انظر: عناصر القوة في الإسلام، السيد سابق ص ٥٧.

هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((... وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا، سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ. وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلاَّ نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ. وَمَنْ بطَأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ))[1].

إن الإسلام يدفع المسلم دفعًا إلى تحصيل العلم واكتسابه والاستزادة منه، يقول الله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[2]، ويقرر الإسلام أن غاية الرسالة الإسلامية هي تلاوة آيات الله على الناس وتزكيتهم بالتحلي بالفضائل والتخلي عن الرذائل وتعليمهم الكتاب والحكمة، يقول سبحانه: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾[3].

إن العالم والجاهل لا يستويان، لا في المنزلة عند الله ولا في الوجاهة عند الناس ولا في فهم قيمة الحياة، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[4].

فالعالم له قدره، ومنزلته، ومكانته: يقول الله سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَـٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ﴾[5].

أما الجاهل فهو مطموس البصيرة، منقوص القدر، يقول الله سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[6].

ومثلهما مثل البصير والأعمى، هل يستويان مثلاً؟ يقول الله سبحانه: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى

---

(١) أخرجه مسلم ٢٦٩٩.

(٢) سورة طه، آية: ١١٤.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٦٤.

(٤) سورة الزمر، آية: ٩.

(٥) سورة ال ادلة، آية: ١١.

(٦) سورة الروم، آية: ٥٩.

﴿ ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴾[١] ﴿ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴾[٢].

إن الإسلام ينوه بالعلم، ويرفع من شأنه، ويدفع أهله إليه، لأن به يميز الإنسان بين الحق والباطل، والخير والشر، والصواب والخطأ، والهدى والضلال، والحسن والقبيح، والنافع والضار، فهو للعقل كالنور للعين لا يستغنى عنه بحال، ومن ثم كانت قيمة الإنسان على قدر تحصيله منه.

وعلى قدر أخذ الأمم به يكون نهوضها الحضاري، ورقيها الصناعي، وازدهارها التجاري، ونموها الزراعي، واتساعها العمراني، فهو الذي يرقى بالحياة، ويجعلها وارفة الظلال جديرة بأن ينعم بها الإنسان، ويسعد[٣].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: يسر الشريعة الإسلامية:

من مظاهر التيسير في الشريعة الإسلامية: رخصة المسح على الخفين والتي وردت في قول صفوان بن عسال رضي الله عنه لزر بن حبيش لما سأله عن المسح على الخفين وهل سمع فيه شيئًا من رسول الله ﷺ "قال نعم، كان يأمرنا إذا كنا سَفْرًا -أو مسافرين- أن لا ننزع خفافنا ثلاثة أيام ولياليهن إلا من جنابة، لكن من غائط أو بول أو نوم" والمسح على الخفين من خصائص هذه الأمة، ومشروعية المسح على الخفين للمسافر والمقيم من هدي النبي ﷺ، ومن الأمور التي سطع نور الشريعة بها تخفيفًا وتيسيرًا على المكلفين[٤]، وصدق الله ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾[٥]، ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾[٦].

---

(١) سورة الرعد، آية: ١٦.

(٢) سورة فاطر، آية: ١٩.

(٣) انظر: عناصر القوة في الإسلام، السيد سابق ص ٥٦ - ٥٩.

(٤) مظاهر التيسير في التشريع الإسلامي، د. عبدالعزيز محمد عزام ص ١٤٣.

(٥) سورة الحج، آية: ٧٨.

(٦) سورة البقرة، آية: ١٨٥.

لذا ينبغي على الدعاة إلى الله تعالى أن يبرزوا للناس هذا المعلم البارز في شريعة الإسلام - معلم التيسير- وأن ينتهجوه في دعوتهم إلى الله تعالى وأن يكون لهم سننا عامًا.

إن مهمة الدعوة إلى الله تعالى مهمة جليلة، يختار الله لها من عباده من اصطفاهم لنفسه.

فعملهم امتداد لعمل الأنبياء عليهم السلام، وغايتهم هي غاية الأنبياء، ولذا كان عليهم أن يقتدوا بالأنبياء عليهم السلام في سمتهم ووقارهم، وفي حكمتهم وحسن تصرفهم وفهمهم.

إنها المهمة العظيمة التي من خلالها يكون صلاح الأمم، من حيث الأخلاق والسلوك، ومن حيث الاعتقاد والعبادة، ومن حيث التعامل الاجتماعي والاقتصادي.

ومن هنا كانوا ورثة الأنبياء، كما قال سيد البشر محمد ﷺ، وإذا كانت مهمة الدعوة بهذه المكانة وهذا الفضل، فينبغي لمن اختار طريقها أن يكون على قدر من العلم بسيرته ﷺ في دعوته للناس، حتى يكون على الأثر.. وحتى يكون في الطريق الصحيح.. وحتى يصل إلى الغاية المرجوة.

إن من أول واجبات الداعية أن يكون حسن السيرة ملتزمًا بالأخلاق الحميدة، بحيث تكون دعوته إلى الخير بلسان حاله قبل لسان مقاله.. وعندما يكون الحال والمقال متطابقين، فإن الكلمات تأخذ طريقها إلى القلوب، ويكون لها أثرها وفعاليتها.

وأن يكون عندهم فقه تام ليسر الإسلام وسماحته في إطار مهمتهم تطبيقًا في سلوكهم وبيانًا ودعوة للآخرين.

وهو ما دعا إليه ﷺ وطبقه، وعلمه ووصى به صحابته رضي الله عنهم.

فقد بعث ﷺ أبا موسى الأشعري ومعاذًا بن جبل رضي الله عنهما إلى اليمن وكان من وصيته لهما: ((يَسِّرا ولا تُعسِّرا، وبَشِّرا ولا تُنفِّرا، وتطاوَعا ولا تختَلِفا))[1].

---

(١) أخرجه البخاري ٣٠٣٨، ومسلم ١٧٣٣.

وقد تكررت دعوته بذلك، ففي خطاب عام قال ﷺ: ((ولا تعسروا، وسكّنوا ولا تنفّروا))[١].

تلك هي السمة العامة لهذا الدين، ومن مهمة الدعاة بيانها للناس..."[٢].

خامسًا- من صفات الداعية: بيان الحقائق للمدعو:

إن من أهم ما ينبغي أن يتصف به الداعية بيان الحقائق للمدعوين حتى يكونوا على بصيرة من أمرهم، وفي الحديث ورد ما يبين ذلك عمليًا من رسول الله ﷺ ببيان رخصة المسح على الخفين وجوابه ﷺ على سؤال الأعرابي "المرء يحب القوم ولما يلحق بهم؟ قال النبي ﷺ المرء مع من أحب يوم القيامة" وقد بيّن الحق تبارك وتعالى أنّ وظائف النبي ﷺ التبيين للناس، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٣].

وأمر الله العلماء ببيان العلم وإظهار حقائقه للناس، وحذرهم من كتمانها والإهمال في تبليغها، قال تعالى: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾[٤]، وفي الآية دليل واضح وكفى به دليلاً على أنه مأخوذ على العلماء أن يبينوا الحق للناس وما علموه وأن لا يكتموا منه شيئًا لغرض فاسد من تسهيل على الظلمة وتطييب لنفوسهم واستجلاب لمسارّهم أو لجر منفعة وحطام دنيا، أو لتقية مما لا دليل عليه ولا إمارة، أو لبخل بالعلم وغيره أن ينسب إليه غيرهم[٥].

سادسًا- من صفات الداعية: التلطف مع المدعو:

---

(١) أخرجه البخاري ٦١٢٥، ومسلم ١٧٣٤.

(٢) انظر: الإسلام دين التيسير، صالح أحمد الشامي ص ٣٩ - ٤٠.

(٣) سورة النحل، آية: ٤٤.

(٤) سورة آل عمران، آية: ١٨٧.

(٥) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي ص ٢١٠.

جاء في هذا الحديث ما يدل على التلطف فذلكم الأعرابي الذي نادى على الرسول ﷺ باسمه مجردًا بصوت جهوري، لم يعنفه ﷺ، ولم يغلظ له القول، وإنما تلطف معه، وبيّن له ما أراده "فبينا نحن عنده إذ ناداه أعرابي بصوت له جهوري يا محمد فأجابه رسول الله نحوًا من صوته هاؤم" فقلت له ويحك اغضض من صوتك فإنك عند النبي ﷺ وقد نهيت عن هذا فقال والله لا أغضض" ومع ذلك اتخذ النبي ﷺ معه اللطف منهجًا وسبيلاً وصدق الله ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ۖ ﴾[1] أي: برحمة الله لك ولأصحابك مَنَّ الله عليك فألنت لهم جانبك وخفضت لهم جناحك وترفقت عليهم وحسنت خلقك لهم فاجتمعوا عليك وأحبوك وامتثلوا أمرك[2].

سابعًا- من موضوعات الدعوة: الحرص على محبة المؤمنين الأتقياء:

جاء في الحديث: الترغيب في محبة المؤمنين الصالحين، ببيان أن المرء مع من أحب كما هو واضح من سؤال الأعرابي وإجابة النبي ﷺ "قال الأعرابي: المرء يحب القوم ولَمَّا يلحق بهم؟ أي يحب القوم الأخيار أحياءً وأمواتًا ولما يلحق بهم، أي: في الأعمال، وطرق الكمال أي لم يعمل بعملهم[3] قال النبي ﷺ "المرءُ مع من أحب" وقد جاء هذا المعنى في الصحيحين عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رجلاً من الأعراب أتى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله متى الساعة؟ قال وما أعددت للساعة؟ قال:حب الله ورسوله، قال فإنك مع من أحببت" قال أنس: فما فرحنا بعد الإسلام فرحًا أشد من قول النبي ﷺ فإنك مع من أحببت، قال أنس: ((فَأَنَا أُحِبُّ اللّهَ وَرَسُولَهُ. وَأَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ. فَأَرْجُو أَنْ

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٥٩.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ١٢١.

(٣) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ٦٧.

أَكُونَ مَعَهُمْ. وَإِنْ لَمْ أَعْمَلْ بِأَعْمَالِهِمْ))[(١)]. قال النووي: (فيه فضل حب الله ورسوله ﷺ والصالحين وأهل الخير الأحياء والأموات، ومن فضل محبة الله ورسوله امتثال أمرهما واجتناب نهيهما والتأدب بالآداب الشرعية[(٢)].

(١) أخرجه البخاري ٣٦٨٨، ومسلم ٢٦٣٩.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٥٦٥.

الحديث رقم (٢٠)

٢٠- وَعَنْ أبي سَعِيدٍ سَعْد بْنِ مالك بْنِ سِنانِ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه عَن نَبِيِّ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَال: «كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قتل تِسْعةً وتِسْعِين نفْسًا، فسأَل عن أَعلَم أَهْلِ الأَرْضِ فدُلَّ على راهِبٍ، فَأَتَاهُ فقال: إِنَّهُ قَتَل تِسعةً وتسعِينَ نَفْسًا، فَهلْ لَهُ مِنْ توْبَةٍ؟ فقال: لا. فقتلَهُ فكمَّلَ بِهِ مِائةً. ثمَّ سألَ عن أعلم أهلِ الأرضِ، فدُلَّ على رجلٍ عالمٍ. فقال: إنهُ قَتل مائة نفسٍ فهلْ لَهُ مِنْ تَوْبةٍ؟ فقالَ: نَعَمْ. ومنْ يحُولُ بيْنَهُ وبيْنَ التوْبةِ؟ انْطَلِقْ إِلى أَرْضِ كذا وكذا، فإِنَّ بها أُنَاسًا يعْبُدُونَ الله تعالى فاعْبُدِ الله مَعْهُمْ، ولا تَرْجِعْ إِلى أَرْضِكَ فإِنَّها أَرْضُ سُوءٍ، فانطَلَقَ حتَّى إِذا نَصَفَ الطَّرِيقَ أَتَاهُ الْموْتُ، فاختَصمتْ فيهِ مَلائكَةُ الرَّحْمَةِ وملائكَةُ الْعَذابِ. فقالتْ ملائكةُ الرَّحْمَةَ: جاءَ تائِبًا مُقْبلا بِقلْبِهِ إِلى اللَّهِ تعالى، وقالَتْ ملائكَةُ الْعذابِ: إِنَّهُ لمْ يَعْمَلْ خيْرًا قط، فأَتَاهُمْ مَلكٌ في صُورَةِ آدمي فجعلوهُ بيْنهُمْ (أي حكمًا)، فقال: قيسوا ما بَيْن الأَرْضَين فإِلَى أَيَّتهما كَان أَدْنى فهْو لَهُ، فقاسُوا فوَجَدُوه أَدْنى إِلَى الأَرْضِ التي أَرَادَ، فَقبَضْتهُ مَلائِكَةُ الرَّحمةِ» متفقٌ عليه[١].

وفي روايةٍ في الصحيح: «فكَان إِلَى الْقرْيَةِ الصَّالحَةِ أَقْربَ بِشِبْرٍ، فجُعِل مِنْ أَهْلِها»[٢].

وفي رِوايةٍ في الصحيح: «فأَوْحَى اللَّهُ تعالَى إِلَى هَذِهِ: أَن تَبَاعَدِي، وإِلى هَذِهِ: أَن تَقرَّبِي[٣]. وقَال: قِيسُوا مَا بيْنهمَا، فَوَجدُوه إِلَى هَذِهِ أَقْربَ بِشِبْرٍ، فَغُفرَ لَهُ»[٤]. وفي روايةٍ: «فنأى[٥] بِصَدْرِهِ نَحْوهَا»[٦].

---

(١) أخرجه البخاري ٣٤٧٠، ومسلم واللفظ له ٢٧٦٦/٤٦. أورده المنذري في ترغيبه ٤٦١٣.

(٢) أخرجه مسلم ٢٧٦٦/٤٧. أورده المنذري في ترغيبه ٤٦١٣.

(٣) هذا لفظ مسلم برقم ٢٧٦٦/٤٨، وعند البخاري تكررت: (أوحى) مرتين.

(٤) رواه البخاري ٣٤٧٠. اورده المنذري في ترغيبه ٤٦١٣.

(٥) لفظ البخاري: (فناء)، والمثبت لفظ المنذري في ترغيبه. قال الحافظ في الفتح ١٢٨/٨: فناء: بنون ومدٍّ، أي بعد، أو المعنى: مال أو نهض مع تثاقل، فعل هذا فالمعنى: فمال إلى الأرض التي طلبها، هذا هو المعروف في هذا الحديث، وحكى بعضهم فيه: (فنأى) بغير مدٍّ قبل الهمز، وبإشباعها بوزن: (سعى) تقول: نأى ينأى نأيًا، أي بعد. وعلى هذا فالمعنى: فبعد على الأرض التي خرج منها. ووقع في رواية هشام، عن قتادة ما يشعر بأن قوله: (فناء بصدره) إدراجٌ، فإنه قال في آخر الحديث: (قال قتادة: قال الحسن: ذكر لنا أنه لما أتاه الموتُ ناء بصدره).

(٦) أخرجه البخاري ٣٤٧٠. أورده المنذري في ترغيبه ٤٦١٣.

ترجمة الراوي:

أبو سعيد الخدري: وهو سعد بن مالك بن سِنان بن ثعلبة بن عبيد بن الأبجر وهو خدرة بن عوف بن الحارث بن الخزرج، الأنصاري، الخُدْرِي نسبة إلى خُدْرة. وهو بطن من الأنصار، كنيته "أبو سعيد" وبها اشتهر، وأخو أبي سعيد لأمه هو قتادة بن النعمان الظفري أحد البدريين. استشهد أبوه مالك يوم أحد. وكان أبو سعيد رضي الله عنه من الحفاظ المكثرين والعلماء الفقهاء، العقلاء الفضلاء، الإمام المجاهد، ومفتي المدينة، وكان رضي الله عنه من ملازمي النبي صلى الله عليه وسلم فحفظ عنه سننًا كثيرة، وعلمًا جَمًّا، له في كتب الحديث (١١٧٠) حديثًا، اتفق البخاري ومسلم على (٤٣) وانفرد البخاري بـ (١٦)، ومسلم بـ(٥٢) حديثًا.

أما عن جهاده في سبيل الله، فقد استصغره النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد وأجازه يوم الخندق، وشهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم اثنتي عشرة غزوة، ومما ذكر عن صفاته الخلقية أنه كان يحفي شاربه ويصفر لحيته.

توفي رضي الله عنه بالمدينة المنورة، يوم جمعة، ودفن بالبقيع سنة (٧٤) هجرية وهو الأشهر، وقيل (٦٣)، أو (٦٤)، أو (٦٥)، وهو ممن له عقب من الصحابة[١].

غريب الألفاظ:

راهب: هو من اعتزل الناس إلى دير وانقطع للعبادة[٢].

نصَف الطريق: بلغ نصفها[٣].

قبضته: أخذته[٤].

---

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ٨١٥، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير ٤٥١/٢، ٤٥٢، ١٣٨/٦، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني ٤٩٢، ٤٩٣، وسير أعلام النبلاء، الذهبي ١٦٨/٣-١٧٢، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي ١٢٧/٣، ١٢٨، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني ٦٩٦/١، ٦٩٧، والأعلام، خير الدين الزركلي ٨٧/٣، والسندي ٤/١٧، وموسوعة عظماء حول الرسول، خالد عبدالرحمن العك ٨٩٧/٢، ٨٩٨.

(٢) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، الفيومي ٢٨٦، ومعجم لغة الفقهاء، أ. د. محمد رواس قلعة جي ص ١٩٤.

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير والقاموس والوسيط في (ن ص ف).

(٤) مختار الصحاح ٥١٩.

الشرح الأدبي

تتعدد الأساليب والطرق التي يخاطب بها رسول الله ﷺ أمته وكل أسلوب يحمل في لبناته اللغوية التشويق والترغيب والتأثير إذا كان الشأن في سياق العمل الصالح، ويحمل الأسلوب كل وسائل الترهيب والتنفير إذا كان الخطاب متعلقًا بأمر كريه، وسلوك شائن ومخالفة صريحة لأوامر الشرع ونواهيه: اتباعًا لقول الله عز وجل: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾[1].

وهذا الحديث الشريف جاء في قالب القصة: لتشويق السامع والقارئ وللتأثير المقنع، ولفتح باب التوبة، ونزع القنوط واليأس من نفوس العاصين الذين تهب عليهم نفحات الوصول، وتشرق في نفوسهم أنوار الإنابة والقبول.

وهذه القصة الواقعية التي يرويها رسول الله ﷺ للعظة والعبرة تعد قصة حقيقية تاريخية، وليست من قبيل ضرب الأمثال: لأن المصطفى ﷺ قال: ((كان فيمن كان قبلكم رجل)) ومادة الفعل "كان" تدل على كينونة الحدث ووقوعه، واسم الموصول "مَنْ" وهو للعاقل يؤكد واقعية الحدث وتكرار الفعل "كان" يحدد أن هذه القصة حدثت في الأمم السابقة: التي عبر عنها سيد الخلق. "كان فيمن قبلكم" أي قبل أمة الإسلام؛ ولم يحدد الرسول ﷺ التاريخ ولا القوم الذين حدثت فيهم هذه القصة، ولا اسم البلدتين ولا زمن الوقوع؛ لأن الغرض هو العبرة والدرس النافع والاعتبار بأحوال الأمم الماضية وزرع الأمل في نفوس العاصين الذين يرغبون في التوبة إلى الله والعمل الصالح.

والقصة التاريخية في البيان النبوي لا تتفق مع مصطلح القصة التاريخية في الفنون الأدبية الحديثة، وتخالف ما اصطلح عليه النقاد في هذا المجال، وذلك لأن القصة التاريخية في الحديث النبوي لم تنشأ ولم تُرْوَ بدافع الرغبة في إبداع نوع أدبي، أو إعادة صياغة للتاريخ، أو للمبالغة في تجميل أو تشويه مرحلة تاريخية معينة حسب توجهات الأديب ورغباته ومواقفه.

---

(١) سورة الحشر، آية: ٧.

وإنما القصة التاريخية في الحديث النبوي واقعية محددة تحكي ما وقع في صيغة العموم والشمول، رغبة في الاقتداء والانتفاع بهذا الواقع جميلاً وصالحًا، وأيضًا رغبة في إصلاح هذا الواقع إذا كان مريضًا تشوبه الأهواء والنوازع أو رفضًا لهذا الواقع إذا كان فاسدًا متصادمًا مع منهج الإسلام الحافل بالعطاء الإلهي، والهدي النبوي.

فالقصة في الحديث النبوي تجمع بين صدق الواقع وجمال الغرض، وجلال الموقف، وإصابة الهدف، ونبل المقصد، وسمو الغاية، ومادة هذه القصة مأخوذة من أحداث التاريخ الواقعة فيما مضى من سالف الدهر، والقصة تتخير من الأحداث التاريخية ماله أثر في التربية والتوجيه، وتعليم الجماعة المسلمة وتأييد أهداف الدعوة الإسلامية وتحقيق أغراضها[1].

وحين نتأمل البناء اللغوي في هذا النص النبوي الشريف الذي صيغ في القالب القصصي نكتشف كثيرًا من الأسرار التعبيرية، والجماليات الأسلوبية التي تتفق مع الهدف من هذا الدرس النبوي المفيد العميق.

ولنتساءل: لماذا لم يحدد الرسول ﷺ اسم ذلك الرجل، وأتى به في صيغة النكرة بعيدًا عن أي وسيلة من وسائل التعريف؟؟ إن هذا التنكير للتعميم والتغليب؛ وذلك لأن الغرض هو الإفادة من ثمرة هذه القصة، وهي يمكن أن تتكرر في كل زمان إذا حدثت الملابسات نفسها.

وهذا الرجل الذي يبحث عن باب للتوبة يستعيد من خلاله إيمانه وتوازنه بعد أن تمادى في القتل وقتل تسعة وتسعين نفسًا، وهذا العدد ربما يكون للتكثير وليس للتحديد؛ والتعبير بقوله "نفسًا" ولم يقل رجلاً: هذا العدول من سمات البلاغة النبوية التي تتسم بالشمول والإيجاز فكلمة نفس أعم وأشمل: وفي إطارها تندرج كل أنواع النفوس البشرية (المرأة والطفل والشيخ والشاب والذكر والأنثى وغير ذلك) ولفظ "النفس" أعم وأشمل من الجسد والإنسان والرجل.

---

(١) انظر القصص في الحديث النبوي، د. محمد بن حسن الزير ص ٣٥٥، والحديث النبوي: رؤية فنية جمالية د. صابر عبدالدايم ص (٩٠ – ٩١).

وقد ورد في القرآن الكريم كثيرًا في سياقات متعددة (النفس اللوامة -النفس المطمئنة- النفس الأمارة بالسوء) وفي سورة المائدة يقول الله عز وجل: ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾[1].

وشخصية الرجل في هذه القصة تتطور ملامحها، وتتجدد سلوكياتها فهو لا يظل أسير المعصية، ولا يظل غارقًا في دماء قتلاه، وإنما تهب عليه نفحات الوصول، وتحين لديه ساعة الإنابة والقبول؛ فالله يقبل توبة العبد مالم يغرغر ويسأل هذا الراغب في التوبة عن أعلم أهل الأرض في زمانه ؛ وهذا السؤال يعطي لكل راغب في التوبة: مشروعية البحث عمن يرشده للطريق الصحيح، وأفعل التفضيل في قوله "أعلم أهل الأرض" يدل على أن الباحث عن الهداية لابد أن يسأل أهل العلم المتخصصين حتى يطمئن قلبه، وحتى يهتدي إلى الوسيلة الناجحة لبداية حياة إيمانية جديدة في بيئة صالحة غير ملوثة بأنفاس العاصين.

والعطف على التوالي بـ"إلفاء" يوحي بسرعة الأحداث وضرورة الإسراع في التوبة، ولنتأمل هذه الجمل التي تحكي سرعة الأحداث وعدم التمهل (فسأل- فَدُلَّ على راهب، فأتاه، فقال).

والتعبير بقوله: "إنه" ولم يقل: "إني" فيه التفات من التكلم إلى الغيبة وقال العلماء في تفسير هذا الالتفات وهو من جماليات الأداء الأسلوبي في البيان النبوي قالوا: إنه عدل إليه عن حكاية لفظه وهو "إني" بضمير المتكلم تنبيهًا على الأدب في حكاية مثل ذلك مما يكره النطق به فيؤتي بضمير الغيبة وكأن هذا التائب يعلن البراءة من ملامح شخصيته العاصية، وهو في حال إقبال على الطاعة والتوبة النصوح.

وعُقْدة القصة تتجلى في فتوى ذلك الراهب الذي أفتى بغير علم، وجعل اليأس يتسرب إلى هذا الرجل الباحث عن أبواب التوبة، ولكن ذلك الراهب يصدمه: ويقول له: ليست لك توبة.

---

(١) سورة المائدة، آية: ٣٢.

واختيار لفظ "راهب" واقترانه بهذه النتيجة المؤلمة المفزعة حيث أقدم ذلك الرجل على قتله يأسًا وقنوطًا؛ هذا الراهب لقي هذا المصير لأنه أبعد الرجل عن أبواب رحمة الله عز وجل؛ ومجيء هذا اللفظ هنا فيه إرشاد إلى نقد هذه الفئة التي تبتدع في أصول العقيدة، وتتقول على الله عز وجل.

والرجل لم يقنط من رحمة الله وعاود السؤال: "فَدُلَّ على رجل عالم، وهذا التعبير يرشد إلى ضرورة سؤال أهل الذكر والبحث عن كبار العلماء، وتأتي لحظة التنوير في هذه القصة وتُحل العقدة وتنتهي أزمة الرجل حين يجيب العالم بـ "نعم" ثم يقول في دهشة واستنكار ومن يحول بينه وبين التوبة.

والعالم يعرف مسؤوليته تجاه ذلك التائب حيث يرشده إلى الطريق العملي الصحيح الذي يحافظ به على توبته، لأن التوبة ليست كلامًا فقط، وإنما لابد من العمل الصالح والندم على مافات والعزم على هجر المعاصي وتبدأ مرحلة جديدة في حياة ذلك الرجل فيذهب إلى أرض بها أناس صالحون ويترك البيئة العاصية التي نشأ فيها ولكن يوافيه الأجل في الطريق وتختصم ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ولكن الله عز وجل يقبل توبته. فالأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى، والله غفور رحيم، وتواب حكيم، وهو اللطيف الخبير.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكم توبة القاتل عمدًا، وقد ذكر جماهير أهل العلم[(١)] أن توبة القاتل مقبولة عند الله عز وجل، ويروى عن ابن عباس رضي الله عنهما في رواية عنه[(٢)]

---

(١) أحكام القرآن للجصاص ٢٤٦/٣، والمبسوط، السرخسي ٨٤/٢٧، وشرح منح الجليل على مختصر خليل، الشيخ محمد بن أحمد بن محمد عليش ٥٨٢/٨، والتاج والإكليل شرح مختصر خليل، محمد بن أبي يوسف العبدري ٢٨٧/٨، والفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم المالكي ١٧٨/٢، وتحفة المحتاج في شرح المنهاج، ابن حجر ٣٧٥/٨، ومغني المحتاج ٢١١/٥، والفتاوى الكبرى لابن تيمية ١١٢/١، ٥٢١/٥، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي ١٧٨/٦، والآداب الشرعية، حماد بن عبدالله الحماد ٥٨/١، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، المرداوي ٣٣٥/١٠.

(٢) المبسوط، السرخسي ٨٤/٢٧، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٨٦/١، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا بن محمد بن أحمد الأنصاري ٢٨١/٤.

أنه ليس لقاتل العمد توبة، وفي أخرى روي عنه أن له توبة كغيره، وروي عن مالك أنه لا توبة لقاتل العمد[(١)]، وكذا عن أحمد روايتان في قبول توبته[(٢)]، والصحيح ما عليه المذهب قبول توبته. وإنما كان القول بمنع التوبة أو عدم قبولها للردع والزجر وإغلاق باب القتل.

المضامين الدعوية

أولاً: من أهداف الدعوة: الاستفادة من أخبار السابقين.

ثانيًا: من أساليب الدعوة: السؤال والجواب.

ثالثًا: من أساليب الدعوة: الترغيب.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: أهمية البعد عن أماكن المعاصي والبحث عن أماكن تتيسر فيها سبل الطاعة.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: بيان سعة رحمة الله وفضله على عباده.

سادسًا: من موضوعات الدعوة: ضرورة المسارعة إلى التوبة.

سابعًا: من وسائل الدعوة: القصة.

ثامنًا: من واجبات الداعية: التبشير وعدم التقنيط من رحمة الله.

أولاً- من أهداف الدعوة: الاستفادة من أخبار السابقين:

تهدف الدعوة إلى توجيه المدعويين إلى الاستفادة من أخبار السابقين. يؤخذ ذلك من قوله ﷺ "كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسًا" أي رجل من الأمم قبلكم[(٣)]، وقد أذن رسول الله ﷺ في التحديث عن بني إسرائيل ورفع الحرج عن ذلك، فعن عبدالله بن عمرو أن النبي ﷺ قال: ((بلِّغوا عني ولو آيةً، وحدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حرجَ، ومن كذَبَ عليَّ مُتعَمِّدًا فليتَبوَّأْ مَقعدهُ منَ النار))[(٤)] قال ابن حجر:

---

(١) الفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم المالكي ١٧٨/٢.

(٢) الفتاوى الكبرى لابن تيمية ١١٢/١، ٥٢١/٥، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي ١٧٨/٦، والآداب الشرعية، حماد بن عبدالله الحماد ٥٨/١، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، المرداوي ٣٣٥/١٠.

(٣) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ٦٩.

(٤) أخرجه البخاري ٣٤٦١.

أي لا ضيق عليكم من الحديث عن بني إسرائيل وقال الشافعي: (من المعلوم أن النبي ﷺ لا يجيز التحدث بالكذب فالمعنى حدثوا عن بني إسرائيل بما لا تعلمون كذبه، وأما ما تجوزونه فلا حرج عليكم في التحدث به عنهم)[١].

وفي الحديث دليل عملي على أهمية الاستفادة من أخبار السابقين، فقد جاء في الحديث ما قصّه النبي ﷺ من قصة ذلك الرجل الذي قتل تلك الأنفس العديدة وما فيها من بيان فتح الله لباب التوبة، وما يؤخذ من القصة من فضل العلم وأن العبادة التي تفتقد إلى العلم غالبًا ما يتطرق إليها الفساد ونحوه.

قال القرطبي: (قول الراهب لقاتل التسعة والتسعين إنه لا توبة له: دليل على قلة علم ذلك الراهب، وعدم فطنته، حيث لم يُصب وجه الفتيا، ولا سلك طريق التحرز على نفسه، ممن صار القتل له عادة معتادة، فقد صار هذا مثل الأسد الذي لا يبالي بمن يفترسه، فكان حقه ألا يشافهه بمنع التوبة مداراة لدفع القتل عن نفسه، كما يدارى الأسد الضاري، لكنه أعانه على نفسه، فإنه لما آيسه من رحمة الله وتوبته قتله، بحكم سبعيته[٢] ويأسه من رحمة الله وتوبته عليه، ولما لطف الله به بقي في نفسه الرغبة في السؤال عن حاله. فما زال يبحث إلى أن ساقه الله تعالى إلى هذا الرجل العالم الفاضل، فلما سأله نطق بالحق والصواب، فقال له: ومن يحول بينها وبينك؟ مفتيًا ومنكرًا على من ينفيها عنه، ثم إنه أحاله على ما ينفعه، وهو مفارقته لأرضه التي كانت غلبت عليه بحكم عادة أهلها الفاسدة، ولقومه الذين كانوا يعينونه على ذلك، ويحملونه عليه. وبهذا يعلم فضل العلم على العبادة، فإن الأول غلبت عليه الرهبانية، واغتر بوصف الناس له بالعلم فأفتى بغير علم، فهلك في نفسه وأهلك غيره. والثاني كان مشتغلاً بالعلم ومعتنيًا به، فوفق للحق، فأحياه الله في نفسه، وأحيا به الناس)[٣].

ولقد جاء القرآن الكريم بكثير من قصص الأنبياء والرسل مع قومهم لأخذ

---

(١) فتح الباري، ٥٧٥/٦، ٥٧٦.

(٢) أي صارت طِباعُه وحشية كالسبع.

(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ٩٠/٧.

الفوائد والعبر منها، وهذا مما يؤكد أهمية الاستفادة من أخبار السابقين، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[1].

قال السعدي: ("لقد كان في قصصهم" أي: قصص الأنبياء والرسل مع قوهم "عبرة لأولي الألباب" أي: يعتبرون بها، أهل الخير، وأهل الشر، وأن من فعل مثل فعلهم، ناله ما نالهم، من كرامة، أو إهانة، ويعتبرون بها أيضًا، ما لله من صفات الكمال والحكمة العظيمة، وأنه الله، الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له.

وقوله "ما كان حديثًا يفترى" أي: ما كان هذا القرآن، الذي قص الله به عليكم من أنباء الغيب ما قص، من الأحاديث المفتراه المختلقة، "ولكن" كان تصديق "الذي بين يديه" من الكتب السابقة، يوافقها، ويشهد لها بالصحة "وتفصيل كل شيء" يحتاج إليه العباد من أصول الدين وفروعه، ومن الأدلة والبراهين.

"وهدى ورحمة لقوم يؤمنون" فإنهم -بسبب ما يحصل لهم به من العلم بالحق وإيثاره- يحصل لهم الهدى، وبما يحصل لهم من الثواب العاجل والآجل، فتحصل لهم الرحمة[2].

ثانيًا- من أساليب الدعوة: السؤال والجواب:

جاء أسلوب السؤال والجواب في الحديث فيما حكاه النبي ﷺ عما وقع بين الرجل الذي قتل تسعة وتسعين نفسًا وبين الراهب وكذلك بينه وبين العالم "فدل على راهب فأتاه فقال إنه قتل تسعة وتسعين نفسًا فهل له من توبة؟ فقال لا فقتله فكمل به مائة، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض، فدل على رجل عالم فقال: إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة؟ فقال نعم ومن يحول بينه وبين التوبة" فالسؤال والجواب من الأساليب المفيدة في الدعوة، وفيه فرصة للاطلاع على الحقائق من قِبَل المدعوين والقدرة على إيصال الحقائق وبيان الأمور من قبل الدعاة.

---

(١) سورة يوسف، آية: ١١١.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ٣٦٢.

ثالثًا- من أساليب الدعوة: الترغيب:

ورد هذا الأسلوب في هذا الحديث في ترغيب العالم لذلك الرجل الذي قتل مائة نفس في التوبة ببيان قبولها منه إن تاب، إذ لا يوجد هناك من يحول بينه وبين التوبة " فقال إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة؟ فقال: "نعم ومن يحول بينه وبين التوبة؟" فالترغيب أسلوب من الأساليب الدعوية المفيدة، إذ أنه يشوق المدعو ويستميله إلى الاستجابة وقبول الحق والثبات عليه[١]. والترغيب أبرز الأساليب الدعوية في القرآن والسنة النبوية، فالنفس لا ترغب إلا فيما فيه سعادتها وصلاح أمرها، وما جاء به الشرع الحنيف كله -بعد الإقرار بالوحدانية وصدق الرسول ﷺ-لا يعدو أن يكون ترغيبًا في الخيرات وترهيبًا من المعاصي والموبقات، وثمرة ذلك حث المؤمن على الرغبة فيما عند الله تعالى والرهبة من عقابه[٢].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: أهمية البعد عن أماكن المعاصي والبحث عن أماكن تتيسر فيها سبل الطاعة:

إن مما نُصِح به ذلك الرجل الذي قتل مائة نفس أن يهجر أرضه، التي تيسرت فيها سبل المعصية، ووفرت له وسائلها، ولم يوجد فيها ما يمنع من المعصية، ويذهب إلى مكان تتهيأ فيه سبل الطاعة، والإنابة إلى الله تعالى، "انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناسًا يعبدون الله تعالى فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء".

قال القاضي عياض: (وقول العالم له: "انطلق إلى أرض كذا وكذا، فإن فيها أناس يعبدون الله فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك" فيه الحض على مفارقة الإنسان المواضع التي أصاب فيها الذنوب والأقران الذين ساعدوه عليها، ومعاداتهم لله تعالى، مبالغة في التوبة وقطع علائقها، والاستبدال بذلك صحبة أهل الخير والصلاح ومن يقتدى به، ويتأكد بمشاهدته توبته)[٣].

---

(١) انظر: مستلزمات الدعوة في العصر الحاضر، علي بن صالح المرشد ص ١٦٠.

(٢) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد ٢١٢٧/٦.

(٣) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض ٢٦٩/٨.

لذا فإنه ينبغي لمن عاش في أرض بمثل تلك الصفة أو لم يستطع إقامة دينه أن يهجرها، وقد عاب الله أقوامًا بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾(١) قال القاسمي: (وهذا دليل على أن الرجل إذا كان في بلد لا يتمكن فيه من إقامة أمر دينه كما يجب لبعض الأسباب، والعوائق عن إقامة الدين لا تنحصر، أو علم أنه في غير بلده أقوم بحق الله وأدوم على العبادة حقت عليه المهاجرة)(٢).

خامسًا- من موضوعات الدعوة: بيان سعة رحمة الله وفضله على عباده:

جاء في الحديث بيان لفضل الله وواسع عطائه، ومن ذلك: قبوله سبحانه توبة التائب مهما اقترف من ذنوب وآثام، مما جعل العالِم يصرح بأنه لا يوجد مَنْ يحول بين الإنسان والتوبة "ومن يحول بينه وبين التوبة" وتجلى فضل الله في قبول توبة هذا الرجل، وما أمر به الأرض من التباعد والتقارب، حتى تقبضه ملائكة الرحمة "فأوحى الله تعالى إلى هذه أن تباعدي وإلى هذه أن تقربي وقال قيسوا ما بينهما، فوجدوه إلى هذه أقرب بشبرٍ فغفر له".

قال القرطبي: (وقوله: "فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرحمة: إنه جاء تائبًا مقبلاً بقلبه". هذا نص صريح في أن الله تعالى أطلع ملائكة الرحمة على ما في قلبه من صحة قصده إلى التوبة وحرصه عليها، وأن ذلك خفي على ملائكة العذاب حتى قالت: إنه لم يعمل خيرًا قط. ولو اطلعت على ما في قلبه من التوبة، لما صحّ لها أن تقول هذا، ولا تنازع ملائكة الرحمة في قولها: إنه جاء تائبًا مقبلاً بقلبه، بل شهدت بما في علمها، كما شهد الآخرون بما تحققوه. لكن شهادة ملائكة الرحمة على إثبات، وشهادة ملائكة العذاب بما تحققوه، وشهادة الإثبات مقدمة.

---

(١) سورة النساء، آية: ٩٧.

(٢) محاسن التأويل، جمال الدين القاسمي، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي ٤٠١/٥/٣.

فلا جرم لما تنازع الصنفان وخرج كلاهما عن الشهادة إلى الدعاوى بعث الله إليهما ملكًا حاكمًا يفصل بينهما، وصوّره بصورة الآدمي، إخفاء عن الملائكة وتنويهًا ببني آدم، وأن منهم من يصلح لأن يفصل بين الملائكة إذا تنازعوا.

وقوله: "فجعلوه بينهم" فيه حجة لمالك على قوله أن المتخاصمين إذا حكّما بينهما رجلاً يصلح للتحكيم لزمهما ما يحكم به، وقد خالفه في ذلك الشافعي.

وقوله: "فقيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أدنى فهو له" دليل على أن الحاكم إذا تعارضت الأقوال عنده، وتعذرت الشهادات، وأمكنه أن يستدل بالقرائن على ترجيح بعض الدعاوى، نفذ الحكم بذلك، كما فعله سليمان عليه السلام حيث قال: ائتوني بالسكين أشقه بينهما.

تنبيه: قال القاضي: جعل الله قُربَه من القرية علامة للملك عند اختلافهم مع عدمهم معرفة حقيقة باطنه التي اطلع الله عليها، ولو تحققوا بتوبته لم يختلفوا ولم يحتاجوا للمقايسة.

قلت: وهذه غفلة منه عن قول ملائكة الرحمة: "جاء تائبًا بقلبه إلى الله عز وجل" وهذا نص في أن الملائكة علمت ما في قلبه، فلو علمت ملائكة العذاب ما في قلبه لما تنازعوا لأن الملائكة كلهم، لا يخفى عليهم أن قبول التوبة إذا صحت في القلب، وعُمل على مقتضاها بالجوارح بالقدر الممكن مقبولة بفضل الله تعالى ووعده الصادق، والأحسن ما ذكرناه إن شاء الله تعالى، وإنما جعل الله قرب تلك الأرض سببًا مرجحا لحجة ملائكة الرحمة، ومصدقًا لصحة التوبة، وفيه دليل على أن أعمال الظاهر عنوان على الباطن.

وقوله: "فأوحى الله إلى هذه أن تباعدي وإلى هذه أن تقربي" إنما كان ذلك لما حكم الحاكم بقياس الأرض. ويفهم منه أن الرجل كان أقرب إلى الأرض التي خرج منها، فلو ترك الله الأرض على حالها، لقبضته ملائكة العذاب، لكن غمرته الألطاف الإلهية، وسبقت له العناية الأزلية، فقرّبت البعيد، وألانت الحديد، ويستفاد من هذا أن الذنوب وإن عظمت فعفو الله أعظم منها وأن من أُلهم صدق التوبة فقد سُلِكَ به طريق اللطف والقربة[1].

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ٧/٩١ - ٩٣.

سادسًا- من موضوعات الدعوة: ضرورة المسارعة إلى التوبة:

لعلنا نلمح هذا المعنى في بحث الرجل وسؤاله عما إذا كانت له توبة أم لا؟ ولـمَّا دله العالم على أرض يذهب إليها ليعبد الله فيها جاء التعبير بقوله "فانطلق" فإنه مما ينبغي للمرء أن يسارع فيه: التوبة استجابة لمثل قول الله ﴿ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ ﴾[(١)] وقوله ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ ﴾[(٢)] وبيّن الحق أن من صفات المتقين أنه إذا وقعت منهم معصية بادروا بالتوبة بمجرد وقوعها ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾[(٣)] أي: تابوا من ذنوبهم ورجعوا إلى الله عن قريب، ولم يستمروا على المعصية ولم يصروا عليها غير مقلعين عنها، ولو تكرر منهم الذنب تابوا عنه[(٤)].

سابعًا- من وسائل الدعوة: القصة:

استخدمت وسيلة القصة في الحديث، حيث قص النبي ﷺ قصة رجل قتل تسعة وتسعين نفسًا، وبحثه عن التوبة حتى هدي لذلك العالم فدلّه على باب التوبة، وأرشده إلى التوجه إلى أرض لا يجد فيها من دواعي المعصية ومغرياتها "كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسًا فسأل عن أعلم أهل الأرض... الحديث".

والقصة من وسائل الدعوة المفيدة في الحقل الدعوي لأنها تمتاز بأنها تصور الحياة فتعرض لك الأشخاص وحركاتهم وأخلاقهم وغير ذلك حتى لكأنك تراهم رأي العين، كما تمتاز القصة بأن النفس تميل إليها، فغريزة حب الاستطلاع تعلق عين السامع وأذنه وانتباهه بنسق القصص البارع، استشرافًا لمعرفة ما خفي من بقية الأنباء، والقصة بهاتين الميزتين من خير الوسائل التي يتوصل بها الداعية لإبلاغ تعاليمه إلى أعماق القلوب[(٥)].

---

(١) سورة الحديد، آية: ٢١.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٣٣.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٣٥.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ١٢٥/٢.

(٥) انظر: تذكرة الدعاة، البهي الخولي ص ٤٤، ٤٥.

ويعتبر الأسلوب القصصي من أنجح الأساليب للهداية والتقويم، ولقد روى لنا القرآن أخبار الأمم الماضية وقدمها للعقل والقلب والروح بطرق مثيرة لعواطف الخير فيه منفرة لنوازع الشر[١]، وذلك كقصة يوسف عليه السلام وغيرها، وصرح القرآن بأن قصصه أحسن القصص ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ﴾[٢].

لذا ينبغي على الدعاة ألا يهملوا جانب القصة في دعوتهم، والاطلاع ومعرفة ما ذكر الله من مناهج الدعاة من الأنبياء عليهم السلام وأتباعهم في الدعوة إلى الله، ومعرفة الدعاة ما أصاب سابقيهم في الدعوة إلى الله من أذى، ليعلم أن ما اصاب المؤمنين السابقين من الدعاة إلى الله يصيب أيضًا الدعاة المؤمنين اللاحقين، وبهذا جرت سنة الله في الأولين كما تجري في اللاحقين، ولكن العاقبة كانت وتكون دائمًا للمتقين، قال تعالى: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[٣].

وفي قصص القرآن ما أشرنا إليه من بيان لما جبلت عليه النفس البشرية من غرائز وميول ورغبات. وهذه أمور مهمة جدًا يستفيد منها الدعاة في أساليب دعوتهم، وكيفية معالجتهم لأحوال الناس الذين يدعونهم ولأحوال أتباعهم من المؤيدين والأنصار، ولا يجوز للدعاة إغفال هذه الأمور المتعلقة بالنفس البشرية، لأنهم في دعوتهم يتعاملون مع بشر، ودعوة البشر،ووضعهم على الصراط السوي بعد تخليصهم من العوائق، وإقناعهم بمعاني الدعوة، كل ذلك يحتاج إلى فقه واسع وعميق وصحيح في النفس البشرية وطبعها وما جبلت عليه،وهذا يمكن معرفته وتعريف الدعوة به من خلال النظر فيما قصه الله علينا من قصص الماضين المؤمنين والفجار والصعاليك وذوي السلطان.

ومما يزيد من أهمية هذه الفائدة أن النفس البشرية وما جبلت عليه وطبعها وأصول غرائزها وصفاتها لا تتغير فهي الآن كما كانت من زمن آدم عليه السلام وإلى أن يرث

---

(١) القصة في القرآن الكريم، د. مريم عبدالقادر السباعي ص ١١.

(٢) سورة يوسف، آية: ٣.

(٣) سورة الأعراف آية: ١٢٨.

الله الأرض ومن عليها. ويكفي أن أشير هنا إلى قصة ابني آدم وكيف أن الحسد حمل أحد الأخوين على قتل أخيه، ولا تزال هذه الصفة - صفة الحسد - مغروسة في نفوس بني آدم حتى الآن)[1]. وقد كانت القصة في هذا الحديث النبوي وسيلة دعوية ناجحة في بيان أهمية البحث عن التوبة وعدم القنوط من رحمة الله، وضرورة الأخذ بأسباب الفلاح والإنابة إلى الله تعالى مثلما حدث مع هذا الرجل الذي قتل مائة نفس، ومع ذلك ظلت نفسه تتوق إلى التوبة حتى هيّأ الله تعالى له أسبابها، وقد تبلورت هذه الأحداث من خلال القصة التي أخبر بها النبي ﷺ.

ثامنًا- من واجبات الداعية: التبشير وعدم التقنيط من رحمة الله:

جاء ذلك واضحًا في قول العالم لذلك الذي قتل مائة نفسًا وقد سأله فقال: "إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة؟ فقال: نعم ومن يحول بينه وبين التوبة؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها قومًا يعبدون الله تعالى فاعبد الله معهم ... الحديث" وقد وردت الآيات الكثيرة التي تبشر برحمة الله وتنهى عن القنوط منها، مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[2] أي لا تيأسوا من رحمة الله[3] وابعثوا الرجاء في أنفسكم[4] فإن رحمة الله أوسع ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍۚ﴾[5].

فيجب على الداعية أن يُبشر المدعوين برحمة الله تعالى، وأنه سبحانه واسع المغفرة، ويؤكد على عدد من المعاني العظيمة في هذا الباب، ومن أبرزها: أن عفو الله تعالى وكرمه أكبر وأعظم من أي ذنب، فلا ينبغي للعبد أن يستعظم ذنبه ويستكثره

---

(١) المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة، د. عبدالكريم زيدان ١/ ٨ - ٩.

(٢) سورة الزمر، آية: ٥٣.

(٣) زاد المسير في علم التفسير، ابن الجوزي ، ابن الجوزي ٧/ ١٩١.

(٤) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور ٩/ ٢٤/ ٣٩.

(٥) سورة الأعراف، آية: ١٥٦.

على الله، بل يجب عليه أن يسارع في التوبة والإنابة إلى الله تعالى، وهجر المعاصي والذنوب، والداعية حينما يبشر برحمة الله، فإنما يتأسى في ذلك برسول الله ﷺ وهو خاتم الأنبياء وإمام الدعاة وهو ﷺ الذي قصّ خبر هذا العالم الذي سأله الرجل الذي قتل "مائة"، فدّله العالم على أسباب التوبة التي لا يوجد بينه وبينها حائل.

الحديث رقم (٢١)

٢١- وعَنْ عبْدِ اللَّهِ بنِ كَعْبِ بنِ مَالِكٍ، وكانَ قائِدَ كعْبٍ ﷺ منْ بَنِيهِ حِينَ عَمِيَ، قال: سَمِعْتُ كعْبَ بن مَالكٍ ﷺ يُحَدِّثُ بحديثِهِ[1] حِين تخلَّف عَنْ رسول الله ﷺ، في غزوةِ تبوكَ. قال كعْبٌ: لمْ أتخلَّفْ عَنْ رسولِ الله ﷺ، في غَزْوَةٍ غَزَاها[2] إلاَّ في غزْوَةِ تَبُوكَ، غَيْر أنِّي قدْ تخلَّفْتُ في غَزْوةِ بَدْرٍ، ولَمْ يُعَاتَبْ أَحَدٌ[3] تَخلَّف عنْهُ، إنَّما خَرَجَ رسولُ الله ﷺ والمُسْلِمُونَ يُرِيدُون عِيرَ قُرَيْش حتَّى جَمعَ اللهُ تعالَى بيْنهُم وبيْن عَدُوِّهِمْ علَى غيْرِ ميعادٍ. ولَقَدْ شهِدْتُ مَعَ رسولِ اللَّهِ ﷺ ليْلَةَ العَقبَةِ حِينَ تَوَاثَقْنَا عَلَى الإسْلامِ، ومَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِهَا مَشْهَدَ بَدْرٍ، وإِنْ كَانَتْ بدْرٌ أَذْكَرَ في النَّاسِ مِنهَا وكَانَ من خَبَرِي حِينَ تخلَّفْتُ عَنْ رسول الله ﷺ، في غَزْوَةِ تبُوك أنِّي لَمْ أَكُنْ قَطُّ أَقْوَى ولا أَيْسَرَ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْهُ في تِلْكَ الْغَزْوَة، واللَّهِ ما جَمعْتُ قبْلها رَاحِلتَيْنِ قطُّ حتَّى جَمَعْتُهُما في تلك الْغَزوَةِ، (ولَمْ يكُن رسول الله ﷺ يُرِيدُ غَزْوَةً إلاَّ ورَّى بغَيْرِهَا حتَّى كَانَتْ تِلكَ الْغَزْوَةُ) [4]، فغَزَاها رسول الله ﷺ في حَرٍّ شَدِيدٍ، واسْتَقْبَلَ سَفرًا بَعِيدًا ومَفَازًا. واسْتَقْبلَ عددًا[5] كَثيرًا، فجَلَّى للْمُسْلِمِينَ أَمْرَهُمْ ليَتَأَهَّبوا أُهْبَةَ غَزْوِهِمْ فَأَخْبَرَهُمْ بوَجْهِهِمُ الَّذي يُرِيدُ، وَالْمُسْلِمُون مَع رسول الله كَثِيرٌ ولاَ يَجْمَعُهُمْ كِتَابٌ حَافِظٌ «يُريدُ بذلكَ الدِّيوان».

قال كَعْبٌ: فقلَّ رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَتَغَيَّبَ إلاَّ[6] ظَنَّ أَنَّ ذلكَ سَيَخْفى بِهِ[7] مَا لَمْ يَنْزِلْ فيهِ وَحْيٌ مِن اللَّهِ، وغَزَا رسول الله ﷺ تلكَ الغزوةَ حين طَابت الثِّمَارُ والظِّلالُ، فَأَنا إِلَيْهَا

---

(١) لفظ مسلم: (حديثه).

(٢) عند مسلم زيادة: (قطُّ) والمثبت لفظ البخاري.

(٣) لفظ مسلم: (وَلَمْ يُعَاتِبْ أَحَدًا).

(٤) هذه الزيادة عند البخاري، وكذا عند المنذري، وتبعه المؤلف عليه.

(٥) لفظ مسلم: (عدوًّا).

(٦) (إلا) لا توجد عند مسلم، قال القاضي عياض في الإكمال: هكذا هو في جميع نسخ مسلم، وصوابه: (إلا يظنُّ أن ذلك سيخفي له) بزيادة: (إلا)، وكذا رواه البخاريّ، والمثبت لفظ المنذري.

(٧) لفظ مسلم: (له).

أَصْعرُ، فتجهَّز رسول الله ﷺ وَالْمُسْلِمُون معهُ، وطفِقْت أغدو لِكَي أَتَجهَّزَ معهُ فأَرْجعُ ولمْ أَقْض شيئًا، وأَقُولُ فِي نفْسى: أَنا قَادِرٌ على ذلك إِذا أَرَدْتُ، فلمْ يَزلْ[1] يتمادى بي حتَّى اسْتمَرَّ بالنَّاسِ الْجِدُّ، فأَصْبَحَ رسول الله ﷺ غَاديًا والْمُسْلِمُونَ معَهُ، وَلَمْ أَقْضِ مِنْ جهازي شيْئًا، ثُمَّ غَدَوْتُ فَرجَعْتُ وَلَم أَقْض شَيْئًا، فَلَمْ يزَلْ[2] يَتمادَى بِي حَتَّى أَسْرعُوا وتَفَارَط الْغَزْوُ، فهَمَمْتُ أَنْ أَرْتَحِل فأُدْرِكَهُمْ، فَيَاليْتَني فَعلْتُ، ثُمَّ لَمْ يُقَدَّرْ ذلك لي، فَطفقتُ إِذَا خَرَجْتُ فِي النَّاسِ بَعْد خُرُوجِ رسُول الله ﷺ يُحْزُنُنِي أَنِّي لا أَرَى لِي أُسْوَةً، إِلاَّ رَجُلاً مَغْمُوصًا عَلَيْه فِي النِّفاقِ، أَوْ رَجُلاً مِمَّنْ عَذَرَ اللَّهُ تعالَى مِن الضُّعَفاءِ، ولَمْ يَذكُرني رسول الله ﷺ حتَّى بَلَغ تَبُوكَ[3]، فقالَ وَهُوَ جَالِسٌ فِي القوْمِ بتَبُوك: ما فَعَلَ كعْبُ بْنُ مَالِكٍ؟ فقالَ رَجُلٌ مِن بَنِي سلمِة[4]: يا رسول الله حَبَسَهُ بُرْدَاهُ، وَالنَّظرُ فِي عِطْفيْه. فَقال لَهُ مُعاذُ بْنُ جبَلٍ رضي الله عنه: بِئس ما قُلْتَ، وَاللَّهِ يا رسول الله مَا عَلِمْنَا عليْهِ إِلاَّ خَيْرًا، فَسكَت رسول الله ﷺ. فبيْنَا[5] هُوَ عَلَى ذلك رَأَى رَجُلاً مُبيضًا يَزُولُ بِه السَّرَابُ، فقالَ رسولُ الله ﷺ: كُنْ أَبَا خَيْثَمَةَ، فَإِذا هوَ أَبُو خَيْثَمَةَ الأَنْصَارِيُّ وَهُوَ الَّذي تَصَدَّقَ بصاع التَّمْر حين لَمَزَهُ المنافقون.

قَالَ كَعْبٌ: فَلَّما بَلَغني أَنَّ رسول الله ﷺ قَدْ توَجَّهَ قَافلا مِنْ تَبُوكَ حَضَرَني بَثِّي، فطفقتُ أَتذكَّرُ الكذِبَ وَأَقُولُ: بِمَ أَخْرُجُ مِن سَخطه غَدًا وَأَسْتَعِينُ عَلَى ذَلكَ بِكُلِّ[6] ذِي رَأْيٍ مِنْ أَهْلِي، فَلَمَّا قِيلَ[7]: إِنَّ رسول الله ﷺ قدْ أَظَلَّ قادمًا زاحَ عَنِّي الْبَاطِلُ، حَتَّى عَرَفتُ أَنِّي لم أَنج[8] مِنْهُ بِشَيءٍ أَبَدًا فَأَجْمَعْتُ صِدْقَهُ، وأَصبَحَ رسول الله ﷺ

---

(١) عند مسلم زيادة: (ذلك).

(٢) عند مسلم زيادة: (ذلك).

(٣) عند مسلم: (تبوكًا) والمثبت لفظ المنذري.

(٤) هو: عبد الله بن أنيس، قاله الواقدي. تنبيه المعلم (١١١٢).

(٥) لفظ مسلم: (بينما).

(٦) لفظ مسلم: (كل) بدون حرف الجر، والمثبت لفظ المنذري.

(٧) عند مسلم زيادة: (لي)، وهي لا توجد عند المنذري.

(٨) عند مسلم: (لَمْ أَنْجُوَ).

قَادمًا، وكان إذا قدمَ مِنْ سَفَرٍ بَدأَ بالْمَسْجِد فرَكعَ فيه رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ جَلس للنَّاس، فلمَّا فعل ذَلك جَاءَهُ الْمُخلَّفُونَ[1] يعْتذرُون إليْه وَيَحْلفُون لَهُ، وكانوا بضعًا وثمَانين رَجُلا فقبل منْهُمْ[2] عَلانيَتهُمْ وبايعهم وَاستْغفَر لهُمْ ووَكلَ سَرَائرَهُمْ إلى اللّه تعَالى. حتَّى جئْتُ، فلمَّا سلَمْتُ تبسَّم تبَسُّم الْمُغْضَبِ. ثمَّ قَالَ: تَعَالَ، فجئتُ أَمْشي حَتى جَلَسْتُ بيْن يَدَيْهِ، فقَالَ لِي: مَا خَلَّفَكَ؟ أَلَمْ تكُنْ قد ابْتَعْتَ ظَهْرَك، قَالَ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللّه إنِّي واللّه لَوْ جلسْتُ عنْد غيْركَ منْ أَهْلِ الدُّنْيَا لَرَأَيْتُ أَني سَأَخْرُج منْ سَخَطه بعُذْرٍ، لقدْ[3] أُعْطيتُ جَدَلا، وَلَكنني وَاللّه لقدْ عَلمْتُ لَئن حَدَّثْتُكَ الْيَوْمَ حديث كَذبٍ ترْضى به عنِّي لَيُوشكَنَّ اللّهُ[4] يُسْخِطَكَ عليَّ، وإنْ[5] حَدَّثْتُكَ حَديث صدْقٍ تجدُ عليَّ فيه، إنِّي لأَرْجُو فِيه عُقْبَى اللّه عَزَّ وَجلَّ، واللّه ما كان لِي مِنْ[6] عُذْرٍ، واللّهِ مَا كُنْتُ قَطُّ أَقْوَى وَلا أَيْسر مِنِّي حِينَ تَخلفْتُ عَنك. قَالَ: فقَالَ رسول اللّه ﷺ: **«أَمَّا هذَا فقَدْ صَدَقَ، فَقُمْ حَتَّى يَقْضيَ اللّهُ فيكَ»**[7] وسَارَ[8] رِجَالٌ مِنْ بَنِي سَلمة فاتَّبعُوني، فقالُوا لِي: واللّهِ مَا عَلِمْنَاكَ أَذنْبتَ ذَنْبًا قبْل هذَا، لقَدْ عَجَزتَ فِي أن لا تَكُون اعتذَرْت إلَى رسول اللّه ﷺ بمَا اعْتَذَرَ[9] إليهِ الْمُخَلَّفُون فقَدْ كَانَ كافِيَكَ ذنْبَكَ استِغفارُ رسول اللّه ﷺ لَك.

قَالَ: فواللّه ما زَالُوا يُؤنِّبُونِنِي حتَّى أَرَدْتُ أَنْ أَرْجِعَ إلى رسول اللّه ﷺ فأُكَذِّبَ نَفْسِي[10]، ثُمَّ قُلتُ لهُم: هَلْ لَقِيَ هَذا معِي مِنْ أَحدٍ؟ قَالُوا: نَعَمْ لقِيَهُ معك رَجُلان قَالا مِثْلَ

---

(١) عند مسلم بعدها زيادة: (فطفقوا).

(٢) عند مسلم زيادة: (رسول اللّه ﷺ)، وهي لا توجد عند المنذري.

(٣) عند مسلم (ولقد) بزيادة الواو.

(٤) عند مسلم بعدها زيادة: (أن).

(٥) عند مسلم: (ولئن).

(٦) (من) لا توجد عند مسلم، وكذا لا توجد عند المنذري.

(٧) عند مسلم زيادة: (فقمتُ).

(٨) لفظ مسلم: (وثار).

(٩) عند مسلم زيادة: (به)، وهي لا توجد عند المنذري.

(١٠) عند مسلم زيادة: (قال).

مَا قُلْتَ، وقيل لهمَا مِثْلُ مَا قِيلَ لكَ، قَال: قُلْتُ: مَن هُمَا؟ قالُوا: مُرارةُ بْنُ الرَّبِيعِ[1] الْعَمْرِيُّ، وهِلال بْن أُميَّةَ الْوَاقِفِيُّ؟ قَالَ: فَذكَروا لِي رَجُلَيْنِ صَالِحَيْن قدْ شَهِدا بدْرًا فِيهِمَا أُسْوَةٌ. قَالَ: فَمَضيْت حِينَ ذَكَروهُمَا لِي.

وَنهَى رسول الله ﷺ عن كَلامِنَا أَيُّهَا الثلاثَةُ مِن بَين من تَخَلَّف عَنهُ.

قالَ: فاجْتَنبَنا النَّاسُ أَوْ[2] قَالَ: تَغَيَّرُوا لَنَا حَتَّى تَنَكَّرت لِي فِي نفسي الأَرْضُ، فَمَا هيَ بالأَرْضِ التي أَعْرِفُ، فَلَبثْنَا عَلَى ذَلكَ خمْسِينَ ليْلَةً. فأَمَّا صَاحباي فَاستَكَانَا وَقَعَدَا فِي بُيُوتهمَا يَبْكيَانِ، وأَمَّا أَنَا فَكُنتُ أَشَبَّ الْقَوْمِ وأَجْلَدهُمْ، فَكُنتُ أَخْرُج فَأَشهَدُ الصَّلاة مَعَ الْمُسْلِمِينَ[3]، وَأَطُوفُ فِي الأَسْوَاقِ وَلا يُكَلِّمُنِي أَحدٌ، وآتِي رسول الله ﷺ فأُسَلِّمُ عَلَيْهِ، وَهُو فِي مجْلِسِهِ بعدَ الصَّلاةِ، فَأَقُولُ فِي نفسِي: هَل حَرَّكَ شفتَيهِ بردِّ السَّلامِ أَم لاَ؟ ثُمَّ أُصلِّي قريبًا مِنهُ وأُسَارِقُهُ النَّظَرَ، فَإِذَا أَقبَلتُ على صلاتِي نَظر إِليَّ، وإِذَا الْتَفَتُّ نَحْوَهُ أَعْرَضَ عَنِّي، حَتى إِذا طَال ذلكَ عَلَيَّ مِن جَفْوَةِ الْمُسْلمِينَ مشَيْت حَتَّى تَسوَّرْت جدارَ حَائط أبي قَتَادَةَ، وَهُوَا ابْن عَمِّي، وأَحبُّ النَّاسِ إِلَيَّ، فَسلَّمْتُ عَلَيْهِ فَواللَّهِ مَا رَدَّ عَلَيَّ السَّلامَ، فَقُلْت لَه: يا أَبَا قتادَة أَنْشُدكَ باللَّه هَلْ تَعْلَمُني[4] أُحبُّ الله وَرَسُولَه ﷺ؟ فَسَكَتَ، فَعُدت فَنَاشَدتُه فَسكَتَ، فَعُدْت فَنَاشَدْته فَقَالَ: الله ورَسُولُهُ أَعْلَمُ. فَفَاضَتْ عَيْنَايَ، وَتَوَلَّيْتُ حَتَّى تَسَوَّرتُ الْجدارَ.

فَبَيْنَا أَنَا أَمْشي فِي سُوقِ المدينةِ إِذَا نَبَطِيٌّ منْ نبطِ أَهْلِ الشَّام مِمَّنْ قَدِمَ بالطَّعَامِ يبيعُهُ بالمدينةِ يَقولُ: مَنْ يَدُلُّ عَلَى كَعْبِ بْنِ مَالكٍ؟ فَطفَقَ النَّاسُ يشيرون له إِلَيَّ حَتَّى جَاءَني

(١) لفظ مسلم: (ربيعة العامري) قال الجياني في التقييد (٩٢٥/٣): هكذا قال: (العامري)، وإنما هو العَمري، من بني عمرو بن عَوف. وقال الحافظ ابن حجر في الفتح (٧٢٤/٧): وهو خطأ. وقال القاضي عياض في الإكمال (٢٧٧/٨) وعنه النووي في المنهاج (٩٢/١٧): كذا ذكره البخاري (٤٤١٨) وكذا نسبه ابن إسحاق، وأبو عمر ابن عبد البر وغيرهما، ووقع في نسخ مسلم: (مرارة بن الربيعة) وفي البخاري: (ابن الربيع) قال ابن عبد البر: يقال بالوجهين.

(٢) عند مسلم بالواو فقط، والمثبت لفظ المنذري.

(٣) قوله: (مع المسلمين) لا يوجد عند مسلم.

(٤) لفظ مسلم: (تَعْلَمَنَّ أنِّي).

فَدَفَعَ إِلَيَّ كِتَابًا منْ مَلِكِ غَسَّانَ، وكُنْتُ كَاتِبًا. فَقَرَأْتُهُ فَإِذَا فيهِ: أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّهُ قَدْ بلَغَنَا أَن صاحِبَكَ قدْ جَفاكَ، ولمْ يجعلْكَ اللَّهُ بدَارِ هَوَانٍ وَلا مَضْيعَةٍ، فَالْحقْ بنا نُوَاسِك، فَقلْت حِين قرأْتُهَا: وَهَذِهِ أَيْضًا من الْبَلاءِ فتَيمَّمْتُ بِهَا التَّنُّور فَسَجرْتُهَا[1].

حَتَّى إِذَا مَضَتْ أَرْبَعُون مِن الْخَمْسِينَ وَاسْتَلْبَثَ الْوَحْيُ إِذَا رسولُ رسولِ الله ﷺ يَأْتِينِي، فَقَالَ: إِنَّ رسول الله ﷺ يَأْمُرُك أَنْ تَعْتَزِلَ امْرأَتك، فقلْتُ: أُطَلِّقُهَا، أَمْ مَاذا أَفعلُ؟ قَالَ: لا. بَلْ اعتْزِلْهَا فلا تقربَنَّهَا، وَأَرْسلَ إِلى صَاحِبِيَّ بِمِثْلِ ذلِك. فَقُلْتُ لامْرأَتِي: الْحقِي بِأَهْلِكِ فَكُونِي عِنْدَهُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِي هذَا الأَمر، فَجَاءَت امْرأَةُ هِلالِ ابْنِ أُمَيَّةَ رسول الله ﷺ فقالتْ لَهُ: يا رسول الله إِنَّ هِلالَ بْنَ أُميَّةَ شَيْخٌ ضَائعٌ ليْسَ لَهُ خادِمٌ، فهلْ تَكْرهُ أَنْ أَخْدُمهُ؟ قال: لا، وَلَكِنْ لا يَقْربَنَّك. فَقَالَتْ: إِنَّهُ وَاللَّه مَا بِهِ مِنْ حَرَكةٍ إِلَى شَيءٍ، وَوَاللَّه ما زَالَ يَبْكِي مُنْذُ كَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا كَانَ إِلَى يَوْمِهِ هَذَا.

فَقَال لِي بعْضُ أَهْلِي: لَو اسْتَأْذَنْت رسول الله ﷺ فِي امْرأَتِك، فقدْ أَذن لامْرأَةِ هِلالِ بْنِ أُمَيَّةَ أَنْ تَخْدُمَهُ؟ فقلْتُ: لا أَسْتَأْذِنُ فِيهَا رسول الله ﷺ، ومَا يُدْرِيني مَاذا يَقُولُ رسولُ الله ﷺ إِذَا اسْتَأْذَنْتُهُ فِيهَا، وَأَنَا رَجُلٌ شَابٌّ، فَلَبِثْتُ بِذلك عشْر ليالٍ، فَكَمُلَ لَنا خمْسُونَ لَيْلَةً مِنْ حينَ نُهي عَنْ كَلامنا.

ثُمَّ صَلَّيْتُ صَلاَةَ الْفَجْرِ صباحَ خمْسينَ لَيْلَةً عَلَى ظَهْرِ بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِنَا، فَبينَا أَنَا جَالسٌ عَلَى الْحال التي ذكَر اللَّهُ تعالَى مِنَّا، قَدْ ضَاقَتْ عَلَيَّ نَفْسِي وَضَاقَتْ علَيَّ الأَرْضُ بمَا رَحُبَتْ، سَمعْتُ صَوْتَ صَارِخٍ أوفى[2] عَلَى سَلْعٍ يَقُولُ بأَعْلَى صَوْتِهِ: يَا كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ أَبْشِرْ، فخرَرْتُ سَاجِدًا، وَعَرفْتُ أَنَّهُ قَدْ جَاءَ فَرَجٌ.

فَآذَنَ رسول الله ﷺ النَّاس بِتوْبَةِ اللَّه عَزَّ وَجلَّ عَلَيْنَا حِين صلَّى صَلاة الْفجْرِ فذهَبَ النَّاسُ يُبَشِّرُوننا، فذهَبَ قِبَلَ صَاحِبَيَّ مُبَشِّرُونَ، وركَضَ رَجُلٌ إِليَّ فرسًا وَسَعَى ساعٍ مِنْ أَسْلَمَ قِبَلِي وَأَوْفَى علَى[3] الْجبلِ، وكَان الصَّوْتُ أَسْرَعَ مِنَ الْفَرَسِ، فلمَّا جَاءَنِي الَّذي

---

(١) عند مسلم زيادة: (بها)، وهي لا توجد عند المنذري.

(٢) لفظ مسلم: (ووافى) والمثبت لفظ المنذري

(٣) (على) لا توجد عند مسلم، والمثبت لفظ المنذري.

سمِعْتُ صوْتَهُ يُبَشِّرُنِي نَزَعْتُ لَهُ ثَوْبَيَّ فَكَسَوْتُهُمَا إِيَّاهُ ببشارَته، واللَّه ما أَمْلِكُ غَيْرَهُمَا يوْمَئذٍ، وَاسْتَعَرْتُ ثَوْبَيْنِ فَلَبستُهُمَا وانْطَلَقتُ أَتَأَمَّمُ رسول الله ﷺ يَتَلَقَّانِي النَّاسُ فَوْجًا فَوْجًا يُهَنِّئُونني بِالتَّوْبَةِ وَيقُولُون لِي[1]: لِتَهْنِكَ تَوْبَةُ الله عَلَيْكَ، حتَّى دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَإِذَا رسول الله ﷺ جَالِسٌ[2] حَوْلَهُ النَّاسُ، فَقَامَ طلْحَةُ بْنُ عُبَيْد الله رضي الله عنه يُهَرْوِل حَتَّى صَافَحَنِي وهَنَّأَنِي، واللَّه مَا قَامَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهاجِرِينَ غَيْرُهُ.

فَكَانَ كَعْبٌ لا يَنْساهَا لِطَلْحَة.

قَالَ كَعْبٌ: فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَى رسول الله ﷺ، قال: وَهوَ يَبْرُقُ وَجْهُهُ مِنَ السُّرُور[3]. أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ، مُذْ ولَدَتْكَ أُمُّكَ، فقُلْتُ: أمِنْ عِنْدِكَ يَا رَسُول اللَّهِ أَم مِنْ عِنْد اللهِ؟ قَالَ: لاَ بَلْ مِنْ عِنْد الله عَز وجَلَّ، وكَانَ رسول الله ﷺ إِذَا سُرَّ اسْتَنَارَ وَجْهُهُ حتَّى كَأَنَّ وجْهَهُ قِطْعَةُ قَمر، وكُنَّا نعْرِفُ ذلِكَ مِنْهُ.

فلمَّا جلَسْتُ بَيْنَ يدَيْهِ قُلتُ: يَا رسول اللَّهِ إِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ أَنْخَلِعَ مِن مَالي صدَقَةً إِلَى اللَّهِ وإِلَى رَسُولِهِ.

فقَالَ رَسُول الله ﷺ: أَمْسِكْ عَلَيْكَ[4] بَعْضَ مَالِكَ فَهُوَ خَيْر لَكَ، فَقُلْتُ: إِنِّي أُمْسِكُ سَهْمِي الَّذي بِخيْبَر. وَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله إن الله تَعَالَى إِنَّما أَنْجَانِي بالصدق، وَإِنْ مِنْ تَوْبَتي أَن لا أُحدِّثَ إِلاَّ صِدْقًا ما بَقِيتُ، فوا لله ما علِمْتُ أحدًا مِنَ المسلمِين أَبْلاهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي صدْق الْحَديث مُنذُ ذَكَرْتُ ذَلكَ لرسُولِ الله ﷺ أَحْسَنَ مِمَّا أَبْلاَنِي اللَّهُ تَعالَى[5]، وَاللَّهِ مَا تعمَّدْت كِذْبَةً مُنْذُ قُلْت ذَلِكَ لرَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى يَوْمِي هَذا، وَإِنِّي لأَرْجُو أَنْ يَحْفظني اللَّهُ تَعالى فِيمَا بَقِي.

قَالَ: فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ

(١) (لي) لا توجدث عند مسلم.

(٢) عند مسلم زيادة: (في المسجد)، وهي لا توجد عند المنذري.

(٣) عند مسلم زيادة: (ويقولُ).

(٤) (عليك) لا توجدُ عند مسلم.

(٥) عند مسلم زيادة: (به)، وهي لا توجد عند المنذري.

ﭐتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ حَتَّى بَلَغَ: ﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ حتى بلغ: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[التوبة: ١١٧، ١١٩].

قالَ كعْبٌ: واللَّهِ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ نِعْمَةٍ قَطُّ بَعْدَ إِذْ هَدانِي اللَّهُ لِلإِسْلام أَعْظَمَ فِي نَفسِي مِنْ صِدْقي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَن لاَّ أَكُونَ كَذَبْتُهُ، فأهلك كَمَا هَلَكَ الَّذِينَ كَذَبُوا، إِن الله تَعَالَى قَالَ للَّذينَ كَذَبُوا حِينَ أَنزَلَ الْوَحْيَ شَرَّ مَا قَالَ لأحدٍ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[التوبة ٩٥، ٩٦].

قال كَعْبٌ: كنَّا خُلِّفْنَا أَيُّهَا الثَّلاَثَةُ عَنْ أَمْرِ أُولئِكَ الَّذِينَ قَبِلَ مِنْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ حَلَفوا لَهُ، فبايعَهُمْ وَاستَغْفَرَ لَهُمْ، وأرْجَأَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ أمْرَنا حَتَّى قَضَى اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ، بِذَلكَ قَالَ اللَّه تَعَالَى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟﴾.

وليْسَ الَّذي ذَكَرَ مِمَّا خُلِّفنا تَخَلُّفُنا عَن الغزو، وَإِنَّمَا هُوَ تَخْليفهُ إِيَّانَا وإرجاؤُهُ أَمْرَنَا عَمَّنْ حَلَفَ لَهُ واعْتَذَرَ إِليْهِ فَقَبِلَ مِنْهُ. مُتَّفَقٌ عليه[1].

وفي رواية «**أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَرَجَ فِي غَزْوةِ تَبُوك يَوْمَ الخميسِ، وَكَان يُحِبُّ أَنْ يَخْرُجَ يَوْمَ الخميس**»[2].

وفي رِوَايةٍ: «**وَكَانَ لاَ يَقدُمُ مِنْ سَفَرٍ إِلاَّ نهارًا فِي الضُّحَى. فَإِذَا قَدِمَ بَدَأَ بالْمَسجدِ فصلَّى فِيهِ ركعتيْنِ ثُمَّ جلَس فِيهِ**»[3].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤١٨)، ومسلم (٢٧٦٩/٥٣) واللفظ له. أورده المنذري في ترغيبه (٤٣١٠). وسيكرره المؤلف مختصرًا برقم ١٥٣٢.

(٢) أخرجه البخاري (٢٩٥٠).

(٣) أخرجه البخاري (٤٦٧٧)، ومسلم (٧١٦/٧٤).

ترجمة الراوي:

كعب بن مالك: هو كعب بن مالك بن أبي كعب الأنصاري الخزرجي شاعر الرسول ﷺ، كان من أوائل الأنصار إسلامًا، فشهد العقبة الثانية، وبايع النبي ﷺ، اشتهر بالشعر في الجاهلية، فكان شاعرًا فصيحًا مجيدًا، فلما أسلم دافع بشعره عن النبي ﷺ، وذبّ عنه ودفع الأذى عنه، وأثنى النبي ﷺ على شعره ومدحه إذ ذهب إلى النبي ﷺ فقال له: إن الله عز وجلّ قد أنزل في الشعر ما أنزل. فقال له النبي ﷺ: ((إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه، والذي نفسي بيده لكأن ما ترمونهم به نضح النَّبْل))[1].

وقد جادت قريحته بالأشعار الحسان في المغازي وغيرها، وكان يغلب على شعره تهديد أعداء الإسلام بالحرب، وله بيتان كانا السبب في إسلام قبيلة دَوْس وهما:

قضينا من تِهامة كل وِتْر ... وخيبرَ ثم أغمدنا السيوفا
نخيّرها ولو نطقت لقالت ... قواطعُهنَّ دَوسًا أو ثقيفا[2]

فلما بلغ ذلك دوسًا قالت: انطلقوا فخذوا لأنفسكم لا ينزل بكم ما نزل بثقيف.

ولما هاجر المسلمون إلى المدينة آخى النبي ﷺ بينه وبين الزبير بن العوّام. وقيل: بينه وبين طلحة بن عبيدالله.

وقد شهد المشاهد كلها ما عدا بدرًا. وقد تخلف عن تبوك وتاب الله عليه وأنزل فيه ورفيقيه قرآنًا يتلى إلى يوم القيامة كما في الحديث المشروح.

وله في غزوة أحد الموقف الجميل والفعل الشجاع، فقد ثبت وقت انكشاف المسلمين وأعلنهم بأن النبي ﷺ حيٌّ لم يمت. وقاتل قتالاً شديدًا حتى جرح سبعة عشر جرحًا.

له أحاديث تبلغ الثلاثين متفق على ثلاثة منها. وقد اختلف في وفاته: فقيل: مات في خلافة عليٍّ. وقيل: في خلافة معاوية[3].

---

(١) أخرجه أحمد ٣٨٧/٦ رقم ٢٧١٧٤ وقال محققو المسند: إسناده صحيح ١٤٨/٤٥.

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني ٦١١/٥.

(٣) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ٦٢٥، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير ٤٦١/٤، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني ١١٢٩، والسير ٥٢٣/٢، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي ١٧١/٦، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني ٤٧١/٣، والأعلام، خير الدين الزركلي ٢٢٨/٥، وموسوعة عظماء حول الرسول، خالد عبدالرحمن العك ﷺ ١٦٦٠/٣.

غريب الألفاظ:

تواثقنا على الإسلام: تحالفنا عليه وتعاهدنا[١].

ورّى بغيرها: أي أوهم أنه يريد غزوة غيرها[٢].

مفازًا: برية طويلة قليلة الماء يخاف فيها الهلاك، وسميت بذلك تفاؤلاً بالسلامة[٣].

جلّى: وضّح[٤].

الأُهبة: عُدَّةُ الحرب[٥].

فأخبرهم بوجههم: أي بمقصدهم[٦].

الديوان: هو الدفتر الذي يكتب فيه أسماء الجيش وأهل العطاء، وأول من دوّن الدواوين عمر ﷺ، وهو فارسي معرب[٧].

أصعر: أَمْيَل[٨].

طفقت أغدو لكي أتجهز معه: أي أخذت في التجهز والاستعداد للغزو[٩].

يتمادى بي: تمادى به الأمر: تطاول وتأخر[١٠].

استمر بالناس الجِدُّ: أي اجتهدوا في التجهز والاستعداد للخروج حتى أوشكوا على الانتهاء من ذلك[١١].

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير واللسان والوسيط في (و ث ق).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير واللسان والقاموس في (و ر ي).

(٣) اللسان والمصابح والوسيط في (ف و ز).

(٤) اللسان والوسيط في (ج ل ى)

(٥) اللسان والوسيط في (أ هـ ب).

(٦) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٦٢١.

(٧) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير واللسان في (ص ع ر).

(٨) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ص ع ر).

(٩) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٥٦٥.

(١٠) الوسيط ٨٥٩.

(١١) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ١٤٠، والمصباح المنير في غريب الشرح الكبير، الفيومي ١١٣، وفتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٧/٧٢٢.

جِهازي: أهبة سفري[١].

تفارط الغَزْوُ: فات وقتُه وتقدَّم[٢].

أسوة: القدوة المتبوع، أو النظير المماثل يتأسى به[٣].

مغموصًا عليه في النفاق: مطعونًا في دينه متهمًا بالنفاق[٤].

حبسه برداه والنظر في عِطفيه: عطفاه: جانباه من رأسه إلى وركه، إشارةً إلى إعجابه بنفسه ولباسه[٥].

مُبَيِّضًا: لابسًا بياضًا[٦].

يزول به السراب: يرفعه ويُظهره، ويظهر شخصه في السراب خيالاً[٧].

لمزه المنافقون: أشاروا إليه بأعينهم ورؤوسهم وشفاههم، احتقارًا لصغر صدقته[٨].

قافلاً: راجعًا[٩].

بَثِّي: أشَدُّ حُزني[١٠].

أَظَلَّ قادمًا: أقبل ودَنَا قدومه، كأنه ألقى عليه ظلّه[١١].

---

(١) اللسان في (ج هـ ز).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير واللسان في (ف ر ط).

(٣) انظر: المفصح المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي لمعاني صحيح مسلم ٣٢، وفتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٧٢٥/٧.

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير واللسان في (غ م ص).

(٥) انظر: المفصح المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ٣٢٢، وشرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٦٢٢، وفتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٧٢٣/٧.

(٦) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير واللسان في (ب ي ض).

(٧) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير واللسان في (ز و ل).

(٨) اللسان والوسيط في (ل م ز).

(٩) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير واللسان والوسيط في (ق ف ل).

(١٠) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير واللسان والقاموس في (ب ث ث).

(١١) انظر: المفصح المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ٢٠١، وشرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٦٢٢، النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير والقاموس في (ظ ل ل).

زاح: زال وذهب[١].

أجمعتُ صِدقَهُ: عزمت على أن أصدقَهُ[٢].

المخلفون: هم الذين لم يخرجوا مع النبي ﷺ إلى تبوك وتخلفوا عنه[٣].

بضعًا: البضع: بكسر الباء وفتحها: ما بين الثلاثة والعشرة[٤].

المغضب: الغضبان[٥].

ابتعت ظهرك: اشتريت دابة تحمل أثقالك وتركب عليها[٦].

جدلاً: فصاحة وقوة في الكلام وبراعة بحيث أخرج عن عهدة ما ينسب إليّ إذا أردت[٧].

تجد علي فيه: تغضب[٨].

إني لأرجو فيه عقبي الله: أي أن يعقبني خيرًا وأن يثبتني عليه[٩].

يؤنبونني: يلومونني أشد اللوم[١٠].

أيها الثلاثة: أسلوب اختصاص معناه: أن النبي ﷺ خصنا نحن الثلاثة من دون بقية المتخلفين بألا يكلمنا المسلمون[١١].

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير واللسان والقاموس والوسيط في (ز ي ح).

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٧٢٣/٧، والوسيط في (ج م ع).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير ١٨٩/٤.

(٤) اللسان في (ب ض ع).

(٥) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٦٢٢.

(٦) انظر: المعجم الوسيط، مع اللغة العربية ٧٩، ٥٨٧.

(٧) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٦٢٢.

(٨) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٧٢٤/٧.

(٩) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٦٢٢.

(١٠) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٦٢٢.

(١١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٦٢٢، وفتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٧٢٥/٧.

تنكرت الأرضُ: معناه: تغير عليّ كل شيء حتى الأرض فإنها توحشت عليّ وصارت كأنها أرض لم أعرفها لتوحشها علي، وذلك لشدة الحزن والهم[١].

استكانا: خضعا[٢].

أشب القوم وأجلدهم: أصغرهم سنًا وأقواهم[٣].

أسارقه: أنظر إليه في خفية[٤].

تسورت جدار حائط أبي قتادة: علوت سور حديقته[٥].

أنشدك: أسألك[٦].

النبطيُّ: واد النَّبَط، وهم جيل من الناس أصلهم في سواد العراق[٧].

ملك غسان: غسان قبيلة عربية سكنت جنوب الشام. واسم هذا الملك جبلة بن الأيهم[٨].

عَمَّمْتُ: قصدتُ[٩].

التنُّور: الفرن تُخبز فيه[١٠].

سَجَرْتُها: أحرقتها[١١].

---

(١) انظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٦٢٢، وفتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٧/٧٢٥، واللسان والوسيط في (ن ك ر).

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٦٢٢.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٧/٧٢٥.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٧/٧٢٥.

(٥) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٦٢٢، وفتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٧/٧٢٥، النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير واللسان والوسيط في (س و ر).

(٦) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٧/٧٢٥.

(٧) الصحاح واللسان في (ن ب ط).

(٨) انظر: أطلس الحديث النبوي، د. شوقي أبو خليل ٢٨٦، وفتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٧/٧٢٦.

(٩) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير واللسان في (ي م م).

(١٠) اللسان والوسيط في (ت ن ر)

(١١) اللسان والقاموس والوسيط في (س ج ر).

استلبث الوحي: أي أبطأ وتأخر[١].

أوفى على سلع: أي صعد وارتفع على جبل سَلْع وهو اليوم في وسط عمران المدينة[٢].

آذن: أعلم[٣].

ركض فرسًا: ضربها برجله يستحثها على العَدْوِ[٤].

أتأمّم: أقصد[٥].

لتهنك توبة الله عليك: لتفرح وتسعد وتسرّ[٦].

برق وجهه: لمع وتلألأ[٧].

أنخلع من مالي: أخرج منه وأتصدق به كله[٨].

سهمي: السهم: الحصة والنصيب. والمراد: مالي وأرضي التي بخيبر[٩].

الشرح الأدبي

إن هذا الحديث الشريف يتسم بالطول والإطناب وليس الإسهاب؛ والتوسع في حكاية المشاهد هنا مطلوب ومناسب للمقام فالحديث يرويه عبدالله ابن الصحابي الجليل والشاعر الفارس كعب بن مالك أحد شعراء الرسول الثلاثة "حسان بن ثابت ، وعبدالله بن رواحة ، كعب بن مالك" رضي الله عنهم.

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ل ب ث).

(٢) انظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٦٢٣ ، وأطلس السيرة النبوية ، د. شوقي أبو خليل ٢٢٢.

(٣) اللسان والوسيط في (أ ذ ن).

(٤) الصحاح واللسان والوسيط في (ر ك ض).

(٥) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير واللسان والوسيط في (أ م م).

(٦) المعجم الوسيط، مع اللغة العربية في (هـ ن أ).

(٧) الوسيط (ب ر ق).

(٨) انظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٦٢٣ ، وفتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٧٢٨/٧.

(٩) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير والوسيط في (س هـ م)، ومعجم لغة الفقهاء ، أ.د. محمد رواس قلعة جي ٢٢٥.

ومجيء هذا الحديث في باب التوبة قد يثير التساؤلات لأنه يحكي بعض مشاهد غزوة تبوك، ويوضح موقف كعب بن مالك في هذه الغزوة ويبين كيف تطور موقفه بعد تخلفه عن ركب الجهاد مع رسول الله ﷺ، ولكن التساؤلات تجد المخرج حين نتابع قراءة ما يرويه عبدالله بن كعب سماعًا عن أبيه كعب، حيث يختم الحديث بمشهد التوبة والبراءة، ويدور هذا الحوار الصادق المؤثر بين كعب بن مالك شاعر الإسلام والفارس المغوار، وبين رسول الله ﷺ: يقول كعب بعد أن تاب الله عليه وبشره رسول الله ﷺ بذلك "يا رسول الله إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله ﷺ: فقال رسول الله ﷺ أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك فقلت: إني أمسك سهمي الذي بخيبر، وقلت: يارسول الله إن الله تعالى إنما أنجاني بالصدق وإن من توبتي أن لا أحدث إلا صدقًا ما بقيت".

وحين نتأمل مشاهد هذا الحديث النبوي الحواري الذي صيغ في قالب القصة، وهو يحكي وقائع حقيقية، ولكنها تحتاج إلى إمعان النظر، واستلهام العبر، ندرك أن هذه المشاهد التي تكون قصة التوبة في هذا النص النبوي الشريف تتوالى على النسق الآتي:

١- الاستعداد لغزوة تبوك وتخلف كعب بن مالك عن الغزوة بغير سبب أو عذر شرعي حيث يقول "إني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عن رسول الله في تلك الغزوة" ولنتأمل التأكيد في أول العبارة.

٢- كعب بن مالك وحالة التردد والقلق، ومحاولاته اللحاق بجيش المسلمين، وتصوير الحزن الشديد حين رأى نفسه في المدينة بين طوائف غير محمودة، أو أصحاب أعذار شرعية؛ ويصور كعب هذه الحالة الندمية التي يغلفها الحزن والأسى بسبب التخلف عن اللحاق بالجيش: يقول: "فطفقت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ "يحزنني أني لا أرى لي أسوة إلا رجلاً مغموصًا عليه في النفاق أو رجلاً ممن عذر الله تعالى من الضعفاء".

ودلالة كره النفاق تبوح بها هذه الكلمة التي جاءت صفة لرجل وهي "مغموصًا" ومعناها أنه مطعون عليه في دينه، ومحتقر ومتهم في عقيدته لأنه منافق يظهر الإسلام ويخفي الكفر.

وكأن كعب بن مالك حين يواجه المنافقين بهذا الواقع ينفي عن نفسه أن يكون منهم؛ لأنه ذكر بعد ذلك أصحاب الأعذار من الضعفاء والمرضى والعميان، وكل ذوي الحاجات، وكعب ليس منهم وهو الذي شهد له رسول الله ﷺ وأخبره بأن الله شكره على قوله ولا ينسى تأييده للإسلام؛ فكيف لا يحزن كعب بن مالك بعد تخلفه عن الجهاد وهو الذي قال له رسول الله ﷺ: "أترى الله نسي لك قولك:

زعمت سخينة أن ستغلب ربها وليُغْلَبَنَّ مغالبُ الغلاب[(١)]

وفي رواية: لقد شكرك الله ياكعب على قولك هذا[(٢)].

وكيف لا يندم كعب بن مالك؟ أبعد هذه المواقف العظيمة يتخلف عن الغزو؟ وهو كما يقول العلماء أحد شعراء النبي ﷺ المجاهدين بألسنتهم وأيديهم وهم ثلاثة: حسان وكعب وابن رواحة، وكان حسان يقع في الأنساب، وابن رواحة يعيرهم بالكفر، وكعب يخوفهم وقائع السيف.

٣- والمشهد الثالث من مشاهد هذه القصة هو: سؤال رسول الله ﷺ عن كعب بن مالك بعد أن وصل إلى تبوك وتتعدد الآراء في تفسير سبب تخلفه؛ فقد أدان موقفه رجل من بني سلمة وقيل هو: عبدالله بن أنيس، حيث قال: "يا رسول الله حبسه برداه والنظر في عطفية" وهذا اتهام لكعب وهو كناية عن العجب والزهو والاهتمام بالزينة الخاصة: ويقول القرطبي مستنكرًا هذا التعليل والتفسير: وكأن هذا القائل كان في نفسه حقد على كعب، فنسب كعب إلى الزهو والكبر وكانت نسبة باطلة؛ وقول القرطبي صحيح لأن معاذ بن جبل رضي الله عنه استنكر هذا التفسير وشهد لكعب بن مالك بالفضل وقال في رده على هذا الرجل "بئس ما قلت، ثم قال والله يارسول الله ما علمنا عليه إلا خيرًا".

---

(١) طبقات فحول الشعراء ٢٢٢/١.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في الأشراف والبخاري في التاريخ الكبير ١٢٠/١.

وانظر: طبقات فحول الشعراء، ابن سلام، ص٢٢٢، وانظر النظرة النبوية في نقد الشعر د. وليد قصابي، ص٣٦.

٤- والمشهد الرابع يصور رجوع الجيش، وتفكير كعب بن مالك رضي الله عنه في تبرير الموقف بعيدًا عن الكذب والنفاق، ويقول مصورًا هذه الحالة الشعورية وهو يدرك تقدير رسول الله ﷺ له وموقفه تجاهه، ورغم ذلك يقول: "فلما بلغني أن رسول الله ﷺ قد توجه قافلاً من تبوك حضرني بثي" والبث: أشد الحزن فطفقت أتذكر الكذب: وأقول بما أخرج من سخطه غدا؟ وأستعين على ذلك بكل ذي رأى من أهلي.

وهذه المراجعة الشديدة والمحاسبة الذاتية التي يجريها كعب مع نفسه، على الرغم من أنه أحد شعراء الإسلام الكبار وحضر الغزوات كلها، وهي: سبع وعشرون غزوة مع رسول الله ماعدا خيبر وبدر، هذه المحاسبة تؤكد صدق شعور كعب، وشدة محبته لرسول الله وقوة ارتباطه بالإسلام ونبي الإسلام: محمد بن عبدالله ﷺ.

٥-والمشهد الخامس يصور المتخلفين عن غزوة تبوك وكانوا بضعًا وثمانين رجلاً، وهم يعتذرون إلى رسول الله ويحلفون له، ومنهم من اعتذر بالمرض، ومنهم من اعتذر بغيره وهو كاذب فيه، فقبل الرسول منهم أعذارهم والتعبير بلفظ "علانيتهم" يوحي بأن هذا العلن قد يخالف الحقيقة، ولكن الرسول قبل عذرهم وبايعهم واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله تعالى كما يروي كعب بن مالك.

٦- والمشهد السادس يصور موقف كعب أمام رسول الله ﷺ حيث يدور حوار صريح هادئ تغلفه الحكمة، وتوشيه المحبة، ويأبى كعب أن يكذب أو أن يتعلل بأسباب واهية، ويرى أن الصدق سفينة النجاة، وبعد استماع رسول الله له عقب سؤاله "ما خلفك؟" ويصدق كعب في الإجابة حيث يقول: "والله ما كان لي من عذر" فيقول رسول الله ﷺ: "أما هذا فقد صدق: فقم حتى يقضي الله فيك" ويذعن كعب لأمر رسول الله، ويؤنبه رجال من بني سلمة على صدقه وعدم اعتذاره، ثم يحاول ملك غسان إغراء كعب، وإيهامه بظلم رسول الله له، ولكن كعب يلقي برسالته في التنور فيحرقها، وظل كعب وصاحباه خمسين ليلة ينتظرون حكم الله عز وجل وهم في شبه عزلة حتى عن زوجاتهم، ونزلت التوبة عليهم من السماء وقال رسول الله ﷺ لكعب "أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك" والآيات في سورة التوبة خير بشارة وأعظم

ثواب، قال الله عز وجل: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[١].

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى عدة أحكام فقهية:

الأول فيه دليل على جواز دخول الإنسان بستان صديقه وقريبه الذي يُدّل عليه ويعرف أنه لا يكره ذلك بغير إذنه بشرط أن يعلم أنه ليس هناك زوجة مكشوفة ونحو ذلك[٢].

الثاني: حكم السلام على المبتدعة، وقد ذكر جمهور الفقهاء[٣] أنه لا يسلم على أهل البدع والأهواء وإذا ابتدأوا هم بالسلام لم يرد عليهم زجرًا لهم، وللشافعية وجه حكاه النووي في المجموع أنه يستحب السلام عليهم لأنهم مسلمون.

الثالث: وفيه دليل على أن السلام كلام، فمن حلف لا يكلم أحدًا فسلم عليه أو رد عليه السلام حنث[٤].

---

(١) سورة التوبة ١١٧-١١٩.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٥٩/٧، ط دار إحياء التراث العربي بيروت.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٥٩/٧، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٤٦٧/٤، وطرح التثريب ٩٨/٨، والفتاوى الكبرى ٢١/٣، والفروع، ابن مفلح ١٨٤/٢، والآداب الشرعية، حماد بن عبدالله الحماد ٢٣٧/١، ٢٤٤، ونيل الأوطار، الشوكاني ١١٥/٢، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٦٧/٢٥ وما بعدها.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٥٩/٧.

الرابع: حكم صريح الطلاق وكنايته، فالطلاق من حيث صيغته نوعان طلاق صريح وطلاق كِنائي، وقد اتفق الفقهاء[١] على أن الصريح في الطلاق ما لم يستعمل إلا فيه غالبًا أو ما ثبت حكمه الشرعي بلا نية، كقوله لزوجته: أنت طالق أو مطلقة أو بائنة، وهذا النوع يقع الطلاق به بدون نية، ويقع بالنية المناقضة -أي اللفظ غير الصريح في الطلاق إذا سئل عنه أمام القاضي- وأما الكنائي في الطلاق فهو ما لم يوضع اللفظ له واحتمله وغيره كقوله لزوجته الحقي بأهلك أو اغربي عن وجهي أو أنت حرة أنت خلية أو برية أو بتة، ولا يقع به الطلاق إلا بالنية.

الخامس: حكم التبشير والتهنئة، وقد ذكر الفقهاء[٢] أنه يستحب التبشير والتهنئة عند حدوث نعمة، أو اندفاع كربة شديدة.

السادس: حكم إجازة البشير بخلعة، فقد ذكر الفقهاء[٣] أنه يستحب إجازة من يحمل البشرى بما يقدر عليه المرء من خلعة من مال أو ثوب أو أي شيء آخر.

السابع: حكم سجود الشكر، وقد اختلف الفقهاء في حكم سجود الشكر على قولين:

القول الأول: ذهب أكثر الحنفية[٤] والشافعية[٥] والحنابلة[٦] والظاهرية[٧] إلى أن

---

(١) تبيين الحقائق، الزيلعي ١٩٧/٢، والجوهرة النيرة شرح مختصر القدوري، أبو بكر الحوازي اليمني ٣٣/٢، وشرح حدود ابن عرفة ص ١٩٣، وأنوار البروق ١٥٢/٣ وما بعدها، والغرر البهية في شرح البهجة الوردية، القاضي أبو يحيى زكريا الأنصاري ٢٥٠/٤، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي ٢٤٥/٥، وشرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٥٩/٧، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٦/٢٩.

(٢) المدخل لابن الحاج ١٧٠/١، وطرح التثريب ٦٩/٨، وشرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٥٩/٧، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٩٤/٨.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٥٩/٧، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٩٥/٨.

(٤) شرح فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، الشوكاني ٥٢٣/١، بدائع الصنائع، الكاساني ١٧١/١.

(٥) الأم، الأمام الشافعي١١٠/٢، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٥٦٤/٣ وما بعدها، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا بن محمد بن أحمد الأنصاري١٩٨/١.

(٦) المغني، ابن قدامة ٣٦٣/١، والفروع، ابن مفلح ٥٠٤/١، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، المرداوي ٢٠٠/٢.

(٧) المحلى، ابن حزم ٣٣١/٣.

سجود الشكر عند وجود سببه سنة ويشترط فيه ما يشترط في سجود التلاوة، وتكون سجدة الشكر في كل حال عند حدوث نعم أو تجددها، أو عند اندفاع نقم.

القول الثاني: ذهب أبو حنيفة وأبو يوسف[١]، والمالكية[٢] إلى أن سجود الشكر مكروه، لأنه لم يثبت عن النبي ﷺ مع كثرة تجدد النعم في عهده، لكنه مكروه كراهة تحريم عند مالك وكراهة تنزيه عند أبي حنيفة[٣].

الثامن: حكم إعارة الثوب للبس، وقد اتفق الفقهاء[٤] على جواز الإعارة في الجملة، ومن ذلك إعارة الثوب للبس والدابة للركوب والكتاب للقراءة وغير ذلك، واختلفوا في حكمها فذهب جمهور الفقهاء من الحنفية والمالكية والشافعية والحنابلة إلى أنها مندوبة، وقيل هي واجب.

التاسع: حكم مصافحة القادم والقيام له، وقد ذكر الفقهاء[٥] أنه يستحب مصافحة القادم والقيام له عند السلام عليه، متى كان ذلك بغير قصد المباهاة والسمعة والكبرياء، فإن كان القصد كذلك فقد ورد النهي عنه.

---

(١) شرح فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، الشوكاني ٥٢٣/١، و بدائع الصنائع، الكاساني ١٧١/١.

(٢) المدونة الكبرى عن رواية سحسنون عن ابن قاسم، الإمام مالك الصبحي ١٩٧/١، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ٦١/٢، وأنوار البروق للقرافي ٢٢٠/٤.

(٣) انظر: الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٤٧/٢٤.

(٤) تبيين الحقائق، الزيلعي ٨٣/٥، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ٢٦٨/٥، وشرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٥٩/٧، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا بن محمد بن أحمد الأنصاري٣٢٤/٢، والمغني، ابن قدامة ١٢٨/٥، والفروع، ابن مفلح ٤٦٩/٤، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٨٢/٥.

(٥) المدخل لابن الحاج ١٧٠/١، وشرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٥٩/٧، والآداب الشرعية، حماد بن عبدالله الحماد ٤٠٦/١، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١١٤/٣٤ وما بعدها.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: أهمية مراجعة النفس ومحاسبتها.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: الحذر من الكسل والقعود عن المشاركة في أبواب الخير.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: أمانة الكلمة.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: فضل التزام الصدق.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: شناعة الكذب وعاقبته الأليمة.

سادسًا: من أساليب الدعوة: الهجر الإيجابي الزاجر.

سابعًا: من موضوعات الدعوة: قوة إيمان كعب بن مالك رضي الله عنه وثباته أمام الإغراءات.

ثامنًا: من أساليب الدعوة: البشارة.

تاسعًا: من صفات الداعية: مشاركة إخوانه مناسباتهم السارة.

عاشرًا: من موضوعات الدعوة: فضل الصدقة.

حادي عاشر: من صفات المدعو: الاستجابة لأوامر الرسول ﷺ.

أولاً- من موضوعات الدعوة: أهمية مراجعة النفس ومحاسبتها:

إن مما ينبغي على الإنسان فعله أن يراجع نفسه ويحاسبها بين الفينة والأخرى ليعرف مدى صلاحه فإن كان محسنًا حمد الله وازداد إحسانًا وإن كان غير ذلك استغفر وأناب إلى ربه، وكان ممن اتصف بذلك كعب بن مالك رضي الله عنه حين تخلف عن الغزو مع قدرته عليه يقول "وكان من خبري حين تخلفت عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك أني لم أكن قط أقوى، ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزوة...".

ويبدو من فقرات الحديث؛ أنه حاسب نفسه وأحزنه ما وقع فيه من تفريط "فكنت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ يحزنني أني لا أرى لي أسوة إلا رجلاً مغموصًا عليه في النفاق، أو رجلاً ممن عذر الله تعالى من الضعفاء" إن مراجعة النفس ومحاسبتها من الأمور التي يمتدحها القرآن ويعلي من شأنها فأقسم الله بالنفس اللوامة فقال: ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾[1] أي بنفس المؤمن الذي لا تراه إلا يلوم نفسه، يقول:

---

(١) سورة القيامة، آية: ٢.

ما أردت بكذا؟ فلا تراه إلا وهو يعاتب نفسه، قاله ابن عباس ومجاهد والحسن وغيرهم[١] ولذا ينبغي على الإنسان أن يحاسب نفسه وأن يزن أعماله[٢]، فما وجد فيها من صواب حسّنه، وما وجد من اعوجاج قوّمه.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: الحذر من الكسل والقعود عن المشاركة في أبواب الخير:

لقد حذرنا الإسلام من الكسل وتسويف الأعمال لما يؤول في النهاية من فوات الخير وعدم تدارك ما فات، وفي الحديث إشارة إلى ما تسبب فيه كسل كعب بن مالك ﵁ من التخلف قال كعب "وطفقت أغدو لكي أتجهز معه، فأرجع ولم أقض شيئًا، وأقول في نفسي: أنا قادر على ذلك إذا أردت، فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى استمر بالناس الجد فأصبح رسول الله ﷺ غاديًا والمسلمون معه ولم أقض من جهازي شيئًا...".

ولخطورة الكسل كان رسول الله ﷺ يستعيذ منه فعن أنس بن مالك ﵁: كان النبي ﷺ يقول: ((اللَّهمَّ إِني أَعوذُ بكَ منَ العجز والكسل، والجُبنِ والهرَم، وأَعوذُ بكَ من فتنةِ المحيا والممات، وأَعوذُ بكَ من عَذابِ القَبر))[٣] فالمؤمن من يوقن أن السعادة في الآخرة والنجاح في الأولى موقوف على العمل، فالجنة في الآخرة ليست جزاء لأهل البطالة والكسل والفراغ، بل لأهل الجد والعمل والاتقان ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[٤][٥].

وقد بيّن الراغب خطر الكسل وعواقبه الوخيمة، فقال: "من تعطل وتبطل انسلخ من الإنسانية، بل من الحيوانية وصار من جنس الموتى، ومن تعود الكسل ومال إلى الراحة فقد الراحة، وقد قيل: إن أردت ألا تتعب فاتعب لئلا تتعب، وقيل أيضًا: إياك والكسل والضجر، فإنك إن كسلت لم تؤد حقًا، وإن ضجرت لم تصبر على الحق،

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٩٣/١٩/١٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٢١٣/٨.

(٣) أخرجه البخاري ٢٨٢٣.

(٤) سورة الزخرف، آية: ٧٢.

(٥) الإيمان والحياة، د. يوسف القرضاوي ص ٢٥٤.

ولأن الفراغ يبطل الهيئات الإنسانية فكل هيئة بل كل عضو ترك استعماله يبطل، كالعين إذا غمضت، واليد إذا عطلت، ولذلك وضعت الرياضات في كل شيء، ولما جعل الله تعالى للحيوان قوة التحرك لم يجعل له رزقًا إلا بسعي ما منه، لئلا تتعطل فائدة ما جُعل له من قوة التحرك، ولما جعل للإنسان قوة الفكرة ترك من كل نعمة أنعمها تعالى عليه جانبًا يصلحه هو بفكرته لئلا تبطل فائدة الفكرة، فيكون وجودها عبثًا، وكما أن البدن يتعود الرفاهية بالكسل، كذلك النفس تتعوده بترك النظر، والتفكر مما يجعلها تتبلد وتتبله، وترجع إلى رتبة البهائم، وإذا تأملت قول النبي ﷺ: ((سافروا تغنموا))[1] ونظرت إليه نظرًا عاليًا علمت أنه حثك على التحرك الذي يثمر لك جنة المأوى ومصاحبة الملأ الأعلى، بل مجاورة الله تعالى.

والكسل قسمان: الأول: كسل العقل بعدم إعماله في التفكر والتدبر والنظر في آلاء الله من ناحية، وفي تركه النظر إلى ما يصلح شأن الإنسان، ومن حوله في الدنيا التي فيها معاشه. وليس تأخر الأمم ناتجًا إلا عن كسل أصحاب العقول فيها وقلة اكتراثهم بالقوة الإبداعية المفكرة التي أودعها الله فيهم.

الثاني: كسل البدن بما يشتمل عليه من الجوارح، وينجم عن هذا الكسل تأخر الأفراد، بله الأمم في مجالات النشاط المختلفة من زراعة وصناعة وغيرهما"[2].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: أمانة الكلمة:

إن الكلمة من الأمانات التي يسأل عنها الإنسان يوم القيامة قال تعالى: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾[3] ولقد استشعر كعب بن مالك رضي الله عنه أمانة الكلمة فأبى أن يخونها، وقال: "فقال لي رسول الله ﷺ ما خلفك؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟

---

(١) أورده المنذري في الترغيب والترهيب برقم ١٤٧٠ بلفظ: "اغزوا تغنموا، وصوموا تصحوا، وسافروا تستغنوا"، وقال: رواه الطبراني في الأوسط ٨٣٠٨ ورواته ثقات، وضعفه محقق الترغيب والترهيب.

(٢) الذريعة إلى مكارم الشريعة، الراغب الأصفهاني ص ٢٨٣ - ٢٨٤.

(٣) سورة ق، آية: ١٨.

قال: قلت يا رسول الله: إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر، لقد أعطيت جدلاً، ولكنني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني، ليوشكن الله أن يسخطك علي..." فإن من أهم الأمانات التي ينبغي المحافظة عليها هي الكلمة وقد أدرجها المفسرون تحت قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ﴾[(١)(٢)] ونهانا الله عن خيانة الأمانة فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[(٣)].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: فضل التزام الصدق:

إن الصدق طريق الجنة والتقرب إلى الله، وهو دليل القوة وسمة الثقة بالنفس[(٤)] وقد أمرنا الله بالصدق والكون مع أصحابه فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[(٥)] وقد آمن كعب بن مالك رضي الله عنه بانجاء الصدق لصاحبه فلم يرض به بديلاً، يقول كعب: "فلما بلغني أن رسول الله ﷺ قد توجه قافلاً من تبوك حضرني بَثِي، فطفقت أتذكر الكذب وأقول بم أخرج من سخطه غدًا، وأستعين على ذلك بكل ذي رأي من أهلي، فلما قيل لي: إن رسول الله قد أظل قادمًا، زاح عني الباطل حتى عرفت أني لم أنج منه بشيء أبدًا فأجمعتُ صِدْقَهُ".

لذا ينبغي على الداعية والمدعو على حد سواء التحلي بالصدق فإنه فضيلة الفضائل، وأنس الخلائق يقوم عليه نظام الاجتماع وترتيب الأمور، وسيرها السير الحميد، وإنه ليعلي صاحبه عند الناس جميعًا فيجعله موضع ثقتهم، مرغوب الحديث عندهم، محبوبًا إليهم، محترم الكلمة عند حكامهم، مقبول الشهادة عند قضاتهم[(٦)].

---

(١) سورة الأحزاب، آية: ٧٢.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٢٥٤/١٤/٧.

(٣) سورة الأنفال، آية: ٢٧.

(٤) انظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد ٢٥١٦/٦.

(٥) سورة التوبة، آية: ١١٩.

(٦) الأدب النبوي، محمد عبدالعزيزالخولي ص ١٤٧، ١٤٨.

فالصدق له من الآثار الحميد ومن العوائد العديد، وهو حسنة تنساق بصاحبها إلى الحسنات فهو دليل على حسن السيرة، ونقاء السريرة، وسمو الهمة، ورجحان العقل.

فبالصدق يشرف قدر المرء،وتعلو منزلته، ويصفو باله، ويطيب عيشه، فهو ينجي صاحبه من رجس الكذب، ووخز الضمير، وذل الاعتذار، ويحميه من إساءة الناس إليه، ونزع الثقة منه، كما أنه يكسبه عزة وشجاعة، وثقة في النفس، فيظل موفور الكرامة، عزيز النفس، مهيب الجناب.

ولا يمكن أن يستقيم لأحد سؤدد، ولا تعلو مكانة، ولا يحرز قبولاً في القلوب، ما لم يرزق لسان صدق[١].

ثم إن الصدق يهدي إلى البر، وحسن الخلق من جملة ذلك البر، قال بعض البلغاء: الصادق مصان خليل، والكاذب مهان ذليل.

خامسًا- من موضوعات الدعوة: شناعة الكذب وعاقبته الأليمة:

إن الكذب جماع كل شر وأصل كل ذم لسوء عواقبه وخبث نتائجه لأنه ينتج النميمة التي تنتج البغضاء والبغضاء تؤول إلى العداوة، وليس مع العداوة أمن ولا راحة، لذلك قيل من قل صدقه قل صديقه[٢]، وكما أن الصدق أس الفضائل فإن الكذب أس الرذائل، به يتصدع بنيان المجتمع، ويختل سير الأمور ويسقط صاحبه من العيون، لا يصدقونه في قول، ولا يثقون به في عمل، ولا يحبون له مجلسًا، أحاديثه منبوذة، وشهادته مردودة، لذلك نهى الإسلام عن الكذب ونفر منه[٣].

ولقد أحسن كعب بن مالك صنعًا بالتزامه الصدق فنجاه الله به يقول: "وقلت يا رسول الله إن الله تعالى إنما أنجاني بالصدق وإن من توبتي ألا أحدث إلا صدقًا ما بقيت فوالله ما علمت أحدًا من المسلمين أبلاه الله تعالى في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك

---

(١) سوء الخلق "مظاهره، أسبابه، علاجه"، محمد بن إبراهيم الحمد ص ١٢٦.

(٢) أدب الدنيا والدين، الماوردي ص ٢٦٢.

(٣) المرجع السابق ١٥٠.

لرسول الله ﷺ أحسن مما أبلاني الله تعالى" وأنزل الله ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ حتى بلغ ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَـٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ حتى بلغ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾[(١)] أما الذين كذبوا الله ورسوله فباءوا عاقبة كذبهم، وبئست هي العاقبة قال كعب "فإن الله تعالى قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد فقال تعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝٩٥ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾[(٢)].

سادسًا- من أساليب الدعوة: الهجر الإيجابي الزاجر:

ورد استعمال هذا الأسلوب في الحديث في قول كعب رضي الله عنه: "ونهى رسول الله ﷺ عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه، قال: فاجتنبنا الناس أو قال تغيروا لنا، حتى تنكرت لي نفس الأرض، فما هي بالأرض التي أعرف" ويكون هذا الهجر ممن له سلطة مادية كالزوج والأب والحاكم أو معنوية -كالعالم- على المهجور[(٣)]، قال ابن القيم: (وفي القصة دليل على هجران الإمام والعالم والمطاع، لمن فعل ما يستوجب العتب، ويكون هجرانه دواءً له، بحيث لا يضعف عن حصول الشفاء به، ولا يزيد في الكمية والكيفية عليه فيهلكه، إذ المراد تأديبه لا إتلافه[(٤)].

---

(١) سورة التوبة، الآيات: ١١٧-١١٩.

(٢) سورة التوبة، الآيتان: ٩٥ - ٩٦.

(٣) الهجر في الكتاب والسنة، مشهور حسن محمود سلمان ص ١٥٧.

(٤) زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن القيم ٥٧٨/٣.

سابعًا- من موضوعات الدعوة: قوة إيمان كعب بن مالك ﵁ وثباته أمام الإغراءات:

يظهر هذا جليًا في موقف كعب بن مالك ﵁ من كتاب ملك غسان الذي أرسله له مع النبطي، ففي شدة معاناته من هجر رسول الله ﷺ وأصحابه ﵃ له، وطول مدة الهجر إلى أن ضاقت عليه الأرض وتنكر له الناس، وفي هذا الوقت العصيب يأتيه الاختبار والامتحان لقوة إيمانه -كتاب ملك غسان مع النبطي يعرض عليه أن يلحق بهم ويخرج من دار الإسلام التي جفوه أهلها وتنكروا له، فيقول ﵁: "فبينا أنا أمشي في سوق المدينة إذا نبطيٌّ من نبط الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدل على كعب بن مالك؟ فطفق الناس يشيرون له إليَّ حتى جاءني فدفع إليَّ كتابًا من ملك غسان، وكنت كاتبًا فقرأته فإذا فيه: أما بعد فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، فالحق بنا نواسك، فقلت حين قرأتها: وهذه أيضًا من البلاء فتيممت بها التنور فسجرتها".

قال ابن حجر: (قوله "فتيممت" أي قصدت والتنور ما يخبز فيه، فسجرته أي أحرقته.

ودل صنيع كعب هذا على قوة إيمانه ومحبته لله ولرسوله، وإلا فمن صار في مثل حاله من الهجر والإعراض قد يضعف عن احتمال ذلك وتحمله الرغبة في الجاه والمال على هجران من هجره ولا سيما مع أمنه من الملك الذي استدعاه إليه أنه لا يكرهه على فراق دينه، لكن لما احتمل عنده أنه لا يأمن من الافتتان حسم المادة وأحرق الكتاب ومنع الجواب، هذا مع كونه من الشعراء الذين طبعت نفوسهم على الرغبة، ولا سيما بعد الاستدعاء والحث على الوصول إلى المقصود من الجاه والمال، ولا سيما الذي استدعاه قريبه ونسيبه، ومع ذلك فغلب عليه دينه وقوي عنده يقينه، ورجع ما هو فيه من النكد والتعذيب على ما دعي إليه من الراحة والنعيم، حبًا في الله ورسوله، كما قال ﷺ: ((وأن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما))[1] وعند ابن عائذ أنه

---

(١) أخرجه البخاري واللفظ له ١٦، ومسلم ٤٣.

شكا حاله إلى رسول الله ﷺ وقال: ما زال إعراضك عني حتى رغب في أهل الشرك[1].

قال ابن القيم: (وفي مكاتبة ملك غسان له بالمصير إليه ابتلاء من الله تعالى، وامتحان لإيمانه ومحبته لله ورسوله، وإظهار للصحابة أنه ليس ممن ضعف إيمانه بهجر النبي ﷺ والمسلمين له، ولا هو ممن تحمِلُه الرغبة في الجاه والملك مع هجران الرسول ﷺ والمؤمنين له على مفارقة دينه، فهذا من تبرئة الله له من النفاق، وإظهار قوة إيمانه، وصدقه لرسوله وللمسلمين ما هو من تمام نعمة الله عليه، ولطفه به، وجبره لكسره، وهذا البلاء يُظهر لُبَّ الرجل وسره، وما ينطوي عليه فهو كالكير الذي يخرج الخبيث من الطيب.

وقوله: "فتيممت بالصحيفة التنور" فيه المبادرة إلى ما يخشى منه الفساد والمضرة في الدين، وأن الحازم لا ينتظر به ولا يؤخره، وهذا كالعصير إذا تخمّر، وكالكتاب الذي يخشى منه الضرر والشر، فالحزم المبادرة إلى إتلافه وإعدامه)[2].

ثامنًا- من أساليب الدعوة: البشارة:

وردت الإشارة إلى هذا الأسلوب في الحديث من تبشير الرسول ﷺ وأصحابه لكعب رضي الله عنه بالتوبة قال: "فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله تعالى عنا، ضاقت علي نفسي وضاقت علي الأرض بما رحبت سمعت صوت صارخ أوفى على سلع يقول بأعلى صوته: يا كعب بن مالك أبشر فخررت ساجدًا وعرفت أنه قد جاء فرج، فآذن رسول الله ﷺ الناس بتوبة الله عز وجل علينا حين صلى صلاة الفجر، فذهب الناس يبشروننا... قال كعب: فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال وهو يبرق وجهه من السرور: أبشر بخير يوم مر عليك مذ ولدتك أمك" قال النووي: (وفي الحديث استحباب التبشير بالخير، واستحباب تهنئة من رزقه الله خيرًا ظاهرًا[3] أو صرف عنه شرًا ظاهرًا

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٩١٧/٢.

(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن القيم ٥٨٠/٥، ٥٨١.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٦٢٤.

وفيه جواز إظهار الفرح بأمور الخير والدين[١] فالتبشير من أكثر أساليب الدعوة إفادة قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴾[٢].

فالتبشير من أساليب الدعوة والتربية التي استخدمها النبي ﷺ وأوصى بها والتبشير من وسائل التحفيز للإنسان، فإذا ما صبغت الدعوة بتبشير المدعو غمرت قلبه الفرحة وعمت نفسه البهجة ولا يشعر بثقل التكاليف والواجبات عليه[٣].

تاسعًا: من صفات الداعية: مشاركة إخوانه مناسباتهم السارة:

وذلك واضح في الحديث من خلال ما فعله الرسول ﷺ وصحابته رضي الله عنهم من مشاركتهم لكعب بن مالك رضي الله عنه في فرحته وتهنئتهم له قال كعب: "فآذن رسول الله ﷺ الناس بتوبة الله عز وجل علينا حين صلى صلاة الفجر فذهب الناس يبشروننا" وقال "وانطلقت أتأمم رسول الله ﷺ يتلقاني الناس فوجًا فوجًا يهنئونني بالتوبة ويقولون لي لتهنك توبة الله عليك... فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال وهو يبرق وجهه من السرور: "أبشر بخير يوم مر عليك مذ ولدتك أمك" لذا ينبغي على الداعية أن يعلم أن مشاركة المدعوين أفراحهم وأتراحهم من أهم أسباب نجاح دعوته، يكسب دعوتهم ويوثق الروابط بهم، فمشاركته لهم في مناسباتهم السارة وغيرها تنبئ عن اهتمامه بهم ومراعاته شعورهم وأحاسيسهم[٤].

عاشرًا- من موضوعات الدعوة: فضل الصدقة:

لقد علم كعب بن مالك فضل الصدقة وتكفيرها للذنوب فتصدق إتمامًا لتوبته وكما في الحديث قال كعب: "فلما جلست بين يديه قلت يا رسول الله إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله فقال رسول الله ﷺ أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك، فقلت: إني أمسكت سهمي الذي بخيبر" فالصدقة ضرب من ضروب الشكر لله تعالى وابتغاء الثواب[٥]. قال النووي: (وفي الحديث استحباب الصدقة

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ٨٨.

(٢) سورة الأحزاب، آية: ٤٥.

(٣) انظر: منهاج الشاب المسلم في أسرته، د. محسن عبدالحميد.

(٤) معالم في منهج الدعوة، صالح بن عبدالله بن حميد.

(٥) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ٩٠.

شكر للنعم المتجددة لا سيما ما عظم منها)[١].

لقد جعل الله الصدقة من صفات المؤمنين الصالحين، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾[٢].

وقد جاءت الأحاديث النبوية مبينة لفضل الصدقة وثوابها عند الله تعالى منها أن الله عز وجل جعلها تطفئ نار الخطيئة كما يطفئ الماء النار فقد ورد عن رسول الله ﷺ قوله: ((... والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار))[٣] قال المباركفوري: (قوله: "والصدقة تطفئ الخطيئة" من الإطفاء أي تذهبها وتمحو أثرها، أي إذا كانت متعلقة بحق الله تعالى، وإذا كانت من حقوق العباد فتدفع تلك الحسنة إلى خصمه عوضًا عن مظلمته)[٤].

وجعلها الله من أسباب زيادة المال وإحلال البركة فيه عن أبي كبشة الأنماري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((ثَلاَثٌ أُقْسِمُ عَلَيْهِنَّ وَأُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا فاحْفَظُوهُ. قَالَ مَا نَقَصَ مَالُ عَبْدٍ مِنْ صَدَقَةٍ، وَلاَ ظُلِمَ عَبْدٌ مَظْلِمَةً صَبَرَ عَلَيْهَا إِلاَّ زَادَهُ الله عِزًّا، وَلاَ فَتَحَ عَبْدٌ بَابَ مَسْأَلَةٍ إِلاَّ فَتَحَ الله عَلَيْهِ بَابَ فَقْرٍ أَوْ كَلِمَةٍ نَحْوَهَا وَأُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا فاحْفَظُوهُ. قَالَ: إِنَّمَا الدُّنْيَا لأَرْبَعَةِ نَفَرٍ: عَبْدٍ رَزَقَهُ الله مَالاً وَعِلْمًا فَهُوَ يَتَّقِي رَبَّهُ فِيهِ وَيَصِلُ بِهِ رَحِمَهُ وَيَعْلَمُ لله فِيهِ حَقًّا فَهَذَا بِأَفْضَلِ المَنَازِلِ، وَعَبْدٍ رَزَقَهُ الله عِلْمًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ مَالاً فَهُوَ صَادِقُ النِّيَّةِ يَقُولُ: لَوْ أَنَّ لِيَ مَالاً لَعمِلْتُ فِيهِ بِعَمَلِ فُلاَنٍ فَهُوَ بِنِيَّتِهِ فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ، وَعَبْدٍ رَزَقَهُ الله مَالاً وَلَمْ يَرْزُقْهُ عِلْمًا فهو يُخْبَطُ فِي مَالِهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ لاَ

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٦٢٣.

(٢) سورة الأحزاب، آية: ٣٥.

(٣) أخرجه الترمذي ٢٦١٦، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢١١٠).

(٤) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري ٢/٢٠٠٤.

يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ وَلاَ يَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ، وَلاَ يَعْلَمُ للهِ فِيهِ حَقًّا فَهَذا بِأَخْبَثِ المَنَازِلِ، وَعَبْدٍ لَمْ يَرْزُقْهُ الله مَالاً وَلاَ عِلْمًا فَهُوَ يَقُولُ: لَوْ أَنَّ لِيَ مَالاً لَعَمِلْتُ فِيهِ بِعَمَلِ فُلاَنٍ فَهُوَ بِنِيَّتِهِ فَوِزْرُهُمَا سَوَاءٌ))[1].

حادي عاشر- من آداب المدعو: الاستجابة لأوامر الرسول ﷺ:

ضرب الصحابة رضي الله عنهم ومنهم كعب رضي الله عنه أرفع الأمثلة في الاستجابة المطلقة لأوامر رسول الله ﷺ، ومن دلائل ذلك ما جاء في الحديث من استجابتهم لأمر رسول الله ﷺ بهجر الثلاثة الذين خلفوا، قال كعب: "ونهى رسول الله ﷺ عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه فاجتنبنا الناس - أو قال تغيروا لنا" وكذلك عندما أمرهم النبي ﷺ باعتزال نسائهم، قال كعب: "واستلبث الوحي إذا رسول رسول الله ﷺ يأتيني، فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك، فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل؟ فقال: لا، بل اعتزلها فلا تقربنها وأرسل إلى صاحبيّ بمثل ذلك، فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر" إنها استجابة مطلقة دونما شرط أو قيد.

وعملاً بمثل قول الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[2] وقوله: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[3] فاتباع أمر الله وهدي رسول الله ﷺ فيهما من المصالح ما لا يدخل تحت الحصر، وليس هناك رخصة ولا عذر في ترك العمل بهما، أو تقديم قول غيرها[4].

---

(١) أخرجه الترمذي ٢٣٢٥، وصححه الألباني، (صحيح سنن الترمذي ١٨٩٤).

(٢) سورة الأنفال، آية: ٢٤.

(٣) سورة الحشر، آية: ٧.

(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٧٨٩.

الحديث رقم (٢٢)

٢٢- وَعَنْ أبي نُجَيْد بِضَم النُّونِ وَفَتْح الْجيمِ عِمْرانَ بْنِ الحُصيْنِ الخُزاعيِّ رضي الله عنهما أَنَّ امْرأَةً مِنْ جُهينةَ أَتَت رَسُولَ اللهِ[1] ﷺ وَهِيَ حُبْلَى مِنَ الزِّنَا، فقَالَتْ: يَا رسول اللهِ[2] أَصَبْتُ حَدًّا فأَقِمْهُ عَلَيَّ، فَدَعَا نَبيُّ اللهِ ﷺ وليَّهَا، فَقَالَ: أَحْسِنْ إِليْهَا، فَإِذَا وَضَعَتْ فَأْتِنِي ففَعَلَ فَأَمَرَ بِهَا نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ، فَشُدَّتْ عَلَيْهَا ثِيَابُها، ثُمَّ أَمَرَ بِهَا فَرُجِمتْ، ثُمَّ صلَّى عَلَيْهَا.

فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: تُصَلِّي عَلَيْهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ[3] وَقَدْ زَنَتْ؟ قَالَ[4]: لَقَدْ تَابَتْ تَوْبةً لَوْ قُسِمَتْ بَيْن سبْعِينَ مِنْ أَهْلِ المدِينَةِ لوسعتهُمْ، وَهَلْ وَجَدْتَ[5] أَفْضَلَ مِنْ أَنْ جَادَتْ بِنفْسهَا للَّهِ عَزَّ وجَلَّ؟» رواه مسلم[6].

ترجمة الراوي:

عمران بن الحُصيْن: هو عمران بن الحصين بن عُبيد بن خلف الخزاعي الكعبي، كنيته: أبو نُجيد اسم ابنه.

أسلم هو وأبو هريرة عام خيبر [٧هـ] وأقام ببلاد قومه وكان يغزو مع رسول الله ﷺ الغزوات، و شهد فتح مكة وكان يحمل راية خزاعة.

كان من كبار فقهاء الصحابة وفضلاءهم، قال عنه الذهبي: القدوة الإمام، بعثه عمر بن الخطاب إلى البصرة ليفقه أهلها، فنشر فيها علمًا كثيرًا وتخرج على يديه بعض كبار التابعين، كالحسن البصري، ومحمد بن سيرين الذي كان يقول: أفضل من نزل البصرة من الصحابة عمران بن الحصين. وكان الحسن يحلف بالله: ما قدمها راكب خير من عمران بن الحصين.

---

(١) لفظ مسلم: (نبي الله).

(٢) لفظ مسلم: (نبي الله).

(٣) لفظ مسلم: (نبي الله).

(٤) لفظ مسلم: (فقال).

(٥) عند مسلم زيادة: (توبة)، وهي لا توجد عند المنذري.

(٦) برقم (١٦٩٦/٢٤). أورده المنذري في ترغيبه (٤٦١٠). وسيكرره المؤلف برقم (٩١٨).

كان ورعًا تقيًا خاشعًا زاهدًا، يقول عن نفسه: ما مسست ذَكَري بيميني منذ بايعت بها رسول الله ﷺ[(١)] وولي قضاء البصرة فلم يلبث فيه إلا قليلاً حتى تركه، وكان يقول خشية وخوفًا: وددت أني رمادٌ تذروني الرياح.

وكان مجاب الدعاء صبورًا على ما أصابه وألمّ به، مرض بالاستسقاء سنين طويلة وشُقَّ بطنه ولازم الفراش ثلاثين سنة فكان يقول صابرًا محتسبًا راضيًا: والله إن أحب ذلك إليّ أحبُّه إلى الله عز وجل.

وبلغ من تقواه أن الملائكة كانت تُسلّم عليه فلما اكتوى -لعلاج مرضه- فقدها، ثم عادت بعد أن ترك الكي[(٢)].

وقد اعتزل الفتنة فلم يقاتل مع أيٍّ من الفريقين. وبلغ مسنده ١٨٠ حديثًا، اتفق الشيخان له على تسعة أحاديث وانفرد البخاري بأربعة أحاديث، ومسلم بتسعة، وتوفي بالبصرة ٥٢هـ[(٣)].

الشرح الأدبي

ما أعظم رحمة الله بعباده وما أحوج البشر جميعًا إلى رحمة خالقهم التي وسعت كل شيء، ومن أجلّ آثار هذه الرحمة الإلهية قبول توبة التائبين، والعفو عن زلات العاصين وأي مكافأة أسمى وأجَلّ من أن الله يفرح بتوبة العبد، ويقول رسول الله ﷺ: ((لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد أضله في أرض فلاة))[(٤)].

---

(١) أخرجه أحمد ١٩٩٤٣/٣٣، والحاكم ٤٧٢/٣، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وقال محققو المسند: إسناده صحيح.

(٢) صحيح مسلم ١٦٧-١٢٢٦.

(٣) الطبقات الكبرى، ابن سعد ٢٨٧/٤، ٩/٧، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ٥٢١، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير ٢٦٩/٤، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني ٩٥٤، والسير ٥٠٨/٢-٥١٢، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي ٤٨١/٥، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني ٣١٦/٣، والأعلام، خير الدين الزركلي ٧٠/٥ وموسوعة عظماء حول الرسول، خالد عبدالرحمن العك ١٣٨٨/٢.

(٤) أخرجه البخاري ٦٣٠٩، ومسلم ٢٧٤٧.

والتوبة في هذا الحديث الشريف ليست توبة كلامية، وليست إقلاعًا عن المعصية فقط، وليست ندمًا مصاحبًا للإقلاع والإقرار بالذنب والعزم على عدم الرجوع إلى ميدان المعصية، ولكنها توبة عملية خالصة ثمنها الحياة بكاملها كما قال رسول الله ﷺ وهو يصوغ تقديره لهذه التوبة، ويضعها في أعلى مرتبة في أسلوب الاستفهام التقريري الذي يثبت مضاعفة الثواب والجزاء الحسن يقول سيد الخلق في الرد على عمر "وهل وجدت توبة أفضل من أن جادت بنفسها لله عز وجل".

وقيمة التوبة هنا تكمن في الاعتراف والإقرار، مع أن المرأة تدرك العاقبة وهي الرجم حتى الموت، ومع ذلك لم تتحمل ثقل المعصية، وجاءت إلى رسول الله ﷺ وهي حبلى من الزنا "ومن" هنا تفيد السببية والتعليل أي بسبب الزنا وليس حملاً شرعيًا، ولنتأمل الحوار الدائر بين هذه المرأة الغامدية ورسول الله ﷺ، إنها تبدأ بالنداء والمنادى هو رسول الله ﷺ وكأنها تقول من خلال هذا التخصيص بالرسالة: إنني خالفت ما أمرتنا به في رسالتك ولابد من العقاب. ولم تصرح المرأة بفعل الزنا تجنبًا لهذا الأمر الكريه، وإنما حالها دل عليها، وقالت في إيحاء وإيماء لهذا الحال "أصبت حدًا فأقمه علي" أي: ارتكبت ما يلزم به الحد، وذلك من باب "المجاز المرسل" وفعل الأمر في قولها "فأقمه علي" ليس أمرًا حقيقيًا، وإنما هو طلب والتماس تلتمسه من رسول الله ﷺ، ويدل على شجاعة فائقة وعلى إخلاص النية لكي تطهر من تبعة هذا الذنب في الآخرة، والحديث في رواية أخرى يصرح بفعل التطهير من الذنب . قالت: "طهرني".

وأمام هذا الاعتراف وهو سيد الأدلة: يتجلى موقف الرسول الكريم ﷺ وهو كما وصفه ربه ﴿بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾[1] حيث لم يقم عليها الحد فورًا، وإنما أرجأه إلى أن تضع حملها، ولم يسجنها، ولم يقيدها بالسلاسل وإنما أمر وليها بأن يحسن إليها والأمر بالإحسان هنا يحمل دلالات كثيرة، وينبئ عن روعة البيان النبوي ومراعاته لمقتضى الحال: فقوله: "أحسن إليها" يموج بكثير من ألوان الرعاية والحماية والدفاع

(١) سورة التوبة، جزء من آية: ١٢٨.

عنها ضد قالة السوء والذين يلمزون ويغمزون من الأهل والجيران، والذين يشوهون سيرة الناس، ويخوضون في أعراضهم.

ونلاحظ توالي وقائع هذا الحدث الخطير من خلال عطف الكلمات والأفعال بحرف الفاء: ولنتأمل هذه السمة الأسلوبية فالمرأة تستعمل إقامة الحد فتقول: "أصبت حدًا فأقمه علي". والراوي ينقل سرعة استجابة رسول الله ﷺ حيث يقول: "فدعا نبي الله ﷺ وليها" فقال: وبعد أن وضعت يقول الراوي: "ففعل، فأمر بها نبي الله ﷺ فشدت عليها ثيابها".

إن توالي وقائع الحدث هنا يفصح عنه الأسلوب الذي يميز البيان النبوي الكريم.

ونلاحظ هدوء الإيقاع الأسلوبي، وبطء الحدث بعد قوله: "فشدت عليها ثيابها"، استعدادًا لإقامة الحد يقول الراوي: ثم أمر [أي رسول الله] بها فرجمت فبعد الاستعداد لإقامة الحد تأتي ثمَّ لتعلن عن التروي والتأني، ربما لإعطاء هذه المرأة فرصة للرجوع عن أقوالها، وربما لعدم ترويعها ولكن بعد أن أصدر رسول الله أمره بدأ التنفيذ الفوري "ثم أمر بها فرجمت".

وفعل الرجم مبني للمجهول لأن المقصود هو تنفيذ العقوبة وإقامة الحد، وليس المراد تحديد القائم بالرجم، أو تحديد الذي يُقِمْ الحدّ، والبناء للمجهول في فعل الرجم يدل على أن الرسول ﷺ لم يحضر الرجم، ولم يشارك فيه لأن الحد ليس انتقامًا شخصيًا وإنما هو تكفير وتوبة نصوح، والرسول ﷺ لا يريد الاقتداء به في ضرورة حضور الإمام إقامة الحد لئلا يتوهم البعض أن الهدف هو الرغبة في الانتقام وليس التوبة وتنفيذ ما أمر به الله عز وجل.

ولنتأمل جلال المشهد وجمال الموقف في ختام هذه الواقعة حيث ينشأ حوار بين رسول الله ﷺ، وعمر بن الخطاب رضي الله عنه بعد أن صلى رسول الله على هذه المرأة: يقول عمر في سؤال ودهشة: "تصلي عليها يارسول الله وقد زنت"، وقال العلماء إن هذا السؤال بدر من عمر لاستكشاف حكمة صلاته ﷺ عليها مع أنه قد وقع منها أمر يقتضي إهمال أمرها والإعراض عنه.

ويعطي رسول الله ﷺ القدوة الحسنة في العفو والصفح الجميل، ويفتح أبواب الرجاء أمام من زلّت أقدامهم، وانخرطوا في سلك العاصين ويقول لعمر مبينًا له ما خفي عنه من أمر التوبة النصوح "لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم، وهل وجدت أفضل من أن جادت بنفسها لله عز وجل.

واقتران الجملة النبوية المبشرة بقد التي تفيد التحقيق واللام التي تفيد التوكيد يؤكد مضاعفة الثواب وعظيم الأجر، والاستفهام مع أفعل التفضيل، والمادة اللغوية في "أفضل" والتعبير بقوله: "جادت بنفسها لله عز وجل" كل هذه الوسائل الأسلوبية تؤكد ثبات الأجر، وقبول التوبة وتفتح أمام كل من يقترف ذنبًا أو يرتكب معصية أو يكسب إثما أو خطيئة - الباب على مصراعيه للتوبة النصوح وما أحوج الكثير من أبناء هذه الأمة في العصر الحديث إلى المواجهة الحقيقية مع النفس الأمارة بالسوء، وما أكثر الغافلين المبتعدين عن دوحة الإيمان ظلال الباقيات الصالحات وما أحوج هؤلاء إلى الاقتداء بهذه المرأة التي انتصرت على شيطان الخطيئة، واستيقظت من غفلة الرذيلة وطهرت نفسها وجادت بها لله عز وجل فكان جزاؤها الجنة ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾[1].

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى أكثر من حكم فقهي:

الأول: حكم حد الزنا، وبم يثبت، وقد اتفق الفقهاء[2] على أن أحد الأمور التي تثبت بها جريمة الزنا الإقرار، وإن اختلفوا في عدد مرات الإقرار المطلوبة هنا فالحنفية والحنابلة: يشترطون أن يكون أربع مرات كالشهادة عليه، والمالكية والشافعية: يكتفون في الزنا بالإقرار مرة واحدة.

---

(١) سورة آل عمران ١٤٧.

(٢) تبيين الحقائق، الزيلعي ١٦٦/٣، شرح فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، الشوكاني ٢١٣/٥، مواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي الخطابي ٢٩٤/٦، شرح منح الجليل على مختصر خليل، الشيخ محمد بن أحمد بن محمد عليش لعليش ٢٥٦/٩، مغني المحتاج للشربيني ٤٥٢/٥، نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، الرملي ٤٣٠/٧، المغني، ابن قدامة ٦٠/٩ وما بعدها، الفروع، ابن مفلح ٧٧/٦.

الثاني: إقامة حد الزنا على الحامل، وقد اتفق الفقهاء[1] أيضًا على أن الحامل لا يقام عليها الحد حين حملها بل تدفع إلى وليها حتى تضع وتكتمل مدة رضاع مولودها، أو توجد مرضعة يقبلها المولود، سواء كان الحمل من الزنا أم من الزوجية، لأن المولود لا ذنب له في جريمة أمه، ولأنه روح يجب المحافظة عليها بغض النظر عن كونه جاء من طريق حرام أم من طريق حلال.

الثالث: حكم الصلاة على المرجوم، وقد اختلف الفقهاء في حكم الصلاة على من مات بالرجم هل يصلى عليه أم لا؟ فذهب الجمهور من العلماء[2] إلى أنه يصلى عليه لأنه يُصلّى على كل مسلم إلا أهل البدع المكفرة، وذهب المالكية[3] إلى أنه لا يصلي الإمام على من مات بالرجم، أو بسبب الحد الذي يقيمه عليه، ويصلي عليه الناس، وقال الزهري لا يصلى على المرجوم مطلقًا[4].

والراجح أنه يصلى عليه لأنه مسلم وارتكابه للكبيرة وإقامة الحد عليه لم يخرجه من الإسلام، وصلاة الجنازة تكون لكل مسلم.

الحكم الرابع: قال النووي: (يستحب لأهل المريض ومن يخدمه الرفق به واحتمال الصبر على ما يشق عليه من أمره، وكذلك من قرب موته بسبب حدٍّ أو قصاص

---

(١) تبيين الحقائق، الزيلعي ١٧٥/٣، وشرح فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، الشوكاني ٢٤٥/٥، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي الخطابي ٢٩٥/٦، وشرح منح الجليل على مختصر خليل، الشيخ محمد بن أحمد بن محمد عليش للشيخ عليش ٢٦٥/٩، ومغني المحتاج للشربيني ٤٥٧/٥، ونهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، الرملي ٤٣٤/٧، والمغني، ابن قدامة ٤٧/٩ وما بعدها.

(٢) المبسوط، السرخسي ٥٢/٢، والعناية على الهداية، البابرتي ٢٢٨/٥، والجوهرة النيرة شرح مختصر القدوري، أبو بكر الحوازي اليمني ١٥١/٢، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٢٢٢/٥، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا بن محمد بن أحمد الأنصاري١٢٥/٤، والمغني، ابن قدامة ٢٢٠/٢، وشرح منتهى الإرادات، البهوتي ٣٦٦/١، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي ١٢٣/٢.

(٣) المدونة الكبرى عن رواية سحنون عن ابن قاسم، الإمام مالك الصبحي ٥٠٨/٤، التاج والإكليل شرح مختصر خليل، محمد بن أبي يوسف العبدري ٥٦/٣.

(٤) نيل الأوطار، الشوكاني ٦٠/٤.

ونحوهما، ويستحب للأجنبي أن يوصيهم بذلك، لحديث عمران بن الحصين أن امرأة من جهينة أتت النبي ﷺ ..." الحديث[١].

المضامين الدعوية

أولاً: من أهداف الدعوة: إقامة الحدود.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: فضل التوبة الصادقة.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: الحفاظ على ستر عورة المرأة.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: حماية النفس، وإقرار حق الحياة للإنسان.

أولاً- من أهداف الدعوة: إقامة الحدود:

تهدف الدعوة الإسلامية من جملة ما تهدف إلى خمسة مقاصد هي: حفظ الدين وحفظ النفس، وحفظ العقل، وحفظ النسب، وحفظ المال[٢]، ومن وسائل الحفاظ عليها: تشريع الزواجر والحدود، وقد ورد في الحديث الإشارة إلى حد من الحدود وهو: حد الرجم فعن أبي نجيد عمران بن الحصين الخزاعي رضي الله عنهما أن امرأة من جهينة أتت رسول الله ﷺ وهي حبلى من الزنى... ثم أمر بها فرجمت".

فالإسلام جاء للحفاظ على طهارة المجتمع ونقائه، لذا وضع وسائل وطرقًا بإمكانها أن تحد من الإجرام وتضييق الخناق عليه، وتحدّ من انتشاره، وتمنعه من رفع رأسه عاليًا في المجتمع تلك هي الحدود والتعزيرات، التي وضعها التشريع الإسلامي على الجرائم، وأودع فيها من قوة الكبت والمنع، ما تبطل به الدوافع إلى الإجرام والبواعث له، حتى وصفها العلماء بقولهم (إنها -أي الحدود والتعزيرات- موانع قبل الفعل وزواجر بعده) أي أن العلم بشرعيتها يمنع الإقدام على الفعل، وإيقاعها بعده يمنع العود إليه[٣].

وبذلك ينحسر الفساد والمعصية في المجتمع، ولذلك اقتضت الحكمة تشريع

---

(١) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي، شرح المهذب في اختصار السنن الكبير، الذهبي ٥/٧٧، والأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار، الإمام النووي ١٦٢، وانظر: الحديث رقم ٩١٤ من رياض الصالحين.

(٢) مستلزمات الدعوة في العصر الحاضر، علي بن صالح المرشد ص ٦٠.

(٣) واقعية التشريع الإسلامي وآثارها، زياد بن صالح لوبانغا، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، ٢/٣٨٥.

الحدود حسمًا للفساد وزجرًا عن ارتكابه، ليبقى العالم على نظم الاستقامة، فإن إخلاء العالم عن إقامة الزاجر يؤدي إلى انحرافه، وفيه من الفساد ما لا يخفى، ولذا قال صاحب الهداية: والمقصد الأصلي من شرعه الانزجار عما يتضرر به العباد[(١)].

إن الدعوة الإسلامية تربي في نفوس الناس حب الخير وفعله، وتنفرهم من الشر وتبغضه إليهم ﴿...وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾[(٢)]، وقد رتب الله الجزاء الحسن لمن فعل الخير، والعقاب الشديد لمن فعل الشر، عناية منه بهذا الإنسان حتى ترتفع نفسه عن الوقوع في الآثام، ولتقرب كثيرًا من الخير وتفعله، وقد أقام الإسلام عقوبات لمن ارتكب شيئًا من المحرمات الكبيرة، صيانة لروحه وحفاظًا على ماله وعرضه ونفسه ودينه وعقله، ومراعاة لحقوق المجتمع العامة[(٣)].

وقد شرعت العقوبة لمنع الناس من ارتكاب الجرائم، فإن هم ارتكبوها وقعت عليهم فلا يعودون مرة أخرى لارتكابها، ولذلك يقال: إن العقوبات موانع قبل الفعل زواجر بعده.

العقوبة في الإسلام علاج للمجرم وكفارة لذنبه وبالتالي فهي علاج نفسي للقلق الذي يصيبه عن توبته[(٤)]، عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: ((كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللّهِ ﷺ فِي مَجْلِسٍ، فَقَالَ: «تُبَايِعُونِي عَلَىٰ أَنْ لاَ تُشْرِكُوا بِاللّهِ شَيْئًا، وَلاَ تَزْنُوا، وَلاَ تَسْرِقُوا، وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إلاَّ بِالْحَقِّ، فَمَنْ وَفَىٰ مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللّهِ، وَمَنْ أَصَابَ شَيْئًا مِنْ ذٰلِكَ فَعُوقِبَ بِهِ، فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ، وَمَنْ أَصَابَ شَيْئًا مِنْ ذٰلِكَ فَسَتَرَهُ اللّهِ عَلَيْهِ، فَأَمْرُهُ إلَىٰ اللّهِ، إنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ وَإنْ شَاءَ عَذَّبَهُ))[(٥)].

---

(١) ابن عابدين، ١٤٠/٣، نقلاً عن الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ، ١٣١/١٧.

(٢) سورة الحجرات، آية: ٧.

(٣) انظر: أساليب الدعوة الإسلامية، د. حمد بن ناصر العمار ص ٥٢٤.

(٤) الحدود في الإسلام، د. أحمد فتحي بهنسي ص ٩-١٠.

(٥) أخرجه البخاري ٦٧٨٤، ومسلم ١٧٠٩.

وعن عبادة بن الصامت ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: ((مَنْ أَصَابَ مِنْكُمْ حَدًّا، فَعُجِّلَتْ لَهُ عُقُوبَتُهُ، فَهُوَ كَفَّارَتُهُ. وَإِلاَّ، فَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ))[(١)(٢)].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: فضل التوبة الصادقة:

بين النبي ﷺ في الحديث فضل توبة الإنسان إذا صدق فيها، وأنها أوسع من المعاصي التي أتى بها، ففي الحديث لمَّا رجمت المرأة "صلى عليها فقال له عمر: تصلي عليها يا رسول الله وقد زنت؟ قال: "لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم، وهل وجدت أفضل من أن جادت بنفسها لله عز وجل" فالتوبة الصادقة دليل الإيمان الصادق[(٣)]، ومعية المؤمنين قال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَسَوۡفَ يُؤۡتِ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾[(٤)] والتوبة الصادقة هي التوبة النصوح التي أمرنا الله بها فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةً نَّصُوحًا﴾[(٥)] قال قتادة: هي الصادقة الناصحة[(٦)].

والتوبة معناها: الرجوع من الأوصاف المذمومة في الشرع إلى الأوصاف المحمودة فيه، وهي الإنابة إلى الله ولزوم طريق الطاعة والاستقامة[(٧)].

وقد حث الإسلام على التوبة وعلى أن تطلب مباشرة من الله سبحانه وبدون واسطة، وأنّ بابها مفتوح، وأنها مقبولة إذا كانت صادقة نصوحًا ما لم تصل الروح إلى الحلقوم أو تقوم الساعة، قال تعالى: ﴿وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا

---

(١) أخرجه ابن ماجه ١٤١٦، وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ٢١٠٩).

(٢) الحدود في الإسلام، د. أحمد فتحي بهنسي ص ٩ - ١٠.

(٣) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد ٤/١٢٧٧.

(٤) سورة النساء، آية: ١٤٦.

(٥) سورة التحريم، آية: ٨.

(٦) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري ٢٣/١٠٨.

(٧) التوبة، أحمد عز البيانوني ١/٣٠.

حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾[١]، وفي معرض حث الإسلام على التوبة قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا فَقُلْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[٤].

فما من مخلوق إلا وقدر الله عليه أن يرتكب إثمًا ويقترف خطأ -باستثناء الأنبياء- وما من مخلوق إلا وقد أمر بالتوبة إلى الله، والرجوع عما اقترفه من الآثام، والاستغفار منها، والإنابة إلى الله سبحانه، وهذا ما يتمشى مع فطرة الإنسان، وطبائعه التي ركبت فيه، وهو ما جاءت به نصوص الشريعة بتقريره وتأكيده[٥]، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((كلُّ ابْنِ آدمَ خطَّاء، وَخيْرُ الْخطَّائِينَ التَّوَّابُونَ))[٦].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((وَالَّذي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللّهُ بِكُمْ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ، فَيَسْتَغْفِرُونَ اللّهَ، فَيَغْفِرُ لَهُمْ))[٧].

---

(١) سورة النساء، آية: ١٨.

(٢) سورة البقرة، آية: ٢٢٢.

(٣) سورة الأنعام، آية: ٥٤.

(٤) سورة التحريم، آية: ٨.

(٥) صور من سماحة الإسلام، د. عبدالعزيز عبدالرحمن الربيعة ٣ ٤١ - ٤٢.

(٦) أخرجه الترمذي ٢٦٢٩، وصححه الألباني، (صحيح سنن الترمذي ٢٠٢٩).

(٧) أخرجه مسلم ٢٧٤٩.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((للّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ أَحَدِكُمْ، مِنْ أَحَدِكُمْ بِضَالَّتِهِ، إِذَا وَجَدَهَا))[١].

وعن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ، لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ. وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ، لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ. حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا))[٢].

وعن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما: ((أنَّ ناسًا من أهل الشِّركِ كانوا قد قَتَلوا وأكثروا، وزَنَوْا وأكثروا، فأتَوا محمدًا صلى الله عليه وسلم فقالوا: إنَّ الذي تقولُ وتَدعو إليه لَحَسن، لو تُخبِرُنا أنَّ لما عملنا كفَّارةً. فنزل ﴿والذين لا يَدْعونَ مَعَ الله إلهًا آخَرَ، ولا يَقتلونَ النَّفْسَ التي حرَّمَ الله إلاّ بالحقّ، ولا يزْنون﴾[٣] ونزلَ ﴿قل يا عبادي الذين أسرَفوا عَلَى أنفسهم لا تَقنَطوا من رحمةِ الله﴾[٤]))[٥].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: الحفاظ على ستر عورة المرأة:

إن مما دعا إليه الإسلام وأكد عليه: الحفاظ على ستر عورة المرأة وعدم تكشفها، حتى ولو في مقام تنفيذ العقوبة وإقامة حدٍّ من حدود الله، وورد في الحديث "فأمر بها نبي الله صلى الله عليه وسلم فَشُدَّت عليها ثيابها" أي جمعت أطرافها لتستتر، وذلك لئلا ينكشف ثوبها في تقلبها وتكرر اضطرابها[٦] فالإسلام لم يكتف بحماية الإنسان في حالة حياته، بل كفل له الاحترام بعد مماته[٧] ففي هذا الحديث لم يرض لهذه المرأة أن تتكشف ويعبث الناظرون بأعينهم في جسدها حتى في وقت إقامة الحد عليها. وقد أمر المولى تبارك وتعالى بستر العورات فقال لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ

---

(١) أخرجه مسلم ٢٦٧٥.

(٢) أخرجه مسلم ٢٧٥٩.

(٣) سورة الفرقان، آية: ٦٨

(٤) سورة الزمر، آية: ٥٣.

(٥) أخرجه البخاري ٤٨١٠، ومسلم ١٩٣.

(٦) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٠٩٠، دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ٩٥.

(٧) الخصائص العامة للإسلام، د. يوسف القرضاوي ص ٨٧.

أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ...﴾[1] إلخ الآية، فستر العورة واجب على المسلم والمسلمة وهذا مما يؤكد على أهمية حرص المرأة المسلمة على ستر عورتها، وعدم السفور، والتزام الحشمة والوقار، وعدم تقليد غير المسلمات في السفور والتبرج.

رابعًا- من أهداف الدعوة: حماية النفس وإقرار حق الحياة للإنسان:

لقد أجلّ النبي ﷺ إقامة الحد على المرأة حتى تضع "فدعا نبي الله ﷺ وليها فقال: أحسن إليها، فإذا وضعت فآتني بها" فالإسلام قرر حق الحياة والرعاية، وحماه بالتربية والتوجيه والتشريع والقضاء، واعتبر الحياة هبة من الله لا يجوز لأحد أن يسلبها غيره ولم يفرق الإسلام في حق الحياة بين أبيض وأسود، ولا بين شريف ومشروف، ولا بين حر وعبد، ولا بين رجل وامرأة، ولا بين كبير وصغير، حتى الجنين في بطن أمه له حرمة لا يجوز المساس حتى بالجنين الذي جاء عن طريق غير مشروع؛ ولذا جاء في الحديث أن النبي ﷺ قال لولي المرأة: "فإذا وضعت فآتني بها" كل هذا رعاية لحق الجنين لأنه لا ذنب له فيما جنته أمه أو اقترفه أبوه[2] قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[3]. وقال: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[4] فكل نفس ظلمت نفسها بكفر أو شيء من الذنوب فإنما عليها وزرها، لا يحمله عنها أحد، وكما لا يحمل عليه وزر غيره، كذلك لا يحصل من الأجر إلا ما كسب هو لنفسه[5].

وهذا مما يظهر عظمة الإسلام في صيانته للحقوق، وكفالته للضمانات اللازمة، وأنه لا تزر وازرة وزر أخرى.

---

(١) سورة النور، الآيتان: ٣٠، ٣١.

(٢) المرجع السابق ٨٤، ٨٥.

(٣) سورة فاطر، آية: ١٨.

(٤) سورة النجم، الآيتان: ٣٨، ٣٩.

(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٤٦٥/٧.

الحديث رقم (٢٣)

٢٣- وَعَنِ ابْنِ عَبَّاس[١]، وأنس بن مالك[٢] رضي الله عنهم أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: **«لَوْ أَنَّ لابْنِ آدَمَ وَادِيًا مِنْ ذَهَبٍ أَحَبَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ وادِيانِ، وَلَنْ يَمْلأَ فَاهُ إلاَّ التُّرَابُ، وَيَتُوب اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ»** مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[٣].

ترجمة الراوي:

عبد الله بن عباس: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١١).

وأنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

الشرح الأدبي

إن كلمات هذا الحديث النبوي تشع بهالات الحقيقة، وتنطق بحقيقة الطبع الإنساني الراغب في التزود من متع الحياة، وتحقيق الرغبات مهما كانت الوسائل، وهذه الحقيقة ليست واقعًا مطلوبًا ولا مفروضًا، ولكنها طبع مركوز في فطرة الإنسان وعليه أن يقاوم هذه الغريزة التي تركض خلف زينة الحياة الدنيا وما تقدمه من وسائل وغايات.

وهذا الواقع الذي يدعو الحديث إلى مقاومته عن طريق التوبة والعمل الصالح يوضح القرآن الكريم بعض ملامحه التي تجذب كثيرًا من طلاب المتع، وأرباب الأهواء والبدع حيث يقول الله عز وجل: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾[٤].

---

(١) أخرجه البخاري ٦٤٣٦، ومسلم ١١٨/١٠٤٩. أورده المنذري في ترغيبه ٢٥٥٧.

(٢) أخرجه البخاري وهذا لفظه ٦٤٣٨، ومسلم ١١٧/١٠٤٨. أورده المنذري في ترغيبه ٢٥٥٦.

(٣) تنبيه: اللفظ الذي أورده المؤلف هو لحديث أنس، واللفظ للبخاري. ثمَّ إن المؤلف جمع بين الحديثين في لفظ واحد، وفرقهما المنذري في ترغيبه.

(٤) سورة آل عمران، آية: ١٤.

والأسلوب في هذا الحديث النبوي ينطق بالدلالة التي نجنيها من الكلمات، ومن توظيف الأدوات النحوية في تقديم المعنى المراد فالحديث يتكون من ثلاث جمل تشع بكثير من المعاني في إيجاز بليغ، وصياغة يسيرة تصل إلى كل من يستمع أو يقرأ في غير عناء ولا كد وتجمع بين الجزالة والرقة.

ولنتأمل دلالة الجملة الأولى حيث يكشف الرسول ﷺ عن الطبع الإنساني وعدم قناعته بما يقدره الله له، ولكن دائمًا يرجو المزيد والمزيد، وقد أفصحت الصياغة التي جاءت في قالب الشرط والجزاء، عن هذا المعنى الدقيق العميق وأداة الشرط لو وهي أداة امتناع لامتناع، وكأن هذا النموذج الذي لا يقنع بما يقسمه الله له هو من النماذج المستحيلة في عالم السلوك المعتدل الذي يحكمه الاتزان والرضا والعطاء والتعبير بقوله " لابن آدم" يرشد إلى أن هذا طبع بشري ولا يقتصر على شعب دون آخر، ولا على قبيلة معينة، أو عنصر محدد؛ وتخصيص الذهب هنا فيه إيحاء بأن الإنسان يحرص على كل شيء، ولا يقنع بأى شيء، وقد صور الشاعر العربي ذلك فقال:

وإذا قنعت فبعض شيء كافي ... ما كل ما فوق البسيطة كافيًا[1]

وإذا كان الذهب لا يشبع نهم الإنسان للمال فهل يشبعه شيء آخر؟؟!.

وتصاغ الجملة الثانية في أسلوب القصر، "ولن يملأ فاه إلا التراب" وهذا الأسلوب فيه سخرية وتهكم على هؤلاء الطامعين الذين لم يتعظوا بما يجري لغيرهم من جميع الأمم، وهذه الجملة كناية عن حال هذا المغتر الطامع فهو مهما أوتي من أموال يظل حريصًا على الدنيا، حتى يموت ويمتلئ جوفه من تراب قبره وهذا كما يقول صاحب دليل الفالحين حكم غالب النوع الإنساني: الحرص على الدنيا.

والجملة الثالثة تضع أمام كل الراغبين في العودة إلى منطقة التوازن والسماح والتقوى منافذ الرجاء وأبواب التوبة، ويقول رسول الله ﷺ "ويتوب الله على من تاب".

ودلالة الفعل المضارع في هذه الجملة المباركة يفيد الاستمرار "فالله يتوب على من تاب" في كل حين.

(١) يتيمة الدهر ١/ ٧٠.

ومنطوق هذا الحديث يضع أمامنا مفهومه، فالمنطوق يسخر من المتكالبين على متع الدنيا، والمفهوم مقترن بالزهد والقناعة، والإنفاق والحرص على اتباع تعاليم الكتاب والسنة، وهذه أهم ملامح الشخصية المسلمة، التي يجب أن يتحلى بها كل من ينطق بشهادة التوحيد "لا إله إلا الله محمد رسول الله".

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: حب الإنسان للمال.

ثانيًا: من مهام الداعية: التعرف على طبائع النفوس.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: قبول الله تعالى لتوبة التائب.

أولاً- من موضوعات الدعوة: حب الإنسان للمال:

بيّن النبي ﷺ في هذا الحديث حقيقة من حقائق النفس البشرية وهي حب المال والسعي في طلبه فالإنسان مجبول على حب المال والسعي في طلبه وجمعه، قال ابن عثيمين: "إن ابن آدم لن يشبع من المال، ولو كان له واد (أحب)، أي: طلب أن يكون له واديان، ولا يملأ جوفه إلا التراب، وذلك إذا مات ودفن وترك الدنيا وما فيها حينئذ يقتنع؛ لأنها فاتته"[١].

ولقد عبّر القرآن الكريم عن ذلك بالتكاثر وانشغال الإنسان به حتى الموت، قال تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾[٢]، "أي: شغلكم الاشتغال بالأموال والعدد والمباهاة بها عن طاعة الله حتى متم ودفنتم في المقابر، وتركتم كل شيء، روي عن مطرِّف عن أبيه قال: أَتَيْتُ النَّبيَّ ﷺ وَهُوَ يَقْرَأُ أَلْهكُمُ التَّكَاثُرُ قَالَ: ((يَقُولُ ابْنُ آدَمَ: مَالِي. مَالِي قَالَ وَهَلْ لَكَ، يَا ابْنَ آدَمَ مِنْ مَالِكَ إِلاَّ مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ، أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ؟ وما سِوَى ذلِكَ فهو ذاهبٌ وتارِكُهُ للناسِ))[٣]، وقال ابن

---

(١) شرح رياض الصالحين ١/٦٦ - ٦٧.

(٢) سورة التكاثر، الآيتان: ١ - ٢.

(٣) أخرجه مسلم ٢٩٥٩.

عباس رضي الله عنهما: (قرأ النبي ﷺ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾، قال: تكاثر الأموال: جمعها من غير حقها ومنعها من حقها وشدها في الأوعية"[١].

والنهي عن التكاثر بالمال لا يعني زرع البغض والكراهية للمال وإنما المراد أن يطلبه الإنسان من مصادره الشرعية وينفقه في مصارفه الشرعية، وأن لا يتملك المال من قلب الإنسان وإنما يجعله الإنسان في يده لا في قلبه.

لقد أشار الإسلام إلى أن المال من مقومات الحياة الدنيا وزينتها، قال تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَـٰقِيَـٰتُ ٱلصَّـٰلِحَـٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾[٢].

وأمر الإسلام بطلب الرزق، والسير في الدنيا لجمع المال وتحصيله بشرط أن لا يقسو القلب على طاعة الله، قال تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[٤].

فهذه الآيات تبيح جمع المال وطلب الرزق، وفي هذا عناية بالجانب المادي في حياة الإنسان، ولكن ينبغي أن لا يطغى جمع المال على روح الإنسان، فيصبح جمع المال هدفًا عنده، فعن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((نِعْمَ المالُ الصَّالِحُ لِلرَّجُلِ الصَّالِحِ))[٥].

وعن حكيم بن حزام رضي الله عنه قال: سألتُ رسولَ اللهِ ﷺ فأعطاني، ثمَّ سألتُهُ فأعطاني، ثم سألته فأعطاني ثمَّ قال: ((يا حكيمُ، إنَّ هذا المالَ خَضِرةٌ حُلْوةٌ، فمن

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ١٠/٢٠/١٦٩.

(٢) سورة الكهف، آية: ٤٦.

(٣) سورة القصص، آية: ٧٧.

(٤) سورة الجمعة، آية: ١٠.

(٥) أخرجه أحمد ٤/١٩٧ رقم ١٧٧٦٣، وقال محققو المسند: إسناده صحيح على شرط مسلم، ٢٩/٢٩٩.

أخذَهُ بَسخاوةِ نفسٍ بوركَ له فيه، ومن أخذَهُ باشرافِ نفسٍ لم يُبارَك له فيه، وكان كالذي يأكلُ ولا يشبَعُ. اليدُ العُليا خيرٌ منَ اليدِ السُّفلى)). قال حكيمٌ: فقلتُ: يا رسولَ اللّهِ، والذي بَعثَكَ بالحقِّ لا أرزأُ أحدًا بعدَكَ شيئًا حتى أُفارِقَ الدنيا. فكان أبو بكرٍ ﷺ يَدعو حكيمًا إلى العطاءِ فيأبى أن يَقبلَه منه. ثمَّ إن عمرَ ﷺ دعاهُ ليعطِيَهُ فأبى أن يَقبلَ منهُ شيئا، فقال عمرُ: إني أُشهِدُكم يا معشرَ المسلمينَ على حكيمٍ أني أعرِضُ عليهِ حقَّهُ من هذا الفَيْءِ فيأبى أن يأخُذَه، فلم يَرْزَأْ حكيمٌ أحدًا منَ الناسِ بعدَ رَسولِ اللّهِ ﷺ حتى تُوُفِّيَ[1].

وعن الزبير بن العوام ﷺ عن النبي ﷺ قال: ((لأنْ يأخُذَ أحدكم حبلَهُ فيأتيَ بحُزْمةِ الحطبِ على ظهرِهِ فيبيعَها فيَكفَّ اللّهُ بها وجهَهُ، خيرٌ لهُ من أنْ يسألَ الناسَ أعْطُوهُ أو مَنَعُوهُ))[2]. وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ((لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ . وَلَكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ))[3].

وجمع المال في الإسلام يقوم على فكرة أن المال في الأصل مال الله والإنسان مستخلف عليه وهو وسيلة للحياة لا هدفًا لذاته، ويجمع المال لأمور منها:

أ- النفقة على النفس والأهل والعيال:

عن ثوبان ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ((أَفْضَلُ دِينَارٍ يُنْفِقُهُ الرَّجُلُ: دِينَارٌ يُنْفِقُهُ عَلَى عِيَالِهِ. وَدِينَارٌ يُنْفِقُهُ الرَّجُلُ عَلَى دَابَّتِهِ فِي سَبِيلِ اللّهِ. وَدِينَارٌ يُنْفِقُهُ عَلَى أَصْحَابِهِ فِي سَبِيلِ اللّهِ))[4].

وعن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: عَادَنِي رَسُولُ اللّهِ ﷺ، فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ، مِنْ وَجَعٍ أَشْفَيْتُ مِنْهُ عَلَى الْمَوْتِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللّهِ بَلَغَنِي مَا تَرَى مِنَ الْوَجَعِ، وَأَنَا ذُو مَالٍ، وَلاَ يَرِثُنِي إِلاَّ بنت لِي وَاحِدَةٌ، أَفَأَتَصَدَّقُ بِثُلُثَيْ مَالِي؟ قَالَ: «لاَ» قَالَ قُلْتُ: أَفَأَتَصَدَّقُ

---

(١) أخرجه البخاري واللفظ له ١٤٧٢، ومسلم ١٠٣٥.

(٢) أخرجه البخاري ١٤٧١.

(٣) أخرجه البخاري ٦٤٤٦، ومسلم ١٠٥١.

(٤) أخرجه مسلم ٩٩٤.

بِشَطْرِهِ؟ قَالَ: ((لاَ، الثُّلُثُ، وَالثُّلُثُ كَثِيرٌ، إِنَّكَ إِنْ تَذَرَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ، وَلَسْتَ تُنْفِقُ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ، إِلاَّ أُجِرْتَ بِهَا، حَتَّى اللُّقْمَةُ تَجْعَلُهَا فِي فِي امْرَأَتِكَ ...))[1].

ب- النفقة في وجوه البر والخير عامة:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((ما مِن يومٍ يُصبحُ العِبادُ فيه إلاَّ مَلَكانِ يَنزِلانِ فيقولُ أحدُهما: اللَّهمَّ أعطِ مُنفِقًا خَلَفًا، ويَقولُ الآخَرُ: اللَّهمَّ أعطِ مُمسِكًا تلَفًا))[2][3].

ثانيًا- من مهام الداعية: التعرف على طبائع النفوس:

إن معرفة الداعية بطبائع النفوس والإطلاع عليها يؤدي إلى تيسير الدعوة إلى الله بالوصول إلى الطرق والأساليب الدعوية المناسبة واكتشاف العوامل والأسباب الفاعلة والمؤثرة في جذب النفوس وتشويقها إلى طريق الخير، فالنفس البشرية قد تجذب بالمال والعطاء، وقد تجذب باللين والتدرج، وأحيانًا بالقدوة وعرض النموذج التطبيقي الحي[4]، وغير ذلك، لذا كان على الداعية أن يفيد من علم النفس ليتسنى له التعرف على طبائع النفوس.

ولقد أطلعنا النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث على ما جبلت عليه النفس البشرية من حبٍّ للمال: (لو أن لابن آدم واديًا من ذهب أحب أن يكون له واديان...)، لذا ينبغي على الداعية أن يكون على علم بالنفس البشرية، لأنه سيفيد من ذلك في تعامله مع المدعوين وعلاجه لمشكلاتهم المتعلقة بالجوانب المادية، وقد أفاد النبي صلى الله عليه وسلم من هذا الجانب في تأليف قلوب فئة من الناس بالمال، ويمكن الإفادة من هذا الجانب في دعوة المسلمين وغير المسلمين ممن يعانون بعض المشكلات المالية، وقد أفاد المنصرون من توظيف المال

(١) أخرجه مسلم ١٦٢٨.

(٢) أخرجه البخاري ١٤٤٢، ومسلم ١٠١٠.

(٣) انظر: أساليب الدعوة الإسلامية، د. حمد بن ناصر العمار ص ٤٩١ - ٤٩٤.

(٤) انظر: علم النفس الدعوي، د. عبدالعزيز بن محمد النغيمشي ص ١٣.

في التنصير، والأولى أن يفيد الدعاة والمؤسسات الدعوية من توظيف المال من خلال الطرق المشروعة التي تعمل على استقطاب المدعوين، وتأليف قلوبهم.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: قبول الله تعالى لتوبة التائب:

إن من فضل الله على خلقه وكمال إحسانه، قبوله توبة من تاب منهم، وقد صرح النبي ﷺ بذلك في الحديث فقال: "ويتوب الله على من تاب"، أي أن الله تعالى يقبل التوبة مع الحرص المذموم الذي ورد في الحديث: (لو أن لابن آدم واديًا من ذهب أحب أن يكون له واديان)، وغيره من المذمومات[1]، وفي ذلك إخبار بقبول الله توبة من يتوب إليه، وكما قال الحق تبارك وتعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾[2]، فوصف الله نفسه بالغفار، الذي يغفر ذنوب عباده مرة بعد أخرى، فكلما تكررت ذنوبهم تكررت مغفرته[3]، لمن ندم على ما صدر منه وآمن وعمل صالحًا ثم اهتدى بأن استمر على الهدى وثبت عليه وذلك كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[4][5].

وقبول الله عز وجل لتوبة التائب من مظاهر رحمته بعباده، قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا﴾[6].

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ٩٦.

(٢) سورة طه، آية: ٨٢.

(٣) زاد المسير في علم التفسير، ابن الجوزي ، ابن الجوزي، ٣١١/٥.

(٤) سورة الأحقاف، آية: ١٣.

(٥) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور ٢٧٦/١٦/٧.

(٦) سورة النساء، الآيات: ٢٦ - ٢٨.

قال ابن القيم: "والتوبة من أفضل مقامات السالكين لأنها أول المنازل وأوسطها وآخرها، فلا يفارقها العبد ولا يزال فيها إلى الممات، وإن ارتحل السالك منها إلى منزل آخر ارتحل به ونزل به، فهي بداية العبد ونهايته، وحاجته إليها في النهاية ضرورية كما حاجته إليها في البداية كذلك"[١].

إن التوبة عن الذنوب تعتبر الخطوة الأولى في علاج أمراض الشخصية وأسلوبًا من أساليب تطهير النفس، فالاعتراف لله بالذنوب والآثام هي الخطوة الأولى في العلاج وراحة النفس، إلا أن هذه الراحة لا تكون كاملة ومستمرة إلا عن طريق التوبة بالإقلاع عن تلك الذنوب والآثام والعزم على تركها، والمثابرة لإرضاء الله بالعمل الصالح الخالص وتلافي ما فات من الخير. لا كما ينادي به أصحاب المدارس النفسية بالاكتفاء بالاعتراف فقط دون أن يكون هناك توبة وتكفير عن الذنوب. لذا نجد المنهج الإسلامي يرغب في التوبة ويأمر بها. ففي القرآن الكريم آيات عديدة منها: قوله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[٢]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾[٣]، فالإنسان يجب عليه ألا يتوانى في التوبة إلى الله حتى وإن كانت ذنوبه كثيرة، قال عز وجل: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[٤].

وقد منح الله التائب محبة منه، وهذا يدلنا على فضل التوبة وأهميتها كعلاج لأمراض الشخصية، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾[٥].

---

(١) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ١٩٨/١.

(٢) سورة النور، آية: ٣١.

(٣) سورة التحريم، آية: ٨.

(٤) سورة النساء آية: ١١٠.

(٥) سورة البقرة، آية: ٢٢٢.

إن التوبة لها آثار حميدة على الإنسان، ومن ذلك:

أ- تفتح أمام الإنسان الطريق الذي حطمته ذنوبه وآثامه، وأصبحت عبئًا ثقيلاً لا يستطيع تحمله في معترك الحياة، تفتح أمامه الأمل في تطهير النفس. إن هذا الأمل يجعله يشعر بالراحة النفسية والنظر إلى الحياة نظرة مختلفة، يسودها التفاؤل بعد أن كانت كلها تشاؤم وخوف ومرارة.

ب- تؤدي التوبة بصاحبها إلى احترام ذاته،وهذا الاحترام يقوي فيه شعوره بذاته، وبعبارة أخرى نستطيع القول: إن التوبة تؤدي إلى تأكيد الذات، وهذا دافع هام في تكوين الشخصية التي تتمتع بقدر كاف من الصحة النفسية.

ج- تؤدي التوبة إلى أن يتقبل الفرد لذاته، بعد أن كان دومًا يعلن الحرب عليها، ويحتقرها، ويحط من شأنها بسبب الآثام والذنوب التي ارتكبها.

إن الشخص الذي يتقبل ذاته لا يتطرف إلى الغرور الزائف، بل يواجه مشكلاته الشخصية بشجاعة وبأسلوب واقعي، إن الشخص الواقعي مستعد لمواجهة الحقائق عن نفسه، وعن عمله، وعن قدراته وظروفه، وعن المجال الذي يعيش فيه، حتى ولو كانت هذه الحقائق مؤلمة. إنه يرى في هذه الصعوبات حافزًا لأن يعمل ويكد ويضاعف من كفاحه أمام الأزمات.

د- تدفع التوبة إلى التحرر من الشعور بالذنب والخوف، وذلك أن الفرد المذنب يشعر بالتعاسة ويحس بالتوتر الذي يعوق نجاحه في أي مجال من المجالات التي يتحرك فيها، نتيجة لخوفه الشديد من الأذى الذي قد يصيبه بسبب الشعور المؤلم بالذنب عما يعتقد أنه عمل خاطئ قام به"[1].

(١) الإنسان وصحته النفسية، د. مصطفى فهمي ص ٢٨١ - ٢٨٢.

الحديث رقم (٢٤)

٢٤- وَعَنْ أبي هريرة رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللّهِ ﷺ قَالَ: «**يَضْحَكُ اللَّهُ سبْحَانُه وتَعَالَى إِلَى رَجُلَيْنِ يقْتُلُ أحدُهُمَا الآخَرَ يدْخُلاَنِ الجَنَّة، يُقَاتِلُ هَذَا فِي سبيلِ اللّهِ فيُقْتَل، ثُمَّ يَتُوبُ اللّهُ عَلَى الْقَاتِلِ فيُسلِمُ[1] فَيُسْتَشْهَدُ**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[2].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

الشرح الأدبي

يقول علماء البلاغة في وصف بلاغة الكلام وفصاحته: "إن الكلام إذا أشرقت شمس لفظه انكشف لبس معناه"، ومعنى أشرقت شمسه أي كان فصيحًا لما في الإشراق من الانكشاف والظهور، والمراد من قولهم: انكشف لبس معناه، أي يقدم المعنى في إطار بلاغي يبين المعنى ويجليه، وقالوا: لا يستحق الكلام الاتصاف بالبلاغة حتى يسابق لفظه معناه، ومعناه لفظه، فلا يكون لفظه أسبق إلى سمعك من معناه إلى قلبك[3].

والبيان النبوي يتسنَّم ذروة الفصاحة والبلاغة، وهو كما قال الجاحظ لم يسمع بكلام قط أعم نفعًا، ولا أصدق لفظًا، ولا أعدل وزنًا، ولا أجمل مذهبًا، ولا أكرم مطلبًا، ولا أحسن موقعًا، ولا أسهل مخرجًا، ولا أفصح عن معناه، ولا أبين عن فحواه من كلامه ﷺ[4].

وفي ضوء جماليات الأداء الأسلوبي في الحديث النبوي نقرأ هذا الحديث الشريف، ونستنطق معانيه من خلال مبانيه والحديث يختم به النووي باب التوبة وهو ختام موفق وهو مسك الختام، ويؤكد منهج النووي في ترتيب الأحاديث وهو منهج سديد يكشف

---

(١) (فيسلم) لا توجد عند البخاري، وإنما هو لمسلم.

(٢) أخرجه البخاري واللفظ له ٢٨٢٦، ومسلم ١٢٨/١٨٩٠.

(٣) انظر كتاب الطراز "المجلد الأول" ليحيى بن حمزة اليمني.

(٤) انظر: كتاب البيان والتبيين للجاحظ، ١٨/٢.

عن بصيرة نافذة، وميل إلى الترغيب أكثر من الترهيب، ولذلك سمَّي كتابه: "رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين" والحديث يبشر حتى غير المسلمين أملاً في إسلامهم، وترغيبًا لهم في التوبة، ويبدأ الحديث ببشارة إلهية تتمثل في اختيار الفعل المضارع "يضحك" إلى الرجلين المتصارعين. فالمسلم المقتول شهيد يدخل الجنة، ولكن كيف يدخل القاتل الكافر الجنة، والأسلوب هنا فيه مفارقة واستغراب، والأفعال الثلاثة في الجزء الأول من الحديث تتوالى في صيغة المضارع "يضحك الله، ويقتل أحدهما الآخر، يدخلان الجنة" وهذه الصيغة اللغوية توحي باستمرار الصراع بين المسلمين وغيرهم من الكفار والمشركين، ولكن يظل باب التوبة مفتوحًا، والإسلام يَجُبّ ما قبله؛ ويفسر رسول الله ﷺ هذا التضاد الظاهري في الموقف حين سأله الصحابة: كيف يا رسول الله؟ ولنتأمل أدب الخطاب في لغة الصحابة رضي الله عنهم فهم لم يعترضوا ولكنهم أرادوا معرفة الحقيقة بدليل أنهم قالوا: يا رسول الله؟ ولم يكتفوا بلفظ كيف؟ ويجيب المصطفى ﷺ ويفيد بأن المسلم -وأشار إليه بهذا تكريمًا وتمييزًا له عن غيره- يقاتل في سبيل الله فيقتل ويدخل الجنة؛ ولكن القاتل لا تغلق أمامه أبواب التوبة، ويشاء الله له الخير فيسلم ثم يصبح من جنود الإسلام. ويقاتل مثل صاحبه السابق في سبيل الله ويستشهد، ويكون مصيره الجنة، وهي المأوى والنعيم المقيم، والحديث ينبئ عن واقع مجيد تحقق في زمن البعثة حيث أسلم كثير من المشركين، وصاروا من أقوى المدافعين عن الإسلام، ومن جنوده الأوفياء، ومازال أتباع الملل الأخرى يدخلون في دين الله أفواجا بعد الحروب الدامية؛ والملاحم القتالية التي سجلها التاريخ تشهد بذلك، وكثير من الفرس والروم والمغول والتتار وغيرهم، دخلوا في دين الله أفواجا، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره المشركون.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: إثبات الضحك لله تعالى.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: فضل الشهادة في سبيل الله.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: بيان فضل الله على عباده.

رابعًا: من أساليب الدعوة: الترغيب.

أولاً- من موضوعات الدعوة: إثبات الضحك لله تعالى:

صرح النبي ﷺ في الحديث بنسبة الضحك لذات الله العلية فقال: "يضحك الله سبحانه وتعالى إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر، يدخلان الجنة".

يثبت أهل السنة والجماعة الضحك لله عز وجل -كما أفاده هذا الحديث وغيره- على المعنى الذي يليق به سبحانه، والذي لا يشبهه ضحك المخلوقين، عندما يستخفهم الفرح، أو يستفزهم الطرب، بل هومعنى يحدث في ذاته عند وجود مقتضيه، وإنما يحدث بمشيئته وحكمته؛ فإن الضحك إنما ينشأ في المخلوق عند إدراكه لأمر عجيب يخرج عن نظائره، وهذه الحالة المذكورة في هذا الحديث كذلك؛ فإن تسليط الكافر على قتل المسلم مدعاةٌ في بادئ الرأي لسخط الله على هذا الكافر وخذلانه، ومعاقبته في الدنيا والآخرة، فإذا منّ الله على هذا الكافر بعد ذلك بالتوبة، وهداه للدخول في الإسلام، وقاتل في سبيل الله حتى يستشهد فيدخل الجنة؛ كان ذلك من الأمور العجيبة حقًا.

وهذا من كمال رحمته وإحسانه وسعة فضله على عباده سبحانه، فإن المسلم يقاتل في سبيل الله، ويقتله الكافر فيكرم الله المسلم بالشهادة، ثم يمنُّ على ذلك القاتل، فيهديه للإسلام، والاستشهاد في سبيله فيدخلان الجنة جميعًا.

"وأما تأويل ضحكه سبحانه بالرضا أو القبول أو أن الشيء حلّ عنده بمحل ما يضحك منه، وليس هناك في الحقيقة ضحك، فهو نفي لما أثبته رسول الله ﷺ لربه فلا يلتفت إليه"[1].

وصفة الضحك لا يلزم من إثباتها تشبيه الله بخلقه -تعالى عن ذلك- لأن صفات الخالق تخصه وتليق به، وصفات المخلوقين تليق بهم وتخصهم، ولا تشابه بين الصفتين، كما أنه لا تشابه بين ذات الخالق سبحانه، وذات المخلوقين فكما أنّ لله ذاتًا لا تشبه الذوات فكذلك له صفات لا تشبه الصفات ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[2][3]. صفات تليق بعظمته وجلاله، فلا يجوز لنا أن نتوهم أنها مثل صفاتنا لأن

---

(١) شرح العقيدة الواسطية لابن تيمية، محمد خليل هراس ص ٢٠١ - ٢٠٢.

(٢) سورة الشورى، آية: ١١.

(٣) الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد والرد على أهل الشرك والإلحاد، د. صالح بن فوزان بن عبدالله الفوزان ص ١٦٩، ١٧١.

الله ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته عز وجل[1].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: فضل الشهادة في سبيل الله:

إن الشهادة في سبيل الله لها عظيم الأجر وكبير الفضل، ومن فضلها الذي ورد في الحديث دخول الجنة "يضحك الله سبحانه وتعالى إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر، يدخلان الجنة، يقاتل هذا في سبيل الله فيقتل، ثم يتوب الله على القاتل فيسلم فيستشهد" قال ابن حجر: (قال ابن عبدالبر: يستفاد من هذا الحديث أن كل من قُتل في سبيل الله فهو في الجنة)[2]. وذلك لما للجهاد من فضل في حفظ حوزة الإسلام وأمان الأنام في جميع المعاقل والأمصار، في سائر الليالي والأيام[3].

وقد تضافرت النصوص في القرآن والسنة التي تعلي من شأن الشهادة والشهداء، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[4].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((مَا مِنْ نَفْسٍ تَمُوتُ. لَهَا عِنْدَ اللّهِ خَيْرٌ. يَسُرُّهَا أَنَّهَا تَرْجِعُ إِلَى الدُّنْيَا. وَلاَ أَنَّ لَهَا الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا. إِلاَّ الشَّهِيدُ. فَإِنَّهُ يَتَمَنَّىٰ أَنْ يَرْجِعَ فَيُقْتَلَ فِي الدُّنْيَا. لِمَا يَرَى مِنْ فَضْلِ الشَّهَادَةِ))[5].

قال العز بن عبدالسلام: (لما بذل الشهداء أنفسهم من أجل الله، أبدلهم الله حياة خيرًا من حياتهم التي بذلوها، وقال: يشرف البذل بشرف المبذول، وأفضل ما بذله الإنسان نفسه وماله، ولما كانت الأنفس والأموال مبذولة في الجهاد، جعل الله مَنْ بذل

---

(١) شرح رياض الصالحين، ابن عثيمين، ٥٢/١، ٥٣.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٤٠٠/٢.

(٣) كتاب الاجتهاد في طلب الجهاد، لابن كثير تحقيق: د. عبدالله عبدالرحيم عسيلان ص ٦١، ٦٢.

(٤) سورة آل عمران، الآيات: ١٦٩-١٧١.

(٥) أخرجه مسلم ١٨٧٧.

نفسه في أعلى رتب الطائعين وأشرفها لشرف ما بذله مع محو الكفر ومحق أهله وإعزاز الدين وصون دماء المسلمين)[١].

لقد ضمن الله عز وجل للمجاهد في سبيله وإعلاء كلمته أن يرزقه بأحد الحسنيين كما جاء في الحديث الذي روي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: ((تَضَمَّنَ اللّهُ لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ، لاَ يُخْرِجُهُ إلاَّ جِهَادًا فِي سَبِيلي، وَإِيمَانًا بِي، وَتَصْدِيقًا بِرُسُلِي. فَهُوَ عَلَيَّ ضَامِنٌ أَنْ أُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ. أَوْ أَرْجِعَهُ إلَى مَسْكَنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ. نَائِلاً مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ. وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا مِنْ كَلْمٍ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِ اللّهِ، إلاَّ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَهَيْئَتِهِ حِينَ كُلِمَ، لَوْنُهُ لَوْنُ دَمٍ وَرِيحُهُ مِسْكٌ. وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْلاَ أَنْ يَشُقَّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، مَا قَعَدْتُ خِلاَفَ سَرِيَّةٍ تَغْزُو فِي سَبِيلِ اللّهِ أَبَدًا. وَلَـٰكِنْ لاَ أَجِدُ سَعَةً فَأَحْمِلَهُمْ. وَلاَ يَجِدُونَ سَعَةً. وَيَشُقُّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِّي. وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي أَغْزُو فِي سَبِيلِ اللّهِ فَأُقْتَلُ. ثُمَّ أَغْزُو فَأُقْتَلُ. ثُمَّ أَغْزُو فَأُقْتَلُ))[٢].

بهذه الصورة الرائعة يصور الرسول الكريم ﷺ أجر الغازي والمجاهد في سبيل الله، ذلك الإنسان الذي ضحّى بنفسه وماله في سبيل رفعة شأن الدين وإعزاز كلمة الله، وأي أجر أعظم، بل أيةُ منزلة أسمى من تلك المنزلة الرفيعة التي خص الله عز وجل بها المجاهدين في سبيله؟ حين قال عنهم: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًاۢ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[٣].

إنها الحياة الأبدية السرمدية في جنان الخلد ودار النعيم هي بعض ما أكرمهم الله عز وجل به، عدا ما أعد لهم من الذكر الحسن في الدنيا حيث تخلّد أسماؤهم في سجل الخالدين فهم أحياء حتى بعد مماتهم، ذكرهم على كل لسان، وحبّهم في كل قلب،

---

(١) أحكام الجهاد وفضائله، عز الدين بن عبدالسلام ٦١.

(٢) أخرجه مسلم ١٨٧٦.

(٣) سورة آل عمران، الآيتان: ١٦٩ - ١٧٠.

وهذا هو السر في نهينا عن القول في الشهداء بأنهم أموات لأن الله عز وجل خلّد ذكرهم، ويكفي ذلك شرفًا وفخرًا لهم. وقد بيّن هذا الحديث النبوي الشريف أن الله عز وجل قد تكفل بالجنة لمن جاهد في سبيل الله، مخلصًا عمله لله، مؤمنًا برسله، مصدقًا بوعد الله تبارك وتعالى، وليس هذا الجزاء العظيم إلا للمجاهد الذي يبتغي من وراء جهاده إعلاء كلمة الله، وإعزاز شأن الدين، ولقد سئل الرسول ﷺ عن الرجل الذي يقاتل للشهرة ليعرف أنه شجاع، أو يقاتل للمغنم، أو يقاتل حمية لعشيرته فقال كلمته الرائعة المأثورة: (من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله...)[1].

وقد ختم ﷺ حديثه بالقسم بأنه لولا أن يقع المسلمون في ضيق وحرج، ولولا المشقة التي ستلحق بالمؤمنين لما تخلّف عن الخروج في غزوة من الغزوات أبدًا، ولكنه لشفقته ﷺ على أمته ترك الخروج في بعض الغزوات.

ولقد تمنى صلوات الله وسلامه عليه أن يقتل في سبيل الله، ثم تعود إليه الحياة فيجاهد ثم يقتل وهكذا لما يعرف من ثواب الشهادة في سبيل الله. فأكرم به من قائد وزعيم وما أجمل كلمة الأديب التركي المسلم: (إذا لم تحترق أنت، ولم أحترق أنا، فمن أين يخرج النور؟) اللهم اجعلنا ممن جاهد في سبيلك ابتغاء مرضاتك"[2].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: بيان فضل الله على عباده:

إن من فضل الله على عباده توفيقهم لطاعته ودخول جنته وكما هو ظاهر في الحديث "يضحك الله سبحانه وتعالى إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر، يدخلان الجنة، يقاتل هذا في سبيل الله فيقتل، ثم يتوب الله على القاتل فيسلم فيستشهد" وهذا من كمال رحمته وإحسانه وسعة فضله على عباده، فإن المسلم يقاتل في سبيل الله ويقتله الكافر، فيكرم الله المسلم بالشهادة، ثم يَمُنُّ على ذلك القاتل، فيهديه للإسلام والاستشهاد في سبيله فيدخلان الجنة جميعًا[3].

---

(١) أخرجه البخاري ٢٨١٠، ومسلم ١٩٠٤.

(٢) من كنوز السنة، محمد علي الصابوني ص ١٧٥- ١٧٦.

(٣) شرح العقيدة الواسطية، لابن تيمية ص ٢٠١.

وذلك إشارة إلى حصول الهداية عقب تعلق العناية بالعبد من غير تراخ إذ لا مانع لما أراد سبحانه، وإلى أنه لم يمكث بعد إسلامه زمنًا يقترف فيه شيئًا من موبقات الذنوب، بل عقب إسلامه استشهد فعمل قليلاً وحاز خيرًا كثيرًا، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء[١].

رابعًا- من أساليب الدعوة: الترغيب:

لقد استعمل النبي ﷺ في الحديث أسلوب الترغيب، حيث رغب النبي ﷺ في الجهاد مبينًا أنه يغفر الذنوب ويدخل الجنة "يضحك الله سبحانه وتعالى لرجلين يقتل أحدهما الآخر يدخلان الجنة، يقاتل هذا في سبيل الله فيقتل ثم يتوب الله على القاتل فيسلم فيستشهد" وفي ذلك إشارة إلى أن الإنسان ينبغي له أن يتوب من الذنب الذي اقترفه، وإن كان كبيرة، ولا يؤيسه ذلك من رحمة الله تعالى، فإن الله هو التواب الرحيم، والذنب وإن عظم قدره -كالكبائر- وكثر عدده، إذا قوبل بفضل الله وعفوه كان يسيرًا قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾[٢] وقال البوصيري:

يا نفس لا تقنطي من زلة عظمت ... إن الكبائر في الغفران كاللمم[٣]

لذا فينبغي للداعية ألا يقنّط الناس من رحمة الله، وأن يرغبهم بوعد الطائعين الحافظين لحدود الله بعظيم الخير، وتبشيرهم بحسن المثوبة، وفي ذلك ما يحمل الناس على التشمير عن ساعد الجد في طاعة الله تعالى لنيل السعادة في الدنيا والآخرة[٤].

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ٩٧. والبيت للإمام البوصيري في البردة قافية الميم. انظر: الديوان ص ٢٤٨.

(٢) سورة النجم، آية: ٣٢.

(٣) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ٩٧.

(٤) هداية المرشدين، علي محفوظ ص ١٩٢.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

خلق الله تعالى الإنسان وجعله مستعداً لفعل الخير والتزود منه، وكذلك اقتراف الشر، ومن رحمته سبحانه أنه لم يترك عباده هملاً، بل ألهمهم وأرشدهم إلى التوبة من المعاصي والإنابة إليه سبحانه، قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[1]، وقد أمر الله تعالى المؤمنين بالتوبة، وجعلها رجاء الفلاح فقال: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[2].

وعدّ المصرُّ على ذنبه ظالماً فقال: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[3].

فالإسلام يتسم بنظرته الواقعية للإنسان، فهو ليس ملاكاً ولا شيطاناً، بل كائن عاقل رفيع كريم، فيه من أشواق الروح وتطلعاتها ما يرتفع به إلى عليين، وفيه من رغبات الجسم وأهواء النفس ما يقرنه بالمزخرفين من الشياطين،.... فمن طبيعته التسامي والارتقاء ومن طبيعته السقوط والالتواء.

فما دامت طبيعة البشر قابلة للوقوع في الذنب، فإن الباب لا يوصد أمام الإنسان، وإن الرحمة لا يطرد عنها لئلا يظل المرء في شقاء دائم.

وكان الرسول ﷺ - وقد أعلى الله منزلته وقدره وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر- لا يغفل يوماً عن التوبة والاستغفار ويوصي بها أصحابه رضي الله عنهم فمرة يقول: "والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة"، ويقول ﷺ: ((يا أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه فإني أتوب في اليوم مائة مرة)).

---

(١) سورة الشمس، آيات: ٧-١٠.

(٢) سورة النور، آية: ٣١.

(٣) سورة الحجرات، آية: ١١.

إن التوبة تجديد للإيمان وفي الاستغفار حياة للقلب... والقلب الذي فيه حياة يتدارك الذنب بالتوبة النصوح، فيندم صاحبه على الوقوف في المعصية، ويعجل إلى الإقلاع عنها[1].

إن تربية النفس على التوبة والإنابة إلى الله تعالى، تجعل العبد قريباً من ربه منيباً إليه وما أحوج النفوس إلى هذه النوع العظيم من التربية الإسلامية الواعية، تلك التربية الموضوعية والواقعية التي تتعامل مع النفس على طبيعتها واستعدادها كما خلقها الله تعالى، مزودة باستعدادات الخير واستعدادات الشر، فالتربية الإسلامية تتعامل مع واقع النفس، لأن النفس في نظر التربية الإسلامية ليست ملائكية وليست شيطانية، بل هي مستعدة للخير والشر، لكنها بحاجة إلى توجيهات وإرشادات وإلى فتح أبواب الأمل في رحمة الله، خاصة إذا كثرت المعاصي، وتكاثرت الذنوب عندئذ تكون نفس الإنسان بحاجة إلى الطمع في رحمة الله وعفوه، هذا ما تركز عليه التربية الإسلامية في الأحاديث التي وردت في باب التوبة والتي اشتملت على عدد من المضامين التربوية المهمة والتي من أبرزها ما يلي:

أولاً- التركيز على أسلوب القدوة العملية في التربية الإسلامية:

حيث أراد النبي ﷺ أن يربي أصحابه ﵃ والأمة من بعدهم على الحرص على التوبة والتزامها فجعل نفسه القدوة العملية في ذلك، مع تسليمنا بالمنزلة الرفيعة التي أنزلها الله تعالى لرسوله الكريم، حيث رفع ذكره وزكاه وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وغير ذلك مما يصعب استقصاؤه، إلا أن النبي ﷺ يستخدم القسم في تأكيده على أهمية التربية على التوبة، والإنابة إلى الله تعالى، فيقول: "والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه"، ويهيب بالناس أن يتوبوا إلى الله، ويجعل من نفسه قدوة في ذلك، لأجل تأصيل عملية تربية النفوس على التوبة، والإنابة إلى الله تعالى، ولا شك أن أسلوب القدوة العملية يعد من أبرز أساليب التربية الإسلامية في التأكيد على النفوس حيث يشعر الإنسان بأهمية هذا الأمر الذي لا تستغني عنه النفس البشرية، نظراً

---

(١) انظر: التربية الروحية الاجتماعية، د. أكرم ضياء العمري ٨٠-٨١.

لاقترافها الذنوب، وعدم سلامتها من الوقوع في المعاصي، ومن ثم فإن النبي ﷺ بيّن أن باب التوبة مفتوح على مصراعيه أمام كل إنسان تعثرت خطاه، واحتاج إلى رحمة الله، ليسارع في التوبة إلى الله والاستغفار، حيث كان النبي ﷺ حريصًا على التوبة ملازمًا لها ليبين للناس بأسلوب عملي أهمية التوبة والإنابة إلى الله تعالى.

ثانياً- التركيز على أسلوب المثل في التربية لبيان قيمة التوبة والإنابة إلى الله تعالى:

إن توبة العبد تؤدي إلى رضوان الله تعالى وفرحته بإنابة عبده، وقد وظّف النبي ﷺ المثل توظيفاً تربوياً رائعاً في تصوير حالة هذا الرجل الذي انفلتت عنه راحلته وعليها طعامه وشرابه حتى استبدَّ به اليأس من إدراكها، فأوى إلى شجرة واضطجع فبينما هو كذلك إذا براحلته فامتلأت نفسه سروراً حتى أخطأ من شدة الفرح... وقال: اللهم أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح".

إن النبي ﷺ أراد أن يعمق في نفوس مدى فرحة الله تعالى بتوبة عبده ورجوعه إليه ورحمته به، حتى تتربى الأُمّة على حب التوبة وملازمتها.

ثالثًا- التربية بالقصة:

إن التربية بالقصة مفيدة في عدد من المجالات التربوية التي تعمق في النفوس معاني الصدق، والأمانة، والوفاء، والرحمة، والإيثار، والتوبة، وغير ذلك، وقد بيّن النبي ﷺ - من خلال القصة في باب التوبة- أهمية تربية النفس على التوبة والحرص عليها، والبحث عنها، مهما تعثرت خطا الإنسان، وانحرف عن المسار الصحيح، وضلت به السبل، فلا ينبغي أن يستبد به اليأس ويحلّ به القنوط، بل يُؤمل في رحمة الله، ويطمع في قبوله سبحانه لتوبة عبده، وقد اتضح ذلك من خلال قصة هذا الرجل الذي قتل تسعاً وتسعين نفساً... بل أكمل قتل مائة نفس، وظل يبحث عن التوبة حتى يسّرها الله تعالى له، وقبلها منه، وذلك ما ورد في القصة التي أخبر بها النبي ﷺ.

كل ذلك ليؤصل النبي ﷺ في النفوس حب التوبة ويربيها على أهمية الحرص عليها، وعدم اليأس من الذنوب، واليقين في رحمة الله تعالى ولطفه بعباده.

رابعاً- الحرص على التربية الجادة على التوبة والاستغفار:

إن الإنسان لا يستطيع إدراك أهدافه إلا إذا كان جاداً ومثابراً في بلوغها، إن التوبة بحاجة إلى الصدق والشفافية مع الله تعالى، وإلا فإن الرواسب التربوية -التي كانت سبباً في بعض الذنوب والمعاصي في المراحل السابقة على التوبة-، يمكن أن تكدر صفوها، نظراً للخليط المتنافر من السلوكيات التي لا تنسجم مع التوبة إنه لابد من التخلص من الركام التربوي الذي يتعارض مع أصول التوبة وشروطها، وهذا ما ركز عليه النبي ﷺ في تربيته الجادة لأصحابه رضي الله عنهم، تلك التربية التي ساهمت في انتشالهم من السلوكيات التربوية الخاطئة في المجتمع العربي آنذاك، واستطاع من خلال تلك التربية الجادة أن يقتلع الجذور الاجتماعية والأنماط السلوكية الخاطئة والأفكار والمعتقدات التي عمل الإسلام على اجتثاثها من خلال بيان القيم الإسلامية في مجال العبادات والسلوكيات والآداب التي ينبغي للمسلم أن يتحلى بها في مجال التعامل مع أهل الفضل وغيرهم من الناس وأدب الخطاب وغير ذلك، وقد ربّى النبي ﷺ أصحابه رضي الله عنهم تربية جادة من خلال التجربة العملية في مقاطعة من تخلفوا عن غزوة تبوك وعدم التعامل معهم، ومنع أصحابه رضي الله عنهم من التواصل معهم حتى تاب الله عليهم.

إن من ثمرات التربية الجادة إعداد المسلم الممتثل لأوامر الله تعالى، لأن التربية تعمل على تهيئة المسلم للقيام بالمهمة التي من أجلها خلق وهي: العبادة لله تعالى، وإعمار هذا الكون من خلال طاعة الله تعالى، واجتناب معاصيه والإنابة إليه سبحانه.

خامسًا- من نتاج التربية الجادة: الامتثال لأوامر الله:

حين استنفر النبي ﷺ أصحابه في غزوة تبوك فتخلّف عن الغزوة من تخلف، وكان ممن تخلف من الصادقين: كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية، حين سألهم النبي ﷺ عن سبب تخلفهم عن الغزوة، ولم يكن لهم عذر يقبله ﷺ، فأمر بأن لا يكلمهم أحد، وبقوا على هذه الحال يمشون في شوارع المدينة، ويجوبونها وكأنهم يتعاملون مع أشباح وصور، وحين بلغوا أربعين يوماً، أُمروا أن يعتزلوا زوجاتهم فكانت عزلة أكثر، وحصاراً أشد، حتى بلغ بهم الحال إلى ما وصفه الله سبحانه

وتعالى في قوله: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[١]. وفي هذه الحالة يجيء كعب بن مالك رضي الله عنه خطاب من ملك غسان يطلب منه أن يلحق به، فيسجره في التنور، ويسلم أمره لله، فجاء الفرج بعد خمسين ليلة. إنها صورة من صور التربية الجادة، والتي تربى عليها أصحاب النبي ﷺ.

مما يعكس أثر التربية النبوية وهي في فترة النضج والتمام في العاشرة من الهجرة[٢].



(١) سورة التوبة، آية: ١١٨.

(٢) انظر: التربية الجادة ضرورة، أ. محمد بن عبدالله الدويش ٤٨-٤٩.

٣- باب الصبر

قَالَ اللهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ﴾[آل عمران: ٢٠٠]، وقال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[البقرة: ١٥٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[الزمر: ١٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾[الشورى: ٤٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[البقرة: ١٥٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾[محمد: ٣١]، وَالآيَاتُ فِي الأمر بالصَّبْر وَبَيانِ فَضْلِهِ كَثِيرَةٌ مَعْرُوفَةٌ.

الحديث رقم (٢٥)

٢٥- وعن أبي مَالِكٍ الْحَارِثِ بْنِ عَاصِمٍ الأشْعريِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: **((الطُّهُورُ شَطْرُ الإيمَان، وَالْحَمْدُ للَّه تَمْلأَ الْميزانَ وسُبْحَانَ الله والحَمْدُ للَّه تَمْلآنِ -أَوْ تَمْلأ- مَا بَيْنَ السَّمَاواتِ وَالأَرْضِ وَالصَّلاَةِ نورٌ، والصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ، وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ، والْقُرْآنُ حُجَّةُ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ. كُلُّ النَّاس يَغْدُو، فَبائِعٌ نَفْسَهُ فمُعْتِقُهَا، أَوْ مُوبِقُهَا))** رواه مسلم(١).

ترجمة الراوي:

أبو مالك الأشعري: هو أبو مالك الأشعري معروف بكنيته مختلف في اسمه اختلافاً كبيراً: فقيل: الحارث بن الحارث. وقيل: عبيد. وقيل: عبيدالله. وقيل: عمرو. وقيل: كعب بن عاصم. وقيل: كعب بن كعب. وقيل: عامر بن الحارث بن هانئ بن كلثوم.

وهو غير أبي مالك الأشعري الذي يروي عنه أبو سلام الأسود وشهر بن حوشب. فهذا يروي عنه عبدالرحمن بن غَنْم الأشعري وغيره.

---

(١) برقم ٢٢٣/١. أورده المنذري في ترغيبه ٣٠١. وسيكرره المؤلف برقم ١٠٣٣، و ١٤١٥.

نزل أبو مالك الشام ومات في خلافة عمر بسبب الطاعون الذي وقع هناك.

قال عبدالرحمن بن غنم: طعن معاذ بن جبل وأبو عبيدة بن الجراح وشرحبيل بن حسنة وأبو مالك الأشعري في يوم واحد[(١)].

تنبيه: قال الحافظ ابن حجر في الإصابة ٢٢٢: ذكر النووي في الأذكار[(٢)] عند ذكر حديث أبي مالك الأشعري ((الطهور شطر الإيمان)) – أن اسمه الحارث بن عاصم وهذا وهم، وإنما هو كعب بن عاصم أو الحارث بن الحارث.

غريب الألفاظ:

الطُّهورُ: التطهر. أما بالفتح "الطَّهُور" فهو الماء الذي يُتطهر به[(٣)].

شطر: نصف[(٤)].

الميزان: هو الميزان الذي توزن به يوم القيامة الصحائف التي كتبت فيها أعمال العباد، وله كفتان إحداهما للحسنات والأخرى للسيئات[(٥)].

يغدو: الغُدُوُّ: السَّيرُ أوّل النهار، والمراد يسعى[(٦)].

---

(١) الطبقات الكبرى، ابن سعد ٤٠٠/٧ والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ٨٥٢، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير ٢٦٦/٦، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني ١٥٤٥، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي ٤١٦/٨، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني ٥٨٠/٤، ٣٢٧/١، و٤٦٩/٣.

(٢) كذا قال الحافظ: في الأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار، الإمام النووي، وإنما ذكره النووي في الأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار، الإمام النووي بكنيته دون اسمه في الحديث رقم ١٣ منه، وإنما ذكر ذلك النووي في رياض الصالحين عند الحديث رقم ٢٥ أول باب الصبر.

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ط هـ ر).

(٤) اللسان في (ش ط ر).

(٥) شرح الطيبي، الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ١٨٢/١٠، وعون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم آبادي ٢٠٦٤.

(٦) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (غ د و).

معتقُها: مُحَرِّرُها[(١)]، وذلك إذا باعها لله تعالى، بطاعته.

موبقها: مهلكُها؛ وذلك إذا باعها للشيطان، بمعصية الله وطاعة الشيطان[(٢)].

الشرح الأدبي

يجب على كل مسلم أن يقف أمام هذا الحديث النبوي الشريف وقفة تأمل وتدبر وتفكر، لأنه من جوامع كلمه ﷺ وحياة المسلم القولية والفعلية، ومصيره في دنياه وآخرته ونجاته من مغريات الحياة، ورغائب النفس، كل هذه الآفاق التي يتحرك فيها المسلم تشرق فيها أنوار هذا الحديث الشريف، وهذه الأنوار منارات من الهدى واليقين تنطلق منها أشعة النجاة، وبوارق الفلاح وأضواء الأمان والإيمان.

ويتسم البيان النبوي في هذا الحديث بالإيجاز فكل جملة من جمل الحديث تتضمن أسراراً بلاغية، وتوحي بمعان وإيحاءات عديدة، وتفسيرات لغوية، وتحليلات لدلالة الألفاظ ونسق الأساليب، وهذا الإيجاز لم يجعل المعنى غامضاً، ولا البناء اللغوي معقداً وإنما الكلمات تشع ببريق المعاني، وتفصح الدلالات عن كثير من التفسيرات والبُشريات.

وقد قسم العلماء دلالة الألفاظ على المعاني ثلاثة أقسام: أحدها: المساواة وهو: أن يكون المعنى مساوياً للفظ ، والثاني: التذييل، وهو أن يكون اللفظ زائداً على المعنى وفاضلاً عنه، والثالث: الإشادة: وهو أن يكون المعنى زائداً على اللفظ: أي أنه لفظ موجز يدل على معنى طويل على وجه الإشادة واللمحة[(٣)].

وأسلوب النبي ﷺ في أحاديثه الشريفة يجمع بين خاصتى: "المساواة والإشادة" وليست في أحاديثه ألفاظ زائدة على المعنى لأن الزيادة اللفظية تعد عيباً من عيوب فصاحة اللسان العربي.

---

(١) المرجع السابق في (ع ت ق).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير واللسان في (و ب ق).

(٣) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي.

وخاصية الإيجاز في كلام المصطفى ﷺ تعد صدىً مضيئاً وترجماناً قولياً صادقاً لقوله ﷺ ((أوتيت جوامع الكلم))[١].

وقد ألمح إلى هذه الظاهرة الجمالية في الحديث النبوي هند بن أبي هالة: حينما سأله الحسن عن منطق رسول الله ﷺ: فقال في معرض وصفه للمنطق النبوي (ويتكلم بجوامع الكلم فصلاً لا فضول فيه ولا تقصير)[٢].

ولنتأمل مظاهر الجمال الأسلوبي والأداء البلاغي ومعالم البيان النبوي في هذا الحديث الشريف: وأول مظهر من مظاهر الجمال الأسلوبي.. هو العبارات والجمل القصيرة المتوازية، والسجع غير المتكلف الذي يحدث التأثير الصوتي، وصولاً إلى الدلالة المضيئة، ورغبة في الامتثال لكل قيمة إسلامية أشرقت معانيها في آفاق هذا الحديث الشريف.

وهذه الجمل القصيرة المتوازية التي يضبطها الإيقاع الأسلوبي والمعنوي، يحكمها ويعلي من قيمتها التأثيرية "التوازن" وهو من خصائص البيان النبوي؛ لأن هذا البيان يخاطب العاطفة قدر ما يخاطب العقل، ولا يجور فيه الخيال على الحقيقة ولا يطغى فيه المحسوس على المعقول، ولا يتجه إلى قوم دون آخرين ولا يخضع لمؤثرات بيئية، ولا لحيثيات زمنية، إن الأدب النبوي خطاب شامل للبشرية جمعاء، وهي تستظل بظلال الإسلام في كل زمان وفي كل مكان، مهما اختلفت اللغات، ومهما تباينت الأجناس وتعددت البيئات، فالشعور الإيماني هو الدائرة التي يتحركون في فلكها، وهو المنبع والمجرى والمصب، منبع العقيدة، ومجرى السلوك ومصب الرؤى والإشراقات.

وكل ما في الحديث الشريف ينطق بالتوازن الذي يعد من سمات الشخصية الإسلامية، ولنتأمل هذه الأسرار التعبيرية، والمظاهر الجمالية في صياغة الحديث الشريف.

---

(١) أخرجه مسلم ٥٢٣.

(٢) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة ١/٢٨٧.

فلفظ "الطهور" يحمل عدة دلالات: حسب ضبْطه الشكلي، فهو بضم الطاء: يفيد فعل الوضوء نفسه، وبفتح الطاء هو اسم لهذا الفعل؛ والجذر لهذا اللفظ اللغوي من "الطهارة" وهي تدل على النظافة حسية كانت أو معنوية.

وهذه الدلالة اللغوية للطهارة تشارك في توضيح الدلالة الشرعية، فالطهارة شرعاً: فعل ما يترتب عليه إباحة أو ثواب مجرد؛ والمراد بالطهور: في الحديث الشريف هو الوضوء.

ولا يكتمل مدلول "الطهور" ولا يفهم المراد منه إلا بقوله عليه الصلاة والسلام "شطر الإيمان" فالطهور مبتدأ الكلام، وشطر الإيمان الخبر الذي تمت به الفائدة.

وحول تفسير "شطر الإيمان" دارت آراء عديدة، وتأويلات كثيرة. وكلها تؤكد قيمة البيان النبوي وعمق دلالاته، ودقة إشاراته.

فالشطر: معناه: النصف: ولفظ الإيمان: قيل المراد به: الصلاة لا تصح إلا بالوضوء فكان كالشطر، والذين فسروا الإيمان على حقيقته: قالوا: ينتهي تضعيف أجره إلى نصف أجر الإيمان -كما ذكر صاحب كتاب دليل الفالحين-.

وتتعدد دلالة لفظ "الطهور" حيث فسرها بعضهم: الطهور ها هنا: بترك الذنوب.

وحول علاقة الطهور بالإيمان، ودلالة الشطر: قال بعض العلماء: الإيمان نوعان: فعل وترك فنصفه فعل المأمورات، ونصفه ترك المحظورات: وهو تطهير النفس بترك المعاصي، فانظر أخي المسلم إلى هذه الإشعاعات الدلالية، والمقاصد الشرعية التي تشع بها ألفاظ الحديث الشريف، وتراكيبه اللغوية الناطقة بالإيحاء، والتي يقف أمامها العلماء بكل ما لديهم من تفسيرات وآراء.

ولنتأمل هذه الحقيقة الإيمانية: "الحمد لله تملأ الميزان": كيف توحي صياغتها بالبشارات، وكيف تعلن عن الجزاء المضاعف الذي ينتظر المؤمن الذي يحمد ربه في كل المواقف الحياتية.

وهذا الجزاء المضاعف يصوغه المصطفى ﷺ في أوجز عبارة، في جملة واحدة: بدايتها "الحمد لله" وختامها "تملأ الميزان"، وهل هناك ثواب أكمل وأجمل وأعظم من

أن يُملأ ميزان المؤمن.. وهذا كناية عن القبول والرضا والفوز في الدنيا، لأن الحمد كان قرين كل قول وفعل، والفوز في الآخرة وما أعظمه من فوز حين يملأ الميزان، وتتوج بذلك حياة الإنسان.

وحول كيفية هذه الحقيقة: "الحمد لله تملأ الميزان" تعددت آراء العلماء، وتعددت الوجوه والتفسيرات. وهي كثيرة وتؤكد القيمة الأسلوبية والدلالية للبيان النبوي العظيم، ومن هذه الآراء قولهم: وإنما ملأ ثواب هذه الجملة كفة الميزان مع سعتها المفرطة لأن معاني الباقيات الصالحات في ضمنها.

ومن التراكيب الأسلوبية المضيئة بالدلالات والمعاني العميقة قوله ﷺ "أو تملأ ما بين السماوات والأرض".

ولنتساءل لماذا جاء لفظ السماوات في صيغة الجمع، ولفظ الأرض مفردًا؟

ويقول البيضاوي: في تعليل هذه الظاهرة اللغوية إنما جمع السماوات وأفرد الأرض لأن طبقات السماوات متفاصلة بالذات مختلفة في الحقيقة، بخلاف الأرضين.

وقيل في تعليل هذا الثواب العظيم لكل من ينبض قلبه، وينطق لسانه، ويؤيد ذلك سلوكه ويقينه، حيث يكون نهجه في حياته قولاً وعملاً "سبحان الله والحمد لله"، ويقول العلماء وإنما ملأ ثواب ما ذكر ما بين السماء والأرض التي لا يحيط بسعتها إلا خالقها سبحانه؛ لأن العالم كله شاهد بأن الله هو خالقه والقائم بتدبيره، وسبحان الله والحمد لله يتضمنان إثبات الرب الواحد وجميع صفات الجلال والكمال له، ونفى جميع النقائص عنه، فكأن قائلها شاهد لله بذلك.

"والصلاة نور والصدق برهان والصبر ضياء": إن هذه الحقائق الثلاث التي تمثل ثلاثة من مبادئ الإسلام وقد جاءت صياغتها مبشرة للمؤمن الذي امتزجت حركته الحياتية بالتحميد والتسبيح.

وتشبيه الصلاة بالنور وحذف أداة التشبيه، أو أنها على الحقيقة نور: حيث تضيء لصاحبها في ظلمات الموقف يوم القيامة؛ وليس هناك تصوير للصلاة أعظم تقديراً، وأوسع دلالة من هذا التصوير بأنها نور، فهي نور في الحياة، ونور وبرهان ونجاة يوم القيامة.

الصدقة برهان: والبرهان هو الشعاع الذي يلي وجه الشمس، ومنه سميت الحجة القاطعة برهاناً لوضوح دلالتها على ما دلت عليه، فكذلك الصدقة برهان على صحة الإيمان.

والصبر ضياء: وأي علاقة توجد بين قيمة الصبر، وهو مسلك إيماني يحتاج إلى مجاهدة ومعاناة، وبين: متعلقات وملابسات الضياء، والضياء في اللغة: هو النور الذي يحصل فيه نوع حرارة وإحراق كضياء الشمس، بخلاف القمر فإنه نور محض فيه إشراق بغير إحراق، وهنا تكمن المجاهدة في الصبر ومقاومة كل الإحباطات والمعوقات والوساوس، وهذه المقاومة لا تكون إلا بوهج الضياء وقوة اليقين "والقرآن حجة لك أو عليك"، إن هذا الموقف الصارم الذي صيغ في قالب موجز موضوع على كفتى الطباق "لك أو عليك" يضع المسلم أمام مسؤولية مصيرية، ونهاية الحديث لا تحصر هذا المصير في دائرة المسلم، ولكنها توسع الدائرة، فإذا الناس كلهم أمام خيارين، إما أن يبيع نفسه لله فيفوز ويعتق نفسه، أو يكون مصيره الهلاك والبوار.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى أكثر من حكم فقهي نذكر منها:

الأول: حكم الطهارة، وقد ذكر الفقهاء[1] أنها شرط لصحة الصلاة، ثم اختلفوا في كونها عبادة أم لا على قولين، فقال البعض إنها عبادة بناءً على هذا الحديث، وذهب الآخرون إلى أنها ليست عبادة.

الثاني: حكم ذكر الله تعالى: الذكر محبوب مطلوب من كل أحد مرغب فيه في جميع الأحوال، إلا في حال ورد الشرع باستثنائها، كحال الجلوس على قضاء الحاجة، وحال سماع الخطبة[2].

---

(١) انظر: البحر الرائق شرح كنز الدقائق، ابن نجيم ٢/١، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ٢٣٠/١، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ١٠٦/٦، المبدع في شرح المقنع، ابن مفلح ١١٦/١، وشرح العمدة لابن تيمية ٣٢٠/١، وتحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري ٣٥٠/٩.

(٢) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٢٢/٢١، نقلاً عن فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٠٢/١١، ٢١٢.

الثالث: فريضة الصلاة، وقد اتفق الفقهاء[1] على أن الصلاة فرض عين على كل مسلم ومسلمة متى كان بالغًا عاقلاً ولا تسقط إلا بالموت فقط.

الرابع: حكم الصدقة، والصدقة أنواع فمنها ما هو واجب وهو الزكاة حيث يطلق عليها صدقة، ومنها ما هو واجب على البدن وهو زكاة الفطر، ومنها الصدقة المفروضة من الشخص على نفسه وهو النذور، ومنها الصدقة المفروضة حقًا لله تعالى وهي الفدية والكفارة، ومنها ما هو تطوع وهذا هو المصطلح الأشهر عند ذكر الصدقة[2].

وقد ذكر الفقهاء[3] أن صدقة التطوع سنة ورد بفضلها الكتاب والسنة، وهي مستحبة في جميع الأوقات، وصدقة السر فيها أفضل من صدقة العلانية وفي كل خير، وهي أفضل في وقت الصحة، وفي رمضان، وأوقات الحاجة، وفي كل زمان ومكان فاضل.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: فضل الطهور.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: فضل الحمد والتسبيح.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: فضل الصلاة.

---

(١) بدائع الصنائع، الكاساني ٨٩/١، والبحر الرائق شرح كنز الدقائق، ابن نجيم ٢٥٦/١، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ٣٧٨/١، وشرح منح الجليل على مختصر خليل، الشيخ محمد بن أحمد بن محمد عليش ١٧٧/١، ومغني المحتاج ٣١٢/١، ونهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، الرملي ٣٨٧/١ وما بعدها، وشرح منتهى الإرادات، البهوتي ١٢٥/١، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي ٢٢١/١.

(٢) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٣٢٥/٢٦.

(٣) أحكام القرآن للجصاص ٦٢٨/١، وأحكام القرآن لابن العربي ٢٠٤/١، ٣١٤، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٢٣٥/٦ وما بعدها، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا بن محمد بن أحمد الأنصاري٤٠٥/١، والمغني، ابن قدامة ٣٦٨/٢، والفروع، ابن مفلح ٦٤٩/٢، وسبل السلام الموصلة إلى بلوغ المرام، الصنعاني ٥٤١/١، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٨٩/٢٤، ٣٢٥/٢٦.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: فضل الصدقة.

خامساً: من موضوعات الدعوة: فضل الصبر.

سادساً: من موضوعات الدعوة: فضل العمل بالقرآن وخطورة الإعراض عنه.

سابعاً: من أساليب الدعوة: الترغيب والترهيب.

ثامناً: من أساليب الدعوة: التشبيه وضرب الأمثال.

تاسعاً: من موضوعات الدعوة: فضل العمل الصالح.

عاشرًا: من مهام الداعية: حث الناس على فعل ما ينفعهم.

أولاً- من موضوعات الدعوة: فضل الطهور:

صرح الرسول ﷺ في الحديث بفضل الطهور وبيان منزلته من الإيمان، فقال: "الطهور شطر الإيمان"، قال القرطبي: (وقد اختلف في معنى قوله عليه الصلاة والسلام: "الطهور شطر الإيمان" على أقوال كثيرة؛ أولاها: أن يقال: إنه أراد بالطهور الطهارة من المستخبثات الظاهرة والباطنة. والشطر: النصف. والإيمان هنا: هو بالمعنى العام. ولا شك أن هذا الإيمان ذو خصال كثيرة، وأحكام متعددة، غير أنها -أي الخصال- منحصرة فيما ينبغي التنزه والتطهر منه، وهي كل ما نهى الشرع عنه، وفيما ينبغي التلبس والاتصاف به، وهي: كل ما أمر الشرع به، فهذان الصنفان عبر أحدهما بالطهارة على مستعمل اللغة، وهذا كما روي مرفوعا: "الإيمان نصفان: نصف شكر ونصف صبر".

وقد قيل: إن الطهارة الشرعية لما كانت تُكفر الخطايا السابقة كانت كالإيمان الذي يَجُبُّ ما قبله، فكانت شطر الإيمان بالنسبة إلى محو الخطايا، وهذا فيه بُعد؛ إذ الصلاة وغيرها من الأعمال الصالحة تُكفر الخطايا؛ فلا يكون لخصوصية الطهارة بذلك معنى.

ثم لا يصح أيضاً معنى كون الطهارة نصف الإيمان بذلك الاعتبار؛ لأنها إنما تكون مثلاً له في التكفير، ولا يقال على المثل للشيء: شطره، وقيل: إن الإيمان هنا

يراد به الصلاة، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾[١]، أي: صلاتكم على قول المفسرين، ومعناه على هذا: أن الصلاة لما كانت مفتقرة إلى الطهارة كانت كالشطر لها. وهذا أيضاً فاسد، إذ لا يكون شرط الشيء شطره، لا لغة، ولا معنى. فالأولى: التأويل الأول. والله أعلم.

فإن قيل: كل ما ذكرتم مبنيٌ على أن المراد بالطهور: الطهارة، وذلك لا يصح، لأنه لم يروه أحد فيما علمناه: الطهور بالضم، وإنما روي بالفتح، فإذا هو الاسم على ما تقدم. قلنا: يصح أن يقال: يحمل هذا على مذهب الخليل كما تقدم، ويمكن حمله على المعروف ويراد به استعمال الطهور شطر الإيمان"[٢].

قال ابن رجب الحنبلي: (والصحيح الذي عليه الأكثرون أن المراد بالطهور هاهنا: التطهر بالماء من الأحداث)[٣]، وقال النووي: (ويحتمل أن يكون معناه أن الإيمان تصديق بالقلب وانقياد بالظاهر ، وهما شطران للإيمان، والطهارة متضمنة الصلاة فهي انقياد في الظاهر)[٤]، والطهور سبب لمحبة الله عز وجل، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾[٥].

ثانياً- من موضوعات الدعوة: فضل الحمد والتسبيح:

إن حمد الله واجب على خلقه، وبيّن الرسول ﷺ في الحديث فضل الحمد فقال: "والحمد لله تملأ الميزان"، أي أن هذه الكلمة "الحمد لله" أو هي وما يؤدي مؤداها من الثناء على الله -سبحانه- بصفات كماله تملأ الميزان باعتبار ثواب التلفظ بالحمد مع استحضار معناه، أي الثناء على الله بالجميل الاختياري والإذعان له[٦]، وقد أمرنا الله

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٤٣.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ٤٧٤/١ - ٤٧٥.

(٣) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٧/٢.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٢٥٠.

(٥) سورة البقرة، آية: ٢٢٢.

(٦) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ١٠٠.

تبارك وتعالى بحمده في كثير من آيات القرآن منها قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ﴾[١]، وكان من السنة بدء كل شيء وإنهاؤه بحمد الله، قال قتادة: "افتتح الله أول الخلق بالحمد لله، فقال: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾[٢]، وختم بالحمد فقال: ﴿ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[٣]، فلزم الاقتداء به والأخذ في ابتداء كل أمر بحمده وخاتمته بحمده[٤].

كما بيّن ﷺ فضل تسبيح الله فقال: "وسبحان الله والحمد لله تملآن ما بين السماوات والأرض"، قال النووي: (وأما معناه فيحتمل أن يقال لو قدر ثوابهما جسماً لملأ ما بين السموات والأرض، وسبب عظم فضلهما ما اشتملتا عليه من التنزيه لله تعالى بقوله سبحان الله: والتفويض والافتقار إلى الله تعالى بقوله: الحمد لله)[٥]، فالتحميد إثبات المحامد كلها لله، ويدخل في ذلك إثبات صفات الكمال ونعوت الجلال كلها، والتسبيح: تنزيه الله عن النقائص والعيوب والآفات[٦]، ولما اشتمل التسبيح والتحميد على هذه المعاني استحق من الله جزيل العطاء وحسن الثواب.

(فإنْ حَمَدَ المسلم ربه مستحضراً معنى الحمد في قلبه امتلأ ميزانه من الحسنات فإن أضاف إلى ذلك: سبحان الله، الذي معناه تبرئة الله، وتنزيهه عن كل ما لا يليق به من النقائص، ملأت حسناته -وثوابها زيادة على ذلك- ما بين السماوات والأرض؛ إذ الميزان مملوء بثواب التحميد، وذكر السماوات والأرض على جهة الاغياء -بلوغ الغاية- على العادة العربية، والمراد أن الثواب على ذلك كثير جداً بحيث لو كان أجساماً لملأ ما بين السماوات والأرض)[٧].

---

(١) سورة النمل، آية: ٥٩.

(٢) سورة الأنعام، آية: ١.

(٣) سورة الزمر، آية: ٧٥.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٢٨٧/١٥/٨.

(٥) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٢٥٠.

(٦) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ١٧/٢ - ١٨.

(٧) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ٤٧٦/١.

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: فضل الصلاة:

قال ﷺ مبيناً فضل الصلاة: (والصلاة نور)، قال ابن علان: "ولم يجئ في فعل متعبد به أنه نور في نفسه سوى الصلاة، فهي تضئ لصاحبها في ظلمات الموقف بين يديه كما أنها تنهى عن الفحشاء والمنكر وتهدي إلى الصواب فتصد عن المهالك وتوصل إلى طريق السلامة كما يستضاء بالنور"[1]، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾[2]، فهي سبب للانتهاء عن الفحشاء والمنكر وتحمل صاحبها على العمل بمحاسن الآداب ومكارم الأخلاق[3]، وهي سبب لإشراق أنوار المعارف، وانشراح القلب، ومكاشفات الحقائق، لفراغ القلب فيها، وإقباله على الله ظاهراً وباطناً"[4].

لقد حدد الله الصلاة وجعل لها أوقاتاً معينة، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا﴾[5].

فلها ركعات معدودة تؤدى بها هذه الصلوات الخمس دائماً، وقد داوم عليها رسول الله ﷺ مدة حياته، حتى في الحروب، وتواترت أخبارها تواتراً لا يعرف لأي عمل أو عبادة في ملة من الملل، وفي دور من أدوار التاريخ، وتوارثتها الأمة جيلاً بعد جيل، وطبقة بعد طبقة من غير فترة يوم واحد، حتى في أدق ساعاتها وأعظم محنها وأزماتها.

وهذه الصلوات الخمس بأوقاتها وركعاتها، وجبات روحية، شرعها الخلاق العظيم، المبدع الحكيم، الذي لا يطبّب النفوس فحسب، بل هو خالقها العليم، وصانعها الحكيم كذلك، فلا بد من الإيمان والخضوع لحكمتها وتشريعها، ولا بد من التمسك بها، والعض عليها بالنواجذ، والإتيان بها في أوقاتها، التي لا يعلم أسرارها

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ١٠١.

(٢) سورة العنكبوت، آية: ٤٥.

(٣) محاسن التأويل، جمال الدين القاسمي، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي ١٥٢/١٣/٨.

(٤) شرح الطيبي، الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ٦/٢.

(٥) سورة النساء، آية: ١٠٣.

وما يظهر فيها من تجليات وإشراقات، وما يتنزل فيها من بركات ورحمات، وما يوجب فيها التعبد لله والسجود له وحده مخالفة لعبّاد الشمس والكواكب، ولعبّاد الأحجار والنار، وقد خضعت الأجيال البشرية، والعقول السليمة، لتوجيهات أطباء البشر ووصاياهم وتحديداتهم، وهم من بني جلدتهم، وفي مستواهم البشري، لتجارب محدودة، أو تخمينات مظنونة وما ظنك بالرب الحكيم؟ ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[1]، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾[2].

لقد جعل الله الصلاة فريضة على عباده وفارقاً بين المسلمين وغيرهم وشرطاً للنجاة وحارسة للإيمان، وقد ذكرها الله تعالى من الأشراط الأساسية للهداية والتقوى، فقال: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾[3]، وقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾[4]، وقد استثنى المحافظين على الصلوات من أصحاب الأخلاق الذميمة، فقال: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ۝٢٢ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾[5]، وقال، وهو يذكر المؤمنين المفلحين: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾[6]، وقال وهو يحكي أهل النار: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ۝٤٢ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ﴾[7]، وقال عن المنافقين: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[8].

---

(١) سورة طه، آية: ٥٠.

(٢) سورة الملك، آية: ١٤.

(٣) سورة البقرة، الآيات: ١ - ٣.

(٤) سورة الأعلى، الآيتان: ١٤ - ١٥.

(٥) سورة المعارج، الآيتان: ٢٢ - ٢٣.

(٦) سورة المؤمنون، آية: ٩.

(٧) سورة المدثر، الآيتان: ٤٢ - ٤٣.

(٨) سورة النساء، آية: ١٤٢.

وهي فريضة دائمة مطلقة على كل مسلم ومسلمة بالعين عاقلين وعلى كل عبد وحر، وغني وفقير، وصحيح ومريض، ومقيم ومسافر، لا تسقط عمن بلغ الحلم في حال من الأحوال، بخلاف الصيام والزكاة، والحج، الأركان الثلاثة التي وجبت بشروط وصفات، وفي أوقات معينة محدودة، حتى أُمر بها في ساحة الحرب، وميدان القتال، وشرعت صلاة الخوف، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰ أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ۚ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾[١]، وقال: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ۖ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾[٢][٣].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: فضل الصدقة:

إن الصدقة برهان وحجة على إيمان فاعلها[٤]، وهي دليل على صحة إيمان صاحبها، وصدق باطنه مع ظاهره، وهذه المعاني أشار إليها النبي ﷺ في الحديث فقال: (والصدقة برهان) فهي تعني الدلالة على صدق العقيدة وثبوتها، فالأعمال البدنية

---

(١) سورة النساء، الآيات: ١٠١ - ١٠٣.

(٢) سورة البقرة، الآيتان: ٢٣٨ - ٢٣٩.

(٣) انظر: الأركان الأربعة، أبو الحسن الندوي ص ٢٣ - ٢٧.

(٤) المرجع السابق ٢/ ٦.

والقولية سهلة ميسورة، أما إخراج المال وهو قرين النفس عن طواعية واختيار فهو الدليل القوي على صدق إيمان من يقوم بهذا البذل ابتغاء رضوان الله تبارك وتعالى[١].

قال تعالى: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾[٢]، قال القرطبي: (قوله: (صدقة) مأخوذ من الصدق إذ هي دليل على صحة إيمان من يخرجها وصدق باطنه مع ظاهره)[٣].

وما ذكره الله تعالى من تطهير الصدقة للمؤمنين يشمل أفرادهم وجماعاتهم، فهي تطهر نفوس الأفراد من الذنوب ومن أرجاس البخل والدناءة والقسوة والأثرة والطمع وغير ذلك من الرذائل الاجتماعية التي هي مثار التحاسد والتعادي والعدوان والفتن والحروب، وتزكي أنفسهم أي تنميها وترفعها بالخيرات والبركات الخلقية والعملية حتى تكون بها أهلاً للسعادة الدنيوية والأخروية.

كما أن الصدقات والإنفاق عامة له أكبر الأثر في القضاء على الفقر الذي هو أشر أدواء البشر، وبالقضاء على الفقر وقاية للمجتمعات من الانحراف سواء أكان عملاً أو فكراً.

فالفقر يحمل الواقعين تحت سلطانه على إتيان جميع ضروب الشرور للحصول على أخص حاجات الحياة وهو القوت، فالبطون إذا جاعت دفعت أصحابها لاستساغة جميع صنوف الجرائم، وعدت ذلك عملاً مشروعاً، وفي البيئات التي يشيع فيها الفقر تروج جميع المذاهب المتطرفة، وتستحل جميع الأعمال الوحشية للوصول إلى أغراضها[٤].

خامساً- من موضوعات الدعوة: فضل الصبر:

إن قيام الإنسان بالطاعات واجتنابه المنهيات يحتاج إلى صبر ومجاهدة نفس كما أن تحمل الإنسان ما ينزل به من مصائب ونوائب يحتاج إلى صبر، لذا قرن الله العبادات

---

(١) التكافل الاجتماعي في الشريعة الإسلامية، د. محمد بن أحمد الصالح ص ٨٨.

(٢) سورة التوبة، آية: ١٠٣.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٢٤٩/٨/٤.

(٤) انظر: روح الدين الإسلامي، عفيف عبدالفتاح طبّارة ص ٣٤٣.

بالصبر في كثير من المواطن منها: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾(١)، وأمرنا بالصبر ليتجاوز به الإنسان ما يلم به فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾(٢)، ولما للصبر من أثر في حياة الإنسان وصفه النبي ﷺ في الحديث فقال: (والصبر ضياء)، قال الطيبي: "والمعنيّ بالصبر: الصبر على طاعة الله وعلى اجتناب معصيته وعلى النائبات والمكاره، أي: لا يزال صاحبه مستضيئاً مهتدياً مستمراً على الصواب"(٣).

إن الصبر على طاعة الله وعن معصيته يتجلى في سرعة امتثال العبد لله فيما أمر به واجتنابه فيما نهى عنه، والصبر على الأقدار إنما ينبغي أن يكون ملازماً للإنسان عند وقوع المصيبة وبعدها، بل يصبر عليها منذ الوهلة الأولى، روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: مَرَّ النبيُ ﷺ بامرأةٍ تبكي عندَ قبرٍ فقال: اتَّقي اللهَ واصبري: قالت: إليكَ عنّي، فإنكَ لم تُصَبْ بُمصيبتي. ولم تعرِفه. فقيل لها: إنه النبيُّ ﷺ، فأتتِ النبيَّ ﷺ فلم تجِدْ عندَهُ بوّابينَ، فقالت: لم أعرِفْكَ. فقال: ((إنَّما الصبرُ عندَ الصَّدْمةِ الأولى))(٤).

ما أشد وقع المصيبة على النفس حين تكون بعزيز غال، أو ولد حبيب!! إنها لخطب جلل وكارثة عظيمة قد يضيق عنها الصبر ولا تتحملها الأنفس، ولكن الدين داوى هذه النفوس الجزعة بما يخفف عنها وقع المصيبة وألم الكارثة. فالمؤمن يعتقد بقضاء الله وقدره، وأن كل ما يحدث في هذه الحياة، من خير أو شر، ومن نفع أو ضر، إنما هو بقضاء من الله وتقدير منه فيرضى بحكم الله صابراً محتسباً، طمعاً في مرضاة الله عز وجل، وإلى ذلك تشير الآية الكريمة: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا

---

(١) سورة هود، آية: ١١.

(٢) سورة البقرة، آية: ١٥٣.

(٣) شرح الطيبي، الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ٦/٢.

(٤) أخرجه البخاري ١٢٥٢، ومسلم ٩٢٦.

تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ﴾[١]...

هذه فائدة الإيمان (بالقضاء والقدر) أن تخف المصيبة على قلب الإنسان بسبب اعتقاده أنها بإرادة الله ومشيئته، بينما الكافر ينفد صبره ويضيع رشده، ولربما أضاع حياته أيضاً بالانتحار، لانه ليس لديه ما يسليه أو يعزيه، أو يخفف المصاب عنه، ولقد كان جزاء الصبر عظيماً عند الله، لأنه حبس للنفس على ما تكره، وصون لها عن فعل ما يغضب الله، ومقاومة للنوازع الفطرية في نفس الإنسان ولذا كان الثواب عظيماً. قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾[٢].

سادساً- من موضوعات الدعوة: فضل العمل بالقرآن وخطورة الإعراض عنه:

بعد ما بيّن النبي ﷺ فضل الطهور، وذكر الله من تسبيح وحمد وغيره، والصلاة والصدقة والصبر، ختم تلك الشعب بالقرآن فقال: "القرآن حجة لك أو عليك" فسلك به -أي القرآن- مسلكاً غير مسلكها دلالة على أن القرآن سلطاناً قاهراً وحاكماً فيصلاً، يفرق بين الحق والباطل، حجة الله في الخلق، به السعادة والشقاوة[٣]، فالقرآن حجة لك إن امتثلت أوامره واجتنبت نواهيه، وكان حجة لك في المواقف التي تسأل فيها عنه، كمسألة الملكين في القبر، والمسألة عند الميزان، وفي عقبات الصراط، وإن لم تمتثل ذلك احتج عليك[٤].

وكما رُوي عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه أنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللّهِ يَقُولُ: ((اقْرَأُوا الْقُرآنَ. فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعاً لأَصْحَابِهِ...))[٥].

وروى البيهقي عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((الْقُرآنُ شَافِعٌ

---

(١) سورة الحديد، الآيتان: ٢٢ - ٢٣.

(٢) سورة البقرة، الآيات: ١٥٥ - ١٥٧.

(٣) شرح الطيبي، الطيبي ٩/٢.

(٤) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ٤٤٧/١.

(٥) أخرجه مسلم ٨٠٤.

مُشَفَّعٌ، وَمَاحِلٌ مُصَدَّقٌ، مَنْ جَعَلَهُ أَمَامَهُ قَادَهُ إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَنْ جَعَلَهُ خَلْفَهُ سَاقَهُ إِلَى النَّارِ))(١).

(ويحتمل أن يراد به: أن القرآن هو الذي يُنتهى إليه التنازع في المباحث الشرعية والوقائع الحكمية، فبه تستدل على صحة دعواك، وبه يستدل عليك خصمك)(٢).

والقرآن بما فيه من أوامر يجب أن تؤدى وتطاع، ونواه يجب أن تجتنب وتترك، وتوجيهات يجب أن تتبع. حاكم للإنسان أو عليه، فعلى كل امرئ أن يطبق القرآن على سلوكه وكل أموره، ويعرض نفسه عليه قبل أن يحاسب به، ويؤاخذ على أساسه(٣).

سابعاً- من أساليب الدعوة: الترغيب والترهيب:

تكرر هذا الأسلوب كثيراً في الحديث فرغب النبي ﷺ في الطهور، وذكرِ الله والصلاة، والصدقة، والصبر، ورغب في العمل بالقرآن، ورهب من الإعراض عنه، والعمل بما ينافيه، فقال: (الطهور شطر الإيمان والحمد لله تملأ الميزان وسبحان الله والحمد لله تملآن ما بين السماوات والأرض والصلاة نور والصدقة برهان والصبر ضياء والقرآن حجة لك أو عليك)، وأسلوب الترغيب والترهيب من الأساليب الدعوية التي أولاها القرآن والسنة اهتماماً خاصاً، فقد ورد فيهما النصوص الكثيرة التي ترغّب الناس في قبول دعوة الإسلام والتحذير من رفضها، مما يدل دلالة قاطعة على أهمية هذا الأسلوب في الدعوة إلى الله، وعدم إهماله من قبل الداعي إلى الله عز وجل(٤).

ثامناً- من أساليب الدعوة: التشبيه وضرب الأمثال:

حيث شبّه النبي ﷺ في الحديث الناس وعلاقتهم بالأعمال الصالحة بمعاملات الناس، فمنهم من يسعى إلى الربح، ومنهم من لا يتطلع إليه، ويغلب عليه كسله وركونه إلى الدعة مما يعود عليه بالخسران، فقال ﷺ: (كل الناس يغدو فبائع

---

(١) أخرجه ابن حبان ١٢٤، وقال محقق الصحيح: إسناده صحيح على شرط مسلم، وصححه الألباني (الصحيحة ٢١٠٩).

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ١/٤٧٧.

(٣) رياض الصالحين، د. الحسيني هاشم ص ٥١.

(٤) أصول الدعوة، د. عبدالكريم زيدان ص ٤٣٧.

نفسه فمعتقها أو موبقها)، فالتشبيه وضرب المثل من الأساليب المفيدة في الدعوة، نظراً لما تحدثه في النفس من حركة التفات بارعة، يلتفت بها المرء من الكلام الجديد إلى صورة المثل المأنوس، فيلمح ما بينهما من التشابه أو التطابق، فلا يلبث أن يتلقى الأمر الجديد بمزيد من القبول والارتياح[١].

فلم تكن الأمثال القرآنية والنبوية مجرد عمل فني يقصد من ورائه الرونق البلاغي فحسب، بل إن لها غايات نفسية وتربوية ودعوية حققتها نتيجة لنبل المعنى، وسمو الغرض، بالإضافة إلى الإعجاز البلاغي وتأثير الأداء[٢]، ومن الأمثلة التي ضربها القرآن قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾[٣].

تاسعاً- من موضوعات الدعوة: فضل العمل الصالح:

إن العمل الصالح نجاة لصاحبه ورفعة لمنزلته، فرسول الله ﷺ لما بيّن في الحديث جانباً من القربات وبين فضلها ورغب فيها، أتبع ذلك بأن أحداً لا يترك نفسه هملاً، بل لا بد له من عمل يغدو له فقال: (كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها)، زد على ذلك ما في لفظه: (يغدو) من معاني الإسراع واغتنام الفرصة في عتق النفس والبعد بها عن المهالك، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾[٤]، فهؤلاء سعوا في خلاص نفوسهم وتوجهوا بقلبهم إلى ربهم وطلب ما عنده[٥].

(١) تذكرة الدعاة، البهي الخولي ص ٦٧ - ٦٨.

(٢) أصول التربية الإسلامية وأساليبها، عبدالرحمن النحلاوي ص ٢٢٣.

(٣) سورة الرعد، آية: ١٧.

(٤) سورة التوبة، آية: ١١١.

(٥) انظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ١٠٢ - ١٠٣.

عاشرًا- من مهام الداعية: حث الناس على فعل ما ينفعهم:

إن من أعظم ما يقوم به الداعية هو: حث الناس على فعل الخير، واجتناب الشر، ودعوة الناس إلى تهذيب النفوس، وإصلاح القلوب وإحيائها، وتهذيب الضمائر وتقويم الغرائز، وتوجيه الناس إلى القيم العالية والمبادئ الروحية السامية، والتوجه إلى الله توجهاً صحيحاً[1]، وليكن للدعاة في رسول الله ﷺ الأسوة الحسنة حيث لم يألو جهداً في دعوة الناس وحثهم على فعل الخير وبيان روافده وأسبابه، كما نرى في الحديث من ذكره لكثير من طرق الخير والنجاة.

---

(١) انظر: مرشد الدعاة، محمد نمر الخطيب ص ١٢٦-١٢٧.

الحديث رقم (٢٦)

٢٦- وَعَنْ أبي سَعِيدٍ سَعْد بْن مَالِك بْن سِنَانٍ الخُدْرِيِّ رضي الله عنهما أَنَّ نَاساً مِنَ الأنصَارِ سَأَلُوا رَسُولَ الله ﷺ فأَعْطاهُم، ثُمَّ سَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ، حَتَّى نَفِد مَا عِنْدَهُ، ((فَقَالَ لَهُمْ حِينَ أَنفَقَ كُلَّ شَيْءٍ بِيَدِهِ)) [١]: «مَا يَكُنْ[٢] مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أدَّخِرَهُ عَنْكُمْ، وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللهُ وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ. وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْراً وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ » مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[٣].

ترجمة الراوي:

أبو سعيد الخدري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٢١).

الشرح الأدبي

في هذا الحديث النبوي الشريف تتجلى صفة من صفات رسول الله وسجية من سجاياه وهي: صفة العطاء والكرم، وكذلك ينطق الحديث بشمائل النبوة الكثيرة التي أشار إليها القاضي عياض في كتابه الشفا. وقد قال بعد تعداد هذه المناقب التي تجمع بين خصال الجمال والكمال: إنه المصطفى ﷺ لا مريه أنه كان أعقل الناس وأذكاهم، ومن تأمل سيرته وعجيب شمائله وبديع سيره فضلاً عما أفاضه من العلم، دون تعلم سبق، ولا ممارسة تقدمت، ولا مطالعة للكتب منه لم يمتر في رجحان عقله، وثقوب فهمه.

وفي هذا الحديث الشريف يرشد النبي ﷺ في ضوء سجاياه الكريمة، ومن خلال توجيه الخطاب إلى جماعة من الأنصار إلى ما هو الأجدر بالمسلم أن يتحلى به من التعفف عن الحرام وذل السؤال، وإظهار الغنى بالنفس والمال والصبر على شظف العيش حتى يأتي الفرج القريب من رب العالمين[٤].

---

(١) الزيادة لا توجد عند مسلم، وإنما هي عند البخاري برقم ٦٤٧٠ بلفظ: (حين نفد كلّ شيء أنفق بيده).

(٢) لفظ البخاري في هذه الرواية: (ما يكون)، وعندهما بعدها زيادة: (عندي).

(٣) أخرجه البخاري ١٤٦٩ واللفظ له، ومسلم ١٢٤/١٠٥٣. أورده المنذري في ترغيبه ١٢١٢.

(٤) انظر: المنهل العذب الفرات من الأحاديث الأمهات، د. عبدالعال أحمد عبدالعال ١٢١/٢.

وهذه المعاني التي تهذب سلوك المسلم وتترجم حسن العلاقة بين الرسول ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، يفصح عنها البناء اللغوي للحديث الشريف، وتُجليها دلالات الألفاظ والصيغ اللغوية، والأساليب المتنوعة والمتناسقة في هذا البيان النبوي الكريم، فالتأكيد في أول الحديث "أنّ" يدل على تحقق الفعل وواقعية الحدث، ودلالة لفظ "ناساً" مأخوذة عن الأنس، ومن الفعل "أنس" لأنهم يستأنسون بأمثالهم من الصحابة وبالنبي ﷺ.

ولم يحدد الراوي أسماء هؤلاء، وإنما قال من الأنصار للتعميم وعدم تحديد وكشف أسمائهم للستر عليهم؛ ولأن القضية تشمل التوجيه إلى عامة المسلمين وضرورة إعزاز أنفسهم عن مذلة السؤال؛ ولفظة "الأنصار" لفظة جديدة من مصطلحات العقلية الإسلامية عَلَمٌ بالغلبة على أولاد الأوس والخزرج وسموا به لنصرتهم رسول الله ﷺ ودينه.

وحذف المعمول الثاني للفعل سألوا ... يرشد إلى عموم الحاجة، وإلى كرم النبي ﷺ، وتكرار جملة السؤال مع تكرار العطاء متلبساً بفاء العطف التي تفيد الاستجابة الفورية من رسول الله في الحالتين يدل على حلم رسول الله وعلى كرمه وصبره على السائلين، وربما حدث ذلك مراراً وتكراراً.

والفعل أنفق : يختص في دلالته بإخراج الشيء في الخير، وفي القرآن الكريم شواهد كثيرة على ذلك.

ولم ينهَرْهم الرسول ﷺ بل خاطبهم في محبة ومودة وحلم، وقال بعد أن نفد ماعنده: "ما يكن عندي من خير فلن أدخره عنكم" ومجيء هذه الجملة الواعدة بالعطاء في صيغة الشرط والجزاء تجعل الوعد في مقام التحقق، وكيف لا : والرسول ﷺ هو الصادق الوعد الأمين، وبعد هذا الوعد، يعطيهم درساً في التحمل والصبر، والتوكل على الله، والأخذ بالأسباب: فيقول بعد أن وعدهم بادِّخار الخير لهم وعدم حجبه عنهم:

"ومن يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله، ومن يتصبر يصبره الله، وما أعطي أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر".

وهـذه الإرشـادات النبويـة، والتوجهـات الإسـلامية مـن شـأنها أن تعيـد التـوازن إلى شخصية المسلم، وتحفظ لها ملامحها وعزتها، لأن الله هو الرزاق ذو القوة المتين.

وتـأتي هـذه التوجيهـات في صـيغة "الـشرط والجـزاء"، وتتـوالى في تـوازن أسـلوبي عجيب، وفي تنظيم لغوي دقيق، وليس الجزاء هنا مساوياً للعمل، ولكنه أوفى وأجزل، لأن المجازي هو الله، والمكافئ هو الله، فالعفة من الله، والغنى من الله، والصبر من الله، وهو بكل خلق عليم.

ولنتأمل صيغة فعل الشرط، وهي: تدل على المعاناة في التعفف، والمجاهدة في الاستغناء والمشقة والمكابدة في التصبر – وزيادة السين والتاء في يستعفف، ويستغن، والتاء في يتصبر، تجسد العناء والمجاهدة والمشقة، لأن زيادة المبنى في اللغة تدل على زيادة المعنى؛ والزمن اللغوي للشرط والجزاء يعلن عن استمرار المسلم في هذه المقاومة في كل زمان ومكان، حيث جاء الشرط في قالب الفعل المضارع وكذلك الجواب... إعلاناً عن استمرار هذا الواقع، وتنبيها إلى أن المسلم دائماً في حاجة إلى خالقه عز وجل، ولذلك تكرر لفظ "الجلالة" ثلاث مرات مع كل أسلوب من أساليب الشرط، ليزداد اطمئنان كل من يتوكل على الله. ويجاهد ويقاوم كل المعوقات في الحياة، ويسعى على رزقه سعياً كريماً، فالله لا يضيع أجر من أحسن عملا، ويختم الحديث الشريف بالحث على الصبر، وبأنه أفضل عطاء حيث يقول ﷺ: "وما أعطي أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر" لأن الصبر جامع لمكارم الأخلاق وهو من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فمن لا صبر له لا إيمان له، وهذا المعنى كما يقول العلماء مبني على أن كل جملة من هذه الجمل الشرطية الثلاث خاصة بفضيلة، وجعل بعضهم معاني هذه الجمل مرتباً كل منها على التي قبلها، وفي ذلك سمة خاصة من سمات البيان النبوي وهي التنظيم الدقيق، والترتيب العميق وتفسير ذلك: أن من يطلب العفة عن السؤال ولم يظهر الإلحاح والمذلة يعفه الله أي يصيره عفيفاً، ومن ترقى عن هذه المرتبة إلى ما هو أعلى من إظهار الاستغناء عن الخلق لكن إن أعطي شيئاً لم يرده يملأ الله قلبه غنى واستغناء بالله عز وجل، ومن ترقى وتصبر وإن أعطى لم يقبل فهو الأعلى مرتبة. فالصبر

جامع لمكارم الأخلاق وليس هناك عطاء خير وأوسع من الصبر، وهو زاد المؤمن في حياته كلها، الصبر مع العمل، والصبر مع السعي على الرزق، والصبر على البلاء، والصبر على النعمة، والصبر على الطاعة، والصبر على الحرمان، وما أوفى جزاء الصابرين حيث يقول الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[1].

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكم سؤال الفقير للصدقة متى كان محتاجاً ولا مال له، وأنه ينبغي لمن سئل أن يعطي ما لم ينفد ما عنده، وله في ذلك الجزاء العظيم من الله سبحانه وتعالى.

وقد اتفق الفقهاء[2] على أنه يجوز للفقير المعدم[3]، والمدين المغرم[4]، أن يسأل الصدقة للقيام بما عليه من واجب سداد الدين، والإنفاق على أهله ونفسه عند العجز عن الكسب لمرض أو غيره، أو عند عدم كفايته، وإن كان الأفضل له أن يستعفف عن السؤال، وأن يلجأ إلى الله، ويستعين بالصبر حتى يفرج الله عنه، ويشترط للسؤال هنا أن يكون السؤال بقدر الحاجة، وأن لا يذل نفسه بالسؤال، وأن لا يلح فيه، وأن لا يؤذي المسؤول، ويحرم سؤال الصدقة للغني القادر على الكسب، والإنفاق على نفسه وأهله، وإذا سأل الصدقة لم يعط منها، وإذا أخذ وجب عليه ردها، وكره الحنابلة[5] سؤال الصدقة في المسجد والتصدق على السائل فيه.

---

(١) سورة الزمر: ١٠.

(٢) بدائع الصنائع، الكاساني ٤٨/٢، وبريقة محمودية في طريقة محمدية وشريعة نبوية في سرية أحمدية، محمد بن مصطفى الخادمي للخادمي ٢٢٧/٣، والغرر البهية في شرح البهجة الوردية، القاضي أبو يحيى زكريا الأنصاري ٨٣/٤، وحاشيتا قليوبي وعميرة ٢٠٠/٣، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي ٣٧٢/٢، والمغني، ابن قدامة ٢٧٨/٢، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٩٧/٢٤ وما بعدها.

(٣) أي الذي لا يملك شيئًا.

(٤) الذي غرم في الصلح بين المتخاصمين.

(٥) كشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي ٣٧٢/٢.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: بيان كرم وسخاء النبي ﷺ.

ثانياً: من مهام الداعية: توجيه المدعوين إلى ما ينفعهم.

ثالثاً: من أساليب الدعوة: الترغيب.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: فضل العفة والاستغناء عن سؤال الناس.

خامساً: من موضوعات الدعوة: فضل الصبر.

أولاً- من موضوعات الدعوة: بيان كرم وسخاء النبي ﷺ:

إن الكرم والسخاء من كمال الإيمان وحسن الإسلام، وهو دليل حسن الظن بالله تعالى، ويقصد به (إفادة ما ينبغي لا لغرض، فمن يهب المال لغرض جلباً للنفع أو خلاصاً من الذم فليس بكريم. فالكريم من يوصل النفع بلا عوض)[١]، وقد كان النبي ﷺ أكرم الناس وأجود الناس، وهذا ما أكده نص الحديث في قول الراوي "إن ناساً من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ فأعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم، حتى نفد ما عنده، فقال لهم حين أنفق كل شيء بيده: ما يكن عندي من خير فلن أدخره عنكم... إلخ".

قال ابن حجر: (وقوله ﷺ "فلن أدخره عنكم" أي أحبسه وأخبؤه وأمنعكم إياه منفرداً به عنكم، وفيه ما كان عليه ﷺ من السخاء وإنفاذ أمر الله)[٢].

وهذا ما أكده الصحابة رضوان الله عليهم، فعن أنس رضي الله عنه قال: ((كان رسولُ الله ﷺ أحسنَ الناس، وأجْوَدَ الناس، وأشجعَ الناس))[٣].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ((كان النبيُّ ﷺ أجْوَدَ الناسِ بالخير، وكان أجْوَدَ ما يكون في رمضانَ حِينَ يَلْقَاهُ جبريلُ، وكان جبريلُ عليه السلام يَلقاهُ كلَّ ليلةٍ في رمضانَ حتّى يَنْسَلِخَ، يَعرِضُ عليهِ النبيُّ ﷺ القُرآنَ، فإذا لَقِيَهُ جِبريلُ عليه السلام كان أجْوَدَ بالخيرِ منَ الرِّيح المرسَلَةِ))[٤].

---

(١) انظر: التعريفات، الجرجاني، ٢٣٤.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣/٣٩٣.

(٣) أخرجه البخاري ٢٨٢٠، ومسلم ٢٣٠٧.

(٤) اخرجه البخاري ١٩٠٢، ومسلم ٢٣٠٨.

وعن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال: ((بينما أسيرُ مع رسول الله ﷺ ومعه الناس مَقْفَلَةٌ من حنين فَعَلِقَتِ الناس يسألونه حتى اضطروه إلى سمرة[1]، فخطفت رداءه فوقف النبي ﷺ، فقال: أعطوني ردائي لو كان لي عدد هذه العضاه نعماً لقسمته بينكم، ثم لا تجدوني بخيلاً ولا كذوباً ولا جباناً))[2].

وعن سهيل بن سعد رضي الله عنه قال: جاءت امرأة إلى النبي ﷺ ببردة، فقالت: ((يا رسولَ الله، أكسوكَ هذهِ، فأخذَها النبيُّ ﷺ محتاجاً إليها فلبِسَها، فرآها عليه رجلٌ من الصحابةِ فقال: يا رسولَ الله، ما أحسَنَ هذهِ، فاكسُنيها. فقال: نعم. فلما قامَ النبيُّ ﷺ لامَهُ أصحابهُ فقالوا: ما أحسَنْتَ حينَ رأيتَ النبيَّ ﷺ أخذَها مُحتاجاً إليها ثم سألْتَهُ إياها، وقد عرفتَ أنه لا يُسألُ شيئاً فيَمنَعُه. فقال: رجوتُ بركَتَها حين لَبِسَها النبيُّ ﷺ لعلّي أُكفَّنُ فيها))[3] وفي الاقتداء بكرم النبي ﷺ وسخائه تأليف للقلوب، وكسب لمودتها.

ثانياً- من مهام الداعية: توجيه المدعوين إلى ما ينفعهم:

قد أشار الحديث إلى ذلك من قوله ﷺ "ومن يستعفف يعفه الله ومن يستغن يغنه الله، ومن يتصبر يصبره الله وما أُعطي أحد عطاءً خيراً وأوسع من الصبر" فحري بالداعية أن يوجه المدعوين إلى ما ينفعهم ممتثلاً في ذلك بقول النبي ﷺ ((الدِّينُ النَّصِيحَةُ))[4]، لما في ذلك من عِظم الأجر والفائدة لقوله ﷺ ((مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى، كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لاَ يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئاً))[5]. وفي الحديث الذي نحن بصدد شرحه شرحًا دعويًا يوجه النبي ﷺ المدعوين إلى ما ينفعهم من العفة، والاستغناء عن الناس، والتصبر صيانة للكرامة، وترفعًا عن المسألة.

---

(١) اسم شجرة بها شوك.

(٢) أخرجه البخاري ٢٨٢١.

(٣) أخرجه البخاري ٦٠٣٦.

(٤) أخرجه مسلم ٥٥.

(٥) أخرجه مسلم ٢٦٧٤.

ثالثاً- من أساليب الدعوة: الترغيب:

الترغيب من الأساليب الدعوية التي ينبغي للداعية استخدامها في دعوته مما يشوق النفس إلى ما رغبت فيه فيحملها ذلك على الانقياد والقبول، وقد ورد هذا الأسلوب في الحديث من قوله ﷺ ومن يستعفف يعفه الله، ومن يتصبر يصبره الله، (وقد أفاد الحث على التعفف والقناعة والصبر على ضيق العيش وغيره من مكاره الدنيا)[1].

رابعاً- من موضوعات الدعوة: فضل العفة والاستغناء عن سؤال الناس:

(إن العفة والاستغناء عن سؤال الناس من ثمرات الدين ونتاج الإيمان، وهي دليل كمال النفس وعزها، فضلاً عن أنها ركن من أركان المروءة التي ينال بها الحمد والشرف)[2]، ومن أجل ذلك حث النبي ﷺ على التخلق بخلق العفة والاستغناء عن سؤال الناس، وهذا ما ورد في نص الحديث من قوله ﷺ "ومن يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله".

قال ابن حجر: (وفيه الحض على التعفف عن المسألة والتنزه عنها ولو امتهن المرء نفسه في طلب الرزق وارتكب المشقة في ذلك، ولولا قبح المسألة في نظر الشرع لم يفضل ذلك عليها، وذلك لما يدخل على السائل من ذل السؤال ومن ذل الرد إذا لم يعط ولما يدخل على المسؤول من الضيق في ماله إن اعطى كل سائل)[3].

ومن أجل ذلك رغب النبي ﷺ في العفة وحث على عدم سؤال الناس فقال: ((وَأَهْلُ الْجَنَّةِ ثَلَاثَةٌ: ذُو سُلْطَانٍ مُقْسِطٌ مُتَصَدِّقٌ مُوَفَّقٌ. وَرَجُلٌ رَقِيقُ الْقَلْبِ لِكُلِّ ذِي قُرْبَى وَمُسْلِمٍ، وَعَفِيفٌ ذُو عِيَالٍ))[4] وقال ﷺ ((مَنْ يكفَّلَ لِي أَنْ لاَ يَسْأَلَ النَّاسَ شَيْئاً وأَتَكَفَّلَ لَهُ بالْجَنَّةِ، فَقَالَ ثَوْبَانُ أَنَا فَكَانَ لاَ يَسْأَلُ أَحَداً شَيْئاً))[5]، وفي ذلك بيان عظيم على فضل العفة والاستغناء عن سؤال الناس.

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٦٦٢.

(٢) انظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد ٢٨٨٨/٧.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٩٤/٣.

(٤) أخرجه مسلم ٢٨٦٥.

(٥) أخرجه أبي داود ١٦٤٣، وصححه الألباني ١٤٤٦.

خامساً- من موضوعات الدعوة: فضل الصبر:

هذا ما أشار إليه نص الحديث في قوله ﷺ: "ومن يتصبر يصبره الله وما أعطي أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر" قال ابن القيم: (والصبر هو حبس النفس عن الجزع والتسخط، وحبس اللسان عن الشكوى، وحبس الجوارح عن التشويش)[١]، وهو واجب بإجماع الأمة، وهو نصف الإيمان، فإن الإيمان نصفان: نصف صبر، ونصف شكر.

وقد عظم الله تعالى منزلته وفضله في كتابه العزيز، فأثنى على أهله فقال: ﴿وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾[٢]، وقد أوجب سبحانه محبته لأهله فقال: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾[٣] وأخبر جل وعلا عن إيجاب الجزاء لأهله بأحسن أعمالهم فقال: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[٤] وبيّن تعالى أن جزاء أهله بغير حساب، فقال: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[٥])[٦] قال السعدي: (وهذا عام في جميع أنواع الصبر: الصبر على أقدار الله المؤلمة، فلا يسخطها، والصبر عن معاصيه، فلا يرتكبها، والصبر على طاعته، حتى يؤديها، فوعد الله الصابرين أجرهم بغير حساب، أي: بغير حد، ولا عد، ولا مقدار، وما ذاك إلا لفضيلة الصبر ومحله عند الله، أنه المعين على كل الأمور)[٧].

---

(١) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٢/٤٢٦.

(٢) سورة البقرة، آية: ١٧٧.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٤٦.

(٤) سورة النحل، آية: ٩٦.

(٥) سورة الزمر، آية: ١٠.

(٦) انظر: مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٢/٤٢١-٤٢٢.

(٧) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ٦٦٧.

الحديث رقم (٢٧)

٢٧- وَعَنْ أبي يَحْيَى صُهَيْبِ بْنِ سِنَانٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**عَجَباً لأمْرِ الْمُؤْمِنِ إنَّ أمْرَهُ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لأحَدٍ إلاَّ للْمُؤْمِنِ: إنْ أصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْراً لَهُ، وَإنْ أصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ، فَكَانَ خيْراً لَهُ**» رواه مسلم[(١)].

ترجمة الراوي:

صُهَيْب بن سِنان الرومي: صحابي مشهور، عَلَم من أعلام الصحابة وفضلائهم، واسمه صهيب بن سنان بن مالك بن عبد عمرو بن نفيل بن عامر الرَّبَعِيِّ النَّمَرِيِّ، ونقل الوزير أبو القاسم المغربيُّ أنه كان اسمه عميراً فسماه الروم صهيباً، وإنما قيل له الرومي لأن الروم سَبَوْه صغيراً حيث كان أبوه وعمه عاملين لكسرى على الأَبُلة، وكانت منازلهم على دجلة عند الموصل، أو الفرات من أرض الجزيرة، فأغارت الروم عليهم فأخذت صهيباً، وهو صغير من نينوى من أعمال الموصل، فنشأ بالروم، فنشأ ألّكن، فابتاعه منهم بنو كلب، ثم قدموا به مكة، فاشتراه منهم: عبدالله ابن جُدعان، أو أن صهيباً لما كبر وعقل هرب من الروم فقدم مكة، فحالف عبدالله ابن جدعان، وأقام معه حتى مات عبدالله بن جدعان.

هذا عن اسمه، أما كنيته: "أبو يحيى" فكنّاه بها رسول الله ﷺ، وكان ﷺ من السابقين البدريين الأولين إلى الإسلام، أسلم هو وعمار بن ياسر في يوم واحد بعد بضعة وثلاثين رجلاً، ورسول الله ﷺ في دار الأرقم بن أبي الأرقم، وكان من المستضعفين بمكة الذين عذبوا في سبيل الله، كما كان أسبق الروم إلى الإسلام، فعن أنس بن مالك ﷺ قال قال رسول الله ﷺ ((السُّبَّاق أربعة، أنا سابق العرب، وصهيب سابق الروم، وسلمان سابق الفرس، وبلال سابق الحبَش))[(٢)] وكان من أرمى

---

(١) برقم ٦٤/٢٩٩٩. أورده المنذري في ترغيبه ٤٩٧٨.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير ٢٩/٨، ٧٢٧٨ وقال الهيثمي في ال مع: رجاله رجال الصحيح غير عمارة ابن زاذان وهو ثقة ٣٠٥/٩.

العرب سهماً وأشدهم بأساً، فشهد بدراً وأحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ.

ومن صفاته الخلقية: كان رضي الله عنه أحمر شديد الحمرة، ليس بالطويل ولا بالقصير، وهو إلى القصر أقرب، كثير شعر الرأس.

وعندما هاجر إلى المدينة تبعه نفر من المشركين فنثل كنانته، وقال لهم: يا معشر قريش تعلمون أني من أرماكم، ووالله لا تصلون إليّ حتى أرميكم بكل سهم معي، ثم أضربكم بسيفي ما بقي في يدي منه شيء، فإن كنتم تريدون مالي دللتكم عليه، قالوا: فدلنا على مالك ونخلّى عنك، فتعاهدوا على ذلك، فدلهم عليه، ولحق برسول ﷺ فقال رسول الله ﷺ: رَبُحَ البيع أبا يحيى، فأنزل الله عز وجل قوله ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ [1] [2].

وكان في هجرته قد أدرك رسول الله ﷺ بقُباء قبل أن يدخل المدينة، ولما وصل المدينة نزل مع من نزل من العزاب من أصحاب رسول الله ﷺ على سعد بن خَيْثَمة، وكان النبي ﷺ قد آخى بينه وبين الحارث بن الصِّمَّة.

ولفضله وثقة إخوانه من الصحابة به وتقديرهم له أثرٌ بيّن، ومما يدل على ذلك أن عمر بن الخطاب أوصى إليه بالصلاة بجماعة المسلمين حتى يتفق أهل الشورى، واستخلف على ذلك ثلاثة أيام، وهذا مما أجمع عليه أهل السيَر والعلمِ بالخبر.

وكان رضي الله عنه ممن اعتزل الفتنة بعد مقتل عثمان رضي الله عنه، وأقبل على شأنه، وكان موصوفاً بالكرم والسماحة، فاضلاً، وافر الحرمة، وكان مع فضله وعلو منزلته وارتفاع قدره، صاحب مداعبة وخُلق حسن، روى عنه أنه قال: جئت النبي ﷺ وهو نازل بقباء، وبين أيديهم رطب وتمر، وأنا أرمد، فأكلت فقال النبي ﷺ أتأكل التمر وأنت أرمد فقلت: إنما آكل على شق عيني الصحيحة، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه [3].

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٠٧.

(٢) أخرجه الطبراني ٢٩/٨ رقم ٧٢٨٩ وقال الهيثمي: رجاله ثقات، ٣٧/٨، ٧٣٠٨، ٣١٨/٦.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك ٤٩١/٤، ٥٧٥٦ وقال: صحيح الإسناد، والنواجذ جوانب الأسنان.

وكان رضي الله عنه من أصحاب الرواية، فله في كتب الحديث (٣٠٧) حديثاً.

مات سنة ٣٨هـ، وقيل سنة ٣٩، وهو ابن ٧٣ سنة أو ٧٠، أو (٨٤)، أو (٩٠) سنة.

مات بالمدينة المنورة، وصلى عليه سعد بن أبي وقاص، ودفن بالبقيع رضي الله عنه[١].

غريب الألفاظ:

سرّاء: النعمة والرخاء والمسرة[٢].

الضراء: كل حالة تضر[٣].

الشرح الأدبي

إن للمؤمن في المنظور الإسلامي صفات وأمارات تشهد بصدق إيمانه، وتؤكد رسوخ عقيدته، لأنه يمتثل في أقواله وأفعاله بكل ما يتطلبه الإيمان من أركان، فالإيمان كما يقول العلماء هو: التصديق بالجنان، والإقرار باللسان، والعمل بالأركان.

والمصطفى صلى الله عليه وسلم يؤكد حقيقة السلوك الإيماني في مصاحبته للأمور الحياتية، وفي مواجهته واستقباله للأحداث، والمؤمن في كل هذه الحالات ينبض قلبه بالشكر في السراء، وبالصبر في الضراء؛ فالخير دائماً مكافآته، لأنه لا يجحد النعمة، ولا يقنط ولا ييأس أمام المصائب.

ولنتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا البيان النبوي، ويبدأ الحديث بشعاع من بلاغة المصطفى صلى الله عليه وسلم في قوله: "عجباً لأمر المؤمن" فالرسول لا يتعجب عن استغراب، ولكنه يقدر قيمة هذه الصفة في المؤمن فحياته كلها خير، والكلام فيه إيجاز

---

(١) الطبقات، ابن سعد ٢٢٦/٣-٢٣٠، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ٣٣٩-٣٤١، أسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير ٣٨/٣-٤١، الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني ٦١٨-٦١٩، تهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي ٤٦٨/٣، تهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني ٢١٨/٢، ٢١٩، الأعلام، خير الدين الزركلي ٢١٠/٣، موسوعة عظماء حول الرسول، خالد عبدالرحمن العك ١٠٧٣/٢، ١٠٧٨.

(٢) الوسيط في (س ر ر).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير والوسيط في (ض ر ر).

واختصار والتقدير أعجب عجباً، وهذا ما يسميه البلغاء: بلاغة الحذف، ولفظ "أمر" يعني الشأن وهو لفظ قليل الحروف، متعدد الدلالات، لأنه يختصر آلاف الحالات التي تتلبث بها حياة المؤمن في كل مراحل حياته؛ في أفراحها وأتراحها.

واختيار لفظ "المؤمن" والعدول به عن لفظ "المسلم" فيه إرشاد وتنبيه إلى أن مرتبة الإيمان أعلى من مرتبة الإسلام، وخير دليل على ذلك قول الله عز وجل: ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ ﴾[1].

وللعلماء في هذه القضية أقوال وآراء نابعة من تقديرهم لقيمة البيان النبوي، وتعدد آرائهم حول بيان المراد من البيان الجامع المانع لرسول الله ﷺ، فقد أُعطي جوامع الكلم، والمراد بالمؤمن هنا الكامل الإيمان وهو كما يقول العلماء. العالم بالله الراضي بأحكامه، العامل على تصديق موعوده.

ومصدر التعجب هو: جمع المؤمن بين ما يظن أنهما متناقضان: وهما السراء والضراء، فهما في الحقيقة خير: لأنهما من تقدير الله عز وجل؛ ولنتأمل تكرار لفظ "المؤمن" في قوله ﷺ: "وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن"، ولم يقل إلا له: حيث وضع الظاهر موضع المضمر بدافع الإعلاء من شأن كل مؤمن يتسم بهذه السمة الإيمانية في استقباله لأحداث الحياة، وصيغة القصر تغلف هذه الخصوصية التي اختص بها رسول الله ﷺ المؤمن حين يقصر هذه الصفة على المؤمن وهي صفة "الخيرية" ولفظ "أحد" عام شامل يحوي كل أصناف البشر الخارجين بعيداً عن دائرة "الخير" والمؤمن صفة تنطبق كذلك على الملايين الذين يتسمون بهذا السلوك الإيجابي، وهذه الصفة المتوازنة في الحياة؛ ولنتأمل الجملتين الأخيرتين، فهما قد صيغتا في قالب الشرط والجزاء دلالة على أن المقدمات مهما كانت فإن النتيجة في صالح المؤمن، فهو في السراء شاكر، وهو في الضراء صابر، ومن مظاهر الجمال الأسلوبي في هذا الحديث: مراعاة النظير في بناء الجملتين، والتوازي والتوازن في ترتيب عناصرهما، وكذلك السجع بين سراء

---

(١) سورة الحجرات، آية: ١٤.

وضراء وشكر وصبر وهو يحدث إيقاعاً وتناغما يجذب السامع، ويدعو إلى التفكير في كيفية الجمع بين هاتين الحالتين المتناقضتين، وهو ما يسمونه الطباق في بلاغة العرب وهو من مظاهر البديع في الأسلوب، وكأن هذه السمات الأسلوبية الجميلة التي تعطي للكلام وهجاً وحسناً وإيقاعاً. وانجذاباً للقارئ، وهي تمثل صورة ذلك المؤمن بين غيره من البشر فأمره كله خير.. وهم لذلك يحبون أن يكونوا مثله، وأن ينالوا مثل أجره من الثواب والجزاء.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: التعجب، والترغيب.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: حسن حال المؤمن.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: فضل الشكر.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: فضل الصبر على الابتلاء.

أولاً- من أساليب الدعوة: التعجب، والترغيب:

إن التعجب من الأساليب الدعوية التي يكون بها لفت انتباه المدعوين واستحضار أذهانهم: لبيان أهمية وعظم الأمر المدعو إليه، وهذا ما ظهر جلياً في الحديث (من تعجبه ﷺ لأمر المؤمن، وذلك على وجه الاستحسان؛ لأن أمره كله خير، فإن شكر على نعمة كان خيراً له، وإن صبر على بلية كان خيرًا له، وليس ذلك لأحد إلا المؤمن)[١].

أما الترغيب (فهو من الأساليب الدعوية المهمة التي ينبغي للداعية أن يسلكها في إرشاد المدعوين وحملهم على التشمير عن ساعد الجد في طاعة الله تعالى لنيل السعادة في الدنيا والآخرة)[٢]، وهذا ما ورد في الحديث من ترغيبه ﷺ في شكر الله على نعمه والصبر على ابتلائه وقدره، لما في ذلك من رفع الدرجات وغفران الزلات ونعيم

---

(١) انظر: شرح رياض الصالحين، محمد بن عثيمين، ١/ ٧٩.

(٢) انظر: هداية المرشدين، علي محفوظ، ١٩٢.

الجنات، وذلك في قوله ﷺ "إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له".

ثانياً- من موضوعات الدعوة: حسن حال المؤمن:

هذا ما أكده نص الحديث، وفي بيان ذلك قال ابن عثيمين: (إن المؤمن على كل حال ما قدَّر الله له فهو خير له إن أصابته الضراء صبر على أقدار الله، وانتظر الفرج من الله، واحتسب الأجر على الله فكان خيرًا له، فنال بهذا أجر الصابرين، وإن أصابته سراء من نعمة دينية كالعلم والعمل الصالح، ونعمة دنيوية: كالمال والبنين والأهل شكر الله، وذلك بالقيام بطاعة الله عز وجل فيكون خيراً له، ويكون له نعمتان: نعمة الدين، ونعمة الدنيا، نعمة الدنيا بالسرَّاء، ونعمة الدين بالشكر، وهذا حال المؤمن)[1] وفي ذلك بيان على حسن حال المؤمن.

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: فضل الشكر:

هذا ما أكد عليه نص الحديث وعظّم منزلته، في قوله ﷺ "... إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له".

(والشكر هو ظهور أثر نعمة الله على لسان عبده: ثناء واعترافاً، وعلى قلبه: شهوداً ومحبة، وعلى جوارحه: انقياداً وطاعة)[2].

(وقد أمر الله به، ونهى عن ضده، وأثنى على أهله، ووصف به خواص خلقه، وجعله غاية خلقه وأمره، ووعد أهله بأحسن جزائه، وجعله سبباً للمزيد من فضله، وحارساً وحافظاً لنعمته، وأخبر أن أهله هم المنتفعون بآياته، واشتق لهم اسماً من أسمائه، فإنه سبحانه هو "الشكور" وهو يوصل الشاكر إلى مشكوره بل يعيد الشكر مشكوراً، وهو غاية الرب من عبده، وأهله هم القليل من عباده قال الله تعالى: ﴿وَٱشْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾[3].

---

(١) المرجع السابق.

(٢) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٢/٥٧٥.

(٣) سورة النحل، آية: ١١٤.

وقال تعالى: ﴿وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾(١)، وقال عن خليله إبراهيم عليه السلام ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾(٢)، وقال عن نوح عليه السلام: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(٤)، وقال تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾(٥)، وقال تعالى: ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾(٦)، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾(٧)، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾(٨).

وسمى نفسه "شاكراً" و"شكوراً" وسمى الشاكرين بهذين الاسمين. فأعطاهم من وصفه، وسماهم باسمه، وحسبك بهذا محبة للشاكرين وفضلاً.

وإعادته للشاكر مشكوراً. كقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾(٩)، ورضى الرب عن عبده به. كقوله: ﴿وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ﴾(١٠)، وقلة

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٥٢.

(٢) سورة النحل، الآيتان: ١٢٠-١٢١.

(٣) سورة الإسراء، آية: ٣.

(٤) سورة النحل، آية: ٧٨.

(٥) سورة العنكبوت، آية: ١٧.

(٦) سورة آل عمران، آية: ١٤٤.

(٧) سورة إبراهيم، آية: ٧.

(٨) سورة لقمان، آية: ٣١.

(٩) سورة الإنسان، آية: ٢٢.

(١٠) سورة الزمر، آية: ٧.

أهله في العالمين تدل على أنهم هم خواصه. كقوله: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾[(١)])[(٢)].

وقد كان النبي ﷺ هو القدوة والأسوة في شكر الله حق شكره؛ فعن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه ((أن النبي ﷺ صلى حتى انتفخت قدماه، فقيل له: أتكلف هذا؟ وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فقال: أفلا أكون عبداً شكوراً))[(٣)].

قال القاضي عياض: (وقوله: "أفلا أكون عبداً شكوراً"، الشكر: معرفة إحسان المحسن والتحدث به، وسمي المجازاة على فعل الجميل شكراً؛ لأنها بمعنى الثناء عليه وسطوته على ذلك، والشكر بالفعل أظهر منه بالمقال، وشكر العباد لله: اعترافهم بنعمه وثناؤهم عليه، وتمام ذلك مواظبتهم على طاعته، قال الله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[(٤)])[(٥)]، وهذا ما أكده ابن قدامة في قوله: (والشكر يكون بالقلب واللسان والجوارح. أما القلب فهو أن يقصد الخير ويضمره للخلق كافة. وأما باللسان: فهو إظهار الشكر لله بالتحميد، وإظهار الرضى عن الله تعالى.

أما الجوارح: فهو استعمال نعم الله في طاعته، والتوقي من الاستعانة بها على معصيته، فمن شُكر العينين أن تستر كل عيب تراه للمسلم، ومن شكر الأذنين أن تستر كل عيب تسمعه)[(٦)].

رابعاً- من موضوعات الدعوة: فضل الصبر على الابتلاء:

هذا ما أشار إليه الحديث في قوله ﷺ "وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له" (والابتلاء في الأصل هو التكليف بالأمر الشاق، لكنه لما استلزم الاختبار إلى من يَجهلُ

---

(١) سورة سبأ، آية: ١٣.

(٢) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٢/٥٧٢-٥٧٣.

(٣) أخرجه البخاري ١١٣٠، ومسلم ٢٨١٩.

(٤) سورة إبراهيم، آية: ٧.

(٥) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض ٨/٣٥٥.

(٦) مختصر منهاج القاصدين، ابن قدامة المقدسي ٣٠٥.

العواقبَ ظنَّ ترادُفُهما، وينقسم الابتلاء إلى قسمين: الأول: الابتلاء بالشر، وهو مناط الصبر. والثاني: الابتلاء بالخير، وهو مناط الشكر، وفيما يتعلق بالنوع الأول -وهو مقصود الحديث- فإنه يشمل الابتلاء بالمحن والكوارث ونقص الأموال والأنفس والثمرات مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾[١]. وهنا يكون الصبر والرضا هما المقياس الحقيقي للإيمان الصادق)[٢].

قال ابن كثير: (أخبر تعالى أنه يبتلي عباده المؤمنين، أي: يختبرهم ويمتحنهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾[٣] فتارة بالسراء، وتارة بالضراء من خوف وجوع، كما قال تعالى: ﴿فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾[٤].

فإن الجائع والخائف كل منهما يظهر ذلك عليه؛ ولهذا قال: لباس الجوع والخوف. وقال هاهنا "بشيء من الخوف والجوع" أي: بقليل من ذلك "ونقص من الأموال" أي: ذهاب بعضها "والأنفس" كموت الأصحاب والأقارب والأحباب "والثمرات" أي: لا تُغِلّ الحدائق والمزارع كعادتها. كما قال بعض السلف: فكانت بعض النخيل لا تثمر غير واحدة. وكل هذا وأمثاله مما يختبر الله به عباده، فمن صبر أثابه الله، ومن قنط أحلّ الله به عقابه. ولهذا قال: "وبشر الصابرين".

ثم بين تعالى حقيقة الصابرين الذين شكرهم، فقال: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٥٥.

(٢) انظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد ٦/٢٤٤٥-٢٤٤٦.

(٣) سورة محمد، آية: ٣١.

(٤) سورة النحل، آية: ١١٢.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾[(١)] أي: تسلَّوا بقولهم هذا عما أصابهم، وعلموا أنهم ملْك لله يتصرف في عبيده بما يشاء، وعلموا أنه لا يضيع لديه مثقال ذرة يوم القيامة، فأحدث لهم ذلك اعترافهم بأنهم عبيده، وأنهم إليه راجعوان في الدار الآخرة. ولهذا أخبر تعالى عما أعطاهم على ذلك فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾[(٢)] أي: ثناء من الله عليهم ورحمة.

قال سعيد بن جبير: أي أمنةٌ من العذاب ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾[(٣)] قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: نعم العدلان ونعمت العلاوة "أولئك عليكم صلوات من ربهم ورحمة" فهذان العدلان "وأولئك هم المهتدون" فهذه العلاوة، وهي ما توضع بين العدلين، وهي زيادة في الحمل وكذلك هؤلاء، أعطوا ثوابهم وزيدوا أيضاً)[(٤)].

وقد أكد النبي صلى الله عليه وسلم على عموم فضل الصبر على الابتلاء، بأن جعل عاقبته الجنة، فعن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال لعطاء: ((أَلاَ أُرِيكَ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟ قُلْتُ: بَلَى. قَالَ: هذِهِ الْمَرْأَةُ السَّوْدَاءُ. أَتَتِ النَّبِيَّ قَالَتْ: إِنِّي أُصْرَعُ. وَإِنِّي أَتَكَشَّفُ. فَادْعُ اللّهَ لِي. قَالَ: إِنْ شِئْتِ صَبَرْتِ وَلَكِ الْجَنَّةُ. وَإِنْ شِئْتِ دَعَوْتُ اللّهَ أَنْ يُعَافِيَكِ. قَالَتْ: أَصْبِرُ. قَالَتْ: فَإِنِّي أَتَكَشَّفُ. فَادْعُ اللّهَ أَنْ لاَ أَتَكَشَّفَ، فَدَعَا لَهَا))[(٥)].

وعن أنس رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((إن الله عز وجل قال: إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه، فصبر عوضته منهما الجنة يريد عينيه))[(٦)].

وقد بين ابن القيم: (أن هناك ثلاثة أشياء، تبعث المتلبس بها على الصبر في البلاء:

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٥٦.

(٢) سورة البقرة، آية: ١٥٧.

(٣) سورة البقرة، آية: ١٥٧.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ١/٤٦٧-٤٦٨.

(٥) أخرجه البخاري ٥٦٥٢، ومسلم ٢٥٧٦.

(٦) أخرجه البخاري ٥٦٥٣.

إحداها: ملاحظة حسن الجزاء. وعلى حسب ملاحظته والوثوق به ومطالعته يخف حمل البلاء، لشهود العوض؛ وهذا كما يخف على كل متحمل مشقة عظيمة حملها، لما يلاحظه من لذة عاقبتها وظفره بها؛ ولولا ذلك لتعطلت مصالح الدنيا والآخرة، وما أقدم أحد على تحمل مشقة عاجلة إلا لثمرة مؤجلة، فالنفس موكلة بحب العاجل، وإنما خاصة العقل: تلمح العواقب، ومطالعة الغايات.

وأجمع عقلاء كل أمة على أن النعيم لا يدرك بالنعيم، وأن من رافق الراحة فارق الراحة (وحصل على المشقة وقت الراحة في دار الراحة)، فإن على قدر التعب تكون الراحة.

على قدر أهل العزم تأتي العزائم ... وتأتي على قدر الكريم الكرائم

ويكبر في عين الصغير صغيرها ... وتصغر في عين العظيم العظائم

والقصد: أن ملاحظة حسن العاقبة تعين على الصبر فيما تتحمله باختيارك وغير اختيارك.

والثاني: انتظار روح الفرج. يعين راحته ونسيمه ولذته؛ فإن انتظاره ومطالعته وترقبه يخفف حمل المشقة، ولا سيما عند قوة الرجاء، أو القطع بالفرج؛ فإنه يجد في حشو البلاء من روح الفرج ونسيمه وراحته ما هو من خفي الألطاف، وما هو فرج معجل، وبه -وبغيره- يفهم معنى اسمه "اللطيف".

والثالث: تهوين البلية بأمرين.

أحدهما: أن يعد نعم الله عليه وأياديه عنده. فإذا عجز عن عدها، وأيس من حصرها، هان عليه ما هو فيه من البلاء ورآه -بالنسبة إلى أيادي الله ونعمه- كقطرة من بحر.

الثاني: تذكر سوالف النعم التي أنعم الله بها عليه؛ فهذا يتعلق بالماضي؛ وتعدد أيادي المنن: يتعلق بالحال؛ وملاحظة حسن الجزاء، وانتظار روح الفرج: يتعلق بالمستقبل. وأحدهما في الدنيا، والثاني يوم الجزاء[1].

(١) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٢/٤٤٥-٤٤٧.

الحديث رقم (٢٨)

٢٨- وعنْ أنسٍ رضي الله عنه قَالَ: لَمَّا ثقُلَ النَّبيُّ ﷺ جعَلَ يتغشَّاهُ (الكرْبُ)[١] فقَالتْ فاطِمَةُ رضي الله عنها: واكَرْبَ أبَتَاهُ، فقَالَ[٢]: «ليْسَ علَى أبيكِ كرْبٌ بعْدَ اليَوْمِ» فلمَّا مَاتَ قالَتْ: يَا أبتَاهُ أجَابَ ربّاً دعَاهُ، يا أبتَاهُ[٣] جنَّةُ الفِرْدَوْسِ مأوَاهُ، يَا أبَتَاهُ إلَى جبْريلَ ننْعَاهُ، فلَمَّا دُفنَ قالتْ فاطِمَةُ رضي الله عنها[٤]: أطَابتْ أنفسُكُمْ أنْ تَحْثُوا علَى رسُولِ الله ﷺ التُّرابَ؟ روَاهُ البُخاريُّ[٥].

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٥).

غريب الألفاظ:

يتغشّاه: يُلابسه وينتابه[٦].

الكَرْبُ: الشِّدّة والخطب العظيم[٧].

واكرب أبتاه: ما أعظم شدَّتك يا أبتاه[٨].

الفردوس: قال ﷺ: ((إذا سألتم الله الجنة، فاسألوه الفردوس؛ فإنه أعلى الجنة، وأوسط الجنة، وفوقه عرش الرحمن ومنه تفجَّر أنهار الجنَّة))[٩].

---

(١) أي يشتد به الوجع حتى يصير كالمغشي عليه.

(٢) عند البخاري زيادة: (لها)، وهي لا توجد عند الحميدي.

(٣) عند البخاري زيادة: (من). وهي لا توجد عند الحميدي.

(٤) عند البخاري زيادة: (يا أنس)، وهي لا توجد عند الحميدي.

(٥) برقم ٤٤٦٢. والسياق للحميدي في جمعه ٦٢٤/٢، رقم ٢٠٦٠.

(٦) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير والوسيط في (غ ش ي).

(٧) الصحاح والوسيط في (ك ر ب).

(٨) انظر: شرح الطيبي، الطيبي ١٧٩/١١، وفتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٧٥٦/٧، وعمدة القاري، العيني ٧٥/١٨، والوسيط ٩١٠.

(٩) أخرجه البخاري ٧٤٢٣.

مأواه: منزله[١].

نتعاه: من نعى الميت: إذا أذاع موته وأخبر به[٢].

تحثوا: أي تهيلوا التراب عليه ﷺ من أجل دفنه ﷺ[٣].

الشرح الأدبي

هذا الحديث الشريف يصور حالة الحزن والرضا بقضاء الله وقدره ساعة احتضار النبي ﷺ، وقمة الصبر تتجلى في مواجهة الكروب، وأي كرب أفدح من فراق الحبيب المصطفى، والنبي المجتبى محمد بن عبدالله رسول الله وخاتم النبيين، وهو القدوة الحسنة في مواجهة الشدائد كلها حتى أمام هذه اللحظة التي يضعف أمامها القياصرة والأكاسرة والطغاة والجبابرة وهي لحظة الموت.

ولكن المصطفى ﷺ يواجه سكرات الموت وما أشدها بالامتثال والصبر والفرح بلقاء ربه الذي أرسله رحمة للعالمين، والحديث حوار بين الثلاثة بين خير الخلق محمد عبدالله ورسوله ﷺ وابنته أحب خلق الله إليه، وبين فاطمة رضي الله عنها وأنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ.

وتتعدد عبارات الحديث - فمنها ما كان لأنس رضي الله عنه، ومنها ما تفوه به رسول الله ﷺ، ومنها ما نطقت به فاطمة رضي الله عنها، ولنتأمل كيف صورت دلالة الألفاظ وأبنيتها وقائع هذا الحدث الجلل، والمصاب الفادح، فقول: أنس : "لما ثقل النبي ﷺ" كناية عن شدة المرض والوجع والألم.

ولنتأمل موحيات هذه العبارة الناضحة بالمرارة والأسى، "جعل يتغشاه الكرب"، وهى توحي بأن الشدة من سكرات الموت أحاطت برسول الله ﷺ وكأنها الموج يعلو.. شيئاً فشيئاً ويحيط به من كل جانب، وقيل إن هذه الشدة: لعلو درجته وشرف رتبته،

---

(١) عمدة القاري، العيني ١٨/٧٥.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٩٢٨.

(٣) انظر: المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، الفيومي ، والوسيط في (ح ث و).

وفي الحديث "أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل"[(١)(٢)].

وأي حزن يضارع حزن فاطمة رضي الله عنها وهي ترى أباها في هذه اللحظة فتهتف في سكينة ومحبة وأسى: "واكرب أبتاه" وهذه الصيغة تأتي للندبة.. وتقال في مقام الندب والحزن، وهذا الحزن الذي يستضيء بقضاء الله وقدره يقابله المصطفى ﷺ بالصبر على البلاء والرضا بالقضاء، والفرح باللقاء، لقاء الرحيم الرحمن، حيث يُطَمْئِنُ الأب – النبي المصطفى ﷺ – ابنته رضي الله عنها ويغمر مشاعرها بالسكينة والرضا: فيقول: "ليس على أبيك كرب بعد اليوم". ولنتأمل ماذا وراء لفظ أبيك وما يُشعه من هالات وعواطف، ولم يقل ليس علي، أو ليس على النبي أو الرسول: وإنما صفة الأبوة هنا يستدعيها المقام ويتطلبها الحال؛ والمشهد الثاني يشرق بهذه العبارات البليغة والكلمات المؤمنة الرصينة، النابعة من صدر مكلوم، وقلب ملتاع، ونفس آلمها الفراق، ولكنها تمزج نُدبتها بالدعاء والرجاء، والاستسلام لحكم القضاء الإلهي.

وما أشد تأثير هذه العبارات في كل النفوس، وما أعظم صدقها في التعبير عن المشاعر وتقديم النافع من الدروس. وتكرار لفظ "يا أبتاه" بما تضمنه من نداء ولهفة، وندبة ورجفة ، يوحي بقوة العاطفة، وشدة المصاب، وألم الفراق . تقول فاطمة: "يا أبتاه: أجاب ربا دعاه، يا أبتاه: جنة الفردوس مأواه، يا أبتاه إلى جبريل ننعاه".

والمشهد الثالث في الحديث يرصد لحظة دفن رسول الله ﷺ ، وترى فاطمة رضي الله عنها أباها وهو يُوارَى في التراب، فتقول في أسىً وعاطفة واستسلام، "يا أنس أطابت أنفسكم أن تحثو على رسول الله ﷺ ، التراب".

وقيل إن أنسًا سكت عن جوابها: رعاية لها، ولسان حاله يقول: لم تطب أنفسنا بذلك، إلا أنا قهرنا على فعله امتثالاً لأمره.

وهذه اللحظة لم تكن قاسية على فاطمة بنت رسول الله فقط، ولكن الصحابة الأخيار، والكرام الأطهار انتابتهم بعض لحظات الضعف الإنساني في مثل هذه

---

(١) أخرجه أحمد ١٧٢ رقم ١٤٨١، وقال محققو المسند: إسناده حسن ٧٨/٣.

(٢) انظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ١٤٧/١.

المواقف، وأي موقف أجل، وأي مصاب أفدح من مصاب فراق رسول الله ﷺ، حبيب الرحمن والمبعوث رحمة للعالمين، وقيل إن عثمان بن عفان رضي الله عنه حينما أُخبر بموت النبي ﷺ "أخرس" فجعل لا يكلم أحداً، فيؤخذ بيده ويُجاء به فينقاد، وأما عليّ رضي الله عنه فقيل: إنه ليط بالأرض أي: سقط من قيام كأنما صُرع، فقعد ولم يبرح البيت، حتى دخل أبو بكر، وأما عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقد كذّب الخبر في أول الأمر وقال: "ما مات" ولكنه بعد ذلك أذعن وصدّق حينما "يتقن" من الخبر وقال حينما أسمعه أبو بكر قول الله عز وجل: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾[1]. فقال : والله لكأني لم أسمع بها في كتاب الله من قبل، لما نزل بنا، أشهد أن الكتاب كما نزل، وأن الحديث كما حدث. وأن الله حي لا يموت، وإنا لله وإنا إليه راجعون، ثم جلس إلى جنب أبي بكر رضي الله عنهما.

وما أصدق هذه الكلمات الوضيئة التي تفوه بها أبو بكر رضي الله عنه وهو يرى لحظة احتضار رسول الله ﷺ فقد دخل رضوان الله عليه -كما يروى- على النبي ﷺ، وهو مُسجًّى بثوب فكشف عنه الثوب وقال: "بأبي أنت وأمي: طبت حياً وميتا.

إن هذا الحديث الشريف يعد أعظم درس في الامتثال والإذعان لأمر الله عز وجل، وما أجدر بكل مسلم أن ينقش هذه الكلمات المضيئة بالصبر والإيمان والامتثال في قلبه، وأن يتخذها نبراساً في كل الشدائد والكروب والمصائب. إنها كلمات فاطمة رضي الله عنها "يا أبتاه: أجاب رباً دعاه، يا أبتاه: من جنة الفردوس مأواه، يا أبتاه إلى جبريل ننعاه.." صلى الله وسلم عليك يارسول الله، وطبت حياً وميتاً وجمعنا الله بك في الفردوس الأعلى مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً.

---

(١) سورة الزمر، آية: ٣٠.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكمين فقهيين:

الأول: حكم التوجع للميت عند احتضاره، وقد ذكر الفقهاء[1] أنه يجوز التوجع للميت عند احتضاره على نحو ما فعلت فاطمة رضي الله عنها في هذا الحديث، وكذا أجاز الشافعية البكاء عليه قبل موته، والأولى عندهم ترك البكاء مع وجوب الاستغفار للمحتضر.

الثاني: حكم ذكر محاسن الميت، وقد ذكر الفقهاء[2] أنه يجوز تعداد محاسن الميت وذكرها على نحو ما فعلت فاطمة رضي الله عنها، وذكر الحنفية أنه لا بأس بترثية الميت بشعر ونحوه، بشرط عدم الإفراط فيه، وكره الشافعية ترثية الميت بذكر آبائه وخصائله وأفعاله، والأولى الاستغفار له، وذكر الحنابلة أن ما هيج المصيبة من وعظ أو شعر ونحوه فهو من النياحة المنهي عنها.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: ذكر الموت وشدته.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: جواز نعي الميت.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: بيان حب فاطمة رضي الله عنها للنبي صلى الله عليه وسلم.

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٤٩/٨، وحاشية العدوي على شرح كفاية الطالب الرباني، علي بن أحمد العدوي ٤٠٩/١، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٢٨٠/٥، ونيل الأوطار، الشوكاني ١٦١/٤.

(٢) الجوهرة النيرة شرح مختصر القدوري، أبو بكر الحوازي اليمني ١٠٨/١، وفتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٤٩/٨، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٢٨٠/٥، وتحفة المحتاج في شرح المنهاج، ابن حجر ١٨٠/٣، والمغني، ابن قدامة ٢١٣/٢، مطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى، الشيخ مصطفى السيوطي ٩٢٥/١، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي ١٦٣/٢، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٩٨/٢٢.

أولاً- من موضوعات الدعوة: ذكر الموت وشدته:

(إن في رسول الله ﷺ أسوة حسنة في كل أحواله، ومعلوم أنه ليس في المخلوقين أحد أحب إلى الله تعالى منه، وقد لقي ﷺ من الموت شدة)[١]، أشار إليها نص الحديث في قول أنس رضي الله عنه "لما ثقل النبي ﷺ جعل يتغشاه الكرب فقالت فاطمة رضي الله عنها: واكرب أبتاه ... إلخ" وهذا ما أكدته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها في قولها: ((إن رسول الله ﷺ كان بين يديه رَكوةٌ -أو علبةٌ فيها ماء- يَشك عمرُ. فجعل يُدخل يَده في الماء فيمسَحُ بها وجهَهُ ويقول: لاإلهَ إلا الله، إن للموتِ سَكرات. ثم نَصبَ يدَه فجعلَ يقول: في الرفيق الأعلى. حتى قُبِضَ ومالت يدُه))[٢]، وقالت رضي الله عنها: ((مَا أَغْبِطُ أحَداً بَهوْنِ مَوْتٍ بَعْدَ الّذِي رَأيتُ مِنْ شِدَّةِ مَوْتِ رسول الله))[٣]، وفي ذلك بيان عظيم على شدة الموت وسكراته.

قال ابن قدامة: (اعلم أنه لو لم يكن بين يدي العبد المسكين كرب، ولا هول سوى الموت، لكان جديراً أن يتنغص عليه عيشه، ويتكدر عليه سروره، وتطول فيه فكرته، والعجب أن الإنسان لو كان في أعظم اللذات، فانتظر أن يدخل عليه جندي يضربه خمس ضربات، (لكدرت)[٤] عليه عيشه ولذته، وهو في كل نفس بصدد أن يدخل عليه ملك الموت بسكرات النزع، وهو غافل عن ذكر ذلك، وليس لهذا سبب إلا الجهل والغرور.

اعلم أن الموت أشد من ضرب السيف. وإنما يصيح المضروب، ويستغيث لبقاء قوته، وأما الميت عند موته، فإنه ينقطع صوته من شدة ألمه؛ لأن الكرب قد بالغ فيه، وغلب على قلبه وعلى كل موضع منه، وضعفت كل جارحة فيه، فلم يبق فيه قوة لاستغاثة، ويود لو قدر على الاستراحة بالأنين والصياح والاستغاثة، وتجذب الروح من جميع العروق، ويموت كل عضو من أعضائه تدريجاً، فتبرد أولاً قدماه، ثم ساقاه، ثم

---

(١) انظر: مختصر منهاج القاصدين، ابن قدامة المقدسي ٤٢٦.

(٢) أخرجه البخاري ٦٥١٠ واللفظ له، ومسلم ٢٤٤٤.

(٣) أخرجه الترمذي ٩٧٩، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٧٨٣).

(٤) في المطبوع (لدكرت) وهو قلب من الناسخ.

فخذاه، حتى تبلغ الحلقوم، فعند ذلك ينقطع نظره إلى الدنيا وأهلها، ويغلق دونه باب التوبة)[١].

ومما لا شك فيه أن ذكر الموت وشدته، يكون به التزود بالصالحات وترك المنكرات، والاستعداد للقاء رب العباد، قال ابن الجوزي: (يا ابن آدم إلى حسن العمل، بينا أنت في فسحة ومهل، وتب إلى مولاك من قبيح الخطايا والزلل، قبل أن يقال فلان عليل، أو مدنف ثقيل، فهل إلى دوائه سبيل، أو على طبيب من دليل، فتدعى لك الأطباء، ويجمع لك الدواء فلا يزيدك ذلك إلا بلاء. وقد اجتمع عند الإخوان والأحباء، والأهل والأقرباء، وكثر حولك البكاء، ثم يقال: حشرَجْ ونفسه توشك أن تخرج، وأنت تعاين الأمر العظيم بعد اللذة والنعيم، وعدلت ببصرك عن القريب والحميم، وحل بك القضاء، وخرجت الروح من الأعضاء، ثم عرج بها إلى السماء، فيا لها من سعادة أو شقاء. وأنشدوا:

فلو يكن شيء سوى الموت والبلى ... وتفريق أعضاء ولحم مبدد

لكنت حقيقاً يا ابن آدم بالبكا ... على نائبات الدهر مع كل مسعد

فاستعذ من ذنوبك يا مسكين، قبل عرق الجبين، وانتشار العرقين، وقبل مد الشمال وقبض اليمين، وتضعيف قوتك بالأنين، ويكثر حواليك بالبكا والحنين وجرت دموعك لمفارقة الأهل والبنين، ولا ينفعك ما جمعت من الأموال في الشهور والسنين، ثم أنت في قبرك لعملك رهين، إلى يوم عرضك على أسرع الحاسبين. قد تغير جسمك في الجنادل والتراب، بعد تنعمك بدقائق الشباب.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: نعي الميت:

هذا ما ورد في الحديث من قول فاطمة رضي الله عنها "يا أبتاه إلى جبريل ننعاه"، والنعي هو الإخبار بموت الميت[٢]. قال ابن هبيرة: (وقولها: "إلى جبريل ننعاه"، تشير بذلك إلى انقطاع

---

(١) مختصر منهاج القاصدين، ابن قدامة المقدسي ٤٢٣.

(٢) شرح رياض الصالحين، محمد بن عثيمين، ٨١/١.

نـزول جبريـل بوقـوع الفرقـة بينهمـا في الـدنيا فكـأنهـا تقـول: أو أنعـي النـاس الميـت إلى أمثـالهم، ننعيـه إلى جبريـل مـن أهـل السـماء، وهـذا منهـا عليها السلام نعـت محـزون وقولهـا: ننعاه، فكأنها تقول: لست أنا وحدي أنعاه؛ ولكن أنا والأمة ننعاه[١]. وفي ذلك بيان على جـواز نعـي الميـت. وهـذا مـا فعلـه الرسـول ﷺ حـين بلغـه مـوت النجاشـي، فنعـاه إلى المسلمين، وفعله حين بلغه وفاة جعفر بن أبي طالب.

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: بيان حب فاطمة رضي الله عنها للنبي ﷺ:

يظهر ذلك في الحديث من قول فاطمة رضي الله عنها: واكرب أبتاه، وقولها للصحابة رضي الله عنهم عقب دفنهم لرسول الله ﷺ "أطابت أنفسكم أن تحثُوا على رسول الله ﷺ التراب".

قال ابن حجر: (وأشارت عليها السلام بذلك إلى عتابهم على إقدامهم على ذلك لأنـه يـدل على خلاف ما عرفته منهم من رقة قلوبهم عليـه لـشدة محبـتهم لـه، وسـكت أنس رضي الله عنه عن جوابها رعاية لها ولسان حاله يقول: لم تطب أنفسنا بذلك، إلا أنا قهرناها على فعله امتثالاً لأمره. وقد قال أبو سعيد فيما أخرجه البزار بسند جيد "وما نفضنا أيدينا من دفنه حتى أنكرنا قلوبنا")[٢].

ويظهر حب فاطمة رضي الله عنها للنبي ﷺ جلياً من قول عائشة رضي الله عنها: ((دَعـا النبيُّ ﷺ فاطمةَ عليها السلام في شكواهُ الذي قُبضَ فيه، فسارَّها بشيء فبَكت، ثم دَعاها فسارَّها بشيء فضحكت، فسألناها عن ذلك فقالت: سارَّني النبيُّ ﷺ أنه يُقبَضُ في وَجَعِهِ الذي تُوفِّيَ فيه فبكَيتُ، ثم سارَّني فأخبرَني أني أولُ أهلهِ يتبَعُهُ فضحكت))[٣] وفي بكائها رضي الله عنها لفراق النبي ﷺ وفرحها في أنها أول من يلحق به ﷺ لدليل على حب السيدة فاطمة رضي الله عنها للنبي ﷺ وفيها الأسوة للعلاقة الحسنة بين الأبناء والآباء.

---

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة ٣٠٧/٥.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٧٥٦/٧.

(٣) أخرجه البخاري ٤٤٣٣، ٤٤٣٤.

الحديث رقم (٢٩)

٢٩- وعنْ أبي زيْد أُسامَة بن زيد بن حَارِثَة مولَى رسُول الله ﷺ وحبِّهِ وابْنِ حبِّهِ رضِيَ الله عنهمَا، قالَ: أَرْسلَتْ بنْتُ النَّبيِّ ﷺ[1]: (إنَّ ابْنِي قَدِ احتُضِرَ فاشْهدْنَا)[2]، فأَرسَلَ يقْرِئُ السَّلامَ ويَقُول: «**إن للَّه مَا أَخَذَ، ولهُ مَا أعْطَى، وكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بأجَلٍ مُسمًّى، فلتصْبِر ولتحْتسبْ**» فأرسَلَتْ إليْهِ تُقْسمُ علَيْهِ ليأْتينَّها. فقَامَ ومَعَهُ سَعْدُ بْنُ عُبادَةَ، ومُعَاذُ ابْنُ جبَلٍ، وأُبَيُّ بْنَ كَعْبٍ، وَزَيْدُ بْنِ ثَابِتٍ، ورِجَالٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فَرُفِعَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الصبيُّ، ((فأقعَدَهُ في حِجْرِهِ)) [3] ونَفْسُهُ تَقعْقعُ[4]، فَفَاضتْ عَيْناهُ، فقالَ سعْدٌ: يَا رسُولَ الله مَا هَذَا؟ فقالَ: «**هَذِهِ رَحْمَةٌ جعلَهَا اللَّهُ تعَالَى في قُلُوبِ عِبَادِهِ**»[5].

وفي روايةٍ[6]: «**في قُلُوبِ منْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ وَإِنَّمَا يَرحَمُ اللَّهُ منْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ**» مُتَّفَقٌ علَيْهِ.

ترجمة الراوي:

أسامة بن زيد: هو ابن حارثة بن شراحيل.

حِبُّ رسول الله ﷺ، ومولاه، وابن مولاه، ولد بمكة قبل الهجرة ونشأ على الإسلام، لأن أباه كان من أول الناس إسلاماً، وأمهُ "أمُّ أيمن" حاضنة النبي ﷺ،

---

(١) لفظ البخاري في هذه الرواية: (إليه، أنَّ ابنًا لي قد قبض، فأتنا). ساق الحميدي في جمعه، لفظ الحديث هكذا، ثمَّ قال: (وفي رواية حفص بن عمر، عن شعبة: إن ابني قد احتضر فاشهدنا) ثمّ قال: (وفي رواية حجاج: إن ابنتي قد احتضرت) فاختار المؤلف من بين ألفاظ الروايات الثلاثة لفظ رواية حفص بن عمر، عن شعبة.

(٢) هذه الزيادة عند البخاري برقم ٦٦٥٥ من رواية حفص بن شعبة.

(٣) هذه الزيادة عند البخاري برقم ٦٦٥٥ من رواية حفص بن شعبة، تبع المؤلف فيه الحميدي في جمعه حيث قال: (وفي رواية حفص بن عمر: فأقعده في حجره).

(٤) في هذه الرواية عند البخاري زيادة: (قال: حسبته أنه قال: كأنها شنٌّ) أسقطها المؤلف.

(٥) أخرجه البخاري (١٢٨٤)، ومسلم (١١/٩٢٣). وسيكرره المؤلف برقم (٩٢٧).

(٦) أخرجها البخاري (٥٦٥٥) من رواية حجاج بن منهال، عن شعبة، وكذا في (٦٦٥٥) من رواية حفص ابن عمر.

هاجر إلى المدينة واستعمله النبي ﷺ على جيشٍ لغزو الشام وهو في الثامنة عشرة من عمره وكان في الجيش أبوبكر وعمر رضي الله عنهما، فلم ينفذ الجيش حتى توفي النبي ﷺ، فبادر الصديق رضي الله عنه ببعثهم، وقال أسامة رضي الله عنه: إن النبي ﷺ كان يأخذُني والحسن، فيقول ((اللهم إني أحبُّهُما، فأحِبَّهُما))[1] وقالت فيه عائشة رضي الله عنها: ما ينبغي لأحد أن يبغض أسامة، بعد ما سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((من كان يُحُب الله ورسوله، فليحب أسامة))[2].

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يُجلّه ويكرمه وما لقيه إلا قال له: السلامُ عليك أيها الأمير ورحمةُ الله! توفي رسولُ الله ﷺ وأنت علَيّ أمير.

وقد فرض عمر رضي الله عنه لأُسامة ثلاثةَ آلاف وخمس مائة، وفرض لابنه -عبدالله ابن عمر- ثلاثة آلاف فقال عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: لم فضلته عليَّ فوالله ما سبقني إلى مشهد؟ فقال عمر: لأنَّ أباه كان أحبَّ إلى رسول الله من أبيك، وهو أحبُّ إلى رسول الله ﷺ منك فآثرتُ حب رسول الله على حبِّي.

وقد دخل على رسول الله ﷺ في مرض موته، فجعل رسول الله ﷺ يضع يده عليه ويرفعها فعرف أنه يدعو له[3].

وقد روى له البخاري ومسلم (١٢٨) حديثاً.

وتوفي في سنة ٥٤هـ وهو ابن خمسٍ وسبعين في آخر خلافة معاوية رضي الله عنه[4].

---

(١) أخرجه البخاري، رقم ٣٧٣٥.

(٢) أخرجه أحمد ١٥٦/٦، وقال محققو المسند: صحيح لغيره ١٣٢/٤٢.

(٣) الترمذي، كتاب المناقب، رقم ٣٨١٣، ضعفه الألباني في الجامع الصغير ١٦٨.

(٤) الطبقات، ابن سعد (٦١/٤-٧١)، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر (٤٦-٤٧)، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير (١٩٤/١-١٩٦)، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني (٣٥)، وسير أعلام النبلاء، الذهبي (٤٩٦/٢-٥٠٧)، (١٦٧/١-١٦٨)، وتهذيب التهذيب (١٠٧/١-١٠٨)، والأعلام، خير الدين الزركلي (٢٩١/١)، وموسوعة عظماء حول الرسول، خالد عبدالرحمن العك (٤٣٤/١-٤٣٩).

غريب الألفاظ:

حبّه: محبوبه[١].

احتُضر: دنا موته[٢]، وفي رواية عند البخاري ٧٣٧٧: "ابنها في الموت".

اشهدنا: أي تطلب منه الحضور[٣].

لتحتسب: أي تنوي بصبرها طلب الثواب من ربها، ليحسب لها ذلك من عملها الصالح[٤].

تَقَعْقَع: تتحرك وتضطرب[٥].

فاضت عيناه: أي امتلأت عيناه بالدموع حتى سالت على وجهه ﷺ[٦].

الشرح الأدبي

أمام هذا الموقف الإنساني من نبي الرحمة في هذا الحديث الشريف لا يملك أي مسلم محب لله ولرسوله إلا أن يتلو قول الله عز وجل: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾[٧].

والحديث يقدم درسًا في الاحتساب والصبر تجاه فقد الأبناء؛ ويجيء بعد الحديث السابق الذي يعد درساً في الصبر تجاه فقد الآباء، وأي أب حضره الموت في الحديث

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ح ب ب).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٢١٤.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٢٣/١٠.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٨٧/٣، وانظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٢٠٦.

(٥) رياض الصالحين ٦٠.

(٦) انظر: اللسان ٧٦/٩/٥.

(٧) سورة الملك: ١-٢.

السابق؟ إنه خاتم النبيين، وسيد ولد آدم ﷺ؛ والحديث يصاغ في قالب قصصي، والقصة واقعية، والأشخاص حقيقيون؛ والصبر هو الدرس المستفاد من هذا الحديث الشريف، وهو يتكون من ثلاثة مشاهد تكوِّن في مجموعها هذه القصة الراشدة؛ والمشهد الأول يروي تفاصيله أسامة بن زيد رضي الله عنهما وهو من أحب الناس إلى رسول الله ﷺ، ولأن القصة حقيقية فقد صيغت في إطار الأفعال الماضية؛ ولب القصة هو "الطفل المحتضر" وهو ابن بنت النبي ﷺ وهي زينب رضي الله عنها، وقيل اسمه علي أو عبدالله، والأم ترغب في أن يحضر معها أبوها -رسول الله- هذه اللحظة ليخفف عنها الآلام، ولكن "الجدّ" وهو رسول الله ﷺ يرسل كلمات تنزل برداً وسلاماً على قلب الأم... وعلى قلب كل أم في مثل حالتها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وعدم حضوره ربما فيه إيحاء بالصبر والاحتساب، وإيماء إلى الرضا بقضاء الله وقدره، وبأن الحضور لن يؤخر الأجل، فهو معلوم ومحدود.

ولنتأمل الجمال الأسلوبي الممزوج بالعاطفة الإيمانية والموشىً بالصبر والاحتساب والتسليم يقول رسول الله ﷺ في رسالته لابنته: "إن لله ما أخذ وله ما أعطى، وكل شئ عنده بأجل مسمى، فلتصبر ولتحتسب".

فالتأكيد، وتقديم لفظ الجلالة في الجملة الأولى والتعبير بلفظ الموصول عن عطاء الله، كل هذه جماليات أسلوبية تؤكد صدق العقيدة والإقرار بحقيقة الموت، وفي العبارة الثانية "وله ما أعطى" أي كل ما نملكه في حياتنا من عطاء الله، حتى المال فنحن مستخلفون فيه، والأولاد هبة من الله ذكوراً كانوا أم إناثاً، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها، ولنتساءل لماذا قدم الأخذ على الإعطاء؟ مع أن الأخذ متأخر عن الإعطاء، وذلك للاهتمام بما يقتضيه المقام؛ وكل شيء عنده بأجل مسمى وتكمن وراء التعبير بـ"كل شيء عنده" أسرار كثيرة وتأويلات عديدة، فكل شيء عنده بمقدار، وكل شيء بأجل مسمى: الإنسان والنبات، والحيوان وكل ما خلق الله في السماوات والأرض، وكل ما بث فيهما من دابة ،ويجيء الأمر صريحاً بعد هذه المقدمات الثلاث حيث يقول رسول الله ﷺ، "فلتصبر ولتحتسب"، والصبر يكون على مقادير الله؛

ولتحتسب أي: تنوي بصبرها طلب الثواب من ربها، والمشهد الثالث يبدأ بالقسم تقسم عليه ليأتينها ويستجيب الأب لابنته، وكيف لا وهو الرحمة المهداة، والسراج المنير، ولم يكتف بالحضور فرداً، وإنما أحضر معه ثلة من الأخيار وهم سعد بن عبادة، ومعاذ ابن جبل، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، ورجال رضي الله عنهم؛ وما أعظم هذا المشهد الجليل والصبي يحتضر في حجر رسول الله ﷺ، وتفيض عينا الرسول بالدمع، ويتساءل سعد: ما هذا؟ فيقول الرحمة المهداة: هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده.

فالعين تدمع والقلب يحزن ولا نقول إلا ما يرضي ربنا.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكم البكاء على الميت، وأنه لا حرمة فيه متى كان تعبيراً عن حزن ورحمة، ولم يكن سخطاً على حكم الله عز وجل، أو تبرماً من قضائه وقدره، وأنه تعبير عن الرحمة وتنفيث عما يخالج القلب من ألم الفراق للأحبة.

وقد اتفق الفقهاء[1] على أنه يجوز البكاء على الميت من غير نياحة ولا يجوز التلفظ بألفاظ تدل على السخط والتبرم وذلك لفعل رسول الله ﷺ له، وأنه يحرم البكاء على الميت بصوت عال أو نياحة أو الندب بتعداد محاسن الميت برفع صوت أو أن يفعل فعلاً من أفعال الجاهلية كلطم الخدود وشق الجيوب والنواح وما أشبه ذلك.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: فضل الصبر والاسترجاع.

ثانياً: من صفات الداعية: مواساة المدعوين والسعي في تخفيف المصائب عنهم.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: بيان رحمة ورقة قلب النبي ﷺ.

رابعاً: من أساليب الدعوة: السؤال والجواب.

---

(١) انظر في ذلك: البحر الرائق شرح كنز الدقائق، ابن نجيم ١٩٥/٢، وشرح معاني الآثار للطحاوي ٢٩١/٤، والمنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعد الباجي للباجي ٢٥/٢، وأحكام القرآن لابن العربي ١١/٣، والأم، الأمام الشافعي ١٣٤/٨، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٢٧٩/٥، والفتاوى الكبرى لابن تيمية ٦٥/٣، ٣٦٢/٥، والمغني، ابن قدامة ٢١٢/٢، والآداب الشرعية، ابن مفلح ٤/١.

أولاً- من موضوعات الدعوة: فضل الصبر والاسترجاع:

قد أشار الحديث إلى ذلك من قوله ﷺ: "إن لله ما أخذ وله ما أعطى وكل شيء عنده بأجل مسمى فلتصبر ولتحتسب" وهذا ما رغب فيه الحق تبارك وتعالى في قوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ۝١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾[1].

قال السعدي: ("أولئك" الموصوفون بالصبر المذكور "عليهم صلوات من ربهم" أي: ثناء وتنويه بحالهم "ورحمة" عظيمة، ومن رحمته إياهم، أن وفقهم للصبر الذي ينالون به كمال الأجر، "وأولئك هم المهتدون" الذين عرفوا الحق، وهو في هذا الموضع، علمهم بأنهم لله، وأنهم إليه راجعون، وعملوا به وهو هنا صبرهم لله.

ودلَّت هذه الآية، على أن من لم يصبر، فله ضد ما لهم، فحصل له الذم من الله، والعقوبة والضلال والخسارة، فما أعظم الفرق بين الفريقين "وما أقل تعب الصابرين، وأعظم عناء الجازعين"، فقد اشتملت هاتان الآيتان على توطين النفوس على المصائب قبل وقوعها، لتخف وتسهل إذا وقعت، وبيان ما تقابل به إذا وقعت وهو الصبر، وبيان ما يعين على الصبر، وما للصابرين من الأجر، ويعلم حال غير الصابر بضد حال الصابر.

وأن هذا الابتلاء والامتحان سنة الله التي قد خلت، ولن تجد لسنة الله تبديلاً)[2]، وقد ورد في ثواب الاسترجاع، وهو قوله "إنا لله وإنا إليه راجعون" عند المصائب أحاديث كثيرة منها قول أم سلمة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((مَا مِنْ عَبْدٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ فَيَقُولُ: إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ. اللَّهُمَّ أْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي وَأَخْلِفْ لِي خَيْراً مِنْهَا ـ إِلاَّ أَجَرَهُ اللّهُ فِي مُصِيبَتِهِ. وَأَخْلَفَ لَهُ خَيْراً مِنْهَا. قَالَتْ: فَلَمَّا تُوُفِّيَ أَبُو سَلَمَةَ قُلْتُ كَمَا أَمَرَنِي رَسُولُ اللّهِ. فَأَخْلَفَ اللّهُ لِي خَيْراً مِنْهُ. رَسُولَ اللّهِ))[3].

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٥٥-١٥٧.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ٥٩.

(٣) أخرجه مسلم ٩١٨.

وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((قال الله: يا ملك الموت، قبضت ولد عبدي؟ قبضت قرة عينه وثمرة فؤاده؟ قال: نعم. قال: فما قال؟ قال: حمدك واسترجع، قال: ابنوا له بيتاً في الجنة، وسموه بيت الحمد))[1]. وكفى بذلك دلالة على عظم فضل الصبر والاسترجاع إلى الله عند المصيبة.

ثانياً- من صفات الداعية: مواساة المدعوين والسعي في تخفيف المصائب عنهم:

هذا ما ظهر جلياً في الحديث في مواساة النبي ﷺ (لابنته زينب)[2] رضي الله عنها في وفاة ابنها.

ومواساة المسلمين من أطيب أخلاق المؤمنين، فبها تكون الألفة بين المؤمنين وعليها تقوى العلاقات بين المسلمين، والنبي ﷺ هو القدوة والأسوة الحسنة في مواساة المسلمين؛ فعن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: ((إنا والله قد صحبنا رسول الله ﷺ في السفر والحضر، وكان يعود مرضانا ويتبع جنائزنا ويغزو معنا، ويواسينا بالقليل والكثير))[3] والمواساة أنواع بيّنها ابن القيم في قوله: (مواساة بالمال، ومواساة بالجاه، ومواساة بالبدن والخدمة، ومواساة بالنصيحة والإرشاد، ومواساة بالدعاء والاستغفار لهم، ومواساة بالتوجُّع لهم.

وعلى قدر الإيمان تكون هذه المواساة؛ فكلما ضعف الإيمان ضعفت المواساة، وكلما قوي قويت. وكان رسول الله ﷺ أعظم الناس مواساة لأصحابه بذلك كلّه، فلأتباعه من خلق المواساة بحسب اتباعهم له.

(واستصحاب الداعية لهذه النصوص وتفهمه معانيها وإدراكه أن دين الإسلام يدعو لما فيه تعاطف المسلمين وتآلفهم وترابطهم، يجعله يتفاعل مع الناس، فيواسيهم بالقليل والكثير، ويشاركهم عاطفياً وعقلياً وحسياً، ويتأثر لهم وبهم ويندمج في جماعتهم،

---

(١) أخرجه الترمذي ١٠٢١، وحسنه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٨١٤).

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٨٦/٣.

(٣) أخرجه أحمد ٥٠٤، وقال محققو الإسناد: إسناده حسن.

ومما لا شك فيه أن الداعية الموفق هو الذي يستشعر أهمية ذلك في تبليغ الدعوة وتأليف القلوب)[١].

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: بيان رحمة وشفقة النبي ﷺ:

هذا ما ظهر جلياً في الحديث من قول الراوي "فرفع إلى رسول الله ﷺ الصبيُ، فأقعده في حجره ونفسه تقعقع، ففاضت عيناه فقال سعد: يا رسول الله ما هذا؟ فقال: "هذه رحمة جعلها الله تعالى في قلوب عباده" وفي رواية "في قلوب من شاء من عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء" والرحمة كما بينها الكفوي: (هي حالة وجدانية تعرض غالباً لمن به رقة القلب، وتكون مبدأ للانعطاف النفساني الذي هو مبدأ الإحسان)[٢].

والنبي ﷺ رقيق القلب رحيم الفؤاد، وهذا ما أكده أنس بن مالك رضي الله عنه في قوله: ((دَخلْنا مع رسولِ اللّهِ ﷺ على أبي سَيفٍ القَينِ. وكانَ ظئراً لإبراهيمَ عليه السلام. فأخذَ رسول اللّهِ ﷺ إبراهيمَ فقبّلَهُ وشَمَّهُ. ثمَّ دَخلْنا عليهِ بعدَ ذلك. وإبراهيمُ يَجودُ بنفسِه. فجعلَتْ عَينا رسولِ اللّهِ ﷺ تَذْرِفانِ. فقال له عبدُ الرحمن بنُ عَوفٍ رضي الله عنه: وأنتَ يا رسولَ اللّهِ؟ فقال يا ابنَ عَوفٍ إنها رحمةٌ. ثمَّ أتبعها بأُخرى فقال ﷺ: إن العينَ تَدمعُ، والقلبَ يحزَنُ، ولا نقولُ إلاّ ما يَرضى رَبُّنا، وإنَّا بفِراقِكَ يا إبراهيمُ لَمحزُونون))[٣].

قال ابن حجر: (قوله: "وأنت يا رسول الله؟" قال الطيبي: فيه معنى التعجب، والواو تستدعي معطوفاً عليه أي الناس لا يصبرون على المصيبة وأنت تفعل كفعلهم، كأنه تعجب لذلك منه مع عهده منه أنه يحث على الصبر وينهى عن الجزع، فأجابه بقوله "إنها رحمة" أي الحالة التي شاهدتها مني هي رقة القلب على الولد لا ما توهمت من الجزع)[٤].

---

(١) انظر: صفات الداعية الناجح، صالح محمد العليوي، ٦٥-٦٦.

(٢) الكليات ، معجم المصطلحات والفروق الفردية، أبو البقاء الكفوي ٤٧١.

(٣) أخرجه البخاري ١٣٠٣، ومسلم ٢٣١٥.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٠٧/٣-٢٠٨.

رابعاً- من أساليب الدعوة: السؤال والجواب:

قد ورد هذا الأسلوب في الحديث من سؤال سعد ﵁ للنبي ﷺ بقوله: "يا رسول الله ما هذا؟"، وإجابة النبي ﷺ بقوله "هذه رحمة جعلها الله تعالى في قلوب عباده" وفي رواية "في قلوب من شاء من عباده"، وذلك عندما فاضت عيناه ﷺ ببكائه على احتضار ابن بنته زينب ﵂ (والسؤال والجواب من الأساليب الدعوية الهامة التي تجعل المدعو في حالة استعداد فكري ونفسي لمعرفة إجابة سؤاله، وهذا الاستعداد أمر مهم جداً لتلقف المعرفة واختزانها في الذاكرة، ثم لتطبيق إرشاداتها في السلوك)[1].

وقد أشار نص الحديث إلى أن هذه المعرفة التي يجب اختزانها في الذاكرة وتطبيقها في السلوك هي: (أن مجرد البكاء ودمع العين ليس بحرام ولا مكروه بل هو رحمة وفضيلة، وإنما المحرم النوح والندب والبكاء المقرون بهما أو بأحدهما)[2].

---

(١) انظر: فقه الدعوة إلى الله وفقه النصح والإرشاد، عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني، ٥٨/٢.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٥٩٧.

الحديث رقم (٣٠)

٣٠- وعَنْ صُهَيْبٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «كَانَ مَلِكٌ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ، فَلَمَّا كَبِرَ قَالَ لِلْمَلِكِ: إِنِّي قَدْ كَبِرْتُ فَابعَثْ إِلَيَّ غُلاَماً أُعَلِّمْهُ السِّحْرَ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ غُلاماً يعلِّمُهُ، وَكَانَ فِي طَرِيقِهِ إِذَا سَلَكَ رَاهِبٌ، فَقَعَدَ إِلَيْهِ وَسَمِعَ كَلاَمَهُ فَأَعْجَبَهُ، وَكَانَ إِذَا أَتَى السَّاحِرَ مَرَّ بالرَّاهِبِ وَقَعَدَ إِلَيْهِ، فَإِذَا أَتَى السَّاحِرَ ضَرَبَهُ، فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى الرَّاهِبِ فقال: إِذَا خَشِيتَ السَّاحِرِ فَقُلْ: حبَسَنِي أَهْلِي، وإِذَا خَشِيتَ أَهْلَكَ فَقُلْ: حبَسَنِي السَّاحِرُ.

فَبيْنَمَا هُو عَلَى ذَلِكَ[1] إِذْ أَتَى عَلَى دابَّةٍ عظِيمَة قدْ حَبَسَت النَّاس فقال: اليوْمَ أعْلَمُ السَّاحِرُ أفْضَلُ أم الرَّاهبُ أفْضلُ؟ فأخَذَ حجَراً فقالَ: اللهُمَّ إنْ كان أمْرُ الرَّاهب أحَبَّ إلَيْكَ مِنْ أَمْرِ السَّاحِرِ، فاقتُلْ هَذِهِ الدَّابَّة حتَّى يمْضِيَ النَّاسُ، فرَماها فقتَلَها ومَضى النَّاسُ، فأتَى الرَّاهب فأخبَرَه. فقال لهُ الرَّاهبُ: أيْ بُنيَّ أنْتَ اليوْمَ أفْضلُ منِّي، قدْ بلَغَ مِنْ أمْرِكَ مَا أرَى، وإنَّكَ ستُبْتَلَى، فإنِ ابْتُليتَ فَلاَ تدُلَّ عليَّ، وكانَ الغُلامُ يبْرِئُ الأكْمَهَ والأبرصَ، ويداوي النَّاس مِنْ سائِرِ الأدواءِ. فَسَمِعَ جلِيسٌ للملِكِ كانَ قدْ عمِيَ، فأتَاهُ بهداياَ كثيرَةٍ فقال: ما ههُنَا لكَ أجْمَعُ إنْ أنْتَ شفَيْتني، فقال إنِّي لا أشفِي أحَداً، إنَّمَا يشْفِي الله تعَالَى، فإنْ آمنْتَ بِاللَّهِ تعَالَى دعوْتُ الله فشَفاكَ، فآمَنَ باللَّه تعَالى فشفَاهُ اللَّهُ تَعَالَى، فأتَى المَلِكَ فجلَس إليْهِ كما كانَ يجلِسُ فقالَ لَهُ المَلكُ: منْ ردَّ علَيْكَ بصَرك؟ قال: ربِّي. قَالَ: ولكَ ربٌّ غيْرِي؟، قَالَ: رَبِّي وربُّكَ الله، فأَخَذَهُ فلَمْ يزَلْ يُعذِّبُهُ حتَّى دلَّ عَلَى الغُلاَمِ فجيءَ بِالغُلاَمِ، فقال لهُ المَلكُ: أيْ بُنَيَّ قدْ بلَغَ مِنْ سِحْرِك مَا تبْرِئُ الأكمَهَ والأبرَصَ وتَفعلُ وَتفْعلُ فقالَ: إنِّي لا أشْفي أَحَداً، إنَّما يشْفي الله تَعَالَى، فأخَذَهُ فَلَمْ يزَلْ يعذِّبُهُ حتَّى دلَّ عَلَى الرَّاهِبِ، فجِئَ بالرَّاهِبِ فقيل لَهُ: ارجَعْ عنْ دِينكَ، فأبَى، فدَعا بالمنْشَار فوُضِع المنْشَارُ في مفْرقِ رأْسِهِ، فشقَّهُ حتَّى وقَعَ شقَّاهُ، ثُمَّ جيء بجَلِيسِ المَلكِ فقِيلَ لَهُ: ارجِعْ عنْ دينِكَ فأبَى، فوُضِعَ المنْشَارُ في مفْرقِ رَأسِهِ، فشقَّهُ به حتَّى وقع

(١) لفظ مسلم (كذلك) بدل: (على ذلك).

شقّاه، ثُمَّ جئ بالغُلامِ فقِيل لَهُ: ارجِعْ عنْ دينِكَ، فأبَى، فدفعَهُ إلَى نَفرٍ منْ أصْحابِهِ فقال: اذهبُوا بِهِ إلَى جبلِ كَذَا وكذَا فاصعدُوا بِهِ الجبلَ، فإذَا بلغتُمْ ذروتهُ فإنْ رجعَ عنْ دينِهِ وإلاَّ فاطرَحوهُ، فذهبُوا به فصعدُوا بهِ الجبَل فقال: اللّهُمَّ اكفنِيهمْ بمَا شئْت، فرجَفَ بهِمُ الجبَلُ فسقطُوا، وجَاءَ يمْشي إلَى المَلِكِ، فقالَ لَهُ الملكُ: ما فُعِلَ بأصحَابُكَ؟ فقالَ: كفانيهِمُ الله تعالَى، فدفعَهُ إلَى نَفرَ منْ أصْحَابِهِ فقال: اذهبُوا بِهِ فاحملُوه في قُرقُور وَتَوسَّطُوا بِهِ البحْرَ، فإنْ رَجَعَ عنْ دينِهِ وإلاّ فَاقْذفُوهُ، فذَهبُوا بِهِ فقال: اللّهُمَّ اكفنِيهمْ بمَا شِئت، فانكفَأتْ بِهِمُ السَّفينةُ فغرقُوا، وجَاءَ يمْشِي إلَى المَلِك. فقالَ لَهُ الملِكُ: ما فُعِلَ بأَصحَابُكَ؟ فقال: كفانِيهمُ الله تعالَى. فقالَ للمَلِكِ إنَّك لسْتَ بقَاتِلِي حتَّى تفْعلَ ما آمُركَ بِهِ. قال: ما هُوَ؟ قال: تجمَعُ النَّاس في صَعيدٍ واحدٍ، وتصلبُني عَلَى جذْعٍ، ثُمَّ خُذ سهْماً مِنْ كنَانتِي، ثُمَّ ضعِ السَّهْمِ في كَبدِ القَوْسِ ثُمَّ قُل: بسْمِ اللَّهِ ربِّ الغُلاَمِ ثُمَّ ارمِنِي، فإنَّك إذَا فعَلْتَ ذَلِك قتَلْتنِي. فجمَعَ النَّاس في صَعيدٍ واحِدٍ، وصلبَهُ عَلَى جذْعٍ، ثُمَّ أخَذَ سهْماً منْ كنَانَتِهِ، ثُمَّ وضَعَ السَّهمَ في كبدِ القَوْسِ، ثُمَّ قَالَ: بسْمِ اللَّهِ رَبِّ الغُلامِ، ثُمَّ رماهُ فوقَعَ السَّهمُ في صُدْغِهِ، فَوضَعَ يدَهُ في صُدْغِهِ فمَاتَ.

فقَالَ النَّاسُ: آمنَّا بربِّ الغُلاَمِ[1]، فَأُتِيَ المَلكُ فقِيلُ لَهُ: أرَأيْت ما كُنْت تحْذَر قَدْ وَاللَّه نَزَلَ بِك حَذرُكَ. قدْ آمنَ النَّاسُ. فأمَرَ بالأخدُودِ بأفْواهِ السِّكك فخُدَّتَ وَأُضْرِمَ فِيها[2] النيرانُ وقالَ: مَنْ لَمْ يرْجِعْ عنْ دينِهِ فأقْحمُوهُ فِيهَا أوْ قيلَ لَهُ: اقْتَحمْ، ففعَلُوا حتَّى جَاءتِ امرَأةٌ ومعَهَا صَبِيٌّ لها، فتقَاعَسَت أنْ تَقعَ فِيهَا، فقال لَهَا الغُلاَمُ: يا أمَّاهْ اصبِرِي فإنَّك عَلَي الحَقِّ» روَاهُ مُسْلَمٌ[3].

ترجمة الراوي:

صُهَيْب بن سِنان الرومي: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٢٧).

---

(١) عند مسلم تكررت ثلاث مرّات.

(٢) (فيها) لا توجد عند مسلم.

(٣) برقم (٣٠٠٥/٧٣).

غريب الألفاظ:

راهب: هو من اعتزل الناس إلى دير وانقطع للعبادة[١].

دابة: كل ما يدب على الأرض وقد غلب على ما يركب من الحيوان[٢].

ستبتلي: من البلاء وهو المحنة والشدة تنزل بالمرء ليختبر بها ويمتحن[٣].

الأكمه: هو الذي ولد أعمى وقيل: هو الذي أصابه العمى[٤].

الأبرص: هو الذي أصابه البرص وهو بياض يقع في الجسد لِعِلّة[٥].

ذروته: ذروة الجبل: أعلاه[٦].

رجف بهم الجبل: اضطرب وتحرك حركة شديدة[٧].

القُرْقُور: بضم القافين: نوع من السفن، وقال النووي في شرح مسلم: السفينة الصغيرة، وقيل: السفينة العظيمة[٨].

انكفأت بهم السفينة: انقلبت[٩].

الصعيد: المكانُ الواسع[١٠].

تصلبني: صَلَب الجسم: شد أطرافه وعلقه على شيء ما[١١].

---

(١) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، الفيومي ٢٨٦، ومعجم لغة الفقهاء، أ. د. محمد رواس قلعة جي ١٩٤.

(٢) الوسيط ٢٦٨.

(٣) انظر: الوسيط ٧١.

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير والوسيط في (ك م هـ).

(٥) الوسيط في (ب ر ص).

(٦) رياض الصالحين ٦٢، واللسان والوسيط في (ذ ر و).

(٧) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٧٢٣.

(٨) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٧٢٣، والنهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ق ر ق ر).

(٩) رياض الصالحين ٦٢، والوسيط في (ص ع د).

(١٠) رياض الصالحين ٦٢.

(١١) الوسيط ٥١٩.

جذع: ساق النخلة ونحوها[١].

كنانتي: الكنانة: جعبة صغيرة من جلد للنبْل والسهام[٢].

كبد القوس: مقبضها عند الرمي[٣].

نزل بك حذرك: أي ما كنت تحذر[٤].

الأُخْدود: الشقوق في الأرض كالنهر الصغير[٥].

أفواه السكك: أبواب الطرق[٦].

خُدّت: حفرت[٧].

أُضْرِم: أُوقِد[٨].

تقاعست: توقفت وجبنت[٩].

الشرح الأدبي

هذا الحديث المطول يحتاج إلى تأمل وتدبر وتفكر، فهو ليس مجرد قصة للتسلية أو المتعة، ولكنه يفيض بالدروس والعبر، والحِكَم والمواعظ، ويدعو إلى التأمل في أحوال الخلق، ويحدد المنهج الذي يجب أن يتبع في نشر الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، واتخاذ الوسائل المتعددة ومنها الأسلوب القصصي في توصيل أسس

---

(١) الوسيط ١١٣.

(٢) اللسان والوسيط في (ك ن ن).

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٧٢٣.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٧٢٣.

(٥) رياض الصالحين ٦ ٢.

(٦) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٧٢٣.

(٧) الوسيط في (خ و د).

(٨) رياض الصالحين ٦٢.

(٩) رياض الصالحين ٦٢.

الدعوة، وأصول العقيدة إلى الناس، وتحمل الأهوال والشدائد في سبيل الله.

والحديث جاء في قالب قصصي "حقيقي" ولكن لم يحدد الزمان ولا المكان، ولا أسماء الأشخاص، وبعض الكتب ذكرت أسماء بعض الشخصيات التي تضمنتها هذه القصة الهادفة الراشدة الهادية.

والقصة لها بداية ووسط ونهاية، وهي تُعْطي نموذجاً متكاملاً للقصة في الحديث النبوي: حيث يقوم الهيكل العام للقصة النبوية في الأغلب العام على ثلاث دعائم تشكل إطاراً يحدد شكلها القصصي، وهذه الدعائم تبرز لنا في البداية والوسط والنهاية، وهذه التركيبة الهيكلية قائمة على أساس من الترابط العضوي الذي يشد بعضها إلى بعض، بحيث نحس ونحن نقرأ هذه القصص قراءة متعمقة أن هناك خيوطاً منظورة وغير منظورة تؤدي وظيفتها في تحقيق التلاحم بين دعائم هيكل القصة الثلاث[١].

والشخصيات من مكونات القصة الرئيسة هنا، وفي هذا الحديث القصصي تصنع الأحداث عدة شخصيات إنسانية وهي:

الغلام: الذي رفض تعلم السحر.. وتعلم على يد الراهب.. وهو من النصارى.. حيث تقول بعض الروايات إن هذا الراهب كان بنجران – واسم الغلام عبدالله بن تامر، وكان يبرئ الأكمه والأبرص ويداوي الناس من سائر الأدواء.

الراهب: وهو المتعبد من النصارى المتخلي من أشغال الدنيا التارك لملاذها بالزهد فيها، الصابر على مشاقها المعتزل عن أهلها، ودوره ايجابي في هذه القصة لأنه يمثل جانب الإيمان في مقابل الطغيان والكفر لدى الملك.

الملك: وهو كما يروي ابن عباس: كان بنجران، وكان طاغية يدعي الألوهية، ويقال إنه الذي حرَّق أصحاب الأخدود.

الساحر: وهو رمز الخداع والتمويه والكذب وعدم الثبات وعدم تحمل العذاب لأنه

---

(١) انظر تفصيل سمات القصة النبوية في كتاب القصة في الحديث النبوي د. محمد بن حسن الزير.

دل على الراهب.

جليس الملك: الأعمى الذي شفي على يد الغلام بإذن الله سبحانه ورفض تأليه الملك وآمن بالله سبحانه.

المرأة وابنها الذي تكلم في المهد في نهاية القصة تحدياً للملك: وقال لأمه: اصبري فإنك على الحق ولم يخش النيران.

جموع الناس الذين آمنوا برب الغلام بعد أن رأوا شجاعته وصبره: وهو يقابل القتل بإيمان وصبر واستهزاء بالملك.

وبعض الشخصيات لا تكون من الإنس ولكن قد تشارك في الأحداث بعض كائنات الطبيعة الحية والجامدة. ومنها في هذا الحديث: الدابة، وقد قتل هذه الدابة الغلام بحَجَرٍ، وذلك لأنه أراد أن يثبت أن الراهب أفضل من الساحر، وللسفينة والجبل دور في تعضيد موقف الغلام، وحمايته بفضل تسخير الله لها لحمايته، لأنها من خلق الله، وتسبح بحمد ربها ولكن لا نفقه تسبيحها.

إن هذه الشخصيات شاركت كلها في صنع أحداث هذه القصة، وتآزرت في تكوين مشاهدها المتوالية من بدايتها إلى نهايتها، وهي تتكون من أحد عشر مشهداً، تتوالى كلها في يسر وسهولة وإمتاع وإقناع، مع تعدد العقد والمفاجآت في تطور الأحداث، ولكن النهاية تصور انتصار النموذج الإيماني وتحديه القوي لكل الطغاة المتجبرين.

والمشهد الأول: يمثل بداية القصة، وبدء حكاية الملك الطاغية، ورغبة الساحر الذي كبر في تعليم غلام بعده أصول فن السحر، حتى يضمن استمرار ما عليه من باطل ونفوذ وحظوة لدى الملك الطاغية.

ولكن الغلام يكره الساحر، ويهيئ الله له الراهب... فيتعلم منه تعاليم الدين في هذا الوقت وهو النصرانية.

والمشهد الثاني: يمثل تطوراً في شخصية الغلام حيث يستفيد بعلمه الذي تعلمه، وينقذ الناس من خطر الدابة التي حبست الناس: ويقتل هذه الدابة بحجر، وهذا

الانتصار جاء مقترناً بالإيمان وإثبات بطلان فعل الساحر لأن الغلام دعا وقال: (اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة، حتى يمضي الناس فرماها فقتلها).

وهذا المشهد يمثل اختباراً حقيقياً لقدرات الغلام، وثقته بالله وفي نفسه، ورفضه لتعاليم الساحر الباطلة.

والمشهد الثالث: يعد ثمرة حقيقية للحدث في المشهد الثاني حيث أقر الراهب للغلام العالم بالأفضلية وقال: "يا ابني: أنت اليوم أفضل مني..." وفي هذا إرشاد لكل معلم بضرورة رعاية تلاميذه، والغبطة والفرح حين يتفوقون، ويخاف الراهب على الغلام ويدرك بفراسته أو بطريق العادة والتجربة أن الغلام سيبتلى، وسيقابل أهوالاً من الكفار والطغاة، ويعاهده أنه إذا ابتلي فلا يدل عليه، ولا يخلف الغلام الوعد، حيث تمسك بالعهد.

والمشهد الرابع: يقدم تجربة ناجحة، واختباراً لقدرات ذلك الغلام: حيث شفى الله على يديه جليس الملك الذي أصابه العمى: وكان الغلام يبرئ الأكمه -وهو الذي ولد أعمى، وكذلك الذي فقد بصره- والأبرص بفضل الله سبحانه وتعالى، وما أجمل هذا السبيل في الدعوة إلى الله: فالغلام يشترط الإيمان بالله ثمناً للشفاء ويقول، وما أصدق قوله مؤكداً منطقة ومنهجه: "إني لا أشفي أحداً، إنما يشفي الله تعالى، فإن آمنت بالله دعوت الله فشفاك، فآمن الأعمى بالله تعالي فشفاه الله تعالى" ولنتأمل هذه المؤثرات الأسلوبية في تقديم المعنى التأكيد بإنما وقصر الشفاء على الله تعالى، ثم جعل الإيمان شرطاً للجزاء وهو الشفاء، وتوالي فاءات العطف يدل على سرعة الاستجابة.

وفي **المشهد الخامس:** تحتدم المواجهة بين قوى الباطل وأنصار الحق والإيمان، وتحدث المفاجأة للملك حين يرى جليسه ومستشاره قد رُدَّ إليه بصرُه: فيسأله: من رد إليك بصرك، فيقول مستشاره "ربي" فيثور الملك ويوغل في حمأة الباطل ويقول مستنكراً! أولك رب غيري؟ ويعذب مستشاره حتى عرف منه مكان الغلام.

وفي **المشهد السادس:** يبلغ التحدي أقصاه بين الملك والغلام، واعتقد الملك أن الغلام

ساحر، ولكن الغلام يرفض ذلك، ويقول: إنما يشفي الله تعالى، معلنا رفضه لربوبية ذلك الملك الطاغية، ويعرف الملك مكان الراهب الذي علم الغلام، وبصَّره بتعاليم الدين.

وفي **المشهد السابع**: يصمد الحق أمام الباطل، ويفضل الراهب وجليس الملك الموت في سبيل التمسك بالدين؛ لأن الملك طلب منهما الرجوع عن الدين والبقاء على الاعتقاد في ربوبيته ولكنهما أبيا وتمسكاً بدينهما.

ما أهول هذا المنظر الذي ينقل صورة القتل، حيث وُضِع المنشار في مفرق رأسه فشقه به حتى وقع شقاه!!!

والمشهد الثامن: يصور ذكاء الغلام وقوة حجته في مواجهة الملك بعد أن نجاه الله من القتل وسخر له الجبل حيث رجف بمن أرادوا قتل الغلام فسقطوا وكذلك : السفينة انكفأت بهم فغرقوا في البحر، وقد نجى الله الغلام.

ليبدأ **المشهد التاسع** وهو تاج المشاهد كلها، حيث استطاع الغلام أن يستدرج الملك من حيث لا يعلم إلى الإقرار والتفوه باسم الله رب الغلام، بعد أن قال له: لست بقاتلي حتى تفعل ما أمرك به! ما أعظم الإيمان الذي يقوي القلوب والإرادة.

فالغلام المؤمن يأمر الملك الجبار الكافر، ويستجيب الملك الغبي المغرور؟ ويطل **المشهد العاشر** حيث تجمع الناس في صعيد واحد وصُلب الغلام، وأخذ الملك سهماً من كنانته وأطلقه صائحاً بأعلى صوته "بسم الله رب الغلام، ويموت الغلام المؤمن ولكن دعوته تبقى، وتأثيره يزداد، وإذا بالناس يصيحون في ثقة وإيمان وتحد للملك، آمناً برب الغلام ثلاث مرات.

ما أعظم المشهد، وما أعظم استشهاد الغلام، وما أقوى حجته، ولكن الملك يفقد صوابه، ويأمر بالقتل الجماعي للناس في الأخدود حرقاً، وتكون المفاجأة على لسان صبي في المهد يتحدى الملك وينطق بالحق والشجاعة ويقول لأمه الخائفة من النيران: اصبري فإنك على الحق .. يا أماه جعلنا الله من الصابرين الصامدين الموحدين.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكمين فقهيين:

الأول: حكم العمل بالسحر وتعليمه وتعلمه، وقد اتفق الفقهاء[1] على أن العمل بالسحر حرام وكبيرة من الكبائر، وأن الساحر كافر خارج عن دين الله عز وجل، وأنه يقتل متى قدر عليه قبل توبته، وإن اختلفوا في كيفية قتله فقيل يقتل حداً بضرب السيف وقيل يقتل تعزيراً لاقترافه أمراً يخرج عن الملة، واستثنى الشافعي[2] حالة ما إذا أقر الساحر أنه قتل بسحره شخصاً فقيل عليه الدية فقط في هذه الحالة متى تاب وقال أصحابه يقتل قصاصاً، واختلفوا في حكم تعلم السحر دون العمل به فذهب جمهور الفقهاء من الحنفية والمالكية والحنابلة[3] إلى أن تعلم السحر وتعليمه حرام وكفر مخرج من الملة، واستثنى بعض الحنفية تعلم السحر لرد سحر أهل الحرب فجعلوه فرضاً، وكذا تعلمه للإصلاح بين الزوجين فهو جائز عندهم، ورُدّ هذا من معظم الحنفية.

وذهب الشافعية[4] إلى أن تعليمه حرام إلا إذا كان للوقوف على حقيقته أو كان

---

(١) تبيين الحقائق، الزيلعي ٢٩٣/٣، وأحكام القرآن للجصاص ٧٢/١، والمنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعد الباجي للباجي ١١٧/٧، وأحكام القرآن لابن العربي ٤٨/١، وأنوار البروق للقرافي ١٥١/٤، وتبصرة الحكام لابن فرحون ٢٨٤/٢، وفتاوى السبكي لتقي الدين السبكي الشافعي ٣٢٣/٢ وما بعدها، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا بن محمد بن أحمد الأنصاري٨٢/٤، ومختصر المزني ص٣٦٣، والسياسة الشرعية لابن تيمية ص ١٥٤، والفتاوى الكبرى ٦١/١، والمغني، ابن قدامة ٣٥/٩، والفروع، ابن مفلح ١٧٧/٦.

(٢) الأم، الأمام الشافعي ٣٦٣/٨.

(٣) تبيين الحقائق، الزيلعي ٢٩٣/٣، أحكام القرآن للجصاص ٧٢/١، المنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعد الباجي للباجي ١١٧/٧، أحكام القرآن لابن العربي ٤٨/١، أنوار البروق للقرافي ١٥١/٤، تبصرة الحكام لابن فرحون ٢٨٤/٢، السياسة الشرعية لابن تيمية ص ١٥٤، الفتاوى الكبرى ٦١/١، المغني، ابن قدامة ٣٥/٩، الفروع، ابن مفلح ١٧٧/٦.

(٤) فتاوى السبكي لتقي الدين السبكي الشافعي ٣٢٣/٢ وما بعدها، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا بن محمد بن أحمد الأنصاري٨٢/٤، والأم، الأمام الشافعي ٣٦٣/٨.

تعلمه لتحصيل نفع أو دفع ضرر فهو جائز حينئذ.

الثاني: حكم الكذب لمصلحة، وقد اتفق الفقهاء[1] على أن الأصل في الكذب أنه حرام، ومع ذلك قد يكون الكذب مباحاً أو واجباً، فالكلام وسيلة إلى المقصود، وكل مقصود محمود يمكن تحصيله بغير الكذب يحرم الكذب فيه، فإن لم يتأتى تحصيله بغير الكذب جاز الكذب فيه.

المضامين الدعوية

أولاً: من وسائل الدعوة: القصة.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: الانتفاع بأخبار السابقين ممن ابتلاهم الله.

ثالثاً: من صفات المدعو: الحرص على تعلم العلوم النافعة.

رابعاً: من واجبات المدعو: التبيّن والتثبت.

خامساً: من موضوعات الدعوة: الثبات على الحق والصبر على الأذى.

سادساً: من موضوعات الدعوة: الاستعانة بالله واللجوء إليه.

سابعاً: من مهام الداعية: العمل على نصرة الدعوة.

ثامنًا: من أساليب الدعوة: الحوار.

أولاً- من وسائل الدعوة: القصة:

قد وردت القصة كوسيلة دعوية هامة في الحديث من قوله ﷺ "كان ملك فيمن كان قبلكم وكان له ساحر... إلخ".

(والقصة تمتاز بأنها تصور نواحي الحياة، فتعرض لك الأشخاص، وحركاتهم

---

(١) المبسوط، السرخسي ١٤٥/١٦، وتبيين الحقائق، الزيلعي ٢٤١/٤، والمنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعد الباجي للباجي ٣١٣/٧، وحاشية العدوي على شرح كفاية الطالب الرباني، علي بن أحمد العدوي على الخرشي ٤١٢/٢، وأنوار البروق للقرافي ٨/٤، وأدب الدنيا والدين للماوردي ص ٢٦١، والزواجر عن اقتراف الكبائر، أبو العباس أحمد بن محمد الهيتمي ٣٢٢/٢، وطرح التثريب ٢١٤/٧، والآداب الشرعية، حماد بن عبدالله الحماد ١١/١، ١٩، وغذاء الألباب ١٣٤/١، وإعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن القيم ٩٣/١، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٠٥/٣٤.

وأخلاقهم، وأفكارهم، واتجاهات نفوسهم، وبيئتهم الطبعية والزمنية، تعرضهم عليك بعرض أعمالهم وتصرفاتهم ونقاشهم، فإذا رأيت هذه التصرفات والأعمال، ومضيت مع الحوار والنقاش عرفت ما يستكن في النفوس من طباع، وما يهجس فيها من خواطر، وانشرح صدرك لأهل الخير منهم وضقت ذرعاً بذوي النفوس المظلمة والوسائل الملتوية، حتى لكأنك تراهم رأي العين، وتسمع منهم سمع الأذن، وتعاشرهم وتحيا بينهم.

وتمتاز القصة كذلك بأن النفس تميل إليها، فغريزة حب الاستطلاع، تعلق عين السامع وأذنه وانتباهه بنسق القصصي البارع، استشرافاً لمعرفة ما خفي من بقية الأنباء.

والقصة بهاتين الميزتين من خير الوسائل التي يتوسل بها الداعية لإبلاغ تعاليمه إلى أعمال القلوب، فهي بالميزة الأولى تعرض هذه التعاليم في صورة عملية حية تحرك الوجدان، وترفع نبض المشاعر وهي بالميزة الثانية ميزة التنبه والتقبل، تجعل النفوس أوعية مفتوحة، يصب فيها الداعية ما يشاء فيبلغ القرار.

فعلى الداعية أن يستمسك بهذه الوسيلة التي من سنة الله تعالى، فالله عز شأنه قد سنها في القرآن الكريم، فقص على رسوله أحسن القصص، وضمنه خير التعاليم والمواعظ تثبيتاً له ولأمته على الحق ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[١].

وخير القصص كله، قصص القرآن الكريم، بما فيه وإلى ما فيه؛ فقد أحكمت به عروة العقيدة، واكتمل نظام الأخلاق، واشتدت به أركان الحضارة الإسلامية، فكانت أوفى وأكمل الحضارات...)[٢].

ثانياً- من موضوعات الدعوة: الانتفاع بأخبار السابقين ممن ابتلاهم الله:

إن الانتفاع بأخبار السابقين من الذين آمنوا بربهم وثبتوا على دينهم وصبروا على ما كان في ذلك من بلاء؛ لعظيم الفائدة في اتخاذ العبرة والعظة، والتيقن بأن العاقبة في

---

(١) سورة هود، آية: ١٢٠.

(٢) تذكرة الدعاة، البهي الخولي، ٤٤-٤٥، بتصرف يسير.

ذلك لعباد الله المتقين، وهذا ما يستفاد جلياً من نص الحديث، وقد أرشد الحق تبارك وتعالى نبيه وعباده إلى ذلك فقال: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

قال ابن كثير: (وفي ذلك يقول الله تعالى: وكل أخبار نقصّها عليك، من أنباء الرسل المتقدمين قبلك مع أممهم، وكيف جرى لهم من المحاجّات والخصومات، وما احتمله الأنبياء من التكذيب والأذى، وكيف نصر الله حزبه المؤمنين وخذل أعداءه الكافرين كل هذا مما نثبت به فؤادك -يا محمد- أي: قلبك، ليكون لك بمن مضى من إخوانك من المرسلين أسوة)[2]، قال القاسمي: (وقوله تعالى "وموعظة وذكرة للمؤمنين" أي عبرة لهم يحترزون بها عما أهلك الأمم، وتذكير لما يجب أن يتدينوا به ويجعلوه طريقهم وسيرتهم)[3]، وفي ذلك قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾[4] وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[5].

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ ۚ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[6].

---

(١) سورة هود، آية: ١٢٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٣٦٣/٤.

(٣) محاسن التأويل، جمال الدين القاسمي، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي ١٨٤/٩/٦.

(٤) سورة الأنعام، آية: ١١.

(٥) سورة الروم، آية: ٩.

(٦) سورة غافر، الآيتان: ٢١-٢٢.

قال ابن كثير: (يقول تعالى: أولم يسر هؤلاء المكذبون برسالتك يا محمد "في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم" أي: من الأمم المكذبة بالأنبياء، ما حل بهم من العذاب والنكال، مع أنهم كانوا أشد من هؤلاء قوة، "وآثاراً في الأرض" أي: أثروا في الأرض من البنايات والمعالم الديارات، ما لا يقدر عليه هؤلاء، كما قال: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ﴾[1]، وقال: ﴿وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾[2] أي: ومع هذه القوة العظيمة والبأس الشديد، أخذهم الله بذنوبهم، وهي كفرهم برسلهم "وما كان لهم من الله من واق" أي: ما دفع عنهم عذاب الله أحد، ولا رده عنهم راد، ولا وقاهم واق.

ثم ذكر علة أخذه إياهم وذنوبهم التي ارتكبوها واجترموها، فقال: "ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات" أي: بالدلائل الواضحات والبراهين القاطعات "فكفروا" أي: مع هذا البيان والبرهان كفروا وجحدوا "فأخذهم الله" أي: أهلكهم ودمَّر عليهم وللكافرين أمثالها، "إنه قوي شديد العقاب" أي: ذو قوة عظيمة وبطش شديد، وهو "شديد العقاب" أي: عقابه أليم شديد وجيع. أعاذنا الله منه)[3].

فعلى المرء أن يتخذ العبرة والعظة فيما كان من أخبار السابقين؛ حتى يثبت على دين الله ويصبر على ماكان في ذلك من بلاء ويعلم أن العاقبة في ذلك للمتقين، وهذا ما أكده النبي ﷺ لخباب بن الأرت رضي الله عنه عندما جاءه يشتكي ما أصابه من المشركين طالباً منه ﷺ الدعاء والاستنصار قائلاً: ألا تدعو الله؟ فقعد ﷺ وهو محمر الوجه فقال: ((لقد كان من قبلكم ليُمشَط بمشاطِ الحديد، ما دُون عظامهِ من لحمٍ أو عَصَب، ما يَصرفهُ ذلك عن دينه، ويوضَع المِنشارُ على مفرِق رأسهِ فيُشَقُّ باثنين، ما يصرِفه ذلكَ عن دينه. ولَيُتِمَّنَّ اللهُ هذا الأمرَ حتى يَسيرَ الراكبُ مِن صَنعاءَ إلى حَضرمَوتَ ما يَخافُ إلاَّ الله))[4].

---

(١) سورة الأحقاف، آية: ٢٦.

(٢) سورة الروم، آية: ٩.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ١٣٨/٧.

(٤) أخرجه البخاري ٣٨٥٢.

ثالثاً- من صفات المدعو: الحرص على تعلم العلوم النافعة:

يظهر ذلك في الحديث من قوله ﷺ "وكان في طريقه إذا سلك راهب، فقعد إليه وسمع كلامه فأعجبه، وكان إذا أتى الساحر مرَّ بالراهب وقعد إليه" (والعلم في اللغة: يطلق على المعرفة والشعور والإتقان واليقين، يقال: علمت الشيء أعلمه علما عرفته، ويقال: ما علمت بخبر قدومه أي: ما شعرت، ويقال: علم الأمر وتعلّمه: أتقنه. واصطلاحاً: هو حصول صورة الشيء في العقل)[1].

(وينقسم العلم تبعاً لفائدته وأهمية الحاجة إليه، فمنه ما تعلمه فرض، ومنه ما هو محرم)[2].

قال ابن قدامة في بيان العلم الذي هو فريضة على كل مسلم: (اختلفت عبارات الناس في بيان العلم المفروض، والصحيح أن يقال: هو علم معاملة العبد لربه وهو يدخل في باب الاعتقاد والأفعال وهذا العلم المفروض ينقسم إلى قسمين:

فرض عين: وهو ما يتعين وجوبه على الشخص من توحيد الله ومعرفة أوامره وحدوده في العبادات والمعاملات التي يحتاج إليها، وفرض كفاية: وهو كل علم لا يستغنى عنه في قوام الدنيا:

كالطب والحساب وأصول الصناعات. فلو خلا البلد عمن يقوم بهذه العلوم والصناعات أثم أهل البلد جميعاً وإذا قام بها واحد فقط وكفاهم سقط الإثم عن الباقين)[3].

ومما لا شك فيه أن كل علم يحصل به عز الإسلام والمسلمين، يكون من أجلِّ العبادات وأفضل الطاعات إلى إرضاء رب العباد. والناظر في السنن الكونية يعلم أنها سنن مطردة لا تتغير ولا تتبدل، فلا تحابي أمة على أمة إلا بقوة مكانتها وعظم شأنها؛

---

(١) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٣٠/٢٩٠، ومصادرها.

(٢) المرجع السابق ٣٠/٢٩١.

(٣) انظر: مختصر منهاج القاصدين، ابن قدامة المقدسي ١٩/٢٠.

وذلك لا يكون للأمة الإسلامية إلا بالعودة إلى الإسلام عقيدة وفقهاً وجهاداً، ومن أعظم الجهاد امتلاك معرفة العلوم العصرية معرفة تحفظ لهذه الأمة هيبتها وتحمي بيضتها.

وقد كان في ترك الأمة لهذه العلوم والتخلف عنها، أن أصبح زمام العالم وقيادته بغير أيدي المسلمين، وهذا ما يأباه الإسلام ويرفضه، وتخلف المسلمين في ذلك يرجع إلى تخاذلهم عن فهم كتاب ربهم وسنة نبيهم، ولنضرب "مثالاً في ذلك"[١] فقد أخبر القرآن الكريم "في غير ما سورة"[٢] أن الله تعالى سخر لنا البحر فقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[٣].

فتقاصرنا عن فهم مراد ربنا؛ بأن إرشاده تعالى بتسخير البحر لنا يعني أن نبلغ أقصى ما يكون في استعماله بما يعز الإسلام ويحمي بيضة المسلمين، وقد فهم غير المسلمين ذلك فأنشأوا المرافئ لصنع السفن وأعدوا حاملات الطائرات، وأبدعوا في إنشاء الغواصات، ونسي المسلمون أنهم في ذلك (أبناء بجدتها)[٤] (فقد ركب معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما البحر في جيش عظيم من المسلمين، وكان أول من غزا البحر في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه ففتح الله على يديه قبرص سنة ثمان وعشرين من الهجرة)[٥].

وها هوذا عبدالله بن سعد بن أبي السرح في غزوة الصواري سنة أربع وثلاثين يركب البحر ويغزو الروم، قال ابن كثير: (فلما تراءى الجمعان بات الروم يقسقسون ويصلبون، وبات المسلمون يقرأون ويصلون، فلما أصبحوا صف عبدالله بن سعد

---

(١) انظر: كيف نتعامل مع القرآن الكريم، محمد الغزالي ص ٢١.

(٢) سورة النحل، آية: ١٤، سورة فاطر، آية: ١٢.

(٣) سورة الجاثية، آية: ١٢.

(٤) أي: العالمين بالشيء المتقنين له، (المعجم الوسيط، مع اللغة العربية في (ج د د).

(٥) انظر: البداية والنهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٢٢٨/١٠، وتاريخ الطبري ٧٢٨.

أصحابه صفوفاً في المراكب، وأمرهم بذكر الله وتلاوة القرآن. قال بعض من حضر ذلك: فأقبلوا إلينا في أمرٍ لم يُر مثله من كثرة المراكب، وتعداد صواريها، وكانت الريح لهم وعلينا، فأرسينا ثم سكنت الريح عنا، فقلنا لهم: إن شئتم خرجنا نحن وأنتم إلى البر فمات الأعجل منا ومنكم. قال: فنخروا نخرة رجل واحد وقالوا: الماء الماء. قال: فدنونا منهم وربطنا سفننا بسفنهم، ثم اجتلدنا وإياهم بالسيوف، يثب الرجال على الرجال بالسيوف والخناجر، وضربت الأمواج في عيون تلك السفن حتى ألجأتها إلى الساحل، وألقت الأمواج جثث الرجال إلى الساحل، حتى صارت مثل الجبل العظيم، وغلب الدم على لون الماء، وصبر المسلمون يومئذٍ صبراً لم يعهد مثله قط، وقُتل منهم بشرٌ كثير، ومن الروم أضعاف ذلك، ثم أنزل الله نصره على المسلمين، فهرب قسطنطين وجيشه -وقد قلّوا جداً- وبه جراحات شديدة كثيرة مكث حيناً يداوى منها بعد ذلك، وأقام عبدالله بن سعد بذات الصواري أياماً، ثم رجع مؤيداً منصوراً مظفراً)[١].

وقد أيد الله تعالى المسلمين بالنصر على عدوهم؛ لاجتهادهم وعدم تخلفهم في معرفة العلوم الدنيوية التي أنشأوا بها السفن، فكانت سبباً في عز الإسلام ونصر المسلمين.

(أما القسم الثاني من العلوم، فهو القسم المحرم الذي لا فائدة فيه بل يكون وبالاً على صاحبه)[٢]، وقد كان النبي ﷺ يستعيذ من هذا العلم فيقول: ((اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع))[٣] (ومن ذلك العلم المحرم، الشعوذة وهي: خفة في اليد كالسحر ترى الشيء بغير ما عليه)[٤] وهذا ما أشار إليه نص الحديث في قوله ﷺ "فلما كبر قال للملك: إني قد كبرت فابعث إلي غلاماً أُعلمه السحر".

(١) البداية والنهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٢٣٧/١٠، وتاريخ الطبري ٧٣٩.

(٢) انظر: الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٩٣/٣٠.

(٣) أخرجه مسلم ٢٧٢٢.

(٤) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٩٣/٣٠.

وقد أكد الشاطبي على ذلك فقال: (من العلم ما هو من صلب العلم، ومنه ما هو من مُلح العلم، لا من صلبه، ومنه ما ليس من صلبه ولا مُلَحه)[١]، ثم بين هذا العلم الذي ليس من صلب العلم ولا مُلحه فقال: (هو ما لم يرجع إلى أصلٍ قطعي ولا ظني وإنما شأنه أن يكر على أصله أو على غيره بالإبطال مما صح كونه من العلوم المعتبرة، والقواعد المرجوع إليها في الأعمال والاعتقادات، أو كان منهضاً إلى إبطال الحق وإحقاق الباطل على الجملة؛ فهذا ليس بعلم؛ لأنه يرجع على أصله بالإبطال، فهو غير ثابت، ولا حاكم، ولا مطرد أيضاً، ولا هو من مُلَحه؛ لأن الملح هي التي تستحسنها العقول، وتَسْتَمْلُحها النفوس؛ إذ ليس يصحبها منفرد، ولا هي مما تُعادي العلوم؛ لأنها ذاتُ أصلٍ مبنيٌّ عليه في الجملة، بخلاف هذا القسم؛ فإنه ليس فيه شيء من ذلك.

هذا وإن مال بقوم فاستحسنوه وطلبوه؛ فلشبهٍ عارضة، واشتباه بينه وبين ما قبله، فربما عدَّه الأغبياء مبنياً على أصل، فمالوا إليه من ذلك الوجه، وحقيقة أصله وهمٌ وتخييل لا حقيقة له)[٢].

رابعاً- من واجبات المدعو: التبيّن والتثبت:

قد أشار الحديث إلى ذلك من قوله ﷺ "فبينما هو على ذلك إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس فقال: اليوم أعلم الساحر أفضل أم الراهب أفضل؟... إلخ".

(وهذا ما فعله سلمان الفارسي رضي الله عنه في استثباته واستبيانه لنبوة النبي ﷺ من قبوله ﷺ للهدية وعدم أكله للصدقة وفي وجود خاتم النبوة على كتفه الشريف ﷺ)[٣]، وفي بيان ذلك قال سلمان رضي الله عنه ((فلما رآني رسول الله ﷺ استدبرته عرف أني أستثبت في شيء وصف لي، فألقى رداءه عن ظهره، فنظرت إلى الخاتم، فعرفته، فانكببت عليه أقبله وأبكي))[٤]، فعلى المدعو أن يسلك طريق

---

(١) الموافقات في أصول الشريعة، الشاطبي ١/١٠٧.

(٢) انظر: الموافقات في أصول الشريعة، الشاطبي ١/١٢٠-١٢٢.

(٣) انظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي، ١/٥١٠.

(٤) أخرجه أحمد ٥/٤٤٢، ٣٧٣٦، وقال محققو المسند: إسناده حسن ورجاله ثقات ٣٩/١٤١.

الاستبيان والاستثبات وذلك بسؤاله لأهل العلم فيما أشكل عليه ممتثلاً في ذلك لقوله تعالى: ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾[١]، ومن جانب آخر أمر الحق تبارك وتعالى عباده بالتبيّن والتثبت إن جاءهم فاسق بنبأ، فقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ﴾[٢] أي: (عليكم أن تتثبتوا في خبر الفاسق وعدم أخذه مجرداً فإن في ذلك خطراً كبيراً، ووقوعاً في الإثم)[٣]، وفي ذلك بيان على عظم وأهمية التبيُّن والتثبيت في حياة المسلم.

خامساً- من موضوعات الدعوة: الثبات على الحق والصبر على الأذى:

قد أشار الحديث إلى ذلك من قوله ﷺ "فجيء بالراهب فقيل له: ارجع عن دينك فأبى، فوضع المنشار في مفرق رأسه، فشقه به حتى وقع شقاه" وأيضاً في قوله ﷺ: "فأمر بالأخدود بأفواه السكك فخدت وأضرم فيها النيران وقال: من لم يرجع عن دينه فأقحموه فيها، أو قيل له اقتحم ففعلوا حتى جاءت امرأة ومعها صبي لها، فتقاعست أن تقع فيها، فقال لها الغلام: يا أمه اصبري فإنك على الحق.

وقد أمر الحق تبارك وتعالى بالثبات على الحق والصبر على الأذى فقال: ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِي۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[٤].

قال ابن كثير: (هذه تسلية للنبي ﷺ وتعزية له فيمن كذبه من قومه، وأَمْر له بالصبر كما صبر أولو العزم من الرسل، ووَعْد له بالنصر كما نصروا، وبالظفر حتى كانت لهم العاقبة، بعد ما نالهم من التكذيب من قومهم والأذى البليغ، ثم جاءهم

---

(١) سورة النحل، آية: ٤٣.

(٢) سورة الحجرات، آية: ٦.

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، عبدالرحمن السعدي ٧٤٣.

(٤) سورة الأنعام، آية: ٣٤.

النصر في الدنيا، كما لهم النصر في الآخرة؛ ولهذا قال: "ولا مبدل لكلمات الله" أي: التي كتبها بالنصر في الدنيا والآخرة لعباده المؤمنين كما قال: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾[2] وقوله: "ولقد جاءك من نبأ المرسلين" أي: من خبرهم نُصروا وأُيدوا على من كذبهم من قومهم، فلك فيهم أسوة وبهم قدوة)[3]. وقال تعالى في سورة إبراهيم: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾[4].

وقد أمر النبي ﷺ بالثبات على الحق والصبر على الأذى فقال لآل ياسر عندما كانوا يعذبون ((صَبْرًا آلَ يَاسِرٍ فَإِنَّ مَوْعِدَكُمْ الْجَنَّةُ))[5]، وفي ذلك بيان عظيم على أهمية الثبات على الحق والصبر على الأذى في الله.

سادساً- من موضوعات الدعوة: الاستعانة بالله واللجوء إليه:

إن الاستعانة بالله واللجوء إليه هو عز المؤمن وقوته، فبه تزول الصعاب وتمحى العقبات وتحدث الخيرات، ويكون النصر في الدنيا، وهذا ما ظهر جلياً في نص الحديث من قوله ﷺ "ثم جيء بالغلام فقيل له: ارجع عن دينك فأبى، فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال: اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا فاصعدوا به الجبل، فإذا بلغتم ذروته فإن رجع عند دينه وإلا فاطرحوه، فذهبوا به فصعدوا به الجبل، فقال: "اللهم أكفينهم بما شئت، فرجف بهم الجبل فسقطوا".

---

(١) سورة الصافات، الآيات: ١٧١-١٧٣.

(٢) سورة المجادلة، آية: ٢١.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٣/٢٥٢.

(٤) سورة إبراهيم، آية: ١٢.

(٥) أخرجه الحاكم في المستدرك ٤/٤٧٠، ٥٦٩٦، وقال: حديث صحيح.

وقد أمر الله تعالى عباده بالاستعانة به واللجوء إليه فقال في سورة الأعراف: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ﴾[١] أي: (اعتمدوا على الله في جلب ما ينفعكم، ودفع ما يضركم، وثقوا بالله، أنه سيتم أمركم)[٢] والدعاء هو اللجوء إلى الله والاستعانة به، قال ابن القيم: (وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يستنصر به على عدوه، وكان أعظم جنده، وكان يقول لأصحابه: "لستم تنصرون بكثرة، وإنما تنصرون من السماء، وكان يقول: "إني لا أحمل هم الإجابة ولكن همَّ الدعاء، فإذا ألهمتم الدعاء فإن الإجابة معه)[٣].

ومما لاشك فيه (أن الأدعية والتعوذات بمنزلة السلاح، والسلاح بضاربه، لا بحدِّه فقط؛ فمتى كان السلاح سلاحاً تاماً لا آفة به، والساعد ساعدًا قوي، والمانع مفقودًا، حصلت به النِّكاية في العدو، ومتى تخلَّف واحد من هذه الثلاثة؛ تخلف التأثير، فإذا كان الدعاء في نفسه غير صالح، أو الداعي لم يجمع بين قلبه ولسانه في الدعاء، أو كان ثم مانع من الإجابة؛ لم يحصل الأثر)[٤].

سابعاً- من مهام الداعية: العمل على نصرة الدعوة:

إن الداعية يعمل على نصرة دعوته وإبلاغها للناس بشتى الطرق الممكنة والوسائل المتاحة، ولو أدى ذلك إلى هلاكه بل إنه يدل على طريقة قتله إذا رأى في ذلك إبلاغاً لدعوته، ونشراً لها بين الناس، ودحضاً للباطل وأهله، وتقويضاً للكفر وحزبه، وهذا ما يتضح جلياً في قصة هذا الغلام الداعية، فكلما نجاه الله من كيد الملك الكافر عاد إليه وواجهه ووقف أمامه ثابتاً شامخاً، لا يرهبه ولا يخافه، معتزاً بدعوته ورسالته، ثم خطا خطوة رآها تنشر دعوته بين الناس، وتجعلهم يؤمنون بها ويعتنقونها، فدل الملك

---

(١) سورة الأعراف، آية: ١٢٨.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي ٢٦٣.

(٣) الداء والدواء، ابن القيم ٢٤.

(٤) المرجع السابق ٢١-٢٢.

الكافر على طريقة قتله التي تعلن بكل وضوح أنه على الحق، وأن الملك على الباطل فقال له: (إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به. قال: ما هو؟ قال: تجمع الناس في صعيد واحد وتصلبني على جذع، ثم خذ سهماً من كنانتي، ثم ضع السهم في كبد القوس ثم قل: بسم الله رب الغلام، ثم ارمني، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني). ففعل الملك ذلك وهو يظن أنه سيقضي عليه وعلى دعوته، لكن خاب أمله، وَأُتِي من حيث لم يحتسب، ووقع ما كان يخشاه، فقد آمن الناس برب الغلام وتركوا عبادة الملك؛ لأن الناس لما رأوا ذلك عرفوا صدق الغلام وكذب الملك فقالوا بصوت واحد "آمنا برب الغلام" فردد أشياع الملك على أذنه قولهم: أرأيت ما كنت تحذر قد والله نزل بك حذرك. قد آمن الناس" والخلاصة أن الغلام رضي بالقتل من أجل نصرة دعوته والجهاد في سبيل نشرها بين الناس، وقد ضرب لنا سلفنا الصالح أروع الأمثلة في هوان حياتهم عندهم من أجل إبلاغ دعوة ربهم.

وليس أدل على ذلك من قول ابن عباس رضي الله عنه: ((ألا أخبركم بإسلام أبي ذر؟ قلنا بلى. قال: قال أبو ذر: بلغني أن رجلاً بمكة قد خرج، يزعم أنه نبي، فأرسلتُ أخي ليكلّمه، فقلت: انطلق إلى هذا الرجل، فكلمه. فانطلق فلقيه، ثم رجع، فقلت: ما عندك؟ قال: والله، لقد رأيت رجلاً يأمر بالخير، وينهى عن الشر. قلت: لم تشفني. فأخذت جراباً وعصا، ثم أقبلت إلى مكة، فجعلت لا أعرفه وأكره أن أسأل عنه، وأشرب من ماء زمزم، وأكونُ في المسجد. فمرَّ علي بن أبي طالب، فقال: هذا رجلٌ غريب؟ قلت: نعم. قال: انطلق إلى المنزل. فانطلقت معه، لا أسأله عن شيء، ولا يخبرني!

فلما أصبح الغدُ، جئت إلى المسجد لا أسأل عنه، وليس أحد يخبرني عنه بشيء. فمر بي علي، فقال: أما آن للرجل أن يعود؟ قلت: لا. قال: ما أمرك، وما أقدمك؟ قلت: إن كتمت عليَّ أخبرتك؟ قال: أفعل. قلت: قد بلغنا أنه قد خرج نبي. قال: أما قد رشدت! هذا وجهي إليه، فاتبعني وادخل حيث أدخل، فإني إن رأيت أحداً أخافه عليك، قمتُ إلى الحائط كأني أصلحُ نعلي! وامض أنت.

فمضى، ومضيت معه، فدخلنا على النبي ﷺ، فقلت: يا رسول الله، اعرض علي الإسلام. فعرض علي، فأسلمت مكاني. فقال لي: يا أبا ذر، اكتم هذا الأمر، وارجع

إلى قومك! فإذا بلغك ظهورنا، فأقبل. فقلت: والذي بعثك بالحق، لأصرخنَّ بها بين أظهرهم.

فجاء إلى المسجد وقريشُ فيه، فقال: يا معشر قُريش، إني أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله. فقالوا: قوموا إلى هذا الصابئ. فقاموا، فضربت لأموت! فأدركني العباس، فأكب عليَّ، وقال: ويلكم تقتلون رجلاً من غفار، ومتجركم وممركم على غِفار! فأطلقوا عني. فلما أصبحتُ، رجعتُ، فقلت مثل ما قلت بالأمس. فقالوا: قوموا إلى هذا الصابئ! فصنع بي كذلك، وأدركني العباس، فأكب علي. فهذا أول إسلام أبي ذر)[1]. فعلى الدعاة إلى الله أن يقتدوا بسلفهم الصالح في إبلاغ دعوة ربهم ونصره دينهم ولو كان في ذلك شيء من أذاهم.

ثامناً- من أساليب الدعوة: الحوار:

قد ورد الحوار كأسلوب دعوي في مجمل نص الحديث، فقد بدأ بحوار الملك والساحر، ثم ثنى بحوار الغلام والراهب، ثم اتبع ذلك بحوار بين الغلام وجليس الملك، إلى أن انتهى بحوار الغلام والملك.

(والحوار كأسلوب دعوي يعد العنصر الأساس للعلاقات الاجتماعية الإنسانية ومنذ خلق الله تعالى آدم فإن كل العلاقات البشرية، النافعة منها وغير النافعة، ابتدأت بمرحلة الحوار، وبالتالي فإن الحضارات الإنسانية المترتبة على هذه العلاقات، إنما هي نتائج طبيعية للحوار الإنساني المعبر عن التفاعل الفكري المتبادل لبني آدم عليه السلام.

ولا شك أن أرقى أنواع الحوار هو حوار الدعوة إلى الله تعالى، ذلك هو حوار الرسل وأتباعهم؛ لفطرة الإنسان، ليجلو عنها ما ران وغبر: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ۝٣٧ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾[2])[3].

(فالحوار هو القوة الكبرى في فن العلاقات الإنسانية ... إنه المنهج الوحيد الذي تتحقق به المواجهة المباشرة بين القلوب والعقول، ولما كانت القلوب والعقول خاضعة

---

(١) أخرجه البخاري ١٣٤، ومسلم ٢٤٧٤.

(٢) سورة الكهف، الآيتان: ٣٧، ٣٨.

(٣) مجلة الحكمة، العدد الثامن، ١٤١٦هـ ص ١١.

للفطر السليمة من ناحية، وللتعاليم المحرفة التي تطرأ عليها من ناحية أخرى، فقد وجب أن تكون الغلبة في النهاية للحوار الذي يستتير بهذه الفطرة السليمة)[1]. وهذا ما ظهر جلياً في نص الحديث من انتصار الغلام في حواره على الملك وأعوانه وإيمان الناس بدعوته إلى الله تعالى.

---

(١) الدعوة الإسلامية الوسائل والأساليب، محمد خير رمضان يوسف، ١١٥.

الحديث رقم (٣١)

٣١- وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: مَرَّ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم بِامْرَأَةٍ تَبْكِي عِنْدَ قَبْرٍ فَقَالَ: «**اتَّقِي الله وَاصْبِرِي**» فَقَالَتْ: إِلَيْكَ عَنِّي، فَإِنَّكَ لَمْ تُصَبْ بِمُصِيبتى، وَلَمْ تعْرِفْهُ، فَقيلَ لَها: إِنَّه النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم، فَأَتَتْ بَابَ النَّبِّي صلى الله عليه وسلم، فلَمْ تَجِد عِنْدَهُ بوَّابينَ، فَقالتْ: لَمْ أَعْرِفْكَ، فقالَ: «**إِنَّما الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأولَى**» متفقٌ عليه[1].

وفي رواية لمُسْلِمٍ: «**تَبْكِي عَلَى صَبيٍّ لَهَا**»[2].

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

إليك عني: هو من أسماء الأفعال ومعناه: تَنَحّ وابتعد[3].

الصبر عند الصدمة الأولى: أي عند قوة المصيبة وشدتها[4].

الشرح الأدبي

إن هذا الحديث الشريف يُعدُّ واحة مثمرة بالصبر، وهو حديقة من المعاني نتفيَّأ ظلالها، ونستروح نسائمها، وأي ظلال أطهر وأنقى من ظلال نستمدها من أصداء كلمات رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ وأي نسائم أكثر عبقاً وأطيب ريحاً من نسائم محملة بعطور النبوة، وشذا الرسالة المحمديَّة.

إن هذه الواحة يُعدُّ الصبر أعذب ثمارها، والتقوى أفضل أشجارها، وكلمات المصطفى صلى الله عليه وسلم أعظم وأصدق ما نجنيه من عطائها.

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٨٣) واللفظ له، ومسلم (٦٢٦/١٥).

(٢) أخرجه مسلم (٦٢٦/١٥).

(٣) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٤٥، وفتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٧٨/٧.

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٥١٢.

ولنتأمل المؤثرات التعبيرية والمكونات الأسلوبية في هذه الدوحة الباسقة التي تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، وما أعظم الدرس الذي يقدمه رسول الله ﷺ في الاحتساب والصبر عبر ذلك الحوار التربوي الهادئ الذي يرسخ بعض أصول المنهج الإسلامي في تبصير الأمة بحقائق الدين وسمات المنهج الرباني، وأصول التصور الإسلامي.

ولنتأمل بداية الحديث وهو يتمثل في مرور النبي ﷺ بامرأة تبكي عند قبر، وصنيع الرسول ﷺ هنا يؤكد تفقده لأحوال أمته، ووقوفه على أمور رعاياه، واسم المرأة لم يحدد لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ولم يحدد اسم الذي تبكي عليه المرأة، ويمكن أن يكون ولدها كما ورد في رواية مسلم.

ويدور حوار حكيم بين النبي البشير النذير وهذه المرأة الثكلى: ولم يُعنفها رسول الله ﷺ ولم يغلظ لها القول. ولكنه قال: "اتقي الله واصبري" والفعلان هنا في صيغة الأمر، والأمر للوجوب، وهما كلمتان ولكنهما تفيضان بالدلالات الكثيرة، ولنتساءل لماذا قُدم فعل الأمر "اتقي" على أمره لها بالصبر، قيل: بأن اتقي الله توطئة لقوله واصبري: كأنه قال لها: (خافي غضب الله إن لم تصبري، واصبري ليحصل لك الثواب)(١).

ولكن المرأة الثكلى لم تستجب لهذا التوجيه النبوي لأنها لم تتعرف على شخصية الرسول ﷺ وهذا يحتاج إلى تأمل: فالنبي لم يتخذ حراساً ولا حجاباً، ولم يكن يلبس ملابس خاصة تميزه عن غيره مثلما يفعل الملوك والرؤساء قديماً وحديثاً، وليس هذا بمستغرب فهو نبي الله الخاتم، وهو القدوة الحسنة، وهو يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، والمرأة ترد في عنف وغلظة: "إليك عني" أي تنح وابعد عني، فإنك لم تصب بمصيبتي، وهذه الغلظة يقابلها مَنْ بالمؤمنين رؤوف رحيم، بالعفو والصفح والتسامح، وينصرف عنها، وجملة: "ولم تعرفه" في الحديث احتراس: حتى يؤخذ العذر لهذه المرأة

(١) انظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ١٦٤.

في مخاطبتها غير اللائقة لرسول الله ﷺ؛ وقيل سألها الفضل بن العباس، هل تعرفينه: فقالت: لا؛ ولنتدبر موقف المرأة حينما عرفت أنه رسول الله ﷺ، يروي مسلم ((أنها أخذها مثل الموت))[١] من شدة الكرب والأسى؛ ولأن الرسول ﷺ يعفو ويصفح ويحلم اطمأنت المرأة وذهبت بنفسها لتعتذر؛ وقصدت باب النبي ﷺ "ولم تجد بوابين"، وهذه العبارة لها دلالتها العظيمة في تقديم ملامح شخصية الرسول ﷺ في حياته ومسكنه ومطعمه ومشربه، وقالت بعد أن شَرُفت بمقابلة خاتم الأنبياء، والله ما عرفتك ولم يعاتبها رسول الله، ولم يوجه لها لوماً ولم يعاقبها، وإنما نطق بالحكمة، وفاه بالحقيقة "إنما الصبر عند الصدمة الأولى"، وجواب النبي ﷺ على طريقة: أسلوب الحكيم، حيث عدل عن الأمر الخاص، والشأن الشخصي إلى معالجة القضية التي يثيرها الحديث وهى: الصبر، وجاء الحث على الصبر في أسلوب القصر، وقيل كأن النبي ﷺ قال لها دعي الاعتذار فإني لا أغضب لغير الله، وانظري لنفسك في تفويتك الثواب الجزيل بعدم الصبر عند مفاجأة المصيبة قال تعالى: ﴿ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾[٢].

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكمين فقهيين:

الأول: حكم زيارة القبور، وقد اتفق الفقهاء[٣] على أن زيارة القبور مستحبة للرجال لما فيها من التذكير بالآخرة، أما زيارة النساء للقبور فقد اختلف فيها الفقهاء على قولين:

---

(١) أخرجه مسلم ٩٢٦.

(٢) سورة المؤمنون، آية: ١١١.

(٣) بدائع الصنائع، الكاساني ١/ ٣٢٠، والتاج والإكليل شرح مختصر خليل، محمد بن أبي يوسف العبدري ٣/ ٥٠، والمدخل ١/ ٢٥٠، والأم، الأمام الشافعي١/ ٣١٧، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٥/ ٢٨٥، والفتاوى الكبرى ٣/ ٣٩، والفروع، ابن مفلح ٢/ ٢٢٩، والمحلى، ابن حزم ٣/ ٢٨٨.

القول الأول: ذهب الحنفية في الأصح[١] والمالكية في قول[٢] والشافعي في وجه[٣] وأحمد في رواية[٤] إلى أن زيارة النساء للقبور جائزة للحديث، وأن النهي عنها في الأحاديث الأخرى نهي تنزيه لا تحريم، بل هي عند الحنفية في الأصح مندوبة كزيارة الرجال لها.

القول الثاني: ذهب الحنفية في قول[٥] والمالكية في قول[٦] والشافعية في وجه[٧] والإمام أحمد في رواية[٨] إلى أن زيارة النساء للقبور غير جائزة وتمنع منها لما فيها من البدع والفتن المحرمة.

الثاني: حكم البكاء على الميت عند زيارة قبره، وقد ذهب جمهور الفقهاء[٩] إلى أن البكاء على الميت عند زيارة القبر جائز متى كان من غير نياحة، ولا التلفظ

---

(١) البحر الرائق شرح كنز الدقائق، ابن نجيم ٢/٢١٠، والفتاوى الهندي ٥/٣٥٠.

(٢) المدخل ١/١٥٠، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ٢/٢٣٧.

(٣) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٥/٢٨٥، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا بن محمد بن أحمد الأنصاري١/٣٣١، والغرر البهية في شرح البهجة الوردية، القاضي أبو يحيى زكريا الأنصاري ٢/١٢٠.

(٤) الفروع، ابن مفلح ٢/٢٩٩، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، المرداوي ٢/٥٦٢.

(٥) البحر الرائق شرح كنز الدقائق، ابن نجيم ٢/٢١٠، والفتاوى الهندي ٥/٣٥٠.

(٦) المدخل ١/٢٥٠، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ٢/٢٣٧.

(٧) معالم القربة في طلب الحسبة ص ٥١، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، عبدالرحمن بن نصر الشيزري ص ١١٠.

(٨) الفتاوى الكبرى ٣/٣٩، الفروع، ابن مفلح ٢/٢٩٩، الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، المرداوي ٢/٥٦٢.

(٩) البحر الرائق شرح كنز الدقائق، ابن نجيم ٢/١٩٥، شرح معاني الآثار للطحاوي ٤/٢٩١، المنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعد الباجي للباجي ٢/٢٥، أحكام القرآن لابن العربي ٣/١١، مختصر المزني ص١٣٤، المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٥/٢٧٩، فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣/١٥٤، الفتاوى الكبرى لابن تيمية ٣/٦٥، ٥/٣٦٢، المغني، ابن قدامة ٢/٢١٢، الآداب الشرعية، ابن مفلح ١/٤، الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٨/١٧٣.

بألفاظ تدل على السخط والتبرم، وكره ابن تيمية[(١)] البكاء على الميت بعد موته أو عند قبره، لأنه يؤذيه البكاء كما وردت بذلك الأحاديث وهو ما عليه الحنابلة في وجه، ولا يلزم من ذلك أن يكون بكاؤهم سببًا لتعذيبه إنما المراد به النياحة المنهي عنها أو شدة البكاء أو إذا وصى بفعل ذلك عن قبره.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: الأمر بالتقوى والصبر.

ثانياً: من صفات الداعية: مراعاة أحوال المدعوين وتقدير مشاعرهم.

ثالثاً: من صفات الداعية: التواضع.

رابعاً: من أساليب الدعوة: الحوار.

خامساً: من صفات المدعو: التأدب بأدب الإسلام.

أولاً- من موضوعات الدعوة: الأمر بالتقوى والصبر:

ورد الأمر بالتقوى والصبر في هذا الحديث في أمره ﷺ لتلك المرأة التي تبكي على ولدها حيث "مر النبي ﷺ على امرأة تبكي عند قبر فقال: اتقي الله واصبري" فالظاهر من قوله "اتقى الله أنه كان في بكائها قدر زائد من نوحٍ وغيره ولهذا أمرها بالتقوى[(٢)] قال الطيبي: (قوله "اتقي الله" توطئة لقوله "واصبري" كأنه قيل لا تجزعي وخافي غضب الله[(٣)] وفي الحديث أرشد النبي ﷺ إلى التحلي بفضيلة خلق الصبر عند المصائب، وعند كل ما يجلب الآلام ويورث المتاعب والأكدار، ولقد وعد الإسلام الصابرين بالأجر العظيم والثواب الجزيل إذا صبروا ورضوا بقضاء الله، طاعة له، وابتغاء مرضاته، قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾[(٤)] [(٥)].

---

(١) الفتاوى الكبرى لابن تيمية ٤٦٥/٣، الآداب الشرعية، ابن مفلح ٤/١.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٧٨/٣.

(٣) شرح الطيبي، الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ٣٩٦/٣، ٣٩٧.

(٤) سورة البقرة، الآيات: ١٥٥-١٥٧.

(٥) الوجيزة في الأخلاق الإسلامية وأسسها، عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني ص ٣٨٠، ٣٨١.

وما أشد وقع المصيبة على النفس حين تكون بعزيز غالٍ، أو ولد حبيب!! إنها لخطب جلل وكارثة عظيمة قد يضيق عنها الصبر ولا تتحملها النفس، ولكن الدين داوى هذه النفوس الجزعة بما يخفف عنها وقع المصيبة وألم الكارثة. فالمؤمن يعتقد بقضاء الله وقدره وأنّ كل ما يحدث في هذه الحياة من خير أو شر، ومن نفع أو ضر، إنما هو بقضاء من الله وتقدير منه فيرضى بحكم الله صابراً محتسباً طمعاً في مرضاة الله -عز وجل- وإلى هذا تشير الآية الكريمة: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[1].

هذه هي فائدة الإيمان (بالقضاء والقدر) أن تخفف المصيبة عن قلب الإنسان بسبب اعتقاده أنها بإرادة الله ومشيئته بينما الكافر ينفد صبره ويضيع رشده، ولربما أضاع حياته أيضاً بالانتحار؛ لأنه ليس لديه ما يسليه أو يعزيه، أو يخفف المصاب عنه، ولقد كان جزاء الصبر عظيماً عند الله؛ لأنه حَبْس للنفس على ما تكره، وصون لها عن فعل ما يغضب الله، ومقاومة للنوازع الفطرية في نفس الإنسان؛ ولذا كان الثواب عظيماً. قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾[2].

وفي هذا الحديث الشريف دعوة إلى الصبر وتقوى الله لتلك المرأة التي فقدت ولدها، ولكن وقع المصيبة كان عظيماً لذلك، فقد خاطبت الرسول ﷺ بألفاظ لا تليق بمقامه الشريف، ولكن الرسول ﷺ قابلها بالسماحة والعفو، ولم تلبث أن جاءت تعتذر فقبل الرسول اعتذارها وضرب لها أروع الأمثال في أسلوب النصيحة بقوله: (إنما الصبر عند الصدمة الأولى).

---

(١) سورة الحديد، الآيتان: ٢٢ - ٢٣.

(٢) سورة البقرة، الآيات: ١٥٥ - ١٥٧.

ثانياً- من صفات الداعية: مراعاة أحوال المدعوين وتقدير مشاعرهم:

إن المتأمل في توجيه النصيحة من رسول الله ﷺ لتلك المرأة التي كانت "تبكي على صبي لها" يلمس اللطف والرفق وعدم التعنيف وتقدير مشاعر الحزن والجزع ومن ثم أمر بتقوى الله والصبر، فلم نر في توجيه الرسول ﷺ لها تعنيفاً ولا زجراً حتى مع إعراضها عنه في بادئ الأمر "فقال لها اتقي الله واصبري، فقالت: إليك عني، فإنك لم تصب بمصيبتي، ولم تعرفه".

ولذا ينبغي على الداعية أن يراعي أحوال المدعوين فلقد كان رسول الله ﷺ يُعنى عناية شديدة بأحوال المخاطبين، وكان يهتم اهتماماً بالغاً بمراعاتها أثناء الدعوة والتوجيه والإرشاد، قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾[1] قال الشيخ ابن عثيمين في تفسيرها: (فقد كان ﷺ يدعو على بصيرة فيما يدعو إليه، وعلى بصيرة في حال المدعو، وعلى بصيرة في كيفية الدعوة)[2].

ثالثاً- من صفات الداعية: التواضع:

تتضح صفة التواضع في بساطة النبي ﷺ، وعدم وجود الحواجز أو الموانع بينه وبين المدعوين. ومن الشواهد على ذلك في الحديث الذي معنا ما ورد فيه: "فأتت باب النبي ﷺ فلم تجد عنده بوابين" قال ابن حجر: (وفي هذا الحديث من الفوائد ما كان عليه الصلاة والسلام من التواضع والرفق بالجاهل، ومسامحة المصاب وقبول اعتذاره وملازمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفيه الترغيب في احتمال الأذى عند بذل النصيحة ونشر الموعظة)[3]؛ فالتواضع من الصفات التي ينبغي أن يتحلى بها الدعاة، وذلك لأن التواضع يمكنهم من النجاح في دعوتهم، فقلوب المدعوين تحب المتواضع وتنفر من المتكبر، فما أحوج الداعية إلى أن يصل إلى قلوب المدعوين بسهولة ويسر،

---

(١) سورة يوسف، آية: ١٠٨.

(٢) مراعاة أحوال المخاطبين، د. فضل إلهي ص ٣٢.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٧٩/٣.

وهذا يكون عن طريق التواضع)[١].

ولقد كانت حياة رسول الله ﷺ مثالاً حياً وتطبيقاً فعلياً لخلق التواضع، والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصر، منها ما روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: ((كانت ناقةٌ لرسول اللّه ﷺ تسمى العَضْباء، وكانت لا تُسبَق، فجاء أعرابيٌّ على قَعودٍ له فسبَقها، فاشتد ذلك على المسلمينَ وقالوا: سُبِقتِ العَضباءُ، فقال رسول اللّه ﷺ: «إن حقّاً على اللّهِ أن لا يَرفَعَ شيئاً من الدنيا إلا وَضَعَه»))[٢].

قال ابن حجر: (فيه إشارة إلى الحث على عدم الترفع والحث على التواضع والإعلام بأن أمور الدنيا ناقصة غير كاملة، قال ابن بطال: فيه هوان الدنيا والتنبيه على ترك المباهاة والمفاخرة، وأن كل شيء هان على الله فهو في مَحَلِّ الضعة فحق على كل ذي عقل أن يزهد فيه، ويقلل منافسته في طلبه، وقال ابن حجر: فيه أيضاً حسن خلق النبي ﷺ وتواضعه لكونه رضي أن أعرابياً يسابقه)[٣].

إن التواضع يمكّن الدعاة من جميع الأتباع ويحببهم إلى الناس فيستمعون إليهم ويتأثرون بهم، ويتأسون بأفعالهم، ويجب أن يكون التواضع مع جميع الناس مع الكبير والصغير، والرئيس والمرؤوس، والغني والفقير، والضعيف والقوي، ومع العالم والجاهل، وكل أصناف المجتمع.

فمن التواضع: طيب الحديث، والتبسم في وجه الناس، والرفق بهم وعدم مؤاخذتهم بزلاتهم، وتهدئة روعهم إذا فزعوا[٤].

وبالجملة فإن التواضع يجعل الداعية محبوباً في قومه وبيئته ذا أثر فعال بينهم، وقوامه عليهم صفة التواضع وخفض الجناح، فالكبر يشكل جداراً وحاجزاً بين الداعية والناس، بل ويجعل الداعية معزولاً عن مجتمعه غير مألوف ممن حوله[٥].

---

(١) قواعد الدعوة الإسلامية، د. الشريف حمدان راجح المهدي الهجاري ص ٣٧٧.

(٢) أخرجه البخاري ٦٥٠١.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٤٩/١١.

(٤) انظر: أسس الدعوة وآداب الدعاء، محمد السيد الوكيل ص ٨١ - ٨٢.

(٥) صفات الداعية، د. حمد بن ناصر العمار ص ٦٠.

رابعاً- من أساليب الدعوة: الحوار:

يتضح هذا الأسلوب فيما وقع بين النبي ﷺ، وتلك المرأة الثكلى من حوار "فقال اتقي الله واصبري، فقالت: إليكَ عني فإنك لم تصب بمصيبتي، لم تعرفه... فقالت: لم أعرفك، فقال إنما الصبر عند الصدمة الأولى" والحوار فن وأسلوب من أساليب الحديث المشوقة للنفس، وفي مجال الحوار يحسن التأدب والمجاملة والرقة وحسن الخلق مع المحاور معه وعدم الخوض في الفروع التي لا توصل إلى نتيجة[1].

إن الغاية من الحوار في الدعوة هي هداية الناس والحرصُ على إصلاحهم فالحوار ينبغي أن لا يتجه إلى مجرد الإفحام والإلزام، بل يتجه في الكثير الغالب إلى إرشاد الناس والأخذ بأيديهم إلى الحق وتوجيه النظر إلى الحقائق[2].

وقد ذكر لنا القرآن الآداب التي ينبغي مراعاتها في الحوار، ومنها:

أ- العلم، فقد ذم الله عز وجل أهل الكتاب في مجادلتهم في إبراهيم عليه السلام، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۝٦٥ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾[3].

ب- استخدام الأسلوب الحسن في الحوار، قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾[4].

ففي هذه الآية "أمر الله بالمجادلة بالتي هي أحسن، ومن تأمل الطرق التي نصب

---

(١) الدعوة الإسلامية الوسائل والأساليب، محمد خير رمضان يوسف ص ١١٣.

(٢) المعجزة الكبرى "القرآن"، محمد أبو زهرة ص ٢٦٧.

(٣) سورة آل عمران، الآيتان: ٦٥ - ٦٦.

(٤) سورة العنكبوت، آية: ٤٦.

الله المحاجة بها مع المبطلين على أيدي رسله رآها أوضح من الحجج وأقوى منها، وأقومها وأدلها على إحقاق الحق وإزهاق الباطل، على وجه لا تشويش فيه، ولا إزعاج"[1].

ج- الإنصاف، قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[2].

قال أبو السعود: "انظر إلى ما روعي في هذه القصة من المبالغة في الإرشاد، وحسن التدرج في المحاجة حيث بيّن أولاً أحوال عيسى عليه السلام، وما توارد عليه من الأطوار المنافية للإلهية، ثم ذكر كيفية دعوته الناس إلى التوحيد والإسلام، فلما ظهر عنادهم دُعوا إلى المباهلة بنوعٍ من الإعجاز ثم لما أعرضوا عنها، وانقادوا بعض الانقياد دُعوا إلى ما اتفق عليه عيسى عليه السلام والإنجيل وسائرُ الأنبياء عليهم السلام والكُتب، ثم لما ظهر عدم إجدائه أيضاً أمر بأن يقال لهم: اشهدوا بأنا مسلمون"[3].

د- تنوع الإقناع: تختلف مدارك الناس في عملية إقناعهم، فالبعض قد يصعب إقناعه بسهولة "وهؤلاء لا بد لهم من طريق جدلية تزيل ما لبس الحق عليهم، ويتخذ بها قوة مما يعتقدون، إذ يلزمهم بما عندهم ويفحصهم بما بين أيديهم، ويتخذ ما يعرفون

---

(١) القواعد الحسان لتفسير القرآن، عبدالرحمن السعدي ص ٤٤.

(٢) سورة آل عمران، الآيات: ٦٤ - ٦٨.

(٣) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، محمد بن محمد أبو السعود ٢/٤٧ - ٤٨.

وسيلة لإلزامهم بما يرفضون"[١].

خامساً- من صفات المدعو: التأدب بأدب الإسلام:

ظهر هذا الأدب في قول المرأة معتذرة لرسول الله ﷺ "لم أعرفك" قال النووي: فيه الاعتذار إلى أهل الفضل إذا أساء الإنسان أدبه معهم[٢] فالأدب ومنه الاعتذار، من مكارم الأخلاق، وهو زينة الإنسان؛ لذا كان من الواجب على الداعي والمدعو على حد سواء التأدب بمكارم الأخلاق، فما أحوج المرء إليها قال ابن المقفع: ما نحن إلى ما نتقوى به على حواسنا من المطعم والمشرب بأحوج منا إلى الأدب، الذي هو لقاح عقولنا، فإن الحبة المدفونة في الثرى لا تقدر أن تطلع زهرتها ونضارتها إلا بالماء الذي يعود إليها من مستودعها، وحكى الأصمعى أن أعرابياً قال لابنه: يا بني: الأدب دعامة أَيَّد الله بها الألباب، وحلية زين الله بها عواطل الأحساب، فالعاقل لا يستغني وإن صحت غريزته من الأدب المخرج زهرته، كما لا تستغني الأرض وإن طابت تربتها عن الماء المخرج ثمرتها، وقال بعض البلغاء: الفضل بالعقل والأدب لا بالأصل والحسب؛ لأن من ساء أدبه، ضاع نسبه، ومن قل عقله ضل أصله[٣].

---

(١) المعجزة الكبرى "القرآن"، محمد أبو زهرة ص ٢٦٧.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٥٩٨.

(٣) أدب الدنيا والدين، لأبي الحسن الماوردي ص ٢٢٦، ٢٢٧.

الحديث رقم (٣٢)

٣٢- وَعَنْ أبي هَرَيرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ قالَ: «**يَقولُ اللَّهُ تَعَالَى: مَا لِعَبْدِي الْمُؤْمِنِ عِنْدِي جَزَاءٌ إِذَا قَبضْتُ صَفِيَّهُ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا ثُمَّ احْتَسَبَهُ إِلاَّ الجَنَّةُ**» رواه البخاري[1].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

صفيّه: الصفيُّ: الحبيب المصافي المخلص الودَّ، كالولد والأخ وكل من يحبه الإنسان[2].

احتسبه: صبر على فقده راجياً الأجر من الله على ذلك[3].

الشرح الأدبي

إننا نقتبس من هذا الحديث الشريف هالات من المعاني التي تشع بكثير من طاقات الإيمان، وإشعاعات اليقين، وهذا الحديث يصطبغ بصبغة خاصة وهو أنه حديث قدسي، وشاهد ذلك أن مقدمة الحديث تقول: يقول الله تعالى: وقال ابن حجر: لابد من بيان الفرق بين الوحي المتلو وهو القرآن، والوحي المروي عنه ﷺ، عن ربه عز وجل، وهو ما ورد من الأحاديث الإلهية ، وتسمى القدسية، وهى أكثر من مائة.

وقد حدد بعض العلماء الفروق بين القرآن والحديث القدسي في ستة أوجه ومنها: أن القرآن معجز والحديث القدسي ليس معجزاً، وأن الصلاة لا تكون إلا بالقرآن بخلاف الحديث القدسي، وأن القرآن يجب أن يكون لفظه من الله تعالى، بخلاف الحديث القدسي فيجوز أن يكون اللفظ من النبي ﷺ.

---

(١) برقم (٦٤٢٤).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ص ف و)، وفتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١١/٢٤٧.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١١/٢٤٧.

والحديث القدسي يلتقي مع الحديث النبوي في أن كليهما لفظه من رسول الله ﷺ مفردات وتراكيب وأساليب وصيغاً وصوراً جمالية، ولكن الحديث القدسي يحكيه النبي حكاية عن الله تعالى، ويسند مضمونه إليه، أما الحديث النبوي فمن كلام النبي ﷺ نفسه[1].

وحين نتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث الشريف.. نجد أنه يتسم بسمة أسلوبية خاصة وهي أنه يتكون في صيغته اللغوية من جملة واحدة ، بحيث لا نستطيع أن نتوقف عند كلمة في الحديث إلا بعد الانتهاء منه فالمعنى لا يتم إلا بنطق آخر كلمة وهي "الجنة" فالحديث كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا، وقد صيغ في أسلوب القصر عن طريق النفي "ما" والاستثناء "إلا"، والألفاظ التي تتحصن داخل هذا السور اللغوي المحكم تشع بهالات إيمانية وظلال روحانية، ووعود إلهية. وما أعظم الوعد الإلهي الذي ينتهي بصاحبه الموعود إلى الجنة، ولنتأمل السر وراء اختيار هذه الكلمة "لعبدي" بما توحيه من إقرار العبد بعبوديته لله عز وجل وإضافة العبد إلى ياء المتكلم تفيد التشريف والتكليف، لأن المتكلم هو رب العالمين، وإضافة العبد إليه فيه إيماء بأن الله يحمي عبده وينصره ويواسيه في مصائبه، وحين يوصف هذا العبد بالمؤمن فإن هذا الوصف يثبت إضافة العبودية لله عز وجل؛ لأن كل الخلائق عبيد الله، ومنهم الصالحون والطالحون، ولكن الذي يستحق كرم الله هو "العبد المؤمن" ولفظ "عندي" يؤكد حماية الله لعبده، والعندية هنا عندية شرف لا عندية مكان، فالله يتعالى ويتنزه عن المكان والزمان، ولفظ "جزاء" صيغ في قالب النكرة لإفادة العموم والشمول وهو أعظم من أن يحدد إلا إذا كان هذا الجزاء هو "الجنة"، وأسلوب الشرط في قوله عز وجل "إذا قبضت صفيه" يفيد تحقق الشرط لأن إذا أداة شرط تفيد وقوع الحدث، وحذف الجواب يفتح المجال لكثير من التأويلات وفي مقدمتها العلم به وهو الرضا والصبر والاحتساب، وكأن هذه الصفة الإيمانية كالضوء الباهر الذي لا تحجبه

---

(١) انظر: الأحاديث القدسية ١/٤ – ٧.

الغيوم ولا كتل الظلام والأحزان، و"صفيه"، لفظ مشع بكل طاقات الود، ومواثيق الأخوة، وتحديد هذا اللفظ وعدم العدول عنه إلى لفظ الأخ أو الصديق أو الحبيب أو الابن لأن لفظ "صفيه" يجمع كل هذه الصفات المعنوية والحسية؛ ولفظ الجنة يجيء في ختام الحديث الشريف ليبشر كل محتسب صابر راض بقضاء الله وقدره، مهما كان حجم المصيبة، ومهما كانت صلته بمن قبضه الله إليه، قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾[1].

المضامين الدعوية

أولاً: من مصادر الدعوة: الحديث القدسي.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: فضل الصبر والاحتساب.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: بيان فضل الله على عباده.

أولاً- من مصادر الدعوة: الحديث القدسي:

يعد الحديث القدسي من مصادر الدعوة التي يفيد منها الداعية في دعوته، وما من شك أن نجاح الدعوة يعتمد اعتماداً كلياً على مصادر الدعوة والتي منها الحديث القدسي، والحديث القدسي هو الذي يرويه النبي ﷺ عن ربه، (وهو ما كان معناه من الله ولفظه من عند الله أو من عند النبي ﷺ ولا يتعبد به بخلاف القرآن لفظه ومعناه عن الله تعالى ويتعبد بتلاوته)[2]؛ ومن الأحاديث القدسية ما ورد فيما روي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: يقول الله تعالى: ((ما لعبدي المؤمن عندي جَزاءٌ إذا قَبَضتُ صفيَّه مِن أهلِ الدنيا ثمَّ احتَسَبه إلا الجنّة)).

---

(١) سورة البقرة : ١٥٥-١٥٧.

(٢) تيسير مصطلح الحديث، د. محمود الطحان ص ١٢٧.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: فضل الصبر والاحتساب:

لقد أرشد الإسلام إلى التحلي بفضيلة خُلق الصبر عند المصائب، وعند كل ما يجلب الآلام ويورث المتاعب والأكدار.

ووجّه الإسلام المؤمنين إلى الرضى بقضاء الله وقدره في كل ما ينجزه القضاء والقدر من أمره، وأبان للمؤمنين أن حكمة الابتلاء في ظروف الحياة الدنيا قد تقضي بأن يكون الابتلاء بالمكاره والمؤلمات، وأنّ ما يأتي به القضاء والقدر مما لا كسب للإنسان فيه ولا مسؤولية عليه به هو خير في حقيقة أمره، وإن كان ظاهره مكروهاً وموجعاً، وإن كان في عرف الناس مصيبة من المصائب؛ وأبان للمؤمنين أنه ما يصيبهم من حسنة فمن فضل الله وواسع رحمته وجوده، وما يصيبهم من سيئة فبسبب من أنفسهم.

ووعد الإسلام الصابرين بالأجر العظيم، والثواب الجزيل، إذا صبروا رضىً بقضاء الله، وطاعة له، وابتغاء مرضاته.

وجاء في الحديث بيان فضل الصبر وأنه لا جزاء له عند الله إلا الجنة ويظهر ذلك من قول الله في الحديث القدسي "ما لعبدي المؤمن عندي جزاءٌ إذا قبضت صفيه من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنة".

قال أبو الحسن الماوردي: اعلم أن من حسن التوفيق، وأمارات السعادة، الصبر على الملمّات، والرفق عند النوازل، وبه نزل الكتاب وجاءت السنة، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[1]،[2] وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ فإن الصابرين بأنفسهم على طاعة الله والتكاليف المنوطة بهم والتقوى ومجاهدة النفس ونهيها عن الهوى وتزكيتها ومحاسبتها ومراقبتها عند الابتلاءات جزاؤهم أن يوفى لهم أجورهم بغير حساب، وقد أطلق الله

---

(١) سورة آل عمران، آية: ٢٠٠.

(٢) أدب الدنيا والدين، أبو الحسن الماوردي ص ٢٧٦.

البشرى لأهل الصبر على الابتلاء بمصائب الحياة ومصاعبها بأن جزاءهم على صبرهم هو الحصول على صلواتٍ من ربهم ورحمة وهداية إلى الصراط المستقيم بإذن الله[1]، كقوله تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾[2].

فدلّ هذا النص على المصائب المؤلمة في الأنفس، أو في الأجسام، أو في الأموال، أو في الثمرات قد تكون نوعاً من الامتحان في ظروف الحياة الدنيا، لقول الله تعالى "ولنبلونكم" والابتلاء هو الامتحان.

وقد أرشد هذا النص إلى التحلي بفضيلة الصبر في مجال الإصابة بالمصائب المختلفة، والتي منها مصائب الخوف، ومصائب الجوع، ومصائب النقص من الأموال، ومصائب النقص من الأنفس، ومصائب النقص من الثمرات.

وأبان النص أن من آداب الصابرين على المصائب التي تأتيهم من عند الله لابتلائهم، وامتحان إيمانهم، واختبار تسليمهم ورضاهم بما يجري به قضاء الله وقدره، أن يقولوا: إنا لله وإنا إليه راجعون، معلنين بهذا أنّ كل شيء هو مملوك لله، وأنه إلى الله يرجع.

واشتمل النص على البشارة من الله للصابرين، إذ يقول تبارك وتعالى فيه: "وبشر الصابرين"؛ وهذه البشارة قد جاءت بأمرين محبوبين عظيمين:

الأمر الأول: أنّ عليهم صلوات من ربّهم.

الأمر الثاني: أنّ عليهم من ربهم رحمة.

وقد استحقوا البشارة بهذا الجزاء الكريم لأنهم هم المهتدون إلى سبيل سعادتهم، وهم السالكون في الطريق القويم.

إنهم لما صبروا ابتغاء مرضاة الله استحقوا أنواعاً من رحمة الله وغفرانه، ومن أجل

---

(١) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، الفيروز آبادي، ٣/٣٧٥.

(٢) سورة البقرة، الآيات: ١٥٥-١٥٧.

ذلك كان عليهم صلوات من ربهم، ولما أعلنوا رضاهم عن الله، وتسليمهم لما تجري به مقاديره، بقولهم: إنا لله وإنا إليه راجعون، استحقوا نوعاً آخر خاصّاً من رحمة الله، مضافاً إلى أنواع الرحمات السابقات التي استحقوها بالصبر.

ومن هذا ندرك: أن رحمة الله أنواع كثيرة، وقد أشارت الآية إلى هذه الأنواع بعطف الرحمة على الصلوات من الله، مع أن الصلوات من الله هي أيضاً رحمات منه[١].

ووَصَفَ الرسول ﷺ الصبر بالضياء، فعن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ ((الطُّهُورُ شَطْرُ الإيمَانِ ... وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ، وَالْقُرآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ، كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو. فَبَائِعٌ نَفْسَهُ، فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا))[٢].

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: بيان فضل الله على عباده:

إن فضل الله على عباده عظيم لا يُبْلغ منتهاه ولا يمكن لإنسان أن يحصي فضل الله عليه، ومن مظاهر ذلك الفضل أن الله لا يبتلي إنساناً بشيء إلا عوضه خيراً منه وكما جاء في الحديث "يقول الله تعالى: ما لعبدي المؤمن عند جزاءٌ إذا قبضت صفيه من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنة".

قال ابن حجر: (والمراد بـ "احتسبه" أي: صبر على فقده راجياً الأجر من الله تعالى)[٣].

قال ابن عثيمين: (والصفي: من يصطفيه الإنسان ويختاره من ولد وأخ، أو عم أو أب أو أم أو صديق، المهم أن مَنْ يصطفيه الإنسان ويختاره ويرى أنه ذو صلة منه قوية، إذا أخذه الله عز وجل ثم احتسبه الإنسان فليس له جزاءٌ إلا الجنة، وفي ذلك دليل على فضل الله تعالى وكرمه على عباده، فإن الملك ملكه، والأمر أمره، وأنت وصفيك كلاكما لله عز وجل ومع ذلك إذا قبض الله صفي الإنسان واحتسب فإن له هذا الجزاء العظيم)[٤].

---

(١) الوجيزة في الأخلاق الإسلامية، عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني ص ٣٨١ - ٣٨٣.

(٢) أخرجه مسلم ٢٢٣.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١١/٢٤٧.

(٤) شرح رياض الصالحين ٩٣.

فإن العبد إذا سلم أمره ورضي بحكمه وصبر على ما يصيبه كان ثوابه جزيلاً، فمن مات له حبيب أو قريب فصبر ورضي بحكم الله وقاوم الجزع والهلع عند الصدمة الأولى كان جزاؤه الجنة، لأنه تحكم في عواطفه وسيطر على سلوكه ومشاعره، وما ذلك إلا بتأثير الإيمان.

ويؤخذ من هذا الحديث: فضل الصبر وأنه دليل على كمال العبودية وأن جزاءه الجنة.

وفيه: أن الصبر على الأحبة والأخلاء والأصفياء دليل على حصول ملكة الصبر[1].

---

(١) شرح رياض الصالحين، د. الحسيني هاشم ص ٥٧.

الحديث رقم (٣٣)

٣٣- وعَنْ عائشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنهَا سَأَلَتْ رسولَ اللَّه ﷺ عَن الطَّاعونِ، فَأَخبَرَهَا[١] أنَهُ كَانَ عَذَاباً يَبْعَثُهُ اللَّه تعالى عَلَى منْ يَشَاءُ، فَجَعَلَهُ اللَّهُ تعالَى رحْمةً للْمُؤْمنِينَ، فَلَيْسَ مِنْ عَبْدٍ يَقَعُ فِي الطَّاعُون فيَمْكُثُ فِي بلَدِهِ صَابِراً مُحْتَسِباً يَعْلَمُ أَنَّهُ لاَ يُصيبُهُ[٢] إلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ إلاَّ كَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ الشَّهِيدِ» رواه البخاري[٣].

ترجمة الراوي:

أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (٢).

غريب الألفاظ:

الطاعون: مرض وَرَمِيّ وبائيّ[٤].

محتسباً: أي غير منزعج ولا قلقاً بل مسلماً لأمر الله راضياً بقضائه راجياً الأجر منه[٥].

الشرح الأدبي

إن النبي محمداً ﷺ هو طبيب الإنسانية: عقلاً وجسداً وروحاً، وإن البيان النبوي يتضمن إرشادات طبية تعالج الأمراض الجسمية والعقلية والروحية، والطب النبوي شاهد على ذلك، ولا تقتصر أحاديثه -ﷺ- الطبية على فرع من الطب دون غيره، بل إنه تحدث في فروع الطب المتعددة ومنها الطب الوقائي، والطب العلاجي، والطب النفسي، وأصول علم الصحة، وعلم الوراثة.

وهذا الحديث الشريف يعد وثيقة طبية نفسية اجتماعية في إطار العقيدة

---

(١) عند البخاري زيادة: (نبي الله ﷺ).

(٢) عند البخاري: (لن يصيبه).

(٣) برقم (٥٧٣٤).

(٤) الوسيط في (ط ع ن).

(٥) انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٠/٢٠٤.

الصحيحة، والتسليم بالقضاء والقدر، والصبر والاحتساب؛ والحديث ورد في صيغة السؤال والجواب، والسؤال يرد من الصدِّيقة بنت الصديق، وأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، والمجيب هو خير مجيب، وهو الذي أُعطي جوامع الكلم، وهو الذي لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى؛ والمسؤول عنه هو مرض الطاعون. والطاعون كما يقول العلماء هو: بثر مؤلم يخرج غالباً في الآباط مع لهب واسوداد حواليه، وخفقان القلب والقيء. وإجابة الرسول صلى الله عليه وسلم لم تكن توصيفاً لحقيقة مرضى الطاعون توصيفاً طبياً، ولا تشخيصاً لأعراضه، وإنما جاءت إجابته عليه السلام تشخيصاً لأثر الطاعون وأسبابه ونتائجه، وقال: "كان عذاباً يبعثه الله تعالى على من يشاء"، وهذه إشارة إلى جانب من جوانب آثار الطاعون ومسبباته، فهو من مظاهر عذاب الله للأمم السابقة، ولكنه تتغير صورته وتتغير آثاره مع المؤمنين، حيث جعله الله تعالى رحمة للمؤمنين، ولنتأمل المقابلة بين هذين الموقفين المتضادين، كيف يكون الشيء الواحد عذاباً ورحمة؟ عذاباً لقوم ورحمة لآخرين!! ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يترك للظن والوهم مساحة في تفكير الإنسان ووجدانه: فيقول: "فليس من عبد يقع في الطاعون فيمكث في بلده صابراً محتسباً يعلم أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له، إلا كان له مثل أجر الشهيد".

فالرحمة تتمثل في ثواب الله لهؤلاء الذين صبروا واحتسبوا ولم يصبهم إلا ما كتب الله لهم.

وعدم الخروج من البلد التي أصابها الطاعون يُعد من الطب الوقائي وله مظاهر كثيرة ومنها تحريم الخمر، وعدم الإفراط في الأكل والشرب، ومن مظاهر الطب الوقائي: "الحجر الصحي"، ومكوث مرض الطاعون في المنطقة المصابة من دلائل "الحجر الصحي"، حتى لا يصاب غيرهم، ويقول صلى الله عليه وسلم مؤكداً هذا المعنى: ((إذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوها، وإذا وقع بأرض وأنتم فيها فلا تخرجوا منها))[1]، ويقول: ((فر من المجذوم فرارك من الأسد))[2]؛ وقوله: "فليس من عبد" يدل على

---

(١) أخرجه البخاري ٥٧٢٨، ومسلم ٢٢١٨.

(٢) أخرجه البخاري ٥٧٠٧.

استقصاء كل أصناف الناس وخاصة المؤمنين وحرف الجر: "من"، قبل: "عبد" ، يدل على هذا الاستقصاء ؛ والتعبير بقوله: "يقع في الطاعون"، والتعبير "بفي"، يجعل الطاعون كأنه لجة يغرق فيها المريض، والمكث جاء في صيغة المضارع ليوحي بالاستمرار في المكوث، ولا يخرج حفاظاً على الباقين من انتشار مرض الطاعون، والصبر والاحتساب في موقع الحال الدائمة، إيحاء بعدم اليأس، وعدم القنوط من رحمة الله، وهو مؤمن بالقضاء والقدر، وبما كتب الله له ، ومن كان هذا مسلكه في مواجهة المرض، وكان حريصاً على عدم انتشار هذا المرض بين الآخرين جعل الله له أجراً مثل أجر الشهيد، وما أعظمه من أجر وما أكرمه من جزاء يعطيه الله لمن يشاء.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكم من مرض بمرض مُعدٍ كالطاعون وغيره وهل يجوز له الفرار منه أم يمكث في بلد الإصابة صابراً حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً ولا يتسبب في الضرر للآخرين؟

وقد ذهب جمهور الفقهاء[1] إلى أنه لا يجوز لمن كان في بلد وقع فيها الطاعون أن يخرج منها فراراً منه للأحاديث الواردة في النهي عن ذلك ومنها هذا الحديث ما لم يكن خروجه للسفر دون الفرار، وكذا لا يجوز لمن هو خارج هذه البلد أن يدخلها طالما سمع بالمرض بها ،ويجوز الخروج من بلد الطاعون والدخول إليها متى كان ذلك للعمل أو كان الغرض غير الفرار.

وأجاز البعض القدوم إلى بلد الطاعون والخروج منها فراراً[2].

---

(١) انظر في ذلك: شرح معاني الآثار للطحاوي ٣٠٣/٤، وأحكام القرآن للجصاص ٦١٥/١، والمنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعد الباجي ١٩٨/٧، وأحكام القرآن لابن العربي ٣٠٤/١، وأنوار البروق ٢٥٨/٤، ومختصر المزني ص٥٩١، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٢٩٢/٥، وإعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن القيم ٣٠١/٤، والآداب الشرعية، حماد بن عبدالله الحماد ٣٧٠/٣.

(٢) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٣٣٢/٢٨.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: السؤال والجواب.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: فضل الابتلاء والصبر عليه.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: أهمية الصبر والاحتساب.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: بيان منزلة اليقين.

أولاً- من أساليب الدعوة: السؤال والجواب:

ورد هذا الأسلوب في هذا الحديث عندما سألت عائشة رضي الله عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الطاعون فأخبرها" ولأسلوب السؤال والجواب دور في لفت أنظار المدعوين وإثارة انتباههم وشد أذهانهم لما يقوله الداعية؛ ولأن السؤال من المدعو دليل على حرصه على الفهم والاستيعاب لكل ما يقوله الداعية أو ما يلتبس على المدعو.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: فضل الابتلاء والصبر عليه:

جاء في الحديث بيان النبي صلى الله عليه وسلم لفضل الابتلاء وما ينطوي عليه من رحمة فأجاب عائشة على سؤالها عن الطاعون "أنه كان عذاباً يبعثه الله تعالى على من يشاء، فجعله الله تعالى رحمة للمؤمنين"؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ((ما يُصيبُ المسلمَ من نَصبٍ ولا وَصَبٍ ولا همّ ولاَحَزَن ولا أذى ولا غَمّ -حتى الشّوكةِ يُشاكها- إلا كفّرَ اللّهُ بها من خَطاياه))[1] والابتلاء من الله خير كله، فعن صهيب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((عَجَباً لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إلاَّ لِلْمُؤْمِنِ، إنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْراً لَهُ. وَإنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ، فَكَانَ خَيْراً لَهُ))[2] إضافة إلى ما في الابتلاء من إظهار حقائق الإيمان من الرضى بقضاء الله وقدره وأن كل ما يحدث في هذه الحياة من خير أو شر، ومن نفع أو ضر، إنما هو بقضاء من الله وتقدير منه فيرضى بحكم الله صابراً محتسباً طمعاً في مرضاة الله عز وجل[3].

---

(١) أخرجه البخاري ٥٦٤١.

(٢) أخرجه مسلم ٢٩٩٩.

(٣) من كنوز السنة النبوية، محمد علي الصابوني ص ١٣٣.

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: أهمية الصبر والاحتساب:

لقد نوّه النبي ﷺ بمكانة الصبر والاحتساب وما يثمر عنها من استحقاق الجنة وبلوغ منزلة الشهداء، فقال في الحديث "فليس من عبد يقع في الطاعون فيمكث في بلده صابراً محتسباً يعلم أن لا يصيبه إلا ما كتب الله له إلا كان له مثل أجر الشهيد" قال ابن عثيمين: (ففيه دليل على فضل الصبر والاحتساب وأن الإنسان إذا صبّر نفسه في الأرض التي نزل فيها الطاعون ثم مات كتب الله له مثل أجر الشهيد[١]).

وقد أمرنا الله تعالى بالصبر وبين أنه من أسباب الفلاح فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[٢] أي: اصبروا على ما تبتلون به فإن ذلك تكفيراً للذنوب ورفعاً للدرجات، وطريقاً للفلاح والفوز العظيم المتمثل في دخول الجنة بعد النجاة من النار[٣].

إن المسلم إذا علم أن الله يمتحنه بالمصائب ليختبر مقدار صبره ورضاه عن ربه، وليكتب له الأجر العظيم عنده، فإنه يجد نفسه مدفوعاً لتحمل المصائب بصبر ورضى عن الله.

وحين يعلم أن الله يثيبه فيكفّر عنه من ذنوبه وخطاياه بالمصائب التي يصيبه بها، فإنه يزداد اندفاعه لتحمل المصائب بصبر ورضى عن الله[٤].

روي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: ((دَخلتُ على رسولِ الله ﷺ وهو يوعَك فقلتُ: يارسولَ الله، إنك توعَكُ وَعْكاً شديداً. قال: أجَل، إني أوعَك كما يوعكُ[٥] رجُلان منكم، قلت: ذلك بأن لك أجرَين، قال: أجَل، ذلكَ كذلك، ما من مُسلم يُصيبُهُ أذىً

---

(١) شرح رياض الصالحين ص ٩٤، ٩٥.

(٢) سورة آل عمران، آية: ٢٠٠.

(٣) انظر: نداءات الرحمن لأهل الإيمان، أبوبكر جابر الجزائري ص ٤٩، ٥٠.

(٤) الوجيزة في الأخلاق الإسلامية وأسسها، حبنكة الميداني ص ٣٨٤.

(٥) يتألم من شدة المرض.

-شَوكةٌ فما فوقها- إلا كفَّرَ الله بها سَيِّئاته، كما تَحُطُّ الشجرة وَرقَها))[١].

رابعاً- من موضوعات الدعوة: بيان منزلة اليقين:

لقد رتب الله عز وجل على اليقين من عظيم الأجر وجزيل المثوبة ما يدل على أهمية قوة اليقين، وقد وردت الإشارة إليه في الحديث في قوله ﷺ "يعلم أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له" فاليقين من أسباب الإمامة في الدين ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾[٢] وقد خص الله أهل اليقين بالهدى والفلاح من بين العالمين فقال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[٣].

واليقين من الإيمان بمنزلة الروح من الجسد، وبه تفاضل العارفون، وتنافس المتنافسون، ومتى وصل اليقين إلى القلب امتلأ نوراً وإشراقاً، وانتفى عنه كل ريب وشك وسخط، وهم وغم، فامتلأ محبة لله، وخوفاً منه، ورضى به، وشكراً له، وتوكلاً عليه، وإنابة إليه[٤].

كما أن اليقين يورث الإنسان الزهد فيما عند الناس، ويكسب صاحبه العزة والرفعة ويباعده عن مواطن الذلة والضَّعة، وبالجملة فإن المسلم لا يدرك مناه في الآخرة إلا إذا كان متصفاً بصفة اليقين[٥].

إن الإيمان المجمل الذي هو قول القلب وعمل القلب، لا يتحقق إلا بهذا اليقين. فمن شك في الله أو في رسوله ﷺ وما جاء به من عند الله فهو كافر لا شهادة له ولا إيمان له.

---

(١) أخرجه البخاري ٥٦٦٧، ومسلم ٢٥٧١.

(٢) سورة السجدة، آية: ٢٤.

(٣) سورة البقرة، الآيتان: ٤، ٥.

(٤) انظر: مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٢/٢٢٠، ٢٢١.

(٥) انظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد ٨/٢٧٣٠.

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾[١].

فاشترط في صدق إيمانهم بالله ورسوله ﷺ كونهم لم يرتابوا أي لم يشكوا، والشك ينافي اليقين والمرتاب من المنافقين الذي قال الله فيهم: ﴿ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾[٢].

وبذلك أخبر الله تعالى عن الكفار حين قالوا لرسلهم: ﴿ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ۝ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[٣].

وأخبر سبحانه أنهم إذا طلب منهم الإيمان بالبعث قالوا: ﴿ مَّا نَدْرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾[٤].

ولكن إذا كان يوم القيامة يقولون: ﴿ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾[٥].

ولهذا جاء وصف القرآن أكثر من مرة بأنه لا ريب فيه، وعن معاذ رضي الله عنه أنه قال حين حضرته الوفاة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((من شهد أن لا إله إلا الله مخلصاً من قلبه أو يقيناً من قلبه، لم يدخل النار))[٦].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه في قصة تبوك أن النبي ﷺ قال: ((أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله،

---

(١) سورة الحجرات، آية: ١٥.

(٢) سورة التوبة، آية: ٤٥.

(٣) سورة إبراهيم، الآيتان: ٩ – ١٠.

(٤) سورة الجاثية، آية: ٣٢.

(٥) سورة السجدة، آية: ١٢.

(٦) أخرجه أحمد ٥/٢٣٦، ٢٢٠٦٠، وقال محققو المسند: صحيح ٣٦/٣٨٢.

وَأَنِّي رَسُولُ اللّهِ، لاَ يَلْقَى الله بِهِمَا عَبْدٌ، غَيْرَ شَاكٍ، إلا دخل الْجَنَّةِ))، وفي رواية: ((لاَ يَلْقَى الله بِهِمَا عَبْدٌ، غَيْرَ شَاكٍ، فَيُحْجَبَ عَنِ الْجَنَّةِ))(١).

وعنه في حديث آخر أن النبي ﷺ قال له: ((اذْهَبْ بِنَعْلَيَّ هَاتَيْنِ، فَمَنْ لَقِيتَ مِنْ وَرَاء هذَا الْحَائِطِ(٢) يَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلهَ إِلاَّ اللّهُ، مُسْتَيْقِنا بِهَا قَلْبُهُ. فَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ))(٣).

قال النووي في شرحه لهذا الحديث: "معناه: أخبرهم أن من كانت هذه صفته فهو من أهل الجنة، وإلا فأبو هريرة لا يعلم استيقان قلوبهم... وذكر القلب هنا للتأكيد... وإلا فالاستيقان لا يكون إلا بالقلب"(٤).

وهذا اليقين - بهذا المعنى- هو حقيقة العلم بأن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ﷺ.

قال الحسن البصري: "ما طُلِبت الجنة إلا باليقين، ولا هُرِب من النار إلا باليقين، ولا أُديت الفرائض إلا باليقين، ولا صبر على الحق إلا باليقين".

وقال سفيان الثوري: "لو أن اليقين وقع في القلب كما ينبغي لطارت القلوب اشتياقاً إلى الجنة، وخوفاً من النار"(٥).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قلما كان رسول الله ﷺ يقوم من مجلس حتى يدعو بهؤلاء الكلمات لأصحابه: ((اللَّهُمَّ اقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا يَحُولُ بَيْنَنَا وبَيْنَ مَعَاصِيكَ ومِنْ طَاعَتِكَ مَا تُبَلِّغُنَا بِهِ جَنَّتَكَ. ومِنَ اليَقينِ مَا تُهَوِّنُ بِهِ عَلَيْنَا مُصِيبَاتِ الدُّنْيَا...)) الحديث(٦).

وعن شداد بن أوس رضي الله عنه عن النبي ﷺ: ((سيدُ الاستغفارِ أن تقولَ: اللهمَّ أنتَ ربِّي

---

(١) أخرجه مسلم ٤٤، ٤٥.

(٢) الحائط: حديقة لها سور.

(٣) أخرجه مسلم ٥٢.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٢٣٧.

(٥) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني في صحيح البخاري، ابن رجب الحنبلي، ١٤/١ - ١٥.

(٦) أخرجه الترمذي ٣٥٠٢، وحسنه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٧٨٣).

لاإلهَ إلا أنت، خلَقتني وأنا عبدُك، وأنا على عهدِكَ ووَعدِكَ ما استطعتُ، أعوذُ بك من شر مَا صنعتُ، أبُوءُ لك بنعمتكَ عليَّ، وأبُوءُ لك بذنبي، فاغفِرْ لي، فإنه لايَغفرُ الذنوبَ إلا أنت. قال: ومن قالها من النهارِ مُوقِناً بها فماتَ من يومِهِ قبل أن يمسي فهو من أهلِ الجَنة، ومن قالها من الليلِ وهو موقِنٌ بها فماتَ قبلَ أن يصبحَ فهو من أهل الجنة))[1].

وهذا الإيمان الذي لا شك فيه هو الذي يوصل صاحبه إلى درجة اليقين، الذي هو الإيمان كله[2].

---

(١) أخرجه البخاري ١١/٨٣، ٨٤.

(٢) انظر: أعمال القلوب، د. سهل العتيبي، ١/٢٥٣ - ٢٥٩.

الحديث رقم (٣٤)

٣٤- وعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ رسول اللّه ﷺ يقولُ: «**إنَّ اللّه عَزَّ وجَلَّ قَالَ: إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبدِي بحبيبتَيْهِ فَصبرَ عَوَّضْتُهُ مِنْهُمَا الْجنَّةَ**» يُريدُ عينيْه، رواه البخاريُّ[١].

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك الأنصاري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

ابتُلي بحبيبتيه: عَمِيَتْ عيناه[٢].

الشرح الأدبي

إن نعم الله وآلاءه لا تعد ولا تحصى؛ والإنسان مطالب بالتأمل والتفكر في هذه النعم التي تحيط به من كل جانب، وأن خلق الإنسان على هذه الصورة السوية من أجل النعم، ومن أعظم الآيات الدالة على قدرة الله عز وجل، وقد دعا القرآن الكريم جميع الخلائق إلى النظر والتفكر في مظاهر قدرة الله سبحانه، وفي نعمه الجليلة فقال: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾[٣].

وفي سورة البلد يمن الله على الإنسان ويذكره بنعمة البصر، ونعمة اللسان، ونعمة العقل، حتى لا يظل سادراً في غيه، وحتى يعترف ويقوم بحق هذه النعمة: يقول الله عز وجل: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾[٤].

وفي ضوء ما أنعم الله به على الإنسان من نعم ظاهرة وباطنة ومنها نعمة البصر. نقرأ

---

(١) برقم (٥٦٥٣).

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١١/١٢١.

(٣) سورة الذاريات، الآيات: ٢٠-٢٣.

(٤) سورة البلد، الآيات: ٨-١٠.

ونتأمل هذا الحديث القدسي الجليل الذي يرويه الحبيب المصطفى ﷺ عن ربه عز وجل، ويرويه أنس بن مالك رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ. وجمل الحديث تتكون من ثلاثة أقسام: قسم تفوه به أنس بن مالك رضي الله عنه وهو: "سمعت رسول الله ﷺ"، يقول. ورواية أنس لما سمعه من النبي ﷺ في أمانة وصدق يعد استجابة لرغبة رسول الله ﷺ، في قوله: "نضر الله امرءاً سمع منا شيئاً فبلغه كما سمعه"[(١)].

والفعل "يقول": جاء في قالب المضارع: وهو مع فاعله المحذوف جملة حالية وصاحب الحال هو لفظ النبي ﷺ، وهو في موقع المفعول به للفعل: "سمعت" وقيل أتى بهذا الفعل مضارعاً بعد سمع حكاية للحال الماضية.

وأما القسم الثاني: فهو من قول رسول الله ﷺ، وقد جاء في ثوب التوكيد حيث يقول: "إن الله عز وجل" قال: وهذه الجملة مع التوكيد تجمع بين صفتي العزة والجلال: أي عَزَّ شأنه وجل برهانه، وجمع الرسول بينهما، وهما متقاربان في المعنى. لأن المقام للثناء وكذلك للتمهيد لموضوع الحديث، وهو الجزاء والثواب والتعويض لمن "فقد عينيه" وصبر ولا يقدر على هذا الجزاء وهو الجنة إلا رب العزة والجلال، المتصف بكل كمال، والمتنزه عن كل نقص.

وأما القسم الثالث: فهو النص القدسي: "إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه فصبر عوضته منهما الجنة".

ولنتأمل الصياغة في هذا الحديث الكريم، إنه جملة واحدة شرطية، مكونة من أداة الشرط "إذاً" وفعل الشرط وجواب الشرط، وأداة الشرط "إذا" وهي تدل على الاستقبال والتحقق، حيث قال النحويون: إنها اسم شرط لما يستقبل من الزمان: خافض لشرطه منصوب بجوابه؛ وهي في ضوء هذه الخصوصية الوظيفية تصلح لملايين الحالات في كل زمان ومكان وفعل الشرط هو "الابتلاء"، والمبتلي هو الله وابتلاؤه رحمة، والمبتلى هو العبد الصابر وقد نسبه الرحمن عز وجل إليه فقال: "عبدي" وأي مقام

---

(١) أخرجه الترمذي، ٢٦٥٧، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢١٤٠).

أشرف وأجل من هذا المقام، فالابتلاء هنا اختبار وليس انتقاماً، ولنتأمل ما وراء هذا التعبير عن العينين بلفظ "حبيبتيه"،قيل لأنهما أحب أعضاء الإنسان إليه، وقيل: إن فاقد العينين، حبيس، فالدنيا سجنه، وهو محروم من مشاهدة آيات الله في الكون، وزينة الحياة الدنيا.

وقد عطف الفعل "صبر" على فعل "الابتلاء" بالفاء إشارة إلى أن ذلك المبتلى لم ييأس ولم يفقد الصبر، ولم تمر به حالة من الانهيار، ولكنه رضي بواقعه وبما قدر له خالق الليل والنهار، ولذلك يجيء جواب الشرط وهو "العوض" مسنداً إلى تاء الفاعل ومن هو: إنه الله الكبير المتعال، صاحب العزة والجلال، وأي عوض وأي مكافأة أعظم وأجل من جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: البشارة.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: الصبر.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: فضل الله وإكرامه للصابرين.

أولاً- من أساليب الدعوة: البشارة:

إن من أهم الأساليب الدعوية الناجحة: أسلوب التبشير برحمة الله وبفضله في الدنيا والآخرة، وقد ورد هذا الأسلوب في الحديث في تبشير الله لمن فقد حبيبتيه بالجنة، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: إن الله قال: "إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه فصبر عوضته منهما الجنة" وأسلوب التبشير من أبرز الأساليب الدعوية التي استعملها النبي صلى الله عليه وسلم، انطلاقاً من تكليف الله تعالى له: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴾[1].

قال ابن رجب الحنبلي في تفسير هاتين الآيتين: "أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم في كتابه أن يذكره ويعظ ويقص، وأن يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة وأن يبشر

---

(١) سورة الأحزاب، آية: ٤٥-٤٦.

وينذر وسماه الله ﴿وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ﴾[(١)] والتبشير هو الترغيب وهو يوجب رقة القلوب، وزهداً في الدنيا ورغبة في الآخرة[(٢)]. إضافة إلى ما تحدثه البشارة من انشراح للصدر وسعادة للقلب وسبب لاستقرار النفس وراحة البال، كما أنها تجلب الطمأنينة وسكون النفس ورفعًا للروح المعنوية، كما أنها تكسب الداعية حب الناس واستئناسهم به[(٣)].

والتبشير من وسائل التحفيز للإنسان لا سيما إذا كان في بداية إسلامه أو هدايته، فلا بد من تيسير الأمور عليه وتبسيطها وعرضها دون تشدد أو تكلف، يرافقها التبشير، حتى تغمر قلبه الفرحة، وتعم نفسه البهجة ولا تشعر بثقل التكاليف والواجبات عليها، وهي ما زالت تنوء بحمل كبير من العادات السيئة التي يجب التخلص منها؛ لأن التشدد وعدم التيسير والتبشير يؤديان إلى ردود أفعال عكسية، ومُنفرة من الإسلام وأهله، تؤدي في النتيجة إلى حفر خنادق عميقة بين المجتمع المراد هدايته وبين المسلمين يصعب الالتقاء عليها، بل تصبح المفاهيم الإسلامية مثار سخرية واستهزاء، ومسوغاً واضحاً للمتصيدين في الماء العكر لمحاربة الإسلام وأهله وإبعاد الناس عنه[(٤)].

ثانياً- من موضوعات الدعوة: الصبر:

إن الصبر فضله عظيم وشأنه كبير، فبه يحصل الثواب وترفع الدرجات[(٥)] وقد ورد في الحديث أجر الصبر على فقد العينين فقال الله في الحديث القدسي "إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه فصبر عوضته منهما الجنة".

ففي الحديث بيان أنه ما من إنسان يقبض الله حبيبتيه -يعني عينيه- فيعمى ثم

---

(١) سورة الأحزاب، آية: ٤٥ - ٤٦.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، ابن رجب الحنبلي ٢/ ٩٠. انظر: لطائف المعارف لمواسم العام من الوظائف، الإمام ابن رجب الحنبلي ص ٤٦.

(٣) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد ٣/ ٨١١.

(٤) منهاج الشاب المسلم في أسرته، د. محسن عبدالحميد ص ١١.

(٥) انظر: أصول التربية الإسلامية، د. خالد بن حامد الحازمي ص ٢٦٥، ٢٦٦.

يصبر إلا عوضه الله بهما الجنة؛ لأن العين محبوبة للإنسان، فإذا أخذهما الله سبحانه وتعالى وصبر الإنسان واحتسب فإن الله يعوضه بهما الجنة.

واعلم أن الله سبحانه وتعالى إذا قبض من الإنسان حاسة من حواسه فإن الغالب أن الله يعوضه في الحواس الأخرى ما يُخفف عليه ألم فقد هذه الحاسة التي فقدها، فالأعمى يمن الله عليه بقوة الإحساس والإدراك، حتى أن بعض الناس إذا كان أعمى تجده في السوق يمشي وكأنه مُبصر، يحس بالمنعطفات في الأسواق، ويحس بالمنحدرات وبالمرتفعات، حتى أن بعضهم يتفق مع صاحب السيارة -سيارة الأجرة- يركب معه من أقصى البلد إلى بيته وهو يقول لصاحب السيارة: تيامن تياسر حتى يوقفه عند بابه؛ لأن صاحب السيارة لا يعرف البيت، والله الموفق[(١)].

قال ابن حجر: والمراد بالصبر: أنه يصبر مستحضراً ما وعد الله به الصابرين من الثواب، لا أن يصبر مجرداً عن ذلك، لأن الأعمال بالنيات، وابتلاء الله عبده في الدنيا ليس من سخطه عليه بل إما لدفع مكروه أو لكفارة ذنوب أو لرفع منزلة، فإذا تلقى ذلك بالرضى تم له المراد[(٢)].

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: فضل الله وإكرامه للصابرين:

من فضل الله على عباده إكرامه للصابرين وإجزال المثوبة لهم قال تعالى ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[(٣)] وقد ورد في الحديث جزاء الله للون من ألوان الصبر وهو الصبر على ما ينزل بالإنسان من الابتلاء، فإن صبر الإنسان عليه طائعاً ينال المثوبة، وإلا احتمل هماً لازماً وصَبَر كارهاً آثماً، قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه للأشعث بن قيس: إنك إن صبرت جرى عليك القلم وأنت مأجور، وإن جزعت جرى عليك القلم وأنت مأزور[(٤)].

---

(١) انظر: شرح رياض الصالحين، محمد بن عثيمين، ١/٩٥.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٠/١٢١.

(٣) سورة الزمر، آية: ١٠.

(٤) انظر: أدب الدنيا والدين، أبو الحسن الماوردي ص ٢٧٧، ٢٧٨.

وقد جاء في الحديث ثواب الصبر على فقد النظر "إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه فصبر عوضته منهما الجنة" والمقصود بالحبيبتين: المحبوبتان (العينان) لأنهم أحب أعضاء الإنسان إليه، لما يحصل له بفقدهما من الأسف على فوات رؤية ما يريد رؤيته من خير فيسر به، أو شر فيجتنبه، وقوله عوضته منهما الجنة (وهذا أعظم العوض؛ لأن الالتذاذ بالبصر يفنى بفناء الدنيا والالتذاذ بالجنة باقٍ ببقائها)[1].

إن العباد دائماً في اختبار وابتلاء، والابتلاء تارة يكون بالمال ليشكروا، وتارة بالمضار ليصبروا، فصارت المحنة والمنحة جميعاً بلاء، فالمحنة مقتضية للصبر والمنحة مقتضية للشكر، والقيام بحقوق الصبر أيسر من القيام بحقوق الشكر، فصارت المنحة أعظم البلاء.

وفي هذا الحديث يخبر النبي ﷺ عن ربه عز وجل أن العبد إذا صبر على العمى وفقد النظر واحتسب ذلك، وتصبّر بما أعد الله له من الثواب على صبره، فلم يتذمر، ولم يشك، ولم تتعقد حياته، أو يكتئب عيشه، إذا كان العبد كذلك عوّضه الله الجنة بصبره على ما قسم الله، وفي ذلك ما فيه من رعاية للمكفوفين وتأنيس لهم وجبر لخواطرهم بما يكون في الآخرة.

ويؤخذ من الحديث: فضل الصبر على كل الأمور، طبيعية ومكتسبة؛ وفيه: أن الجزاء على قدر المشقة والتحمل؛ وفيه: أن الحساب لن يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا اعتبرها؛ وفيه: سعة رحمة الله تعالى وتوجيه الأنظار إلى أن ما يراه الإنسان شراً قد يكون خيراً باعتبار آثاره[2].

---

(١) انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٠/١٢١.

(٢) انظر: شرح رياض الصالحين، د. الحسيني هاشم ص ٥٨.

الحديث رقم (٣٥)

٣٥- وعنْ عطاءِ بْن أَبي رَباحٍ قالَ: قالَ لِي ابْنُ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ألا أريكَ امْرَأَةً مِن أَهْلِ الجنَّة؟ فَقُلت: بلَى، قَالَ: هذِهِ المْرأَةُ السوْداءُ أَتَتِ النبيَّ ﷺ فقالَتْ: إِنِّي أُصْرَعُ، وإِنِّي أَتكَشَّفُ، فَادْعُ اللَّه تعالى لِي قَالَ: «**إِن شئْتِ صَبَرْتِ ولكِ الْجنَّةُ، وإِنْ شِئْتِ دعَوْتُ اللَّه تَعالَى أَنْ يُعافِيَكِ**» فقَالتْ: أَصْبِرُ، فَقالت: إِنِّي أَتَكشَّفُ، فَادْعُ اللَّه أَنْ لا أَتكشَّفَ، فَدَعَا لَهَا. متَّفقٌ عليْهِ[١].

ترجمة الراوي:

عبد الله بن عباس: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١١).

غريب الألفاظ:

أُصْرَع: أُصابُ بنوبات الصرع وهو: علّة في الجهاز العصبي تصحبها غيبوبة وتشنج في العضلات[٢].

أتكشف: أفتضِح بظهور عورتي[٣].

الشرح الأدبي

إن المتأمل في هذا الحديث الشريف. يدرك أن المصطفى ﷺ يخاطب أصحابه، ومن حوله على قدر إدراكهم، وهو يعالج أمراضهم، ويصف لهم الدواء الناجع؛ وما أجدر بالمسلمين أن يعودوا إلى اكتشاف أسرار الطب النبوي لأنه يعالج بعض الأمراض العضوية والأمراض النفسية، ومع يقين المسلم في قيمة الطب النبوي عليه أن يأخذ بالأسباب، وأن يذهب إلى الأطباء إذا كانت العلة تقتضي ذلك، وهذا ما أقرَّ به رسول الله ﷺ، ففي مسند أحمد من حديث زياد بن علاقة عن أسامة بن شريك: أن رسول

---

(١) أخرجه البخاري (٥٦٥٢)، ومسلم (٢٥٧٦/٥٤) ولفظهما سواء. أورده المنذري في ترغيبه (٥٠٠٩).

(٢) الوسيط في (ص ر ع).

(٣) الوسيط في (ك ش ف).

الله ﷺ، قال: "تداووا عباد الله، فإن الله عز وجل لم ينزل داء إلا أنزل معه شفاء إلا الموت والهرم"[1].

وهذا الحديث الشريف يقدم درساً في التسلح بالصبر والإيمان، والتوكل على مَنْ بيده مقاليد السماوات والأرض، والسعي إلى التداوي مع التجمل بالسكينة وعدم التردي في مهاوي اليأس والقنوط.

وصيغة الحوار تغلف أسلوب الحديث، وتشوق القارئ والسامع، ومع هذه الصيغة الحوارية تبرز عدة وسائل تأثيرية أسلوبية تعمق من جماليات الأداء الأسلوبي في الحديث النبوي، والحديث يبدأ بداية قصصية تحكي مشهداً من مشاهد الصبر والإيمان، والاحتساب والإذعان، فابن عباس، حبْر الأمة يقول: لعطاء بن أبي رباح في براعة استهلال مستخدماً "ألا" الافتتاحية وهي أداة عرض وذلك لتنبيه السامع إلى ما بعدها، ولم يشأ أن يأتي بالموضوع في أسلوب خبري تقريري فقال: "ألا أريك امرأة من أهل الجنة" فيجيبه عطاء "بلى"، وتأتي إجابة ابن عباس في صورة حكاية تروي واقع هذه المرأة، فهي في المنظور الدنيوي لا تثير انتباه أحد لأنها امرأة سوداء مصابة بداء الصرع، ولا تعي ولا تدرك حين تأتيها نوبة الصرع شيئاً فينكشف جسمها، فما أشد بلاء هذه المرأة، وما أعظم مصيبتها في نفسها وبدنها، ولكنها لأنها من أهل الجنة تأخذ بالأسباب، ولا تقع فريسة اليأس، ولا تنهزم أمام فتك المرض اللعين، ولا تسلم نفسها لأوهام الشيطان وبراثن الاكتئاب، ولكنها تتوجه إلى رسول الله ﷺ وتعرض عليه مصابها، وتنطق بثلاث جمل تصور واقعها وأملها: فأما تصوير الواقع الأليم فقد شخصته في أسلوب خبري مغلف بالتوكيد إثباتاً للحالة، وبرهاناً على الصدق، فقالت: "إني أصرع"، ثم تكرر التوكيد وتقول "وإني أتكشف" ولنتأمل الفعلين هنا فهما مضارعان يبوحان ويصرحان باستمرار الصرع والتكشف، وبتكرارهما وما أقسى هذا الواقع، وما أشد إيلامه، وما أسوأ آثاره ونتائجه النفسية والعضوية والاجتماعية،

---

(١) أخرجه أحمد ٢٧٨/٤، رقم ١٨٤٥٥، وقال محققو المسند: حديث صحيح.

وصيغة التفعيل في أتكشف توحي بصعوبة ومرارة الإحساس بهذا الواقع ومعايشته.

فيقول لها الحبيب المصطفى ﷺ وهو يعطيها حرية الاختيار والمشيئة "إن شئت صبرت ولك الجنة، وإن شئت دعوت الله تعالى أن يعافيك"، وهذا التخيير جزء من العلاج النفسي: حيث تشعر هذه المرأة المهملة الضعيفة بالثقة والإرادة، وبأن الأمر كله مرده إلى الله، فقالت المرأة في سكينة وثقة: "أصبر!!" ولكنها تمر بحالتين: الصرع والتكشف. والصرع حالة ذاتية، ومرض عضوي نفسي يمكن أن يزول، ويمكن أن يبقى ولا مخرج إلا الصبر، ولكن ماذا تفعل أمام الناس حين يتكشف جسمها، ويظهر منها ما حرم الله النظر إليه من جميع بدنها. ولكنها لا تعي ولا تدرك، وتكون مثاراً للسخرية من الآخرين!!!؟ وهذا أمر يحتاج إلى الستر مع الصبر، ولذلك أعادت المشكلة أمام رسول الله، وطلبت منه الدعاء أن لا تتكشف فدعا لها، فرحمها الله واستجاب لنبيه الكريم ومن عليها بالستر والصبر.

فقه الحديث

في هذا الحديث قد أخبرت المرأة عن أنها تصرع، وهذا من المرض، فهل للمريض أن يتداوى من مرضه؟

إن التداوي مشروع من حيث الجملة، لما روى أسامة بن شريك رضي الله عنه قال: قالت الأعراب: يا رسول الله ألا نتداوى؟ قال: ((نعم يا عباد الله تداوَوْا، فإن الله لم يضع داءً إلا وضع له شفاء أو دواءً إلا داءً واحدًا))[1] فقالوا: يا رسول الله، ما هو؟ قال: ((الهرم))[2].

---

(١) أخرجه الترمذي ٢٠٣٨، وقال حديث حسن صحيح (صحيح سنن الترمذي ١٦٦٠).

(٢) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١١/١١٦-١١٧، وانظر: حاشية ابن عابدين، محمد أمين بن عمر بن عبدالعزيز ٥/٢١٥، ٢٤٩، والهداية تكملة فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، الشوكاني ٨/١٣٤، والفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم المالكي ٢/٤٤٠، وروضة الطالبين وعمدة المفتين، الإمام النووي ٢/٩٦، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي ٢/٧٦، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، المرداوي ٢/٤٦٣، وحاشية الجمل ٢/١٣٤، والآداب الشرعية، حماد بن عبدالله الحماد ٢/٣٥٩ وما بعدها.

وقد ذهب جمهور الفقهاء من "الحنفية والمالكية" إلى أن التداوي مباح، غير أن عبارة المالكية: لا بأس بالتداوي.

وذهب الشافعية والقاضي ابن عقيل وابن الجوزي إلى استحبابه ومحل الاستحباب عند الشافعية عند عدم القطع بإفادته، أما لو قطع بإفادته كعصب محل الفصد، فإنه واجب.

ومذهب الحنابلة، أن تركه أفضل. ونصّ عليه أحمد، قالوا: لأنه أقرب إلى التوكل.

قال ابن القيم: (في الأحاديث الصحيحة الأمر بالتداوي، وأنه لا ينافي التوكل بل لا تتم حقيقة التوحيد إلا بمباشرة الأسباب التي نصبها الله مقتضيات لمسبباتها قدرًا وشرعًا، وأن تعطيلها يقدح في نفس التوكل، كما يقدح في الأمر والحكمة، ويضعفه من حيث يظنّ معطلها أن تركها أقوى في التوكل، فإن تركها عجز ينافي التوكل الذي حقيقته اعتماد القلب على الله في حصول ما ينفع العبد في دينه ودنياه، ودفع ما يضره في دينه ودنياه، ولا بد في هذا الاعتماد من مباشرة الأسباب، وإلا كان معطلاً للحكمة والشرع، فلا يجعل العبد عجزه توكلاً ولا توكله عجزًا)[1].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: السؤال والجواب.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: جزاء الصبر.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: الرغبة في التستر وعدم التكشف.

رابعاً: من صفات المدعو: الرغبة والطمع فيما عند الله تعالى.

خامساً: من مهام الداعية: إعانة المدعوين في حل مشكلاتهم وحثهم على ما ينفعهم.

أولاً- من أساليب الدعوة: السؤال والجواب:

ورد هذا الأسلوب في الحديث فيما دار بين عبدالله بن عباس وعطاء بن أبي رباح رضي الله عنهم من سؤال وجواب "ألا أريك امرأة من أهل الجنة؟ فقلت: بلى" فالسؤال

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن القيم ١٥/٤.

والجواب له أثره في استدعاء لفت نظر السامعين، وإثارة انتباههم وشد أذهانهم ورغبتهم في التعرف على إجابة السؤال المطروح وهذا ما بينه ابن عباس رضي الله عنهما في إجابته للسؤال الذي أثاره من خبر تلك المرأة التي بيّن أنها من أهل الجنة. لذا كان السؤال والجواب من الأساليب المفيدة والناجحة في الدعوة إلى الله.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: جزاء الصبر:

لو عرف الناس جزاء وثواب الصبر لفرحوا بالمصائب: من مرض وهمّ وغير ذلك. فهذه امرأة سوداء صالحة يصيبها الصرع، فتسقط غير شاعرة بشيء، وقد ينكشف بعض جسدها، فسألت الرسول ﷺ أن يدعو لها، فبيّن لها أن زوال المرض منها حرمان لها من نعيم الجنة بالصبر، وعليها أن تختار عافية الدنيا المحدودة، أو سعادة الآخرة اللانهائية، فاختارت الصبر لحسن عاقبته، واكتفت بطلب الستر وعدم كشف شيء من عورتها، أو جسدها، فتحقق لها بحسن اختيارها وجميل تصرفها النجاة والنعيم[1].

ولقد صرح النبي ﷺ في الحديث بأن الصبر عاقبته الجنة "إن شئت صبرت ولك الجنة"، قال ابن عثيمين في شرح الحديث: (قوله: "ألا أريك امرأة من أهل الجنة"، يعرض عليه وذلك لأن أهل الجنة ينقسمون إلى قسمين: قسم نشهد لهم بالجنة بأوصافهم، وقسم نشهد لهم بالجنة بأعيانهم.

أ- أما الذين نشهد لهم بالجنة بأوصافهم فكل مؤمن، تقي فإننا نشهد له أنه من أهل الجنة، كما قال الله سبحانه وتعالى في الجنة: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾[2] وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾[3]، فكل مؤمن متقٍ يعمل الصالحات فإننا نشهد أنه من أهل الجنة.

---

(١) شرح رياض الصالحين، د. الحسيني هاشم ص ٥٨.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٣٣.

(٣) سورة البينة، الآيتان: ٧ - ٨.

ولكن لا نقول: هو فلان وفلان لأننا لا ندري ما يختم له ولا ندري هل باطنه كظاهره فلذلك لا نشهد له بعينه.

نقول مثلاً: إذا مات رجل يُشْهد له بالخير قلنا: نرجو أن يكون من أهل الجنة لكن ما نشهد أنه من أهل الجنة.

ب- قسم آخر نشهد له بعينه وهم الذين شهد لهم النبي ﷺ بأنهم في الجنة: مثل العشرة المُبشرين بالجنة وهم: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وسعيد بن زيد، وسعد بن أبي وقاص، وعبدالرحمن بن عوف، وطلحة بن عبيد الله، وأبو عبيدة عامر ابن الجراح، والزبير بن العوام رضي الله عنهم.

ومثل ثابت بن قيس بن شماس ومثل سعد بن معاذ ومثل: عبدالله بن سلام، ومثل: بلال بن رباح وغيرهم ممن عينهم الرسول ﷺ.

هؤلاء نشهد لهم بأعيانهم نقول: نشهد بأن أبا بكر في الجنة، ونشهد بأن عمر في الجنة وهكذا. من ذلك هذه المرأة التي قال ابن عباس لتلميذه عطاء بن أبي رباح: (ألا أريك امرأة من أهل الجنة؟ قلت: بلى! قال: هذه المرأة السوداء).

امرأة سوداء لا قيمة لها في المجتمع، كانت تُصرع وتتكشف فأخبرت الرسول ﷺ وسألته أن يدعو الله لها فقال لها: إن شئت دعوت الله لك وإن شئت صبرت ولك الجنة؟ قالت: أصبر، وأنها كانت تتألم وتتأذى من الصرع، لكنها صبرت من أجل أن تكون من أهل الجنة. ولكنها قالت: يا رسول الله إني أتكشّف فادع الله أن لا أتكشف. فدعا الله أن لا تتكشف فصارت تُصرع ولا تتكشف.

الشاهد من هذا الحديث قول الرسول ﷺ: (إن شئت صبرت ولك الجنة، فقالت: أصبر)، ففيه دليل على فضيلة الصبر وأنه سبب لدخول الجنة[1].

وقد وردت في القرآن الآيات الكثيرة التي تبين أن الصبر لا جزاء له إلا الجنة قال تعالى: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾[2] وقال ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ

---

(١) شرح رياض الصالحين، محمد بن عثيمين ص ٩٥ - ٩٨.

(٢) سورة المؤمنون، آية: ١١١.

بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴾[١] وقال ﴿ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴾[٢] فتلك بعض الآيات التي تبين نتيجة الصبر يوم القيامة[٣] وهي دخول الجنة، والعطاء الواسع، والثواب الجزيل، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[٤].

قال علي بن أبي طالب ﷺ: (كل مطيع يكال له كيلاً ويوزن له وزناً إلا الصابرون، فإنهم يحثى لهم حثياً)[٥]، وقال ابن الجوزي (إنما يوفى الصابرون الذي صبروا لأجل الله تعالى ما نالهم "بغير حساب أي: يعطون عطاءً كثيراً أوسع من أن يحسب، وأعظم من أن يُحاط به، لا على قدر أعمالهم[٦].

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: فضل التستر والحذر من التكشف:

تلك الخصال الكريمة من لوازم إيمان المرأة وحيائها، وفي الحديث طلبت تلك المرأة من الرسول ﷺ أن يدعو لها بعدم التكشف "فقالت: إني أصرع وإني أتكشف فادع الله تعالى لي، قال: إن شئت صبرت ولك الجنة، وإن شئت دعوت الله تعالى أن يعافيك، فقالت أصبر، فقالت إني أتكشف، فادع الله ألا أتكشف، فدعا لها".

وقد أمر الله نساء المؤمنين بالحجاب وستر أجسادهن فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾[٧].

وحذّر النبي ﷺ المرأة من أن تكشف شيئاً من جسمها خارج بيتها فعن أبي المَلِيح

(١) سورة الفرقان، آية: ٧٥.

(٢) سورة الإنسان، آية: ١٢.

(٣) انظر: أخلاقنا، د. محمد ربيع محمد جوهري ص ٢٣٩.

(٤) سورة الزمر، آية: ١٠.

(٥) معالم التنزيل، البغوي، ١١١/٧.

(٦) زاد المسير في علم التفسير، ابن الجوزي ، ابن الجوزي، ١٦٨/٧.

(٧) سورة الأحزاب، آية: ٥٩.

قال: دخل نسوة من أهل الشام على عائشة رضي الله عنها فقالت: ممن أنتن؟ قلن: من أهل الشام، فقالت لعلكن من الكورة التي تدخل نساؤها الحمّامات؟ قلن: نعم، قالت: أما إني سمعت رسول الله ﷺ يقول ((مَا مِنْ امْرَأَةٍ تَخْلَعُ ثِيَابهَا فِي غَيْرِ بَيْتِهَا إلاَّ هَتَكَتْ مَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللهِ تعالى))(١) أي هتكت الستر وحجاب الحياء وجلباب الأدب، وذلك لأنها مأمورة بالتستر والتحفظ من أن يراها أجنبي(٢).

لقد حذر الإسلام من التبرج والسفور أيما تحذير وبيّن أن من تفعل ذلك تدرج نفسها في أصناف أهل النيران، روي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: ((صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا. قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ يَضْرِبُونَ بهَا النَّاسَ. وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ، مُمِيلاَتٌ مَائِلاَتٌ، رُؤُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ، لاَ يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ، وَلاَ يَجِدْنَ رِيحَهَا، وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا))، وفي رواية أخرى: ((وَرِيحُهَا يُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ خَمْسِمِائَةِ عام))(٣).

إن هذا الصنف من النساء اللائي خالفن تعاليم الدين وآداب الإسلام فخلعن ملابسهن، وكشفن عن سواعدهن وأفخاذهن، ولبسن الملابس الرقيقة التي لا تستر جسداً، ولا تخفي عورة، وإنما تزيد في الفتنة والإغراء ومَشَيْنِ مِشْيَة فيها التخنث والتكسر، وفيها لفت أنظار الرجال.

ولقد صوّر عليه أفضل الصلاة والتسليم، هؤلاء النسوة وهنّ يتبخترن في الشوارع والطرقات، ويتسكعن في الأسواق والمنتديات، ليس لهن عمل إلا إغراء الرجال، وإفساد الشباب والمراهقين، صورهن بصورة من تتقصد إثارة الفتنة، وإغراء الرجل، حتى ليخيل إلى الناظر أنها - بهذه المشية الخليعة - تدعوه إلى نفسها، وتراوده من أجل عمل الفاحشة بها وهذا هو معنى قوله ﷺ: (مائلات مميلات) أي أنهن مائلات في مشيتهن مميلات لقلوب الرجال يقصدن إثارة الشهوة في قلوبهم، ثم عدّد الرسول الكريم ﷺ

---

(١) أخرجه أبو داود ٤٠١٠، وصححه الألباني، (صحيح سنن أبي داود ٣٣٨٦).

(٢) عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم آبادي، العظيم آبادي ص ١٦٢٠.

(٣) أخرجه مسلم ١٢١٢٨.

من قبائحهن بأنهنّ يصففن شعورهن حتى يصبح شعر الواحدة منهن مثل سنام الجمال في الارتفاع، وقد وضعت عليه أنواع الزينة، وصبغته بأنواع من الأصباغ المغرية، وكدسته فوق رأسها كأنه شاهق من الجبل، أو سد عال من سدود الصين.

وقد ختم ﷺ هذا الحديث الشريف بما يفزع له قلب الإنسان فقال: (لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها).

وأي عذاب أشد من هذا العذاب أن يحرم الإنسان الجنة ونعيمها وألا يجد ريحها أبداً مع أن ريحها يوجد من مسيرة خمسمائة عام، اللهم احفظنا من الفتن ما ظهر منها وما بطن إنك سميع مجيب الدعاء[١].

رابعاً- من صفات المدعو: الرغبة والطمع فيما عند الله تعالى:

إن مما ينبغي أن يتصف به المدعو الرغبة والطمع فيما عند الله تعالى، وفي الحديث مثال على ذلك، وذلك في قول المرأة التي تصرع وقد طلبت منه أن يدعو لها "إن شئت صبرت ولك الجنة، وإن شئت دعوت الله تعالى أن يعافيك، فقالت أصبر، فقالت إني أتكشف فادع الله ألا أتكشف فدعا لها" فاختارت البلاء والصبر لجزيل الثواب المترتب عليهما وقالت: "أصبر" أي على الصرع لأنه يرجع إلى النفس، ولما كان التكشف راجعاً لحق الله تعالى، وإذ هي مأمورة بستر جميع البدن لكونه عورة (قالت إني أتكشف فادع الله لي ألا أتكشف فدعا لها)[٢].

قال ابن حجر: (وفيه أن الصبر على بلايا الدنيا يورث الجنة، وأن الأخذ بالشدة أفضل من الأخذ بالرخصة لمن علم من نفسه الطاقة ولم يضعف عن التزام الشدة)[٣] لذا ينبغي الحرص على ما عند الله لأنه خير وأبقى قال تعالى: ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾[٤] وقال: ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾[٥] أي ثواب الله في الدار

---

(١) من كنوز السنة، محمد علي الصابوني ص ١١٤.

(٢) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ١٢١، ١٢٢.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٠/١٢٠.

(٤) سورة النحل، آية: ٩٦.

(٥) سورة الأعلى، الآيتان: ١٦، ١٧.

الآخرة خير من الدنيا وأبقى، فإن الدنيا دنيّة فانية، والآخرة شريفة باقية، فكيف يؤثر عاقل ما يفنى على ما يبقى، ويهتم بما يزول عنه قريباً ويترك الاهتمام بدار البقاء والخلد؟![1]

خامساً- من مهام الداعية: إعانة المدعوين في حل مشكلاتهم وحثهم على ما ينفعهم:

لقد عمل النبي ﷺ على إعانة تلك المرأة على حل مشكلتها فأمرها بالصبر، ودعا الله لها بالستر وعدم التكشف وقد خيّر النبي ﷺ تلك المرأة بين الصبر والجنة وبين المعافاة "قالت إني أصرع وإني أتكشف فادع الله تعالى لي، قال إن شئت صبرت ولك الجنة، وإن شئت دعوت الله تعالى أن يعافيك" فقالت: أصبر، فقالت: إني أتكشف فادع الله ألا أتكشف فدعا لها" وذلك من حرص النبي ﷺ على المدعوين.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[2] لذا فإنه مما ينبغي للداعية أن يحرص على إعانة الناس على حلّ مشكلاتهم وقضاء حاجاتهم وتيسير أمورهم.

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٣٨٢/٨.

(٢) سورة التوبة، آية: ١٢٨.

الحديث رقم (٣٦)

٣٦- وعنْ أَبي عبْدِ الرَّحْمنِ عبْدِ اللَّه بنِ مسْعُودٍ رضي الله عنه قَال: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلى رسولِ اللَّه صلى الله عليه وسلم يحْكي نَبيّاً من الأَنْبياءِ، صلواتُ اللَّهِ وسَلاَمُهُ علَيهم، ضَرَبُهُ قَوْمُهُ فَأَدْموْهُ وهُو يمْسحُ الدَّم عنْ وجْهِهِ، يقُولُ: «**اللَّهمَّ اغْفِرْ لِقَوْمي فإِنَّهُمْ لا يعْلمُونَ**» متفقٌ علَيْه[1].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن مسعود: أحد أعلام الصحابة ومشاهيرهم، وهو عبدالله بن مسعود بن غافل بن حبيب بن شمخ بن فار بن مَخْزوم، حليف بني زهرة، يكنى بأبي عبدالرحمن، له صحبة ورواية، روى له الجماعة، وله في كتب الحديث (٨٤٨) حديثاً.

وكان رضي الله عنه من السابقين الأولين إلى الإسلام، فكان إسلامه قديماً في أول الإسلام، أسلم حين أسلم سعيد بن زيد وزوجته فاطمة بنت الخطاب، دعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلاً ((يرحمك الله فإنك غُلَيِّمٌ مُعَلَّمٌ))[2].

وضمه رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه، فكان عبدالله يَلِجُ عليه[3]، ويلبسه نعليه، ويمشي أمامه، ويستره إذا اغتسل، ويوقظه إذا نام، وقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم إذنك عليَّ أن يُرفع الحجاب، وأن تستمع سِوادي حتى أنهاك))[4] وكان يُعرف في الصحابة بصاحب السِّواد والسِّواك.

وهذه الملازمة لرسول الله صلى الله عليه وسلم جعلته من أقرأ الصحابة للقرآن، وقال صلى الله عليه وسلم: ((استقرئوا القرآن من أربعة: عبدالله بن مسعود، وسالم مولى أبي حذيفة، وأُبيّ بن كعب، ومعاذ بن جبل))[5] وقال: ((من أحب أن يقرأ القرآن غَضّاً كما أُنزل فليقرأه

---

(١) أخرجه البخاري ٣٤٧٧، ومسلم ١٧٩٢/١٠٥. أورده المنذري في ترغيبه ٣٩٦٤. وسيكرره المؤلف برقم ٦٤٦.

(٢) أخرجه أحمد ٣٧٩/١ رقم ٣٥٩٨، وقال محققو المسند إسناده حسن ٨٢/٦.

(٣) أي يدخل عليه.

(٤) أخرجه مسلم ٢١٦٩.

(٥) أخرجه البخاري ٣٧٦٠.

على قراءة ابن أم عبد))[١] واستمع له النبي ﷺ فعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: ((اقرأ عليَّ القرآن، قال: قلت: آقرأ عليك، وعليك أنزل قال: إني أحب أن أسمعه من غيري))[٢]، وكان أول من جهر بالقرآن بمكة بعد رسول الله ﷺ، وكان أقرب الناس إلى رسول الله ﷺ سمتاً، فعن عبدالرحمن بن يزيد قال: ((سألنا حذيفة عن رجل قريب السَّمْت والهَدْي من النبي ﷺ حتى نأخذ عنه، فقال: ما أعَرِفُ أحداً أقربَ سمتاً وهدياً ودَلاً بالنبي ﷺ من ابن أم عبد))[٣] فكان من أعلم الصحابة بالقرآن ودين الله تبارك وتعالى، مما جعل ابن سعد في الطبقات يعده في أهل العلم والفتوى من أصحاب رسول الله ﷺ.

هاجر عبدالله بن مسعود الهجرتين، وصلى إلى القبلتين، وشهد بدراً وأحداً والخندق، وبيعة الرضوان، وسائر المشاهد مع رسول الله ﷺ وهو الذي أجهز على أبي جهل[٤]، وبعد وفاة رسول الله ﷺ شهد اليرموك بالشام، وسيره عمر إلى الكوفة ليعلم أهلها أمور دينهم، ثم أمَّره عثمان عليها، ثم عزله، فأمره بالرجوع إلى المدينة.

أما عن صفاته الخلقية فكان نحيف الجسم خفيف اللحم. رُوِي أن النبي ﷺ أمر ابن مسعود فصعد على شجرة يأتيه منها بشيء فنظر أصحابه إلى ساق عبدالله فضحكوا من حُمُوشة -دقة- ساقيه، فقال رسول الله ﷺ ((ما تضحكون؟ لَرِجْلُ عبدالله أثقل في الميزان يوم القيامة من أحد))[٥] فكان نحيف الجسم كما يفهم من الحديث، كما كان آدم[٦]، قصيراً، وكان لا يغير شيبة، وكان يحب التطيب، ويكثر منه، فإذا خرج من بيته عرف جيران الطريق أنه مَرّ من طيب رائحته.

---

(١) أخرجه أحمد ٤٤٨/٢ رقم ٩٧٥٤، وقال محققو المسند: صحيح لغيره ٤٦٩/١٥.

(٢) أخرجه البخاري ٥٠٤٩.

(٣) أخرجه البخاري ٣٧٦٢.

(٤) أخرجه البخاري ٣٩٦٢.

(٥) أخرجه أحمد ١١٤/١ رقم ٩٢٠، وقال محققو المسند: صحيح لغيره ٢٤٤/٢.

(٦) شديدة السمرة.

مات رضي الله عنه بالمدينة المنورة، سنة (٣٢) وهو ابن بضع وستين سنة، ودفن بالبقيع، وكان الذي صلى عليه هو: عثمان بن عفان وقيل: عمار بن ياسر، وقيل: صلّى عليه الزبير، ودفنه ليلاً بإيصائه بذلك إليه، ولم يعلم عثمان بدفنه فعاتب الزبير على ذلك[١].

غريب الألفاظ:

أَدْمَوْه: أي ضربوه حتى خرج منه الدم[٢].

الشرح الأدبي

ما أجمل أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما أعظم شمائله، وما أرق طبعه، وكيف لا: وقد خاطبه رب العالمين بأسمى خطاب فقال في محكم آيات الكتاب: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[٣].

وفي ظلال هذا الحديث الشريف تتجول مشاعرنا، وتتأمل مداركنا، وتقتبس قلوبنا فيوضاً من التسامح النبوي، والخلق المحمدي، والصحابي الجليل عبدالله بن مسعود صاحب سرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسواكه ونعليه وطهوره في السفر والذي بشره صلى الله عليه وسلم بالجنة، هذا الصحابي الجليل يقتبس من شموس أخلاق النبوة هالات من الشمائل والقيم تتموج وتمتد إلى كل نفس تطمح إلى الهداية، وتبحث عن اليقين، هذه الهالات والفيوضات يصورها، عبدالله بن مسعود رضي الله عنه في إطار المقارنة والموازنة بين ما كابده رسول الله من مشقات، وما لاقاه من قومه من عنت، وبين بعض أنبياء الله من

---

(١) الطبقات، ابن سعد ٢/٣٤٢-٣٤٤، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ٤٠٧-٤١١، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير ٣/٣٨١-٣٨٧، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني ٨٣٢، ٨٣٣، وسير أعلام النبلاء، الذهبي ١/٤٦١-٥٠٠، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي ٤/٢٨٤، ٢٨٥، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني ٢/٤٣١، ٤٣٢، والأعلام، خير الدين الزركلي ٤/١٣٧، وموسوعة عظماء حول الرسول، خالد عبدالرحمن العك ٢/١٢٦٦-١٢٧٨.

(٢) الوسيط في (د م و).

(٣) سورة القلم، آية: ٤.

أولي العزم من الرسل، وقيل هو نوح ﷺ قبل أن ييأس من استجابة قومه ويدعو عليهم.

وهذه الموازنة الراشدة الإيجابية يشير إليها رب العالمين في كثير من آيات القرآن الكريم ومنها ما ورد في سورة آل عمران: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾[1].

وفي سورة الأنعام يقول الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾[2].

وتأتي موازنة عبدالله بن مسعود ومقارنته في إطار التشبيه والتوكيد، وهو يشخص موقف رسول الله من معارضيه، ومن الذين طردوه وعذبوه ووقفوا له بالمرصاد في مكة والطائف والمدينة... وغيرها: وهو يعفو ويتسامح، ويدعو لهم بالمغفرة، ويرجو أن يخرج الله من أصلابهم ذرية تعبد الله وتنصر دينه، وقد تحقق رجاء المصطفى المختار، وانتشر الإسلام في جميع الأقطار؛ ومن أصلاب هؤلاء المشركين والكفار، خرجت الجموع المؤمنة الموحدة، التي رفعت راية الإسلام في جميع أنحاء المعمورة بالجهاد، والعلم، والحكمة، والموعظة الحسنة.

ولنتأمل هذه الصورة الواقعية التي تعرض لها رسول الله ﷺ كثيراً في مكة والطائف، وأحد، كما تعرض كثير من الأنبياء عليهم السلام وأي تأثير أقوى في النفس من تأثير هذا المنظر الأليم، وأي مشاعر كانت تتموج في قلب ونفس هذا النبي العظيم أمام هذه الصورة الدامية التي صورها ابن مسعود حيث يقول "كأني انظر إلى رسول الله ﷺ يحكى نبياً من الأنبياء: صلوات الله وسلامه عليهم ضربه قومه فَأَدْمَوْهُ وهو يمسح الدم عن وجهه وهو يقول: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون".

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٨٤.

(٢) سورة الأنعام، آية: ٣٤.

فداك أبي وأمي يا رسول الله. أي خلق أسمى من هذا الخلق القرآني الكريم، وأي محبة إسلامية تعلو فوق هذه المحبة، إنك تقابل من أسالوا دمك بالدعاء لهم وليس بالدعاء عليهم، لأنه علمك شديد القوى، ولا تنطق عن الهوى، ولذلك دعوت لهم بالمغفرة واستجاب الله لدعائك، وخفف من بلائك، وهؤلاء الذين عذبوك بالأمس، الذين بعد ذلك آزروك وناصروك، ومن أصلابهم خرجت الملايين إلى جميع أقطار المعمورة، يكبرون للرحمن، ويرفعون الأذان، ويأتون إلى البيت الحرام من كل فج عميق، وهم في شوق إلى رضوان الله عليهم، ومحبتك تشرق في قلوبهم وسيرتك الوضاءة تغمر مشاعرهم، وتمتزج بأنفاسهم فأنت الأسوة الحسنة، وأنت الرحمة المهداة، وأنت السراج المنير، وأنت البشير النذير، وقد بشرك الكبير المتعال بالنصر والتمكين، ووعدك بالحفظ وإتمام الدعوة وإكمال الدين وخاطبك مبشراً ومن أصدق من الله قيلا... يقول الله عز وجل: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾[1].

ولقد تأسى بك الخليفة العادل عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين دخل عليه عُيَيْنَة ابن حصن الفزاري، وكان يسمى بالأحمق المطاع، لأنه كان رئيس قومه، وقد أسلم في عهدك يا رسول الله وكنت تتألفه على الرغم من حماقته ليسلم قومه، ولكنه ارتد في خلافة أبي بكر رضي الله عنه وحارب، ثم رجع إلى الإسلام وحضر بعض الفتوح في عهد عمر ابن الخطاب رضي الله عنه، ولكن حماقته لم تفارقه: فحينما دخل على أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب واجهه بالتهم وقال: يا ابن الخطاب والله ما تعطينا الجزل، وما تحكم بيننا بالعدل، فغضب عمر حتى هم بأن يقع به -أي يبالغ في ضربه-، فقال ابن أخيه، الحر ابن قيس الذي استأذن له في الدخول على عمر يا أمير المؤمنين إن الله قال لنبيه صلى الله عليه وسلم ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[2]، وإن هذا من الجاهلين، وقالوا: فو

---

(١) سورة الطور، الآيتان: ٤٨، ٤٩.

(٢) سورة الأعراف، آية: ١٩٩.

الله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقافا عند كتاب الله عز وجل"[١].

ومن منابع البيان النبوي العذب، ومن فيوضات سيرته العطرة، ومن عبق شمائله الكريمة، وسجاياه الحميدة، تشرق هذه المشاعر التي تصور بعض شمائله وفضائله، وعفوه وتسامحه[٢]:

هو الفقير ويأبى أن تكون له ... جبال مكة في دنيا الورى ذهبا

فنفسه من صفاء الحب معدنها ... والله أغناه بالقرآن حين أبى

وصار في قلبه القرآن ملحمة ... وجدان كل ظم من نورها شربا

فإن مشى كان قرآنا جوانبه ... تفيض بالذكر للقلب الذي نضبا

وإن تحدث فالآيات منطقه ... ترد للكل حقاً كان قد سلبا

ففي تواضعه أسرار حكمته ... هو النبي ولكن يجمع الحطبا

وفي تعاطفه أسرار قوته ... قد أخضع العجم بالقرآن والعربا

وفي تسامحه أسرار هيبته ... والحب في الله قد أحنى له الشهبا

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الحكاية.

ثانياً: من صفات الداعية: احتمال الأذى في سبيل الدعوة.

ثالثاً: من صفات الداعية: الرفق والشفقة بالمدعوين.

أولاً- من أساليب الدعوة: الحكاية:

ورد هذا الأسلوب في الحديث في قول الراوي عبدالله بن مسعود: "كأني أنظر إلى رسول الله ﷺ يحكي نبياً من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم"، والحكاية من

(١) أخرجه البخاري ٤٦٤٢.

(٢) انظر: ديوان مدائن الفجر شعر د. صابر عبدالدايم.

قولك حكيت فلاناً وحاكيته فعلت مثل فعله أو قلت مثل قوله سواءً لم أجاوزه، وحكيت عنه الحديث حكاية، والحكاية من أساليب الدعوة المفيدة لما فيها من عرض الأحداث القديمة[١] بعثاً للهمم وتحفيزاً للعزائم، ومن المعاني التي تضمنتها الحكاية في هذا الحديث بيان مدى تحمل الأنبياء في سبيل نشر الدعوة وتبليغها وما يتعرضون له من أذى وصبرهم وتحملهم في سبيل الدعوة إلى الله "كأني أنظر إلى رسول الله ﷺ يحكي نبياً من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، ضربه قومه فأدموه وهو يمسح الدم عنه وجهه... الحديث" فإن في أسلوب الحكاية والتسلية شرح للمعاني بالأمثلة الحية في الصبر والتحمل في سبيل الإيمان بالله وحده والحفاظ على العقيدة بالثبات عليها، واحتمال أنواع الأذى في سبيلها والتضحية من أجلها بما يملك الإنسان من جاه ومنصب ومال، أو رفض ما يعرض عليه من هذا[٢] ولقد ثبت بالتجربة أن التأسي يهوّن المصاب ويفيد شيئاً من السلوة، قالت الخنساء:

ولولا كثرة الباكين حولي ... على إخوانهم لقتلت نفسي[٣]

وما يكون مثل أخي ولكن ... أعزي النفس عنه بالتأسي[٤]

ثانياً- من صفات الداعية: احتمال الأذى في سبيل الدعوة:

في هذا الحديث حكى لنا النبي ﷺ تحمل ذلك النبي لما أصابه "ضربه قومه فأدموه وهو يمسح الدم عن وجهه"، قال القاضي عياض: (وفي الحديث بيان ما كانوا عليه صلوات الله عليهم من الحلم والصبر والشفقة على قومهم وأممهم، وأنهم مع فعلهم بهم وأذاهم لهم دعوا بالغفران وعذروهم بالجهل وقلة العلم بما أتوهم به)[٥].

---

(١) القصة في القرآن الكريم، د. مريم عبدالقادر السباعي، مكتبة مكة، ط/١، الرياض: ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م ص ٣١.

(٢) تذكرة الدعاة، البهي الخولي ص ٥٩.

(٣) ديوان الخنساء، قافية السين، البحر الوافر التام.

(٤) القصة في القرآن الكريم، د. مريم عبدالقادر السباعي ص ١٩٧.

(٥) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض ١٦٤/٦.

وقال القرطبي: (وإذا تأمل الفطن هذا الدعاء: "رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون"، في مثل تلك الحال علم معنى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[1]، فإنه ﷺ لم يدع عليهم فينتصر ولم يقتصر على العفو حتى دعا لهم ولم يقتصر على الدعاء لهم حتى أضافهم لنفسه على جهة الشفقة ولم يقتصر على ذلك حتى جعل لهم جهلهم بحاله كالعذر وإن لم يكن عذراً وهذا غاية الفضل والكرم التي لا يشارك فيها ولا يُوصلُ إليها)[2].

ولقد ضرب لنا النبي ﷺ أعظم الأمثلة في الصبر واحتمال الأذى في سبيل دعوته، وقدأمره الله في كثير من آيات القرآن بالصبر منها قوله: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾[3] فبعدما ساق الله قصة نوح مع قومه أمر النبي ﷺ بالصبر، قياساً لحاله مع قومه على حال نوح مع قومه، فكما صبر نوح فكانت العاقبة له كذلك تكون العاقبة لك، ﴿فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي اصبر لأن داعي الصبر قائم وهو أن العاقبة الحسنة تكون للمتقين فتكون لك وللمؤمنين معك[4].

ثالثاً- من صفات الداعية، الرفق والشفقة بالمدعوين:

إن من أجمل ما يتصف به الداعي الرفق والشفقة بالمدعوين، وقد حكى لنا النبي ﷺ صورة حية لرفق ذلك النبي بقومه مع إيذائهم الشديد له "ضربه قومه فأدموه وهو يمسح الدم عن وجهه، وهو يقول: "اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون" قال النووي: (فيه ما كانوا عليه صلوات الله وسلامه عليهم من الحلم والتصبر والعفو والشفقة على

---

(١) سورة القلم، آية: ٤.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ٦/٢١٣.

(٣) سورة هود، آية: ٤٩.

(٤) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، ٥/١٢/٩٣.

قومهم ودعائهم لهم بالهداية والغفران وعذرهم في جنايتهم على أنفسهم بأنهم لا يعلمون)[١] وهذا لا يكون إلا من صاحب قلب رحيم، والداعية المسلم يجب أن يكون كذلك تأسياً بالمرسلين، فلا يتعجل النتائج، ولا يغضب من سوء المعاملة والصدود من المدعوين، فالداعية المسلم لا يكون إلا رحيماً، لأنه يدعو إلى الإسلام دين الرحمة، وهو بهذا يظهر أعظم معلم من معالم هذا الدين الذي أمر بالرحمة وحث عليها ورغب فيها وجعل الثواب العظيم لمن اتصف بها وتمثلها واقعاً مُعاشاً في حياته[٢].

قال السعدي: (والله سبحانه وتعالى يحب من عباده أهل الرفق ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف والرفق من العبد لا ينافي الحزم، فيكون رفيقاً في أموره متأنياً، ومع ذلك لا يفوّت الفرص إذا سنحت ولا يهملها إذا عرضت)[٣].

فما أجمل الإسلام رسالة الهداية والإصلاح، ودين السماحة واليسر، وما أسمى تعاليمه الحكيمة التي تدعو إلى الرفعة واللين في النصح والإرشاد، وإلى معالجة المشكلات الاجتماعية بطريق الرأفة لا الغلظة وبأسلوب اللين لا الشدة.

لقد كان الرفق دَيْدَن دعوة الأنبياء عليهم السلام، فقد دعا نوح عليه السلام قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، استخدم معهم أنواعاً من الأساليب، ليقبلوا على دعوته ويقبلوا منه، لكن المحصلة كانت قليلة، وكذا صبر إبراهيم، وموسى، وعيسى عليهم الصلاة والسلام على لأواء أقوامهم يدعونهم إلى الله برفق وعدم عجلة، حتى نصّ القرآن الكريم على توجيه من توجيهات الرب تبارك وتعالى لموسى وأخيه هارون عليهما السلام في دعوتهما إلى فرعون: ﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾[٤][٥].

فالقول اللين: هو القول الذي لا خشونة فيه، وإذا كان موسى عليه السلام أمر بأن يقول

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١١٥٩.

(٢) قواعد الدعوة الإسلامية، د. الشريف حمدان راجح المهدي الهجاري ص ٢٩٣، ٢٩٤.

(٣) توضيح الكافية الشافية، عبدالرحمن السعدي، الرياض، بدون تاريخ ص ١٢٣.

(٤) سورة طه، الآيتان: ٤٣ - ٤٤.

(٥) انظر: صفات الداعية د. حمد بن ناصر العمار ص ٥٤ - ٥٦.

لفرعون قولاً ليناً، فمن دونه أحرى بأن يقتدي بذلك في خطابه، وأمره بالمعروف في كلامه، وقد قال الله تعالى: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾[(١)]"[(٢)].

ولقد تحلى قدوة الدعاة النبي الخاتم محمد ﷺ بالرفق في أقواله وأفعاله مع من دعاهم إلى الله تعالى، وكان ذلك سبباً رئيساً من أسباب نجاحه في دعوته ﷺ ومن ذلك ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: ((بَالَ أَعْرَابِيٌّ فِي المَسْجِدِ فَقَامَ النَّاسُ إِلَيْهِ لِيَقَعُوا فِيهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ: دَعُوهُ وَأَرِيقُوا عَلَى بَوْلِهِ سَجْلاً مِنْ مَاءٍ، أَوْ ذَنُوباً مِنْ مَاءٍ، فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ، وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ))[(٣)].

وعن معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه قال: ((بينا أَنَا أُصَلِّي مَعَ رَسُولِ اللّهِ ﷺ. إِذْ عَطَسَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ فَقُلْتُ: يَرْحَمُكَ الله فَرَمَانِي الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ. فَقُلْتُ: وَاثُكْلَ أُمِّيَاهُ! مَا شَأْنُكُمْ تَنْظُرُونَ إِلَيَّ؟ فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَى أَفْخَاذِهِمْ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ يُصَمِّتُونَنِي، لكِنِّي سَكَتُّ، فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ. فَبِأَبِي هُوَ وَأُمِّي مَا رَأَيْتُ مُعَلِّماً قَبْلَهُ وَلاَ بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيماً مِنْهُ، فَوَاللهِ مَا كَهَرَنِي وَلاَ ضَرَبَنِي وَلاَ شَتَمَنِي. قَالَ: إِنَّ هذِهِ الصَّلاَةَ لاَ يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلاَمِ النَّاسِ. إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ))[(٤)].

وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: (("إِنَّ فَتًى شَابًّا أَتَى النَّبِىَّ ﷺ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ائْذَنْ لِى بِالزِّنَا فَأَقْبَلَ الْقَوْمُ عَلَيْهِ فَزَجَرُوهُ وَقَالُوا مَهْ مَهْ فَقَالَ ادْنُهْ فَدَنَا مِنْهُ قَرِيباً قَالَ فَجَلَسَ قَالَ أَتُحِبُّهُ لأُمِّكَ قَالَ لاَ وَاللَّهِ جَعَلَنِى اللَّهُ فِدَاكَ قَالَ وَلاَ النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لأُمَّهَاتِهِمْ قَالَ أَفَتُحِبُّهُ لاِبْنَتِكَ قَالَ لاَ وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ جَعَلَنِى اللَّهُ فِدَاكَ قَالَ وَلاَ النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِبَنَاتِهِمْ قَالَ أَفَتُحِبُّهُ لأُخْتِكَ قَالَ لاَ وَاللَّهِ جَعَلَنِى اللَّهُ فِدَاكَ قَالَ وَلاَ النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لأَخَوَاتِهِمْ قَالَ أَفَتُحِبُّهُ لِعَمَّتِكَ قَالَ لاَ وَاللَّهِ جَعَلَنِى اللَّهُ فِدَاكَ قَالَ وَلاَ النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِعَمَّاتِهِمْ قَالَ أَفَتُحِبُّهُ

---

(١) سورة البقرة آية: ٨٣.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٥/١٠/٢٠٠.

(٣) أخرجه البخاري ٢٢٠.

(٤) أخرجه مسلم ٥٣٧.

لِخَالَتِكَ قَالَ لاَ وَاللَّهِ جعَلَنِى اللَّهُ فِدَاكَ قَالَ وَلاَ النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِخَالاَتِهِمْ قَالَ فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ وَقَالَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ وَطَهِّرْ قَلْبَهُ وَحَصِّنْ فَرْجَهُ قَالَ فَلَمْ يَكُنْ بَعْدُ ذَلِكَ الْفَتَى يَلْتَفِتُ إِلَى شَىْءٍ أو كما قال رسول الله ﷺ))[1].

ولقد حث النبي ﷺ المسلمين عامة، ويدخل في ذلك الدعاة من باب أولى إلى التحلي بالرفق، فمن ذلك: ما روته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: ((إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ. وَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لاَ يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ. وَمَا لاَ يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ))[2].

وعن جرير بن عبدالله رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: ((مَنْ يُحْرَمِ الرِّفْقَ، يُحْرَمِ الْخَيْرَ))[3].

وعن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: ((إِنَّ الرِّفْقَ لاَ يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلاَّ زَانَهُ، وَلاَ يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ شَانَهُ))[4].

فبالرفق تُساس الطباع، ويُعرف مكمن الداء، ويعطى الدواء، لتستقيم الأنفس على الخير، وتقبل دعوة الله عز وجل، ويزول ما في الصدور ما حلّ فيها من عوارض البغض، وأسباب الشحناء، ولا شك أنّ الداء لهذا كلّه بلسم الرفق"[5].

---

(١) أخرجه أحمد ٢٥٧/٥ رقم ٢٢٢١١، وقال محققو المسند: إسناده صحيح ٥٤٥/٣٦.

(٢) أخرجه مسلم ٢٥٩٣.

(٣) أخرجه مسلم ٢٥٩٢.

(٤) أخرجه مسلم ٢٥٩٤.

(٥) كيف يدعو الداعية، عبدالله ناصح علوان ص ٧٤ - ٧٥.

الحديث رقم (٣٧)

٣٧- وَعنْ أَبي سَعيدٍ وأَبي هُرَيْرة رضي الله عنهما ، عن النَّبيِّ ﷺ قَالَ: «**مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلاَ وَصَبٍ وَلاَ هَمٍّ وَلاَ حَزَنٍ وَلاَ أَذًى وَلاَ غمٍّ، حتَّى الشَّوْكَةُ يُشَاكُها إلاَّ كفَّر اللَّه بهَا مِنْ خطَايَاه**» متفقٌ عليه[1].

ترجمة الراوي:

أبو سعيد الخدري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٢٠).

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

الْوَصَب: الْمرضُ[2].

الشرح الأدبي

تتوالى أحاديث رسول الله ﷺ في ميدان الصبر، لأنه سلاح المؤمن في مواجهته لأعباء الحياة فالصبر على ما يلحق بالإنسان من مرض الصرع أو الطاعون، قد أشار إليه رسول الله ﷺ في حديثين سابقين، والصبر على أعباء الدعوة إلى الله، وتحمل حماقة الجاهلين والمعاندين من أهم سمات الداعية ورسول الله هو القدوة في ذلك السبيل، ودعاؤه لمن ضربوه وأدموه خير برهان على ذلك السلوك الراشد القويم.

وهذا الحديث يعد دستوراً عاماً، ومنهجاً قويماً للمسلم في حياته وهو يواجه كثيراً من الأزمات والشدائد .

وتتسم ألفاظ الحديث بالإيجاز والإيحاء، فكل لفظ يشع بدلالات متعددة يمكن أن تمور بها حياة المسلم.

وهكذا البيان النبوي ألفاظه يعمرها قلب متصل بجلال خالقه، ويصقلها لسان نزل عليه القرآن بحقائقه، ويقول الرافعي مؤكداً ما قال في العبارة السابقة، من خلال

---

(١) أخرجه البخاري (٥٦٤٢) واللفظ له، ومسلم (٢٥٧٣/٥٢). أورده المنذري في ترغيبه (٤٩٩٨).

(٢) بنصه في الترغيب للمنذري (١٧٩/٤).

استقراء بلاغة البيان النبوي: (إذا نظرت فيما صح نقله من كلام النبي ﷺ، على جهة الصناعتين اللغوية والبيانية رأيته في الأولى أي: الصناعة اللغوية مسدداً اللفظ محكم الوضع ،جزل التركيب متناسب الأجزاء في تأليف الكلمات فخم الجملة واضح الصلة، بين اللفظ ومعناه، واللفظ وضريبه في التأليف والنسق، ثم لا ترى فيه حرفاً مضطرباً، ولا لفظة مستدعاة لمعناها أو مستكرهة عليه، ولا كلمة غيرها أتم منها أداء للمعنى وتأتيا لسره في الاستعمال)[1].

وفي ضوء السمات الأسلوبية السابقة للبيان النبوي نقتبس من كلمات هذا الحديث بعض إشعاعاته وموحياته.

فالحديث كله جملة واحدة تفوه بها رسول الله ﷺ وصيغت في قالب "القصر" عن طريق النفي والاستثناء، فلا يملك قارئ هذا الحديث أن يتوقف عن كلمة في وسطه فالمعنى لن يتم إلا بتمام قراءة الحديث كله، فلا إسهاب ولا إطناب، وإنما الحديث جزل التراكيب، متناسب الأجزاء في تأليف الكلمات، واضح الصلة بين اللفظ ومعناه، وهو يطمئن أي مسلم يستقبل أحداث الحياة المؤلمة بصبر وسكينة وتسليم بالقضاء والقدر، بالثواب الجزيل وتكفير الخطايا، بقدر الصبر على البلايا، ولنتأمل هذه الحالات الست التي تكمن في سراديب هذه الألفاظ الموجبة الدالة. فالرسول ﷺ يخصص المسلم، ولم يقل الإنسان، لأن المسلم يستقبل هذه الابتلاءات بالصبر والاحتساب، وهو الموعود بتكفير الخطايا، ومضاعفة الثواب والتفسير بالمضارع في قوله: "ما يصيب" إيحاء بدوام هذه الابتلاءات لأنها طبيعة الحياة، ولكنها تتوج عند الصبر بالجزاء الأوفى، والثواب الأجزل.

والنَصَبْ: هو التعب، وهي كلمة عامة تسبح في فضائها كل أنواع الأزمات وما أكثر صنوف البلاء التي يبتلى بها البشر، ومجيء حرف "من" يومئ إلى الاستقصاء، فمهما كان حجم أو نوع ذلك النصب: فالله سبحانه وتعالى يجعله مكفراً للخطايا.

---

(١) انظر: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، الرافعي ص ٢٥٤.

ولفظ "الوصب" أعم من "النصب" ولكن بينهما تشابه في اللفظ، وتجانس في الأثر وقيل: "الوصب" هو الوجع الدائم، ويضيف إلى النصب أبعاداً أخرى للآلام؛ "والهم"، هو ما يؤرق الإنسان تجاه مستقبله، والحزن ثمرة التفكير في الماضي الجريح، والأذى لفظ يتسع حقله الدلالي ليشمل كل ما يصيب النفس من مكروه، فتأمل كم يحمل هذا اللفظ من إشارات إلى حالات النفس الإنسانية "والغم" هو نتيجة الحزن الشديد، فهو حين يتمكن من الإنسان يغمى عليه، ويفقد الإحساس بمن حوله، ولكنه يثوب إلى رشده، ويرضى بما قسمه الله، وتأتي النتيجة "وهي" الثواب الإلهي لمن صبر واحتسب، فالله يكفر بسبب ذلك من خطاياه.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: التبشير.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: فضل الصبر والاحتساب.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: المصائب مكفرات للذنوب.

رابعاً: من أساليب الدعوة: التسرية والتسلية.

أولاً- من أساليب الدعوة: التبشير:

التبشير من أنجح الأساليب الدعوية، وقد استعمله النبي ﷺ في الحديث، فبشر المسلم بتكفير خطاياه إن صبر على ما يصيبه من آلام نفسية وحسية فقال: (ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه).

وقد كان التبشير من لوازم دعوته ﷺ، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾[1]، فقوله: (مبشراً) من الأوصاف التي تنطوي على مجامع الرسالة المحمدية والمبشِّر هو المخبر بالبشرى والبشارة، وهي الخبر المسر لمن يُخْبر به

(١) سورة الأحزاب، آية: ٤٥.

والوعد بالعطية، فالنبي ﷺ مبشر لأهل الإيمان والمطيعين بمراتب فوزهم، وقدمت البشارة على النذارة، لأن النبي ﷺ غلب عليه التبشير لأنه رحمة للعالمين، ولكثرة عدد المؤمنين في أمته.

وقال السعدي في تفسير قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ۝٤٦ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلٗا كَبِيرٗا ﴾[1]: "هذه الأشياء الخمسة التي وصف الله بها رسوله محمداً ﷺ هي المقصود من رسالته وزبدتها وأصولها التي اختص بها وهي خمسة أشياء: أحدها: كونه (شاهداً) أي: شاهداً على أمته بما عملوه، من خير وشر، كما قال تعالى: ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا ﴾[2]، ﴿ فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا ﴾[3]، فهو ﷺ شاهد عدل مقبول.

الثاني والثالث: كونه ﴿مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴾، وهذا يستلزم ذكر المبشر والمنذر، وما يبشر به وينذر، والأعمال الموجبة لذلك.

فالمبشَّرون: المؤمنون المتقون، الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، وترك المعاصي. لهم البشرى في الحياة الدنيا، بكل ثواب دنيوي وديني، رتب على الإيمان والتقوى. وفي الأخرى بالنعيم المقيم.

وذلك كله يستلزم ذكر تفصيل المذكور، من تفاصيل الأعمال، وخصال التقوى، وأنواع الثواب.

والمنذرون: هم: المجرمون الظالمون، أهل الظلم والجهل، لهم النذارة في الدنيا، من العقوبات الدنيوية والدينية، المترتبة على الجهل والظلم، وفي الأخرى بالعقاب الوبيل، والعذاب الطويل.

---

(١) سورة الاحزاب، الآيات: ٤٥ - ٤٧.

(٢) سورة البقرة، آية: ١٤٣.

(٣) سورة النساء، آية: ٤١.

وهذه الجملة تفصيلها ما جاء به ﷺ من الكتاب والسنة، المشتمل على ذلك.

الرابع: كونه (داعياً إلى الله) أي: أرسله الله يدعو الخلق إلى ربهم، ويشوقهم لكرامته، ويأمرهم بعبادته، التي خلقوا لها، وذلك يستلزم استقامته على ما يدعو إليه، وذكر تفاصيل ما يدعو إليه، بتعريفهم لربهم بصفاته المقدسة، وتنزيهه عما لا يليق بجلاله، وذكر أنواع العبودية والدعوة إلى الله بأقرب طريق موصل إليه، وإعطاء كل ذي حق حقه، وإخلاص الدعوة إلى الله، لا إلى نفسه وتعظيمها، كما قد يعرض ذلك لكثير من النفوس في هذا المقام. وذلك كله "بإذنه" تعالى له في الدعوة وأمره وإرادته وقدره.

الخامس: ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾، وذلك يقتضي أن الخلق كانوا في ظلمة عظيمة، لا يهتدي به في ظلماتها، ولا علم يستدل في جهالاتها. حتى جاء الله بهذا النبي الكريم، فأضاء الله به تلك الظلمات، وعلم به من الجهالات، وهدي به ضلالاً إلى الصراط المستقيم.

فأصبح أهل الاستقامة، قد وضح لهم الطريق، فمشوا خلف هذا الإمام وعرفوا به الخير والشر، وأهل السعادة من أهل الشقاوة، واستناروا به لمعرفة معبودهم وعرفوه بأوصافه الحميدة، وأفعاله السديدة وأحكامه الرشيدة.

وقوله: "وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً" ذكر في هذه الجملة المبشَّرين، وهم المؤمنون، وعند ذكر الإيمان بمفرده، تدخل فيه الأعمال الصالحة.

وذكر المبشَّرَ به، وهو الفضل الكبير، أي: العظيم الجليل، الذي لا يقادر قدره من النصر في الدنيا، وهداية القلوب، وغفران الذنوب، وكشف الكروب، وكثرة الأرزاق الدارة، وحصول النعم السارة، والفوز برضا ربهم وثوابه، والنجاة من سخطه وعقابه.

وهذا مما ينشط العاملين أن يذكر لهم، من ثواب الله على أعمالهم، ما به يستعينون على سلوك الصراط المستقيم، وهذا من جملة حكم الشرع، كما أن من حكمه أن يذكر في مقام الترهيب العقوبات المترتبة على ما يرهب منه، ليكون عوناً على الكف عما حرّم الله"[1].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٦١٤ - ٦١٥.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: فضل الصبر والاحتساب:

إن للصبر على ما ينزل بالإنسان من شدائد وآلام، واحتساب أجر ذلك عند الله تبارك وتعالى فضائل كثيرة منها ما ورد في الحديث بتكفير الخطايا، فقال ﷺ: (ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه).

وقد أمرنا الله بالاستعانة بالصبر فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾[1]، فالله سبحانه وتعالى يحب من عباده معالي الأمور، والتخلق بأكرم الصفات، والتي منها: الصبر وهو تحمل النفس مكاره الحياة وعدم الجزع لنوائب الدهر ونكباته، والصبر هو عين الراحة وينبوع الفرح إذا احتسبت صابراً خوفاً من الله ورجاء فيه، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[2][3].

إن الحياة صراع بين الحق والباطل، ويفوز في هذا الصراع الأطول نفساً والأكثر احتمالاً: ﴿... وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ...﴾[4]، ويتواصى أهل الباطل بالصبر على باطلهم: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ...﴾[5]، ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا...﴾[6]، أفلا يقول أهل الحق للمبطلين: ﴿...وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا...﴾[7]، حتى تتحقق فيهم سنة الله بالنصر والتمكين: ﴿... وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ ...﴾[8]، ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٥٣.
(٢) سورة الزمر، آية: ١٠.
(٣) انظر: كلمات من نور، ثاني المنصور ص ١١٠– ١١١.
(٤) سورة الفرقان، آية: ٢٠.
(٥) سورة ص، آية: ٦.
(٦) سورة الفرقان، آية: ٤٢.
(٧) سورة إبرهيم، آية: ١٢.
(٨) سورة الأعراف، آية: ١٣٧.

يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ...﴾[١].

كثير من الناس يتعللون بأن طِباعُهم تغلبهم، وأنه ليس لديهم القدرة على التحمل والصبر، ولو جاهد أحدهم نفسه لكظم الغيظ، وعف عن الحرام، ووسع صدره، وقنع بما آتاه الله إياه، وتجلّد على ما ابتلاه به؛ حتى يكتسب هذا الخلق، فقد قال ﷺ: ((ومَن يَستعفِفْ يُعفَّهُ اللّهُ، ومَن يَستغْنِ يُغنِه اللّهُ، ومَن يَتصبَّرْ يُصبِّرْهُ اللّه...))[٢]، ويوضح هذا المعنى ابن حجر بقوله: (... يصبره الله: أي فإنه يقويه ويمكنه من نفسه حتى تنقاد له، ويذعن لتحمل الشدة، فعند ذلك يكون الله معه فيظفر بمطلوبه)[٣].

والصبر المحمود ما كان بغير تسخط ولا جزع ولا يأس ولا شكوى، وفي هذا المعنى يقول ﷺ: ((ليسَ مِن أحدٍ يَقعُ الطاعون فَيمكثُ في بلدِهِ صابراً محتسِباً يعلم أنهُ لا يُصيبهُ إلا ما كتب اللهُ له إلا كان له مثلُ أجرِ شهيد))[٤]، يقول ابن حجر: (صابراً: أي غير منزعج ولا قلق، بل مسلّمًا لأمر الله راضيًا به)[٥]، وحين أمر رسول الله ﷺ بالصبر في بداية الدعوة أمر بالصبر الجميل ﴿فَٱصۡبِرۡ صَبۡرًا جَمِيلاً﴾[٦].

يقول القرطبي: (والصبر الجميل: هو الذي لا جزع فيه ولا شكوى لغير الله)[٧].

والصبر المحمود ما كان فيه تمام التوكل على الله وكمال اليقين به، هذا اليقين الذي يجعل المجاهد مقبلاً غير مدبر، فعن أبي قتادة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قام فيهم، فذكر لهم أن الجهاد في سبيل الله والإيمان بالله أفضل الأعمال، فقام رجل

---

(١) سورة السجدة، آية: ٢٤.

(٢) أخرجه البخاري ١٤٦٩.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٠٤/١١.

(٤) أخرجه البخاري ٣٤٧٤.

(٥) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٩٣/١٠.

(٦) سورة المعارج، آية: ٥.

(٧) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ١٨٤/١٨/٩.

فقال: يا رسول الله أرأيت إن قتلت في سبيل الله يكفر عني خطاياي؟ فقال: رسول الله ﷺ: ((نعم، إنْ قُتِلْتَ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَأَنْتَ صَابِرٌ مُحْتَسِبٌ، مُقْبِلٌ غَيْرُ مُدْبِرٍ...))[1]، وهو الصبر المتجمل باليقين في ساعة المصيبة، بحيث لا يفقد صوابه ولا يهذي بلسانه.

والمجتمع المسلم هو الذي يعم فيه التناصح بالصبر والتواصي به، فحين مرّ رسول الله ﷺ بامرأة وهي تبكي عند قبر قال لها: ((اتَّقي اللّهَ، واصبري))[2]، وحين أرسلت إليه إحدى بناته تخبره أن ابنها قبض أرسل إليها بقوله: ((إنَّ للّه ما أخذَ وله ما أعطى، وكلٌّ عندَه بأجَلٍ مُسمًّى، فلْتَصبرْ ولْتحْتَسِبْ....))[3].

ولا يزول الخسران عن المجتمع البشري ما لم يكن من صفاتهم: ﴿...وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾[4]، ﴿...وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾[5].

ولأن طعم الصبر مرٌ فلا بد أن يتعهد الإنسان نفسه ويتزود بالصبر الجميل، ومما يعين المسلم على التصبر استحضار ما أعدّ الله للصابرين، من تكفير السيئات ورفع الدرجات وتكثير الحسنات، ففي قصة المرأة التي كانت تصرع أن رسول الله ﷺ خيرها: ((إن شِئتِ صَبرتِ ولكِ الجنة ، وإن شِئتِ دَعَوتُ الله أن يُعافِيكِ. فقالت: أصبرُ))[6].

ويعين المرء على الصبر والثبات تذكّر سير الصالحين والتأسي بهم، فحين ذُكر لرسول الله ﷺ أن رجلاً قدح في قسمة رسول الله ﷺ قال: ((يرحمُ الله موسى، قد

(١) أخرجه الترمذي ١٧١٢، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٣٩٩).

(٢) أخرجه البخاري ١٢٨٣.

(٣) أخرجه البخاري ١٢٨٤.

(٤) سورة العصر، آية: ٣.

(٥) سورة البلد، آية: ١٧.

(٦) أخرجه البخاري ٥٦٥٢.

أوذيَ بأكثرَ من هذا فصبرَ))[١]، وقد وجهه القرآن إلى هذا المعنى: ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ... ﴾[٢].

ويهون على النفس استقبال البلاء وتلقي المحن، حين تعلم أن البلاء والصبر على قدر صلابة الدين عند الإنسان وقوته، فعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله أي الناس أشد بلاء؟ قال: ((الأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ. يُبْتَلَى الْعَبْدُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ صُلْباً اشْتَدَّ بَلاَؤُهُ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَمَا يَبْرَحُ الْبَلاَءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الأَرْضِ، وَمَا عَلَيْهِ مِنْ خَطِيئَةٍ))[٣].

وحين يعلم الصابر ما يزيحه الصبر عن كاهله من الذنوب يكون أكثر طمعاً في رحمة الله وأكثر رضى بقدر الله هذا عدا معية الله للصابرين، قال تعالى: ﴿ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[٤]، وَعَدَ وفاءِ الله بوعده لعباده الصابرين: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾[٥]"[٦].

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: المصائب مكفرات للذنوب:

من فضل الله ونعمه أنه يبتلي عبده بالمصائب، وتكون تكفيراً لسيئاته، وحطاً لذنوبه، وقد بيّن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك في الحديث: (ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه).

قال القرطبي: (ومقصود هذا الحديث وأمثاله أن الأمراض والأحزان -وإن دقّت- والمصائب - وإن قلت- أُجرَ المؤمن على جميعها، وكُفّرت عنه بذلك خطاياه حتى يمشي

---

(١) أخرجه البخاري ٣٤٠٥.

(٢) سورة الأحقاف، آية: ٣٥.

(٣) أخرجه ابن ماجه ٣٢٤٩، والحديث حسن صحيح، (صحيح سنن ابن ماجه ٣٢٤٩).

(٤) سورة الأنفال، آية: ٤٦.

(٥) سورة الروم، آية: ٦٠.

(٦) انظر: هذه أخلاقنا حين نكون مؤمنين، محمود محمد الخزندار ص ٨٠ - ٨٥.

على الأرض وليست له خطيئة، كما جاء في الحديث الآخر، لكن هذا كله إذا صبر المصاب واحتسب، وقال ما أمر الله تعالى به في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾[1]، فمن كان كذلك وصل إلى ما وعد الله به رسوله من ذلك"[2].

والإنسان في هذه الدنيا لا يمكن أن يبقى مسروراً دائماً، بل هو يوم يُسرٌّ ويوم يَحْزنَ، فهو مصاب بمصائب في نفسه وبدنه ومجتمعه وأهله، ولا تحصى المصائب التي تصيب الإنسان، ولكن المؤمن أمره كله خير فعن صهيب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ((عَجَباً لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ. إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ. وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إِلاَّ لِلْمُؤْمِنِ. إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ. فَكَانَ خَيْراً لَهُ. وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ، فَكَانَ خَيْراً لَهُ))[3].

قوله: "عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير"، المؤمن هنا: هو العالم بالله، الراضي بأحكامه، العامل على تصديق موعوده، وذلك: أن المؤمن المذكور إما أن يُبتلى بما يضره، أو بما يسره؛ فإن كان الأول صبر واحتسب ورضي، حصل على خير الدنيا والآخرة وراحتهما، وإن كان الثاني عرف نعمة الله عليه، ومنته فيها فشكرها، وعمل بها، فحصل على نعيم الدنيا ونعيم الآخرة.

وقوله: "وليس ذلك إلا للمؤمن"، أي: المؤمن الموصوف بما ذكرته؛ لأنه إن لم يكن كذلك لم يصبر على المصيبة ولم يحتسبها، بل: يتضجر ويتسخط، فينضاف إلى مصيبته الدنيوية مصيبته في دينه، وكذلك لا يعرف النعمة، ولا يقوم بحقها ولا يشكرها، فتنقلب النعمة نقمة، والحسنة سيئة -نعوذ بالله من ذلك-)[4].

فإذا أصبت بمصيبة فلا تظن أن هذا الهم أو الألم، ولو كان شوكة لا تظن أنه يذهب سدى، بل ستعوض عنه خيراً منه، ستحط عنك الذنوب كما تحط الشجرة

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٥٦.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ٥٤٦/٦.

(٣) أخرجه مسلم ٢٩٩٩.

(٤) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ٦٣٠/٦.

ورقها، وهذا من نعمة الله[١]، كما قال ﷺ: ((مَامِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أَذًى، إِلاَّ حَاتَّ اللَّهُ عَنْهُ خَطَايَاهُ، كَمَا تَحَاتُّ وَرَقُ الشَّجَرِ))[٢]، وقوله: إلا حات، أي: فتت، وذلك كناية عن إذهاب الخطايا[٣].

رابعاً- من أساليب الدعوة: التسرية والتسلية:

التسرية بمعنى كشف الألم وإزالته عن الفؤاد، وذلك من أنفذ الأساليب الدعوية إلى قلوب المدعوين، وفي الحديث: سلّى النبي ﷺ المصاب وسرّى عنه ما به من هم وغم ونحوه، ببيان أن جزاء ذلك تكفير خطاياه، فقال: (ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها عنه خطاياه)، فعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ دخل على أعرابي يعوده: قال: وكان النبي ﷺ إذا دخل على مريض يعوده، قال: ((لا بأس عليك، طهور إن شاء الله))[٤]، وعن جابر رضي الله عنه قال: دخل النبي ﷺ على أم السائب وهي تزفزف[٥]. فقال: ((مالك؟ قالت: الحمّى، أخزاها الله، فقال النبي ﷺ: مه، لا تسبيها فإنها تذهب خطايا المؤمن، كما يذهب الكير خبث الحديد))[٦]. وفي ذلك بيان أن الأمراض وغيرها من المؤذيات التي تصيب المؤمن مطهرة له من الذنوب، وأنه ينبغي للإنسان ألا يجمع على نفسه بين ضررين عظيمين: الأذى الحاصل، وتفويت ثوابه[٧]، فأسلوب التسلية والتسرية عن المصابين وغيرهم من أهم الأساليب التي ينبغي على الداعية أن يتبعها إظهاراً لتعاليم الإسلام مجسدة وكدليل على إخلاصه للدعوة وحبه للمدعوين[٨].

---

(١) شرح رياض الصالحين، محمد بن عثيمين ٩٩/١ - ١٠٠.

(٢) أخرجه البخاري ٥٦٤٧.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١١٥/١٠.

(٤) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ٥١٤، وصححه الألباني (صحيح الأدب المفرد ٣٩٩).

(٥) تزفزف: ترتعد، الوسيط في (ز ف ز ف).

(٦) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ٥١٦، وصححه الألباني (صحيح الأدب المفرد ٤٠١).

(٧) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ١٢٤.

(٨) انظر: قواعد الدعوة الإسلامية، د. الشريف حمدان راجح المهدي الهجاري ص ٢٧٠.

الحديث رقم (٣٨)

٣٨- وعن ابْن مسْعُود رضي الله عنه قَالَ: دَخلْتُ عَلى النَبيِّ ﷺ وَهُو يُوعَكُ فَقُلْتُ يا رسُولَ اللَّه إِنَّكَ تُوعكُ وَعْكاً شَديداً قال: «**أَجَلْ إِنِّي أُوعَكُ كَمَا يُوعَكُ رَجُلان مِنْكُم**» قُلْتُ: ذلك أَنَّ لَكَ أَجْرَيْن؟ قال: «**أَجَلْ ذَلك كَذَلك مَا منْ مُسْلِم يُصِيبُهُ أَذًى، شوْكَةٌ فَمَا فوْقَهَا إلاَّ كَفَّر اللَّه بهَا سيئاته، (وَحطَّتْ عنْهُ ذُنُوبُهُ)** [١] **كَمَا تَحُطُّ الشَّجرةُ وَرقَهَا**» متفقٌ عليه[٢].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن مسعود: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٣٦).

غريب الألفاظ:

الْوَعْكُ: مَغْثُ الحُمَّى، وقيل: الْحُمى. وهو الألم الشديد من المرض

الشرح الأدبي

إن أحاديث المصطفى ﷺ كالبنيان المرصوص يشد بعضها بعضاً، ولابد من قراءتها في ذلك السياق المتكامل، وترتيب مؤلف رياض الصالحين لها نابع من إدراكه لهذه القيمة التكوينية في تكامل دلالات الأحاديث.

فهذا الحديث الذي ينقل مشهداً مهيباً جليلاً مؤثراً وهو مشهد مرض النبي ﷺ له صلة عضوية بالحديث السابق: فهو تطبيق عملي، وتجربة حياتية لما قيل في الحديث السابق من أنواع الابتلاءات، وفي ختام هذا المشهد الحواري يَردُ الحديث السابق، وكأن هذه شفرة أسلوبية وإشادة معنوية لضرورة الربط بين الحديثين.

ولنتأمل هذا الحوار المضيء بالتعاليم النبوية، والتوجيهات الإسلامية، فالرسول ﷺ حتى في لحظة المرض لا يتوانى عن التوضيح والتوجيه والدعوة إلى الله، وشواهد الحوار يعلن عنها تكرار الفعل : فقلت، قال، قلت، قال.

---

(١) هذه الزيادة ليست عند البخاري ومسلم.

(٢) أخرجه البخاري (٥٦٤٨) واللفظ له، ومسلم (٢٥٧١/٤٥)، إلا قوله: (وحطت عنه ذنوبه) فليس عندهما. وسيكرره المؤلف برقم (٩١٥).

والإيجاز هنا مناسب للمقام والسياق، فالرسول ﷺ يمر بلحظة لا مجال فيها للتفصيل والتفريع، ولذلك جاء كلام ابن مسعود موجزاً، وإجابات الرسول غاية في الإيجاز مع وضوح الدلالة، وبيان المراد.

ولفظ "يوعك" فعل مبني للمجهول، وأعاده ابن مسعود في حواره "إنك توعك وعكاً شديداً"، والوعك: حرارة الحمى الشديدة ووهناً للبدن وإضعافها إياه، وهذا درس في الابتلاء فالأنبياء يضاعف عليهم الوجع، فيضاعف الأجر، كما ورد في الحديث الشريف فيما معناه.

وهذا الحوار الموجز صاحبته عدة ظواهر أسلوبية تقرب المعنى وتوضحه في نفس السامع والقارئ، فالنداء في قول ابن مسعود: "يارسول الله" يدل على اللهفة والأسى لمرض المصطفى ﷺ.

والتأكيد بإنّ المصاحبة لكاف الخطاب "إنك" ثم زيادة التأكيد بمجيء الفعل المطلق مع صفته. "وعكاً شديداً" هذا الأسلوب يفصح عن موقف ابن مسعود وهو الخوف على رسول الله ﷺ وكيف لا وهو: صاحب سر رسول الله ﷺ، وبشره رسول الله بالجنة وقال تكريمًا له: ((رضيت لأمتي ما رضي لها ابن أم عبد))[1].

وإعادة رسول الله ﷺ للألفاظ التي تحمل دلالة الحمى الشديدة وهي "الوعك" وما يدور في دائرتها، يوحي بثقل المرض الذي أشار إليه المصطفى ﷺ "يوعك مثل رجلين من الصحابة". ويربط ابن مسعود بين شدة الحمى ومضاعفة الأجر، ويقره الرسول ﷺ على ذلك في إيجاز يناسب المقام، ويراعي مقتضى الحال: فيقول: "أجل ذلك كذلك"، أي: مضاعفة الأجر مثل مضاعفة المرض، وفي ذلك مواساة لكل مسلم يبتليه الله بأي مرض أو نَصَب أو وَصَب أو هم أو حزن، أو أذى أو غم، ثم يُرسِي الرسول ﷺ قاعدة عامة ومنهجا في الاحتساب والصبر وله ظلاله وقبساته في الحديث السابق، لأن هذه الحالة ليست خاصة بالرسول فقط، وإنما الذي يخصه هو مضاعفة الأجر لشدة المرض، هذا المنهج يتمثل في قوله ﷺ "ما من مسلم يصيبه أذى: شوكة فما فوقها إلا كفر الله بها سيئاته، وحطت عنه ذنوبه، كما تحط الشجرة أوراقها".

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين ٥٤٣٨، وقال: هذا إسناد صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

وفي هذه القاعدة ظاهرتان من ظواهر الأسلوب في البيان النبوي وهما: أسلوب القصر ثم التشبيه، والقصر يحدد اختصاص المسلم بهذه الميزة وذلك الثواب، والتشبيه لتقريب المعنى إلى ذهن السامع وتمكينه منه - كما يقرر صاحب الطراز في باب التشبيه، ويرى أن أول أغراض التشبيه: التقرير والتمكين في النفس ولا يسقط من الشجرة إلا الورق التالف، والثمر المعطوب، فكأن المسلم الصابر المحتسب يظل مثل الشجرة الخضراء الوارفة الظلال اليانعة الثمار لا تؤثر فيها العواصف والأنواء، بل تظل دائمة العطاء.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الحوار.

ثانياً: من صفات الداعية: الصبر والتحمل وعدم الضجر.

ثالثاً: من خصوصيات النبي ﷺ: تحمل ما لا يطيقه غيره.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: المصائب مكفرات للذنوب.

أولاً- من أساليب الدعوة: الحوار:

ورد هذا الأسلوب الدعوي في الحديث وذلك من خلال ما دار بين رسول الله ﷺ وعبدالله بن مسعود رضي الله عنه من حوار، فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: (دخلت على النبي ﷺ وهو يوعك، فقلت: يا رسول الله إنك توعك وعكاً شديداً، قال: أجل... الحديث)، والحوار: نمط من أنماط التعبير تتحدث به شخصيتان أو أكثر، وقد اتسم حديثهم بالموضوعية والإيجاز والإفصاح أو غير ذلك، وهو الطابع الذي يتسق به الكلام بطريقة تجعله يثير الاهتمام باستمرار[1].

لذا ينبغي على الدعاة أن يفتحوا قنوات الاتصال بالمدعوين ومن أهمها الحوار، إذ أن أسلوب الحوار يؤدي دوراً فعالاً ومهماً في الدعوة، ويعطيها الحيوية والحركة ويبعث فيها النشاط[2].

---

(١) القصة في القرآن الكريم، د. مريم عبدالقادر السباعي ص ١٢١.

(٢) المرجع السابق ١٢٢.

ولقد استخدم النبي ﷺ في دعوته الحوار في كثير من المواقف، وكان من بين أغراضه وأهدافه: تعليم الصحابة والناس أمور دينهم، ويبدأ الحوار بسؤال من الرسول ﷺ أو بسؤالٍ من أحد أصحابه، يستفيد منه المستمعون لهذا الحوار، والأمثلة على الحوار التعليمي في سنة الرسول ﷺ كثيرة، ومنها ما يأتي:

ما روي عن عبدالرحمن بن أبي ليلى قال: ((لَقِيني كعبُ بن عُجرةَ فقال: ألا أُهدي لكَ هَديةً سمعتُها منَ النبيِّ ﷺ؟ فقلت: بَلى فأهدها لي، فقال: سألنا رسولَ الله ﷺ فقلنا: يا رسولَ الله كيفَ الصلاةُ عليكم أهلَ البيت، فإن اللهَ قد علمنا كيفَ نسلِّم. قال: قولوا اللّهمَّ صل على محمدٍ وعَلَى آلِ محمدٍ كما صليتَ على إبراهيمَ وعلى آلِ إبراهيمَ إنكَ حَميدٌ مَجيد، اللّهمَّ بارك على محمدٍ وعلى آلِ محمدٍ كما باركتَ على إبراهيم وعلى آلِ إبراهيمَ إنَّكَ حَميدٌ مَجيد))[1].

دار هذا الحوار بين الرسول ﷺ وأصحابه، فقد سأل الصحابةُ رضي الله عنهم الرسول ﷺ سؤالاً، فأجاب عليهم وعلمهم.

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: ((كُنتُ مع النبي ﷺ فأصبحتُ قريباً منه ونحن نسير فقلت: يا نبيَّ الله أخبرني بعملٍ يُدخلني الجنَّة ويُبعِدُني عن النَّار قال: لَقَدْ سَأَلْتَ عَنْ عَظِيمٍ وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ الله عَلَيْهِ. تُقِيمُ الصَّلاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ، وَتَحُجُّ الْبَيْتَ، ثُمَّ قَالَ: أَلا أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ، الصَّوْمُ جُنَّةٌ، والصَّدَقَةُ تُطْفِىءُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِىءُ الْمَاءُ النارَ، وَصَلاةُ الرَّجُلِ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ، ثُمَّ تَلا ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُم عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ حَتَّى ﴿يَعْمَلُونَ﴾ ثُمَّ قَالَ: أَلا أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الأَمْرِ وَعَمُودِهِ وَذِرْوَةِ سَنَامِهِ (قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ الله، قَالَ: «رَأْسُ الأَمْرِ الإِسلام، وعَمودُهُ الصَّلاةُ وذِرْوَةُ سَنَامِهِ) الْجِهَادُ»، ثُمَّ قَالَ: «أَلا أُخْبِرُكَ بِمِلاكَ ذَلِكَ كُلِّهِ؟» قلت: بلى يا رسول الله، فأخذ بلسانه فقال: «كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا» قلت: يا رسول الله وإنَّا لَمُؤاخَذون بما نتكلَّم به؟ قَالَ: «ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ - أَوْ قَالَ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ - إلاَّ حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ))[2].

---

(١) أخرجه البخاري ٣٣٧٠.

(٢) أخرجه الترمذي ٢٦١٦، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢١١٠).

دار هذا الحوار بين الرسول ﷺ ومعاذ بن جبل رضي الله عنه وقد علمه الرسول ﷺ أموراً مهمة لكل مسلم[١].

ثانياً- من صفات الداعية: الصبر والتحمل وعدم الضجر:

إن ما يعين الداعية على الاستمرارية في دعوته وتبليغها للناس تجمُّله بالصبر والتحمل وعدم التبرم والضجر، وليكن له في رسول الله ﷺ الأسوة الحسنة في تحمله للشدائد كلها بلا استثناء، فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: (دخلت على النبي ﷺ وهو يوعك، فقلت: (يا رسول الله إنك توعك وعكاً شديداً، قال: أجل إني أوعك كما يوعك رجلان منكم..)، فإن تحلي الداعية بالصبر يجعله يتغلب على ما يقابله من عوائق وعقبات، ولقد أمر الله تعالى رسوله الكريم ﷺ بالصبر متأسياً في ذلك بإخوانه من الرسل عليهم السلام فقال: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾[٢].

فما نرى الله عز وجل أوصى رسله بشيء أكثر مما أوصاهم بالصبر، وليس معنى الصبر هنا الاستكانة والذلة والقعود عن الدعوة، والكف عن التفكير في معالجة من يستطيلون بالأذى على الأحرار الأبرياء، وإنما الصبر هنا معناه أن يهضم الداعية ما يلقى من إعراض وعناد، وتحدٍ وأذى، وأن يروض نفسه ومعدته العصبية على هضم ذلك كله وأن يحسن الاحتمال واستقبال كل شدة بالرضا والتسليم، وحمد الله على كل حال، وطلب المغفرة لمن يجهلون عليه، فإنهم لا يعلمون[٣].

إن الداعية إلى الله عز وجل في أمس الحاجة إلى خلق الصبر، إذ أن نظام الكون اقتضى أن يكون لأصحاب الدعوات أعداء يمكرون بهم، ويكيدون لهم ويتربصون بهم الدوائر، ولذلك كان لآدم عليه السلام إبليس، وكان لإبراهيم عليه السلام نمروذ، وكان لموسى عليه السلام فرعون، وكان لمحمد ﷺ أبو جهل ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيٗا وَنَصِيرٗا﴾[٤].

---

(١) الحوار: "آدابه - تطبيقاته"، خالد محمد المغامسي ص ٩٥ - ٩٦.

(٢) سورة الأحقاف، آية: ٣٥.

(٣) انظر: تذكرة الدعاة، البهي الخولي ص ٢٦٦ - ٢٦٧.

(٤) سورة الفرقان، آية: ٣١.

فما أحوج الداعية إلى الصبر على هذا البلاء ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِي الْمُرْسَلِينَ﴾[1].

وقد جاء التوجيه لنبينا محمد ﷺ وهو خير الدعاة وإمامهم: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾[2].

فإذا كان الصبر ضرورياً لكل مسلم فإنه بالنسبة للداعي أشد ضرورة؛ لأن الداعية يعمل في ميدانين: ميدان نفسه، يجاهدها ويحملها على الطاعة، ويمنعها من المعصية، وميدانٍ خارج نفسه وهو ميدان الدعوة الفسيح، ومخاطبة الناس ومخالطتهم؛ لأن المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم[3].

ولقد أدرك هذه الحقيقة لقمان الحكيم وهو يوصي ولده وصيته المشهورة والتي نصّ عليها القرآن الكريم ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾[4]، ونلاحظ في هذه الوصية المباركة أن لقمان رتب الأمر ترتيباً يحسن بالدعاة مراعاته، حيث بدأها بإعداد النفس وأخذها بالطاعة، ثم ثنى بدعوة الغير ثم أمره بالصبر على ما يصيبه، وتحمل ما يعرض له[5].

ولقد ضرب لنا رسول الله ﷺ أروع الأمثلة في صبره وشدة تحمله على ما أصابه في طريق الدعوة فقد ألصقت به ﷺ عبارات السوء فقالوا عنه: شاعر، وكاهن،

---

(١) سورة الأنعام، آية: ٣٤.

(٢) سورة الأحقاف، آية: ٣٥.

(٣) انظر: الدعوة قواعد وأصول، جمعة أمين عبدالعزيز ص ٦٠ - ٦١.

(٤) سورة لقمان آية: ١٧.

(٥) أسس الدعوة وآداب الدعاة، محمد السيد الوكيل ص ٧٧.

وساحر، ويعلمه بشر... إلخ، وقد كسرت رباعيته وشج وجهه يوم أحد وصبر على ذلك ﷺ. وكان من صور صبره ﷺ في دعوته للمشركين ما جاء في حديث خباب بن الأرت رضي الله عنه قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة فقلنا: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو لنا؟ فقال: ((كان الرَّجلُ فيمن قبلَكمْ يُحفَرُ له في الأرضِ فيُجعَلُ فيه، فيُجاء بالمنشارِ فيوضعُ على رأسهِ فيُشَقُّ باثنتَينِ، . وما يَصُدُّهُ ذلك عن دينه، ويُمشَطُ بأمشاطِ الحديدِ ما دُونَ لحمهِ من عظمٍ أو عَصَب، وما يَصدُّهُ ذلك عن دينه. والله لَيتمَّنَّ هذا الأمرُ حتى يَسيرَ الراكبُ من صنعاءَ إلى حَضْرَموتَ لا يخافُ إلاّ اللّهَ، أوِ الذِّئبَ على غنمه، ولكنَّكم تَستَعجِلون))[1].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: ((يَا رَسُولَ اللّهِ! هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ؟ فَقَالَ: «لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ، وَكَانَ أَشَدُّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلاَلٍ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَىٰ مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَىٰ وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلاَّ بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ. فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ، فَنَادَانِي. فَقَالَ: إِنَّ اللّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ. قَالَ: فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ وَسَلَّمَ عَلَيَّ. ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ! إِنَّ اللّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَأَنَا مَلَكُ الْجِبَالِ، وَقَدْ بَعَثَنِي رَبُّكَ إِلَيْكَ لِتَأْمُرَنِي بِأَمْرِكَ. فَمَا شِئْتَ؟ إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ». فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللّهِ : «بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللّهُ مِنْ أَصْلاَبِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللّهَ وَحْدَهُ، لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً))[2].

ثالثاً- من خصوصيات النبي ﷺ: تحمل ما لا يطيقه غيره:

لقد اختص الله رسول الله ﷺ بما لم يخص به غيره، ومن ذلك ما ورد في الحديث من تحمله ما لا يطيقه غيره، فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: (يا رسول الله إنك توعك وعكاً شديداً، قال: أجل إني أوعك كما يوعك رجلان منكم، قلت: ذلك أن

---

(١) أخرجه البخاري ٣٦٢١٢.

(٢) أخرجه مسلم ١٧٩٥.

لك أجرين؟ قال: أجل ذلك كذلك)، قال القاضي عياض: "والحكمة في إجراء الأمراض وشدتها على نبينا ﷺ، وعلى غيره من الأنبياء، أن ذلك زيادة في مكانتهم ورفعة في درجاتهم، وأسبابٌ لاستخراج حالات الصبر والرضا والشكر والتسليم والتوكل والتفويض والدعاء والتضرع منهم، وتأكيد لبصائرهم في رحمة الممتحنين والشفقة على المسلمين، وتذكرة لغيرهم وموعظة لسواهم ليتأسوا في البلاء بهم ويتسلوا في المحن بما جرى عليهم ويقتدوا بهم في الصبر"[1].

رابعاً: من موضوعات الدعوة: المصائب مكفرات للذنوب:

إنه لمن فضل الله عز وجل ونعمته على عبده المسلم أن يبتليه بالمصائب، وتكون -إن صبر عليها- تكفيراً لسيئاته وحطاً لذنوبه[2]، وفي الحديث صرح النبي ﷺ بذلك، فقال: (ما من مسلم يصيبه أذى، شوكة فما فوقها إلا كفر الله بها سيئاته، وحُطّت عنه ذنوبه، كما تحط الشجرة ورقها)، قال الطيبي: "قوله: وحُطت عنه ذنوبه كما تحط الشجرة ورقها، وحالة المريض وإصابة المرض جسده، ثم محو السيئات عنه سريعاً بحالة الشجرة، وهبوب الرياح الخريفية، وتناثر الأوراق منها سريعاً وتجردها عنها، فهو تشبيه تمثيلي لانتزاع الأمور المتوهمة في المشبه من المشبه به، فوجه التشبيه: الإزالة الكلية على سبيل السرعة لا الكمال والنقصان؛ لأن إزالة الذنوب عن الإنسان سبب كماله، وإزالة الأوراق عن الشجرة سبب نقصانها"[3].

إن من نعم الله تعالى على عبده أن يبتليه بالمصائب فتكون تكفيراً لسيئاته وحطاً لذنوبه، والإنسان في هذه الدنيا لا يمكن أن يبقى مسروراً دائماً، بل هو يوم يُسر، ويوم يحزن، ويوم يأتيه شيء ويوم لا يأتيه، فهو مصاب بمصائب في نفسه، ومصائب في بدنه، ومصائب في مجتمعه ومصائب في أهله، ولا تحصى المصائب التي تصيب الإنسان، ولكن المؤمن أمره كله خير، إن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له، وإن

---

(١) كتاب الشفا، بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض ص ٥٣١ - ٥٣٢.

(٢) شرح رياض الصالحين ٩٩/١.

(٣) شرح الطيبي، الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ٢٩٨/١٣.

اصابته سراء شكر فكان خيراً له.

فإذا أصبت بالمصيبة فلا تظن أن هذا الهم الذي يأتيك أو هذا الألم الذي يأتيك ولو كان شوكة لا تظن أنه يذهب سدى، بل ستعوض عنه خيراً منه، ستحط عنك الذنوب كما تحط الشجرة ورقها وهذا من نعمة الله.

وإذا زاد الإنسان على ذلك، الصبر والاحتساب أي: احتساب الأجر كان له مع هذا أجر. فالمصائب تكون على وجهين:

أ- تارة إذا أصيب الإنسان تذكر الأجر واحتسب هذه المصيبة على الله فيكون فيها فائدتان: تكفير الذنوب، وزيادة الحسنات.

ب- وتارة يغفل عن هذا فيضيق صدره، ويغفل عن نية الاحتساب والأجر على الله بشرط أن لا يضيق ذرعًا أو ينطق كفرًا فيكون في ذلك تكفير لسيئاته، إذاً هو رابح على كل حال في هذه المصائب التي تأتيه.

فإما أن يربح تكفير السيئات وحط الذنوب بدون أن يحصل له أجر لأنه لم ينو شيئاً ولم يصبر ولم يحتسب الأجر. وإما أن يربح شيئين كما تقدم.

ولهذا ينبغي للإنسان إذا أصيب ولو بشوكة فليتذكر الاحتساب من الله على هذه المصيبة، وهذا من نعمة الله سبحانه وتعالى وجوده وكرمه حيث يبتلي المؤمن ثم يثيبه على هذه البلوى أو يكفر عنه سيئاته. فالحمد لله رب العالمين[1] على جزيل عطائه.

---

(١) شرح رياض الصالحين، محمد بن عثيمين، ١/٩٩ - ١٠٠.

الحديث رقم (٣٩)

٣٩- وعنْ أَبي هُرَيرة رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْراً يُصِبْ مِنْهُ» رواه البخاري[١].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

يصب منه: ضبطوا يُصب بفتح الصاد وكسرها: ومعناه: ابتلاه بالمصائب ليثيبه عليها[٢].

الشرح الأدبي

إن الصبر تاج المؤمن، والاحتساب سلاحه الإيماني الذي يواجه به كوارث الحياة، ويقتحم ميادين المفاجآت، والمؤمن في استقباله لأحداث الحياة أمره كله خير؛ لأنه يدرك مصدر التدبير، ومنابع التقدير، فكل بارقة من بوارق الحياة تستمد أنوارها من الخالق الوهاب، وكل ما يغشى حياة المسلم من سحابات العناء، وغواشي الهموم. فمرده إلى رب الأرض والسماء، وهو الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم؛ ولأن المؤمن يستمد من عطاءات ربه ما يقوي عزيمته، ويشحذ إرادته: فأمره كله خير: إن أصابته سراء شكر، وإن أصابته ضراء صبر.

وحين نتأمل الأسرار التعبيرية التي تجلي واقع المؤمن، وتؤطر سلوكه في مواجهة أحداث الحياة من خلال قراءة هذا الحديث الشريف، قراءة جمالية للوقوف على بعض أسرار البيان النبوي، نرى أن المصطفى ﷺ يجعل الابتلاء بوابة لميدان الخير، والخير هنا ليس مكاسب دنيوية، ولا أمنيات قلبية، ولا خطرات نفسية، وإنما الخير هنا هو

---

(١) برقم (٥٦٤٥). أورده المنذري في ترغيبه (٤٩٨٩).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٥٢٨، وانظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٠/١١٢.

مراد الله للإنسان الصابر على البلاء، والراضي بالقضاء، والشاكر على النعماء.

وهذه المكافأة الإلهية للمؤمن الصابر يفصح عنها البناء اللغوي لهذا الحديث الشريف، فالحديث يتكون من سبع كلمات تجمع أنواع الكلم كلها: الاسم والفعل والحرف، وتنتظمه جملة لغوية واحدة، وهذه الجملة صيغت في أسلوب يعلن عن مضمون الحديث وهو مضاعفة الثواب للمؤمن الصابر المحتسب، وأسلوب الشرط والجزاء هو الصيغة المناسبة لأداء المعنى في هذا الحديث الشريف، وكثير من أحاديث المصطفى ﷺ، تجيء في هذا القالب اللغوي الإيحائي، وتلك سمة بلاغية مضيئة تعضد قول عبدالقاهر الجرجاني في تحديد قيمة بلاغة الكلام، وتحديد الطريق إلى استكشافها : فيقول البلاغة: تَوخِّي معاني النحو بين الكلم. وفعل الشرط جاء مضارعاً "يُرد" ليوحي بتحقيق الجزاء وديمومته، وتحقق المراد الإلهي، لأنه لا راد لأمر الله والله يفعل ما يريد، ولفظ الجلالة هنا: وهو الفاعل والقائم بالإرادة، هذا اللفظ يضئ حياة المؤمن، ويسكن في قلبه الخشوع والخضوع، والهيبة والجلال، ويدفع به إلى مقاومة ما يفاجئه من أهوال، وذكر الله في كل المواقف يرسخ قيمة الصبر والسكينة والتوكل على الله في نفس المؤمن مهما كابد وعانى في الحياة، ولفظ "به" حيث اكتفى رسول الله بالضمير، وهو عمدة المعارف ولم يحدد الرسول ﷺ هوية هذا الضمير وجعله يعود على كل ما يحرص عليه الإنسان من بدن ومال وولد ومكتسبات حياتية، والإيجاز من أهم سمات البلاغة النبوية، فهذه الجملة الشرطية لا تحدد شخصاً واحداً، ولا تحدد قيمة واحدة، ولكنها تنطبق على ملايين البشر الذين يستقبلون أقدار الله بالرضا والسكينة.

والمفارقة الأسلوبية والمعنوية تصبغ جو الحديث الشريف: فكيف يكون الخير هو طريق الابتلاء، وكيف يكون الابتلاء ثمرة من ثمار الخير: إنها إرادة الله عز وجل، وقال تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴾[1].

---

(١) سورة محمد، آية: ٣١.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾(١).

والتعبير بقوله: "يصب منه": جواب الشرط: أى يصيب الله المؤمن ببلاء، والتعبير بقوله: "منه" يفصح عن رحمة الله بعبده الصابر: فالمصيبة تظل جزئية، ولا تشمل كل جوانب الحياة لأن مِنْ للتبعيض: تبارك الله أرحم الراحمين.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: الابتلاء.

ثانياً: من أساليب الدعوة: البشارة.

أولاً- من موضوعات الدعوة: الابتلاء:

إذا ابتلى الله عبده بشيء من أنواع البلايا والمحن، فإنّ ردّه ذلك الابتلاءُ والمحنُ إلى ربه، وجمعه عليه وطرحه ببابه، فهو علامة سعادته وإرادة الخير به. والشدَّة بتراء لا دوام لها، وإن طالت، فتقلع عنه حين تقلع، وقد عوض منها أجلّ عوض وأفضله، وهو رجوعه إلى الله، بعد أن كان شارداً عنه، وإقباله عليه بعد أن كان نائياً عنه، وانطراحه على بابه وقد كان عنه معرضاً، وللوقوف على أبواب غيره متعرضاً، وكانت البلية في حق هذا عين النعمة، وإن ساءته وكرهها طبعه ونفرت منها نفسه، فربما كان مكروه النفوس إلى محبوبها سبباً ما مثله سبب، وقوله تعالى في ذلك هو الشفاء والعصمة: ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾(٢)(٣).

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٨٦.

(٢) سورة البقرة، آية: ٢١٦.

(٣) طريق الهجرتين وباب السعادتين، ابن القيم ص ١٥٣.

فالابتلاء في ذلك هو تطهير للمؤمن ورحمة وتكميلٌ له، وهذا ما أكده نص الحديث في قوله: "من يرد الله به خيراً يصب من"، قال ابن حجر: (قال الهروي: معناه يبتليه بالمصائب ليثيبه عليها)[١].

وقد عظّم النبي ﷺ هذا الثواب فقال: ((ما يُصيبُ المسلمَ من نَصبٍ ولا وَصَبٍ ولا همّ ولاَحَزَن ولا أذى ولا غمّ - حتى الشّوكةِ يُشاكها - إلا كفَّرَ اللهُ بها من خَطاياه))[٢]، وقال ﷺ: ((مَا مِنْ مُصِيبَةٍ تُصِيبُ المُسْلِمَ، إلاَّ كَفَّرَ اللهُ بِهَا عنهُ، حتَّى الشَّوْكَةُ يُشَاكُهَا))[٣]، وقال ﷺ: ((عَجَباً لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إلاَّ لِلْمُؤْمِنِ إنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْراً لَهُ وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْراً لَهُ))[٤].

قال ابن عثيمين: (إن المراد من يصبر على هذه المصائب، فإن ذلك خير له، وذلك في تكفير الذنوب وحط الخطايا، ولا شك أن ذلك خير للإنسان، لأن المصائب غاية ما فيها أنها مصائب دنيوية تزول بالأيام كلما مضت الأيام خففت عليك المصيبة لكن عذاب الآخرة باقٍ والعياذ بالله! فإذا كفّر الله عنك بهذه المصائب صار ذلك خير لك)[٥].

ثانياً- من أساليب الدعوة: البشارة:

ورد ذلك في الحديث من تبشير النبي ﷺ لمن أصابته بلية بالخير والثواب من الله، ويحصل ذلك بصبره ورضائه وتسليم أمره لله، والبشارة من الأساليب الدعوية الهامة التي تبعث على انشراح الصدر وسعادة القلب، وذلك أدعى إلى جلب الطمأنينة وسكون النفس واستقرارها، وقد كان لنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة فكان ﷺ يبشر أصحابه رضي الله عنهم بعظيم الثواب من الله ويأمر بذلك، فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١١٢/١٠.

(٢) أخرجه البخاري ٥٦٤١، ٥٦٤٢.

(٣) أخرجه البخاري ٥٦٤٠.

(٤) أخرجه مسلم ٢٩٩٩.

(٥) شرح رياض الصالحين ١٠١/١.

النبي ﷺ بعثه ومعاذاً إلى اليمن فقال: ((يَسِّرا ولا تُعسِّرا، وبَشِّرا ولا تُنفِّرا، وتطاوَعا ولا تختَلِفا))[(١)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((مَن أنْفقَ زَوجَين في سَبيلِ اللهِ نُودِيَ من أبوابِ الجنّةِ: يا عَبدَ اللهِ هذا خيرٌ، فمَن كانَ مِن أهلِ الصلاةِ دُعِيَ من بابِ الصَّلاَةِ، ومَن كان مِن أهلِ الجِهَادِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الجِهَادِ، ومَنْ كَان مِنْ أَهْلِ الصِّيامِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الرَّيَّانِ، ومَن كانَ من أهلِ الصدّقةِ دُعي من بابِ الصدَقة)). فقال أبو بكرٍ رضي الله عنه: بأبي أنتَ وأُمي يا رسولَ اللهِ، ما على من دُعى من تلكَ الأبوابِ من ضَرورةٍ، فهل يُدعَى أحدٌ من تلكَ الأبوابِ كلّها؟ قال: ((نعم، وأرجو أن تكونَ منهم))[(٢)].

فحري بالدعاة أن يقتدوا برسول الله ﷺ في تبشيره بعظيم الثواب، وحسن الجزاء من الله تعالى؛ وذلك أدعى إلى قبول الدعوة ونفاذها إلى قلوب المدعوين فضلاً عن حملهم على حسن العمل وإخلاصه بين يدي الله.

---

(١) أخرجه البخاري ٣٠٣٨، ومسلم ١٧٣٣.

(٢) أخرجه البخاري ١٨٩٧، ومسلم ١٠٢٧.

الحديث رقم (٤٠)

٤٠- وعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللَّه ﷺ: «**لا يتَمنينَّ أَحدُكُمُ الْمَوْتَ لِضُرٍّ**[1] **أَصَابَهُ، فَإِنْ كَانَ لا بُدَّ فاعلاً فليقُل: اللَّهُمَّ أَحْيني ما كَانَت الْحياةُ خَيراً لِي وتوفَّني إِذَا كَانَتِ الْوفَاةُ خَيْراً لِي**» متفق عليه[2].

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

الشرح الأدبي

إن المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف؛ وميزان قوة المؤمن في قدرته على مواجهة المصائب، وفي يقينه الذي توهج به الحديث السابق وهو أن الابتلاء الإلهي طريق للخير الدنيوي والأخروي، إذا أحسن العبد استقبال مراد الله فيه، وصبر على البلاء، ورضي بالقضاء.

ولكن النفس البشرية تنتابها لحظات الضعف، وتسيطر على أجزاء من تضاريسها المتشبعة – أحياناً، أشباح اليأس، وتسري في شعابها وسراديبها أوهام الظنون، ويفقد بعض الناس تصالحه مع الحياة، فيحاول الهرب من واقعه إلى أودية الخيالات، ومتاهات المفازات، ويبالغ البعض في هروبه من ميدان المجابهة، ويتمنى أن يرحل عن آفاق هذه الحياة؛ ويوغل في أمنياته اليائسة فيتمنى الموت، "ولكن سوابق الهمم لا تخرق أسوار الأقدار" كما يقول العلماء الأخيار.

ولذلك يتوجه رسول الله ﷺ بالنهي إلى هذه الطائفة المهزومة التي تتكرر في كل زمان، وفي كل مكان، ويقول في أسلوب حاسم جازم مؤكد "لا يتمنين أحدكم الموت لضر أصابه".

---

(١) لفظ البخاري في هذه الرواية: (من ضر)، وبهذا اللفظ عنده برقم (٦٣٥١).

(٢) أخرجه البخاري (٥٦٧١) واللفظ له، ومسلم (١٠/٢٦٨٠). أورده المنذري في ترغيبه (٤٩٣٣). وسيكرره المؤلف برقم (٥٨٦).

والنهى هنا يحمل في طياته الأمر بعدم الوقوع في شباك هذه الأمنية اليائسة، وجاء الفعل مؤكداً بنون التوكيد الثقيلة ليفصح عن شدة الأمر، وعظم المسؤولية، وحتمية الكف عن مثل هذه الخواطر والوساوس التي تتحول إلى واقع كئيب مظلم يؤدي بصاحبه إلى اليأس والانتحار والخروج من ملة الإسلام، والموت على الكفر.

ومجيء الفعل في صيغة المضارع يوحي بأن هذا الواقع المتصادم مع الحياة يمكن أن يستمر مع كل الأجيال، وجميع الأمم، ولكن المؤمن القوي قادر على المواجهة، وعلى الصبر، وعلى إسلام الوجه لله، والتسليم بإرادته عز وجل.

ولفظ "أحدكم" حين نتساءل لماذا عدل رسول الله ﷺ عن لفظ المسلم، أو المؤمن، أو العبد، إلى هذا اللفظ: الواحد منكم؟ إن الإجابة تكشف عن قيمة البيان النبوي المضيء بالألفاظ الموحية، والمعاني الصافية، وكأن المصطفى ﷺ يريد أن يبتعد بلفظ المسلم أو غيره من الألفاظ التي يتحدد مدلولها من خلال منطوقها عن جو هذا السلوك اليائس، ولذلك قال "أحدكم"، وكاف الخطاب: تتوجه بهذا الأمر إلى كل من يقرأ ومن يسمع، حتى لغير المسلم، عسى الله أن يتوب عليه ويأخذ بيده إلى آفاق الهداية، ومنارات اليقين وكلمة "ضر" جاءت في ثوب النكرة، لتفيد الشمول والعموم، فهذا اللفظ الموجز يموج بجميع أنواع الابتلاءات التي تصيب الإنسان في نفسه أو ماله، أو من يلوذ به أو نحوه، كما يقول الله عز وجل: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾(١).

وفي التعبير، بـ"يتمنى" دون يسأل، إيماء إلى أنه قد يكون من المستحيل لعدم مجيء حينه، فحصوله حينئذ أي الموت محال، وإن كان بأنواع السؤال، فسوابق الهمم لا تخرق أسوار الأقدار(٢).

وقال العلماء: يجوز تمني الموت شوقاً للقاء رب العالمين، حيث لا يعرف اليأس طريقاً

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٥٥.

(٢) انظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ١/١٧٣.

للذين أحبوا ربهم، ((ومن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه))[1].

والتعبير بصيغة الماضي في "أصابه" إيحاء بعدم مصاحبة الضر واستمراره ولكنه عارض زائل، والمؤمن القوي يوقن أن الضر خير.

والجزء الثاني من الحديث جاء في قالب الشرط والجزاء، والجواب جاء في صيغة الأمر "فليقل"، للإيمان بوجوبية هذا السلوك تجاه هذه الحالة النفسية التي يتشوق فيها الإنسان للقاء ربه، والنجاة تمثل في الدعاء والاستنجاد بالله عز وجل: "اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي".

فقه الحديث

بين الحديث أهمية النفس الإنسانية وحرمتها وأن أحد الموبقات الموجبة لسخط الله وعذابه إلقاء النفس في التهلكة، أو تمني الموت والسعي إليه في غير حقه.

وقد اتفق الفقهاء[2] على أنه يكره للإنسان أن يتمنى الموت نفسه، على أن المقصود هنا التمني المطلق؛ لأن فيه نوع اعتراض ومراغمة للقدر المحتوم، وأن التمني هنا إذ أريد به الفرار للآخرة فغير منهي عنه، كخوف الفتنة فغير منهي عنه، على أن يكون بالصيغة الواردة في الحديث؛ لأن فيها نوع تفويض لله تعالى وتسليمًا للقضاء.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: النهي.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: عدم تمني الموت لما يصيب الإنسان من ضر.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: أهمية الاستجابة لتوجيهات النبي ﷺ.

---

(١) أخرجه البخاري ٦٥٠٧، ومسلم ٢٦٨٣.

(٢) حاشية ابن عابدين، محمد أمين بن عمر بن عبدالعزيز ٤١٩/٦، وشرح منح الجليل على مختصر خليل، الشيخ محمد بن أحمد بن محمد عليش ١٦٤/٣، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ١٥٧/٥، وحاشيتا قليوبي وعميرة ٣٤٨/١، والزواجر عن اقتراف الكبائر، أبو العباس أحمد بن محمد الهيتمي لابن حجر ٩٦/٢، والمغني، ابن قدامة ٤١٨/٢، وفتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٢٨/١٠، وشرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٩/١٧.

أولاً- من أساليب الدعوة: النهي:

قد ورد هذا الأسلوب في الحديث من نهيه ﷺ عن تمني الموت؛ لضر أصاب الإنسان؛ لأن في موته انقطاعاً لعمله الصالح وعدم زيادته، والنهي من الأساليب الدعوية التي يحسن بالداعية استعمالها في توجيه المدعو إلى اجتناب ما فيه هلاكه وهذا ما أفاده نص الحديث وكثر استخدامه في القرآن والسنة.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: عدم تمني الموت لما يصيب الإنسان من ضر:

هذا ما أشار إليه الحديث في قوله ﷺ "لا يتمنينَّ أحدكم الموت لضر أصابه ... إلخ" وهذا ما أكده النبي ﷺ في قوله ((لا يتمنى أحدكم الموت ولا يدعو به من قبل أن يأتيه، إنه إذا مات أحدكم انقطع عمله، وإنه لا يزيد المؤمنَ عمرُه إلا خيراً))[(١)].

قال ابن هبيرة: (في هذا الحديث من الفقه أنه لا يجوز أن يتمنى الموت أحد من أجل ضيق نزل به؛ لأن طلبه الموت فرار من قدر الله، ويقاس على هذا أنه من تمناه من غير ضر لم يستحب له ذلك؛ لأن المؤمن إن كان على سبيل عمل صالح فإنه كل وقت في زيادة، وإن كان على غير عمل صالح فإنه يستعجل بتمني الموت ما هو شر له، فأما تمني الموت لخوف الفتنة فقد ذكر عن جماعة من الأخيار إلا إني أخاف أن يكون نفس تمنيهم الموت فتنة، وليس إلا الرضا بما يريد الله عز وجل به عبده)[(٢)].

وهذا ما أكده القرطبي في قوله: (إنما نهى النبي ﷺ عن تمني الموت لأجل الضر؛ لأن ذلك دليل على الضجر والتسخط بالمقدور، وعدم الصبر والرضا، هذا مقصود هذا الحديث، وأما حديث أبي هريرة ففيه: النهيُ عن تمني الموت مطلقاً لضر ولغير ضر، ألا ترى أنه علَّل النهي بانقطاع العمر، فهذان الحديثان يفيدان مقصودين مختلفين لا يُحمل أحدهما على الآخر.

وقوله: "فإن كان لابُد متمنيًا فليقل: اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي" في هذا الحديث دليلٌ على استعمال التفويض وسؤال الخِيَرَة، حتى فيما لابد منه، وهو الموت،

---

(١) أخرجه البخاري ٥٣٧٦، ومسلم ٢٦٨٢.

(٢) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة ٥١/٥.

وقد كان النبي ﷺ يعلمهم الاستخارة في الأمور كلها، كما يعلمهم السورة من القرآن، فإذا تمنَّى الموتَ، وجزم به، كان قد اختار لنفسه ما لعلَّه ينقطعُ عنه به خير، كما قال ﷺ: ((إن المؤمن لا يزيدُه عُمُرُه إلا خيراً))[١] وقد فسَّر هذا الخير البخاري، فزاد في هذا الحديث فقال: ((لا يتمنى أحدكم الموت، إما محسناً فلعله يزداد حسناً، وإما مسيئاً فلعله أن يستعتب))[٢] والاستعتاب: طلب العتبى، وهو الرضا، وذلك لا يحصلُ إلا بالتوبة والرجوع عن الذنوب)[٣].

وهذا ما بينه ابن حجر في قوله: (وفي الحديث إشارة إلى أن المعنى في النهي عن تمني الموت والدعاء به هو انقطاع العمل بالموت، فإن الحياة يتسبب منها العمل، والعمل يحصل زيادة الثواب، ولو لم يكن إلا استمرار التوحيد فهو أفضل الأعمال، ولا يرد على هذا أنه يجوز أن يقع الارتداد والعياذ بالله تعالى عن الإيمان لأن ذلك نادر، والإيمان بعد أن تخالط بشاشته القلوب لا يسخطه أحد، وعلى تقدير وقوع ذلك -وقد وقع لكن نادراً- فمن سبق له في علم الله خاتمة السوء فلابد من وقوعها طال عمره أو قصر، فتعجيله بطلب الموت لا خير له فيه...، واستشكل بأنه قد يعمل السيئات فيزيد عمره شراً؟ وأجيب بأجوبة: أحدها حمل المؤمن على الكامل وفيه بعد. والثاني أن المؤمن بصدد أن يعمل ما يكفر ذنوبه إما من اجتناب الكبائر، وإما من فعل حسنات أخر، وما دام الإيمان باق فالحسنات بصدد التضعيف، والسيئات بصدد التكفير. والثالث يقيد ما أطلق في هذه الرواية بما وقع في رواية الباب من الترجي حيث جاء بقوله "لعله" والترجي مشعر بالوقوع غالباً لا جزماً، فخرج الخبر مخرج تحسين الظن بالله، وأن المحسن يرجو من الله الزيادة بأن يوفقه للزيادة من عمله الصالح، وأن المسيء لا ينبغي له القنوط من رحمة الله ولا قطع رجائه)[٤].

---

(١) أخرجه أحمد ٢٣/٦ رقم ٢٣٩٧٣، وقال محققو المسند: صحيح لغيره ٣٩٦/٣٩.

(٢) أخرجه البخاري ٥٦٧٣.

(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ٦٤٢/٢-٦٤٣.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٣٦/١٠.

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: الاستجابة لتوجيهات النبي ﷺ :

ما يستفاد من سياق الحديث في الاستجابة لنهي النبي ﷺ عن تمني الموت لضر أصاب الإنسان، وقد أمر الله تعالى عباده بطاعة نبيه في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾[1] وقد رتب الحق تبارك وتعالى على طاعة نبيه حسن الجزاء وعظيم الأجر فقال: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ۝٦٩ ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا ﴾[2] أي: (من عمل بما أمره الله ورسوله، وترك ما نهاه الله عنه ورسوله، فإن الله عز وجل يسكنه دار كرامته، ويجعله مرافقاً للأنبياء ثم لمن بعدهم في الرتبة، وهم الصديقون ثم الشهداء، ثم عموم المؤمنين وهم الصالحون الذين صلحت سرائرهم وعلانيتهم)[3] وفي ذلك بيان على عِظم وأهمية الاستجابة لتوجيهات النبي ﷺ.

---

(١) سورة النساء، آية: ٥٩.

(٢) سورة النساء، الآيتان: ٦٩-٧٠.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٢/٣٥٣.

الحديث رقم (٤١)

٤١- وعنْ أبي عبدِ اللَّهِ خَبَّابِ بْن الأَرتِّ ﷺ قال: شَكَوْنَا إِلَى رسولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ مُتَوسِّدٌ بُردةً لَهُ في ظلِّ الْكَعْبَةِ، فَقُلْنَا: أَلا تَسْتَنْصرُ لَنَا أَلا تَدْعُو لَنَا؟ فَقَالَ: «**قد كَانَ مَنْ قَبْلكُمْ يؤْخَذُ الرَّجلُ فيُحفَرُ لَهُ في الأَرْضِ فيجْعلُ فِيهَا، ثمَّ يُؤْتَى**[1] **بالْمِنْشارِ فَيُوضَعُ علَى رَأْسِهِ فيُجعلُ نصْفَيْن، ويُمْشطُ بِأَمْشاطِ الْحديدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ وَعظْمِهِ، ما يَصُدُّهُ ذلكَ عَنْ دِينِهِ، واللَّه ليتِمنَّ اللَّهُ هَذا الأَمْر حتَّى يسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صنْعاءَ إِلَى حَضْرمْوتَ لا يخافُ إِلاَّ الله والذِّئْبَ عَلَى غنَمِهِ، ولكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ**» رواه البخاري[2].

وفي رواية: «وهُوَ مُتَوسِّدٌ بُرْدَةً[3] وقَدْ لقِينَا مِنَ الْمُشْرِكِين شِدَّةً»[4].

ترجمة الراوي:

خباب بن الأرت: هو خباب بن الأرت بن جندلة التميمي.

من السابقين الأولين إلى الإسلام، وممن عُذّب في الله تعالى فصبر، وكان سادس ستة في الإسلام، وكان أول من أظهر إسلامه مع رسول الله ﷺ، وأبي بكر، وصهيب وبلال وعمار، وسميّة أم عمار ﷺ، وكان في الجاهلية قيناً[5] يعمل السيوف، فأصابه سِباءٌ فبيع بمكة، فاشترته أم أنمار الخزاعية، وقيل: هو حليف بني زهرة، فلما أسلم استضعفه المشركون، فعذبوه ليرجع عن دينه فصبر ولم يُعط الكفار ما سألوا، فجعلوا يلزقون ظهره بالرَّصْف -وهي الحجارة التي حُميت بالشمس أو النار- حتى ذهب لحم متنِهِ.

وقد سأله عمر بن الخطاب ﷺ عمَّا لقي من المشركين، فقال خباب ﷺ: يا أمير المؤمنين، انظر إلى ظهري، فنظر، فقال: ما رأيت كاليوم ظهر رجل!! قال خباب:

---

(١) لفظ البخاري (ثمَّ يجاءُ)، وكذا عنده برقم (٣٦١٢).

(٢) أخرجه البخاري ٦٩٤٣.

(٣) عند البخاري زيادة: (وهو في ظل الكعبة).

(٤) أخرجه البخاري ٣٨٥٢.

(٥) القين: الحداد، المعجم الوجيز في (ق ي ن).

لقد أوقِدت لي نارٌ وسحبتُ عليها فما أطفأها إلا وَدَك[1] ظهري.

وكان رضي الله عنه من المهاجرين الأولين، شهد بدراً، وأحداً، والخندق، والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد آخى النبي صلى الله عليه وسلم بينه وبين تميم مولى خراش بن الصِّمَّة، وقيل جَبْر بن عتيك رضي الله عنهما.

وقد أتى العاصَ بن وائل السهمي حتى يتقاضاه حقاً عنده، فقال العاص: لا أعطيك حتى تكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم، فقال: لا حتى تموت ثم تبعث، فقال: وإني لميت ثم مبعوث؟ قال خباب: نعم، قال: إن لي هناك مالاً وولداً فأقضيك، فذكر خباب ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فنزلت هذه الآية ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾[2][3].

وقد مات بالكوفة، وهو أول من دفن بظهر الكوفة من الصحابة، وقال فيه علي بن أبي طالب رضي الله عنه بعد موته: رحم الله خباباً، أسلم راغباً، وهاجر طائعاً، وعاش مجاهداً، وابتلي في جسمه، ولن يضيع الله أجر من أحسن عملا.

وقد روى له البخاري ومسلم وغيرهما ٣٢ حديثاً، وتوفي سنة ٣٧هـ وقيل ٣٩هـ[4].

غريب الألفاظ:

متوسد بردة: البردة: كساء مخطط يلتحف به أو كساء مربع أسود صغير، وتوسد: أي اتكأ أو وضع رأسه عليها[5].

---

(١) الودك: الشحم والدهن، المعجم الوجيز في (و د ك).

(٢) سورة مريم، آية: ٧٧.

(٣) أخرجه البخاري، رقم (٤٧٣٢).

(٤) الطبقات، ابن سعد (٣/١٦٤-١٦٧)، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر (٦٥٦)، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير (٢/١٤٧-١٥٠)، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني (٣٣٣)، وسير أعلام النبلاء، الذهبي (١/٣٢٣-٣٢٥)، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي (٢/٣٧٨)، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني (١/٥٣٩)، والأعلام، خير الدين الزركلي (٢/٣٠١)، وموسوعة عظماء حول الرسول، خالد عبدالرحمن العك (١/٦٩١-٦٩٥).

(٥) انظر: معجم لغة الفقهاء، أ. د. محمد رواس قلعة جي ٨٦، والوسيط ١٠٣١، وعون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم آبادي ١١٣٠.

يمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه: المشط: ما يتمشط ويرجل الشعر به، وقد يكون من حديد.

ما دون لحمه وعظمه: أي ما عند عظمه. والمعنى: أن الأمشاط لحدتها وقوتها كانت تنفذ من اللحم إلى العظم وما يلتصق به من العصب[١].

الأمر: الإسلام[٢].

الشرح الأدبي

في ظل الكعبة المشرفة، وفي رحاب البيت الحرام، تتصاعد أنفاس المؤمنين، وتجأر قلوبهم بالشكوى إلى الله عز وجل، وإلى رسول الله ﷺ، وما أقدس المكان، وما أطهر الزمان، وما أجل الموقف، والشاكون هم ثلة من المسلمين الأولين، والمستمع هو الذي لا ينطق عن الهوى، والذي علمه شديد القوى، محمد بن عبدالله الصادق الوعد الأمين، والشكوى ليست ضعفاً ولا خوراً في الدين، وليست اعتراضاً ولا رفضاً لمنطق الصمود أمام جبروت الطغاة والظالمين، ولكنها شكوى تتضح في هالة الاستنصار، وهذا الاستنصار أي طلب النصر من القوي القهار، يتوجه به المصطفى المختار إلى ربه، لتثبيت أمته في وجه المشركين والكفار، واختيار المكان هنا في ظل الكعبة له دلالة شعورية، وحجة شرعية تتمثلان في صدق الدعاء، واتخاذ القدوة الحسنة، والاستنجاد بمن يقوي العزائم، ويهدي إلى طريق الرشاد.

وفي ظل الكعبة المشرفة يتوجه المؤمن إلى ربه داعياً مستغفراً، ومبتهلا مستنفراً، ولسان حاله يقول:

هنا الركن والحجر الطهور وزمزم ... هنا مشرق الرؤيا.. هنا الحب والمهد

أفيء إلى الأستار أُلْقي مواجعي ... وأحمل أثقالاً ينوء بها الجهد

---

(١) انظر: المفصح المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ٢٤٠، والوسيط ٨٧١، وشرح الطيبي، الطيبي ١١/٧٠، وعون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم آبادي ١١٣٠.

(٢) انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٠٤/٧.

وتجـأر أسـراري.. وتنطـق أدمعـي — بما النفس تطويه .. وفي بوحها يبدو
وتظمـأ أشـواقي .. وتـذوي منـابعي — وفي حجـر إسماعيـل ينهمـر الوعـد
وعـيني ناجـت.. واللـسان مـشاهد — يرى الضوء فواحاً به الحجر الصلد!!!
هنا الضوء إيقاع ... هنا العطر سدرة — بهـا تـسبح الأرواح في سـاحها تـشدو
هنـا أول الأشـواق مـن عهـد آدم — هنـا كـان ميثاق النبيين .. والعهـد
هنـا البيـت مثـوى الآمـنين تحـوطهم — مـن الله أمـلاك .. وتحرسـهم جنـد
هنـا تـشرق الآيـات أمنـاً ورحمـة — بكـل فـؤاد نبـضه الـصدق والـود
هنـا الطـير للإنـسان يفـضي بـسره — هنـا الـصخر أواب.. وإيقاعـه حمـد
هنـا تخطـر الأشـجار في نـور أمنهـا — وفي ظلـها الفينـان.. لا يفـزع الـصيد[1]

وحين نتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث النبوي الشريف ندرك أن كل حرف، وكل كلمة، وكل جملة تنبض بالمعنى الدقيق، وتفصح الصياغة اللغوية عن دلالات كثيرة تصور الواقع الأليم، والخطر الجسيم الذي كان يلاقيه القابضون على دينهم، كأنهم يقبضون على الجمر، وراوي الحديث من هذه النماذج الصامدة التي أبت أن تستسلم، وأن تفرط في عقيدتها.

والشكوى تقدم إلى رسول الله في صيغة الجمع، "شكونا إلى رسول الله ﷺ"، وكان خباب من زمرة الشاكين، ولم يحدد نوع الشكوى لأنها ليست شكوى ذاتية فردية خاصة، وليست شكوى بدافع الحاجة وضيق ذات اليد، وليست شكوى من والٍ ظالم أو جار جائر، ولكنها شكوى تعلو فوق كل هذه الرغبات لأنها تنبع من الحرص على العقيدة، والصمود في وجه أعداء الدين، ومكان الشكوى يعطي دلالة اختيار المكان والزمان في طلب الدعاء، واختيار أولى الألباب الذين يؤازرون، ويناصرون، وعن

---

(١) هذه الأبيات من قصيدة: أشواق حجازية الإيقاع: من شعر د. صابر عبدالدايم، وقد نشرت ب لة: الأدب الإسلامي، و لة الأزهر؛ وملحق الرسالة الإسلامية بجريدة: المدينة السعودية.

الحق يدافعون وطلب الاستنصار أو الدعاء، يأتي في صيغة الأسلوب الإنشائي "الطلبي" ويتكرر لفظ "ألا" مرتين وهي أداة استفتاح أو عرض ليوحي هذا التكرار بشدة رغبة هؤلاء المستضعفين المعذبين في الثبات أو الاستشهاد، ويتكرر التعبير بقولهم، "لنا" مرتين لتصوير هذه اللهفة إلى المؤازرة والمناصرة، وممن تكون من الله الكبير المتعال: الذي يقول للشيء كن فيكون، والذي يعد عباده الصامدين المجاهدين بالنصر المبين حيث يقول عز وجل: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[1].

وعدم التصريح بلفظ "ربك" بعد الفعلين، هو إيجاز بالحذف.. وله دلالة وسر من أسرار البيان النبوي حيث يومئ بل ويرشد ويبين هذا الحذف أنه لا ناصر إلا الله، ولا مجيب للدعاء إلا الله، قال تعالى: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[2]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾[3].

فتأمل أخي المسلم هذه الأسرار اللغوية التي تكمن في كل حرف، وكل كلمة، وكل جملة من البيان النبوي الشريف.

ولنتأمل: إجابة رسول الله، وماذا قال لهم: إنه لم يدع لهم مباشرة، ولم يستنصر لهم ربهم لأن النصر متحقق، والدعاء مستجاب طالما ظلوا صامدين صابرين محتسبين وهم كذلك لأن فيهم بلالاً وخبابا وصهيباً، وياسراً وعماراً وهم الذين أوصى بهم ربهم رسوله محمداً ﷺ فقال: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾[4].

لقد قدم لهم رسول الله صورة أشد وأقسى في العذاب من ذلك الذي يلاقونه على أيدي المشركين في مكة.

---

(١) سورة الحج، آية: ٤٠.

(٢) سورة غافر، آية: ٦٠.

(٣) سورة الحج، آية: ٣٨.

(٤) سورة الكهف، آية: ٢٨.

فقال: لقد كان من قبلكم... الحديث، وهذه الصور حقيقية، وليست أمثلة تقريبية: لأن الرسول أكد هذا الخبر في قوله: "لقد" فاللام للتأكيد، وقد للتحقيق، واسم الموصول "من" وما بعده "قبلكم"، يختصر الأمكنة والأزمنة حيث يومئ إلى ما حدث من عذاب في الأمم السابقة، وهذا المشهد التاريخي الذي قدمه رسول الله في هذا الحديث الشريف يجمع بين الواقع الماضي والواقع الآني، والواقع المستقبلي، حيث يصور المثل الأعلى في التضحية والفداء، من أجل العقيدة، وانتصار الحق وليس هناك تعذيب أقسى وأبشع من هذه الصورة التي رواها المصطفى ﷺ، في هذا الحديث الشريف، وهو بهذا التصوير الواقعي الصادق للبطولة والفداء يضع أمام الجماعة المؤمنة في كل عصر وفي كل مكان البشارات والوعود في نصر الله لأمة الإسلام المتمسكة بأصول الإيمان وأركان الإسلام: يقول الله عز وجل: "﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[(1)][(2)]. ولفظ الرجل للتغليب، وللإشارة إلى أن المؤمنين لابد أن يظلوا صامدين وإيحاءً وتذكيراً بقول الله عز وجل: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾[(3)]؛ ونلاحظ توالي الفاء في المشهد فيوضع فيجعل نصفين، وقبل ذلك يقول: مصوراً عجلة الكفار في إيقاع العذاب بالمؤمنين "يؤخذ الرجل، فيحفر له في الأرض، فيجعل فيها" ويفصل بـ"ثم"، بين الإعداد والتنفيذ، إشارة إلى أن الكفار يرغبون في رجوع المؤمنين عن دينهم، ولكن هيهات: فرسول الله بشرهم بأن الله ناصرهم، وأن الدعوة ستنتشر وقد تحقق الوعد وأجيب الدعاء.

---

(١) سورة الروم، آية: ٤٧.

(٢) انظر: الحديث النبوي: رؤية فنية جمالية، د. صابر عبدالدايم، وانظر: القصة في الحديث النبوي، د. محمد بن حسن الزير.

(٣) سورة الأحزاب، آية: ٢٣.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكم فقهي يتعلق بباب الإكراه، وهو: هل يجوز للمسلم إجراء كلمة الكفر على لسانه جراء الإكراه؟

اتفق الفقهاء: على أن الأفضل له أن يصبر على ما أكره به ولا ينطق بهذه الكلمة.

واختلفوا: في حكم من أجراها وأخذ بالرخصة:

جمهور الحنفية، ووجه للشافعية ووجه للحنابلة: على أنه يباح له إظهار اللفظ على معنى المعاريض والتورية صرف اللفظ إلى غير معنى الكفر من غير اعتقاد لمعنى ما أكره عليه فيصير اللفظ بمنزلة الناسي، وذلك لأن حفظ الحياة أعظم في نظر الشارع من أي شيء، لذلك قالوا من أكره بالقتل ولم يسعه أن ينطق بهذا اللفظ فهو آثم[1].

وجه للأحناف والمالكية، ووجه للشافعية وجمهور الحنابلة: على أنه لا يجوز له نطق هذه الكلمة بأي حال وله أن يصبر حتى لو قتل وهو أفضل، وذلك لأن إظهار الكفر محظور من طريق العقل لا يجوز استباحته للضرورات[2].

والصواب جواز النطق إذا كان فيه حفظٌ للحياة أو منعٌ من الهلكة، لأن القرآن عذر هؤلاء ﴿إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان﴾[3] والرسول ﷺ رفع الحرج عن المستكره كما في الحديث الشريف ((رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه))[4].

---

(١) المبسوط، السرخسي ١٥٥/٢٤، والعناية على الهداية، البابرتي شرح الهداية ٢٧٧/٣، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا بن محمد بن أحمد الأنصاري٢٩١/٢، وقواعد الأحكام في مصالح الأنام ص ٩٣، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي ١٨٥/٦.

(٢) المبسوط، السرخسي ١٥/٢٤، والتاج والإكليل شرح مختصر خليل، محمد بن أبي يوسف العبدري ٣١٣/٥، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا بن محمد بن أحمد الأنصاري٢٩١/٢، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي ١٨٥/٦.

(٣) سورة النحل، آية: ١٠٦.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٦٠/٥، ١٦١.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: ثبات الصحابة رضي الله عنهم وتحملهم للأذى في سبيل نصرة الإسلام.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: الابتلاء سنة الله في المؤمنين.

ثالثاً: من أساليب الدعوة: القسم.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: التبشير بانتصار الإسلام.

أولاً- من موضوعات الدعوة: ثبات الصحابة رضي الله عنهم وتحملهم للأذى في سبيل نصرة الإسلام:

هذا ما أشار إليه نص الحديث من قول خباب بن الأرت رضي الله عنه: "شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة، فقلنا: ألا تستنصر لنا ألا تدعو لنا؟" وهذا بيان لما لقيه الصحابة رضوان الله عليهم من شدة العذاب وبؤسه بسبب إيمانهم بالله تعالى، والذي يجعل العيون تقر والقلوب تسعد بهجة وفرحاً، وتحملهم للأذى في سبيل رضوان الله عليهم، فضربوا لنا بذلك أروع الأمثلة في الثبات على دين الله، وقد استفاضت السِيَرُ ببيان صبرهم رضي الله عنهم وثباتهم على إيمانهم، وكان من ذلك ما أخرجه الإمام أحمد عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: ((أول من أظهر إسلامه سبعة: رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأبوبكر، وعمار، وأمه سمية، وصهيب، وبلال، والمقداد، فأما رسول الله صلى الله عليه وسلم، فمنعه الله بعمه أبي طالب، وأما أبوبكر، فمنعه الله بقومه، وأما سائرهم فأخذهم المشركون، فألبسوهم أدراع الحديد، وصهروهم في الشمس، ....)) الحديث وفيه: ((أما بلال، فإنه هانت عليه نفسه في الله، وهان على قومه، فأَعْطَوْه الولدان، وأخذوا يطوفون به شعاب مكة، وهو يقول: أحدٌ، أحد))[1].

قال الذهبي: (وروى منصور: عن مجاهد: أول من أظهر إسلامه سبعة، فذكرهم، زاد فجاء أبو جهل يشتم سُمية، وجعل يطعن بحربته في قُبُلها حتى قتلها، فكانت أول شهيدة في الإسلام)[2].

---

(١) أخرجه أحمد ٤٠٤/١ رقم ٣٨٣٢، وقال محققو المسند: إسناده حسن ٣٨٢/٦.

(٢) سير أعلام النبلاء، الذهبي ٤٠٩/١.

وعن الشعبي قال: (دخل خباب بن الأرت رضي الله عنه على عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فأجلسه على متكئه وقال: ما على الأرض أحدٌ أحق بهذا المجلس من هذا إلا رجل واحد. قال له خباب: من هو يا أمير المؤمنين؟ قال: بلال. فقال خباب: ما هو بأحق مني، إن بلالاً كان له في المشركين من يمنعه الله به، ولم يكن لي أحدٌ يمنعني، فلقد رأيتني يوماً أخذوني فأوقدوا لي ناراً ثم سلقوني فيها، ثم وضع رجل رجله على صدري. فما اتقيت الأرض -أو قال: برد الأرض- إلا بظهري؛ قال: ثم كشف عن ظهره فإذا هو قد برِص)[1].

وفي رواية: (فقال: يا أمير المؤمنين، انظر إلى ظهري، فقال عمر: ما رأيت كاليوم. قال: أوقدوا لي ناراً فما أطفأها إلا ودك ظهري)[2].

وفي ذلك بيان على ثبات الصحابة رضي الله عنهم وتحملهم لصنوف العذاب من أجل إيمانهم بالله تعالى وفي ذلك عظيم القدوة والأسوة الحسنة.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: الابتلاء سنة الله في المؤمنين:

هذا ما أكد عليه نص الحديث في قوله ﷺ "قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه، ما يصده ذلك عن دينه".

فالابتلاء من الله تعالى هو باب من أبواب تمحيص العباد، وإظهار ما كان من صدق حب الله في القلوب، فيميز الله بذلك الخبيث من الطيب، وهذا ما أكده الحق تبارك وتعالى في قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾[3] أي: (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة قبل أن تبتلوا وتختبروا وتمتحنوا، كما فعل بالذين من قبلكم من الأمم)؛ ولهذا قال: "ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم

---

(١) حياة الصحابة، للكاندهلوي، ٤٥٠ والمراد أن به بياضًا أثر الحرق.

(٢) المرجع السابق ٤٥٢.

(٣) سورة البقرة، آية: ٢١٤.

البأساء والضراء" وهي: الأمراض؛ والأسقام، والآلام، والمصائب والنوائب ... و"زلزلوا" خوفاً من الأعداء زلزالاً شديداً، وامتحنوا امتحاناً عظيماً، كما جاء في نص حديث خباب بن الأرت)[١]. وقال تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾[٢].

قال القاسمي: (أي أحسب الذين أجرواكلمة الشهادة على ألسنتهم، وأظهروا القول بالإيمان، أنهم يتركون بذلك غير ممتحنين، بل يمتحنهم الله بضروب المحن، حتى يختبر صبرهم وثبات أقدامهم وصحة عقائدهم. لتمييز المخلص من غير المخلص. كما قال: ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾[٣] وكقوله: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[٤] وكل هذه الآيات وأمثالها مما نزل بمكة في تثبيت قلوب المؤمنين، وتصبيرهم على ما كان ينالهم من أذى المشركين "ولقد فتنا الذين من قبلهم" أي من أتباع الأنبياء عليهم السلام، بضروب من الفتن من أعدائهم، كما دون التاريخ اضطهادهم. أي فصبروا وما وهنوا لما أصابهم حتى علت كلمة الله "فليعلمن الله الذين صدقوا" أي في قولهم "آمنا" "وليعلمن الكاذبين" أي فيه: وذلك بالامتحان)[٥].

(وقد حصل من هذا جانب عظيم للصحابة رضي الله عنهم، في يوم الأحزاب، كما قال تعالى: ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ۝١٠ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالًا شَدِيدًا ۝١١ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٥٧١/١.

(٢) سورة العنكبوت، الآيات: ١-٣.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٨٦.

(٤) سورة آل عمران، آية: ١٤٢.

(٥) محاسن التأويل، جمال الدين القاسمي، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي ١٢٦/١٣/٨-١٢٧.

﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾[١] ((ولما سأل هرقل أبا سفيان: هل قاتلتموه؟ قال: نعم، قال: فكيف كان الحرب بينكم؟ قال: سجالاً، يدال علينا ونَدال عليه. قال: كذلك الرسل تبتلى، ثم تكون لها العاقبة))[٢])[٣]. وفي ذلك بيان على أن الابتلاء سنة من سنن الله تعالى في المؤمنين.

رابعاً- من أساليب الدعوة: القسم:

يعتبر أسلوب القسم وسيلة هامة من وسائل إبلاغ الدعوة، إذ أنه يبصر الداعية بنفسه، ويعرفه مقامه الكبير، ويطلعه على ضرورة الصبر وعدم اليأس.

والغرض منه هو الاهتمام بالمقسم به، وبيان دوره في الدلالة على الهدف المقصود وهذا ما ظهر في الحديث، فالرسول ﷺ ما أقسم على تمام هذا الدين إلا ليشدّ من عزيمة أصحابه رضي الله عنهم، ويجعلهم يصبرون ويتحملون[٤].

قد ورد هذا الأسلوب الدعوي الهام في الحديث من قسم النبي ﷺ باتمام الله تعالى لهذا الدين، وذلك في قوله ﷺ: "والله ليتمَّنَّ الله هذا الأمر ... إلخ".

(وأسلوب القسم عرفه الناس قديماً واستعملوه تأكيداً لخبر، أو تعظيماً لشيء، أو جمع الانتباه حول غاية وقد أحس العرب بأهدافه ومراميه فاستعملوه في كلامهم وجعلوه دليلاً على إثبات الحق)[٥]، وهذا ما ورد جلياً في الحديث من استعمال النبي ﷺ له في إثبات انتصار الإسلام وتتمة الله تعالى له.

رابعاً- من موضوعات الدعوة: التبشير بانتصار الإسلام:

هذا ما أكد عليه نص الحديث في قوله ﷺ "والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون".

---

(١) سورة الأحزاب، الآيات: ١٠-١٢.

(٢) جزء من حديث أخرجه البخاري ٧.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ١/٥٧١-٥٧٢.

(٤) الدعوة الإسلامية: أصولها ووسائلها، د. أحمد غلوش ص ٣٢٩-٣٣٩.

(٥) المرجع السابق ٣٢٧.

قال د. يوسف القرضاوي: (أعتقد أن حديثنا عن المبشرات بانتصار الإسلام مطلوب -وخصوصاً في هذه الآونة- لأكثر من سبب:

١- هو مطلوب، لأننا مأمورون بصفة عامة أن نبشِّر ولا ننفر، كما نحن مأمورون أن نيُسِّر ولا نعسِّر، فإنَّ النبي ﷺ حينما أرسل معاذ بن جبل وأبا موسى الأشعري إلى اليمن أوصاهما بهذه الوصية الموجزة الجامعة: ((يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا، وتطاوعا))[1].

٢- وهو مطلوب، لأن المسلمين عامة -والعاملين للإسلام خاصة- يمرون بمرحلة عصيبة من مراحل تاريخهم المعاصر، وتكاد تغلب في هذه المرحلة عوامل اليأس، ومشاعر الإحباط، وهذا الشعور إذا استسلمت له الأنفس، قتل فيها الهمم، وخدَّر العزائم، ودمَّر الطموحات، وهذه المعاني هي التي تحرِّك الإرادات للعمل، وبذل الجهد.

ومردُّ هذا الشعور الأسود إلى الضَّربات المتلاحقة التي توجه بخبث ومكر -من أعداء الإسلام- إلى الصحوة الإسلامية والحركة الإسلامية، بغية إطفاء نور الإسلام، ووقف حركته، وتمويت يقظته، واستعانوا على ذلك ببعض حكام المسلمين، الذين خوَّفوهم من الصحوة، وحرَّضوهم على الصفوة، وأمروهم بضرب الدعوة.

٣- وهو مطلوب، لأن القوى المعادية للإسلام تريد أن تعلن -بل قد أعلنت بالفعل- على الإسلاميين حرباً نفسية، تُيئسُهُم من الأمل في غدٍ أفضل، والرجاء في مستقبل مشرق. وبدأت حملات مسعورة، تحركها قلوب موتورة، وتقودها أقلام مأجورة، وأبواقٌ مأمورة، تتهم وتلطخ وتشوِّه كل ما هو إسلامي، وتتهم دعاة الإسلام وأبناء الصحوة بالتطرُّف حيناً، وبالعنف أحياناً، وبالإرهاب طوراً، وبالأصول أطواراً، مطلقين على الحركة التي تدعو إلى الإسلام المتكامل - عقيدة وشريعة، وديناً ودولة- (اسم: الإسلام السياسي)، والإسلام الحقيقي لابدّ أن يكون سياسياً.

لهذا كان علينا أن نقاوم هذه الحملات المعادية بسلاح مضاد، وهو نشر الأمل بانتصار الإسلام، وإحياء الرَّجاء في مستقبله، وشحن نفوس الجيل الصاعد بهذا الشعاع الذي يبدّد ظلمات اليأس، وغيوم الإحباط.

---

(١) أخرجه البخاري ٣٠٣٨، ومسلم ١٧٣٣.

٤- وهو مطلوب كذلك، لأن كثيراً من المتدينين يشيع بينهم فكر مغلوط عن "آخر الزمان" وبعبارة أخرى: عن مستقبل الأمة، وهو مستقبل أقرب إلى السواد، إن لم يكن أسود حالكاً، هو فكر مؤسس على أفهام شاعت لبعض الأحاديث التي وردت في سياق الكلام عن الفتن والملاحم وأشراط الساعة، ولكن هذه الأفهام غير سليمة.

لهذا كنا في حاجة إلى تجلية حقيقة "المبشرات" الغائبة عن كثيرين: من القرآن الكريم، ومن السُّنة المشرَّفة، ونشيعها بين المسلمين، حتى نبعث الأمل المحرك للعزائم ونهزم اليأس القاتل للنفوس)[١].

وعن تميم الداري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((ليبلغنَّ هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين، بعزِّ عزيزٍ أو بذل ذليل، عزاً يعزُّ الله به الإسلام، وذلاً يُذلُّ الله به الكفر. وكان تميم الداري يقول: قد عرفت ذلك في أهل بيتي، لقد أصاب من أسلم منهم الخير والشرف والعز، ولقد أصاب من كان منهم كافراً الذل والصغار والجزية))[٢].

وعن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((بشر هذه الأمة بالسناء والرفعة، والدين والنصر والتمكين في الأرض، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا، لم يكن له في الآخرة نصيب))[٣].

وكان من المبشرات النبوية: عودة الخلافة على منهاج النبوة لقول حذيفة رضي الله عنه: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافةٌ على منهاج النبوة، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون مُلكاً عاضاً، فيكون ما شاء الله أن يكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون مُلكاً جبرية، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافةٌ على منهاج نبوة ثم سكت))[٤].

---

(١) المبشرات بانتصار الإسلام، د. يوسف القرضاوي ص ٥-٩.

(٢) أخرجه أحمد ١٠٣/٤ رقم ١٦٩٥٧، وقال محققو المسند: إسناده صحيح ١٥٤/٢٤.

(٣) أخرجه أحمد ١٣٤/٥ رقم ٢١٢٢٤، وقال محققو المسند: حديث صحيح ١٤٨/٣٥.

(٤) أخرجه أحمد ٢٧٣/٤ رقم ١٨٤٠٦، وقال محقق المسند: إسناده حسن ٣٥٥/٣٠.

(والملك العاض -وفي رواية: العضوض- هو الذي يصيب الناس فيه عسف وظلم كأنه له أنياباً تعض. أما ملك الجبرية فهو القائم على الجبروت والطغيان، أشبه بالحكم العسكري المستبد في عصرنا.

فهذا الحديث يبشِّر بانقشاع عهود الاستبداد والظلم والطغيان، وعودة الخلافة الراشدة، المتبعة لمنهاج النبوة في إقامة العدل والشورى، ورعاية حدود الله وحقوق العباد)[1].

---

(١) المبشرات بانتصار الإسلام، د. القرضاوي، ٣٥.

الحديث رقم (٤٢)

٤٢- وعن ابن مَسعُودٍ رضي الله عنه قال: لَمَّا كَانَ يَوْمُ حُنَيْنٍ آثر رسولُ اللَّه ﷺ نَاساً في الْقِسْمَةِ: فأَعْطَى الأَقْرعَ بْنَ حابِسٍ مئةً مِنَ الإبِلِ وأَعْطَى عُيينَةَ (بْنَ حِصْنٍ)[1] مِثْلَ ذلِكَ، وأَعطى نَاساً مِنْ أشرافِ الْعربِ وآثرهُمْ يومئِذٍ في الْقِسْمَةِ. فَقَالَ رجُلٌ[2]: واللَّهِ إنَّ هَذِهِ قِسْمةٌ[3] ما عُدِلَ فِيها، وما أُريد فِيهَا وَجهُ اللَّه، فَقُلْتُ: واللَّه لأُخْبِرَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فأتيتُهُ فَأخبرته بِما قال، فتغَيَّر وَجْهُهُ حتَّى كَانَ كَالصِّرْفِ. ثُمَّ قال: «**فَمنْ يَعْدِلُ إذَا لَمْ يعدِلِ اللَّهُ ورسُولُهُ؟**» ثم قال: «**يرحَمُ اللَّهُ موسى قَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصبرَ**» فَقُلْتُ: لا جرمَ لا أَرْفعُ إلَيه بعْدها حديثاً. متفقٌ عليه[4].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن مسعود: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٣٦).

غريب الألفاظ:

يوم حنين: حنين وادٍ بين الطائف ومكة المكرمة وهو إلى مكة أقرب (٢٦ كم شرقي مكة) و١١ كم عن حدود الحرم من علمي نجد وفيه وقعت غزوة حنين شوال ٨هـ[5].

كالصِّرف: هو بكسر الصاد المهملة: وهو صبغ أحمرُ[6].

الشرح الأدبي

يصور هذا الحديث مشهداً من مشاهد السيرة النبوية العطرة وهو الاحتفاء بالنصر في غزوة حنين، وما أروع هذا المشهد الذي يتصدره رسول الله ﷺ وهو يوزع على الناس ما منَّ الله به عليهم من الغنائم في غزوة حنين، بعد أن تلاقى الجمعان، واشتد

---

(١) الزيادة من المؤلف.

(٢) هو: معتب بن قُشير. تنبيه المعلم (٤٢١).

(٣) لفظ مسلم: (لقسمة)، ولفظ البخاري: (القسمة).

(٤) أخرجه البخاري (٣١٥٠)، ومسلم (١٠٦٢/١٤٠) ولفظهما سواء.

(٥) أطلس الحديث النبوي، د. شوقي أبو خليل ١٥٦.

(٦) رياض الصالحين ٦٥.

الصراع بين المسلمين والمشركين وكاد المسلمون يهزمون لولا تأييد الله لجند الإسلام، وقد أصاب بعضَ النفوس الغرورُ، وقال البعض: لن نغلب اليوم عن قلة؛ ويقول الله عز وجل: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾[1]. ونتلقى من رسول الله درساً في الصبر والشجاعة حين استعاد المسلمون توازنهم وثقتهم في الله وفي أنفسهم. حين دوت صيحة المصطفى المختار في قلب المعركة مثبتاً قلوب أصحابه الأخيار، فقال: أنا النبي لا كذب وأنا ابن عبدالمطلب".

ورجحت كفة المسلمين، وباء المشركون بالخسران المبين، والهزيمة النكراء: وتظل صيحة رسول الله تتحدى كل ظالم جبار.

أنت الحبيب المصطفى والمجتبى	والله ينصر كل من والاكا
"وأنا النبي ولا كذب، وأنا ابن	... تتحديان عداكا
تتحديان المغمضين قلوبهم	والرافضين سبيل من قوّاكا
تتكاثران مع الزمان فكلنا	حرب على من يستبيح حماكا
هي صيحة لك في حُنَيْنٍ حطمت	جيش الضلال وخلدت دعواكا[2]

ما أعظم حلمك يا رسول الله، وما أقوى حجتك، أبعد هذه الشجاعة ، وذلك اليقين، وهذا الانتصار يجيء من يقدح في حكمك ورؤيتك وموقفك؟ وأنت تؤلف القلوب، وترغب ضعفاء الإيمان، وتستميل أشراف العرب الذين مازالوا يحتكمون إلى الموازين الدنيوية، والمواقف الاجتماعية القبلية، وأي إيذاء أكثر إيلاماً من هذا القول أو هذا الاتهام لرسول الله ﷺ: بعد أن آثر ناسا في القسمة، يقول أحد المعارضين: "والله إن هذه قسمة ما عدل فيها، وما أريد فيها وجه الله".

وما أجمل عفوك يا رسول الله إنك قد صبرت على الإيذاء، ولم تعاقب مثل هذا

---

(١) سورة التوبة، آية: ٢٥.

(٢) انظر: ديوان مدائن الفجر، د. صابر عبدالدايم، مكتبة العبيكان، الرياض، السعودية، من إصدارات رابطة الأدب الإسلامي العالمية.

الرجل على ما أبدى من آراء، ولكنك لم تستطع كتمان ما تشعر به من ضيق، فتغير وجهك حتى صار كالدم، ولكنك صبرت. وفي حزم وعدل نطقت فأفحمت، وبنيت فأقنعت ، وقلت في صدق ويقين.

"فمن يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله؟؟" وهكذا يكون البيان: يزيل الشبهات، ويدحض الافتراءات. فالبيان- كما قال ابن المعتز ترجمان القلوب، وصقل العقول، ومجلي الشبهة، وموجب الحجة والحاكم عند اختصام الظنون، والمفرق بين الشك واليقين، وهو من سلطان الرسل الذي انقاد به المصعب واستقام الأصْيَد، وبُهت الكافر، وسلّم الممتنع، حتى قوي الحق بأنصاره، وخلا ربع الباطل من عُماره وخير البيان، ما كان مصرِّحاً عن المعنى، ليسرع إلى الفهم تلقيه، وموجزاً ليخف على اللفظ تعاطيه[1].

إن هذه الجملة المشرقة بكل المعاني المضيئة بالقيم الإيمانية كشفت الشبهة، وأزالت الظنون.

وصاغها رسول الله ﷺ في نسيجين لغويين يفصحان عن الموقف، ويعبران عن الضيق الذي شعر به رسول الله ﷺ ، ولكنه صبر حرصاً على مصلحة الأمة، والنسيج اللغوي الأول: هو أسلوب الاستفهام الإنكاري تأكيداً لصواب الموقف، وصحة التقسيم، ورداً على هذا المعترض الذي يجهل كثيراً من مقاصد الدعوة، وأهدافها، والنسيج الثاني هو أسلوب الشرط والجزاء، وهذان النسيجان يمتزجان في عبارة، أو جملة متكاملة تحدد الموقف، وتزيل اللبس، في قوله ﷺ : "فمن يعدل! إذا لم يعدل الله ورسوله"، ولنتأمل دقة هذا البيان المحكم؛ حيث جاء بلفظ الجلالة، ونسب العدل إلى الله ثم إليه أي إلى الرسول، لأنه يبلغ عن ربه، ولأنه لا ينطق عن الهوى، ونلاحظ أن جواب الشرط محذوف: وقد دل عليه ما قبل فعل الشرط، وكأن حذف الجواب يعلن عن أنه لا وجود للنظير أو المكافئ في هذا السياق أو المجال، أو في أى مجال آخر فمن يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله؟!! لا أحد، يكافئهما ويساويهما في ذلك.

---

(١) انظر: زهر الآداب للحصري القيرواني.

والحديث حوار بين عدة أطراف، حوار بين ابن مسعود، ومعتب بن قشير، الذي اعترض على القسمة، وقيل إنه ذو الخويصرة، وهو أبو الخوارج؛ وعدم التصريح باسمه في الحديث لعدم التشهير به، أو لأن القضية ليست قضية أشخاص ولكنها تحديد مواقف، وحسن خطاب لرسول الله ﷺ، وهذا الرجل لم يوفق في هذا الموقف ولم يحسن الخطاب في اعتراضه المشين على تصرف النبي ﷺ.

ومما يدل على تسرعه، وبعده عن الحكمة في القول أنه صاغ اعتراضه في أسلوب القسم والتأكيد، وأنه نفى أن تكون هذه القسمة لوجه الله، وهذا حمق في التصور، وإيغال في الاعتراض:

وقال بعض العلماء في تعليل موقف هذا الرجل الذي لم يفهم سر هذا التقسيم، ورصد صورته الخارجية فقط، يقول مفيداً بأن هذا الاتهام يدل على حجب بصيرة قائله عن مشكاة أنواره ﷺ، وإلا فلو أشرق فيه بعض ذلك النور "أي نور الهداية" لامتلاء قلبه من الخير، وعلم أنه ﷺ الطبيب الحاذق الذي يداوي كل سفيه، ويذهب بحكمته كل ضير وألم، ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور[1].

ولقد عالج رسول الله أدواء كثيرٍ من العناصر التي اعتنقت الإسلام حديثاً. تأليفاً لقلوبهم، وترغيباً لهم في الإخلاص للإسلام، والأقرع بن حابس كان من وجهاء العرب، وطالما تصدى للمسلمين، وكذلك عينية بن حصن بن بدر الفزاري، كان من قواد جيش الأحزاب في غزوة الخندق، وله مكانة في قومه وكذلك غيره من أشراف العرب، وضعفائهم الذين آثرهم رسول الله بالزيادة.

وقيل إن اختيار لفظ "ناساً" في سياق هذا الإيثار في القسمة له دلالة تفسر ذلك الموقف وهو أن لفظ "الناس" قد يذكر ويراد به الفضلاء دون من يتناوله اسم الناس تجوزاً، وذلك إذا اعتبر معنى الإنسانية، وهو: وجود العقل والذكر وسائر القوى المختصة فهذا اللفظ من هذا السياق يحدد المراد من هؤلاء الناس.

---

(١) انظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ١٧٩/١.

والحوار الذي دار بين ابن مسعود ورسول الله ﷺ يرشد إلى قيمة الأمانة وصدق الحديث وضرورة تبليغ القائد والراعي بكل ما تموج به أحاديث العامة من إفك وافتراءات تؤثر في المناخ العام، وتثير البلبلة في أوساط المجتمع وكذلك يصور هذا الحوار أدب الصحابة في مخاطبة رسول الله ﷺ؛ ويصور كذلك حرص رسول الله على التئام شمل أمته، وعلى أنه لا يغضب لذاته ولكنه لله تعالى؛ ويعلم أمته درساً في الصبر والثبات ومواجهة الأزمات مهما كانت .فيقول معقباً على موقف هذا المعترض: "يرحم الله موسى، قد أوذي بأكثر من هذا فصبر"، ويتألم ابن مسعود للإيذاء الذي حدث لرسول الله ﷺ فيقول موضحاً الموقف في هذا السياق، "لا جرم: لا أرفع إليه بعدها حديثاً" إنه الحب لرسول الله ﷺ والخوف عليه من آثار الكلمة السيئة، والفعل المشين، ولكنه ﷺ يعلمنا أعظم الدروس في الصبر والعدالة والشجاعة والفصاحة واليقين.

فقه الحديث

بين الحديث أحكام قسمة الغنائم وأنها إلى الإمام، وله أن يؤثر البعض في القسمة لحكمة يراها، كما فعل رسول الله ﷺ، حين آثر البعض في القسمة تأليفاً لقلوبهم، وترغيباً لهم في الإسلام، وكذا ما يقاس على هذا من أمور يرى الإمام فيها مصلحة المسلمين أياً كانت.

وقد اتفق الفقهاء[1] على أنه يجوز للإمام أن يؤثر بعض المقاتلين بشيء من الغنيمة لهدف يراه كأن كان أكثرهم شجاعة وثباتاً وفداء، أو كان له دور مؤثر، أو تأليفاً

(١) بدائع الصنائع، الكاساني ١١٤/٧ وما بعدها، وتبيين الحقائق، الزيلعي ٢٤٨/٣ وما بعدها، والفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم المالكي لأحمد بن غنيم النفراوي ٤٠٠/١ وما بعدها، ط/ دار الفكر، وشرح منح الجليل على مختصر خليل، الشيخ محمد بن أحمد بن محمد عليش للشيخ عليش ١٨٠/٣ وما بعدها، ومغني المحتاج للشربيني ١٥١/٤، ١٦٣، ونهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، الرملي ١٤٣/٦ وما بعدها، والمغني، ابن قدامة ٣١٢/٦، ٣١٤، وشرح منتهى الإرادات، البهوتي ٦٤١/١ وما بعدها، ونيل الأوطار، الشوكاني ٣٤٢/٧.

لقلب جمع منهم لمصلحة المسلمين وتقديمهم على من كان من أجناده قوي الإيمان مُؤثِراً للآخرة على الدنيا وغير ذلك.

المضامين الدعوية

أولاً: من وسائل الدعوة: الحكاية.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: تأليف قلوب المدعوين بالمال.

ثالثاً: من آداب المدعو: وجوب التسليم بحكم الله ورسوله ﷺ.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: بيان جزاء من آذى النبي ﷺ.

خامساً: من فقه الداعية: تقديم مصلحة الإسلام على الانتصار لنفسه.

سادساً: من صفات الداعية: الصبر والمصابرة.

سابعاً: من أساليب الدعوة: القسم.

ثامناً: من آداب المدعو: عدم نقل ما يؤدي إلى الشحناء والبغضاء.

أولاً- من وسائل الدعوة: الحكاية:

"الحكاية من قولك: كقولك حَكَيْت فلاناً و حاكَيْتُه فَعَلْتُ مثل فِعْله أَو قُلْتُ مثل قَوْله سواءً لم أُجاوزه، وحكيت عنه الحديث حكاية"[1]، وهذا ما ورد في الحديث (من قول ابن مسعود رضي الله عنه حاكياً ما كان يوم حنين من إيثار النبي ﷺ لبعض الناس في القسمة تأليفاً لقلوبهم، وما تبع ذلك من قول)، والحكاية من الوسائل الدعوية الهامة التي يتوصل بها الداعية إلى أعماق قلوب المدعوين، لما في ذلك من ميل النفس إليها وتعلق عين المدعو وأذنه وانتباهه بنسقها.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: تأليف قلوب المدعوين بالمال:

إن تأليف القلوب بالمال يعد من أهم مداخل الدعوة إلى الله تعالى، فقد يكون المال سببًا في إسلام غير المسلم، أو تثبيت إيمان مسلم، وهذا ما ظهر جلياً في نص الحديث من تأليف النبي ﷺ لقلوب من كان حديث عهد بالإسلام، فعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه

---

(١) لسان العرب ١٨/٩/ ٣٠٨، والقاموس المحيط ١١٧٣.

قال: (لما كان يوم حنين آثر رسول الله ﷺ ناساً في القسمة، فأعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل، وأعطى عيينة بن حصن مثل ذلك، وأعطى ناساً من أشراف العرب وآثرهم يومئذ في القسمة).

ونظراً إلى أهمية تأليف القلوب بالمال، نجد أن الحق تبارك وتعالى قد عد ذلك من مصارف الزكاة فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾[1].

قال ابن الجوزي: (قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ قوم كان رسول الله ﷺ يتألفهم على الإسلام بما يعطيهم، وكانوا ذوي شرف، وهم صنفان: مسلمون، وكافرون. فأما المسلمون، فصنفان؛ صنف كانت نياتهم في الإسلام ضعيفة، فتألفهم تقوية لنياتهم، كعيينة بن حصن، والأقرع؛ وصنف كانت نياتهم حسنة، فأعطوا تألفا لعشائرهم من المشركين، مثل عدي بن حاتم، وأما المشركون، فصنفان؛ صنف يقصدون المسلمين بالأذى، فتألفهم دفعا لأذاهم، مثل عامر بن الطفيل؛ وصنف كان لهم ميل إلى الإسلام، تألفهم بالعطية ليؤمنوا، كصفوان بن أمية"[2].

وقد كان صفوان مشركاً يوم حنين، فأعطاه النبي ﷺ حتى قال: ((وَاللَّهِ لَقَدْ أَعْطَانِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا أَعْطَانِي، وَإِنَّهُ لأَبْغَضُ النَّاسِ إِلَيَّ. فَمَا بَرِحَ يُعْطِينِي حَتَّى إِنَّهُ لأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ))[3]، ومما لا شك فيه أن الداعي الذي يعطي إذا صار أحب الناس إلى المدعو فإن كلامه يسمع وأمره ينفذ، ونهيه يحترم[4].

وكان من أصناف المؤلفة قلوبهم كما بينها ابن الجوزي، صنف كانت نياتهم في الإسلام ضعيفة فتألفهم النبي ﷺ تقوية لنياتهم، وليس أدل على ذلك من قول سعد

---

(١) سورة التوبة، آية: ٦٠.

(٢) زاد المسير في علم التفسير، ابن الجوزي ٤٥٧/٣.

(٣) أخرجه مسلم ٢٣١٣.

(٤) ركائز الدعوة إلى الله تعالى في ضوء النصوص وسير الصالحين، د. فضل إلهي ص ٢٣٦.

ابن أبي وقاص رضي الله عنه : إنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ أعْطى رَهْطاً -وسعدٌ جالسٌ- فتركَ رسولُ اللّه ﷺ رجُلاً هُوَ أَعْجَبُهُم إليَّ. فقلتُ : يا رسولَ اللّهِ ما لَكَ عنْ فُلانٍ؟ فَوَاللّهِ إنّي لأَرَاهُ مُؤْمِناً. فقال: أو مُسْلماً. فسَكتُّ قَليلاً. ثمَّ غَلَبَني ما أعْلَمُ مِنه فعُدتُ لِمَقالتي فقلتُ: ما لَكَ عن فُلانٍ؟ فوَاللّهِ إني لأراهُ مُؤْمناً فقالَ: أوْ مُسلِماً. ثمَّ غَلَبَني ما أعلم منهُ فعُدْتُ لِمَقالَتي، وعادَ رسولُ اللّه ﷺ. ثمَّ قال: ((يا سَعْدُ، إنِّي لأُعْطِي الرَّجُلَ وغيرُهُ أَحَبُّ إليَّ منهُ، خَشْيَةَ أَنْ يَكُبَّهُ اللّهُ في النار))(١).

قال ابن حجر: (وقوله رضي الله عنه : "مالك عن فلان؟" يعني أيُّ سببٍ لعدولك عنه إلى غيره؟...، ومحصل القصة أن النبي ﷺ كان يوسع العطاء لمن أظهر الإسلام تألفا، فلما أعطى الرهط وهم من المؤلفة، وترك جعيلا وهو من المهاجرين مع أن الجميع سألوه، خاطبه سعد في أمره؛ لأنه كان يرى أن جعيلا أحق منهم لما اختبره منه دونهم، ولهذا راجع فيه أكثر من مرة، فأرشده النبي ﷺ إلى أمرين: أحدهما: إعلامه بالحكمة في إعطاء أولئك، وحرمان جعيل مع كونه أحب إليه ممن أعطى؛ لأنه لو ترك إعطاء المؤلف لم يؤمن ارتداده فيكون من أهل النار)(٢).

أما ما أورده ابن الجوزي في أن من أصناف المؤلفة قلوبهم، من كانت نياتهم حسنة، فأعطوا تألفاً لعشائرهم من المشركين، فدليل ذلك ما رواه الإمام مسلم عن أنس رضي الله عنه : ((أَنَّ رَجُلاً سَأَلَ النَّبيَّ ﷺ غنَماً بَيْنَ جبَلَيْنِ. فَأَعْطَاهُ إِيَّاهُ. فَأَتَى قَوْمَهُ فَقَالَ: أَيْ قَوْمِ أَسْلِمُوا. فَوَاللّهِ إِنَّ مُحَمَّداً ﷺ لَيُعْطِي عَطَاءً مَا يَخَافُ الْفَقْرَ))(٣)، فأصبح المدعو بعد تأليف قلبه بالمال داعياً إلى الإسلام، فما أعظم وأجل أثر الإعطاء على القلوب.

وقد بين القاسمي: (أن المؤلفة قلوبهم حكمهم باق؛ لأنه ﷺ أعطى المؤلفة من المسلمين والمشركين فيعطون عند الحاجة. ويحمل ترك عمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم

---

(١) أخرجه البخاري ٢٧، ومسلم ٢٣٧.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١/١٠٠ - ١٠١.

(٣) أخرجه مسلم ٢٣١٣.

إعطاءهم على عدم الحاجة إلى إعطائهم في خلافتهم، لا لسقوط سهمهم)[١].

وفي إيضاح ذلك قال د. محمد سعيد البوطي: (ولقد كان اجتهاد عمر ﷺ في هذا متعلقاً بتحقيق المناط، فلقد رأى أن الإسلام وصل شأنه إلى القمة في القوة والمنعة، سواء من الناحية المعنوية المتعلقة بسطوع حجته وبرهانه، أو من الناحية المادية المتعلقة بكثرة أهله وسعة انتشاره... فتبدى له ﷺ أن مناط حق هؤلاء في الزكاة لم يعد متحققاً في عهده، فالإسلام في منعة وعزة لا يحتاج معهما إلى أن يخاطب ودهم بالمال، فألغى عطاءهم موافقة لنص الآية التي ربطت حق عطائهم بتألف المسلمين إياهم)[٢].

ثالثاً- من آداب المدعو: وجوب التسليم بحكم الله ورسوله ﷺ:

هذا واضح من تغير وجه النبي ﷺ بعد أن قال المنافق قالة السوء: (والله إن هذه قسمة ما عدل فيها، وما أريد فيها وجه الله، فقال النبي ﷺ: فمن يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله؟).

فدلّ هذا على: أن المدعو يجب عليه أن يسلم بما حكم الله به ورسوله ﷺ سواء أفهم الحكمة أم لم يفهم، وسواء أصابه نفع، أم لم يصبه في الظاهر له، فإن حكم الله ورسوله عدل كله وخير كله.

والأصل في العبادات بالنسبة للمكلف التعبد والامتثال دون الالتفات إلى الحكم والمعاني، وإن كانت ظاهرة في كثير منها، قال ابن عثيمين مقرراً ذلك: (يجب أن نعلم أن ما أمر الله به ورسوله، أو نهى الله عنه ورسوله فهو الحكمة، فعلينا أن نُسلم، ونقول إذا سألنا أحد عن الحكمة في أمر من الأمور: إن الحكمة أمر الله ورسوله في المأمورات، ونهي الله ورسوله في المنهيات، ودليل ذلك من القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾[٣].

(١) محاسن التأويل ٥/٨/٢٤٤.

(٢) ضوابط المصلحة في الشريعة الإسلامية ١٤٣ - ١٤٤.

(٣) سورة الأحزاب، آية: ٣٦.

وسئلت عائشة رضي الله عنها (ما بال الحائض تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة؟ فقالت: كان يصيبنا ذلك فنؤمر بقضاء الصيام ولا نؤمر بقضاء الصلاة)[١]، فاستدلت بالسنة ولم تذكر العلة، وهذا هو حقيقة التسليم والعبادة، أن تكون مسلّماً لأمر الله ورسوله عرفت حكمته أم لم تعرف، ولو كان الإنسان لا يؤمن بالشيء حتى يعرف حكمته لقلنا: إنك ممن اتبع هواه فلا تمتثل إلا حيث ظهر لك أن الامتثال خير"[٢].

ولله در الفاروق عمر رضي الله عنه حين قال: (فيم الرملان والكشف عن المناكب وقد أطّأ[٣] الله الإسلام، ونفى الكفر وأهله؟مع ذلك لا ندع شيئاً كنا نفعله على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم)[٤].

ولا يفهم أحد مما سبق أن البحث عن الحكم والمعاني في العبادات التي دلت عليها القرائن ليس بمطلوب، كيف لا وقد ذكر الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم شيئاً من ذلك مثل قول الله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾[٥]، ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[٦]، ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[٧].

... ولكن المراد التحذير من التنطع في استخراجها، أو ربط القيام بالتنفيذ والعمل بمعرفتها، والأصل في العادات والمعاملات الالتفات إلى المعاني والبحث عن الحكم، وإن كانت لا تظهر في اشياء منها)[٨].

رابعاً- من موضوعات الدعوة: بيان جزاء من آذى النبي صلى الله عليه وسلم:

---

(١) انظر: البخاري مع فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٥٠١/١، رقم ٣٢١.

(٢) الشرح الممتع على زاد المستقنع ١٦٥/٤ - ١٦٦.

(٣) أطّأ الله الإسلام: ثبته وأرساه. النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (أ ط أ).

(٤) أخرجه أبو داود ١٨٨٧، وقال الألباني: حديث حسن صحيح، (صحيح سنن أبي داود ٢٦٦٢).

(٥) سورة البقرة، آية: ٢١٩.

(٦) سورة آل عمران، آية: ٢٠٠.

(٧) سورة البقرة، آية: ١٨٣.

(٨) اتباع النبي صلى الله عليه وسلم في ضوء الوحيين، فيصل بن علي البعداني ص ١٠٤ - ١٠٥، ضمن سلسلة كتاب المنتدى حقوق النبي صلى الله عليه وسلم بين الإجلال والإخلال.

يستفاد هذا مما ورد في الحديث من قول القائل في قسمة النبي ﷺ: (هذه قسمة ما عدل فيها، وما أريد فيها وجه الله) قال القرطبي: (هذا قول جاهل بحال النبي ﷺ غليظ الطبع، حريص، شره، منافق. وكان حقه أن يقتل؛ لأنه آذى رسول الله ﷺ. وقد قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1])[2].

وخير دليل على هذا ما أخرجه النسائي عن ابن عباس رضي الله عنهما: ((أن أعمى كان على عهد رسول الله ﷺ وكانت له أم ولد وكان له منها ابنان، وكانت تكثر الوقيعة برسول الله ﷺ وتسبه، فيزجرها فلا تنزجر وينهاها فلا تنتهي، فلما كان ذات ليلة ذكرت النبي ﷺ فوقَعَت فيه فلم أصبر أن قمت إلى المغول فوضعته في بطنها فاتكأت عليه فقتلتها، فأصبحت قتيلاً، فُذكر ذلك للنبي ﷺ فجمع الناس وقال: أنشد الله رجلاً لي عليه حقٌ فَعَل ما فَعَل إلا قام، فأقبل الأعمى يتَدَلْدَل فقال: يا رسول الله أنا صاحبها، كانت أم ولدي وكانت بي لطيفة رقيقة ولي منها ابنان مثل اللؤلؤتين ولكنها كانت تكثر الوقيعة فيك وتشتمك، فأنهاها فلا تنتهي وأزجرها فلا تنزجر، فلما كانت البارحة، ذكرتُك فوقعت فيك، فقمت إلى المِغْول فوضعته في بطنها فاتكأت عليها حتى قتلتها، فقال رسول الله ﷺ: ألا أشهدوا أن دَمَها هَدَرٌ))[3].

وعن أبي برزة رضي الله عنه قال: (إنَّ رجلاً سَبَّ أَبَا بكرٍ رضي الله عنه، فقلتُ: أَلاَ أَضْرِبُ عُنُقَهُ يا خليفةَ رسولِ الله فقالَ: لا، ليستْ هذِهِ لأحدٍ بعدَ رسولِ الله ﷺ)[4]، وبلغ أبا بكر الصديق رضي الله عنه أن المهاجر بن أبي أمية -وكان أميراً على اليمامة- قد رفع إليه امرأتان مغنيتان غنت إحداهما بشتم النبي ﷺ فقطع لسانها ونزع ثناياها، وغنت الأخرى بهجاء المسلمين فقطع لسانها ونزع ثناياها، فكتب إليه أبو بكر رضي الله عنه: بلغني الذي فعلت بالمرأة التي تغنت بشتم النبي ﷺ، ... ولولا ما سبقتني فيها لأمرتك بقتلها؛ لأن

---

(١) سورة التوبة، آية: ٦١.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ١٠٧/٣.

(٣) أخرجه النسائي ١٠٧/٧، وأخرجه أبو داود ٤٣٦١ وصححه الألباني.

(٤) سنن النسائي، ط/ دار الريان للتراث ١٠٩/٧، ١١٠.

حد الأنبياء ليس يشبه الحدود فمن تعاطى ذلك من مسلم فهو مرتد، أو معاهد فهو محارب غادر؛ وأما التي تغنت بهجاء المسلمين: فإن كانت ممن يدعي الإسلام فأدب دون المثلة، وإن كانت ذمية فلعمري لما صفحت عنه من الشرك أعظم، ولو كنت تقدمت إليك في مثل هذا لبلغت مكروهاً"[1].

"وفي ذلك بيان على أن من سب النبي ﷺ وهو مسلم فإنه يكون مرتداً وفي استتابته خلاف". ويشمل ذلك الحكم كل من سبّ نبياً من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، أو استخف بحقه، أو انتقصه، أو نسب إليه ما لا يجوز عليه، كعدم الصدق والتبليغ..

خامساً- من فقه الداعية: تقديم مصلحة الإسلام على الانتصار لنفسه:

إن تمكين الإيمان من القلوب وتحقيق دعوة الإسلام وقيام دولته، غاية عظيمة وهدف جليل، والداعية المحنك هو الذي يوازن بين المصالح والمفاسد، فيسعى إلى تحقيق غايته ولو كان في ذلك صبرٌ على بعض المفاسد، وهذا ما فعله النبي ﷺ -وهو القدوة والأسوة- من عدم قتل من آذاه من المنافقين كما في الحديث الذي نهى فيه عن قتل المنافق.

قال القرطبي: (العذاب في الدنيا لمن آذى رسول الله ﷺ هو: القتل، لكن لم يقتل النبي ﷺ هذا المنافق الذي أظهر ضغن قلبه وخبث نفسه؛ للمعنى الذي قال ﷺ وهومن حديث جابر رضي الله عنه: ((لا يتَحدَّثُ الناسُ أنَّ محمداً يَقتُلُ أصحابَه))[2]، ولهذه العلة امتنع النبي ﷺ من قتل المنافق)[3].

قال النووي: (قوله ﷺ: «دعه لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه» فيه ما كان عليه ﷺ من الحلم، وفيه ترك بعض الأمور المختارة والصبر على بعض المفاسد خوفاً من أن تترتب على ذلك مفسدة أعظم منه، وكان ﷺ يتألف الناس ويصبر على جفاء الأعراب والمنافقين وغيرهم لتقوى شوكة المسلمين وتتم دعوة الإسلام ويتمكن

---

(١) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٣٦/٢٤.

(٢) أخرجه البخاري ٣٥١٨، ومسلم ٢٥٨٤.

(٣) انظر: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ١٠٧/٣.

الإيمان من قلوب المؤلفة ويرغب غيرهم في الإسلام، وكان يعطيهم الأموال الجزيلة لذلك، ولم يقتل المنافقين لهذا المعنى ولإظهارهم الإسلام، وقد أمر بالحكم بالظاهر والله يتولى السرائر، ولأنهم كانوا معدودين في أصحابه ﷺ ويجاهدون معه إما حمية وإما لطلب دنيا أو عصبية لمن معه من عشائرهم)(١).

قال البهي الخولي: (هذا هو المعنى المطلوب من الداعية في باب سياسة العقبات تحقيقاً للغاية العظمى، وقد قصّ الله عز وجل على رسوله مثلاً فيه الكثير من التوجيه الحسن في هذه السياسة: فإن موسى عليه السلام لما بلغ أشده واستوى، راعته مظاهر الظلم التي ينزلها المصريون بالشعب الإسرائيلي... وموسى شاب يهيئه الله سبحانه للرسالة، فهو ذو نفس حساسة، تكره الظلم، وتثور على مظاهره، فدخل المدينة مرة على حين غفلة من أهلها ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾(٢).

إن الظلم جريمة يجب استئصالها بدون نزاع، وموسى عليه السلام إنما كانت رسالته تخليصَ بني إسرائيل مما كان يقع بهم، فهل سلك موسى بهذا العمل سبيلاً سديداً في علاج هذا الفساد؟

ماذا عاد على الإسرائيليين من قتل المصري المعتدي؟ هل استؤصل الظلم وامتنع

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٥٤٥.

(٢) سورة القصص، الآيات: ١٤ - ١٩.

الأذى؟

إن المصري قد يكون له بعض العذر في ضرب الإسرائيلي وظلمه؛ لأنه إنما يجري في ذلك على عادة شائعة موروثة، وسنة مرعية، يرعاها فرعون مصر الأكبر... فإذا أردنا العلاج الصحيح، فلن يكون بعلاج الحوادث الفردية، وإنما بتغيير العادة الشائعة، وإبطال السنة، أو القانون الذي يرعاه فرعون... أما قتل فرد أو عدة أفراد كما حدث من موسى عليه السلام، فهو عمل لا يقرب من الإصلاح خطوة واحدة، وقد نَعَته موسى بأنه من عمل الشيطان.

على أن علاج الفساد بعلاج حوادثه الفردية، كثيراً ما يوقع تحت طائلة القانون، ويغضب مقامات كبيرة لها منفعة في استمراره على ما هو عليه، وحينئذ يعرِّضُ الداعية نفسه لحكم القانون ولبطش الجبارين في غير نفع يعود على الرسالة.

لا نشير بالجبن، ولا بالاستكانة، ولكنا نحب للداعية أن يتسع أفقه العقلي والنفسي، فيعالج مبعث العلة، وأصلها بالحكمة والروية وحسن النظر في مبادئ الأمور ونهاياتها، فذلك هو السبيل الطبيعي للعلاج، أما الوثوب على الحوادث الفردية، ومظاهر الفساد المتفرقة، فشأن البسطاء الذين يذهبون مع حرارة العاطفة دون تقيد بالنظر في عواقب الأمور، وشأن من لا يدخرون أنفسهم لما هو أجل...

وما على الداعية في علاج هذه العقبة الكبرى... إلا أن يستمسك بعزته ويعتصم به، ولا يفرط في رسالته، عليه أن لا يفتر عن الدعوة إليها، وسوف يرى أن فيض الرسالة سيغرق العقبة كما أغرق الله فرعون في نهاية أمره.

ونحن نلاحظ في سيرة رسول الله ﷺ أن قد ثبت فؤاده بهذا القصص، فلم يعجل عليه السلام بعلاج فردي، بل كان يصلي في الكعبة في جوف الليل. والأصنام تطل عليه بعيونها الجامدة البغيضة، فلم يرفع إليها يداً، ولم يحرك نحوها ساكناً ولو مدّ إليها يداً لما رآه أحد، ولكن ماذا تكون العاقبة؟ تعود الأصنام لما كانت، بل إلى أحسن مما كانت، ويعاجل رسول الله ﷺ بالأذى ولكنه علم أن سبيل العلاج شيء غير هذا، هو الصبر والاستمرار على الدعوة، وتجميع الأنصار وتعبئة القوى، وتقرير العقيدة السليمة

والاحتكام إلى معايير العقل، فلما أن أتى الله باليوم الموعود، كان ﷺ يشير إلى الصنم بقضيب في يده قائلاً: ((جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ))[(١)]، فينكفئ إلى وجهه إلى حيث لا رجعة، إنا لنعلم أن شباب الدعوة المحمدية الأولين، كانوا كثيراً ما يعرضون على رسول الله ﷺ أن يثوروا إلى أسلحتهم وأن يهبوا في وجوه أعدائهم، فكان ﷺ يسكن ثورتهم، ويطلب إليهم أن ينتظروا.. لقد كانوا يعلمون وهم في مكة قبل أن يشرع الجهاد، أنهم موعودون بيوم يحملون فيه السلاح، كانوا يقرأون في القرآن المكي قوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ ۙ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾[(٢)]، فتهفو نفوسهم إلى هذا اليوم، ولكنه ﷺ لم يَعْجَل بَعجَلة هؤلاء الشباب، ولم يخف لخفتهم بل كان يطلب إليهم أن يكفوا أيديهم عن هذا الآن ويكتفوا بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة حتى تكتمل القوة، وتنضج الثمرة، وتَطلُع الأقدار بأيام الله.

ونحن نأثم أشد الإثم إذا نصحنا للداعية في علاج العقبات بغير المنهج الذي سنه الله لرسوله، والتزمه ﷺ في حكمة وأناة وقوة.

فإذا انتهى الداعية من علاج عقباته، وخلا له الجو وصار سيد أمره شرع في إقامة النظام الذي تريده دعوته، واستقبل مرحلة لا تقل خطورة ومسؤولية عن مرحلة العقبات وما لابسها من مشقات؛ إن لم تتضاعف فيها المسؤولية وتكثر التكاليف.

والداعية في هذه المرحلة يبني أمة ويؤسس دولة، يبنيها على تقوى من الله ورضوان"[(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري ٢٤٧٨، ومسلم ١٧٨٠.

(٢) سورة المزمل، آية: ٢٠.

(٣) تذكرة الدعاة ص ٢٦٨ - ٢٧٢.

سادساً- من صفات الداعية: الصبر والمصابرة:

"قد ابتلي رسل الله -صلوات الله عليهم وسلامه- بعقبات، وأوذوا وهددوا بالقتل والنفي، وغيرهما من ألوان العذاب فكان العلاج الأكبر الذي عالجوا به أمرهم هو الصبر ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِي ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[1][2].

وهذا ما أكد عليه النبي ﷺ في نص الحديث من قوله: (يرحم الله موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر)، وقد كان النبي ﷺ هو القدوة والأسوة الحسنة للدعاة إلى الله في الصبر والمصابرة، وليس أدل على ذلك من قول عائشة رضي الله عنها للنبي ﷺ: (هل أتى عليكَ يومٌ كان أشدَّ من يوم أحُدٍ؟ قال: ((لقد لَقِيتُ من قومك ما لقيت، وكان أشدَّ ما لقيتُ منهم يومَ العقبةِ إذ عرَضتُ نفسي على ابنِ عبد يا ليل بن عبد كُلال فلم يُجِبني إلى ما أردتْ، فانطلقتُ وأنا مَهمومٌ، على وَجهِي، فلم أستَفق إلا وأنا بقرنِ الثَّعالب[3]، فَرَفَعتُ رأسي، فإذا أنا بَسحابةٍ قد أظلَّتْني، فنظرتُ فإذا فيها جبريل، فناداني فقال: إن الله قد سمعَ قولَ قومكَ لك وما رَدوا عليك، وقد بعث اللهُ إليكَ مَلَكَ الجبالِ لتأمرَهُ بما شِئتَ فيهم، فناداني ملكُ الجبال فسلم علي ثم قال: يا محمد، فقال: ذلكَ فيما شئتَ، إن شِئتَ أن أطبِقَ عليهم الأخْشَبَينِ. فقال النبيُّ ﷺ: بل أرجو أن يُخرجَ الله من أصلابهم من يَعبُدُ اللهَ وحدَهُ لا يُشركُ بهِ شيئاً))[4].

وما نرى الله عز شأنه، أوصى رسله عليهم السلام بشيء أكثر مما أوصاهم بالصبر، وليس معنى الصبر هنا الاستكانة والذلة، والقعود عن الدعوة، والكف عن التفكير في معالجة من يستطيلون بالأذى على الأحرار الأبرياء، وإنما الصبر هنا معناه:

---

(١) سورة الأنعام، آية: ٣٤.

(٢) تذكرة الدعاة، البهي الخولي ص ٢٦٦.

(٣) قال ابن الأثير: هو قرن المنازل، وهو اسم موضع يُحرم منه أهل نجد، وأصل القرن كل جبل صغير ينقطع من جبل كبير، انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير والأثر ص ٧٤٨.

(٤) أخرجه البخاري ٣٢٣١، ومسلم ١٧٩٥.

١- أن يهضم الداعية ما يلقى من إعراض وعناد، وتحد، وأذى؛ بحيث لا يشعر أن هذه العقبات غصة يشرق بها حلقه "لقمة في الزور" فإن ذلك يضايقه، ويصرفه عن حسن علاجها، بل عليه أن يروض نفسه ومعدته العصبية على هضم ذلك كله أما "الغضب" من كل حادث لا يعجبه، فهو بمثابة وقوف "اللقمة في الزور" وهو ما لا يستقيم عليه أمر الدعوة والداعية، فعليه بحسن الاحتمال واستقبال كل شدة بالرضا والتسليم، وحمد الله على كل حال، وطلب المغفرة لمن يجهلون عليه، فإنهم لا يعلمون.

٢- أن يرتقب ما يأتي به الزمن، فللزمن مفاجآته وفرصه التي تجيء بغير ما ينتظر، وقد يجري الله في غضونه من الأحداث والتصرفات ما يهون به شأن هذه العقبات أو يزيلها، وما على الداعية إلا أن يحذر انطفاء حماسته بطول الزمن، بل عليه أن يتخذ مما هضمت أعصابه مدداً لثورته الباطنة وقواه الكامنة، فلا تزيده الأيام إلا قوة على أمره.

٣- أن يتخذ سبيله في غير طريق هذه العقبات، عليه أن يدور حولها ويمضي إلى ما خلفها... عليه أن يمضي في دعوته، يدعو الناس ويجمع حوله الأنصار ويتألف قلوب الجماهير بما يبذل لهم من شتى الخدمات والمنافع والمساعدات، أمامه مفاسد لا يحميها القانون، ولا منفعة لأحد في استمرارها فعليه بعلاجها وإبعاد الناس عنها)[1].

وبذلك يكون الداعية قد اصاب المقصود الحقيقي للصبر والمصابرة.

سادساً- من أساليب الدعوة: القسم:

قد ورد هذا الأسلوب الدعوي في الحديث من تأكيد الصحابي ﵁ على تبليغ النبي ﷺ ما كان من قول المنافق بشأن قِسْمته ﷺ، والقَسَم من أساليب الدعوة الهامة التي يكون بها تأكيد الأمر وإثباته في أذهان المدعوين.

ثامناً- من آداب المدعو: عدم نقل ما يؤدي إلى الشحناء والبغضاء:

هذا يستفاد من نص الحديث في قول الصحابي ﵁: "لا جرم لا أرفعُ إليه بعدها حديثاً"، وهذا الأدب في عدم نقل الأخبار التي تؤدي إلى الشحناء والبغضاء من أهم ما

(١) تذكرة الدعاة، البهي الخولي ص ٢٦٦ - ٢٦٧.

يحفظ على المسلمين وحدتهم، وسلامة صدورهم، فيزدادوا بذلك قوة ومنعة وتماسكاً، وهذا الأدب من أخلاق المؤمنين وشيم الصالحين.

وقد جسد لنا سلفنا الصالح هذا الخلق في أحلك أوقات الأمة ظلاماً، ففي حادث الإفك قالت عائشة رضي الله عنها: (وقلت لأمي يغفر الله لك، تحدّث الناس بما تحدثوا ولا تذكرين لي من ذلك شيئاً)[1]، وقالت رضي الله عنها: (وقد انتهى الحديث إلى رسول الله ﷺ وإلى أبويَّ، لا يذكرون لي منه قليلاً ولا كثيراً)[2]، فعلى المدعو أن يقتدي بخلق سلفه الصالح في عدم نقل الأخبار التي يحصل بها الشحناء والبغضاء، لأن وحدة المسلمين وسلامة مجتمعاتهم وتماسكها من الأمور التي حث الإسلام عليها.

---

(١) البداية والنهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٥٩٦/٦.

(٢) المرجع السابق ٥٩٥/٦.

الحديث رقم (٤٣)

٤٣- وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللَّه ﷺ: «**إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بعبْدِهِ خَيْراً**[1] **عجَّلَ لَهُ الْعُقُوبةَ فِي الدُّنْيَا، وإِذَا أَرَادَ اللَّه بِعبدِهِ الشَّرَّ أمسَكَ عنْهُ بذَنْبِهِ حتَّى يُوافِيَ بهِ يَومَ الْقِيامةِ**»[2].

وقَالَ النبِيُّ ﷺ: «**إِنَّ عِظَمَ الْجزاءِ مَعَ عِظَمِ الْبلاءِ، وإِنَّ اللَّه تعالى إِذَا أَحَبَّ قَوماً ابتلاهُمْ، فَمنْ رضِيَ فلَهُ الرضَا، ومَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ**» رواه الترمذي وقَالَ: حديثٌ حسنٌ[3].

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

حتى يوافي به يوم القيامة: أي يجيء في الآخرة متوفر الذنوب وافيها فيستوفي حقه من العقاب[4].

الشرح الأدبي

إن العلاقة بين العبد وربه، علاقة أزلية، ووثيقة، تحتاج من العبد أن يوثق عُراها بالطاعات والأعمال الصالحة، و لقد كرّم الله بني آدم، وفضّلهم على كثير ممن خلق تفضلا.

ويوضح المصطفى ﷺ ما يجب على العبد تجاه ربه في ضوء هذه المنزلة التي منحها الله لآدم والصالحين من ذريته، فقال: "ثلاث من كن فيه : وجد حلاوة الإيمان:

---

(١) لفظ الترمذي: (الخير).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٩٦). وصحّحه ابن القطان في كتابه: النظر في أحكام النظر (٣٥).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٣٩٦) وقال: هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ من هذا الوجه. فيه سعد بن سنان: صدوق له أفراد، ولذلك حسنّه الترمذي. وله شاهد أخرجه أحمد (٢٣٦٢٣) عن محمود بن لبيد، قال الهيثمي في ال مع (٢٩١/٢)، والمنذري في ترغيبه (١٧٦/٤): رواه أحمد ورواته ثقات. أورده المنذري في ترغيبه (٤٩٩١).

(٤) شرح الطيبي، الطيبي ٢١٠/٣.

أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار"[١].

وفي ضوء هذه الصلة بين العبد وربه يجب أن يكون موقفنا صحيحاً تجاه أحداث الحياة، وأن يكون استقبالنا لما يحل بنا من ابتلاءات استقبالاً إيمانياً يثق في عدالة الله سبحانه، ويسلم أمره كله إلى بارئه جل وعلا.

ونقتبس من أنوار الحديث الشريف بعض الهالات التي تضيء ظلام النفوس، وتمحو كدر المشاعر، وتبدد غيوم الأسى، وتتقشع أمام وهجها سحابات الأحزان.

يقول الله عز وجل: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ﴾[٢].

وصياغة الحديث الشريف تتفق مع دلالته والمقصد منه، فهو يتكون في قسمه الأول من جملتين شرطيتين، وأداة الشرط "إذا" الدالة على التحقق تتكرر في الجملتين، فالأولى ترد على هذا النحو، "إذا أراد الله بعبده خيراً عجل له العقوبة في الدنيا"، والمفارقة تبدو بين دلالة الشرط ودلالة الجواب، وتدعو للتساؤل: كيف يكون الخير هو تعجيل العقوبة في الدنيا، والإنسان يطمح إلى الفرار من أي عقوبة مهما كانت ذنوبه؟؟!! ولذلك يقرن الله الخير بإرادته، ويضيف الرسول ﷺ، لفظ العبد إلى الضمير الذي يعود على لفظ الجلالة، ويقيد العقوبة بقوله في الدنيا، وذلك لأن عقوبة الدنيا أهون وأخف كثيراً من عقوبة الآخرة، وعقوبة الدنيا تتنوع وتتعدد وجوهها وتشمل كثيراً من أنواع الابتلاءات وهي كفارة لجنايات العبد، فيوافي القيامة وقد خلص من تبعات الذنب، وعلى العبد المؤمن أن يقابل الابتلاء في الحياة بالصبر والاحتساب: لأن الله يريد به خيراً، والعبد لا يدري!!

وما أعظم المفارقة الأسلوبية التي تدعو للدهشة والتأمل والتفكر والتدبر حين

---

(١) أخرجه البخاري ١٦، ومسلم ٤٣.

(٢) سورة البقرة: ٢١٦.

يعلمنا المصطفى ﷺ هذا الدرس العميق، حيث يجب أن لا نفرح بعدم العقوبة في الدنيا، وعدم وقوع الابتلاءات لكثير من العاصين المجاهرين لأن هذا هو الشر بعينه الذي يغري الإنسان فيتمادى في ضلالاته، وغواياته، ولكن كما قال رسول الله ﷺ: ((وإن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته))(١)، ويوم القيامة لا شفيع ولا حسيب ولا مدافع: ﴿يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون﴾(٢) ﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم﴾(٣)، وأسلوب الشرط والجواب يناسب منطق الثواب والعقاب: وكذلك المقابلة بين الموقفين موقف الخير وناقدته العقوبة، وموقف الشر وناقدته عدم العقوبة في الدنيا، ولكن الفائز من أحب الله لقاءه.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: ما يصيب المؤمن من عقوبة في الدنيا دليل على إرادة الخير به.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: تأخير العقوبة دليل على غضب الله تعالى.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: فضل الرضا والتسليم بما قدره الله تعالى.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: التحذير من الجزع.

أولاً- من موضوعات الدعوة: ما يصيب المؤمن من عقوبة في الدنيا دليل على إرادة الخير به:

هذا ما أكده نص الحديث في قوله ﷺ "إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة في الدنيا" وأيضاً في قوله ﷺ "إن عظم الجزاء من عظم البلاء، وإن الله تعالى إذا أحب قوماً ابتلاهم" قال المباركفوري: (قوله: "إذا أراد الله بعبده الخير عجل" بالتشديد أي

---

(١) أخرجه البخاري ٤٦٨٦، ومسلم ٢٥٨٣.

(٢) سورة النور، آية: ٢٤.

(٣) سورة الشعراء، الآيتان: ٨٨، ٨٩.

أسرع "له العقوبة" أي الابتلاء بالمكاره "في الدنيا" ليخرج منها وليس عليه ذنب ومن فعل ذلك معه فقد أعظم اللطف به والمنة عليه" ...، وقوله ﷺ "إن عظم الجزاء" أي كثرته "من عِظَم البلاء" بكسر المهملة، وفتح الظاء فيهما ويجوز ضمها مع سكون الظاء فمن ابتلاؤه أعظم فجزاؤه أعظم)(١).

وهذا ما أكده ابن عثيمين في قوله: (إن الإنسان لا يخلو من خطأ ومعصية وتقصير في الواجب؛ فإذا أراد الله بعبده الخير عجَّل له العقوبة في الدنيا: إما بماله أو بأهله أو بنفسه أو بأحد ممن يتصل به، المهم أن تعجل له العقوبة؛ لأن العقوبات تكفر السيئات)(٢)، وقد أخبر النبي ﷺ بذلك فعن مصعب بن سعيد عن أبيه رضي الله عنه قال: ((قلت: يا رسول الله، أي الناس أشد بلاء؟ قال: الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل: فيبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صُلباً اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلي على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة))(٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله حتى يلقى الله وما عليه خطيئة))(٤).

وقال ﷺ: ((ما من مصيبة تصيب المسلم إلا كفر الله بها عنه، حتى الشوكة يشاكها))(٥)، وقال ﷺ: ((ما يصيب المؤمن، من وصب، ولا نصب، ولا سقم، ولا حزن، حتى الهم يهمه، إلا كَفَّر به من سيئاته))(٦).

قال ابن هبيرة: (في هذا الحديث من الفقه إعلام النبي ﷺ أمته أن نَصَبها ووصَبَها وسَقَمها وحزنها وهمها يكفر الله به من خطاياها؛ وذلك لأنه لما كانت الدنيا عند الله

---

(١) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري ٢/١٨٨٩.

(٢) شرح رياض الصالحين ١/١٠٨.

(٣) أخرجه الترمذي ٣٩٨، وقال الألباني: حديث حسن صحيح (صحيح سنن الترمذي ١٩٥٦).

(٤) أخرجه الترمذي ٢٣٩٩، وقال الألباني: حديث حسن صحيح (صحيح سنن الترمذي ١٩٥٧).

(٥) أخرجه البخاري ٥٦٤٠.

(٦) أخرجه البخاري ٥٣١٨، ومسلم ٢٥٧٣.

ليست رضى منه لعباده المؤمنين مقراً له دائماً، وكانت حكمته أن يخرجهم عن هذا المقر الأدنى إلى مقر أعلى؛ فأحل بهم سبحانه من المزعجات ما ينفرهم عنه ويزعجهم منه، وكان من لطفه بهم أن لا يعرض لهم الألم إلا بثواب وثمن هو تكفير السيئات عنهم، فجمع لهم بين تكفير الخطايا والإزعاج عن هذا المقر الأدنى والارتياح للخروج منه إلى دار المقامة)[١]. وهذا أعظم بينة وأقوى دليلاً على إرادة الخير لمن عجلت له العقوبة في الدنيا.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: تأخير العقوبة دليل على غضب الله تعالى:

(إذا أراد الله بعبده الشر، أمهل له واستدرجه وأَدَرَّ عليه النعم، ودفع عنه النقم حتى يبطر؛ ويفرح فرحاً مذموماً بما أنعم الله به عليه، وحينئذٍ يلاقي ربه وهو مغمور بسيئاته فيعاقبه الله بها أشد العقاب)[٢]، وهذا ما أكده النبي ﷺ في الحديث من قوله "وإذا أراد الله بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافي به يوم القيامة".

قال المباركفوري (وقوله ﷺ: "أمسك" أي أخر "عنه" ما يستحقه من العقوبة "بذنبه" أي بسببه "حتى يوافي به يوم القيامة" أي حتى يأتي العبد بذنبه يوم القيامة)[٣] قال الطيبي: (والمعنى لا يجازيه بذنبه حتى يجيء في الآخرة متوفر الذنوب وافيها، فيستوفي حقه من العقاب)[٤].

وهذا ما أكده النبي ﷺ في قوله: ((إِذَا رَأَيْتَ اللَّه يُعْطِي العَبْدَ من الدنيا على معاصيه مَا يحِبُّ، فإِنَّمَا هُو استِدْرَاجٌ. ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾[٥]))[٦].

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة ٦/٢٥٢-٢٥٣.
(٢) انظر: شرح رياض الصالحين، محمد بن عثيمين، ١/١٠٨.
(٣) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري ٢/١٨٨٩.
(٤) شرح الطيبي، الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ٣/٢١٠.
(٥) سورة الأنعام، آية: ٤٤.
(٦) أخرجه أحمد ٤/١٤٥ رقم ١٧٣١١، وقال محققو المسند: حديث حسن ٢٨/٥٤٧.

قال القاسمي: (وقوله تعالى: "فلما نسوا ما ذُكروا به" أي: من البأساء والضراء، أي تركوا الاتعاظ به "فتحنا عليهم أبواب كل شيء" أي: من النعم، كالصحة والسعة وراحة البال والأمن، وصنوف رغائبهم، استدراجاً وإملاءً ومكراً بهم، عياذاً بالله من مكره "حتى إذا فرحوا بما أتوا" من مطالبهم ورغائبهم، مع الشرك "أخذناهم" أي: بالعذاب المستأصل، "بغتة" أي: فجأة بلا تقديم مذكّر، إذ لم يفدهم في المرة الأولى "فإذا هم مبلسون" متحسرون، يئسون من كل خير، ... وقال الحسن البصري: من وسع الله عليه، فلم ير أنه يمكر به، فلا رأي له، ومن قتَّر عليه، ولم ير أنه ينظر له، فلا رأي له. ثم قرأ: "فلما نسوا ..." الآية -قال الحسن: مكر بالقوم، ورب الكعبة! أعطوا حاجتهم ثم أُخِذوا.

وقال قتادة: بغت القومَ أمرُ الله، وما أخذ الله قوماً قط إلا عند سكرتهم وغرتهم ونعمتهم، فلا تغتروا بالله، فإنه لا يغتر بالله إلا القوم الفاسقون- روى ذلك ابن أبي حاتم-وقال الرازي: قال أهل المعاني: وإنما أخذوا في حال الرخاء والراحة ليكون أشد، لتحسرهم على ما فاتهم من السلامة والعافية)[1]. فعلى المرء أن يحذر من معصية الله ولا يغتر بحلم الله عليه فقد يكون في ذلك هلاكه.

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: فضل الرضا والتسليم بما قدره الله تعالى:

إن الرضا بما قدره الله تعالى والتسليم له، دليل كمال الإيمان وحسن الإسلام والفوز بالجنان والنجاة من النيران، وهذا ما أكده نص الحديث في قوله ﷺ "فمن رضي فله الرضا".

قال المباركفوري: (قوله ﷺ "فمن رضي" بما ابتلي به "فله الرضا" منه تعالى وجزيل الثواب)[2]، وبين الطيبي: (أن هذا شرط وجزاء، فَهِم منه أنّ رضى الله تعالى مسبوق برضا العبد، ومحال أن يرضى العبد عن الله إلا بعد أن يرضى الله عن العبد، كما قال: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾[3] ومحال أن يحصل رضا الله ولا يحصل رضا

---

(١) محاسن التأويل، جمال الدين القاسمي، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي ٥٢٩/٦/٤-٥٣٠.

(٢) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري ١٨٨٩/٢.

(٣) سورة البينة، آية: ٨.

العبد في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرۡضِيَّةً﴾[١] فعن الله الرضى أزلاً وأبداً، سابقاً ولاحقاً)[٢].

قال الراغب: (ورضا العبد عن الله أن لا يكره ما يجري به قضاؤه)[٣]. (وقيل: ارتفاع الجزع في أي حكم كان. وقيل: رفع الاختيار، وقيل: استقبال الأحكام بالفرح. وقيل: سكون القلب تحت مجاري الأحكام. وقيل: نظر القلب إلى قديم اختيار الله للعبد، وهو ترك السخط)[٤].

وبين ابن القيم: (أن الرضا كسبي باعتبار سببه، مَوْهبي باعتبار حقيقته، فيمكن أن يقال بالكسب لأسبابه؛ فإذا تمكن في أسبابه وغرس شجرته: اجتنى منها ثمرة الرضى، فإن الرضا آخر التوكل، فمن رسخ قدمه في التوكل والتسليم والتفويض: حصل له الرضا ولابد؛ ولكن لعزته وعدم إجابة أكثر النفوس له، وصعوبته عليها لم يوجبه الله على خلقه رحمة بهم، وتخفيفاً عنهم؛ لكن ندبهم إليه، وأثنى على أهله، وأخبر أن ثوابه رضاه عنهم الذي هو أعظم وأكبر وأجل من الجنان ومافيها؛ فمن رضي عن ربه رضي الله عنه -بل رضا العبد عن الله من نتائج رضا الله عنه- فهو محفوف بنوعين من رضاه عن عبده: رضًا قبله أوجب له أن يرضى عنه، ورضًا بعده هو ثمرة رضاه عنه. ولذلك كان الرضا باب الله الأعظم، وجنة الدنيا، ومستراح العارفين، وحياة المحبين، ونعيم العابدين، وقرة عيون المشتاقين)[٥].

وقال بعد أن ساق حديثين: الأول: قوله ﷺ: ((ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً))[٦]. والثاني: قوله: ((من قال حين يسمع النداء: رضيت

---

(١) سورة الفجر، الآيتان: ٢٧-٢٨.

(٢) شرح الطيبي، الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ٣/٢١١.

(٣) المفردات في غريب القرآن ١٩٧.

(٤) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٢/٤٦٢-٤٦٣.

(٥) المرجع السابق، ٢/٤٥٧-٤٥٨.

(٦) أخرجه مسلم ٣٤.

بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً غفرت له ذنوبه))[1] - (هذان الحديثان عليهما مدار مقامات الدين، وإليهما ينتهي، وقد تضمنا الرضا بربوبيته سبحانه وألوهيته. والرضا برسوله، والانقياد له، والرضا بدينه والتسليم له، ومن اجتمعت له هذه الأربعة فهو الصديق حقاً، وهي سهلة بالدعوى واللسان، وهي من أصعب الأمور عند حقيقة الامتحان، ولا سيما إذا جاء ما يخالف هوى النفس ومرادها، من ذلك تبين أن الرضا كان لسانه به ناطقاً. فهو على لسانه لا على حاله ...، ثم بين المقصود برضا الربوبية فقال: أن يتضمن الرضا بتدبيره لعبده، ويتضمن إفراده بالتوكل عليه، والاستعانة به، والثقة به، والاعتماد عليه، وأن يكون راضياً بكل ما يفعل به)[2].

وقد عظَّم النبي ﷺ جزاء من يرضا عن الله تعالى ويسلم له نفسه فيما أجرى عليه من أقدار، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لنسوة من الأنصار: ((لا يموت لإحداكن ثلاثة من الولد فتحتسبه إلا دخلت الجنة. فقالت امرأة منهن: أو اثنين يا رسول الله؟ قال: أو اثنين))[3].

وعن أم سلمة رضي الله عنها أنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرني في مصيبتي واخلف لي خيراً منها. إلا أخلف الله له خيراً منها))[4].

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((إذا مات ولد العبد، قال الله لملائكته: قبضتم ولد عبدي؟ فيقولون: نعم فيقول: قبضتم ثمرة فؤاده، فيقولون: نعم، فيقول: ماذا قال عبدي؟ فيقولون: حمدك واسترجع، فيقول الله: ابنوا لعبدي بيتاً في الجنة وسموه بيت الحمد))[5].

---

(١) أخرجه مسلم ٣٨٦.

(٢) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٢/٤٥٥.

(٣) أخرجه البخاري ١٢٤٩، ومسلم ٢٦٣٢.

(٤) أخرجه مسلم ٩١٨.

(٥) أخرجه الترمذي ١٠٢١، وحسنه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٨١٤).

فعلى العبد أن يرضى عن الله وبالله ولله، وأن يسلّم أمره وقلبه وكله لله، فهو تعالى الأعلم بحال عباده، المقدر لهم الخير في الدنيا والآخرة، فله الحمد حتى يرضى وله الحمد بعد الرضا.

رابعاً- من موضوعات الدعوة: التحذير من الجزع:

(إن الجزع لدليل على انتفاء كمال الإيمان، وعدم الرضا بالمقدور والعجز عن فعل المأمور)[١]، وقد ذمه الحق تبارك وتعالى في كتابه فقال: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾[٢].

قال ابن كثير: (أي إذا أصابه الضر فزع وجزع وانخلع قلبه من شدة الرعب، وأيس أن يحصل له بعد ذلك خير)[٣]، وهذا ما حذر منه النبي ﷺ في نص الحديث من قوله "ومن سخط فله السخط".

قال المباركفوري: ("ومن سخط" بكسر الخاء أي كره بلاء الله وفزع ولم يرض بقضائه "فله السخط" منه تعالى وأليم العذاب، ومن يعمل سوءاً يجز به، والمقصود الحث على الصبر على البلاء بعد وقوعه لا الترغيب في طلبه للنهي عنه)[٤].

وقد رهب النبي ﷺ من الجزع بأمر الله تعالى، وعدم الصبر والرضى بقضائه فعن جندب بن عبدالله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((كان فيمن كان قبلكم رجل به جرح فجزع فأخذ سكيناً فحزَّ بها يده، فما رقأ الدم حتى مات. قال الله تعالى: بادرني عبدي بنفسه، حرمت عليه الجنة)[٥].

قال ابن حجر: (قوله ﷺ "فجزع" أي لم يصبر على ألم تلك القرحة وقوله ﷺ "فما رقأ الدم" بالقاف والهمزة أي لم ينقطع وقوله ﷺ "قال الله عز وجل: بادرني

---

(١) انظر: نضرة النعيم، ٤٣٥٧/٩.

(٢) سورة المعارج، الآيات: ١٩-٢٢.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٢٢٦/٨.

(٤) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري ١٨٨٩/٢-١٨٩٠.

(٥) أخرجه البخاري ٣٤٦٣، ومسلم ١١٣.

عبدي نفسه" هو كناية عن استعجال المذكور الموت، وقوله "حرمت عليه الجنة" جار مجرى التعليل للعقوبة؛ لأنه لما استعجل الموت بتعاطي سببه من إنفاذ مقاتله فجعل له فيه اختياراً عصى الله به فناسب أن يعاقبه، ودل ذلك على أنه حزها لإرادة الموت لا لقصد المداواة التي يغلب على الظن الانتفاع بها، وقد استشكل قوله "بادرني بنفسه" وقوله "حرمت عليه الجنة"؛ لأن الأول يقتضي أن يكون من قتل فقد مات قبل أجله لما يوهمه سياق الحديث من أنه لو لم يقتل نفسه كان قد تأخر عن ذلك الوقت وعاش، لكنه بادر فتقدم، والثاني يقتضي تخليد الموحد في النار، والجواب عن الأول أن المبادرة من حيث التسبب في ذلك والقصد له والاختيار، وأطلق عليه المبادرة لوجود صورتها وإنما استحق المعاقبة؛ لأن الله لم يطلعه على انقضاء أجله فاختار هو قتل نفسه فاستحق المعاقبة لعصيانه.

وقال القاضي أبوبكر: قضاء الله مطلق ومقيد بصفة، فالمطلق يمضي على الوجه بلا صارف، والمقيد على الوجهين مثاله أن يقدر لواحد أن يعيش عشرين سنة إن قتل نفسه وثلاثين سنة إن لم يقتل، وهذا بالنسبة إلى ما يعلم به المخلوق كملك الموت مثلاً، وأما بالنسبة إلى علم الله فإنه لا يقع إلا ما علمه، ونظير ذلك الواجب المخير فالواقع منه معلوم عند الله والعبد مخير في أي الخصال يفعل، والجواب عن الثاني من أوجه: أحدها أنه كان استحل ذلك الفعل فصار كافراً. ثانيها: كان كافراً في الأصل وعوقب بهذه المعصية زيادة على كفره. ثالثها: أن المراد الجنة حرمت عليه في وقت ما كالوقت الذي يدخل فيه السابقون أو الوقت الذي يعذب فيه الموحدون في النار ثم يخرجون. رابعها: أن المراد جنة معينة كالفردوس مثلاً. خامسها: أن ذلك ورد في سبيل التغليظ والتخويف وظاهره غير مراد. سادسها: أن التقدير حرمت عليه الجنة إن شئت استمرار ذلك.
سابعها: قال "النووي"[1] ويحتمل أن يكون ذلك شرع من مضى أن أصحاب الكبائر يكفرون بفعلها)[2]. وفي كل ذلك دليل على الترهيب من الجزع وعدم الصبر على قضاء الله، فعلى المرء أن يحذر من ذلك.

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٦٦.
(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٥٧٧/٦.

الحديث رقم (٤٤)

٤٤- وعنْ أَنَسٍ ﷺ قال: كَانَ ابْنٌ لأبي طلْحة ﷺ يَشْتَكي، فخرج أبُو طَلْحة، فَقُبِضَ الصَّبيُّ، فَلَمَّا رَجَعَ أَبُو طَلْحَةَ قال: ما فَعَلَ ابنِي؟ قَالَت أُمُّ سُلَيْم (وَهِيَ أُمُّ الصَّبيِّ)[1]: هو أَسْكَنُ مَا كَانَ، فقرَّبَتْ إلَيْهِ الْعَشَاءَ فتَعَشَّى، ثُمَّ أَصَابَ مِنْهَا، فَلَمَّا فرغ قَالَتْ: وارُوا الصَّبيَّ، فَلَمَّا أصْبحَ أَبُو طَلْحَة أَتَى رسولَ اللَّه ﷺ فأخبرهُ، فَقَالَ: «أَعرَّستُمُ اللَّيْلَةَ؟» قَالَ: نَعَمْ، قال: «اللَّهمَّ بارِكْ لَهُما» فَولَدتْ غُلاماً فقَالَ لِي أبُو طَلْحَةَ: احْمِلْهُ حتَّى تَأْتِيَ بِهِ النبيَّ ﷺ[2]، وبَعثَ[3] مَعهُ بتمْرات[4]، فقال: «أَمعهُ شَيءٌ؟» قال[5]: نعمْ، تَمراتٌ فأَخَذَهَا النَّبيُّ ﷺ فمضغَهَا، ثُمَّ أَخذَهَا مِنْ فِيهِ فَجَعَلَهَا في في الصَّبيِّ ثُمَّ حَنَّكَه وسمَّاهُ عبدَ اللَّهِ. متفقٌ عليه[6].

وفي روايةٍ للْبُخَاريِّ[7]: قال ابْنُ عُيَيْنَة: فَقَالَ رجُلٌ منَ الأَنْصارِ: فرَأَيْتُ تسعة أَوْلادٍ كلُّهُمْ قدْ قَرؤُوا[8] الْقُرآنَ، (يعْنِي مِنْ أَوْلادِ عبْدِ اللَّه الْمولُود)[9].

وفي روايةٍ لمسلِم[10]: ماتَ ابْنٌ لأبي طَلْحَةَ مِنْ أُمِّ سُلَيْمٍ، فَقَالَتْ لأهْلِهَا: لا تُحدِّثُوا أَبَا طَلْحَةَ بابنِهِ حتَّى أَكُونَ أَنَا أُحَدِّثُهُ، فَجَاءَ فَقَرَّبَتْ إِلَيْهِ عَشَاءً فأَكلَ وشَرِبَ، ثُمَّ تَصنَّعت

---

(١) هذا من تفسير المؤلف.

(٢) عند البخاري ومسلم زيادة: (فأتى به النبي ﷺ).

(٣) لفظ البخاري: (وأرسلت)، ولفظ مسلم: (وبعثت).

(٤) عند البخاري ومسلم زيادة: (فأخذه النبي ﷺ).

(٥) لفظ البخاري ومسلم: (قالوا).

(٦) أخرجه البخاري (٥٤٧٠)، ومسلم (٢١٤٤/٢٣) ولفظهما سواء.

(٧) برقم (١٣٠١).

(٨) لفظ البخاري: (قرأ).

(٩) ما بين القوسين من تفسير المؤلف.

(١٠) برقم (٢١٤٤/١٠٧، كتاب فضائل الصحابة، باب ٢٠).

تنبيه: هذا الحديث لم يكن في موضعه حسب الترقيم، وإنما أورده مسلم في فضائل الصحابة، ولأجل ذلك لم يوثق أحدٌ ممن عُني بكتاب رياض الصالحين موضعه من صحيح مسلم.

لهُ أَحْسنَ ما كانتْ[1] تصنَّعُ قَبْلَ ذلكَ، فوقعَ بهَا، فَلَمَّا أَنْ رأَتْ أَنَّهُ قَدْ شَبعِ وأَصَابَ مِنْها قَالتْ: يا أَبَا طلْحةَ، أَرَايْتَ لَوْ أَنَّ قَوْماً أَعارُوا عارِيتهُمْ أَهْل بيْتٍ فَطلَبوا عارِيَتَهُم، أَلَهُمْ أَنْ يمْنَعُوهَا[2]؟ قَالَ: لا، فَقَالَتْ: فاحتسِبْ ابْنَكَ. قَالَ: فغَضِبَ، ثُمَّ[3] قَالَ: تركتِني حتَّى إِذَا[4] تَلطَّخْتُ ثُمَّ أَخبرتِني بابْني، فَانْطَلَقَ حتَّى أَتَى رسولَ اللَّه ﷺ فأخْبَرهُ بما كَانَ، فَقَالَ رسولُ اللَّه ﷺ: «بَارِكَ اللَّه لكُما فِي[5] ليْلتِكُما».

قال: فحملَتْ، قال: وكَانَ رسول اللَّه ﷺ في سفَرٍ وهِي معَهُ وكَانَ رسولُ اللَّه ﷺ إِذَا أَتَى الْمَدِينَةِ مِنْ سَفَرٍ لاَ يَطْرُقُها طُرُوقاً فَدنَوْا مِنَ الْمَدِينَةِ، فَضَرَبَهَا الْمَخاضُ، فَاحْتَبَس عَلَيْهَا أَبُو طلْحَةَ، وانْطلَقَ رسولُ اللَّه ﷺ. قَالَ: يقُولُ أَبُو طَلْحةَ: إِنَّكَ لتعلمُ يَا ربِّ أَنَّهُ يعْجبُنِي أَنْ أَخْرُجَ معَ رسولِ اللَّه ﷺ[6] وسلَّم إِذَا خَرَجَ، وأَدْخُلَ معَهُ إِذَا دَخَلَ، وقَدِ احْتَبَسْتُ بما تَرى. تقولُ أُمُّ سُلَيْمٍ: يا أَبَا طلْحةَ مَا أَجِد الَّذي كنْتُ أَجِدُ، انْطَلِقْ، فانْطَلَقْنَا، وضَربهَا المَخاضُ حينَ قَدِمَا فَولَدتْ غُلاماً. فقالَتْ لِي أُمِّي: يا أَنَسُ لا يُرْضِعُهُ أَحدٌ[7] تَغْدُوَ بهِ علَى رسُول اللَّه ﷺ، فلمَّا أَصْبحَ احتملْتُهُ فانطَلَقْتُ بهِ إِلَى رسولِ اللَّه ﷺ. وذَكَرَ تمامَ الْحَدِيثِ.

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

يشتكي: يُعاني المرض[8].

---

(١) لفظ مسلم: (كان).

(٢) لفظ مسلم: (يمنعوهم).

(٣) لفظ مسلم بالواو.

(٤) عند مسلم بدون: (إذا).

(٥) عند مسلم زيادة: (غابر).

(٦) عند مسلم: (نبيك).

(٧) عند مسلم زيادة: (حتى).

(٨) اللسان والوسيط في (ش ك و).

هو أسكن ما كان: المقصود: أنه مات. ووقع في رواية للبخاري: ١٣٠١: قد هدأت نفسه وأرجو أن يكون قد استراح[١].

أصاب منها: جامَعها[٢].

وَارُو الصبيَّ: ادفنوه[٣].

أعرستم: أأعرستُمْ، وحذف همزة الاستفهام تخفيفًا، والإعراسُ هنا: الجماع[٤].

حنّكه: من التحنيك، وهو مضغ الشيء ووضعه في فم الصبي ودلك حنكه به[٥].

تصنعت له: أي تزينت وتجملت له، وفي رواية: "ثم تطيبت"[٦].

قرؤوا القرآن: يعني عن نظر وحفظ[٧].

عاريتهم: العارية: ما تعطيه غيرك على أن يعيده إليك[٨].

تلطخت: أي تنجست وتقذرت بالجماع[٩].

لا يطرقها طروقاً: أي لا يدخلها في الليل[١٠].

المخاض: وجع الولادة وهو الطلق[١١].

احتبس عليها: أي حبس نفسه عليها فأقام معها وتأخر عن ركب رسول الله ﷺ[١٢].

---

(١) انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٠٣/٣.

(٢) اللسان والوسيط في (ص ي ب).

(٣) اللسان والوسيط في (و ر ى).

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ع ر س).

(٥) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٥٠١/٩، والنهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ح ن ك).

(٦) انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٠٣/٣.

(٧) الوسيط في (ق ر أ).

(٨) اللسان والوسيط في (ع ر و).

(٩) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ل ط خ).

(١٠) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٤٩٣.

(١١) الوسيط في (خ و ض).

(١٢) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير والوسيط في (ح ب س).

الشرح الأدبي

هذا الحديث النبوي ليس كلمات توجيهية فقط، وليس تقويماً لأمر حدث تقويماً مباشراً، وإنما هو حكاية واقعية مضيئة بالقيم الإسلامية الجميلة، والآداب الاجتماعية النبيلة، وهذه الحكاية شارك في نسج أحداثها أشخاص حقيقيون، ضربوا المثل الأعلى في التمسك والتحلي بالصبر الجميل، إنهم استضاءوا بنور الله وهدي المصطفى المختار، وهم يقدمون النموذج الإسلامي الحقيقي في الانتصار على المصائب، وفي استقبال قدر الله في جميع الخلائق: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾[1].

فأم سليم: وهي أم الصبي الذي مات: واسمها: سهيلة، وقيل: رميثة، أو مليكة، وتحديد الاسم ليس هو المراد، ولكن الدرس الإيماني الذي قدمته هذه الأم، وتلك الزوجة: هو المقصد الأسنى، والهدف الأقوى، من هذه الحكاية الواقعية التي تظل إلى يوم الدين نبراساً في الصبر، ومثلاً أعلى في الاقتداء.

ولنتأمل أحداث هذه الحكاية ولنحدق في زواياها - وصياغتها، ولننقل شريط تطور الحدث فيها إلى جيلنا، وإلى الأجيال القادمة، كما تناقله جيل السلف، وتوارثه الخلف من الأوائل الذين سبقونا، والحديث يجمع في صياغته بين القول والفعل والتقرير.

ويبدأ الحديث في روايته الأولى بالفعل "كان" إشارة إلى الحكاية التي وقعت، وإيحاءً بأنها ستظل هكذا تروى للأجيال المسلمة القادمة، وابن أبي طلحة: هو عمير، وقيل: كنى رسول الله ﷺ. أبا طلحة بأبي عمير، إيحاء وإنباء بقصر عمر ذلك الغلام الذي دارت أحداث هذه القصة حول حكايته وحدث موته، ولنتأمل الفعل "يشتكي"، وهو كناية عن المرض أى يشتكي الداء والمرض.

والحوار الصادق الذي دار بين الأب: أبي طلحة، والأم: أم سليم، ينبئ عن العاطفة الرقيقة الصادقة من الزوجة تجاه زوجها. في مثل هذه الظروف، فالابن المريض مات،

---

(١) سورة الزمر، آية: ٣٠.

والأب يسأل بعد أن خرج وعاد، مافعل ابني؟ وتجيب الأم في بلاغة وفصاحة وصبر وخشوع، وإيمان واطمئنان، ومحبة وحنان: قائلة: "هو أسكن ما كان" وفي هذه العبارة صدق الحديث، وتخفيف المصاب، وعدم مفاجأة الأب بالخبر المفزع، والتعبير كناية عن الراحة حيث خف ألم النزع، وذهبت دواعي المرض؛ والأم استطاعت أن تكتم مشاعرها الحزينة، وأن تتغلب على انفعالاتها الدفينة، وأن تواجه زوجها بهذه الكلمات العذبة الرصينة، ولم تكتف الأم الثكلى بهذا الصنيع، بل واصلت أداء دورها الإيجابي في توجيه الأحداث، حرصاً على راحة زوجها، واستعداداً لأمر قدره الذي يعلم السر وأخفى: وهو أن الله سيبشرها بغلام يكون فيه العوض والمثوبة والأجر، وهى لا تدرك حقيقة هذا الغيب، ولكنها بفطرتها الإيمانية تتحرك، وتفعل ما يجب على المرأة المسلمة القيام به من طاعة للزوج، ومن إشاعة عبير السكن والمودة والرحمة في أجواء وفضاءات الحياة الزوجية، إنها تقدم العشاء الطيب لزوجها، ولنتأمل سرعة تطور الحدث ثم التريث بعد ذلك في الحديث الشريف، "فقربت له العشاء فتعشى"، ويقول: "ثم أصاب منها"، وذلك كناية عن الجماع، والتعبير بثم يوحي بالتمهل والأناه والتروي، وبأن الأمر لم يكن بلهفة منها، ولكن هو الذي بادر، بعد أن تهيأت بما يناسب مثل هذا المقام وذلك الحال.

وأي عزيمة يتوقد بها قلب هذه الأم؟ وأي إرادة تتجمل بها هذه الزوجة: وهي تصارع أحزانها، وتغالب أوجاعها، ولنتابع هذه القصة العجيبة: فالزوجة لا تكتفي بذلك، ولكنها تواصل أداء دورها.

وتقول بعد ذلك "واروا الصبي"، ويبدأ مشهد جديد من مشاهد أحداث هذه القصة الواقعية: ويدور حوار بين رسول الله ﷺ وأبي طلحة حينما توجه إليه في الصباح.. وأخبره بما حدث، فيقول له رسول الله مبشراً ومهنئاً.. وكأنه يواسيه ويعزيه ولكن في أسلوب إيماني عظيم: قال الرسول له: "أعرستم الليلة"، والجملة استفهامية وهي مثال من أدب النبوة، فهي كناية عن "الوطء" ولكنه لم يصرح بذلك، إشارة إلى ما يجب قوله في هذه المواقف، فإن التلميح يغني عن التصريح، والإشارة تغني عن العبارة.

والكناية من أبدع المسالك البيانية، والطرق الأسلوبية التي يعبر بها المنشئ عن المعنى تعبيراً مُظِلاً هادفاً موجزاً يخفي تحت ظلاله لطائف مراده.

ويقول أبو طلحة: "نعم"، ويدعو الرسول ﷺ للأم والأب -والزوج والزوجة- قائلاً: "اللهم بارك لهما"، وفي رواية أخرى، قال: "بارك الله لكما في ليلتكما"؛ وقد استجاب الله سبحانه وتعالى لدعاء نبيه عليه الصلاة والسلام، وحملت المرأة الصابرة المحتسبة المحبة لزوجها والتي أقنعته بالتمهيد وضرب المثل قبل أن تخبره بخبر وفاة ابنه، وبعد أن أصاب منها، وتحققت نبوءة المصطفى ﷺ، وحلت البركة، وولدت هذه الأم غلاماً، وحنكه النبي ﷺ بالتمر، وسماه عبدالله، ويروي البخاري بأن رجلاً من الأنصار وهو عباية بن رفاعة قال: فرأيت تسعة أولاد كلهم قد قرءوا القرآن: يعني من أولاد عبدالله ابن أبي طلحة المولود من تلك الإصابة في هذه الليلة المدعو لها بالبركة من رسول الله ﷺ، فتأمل أخي المسلم جزاء الصابرين المحتسبين، إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب.

وفي الحديث في روايتيه كثير من الأسرار التعبيرية، والصور الجمالية، ومنها "الجناس" في قوله: "ثم أخذها من فيه فجعلها في فيّ الصبي"، وهى التمرات التي مضغها رسول الله ﷺ، ورغم تكرار حرف "الفاء"، وحرف "في" ثم الاسم، في "الصبي"، فإن الأسلوب ليس فيه تعقيد، ولكنه سهل ميسور وكأن هذا التكرار وهذا التجانس يناسب هذا الحدث "الطفولي" السعيد، وتكرار الكلمات، والحروف والمشاهد من تقنيات وآليات عالم الطفولة وأدبها وخطابها، وقد أحسن الراوي صنعاً وحديثاً بهذه الكلمات الملائمة المناسبة، والفعل هنا أجمل من القول: لأن النبي ﷺ يأخذ التمرات من الصبي، ويمضغها، حتى تمتزج وتختلط بريقه الشريف، وفمه الطاهر، الذي تفوه بجوامع الكلم، وبلغ آيات الكتاب الحكيم، ويحنك النبي ﷺ الغلام، وتسري بركة الدعاء في شرايينه وأوصاله... ويحقق الله البشرى لأبويه وله بعد ذلك.

وفي الرواية الثانية للحديث: تظهر حكمة الزوجة وتتجلى في طريقة إخبار زوجها بخبر وفاة الصبي بعد أن أصاب منها.

وشاء الله أن تكون هذه الليلة مباركة كما بشرهما رسول الله ﷺ: قالت المرأة لزوجها في تلطف وسكينة: "يا أبا طلحة: أرأيت لو أن قوماً أعاروا عاريتهم، أهل بيت: فطلبوا عاريتهم: ألهم أن يمنعوهم؟ قال: لا. وتأمل صيغة النداء وتعين "الكنية" استمالة لقلب الرجل، ثم هذه الاستفهام المتكرر، "أرأيت؟ ألهم أن يمنعوهم؟" ثم أسلوب الشرط: وأداته: لو: هي أداة امتناع لامتناع: أي أن الأمر على سبيل ضرب المثل والشاهد أو أن التعبير يتضمن دلالة الحدث وهو أن الذين أعيروا الشيء لن يمنعوا صاحب العارية من أن يستردها، وكذلك: أهل الغلام: فابنهم هبة من الله وعارية مستردة، والمعار باق على ملك المعير، فله استرداده متى شاء كما يقول صاحب دليل الفالحين؟ ثم تقول الزوجة والأم لزوجها بعد أن أقنعته عن طريق هذا التمهيد "فاحتسب ابنك" ولم تقل أنه مات لأنه لا راد لقضاء الله، وأن ميزان الإيمان يتجلى في الثبات لحظة استقبال الأحزان.

وقالوا: إن أم سليم كان لها من قوة القلب وثبات الجنان الغاية القصوى، فكانت تشهد الحرب وتداوي الجرحى فاللهم اجعلنا من الصابرين المحتسبين.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكمين فقهيين:

الأول: حكم المعاريض، فقد أجاز الفقهاء التعريض عند وقوع حالة من الحالات التي يباح فيها الكذب كالإصلاح بين المتخاصمين وإرضاء الزوجة والخدعة في الحرب، وكذا يجوز استخدام المعاريض في مخادعة الظالم المبطل، ولا يجوز استخدامها لمخادعة المحق، ولا تكون المعاريض إلا فيما حرم الشرع من الكذب ولا تكون في غيرها، فلا تجوز في البيع والشراء، والمعاريض كما تكون بالقول تكون بالفعل كما ذكر ابن القيم[1].

---

(١) أحكام القرآن للجصاص ٢٥٩/٣، والمبسوط، السرخسي ٢١١/٣٠ وما بعدها، والفتاوى الهندية ٤٣٦/٦، شرح السير الكبير على مختصر خليل، أبو البركات أحمد بن محمد الدردير ١١٩/١ وما بعدها، والمنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعد الباجي للباجي ٣١٢/٧ وما بعدها، أدب الدنيا والدين للماوردي ص ٢٦٥، ومغني المحتاج ١٨٢/٦، المغني، ابن قدامة ٤٢٠/٩، والفتاوى الكبرى ٧٩/٦ وما بعدها، ١٢١/٦ وما بعدها، وإعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن القيم ١٨٧/٣ وما بعدها، والفروع، ابن مفلح ٥٦٣/٦، والآداب الشرعية، ابن مفلح ١٤/١ وما بعدها، ونيل الأوطار، الشوكاني ٣٠٣/٧.

الثاني: حكم تحنيك الصبي وتسميته، وذلك في باب العقيقة. وقد اتفق الفقهاء[1] على أنه يستحب لمن ولد له مولود أن يحنكه بعد ولادته سواء كان القائم بالتحنيك رجلاً أو امرأة، ويكون التحنيك بالتمر اتباعاً لسنته ﷺ، فإن لم يكن تمر فشيء حلو وأولاها عسل النحل، ويسمى المولود في اليوم السابع لولادته، وأفضل الأسماء ما كان فيه اسم الله تعالى كعبدالله وعبدالرحمن وما شابه ذلك.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الكناية، والاستفهام والجواب.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: حسن التوصل إلى الإخبار بما يكرهه الإنسان.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: الصبر على المصيبة وعدم الجزع.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: إجابة دعوة النبي ﷺ.

خامساً: من موضوعات الدعوة: تحنيك المولود.

سادساً: من دلائل النبوة: بركة دعاء النبي ﷺ.

أولاً- من أساليب الدعوة: الكناية، وأسلوب الاستفهام والجواب:

قد ورد أسلوب الكناية في الحديث من قول الراوي "ثم أصاب منها" وفي رواية "فوقع بها" وأيضاً ورد هذا الأسلوب في قوله ﷺ "أعرَّسْتُمُ الليلة؟".

قال القرطبي: (وقوله ﷺ "أعرستم الليلة؟" هو كناية عن الجماع. يقال: أعرسَ الرجل بأهله إذا بنى بها، وكذلك إذا غشيها)[2]. وذلك من جميل وعظيم أدب الإسلام، قال النووي: (والمستحب في مثل هذا الكناية عن قبيح الأسماء واستعمال المجاز والألفاظ التي تحصل الغرض ...، وبهذا الأدب جاء القرآن العزيز والسنن كقوله تعالى: ﴿أُحِلَّ

---

(١) مواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي الخطابي ٢٥٦/٣، وشرح الخرشي ٤٨/٣، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا بن محمد بن أحمد الأنصاري٥٤٩/١، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٤١٤/٨، وطرح التثريب ٢١١/٥ وما بعدها، والمغني، ابن قدامة ٣٦٥/٩، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي ٢٩/٣.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ٤٦٧/٥.

لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾[١] ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾[٢] ﴿فَٱعْتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلْمَحِيضِ﴾[٣] وقد يستعمل صريح الاسم لمصلحة راجحة، وهي إزالة اللبس أو الاشتراك أو نفي المجاز أو نحو ذلك كقوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي﴾[٤] وكقوله ﷺ ((أنكتها))[٥] وكقوله ﷺ ((أدبر الشيطان وله ضراط))[٦]... إلخ)[٧]. فعلى الداعية أن يكني في ألفاظه عن قبيح الأسماء إن لم يكن هناك مصلحة للتصريح بها.

أما أسلوب الاستفهام والجواب فقد ورد في الحديث من قول أنس رضي الله عنه: "فلما رجع أبو طلحة قال: ما فعل ابني؟ قالت أم سليم وهي أم الصبي: هو أسكن ما كان" وكذلك في قوله رضي الله عنه: "قالت: يا أبا طلحة أرأيت لو أن قوماً أعاروا عاريتهم أهل بيت فطلبوا عاريتهم، ألهم أن يمنعوهم؟ قال: لا" والاستفهام والجواب من الأساليب الدعوية الهامة التي تجعل المدعو على بصيرة من دينه، فتزيل عنه ما التبس من أفهام، وتكشف له عما خفي عنه، فيعبد الله على بصيرة وعلم وفي ذلك عظم الفائدة.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: حسن التوصل إلى الإخبار بما يكرهه الإنسان:

إن حسن التقديم للإخبار بما يكره الإنسان من المصائب ونحوها، من أعظم الأسباب التي يكون بها تهوين المصائب على صاحبها، فضلاً عن تقويته على عدم الجزع وحمله على الصبر.

وهذا ما ظهر جلياً في نص الحديث من فعل أم سليم رضي الله عنها، وتعريضها في القول بما

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٨٧.

(٢) سورة النساء، آية: ٢١.

(٣) سورة البقرة، آية: ٢٢٢.

(٤) سورة النور، آية: ٢.

(٥) أخرجه البخاري ٦٨٢٤.

(٦) أخرجه البخاري ٦٠٨، ومسلم ٣٨٨.

(٧) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٣.

يؤدي إلى تسكين قلب زوجها -أبو طلحة رضي الله عنه-، وحمله على الصبر وعدم الجزع لموت ابنه، قال أنس رضي الله عنه: "فلما رجع أبي طلحة قال: ما فعل ابني؟ قالت أم سليم وهي أم الصبي: هو أسكن ما كان، فقربت له العشاء فتعشى، ثم أصاب منها، فلما فرغ قالت: واروا الصبي" وفي رواية "فقالت لأهلها: لا تحدثوا أبا طلحة بابنه حتى أكون أنا أحدثه، فجاء فقربت إليه العشاء فأكل وشرب، ثم تصنعت له أحسن ما كانت تصنع قبل ذلك، فوقع بها.

فلما أن رأت أنه قد شبع وأصاب منها قالت: يا أبا طلحة أرأيت لو أن قوماً أعاروا عاريتهم أهل بيت فطلبوا عاريتهم، ألهم أن يمنعوهم؟ قال: لا، فقالت فاحتسب ابنك" وقد بين ابن هبيرة هذا الفقه الزاكي والأدب الرائع لأم سليم رضي الله عنها فقال: (وفي هذا الحديث ما يدل على حسن التوصل في تسكين القلوب المنزعجة، كما فعلت أم سليم من توصلها حتى أعلمت أبا طلحة بعد أن قضت هي أربها، فإن أرب أم سليم كان أن تجاهد نفسها حتى تكون مع بعلها، وفي دارها، وولدها ميت، فإن هذا من المقامات العجيبة، ولو كانت قد أعلمت أبا طلحة من قبل أن يقضي أربها لما تم لها مرداها، مما يدل على أن الإيمان هو محرك العقل. والثاني أن أم سليم توصلت بحسن عقلها ونياتها ومجاهدتها نفسها وإعراضها عما يستحسنه أراذل الناس، وسمو همتها، إلى ما يكون هو الحسن عند الله، وعند خيار المسلمين، فآثرت الأعلى حتى قاربت بمقام جمع لها من حسن الصبر، وكريم العزاء، وتجهيل الرجال الذين لا يكونون مثلها، وحسن القول الذي توصلت إلى غرضها به من التعريض العجيب الذي سلمت به من الكذب؛ فقالت رضي الله عنها قول يرضى الله ويمضي رسوله صلى الله عليه وسلم ويرضى كل مؤمن يسمع بهذا الحديث إلى يوم القيامة)[1].

وهذا ما أكده القرطبي في قوله: (وقولها: هو أسكنُ مما كان" هذا من المعاريض المغنية عن الكذب؛ فإنها أوهمته: أنَّ الصبيَّ سكنَ ما كان به بلفظ يصلحُ إطلاقه لما

---

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة ٥/٦٧.

عندها من موته، ولما فهمه أبو طلحة من سكون مرضه. وهذا كلُّه لئلا تفاجئه بالإعلام بالمصيبة فيتنغص عليه عيشه، ويتكدَّرَ عليه وقته، فلما حصلت راحته من تعبه، وطاب عيشه بإصابة لذته التي ارتجت بسببها أن يكون لهما عوض، وخلف مما فاته عرَّفته بذلك، فبلغها الله أمنيتها، وأصلح ذريتها)[١].

(وفي ذلك دليل على فضل أم سليم رضي الله عنها، وتثبُّتها، وكمال عقلها، وحسن تبعُّلها لزوجها)[٢]، فحري بالمسلمين نساءً ورجالاً أن يقتدوا بفعلها ويهتدوا بهديها.

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: الصبر على المصيبة وعدم الجزع:

هذا ما أكد عليه نص الحديث من فعل أم سليم رضي الله عنها في صبرها على صدمة موت ابنها وتثبُّتها وعدم جزعها. قال ابن مُفلح المقدسي: (قال ابن عقيل في "الفنون": النعم أضياف وقِرَاها الشكرُ، والبلايا أضياف وقِراها الصبر، فاجتهدْ أنْ ترحل الأضياف شاكرةً حُسْنَ القرَى، شاهدة بما تسمع وترى ...، وقال ابن تيمية: من تمام نعمة الله على عباده المؤمنين أن يُنزِلَ بهم من الشدة والضر ما يلجئهم إلى توحيده فيدعونه مخلصين له الدين، ويرجونه لا يرجون أحداً سواه، فتتعلق قلوبهم به لا بغيره، فيحصل لهم من التوكل عليه والإنابة إليه وحلاوة الإيمان وذوق طعمه والبراءة من الشرك ما هو أعظم نعمة من زوال المرض والخوف، أو الجدب أو الضر، وما يحصلُ لأهلِ التوحيد المخلصين لله الدين فأعظم من أن يُعبِّرَ عنه مقال، ولكل مؤمن من ذلك نصيب بقدر إيمانه)[٣].

وقد بشر الله تعالى الصابرين وعظّم أجرهم فقال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾[٤].

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ٥/٤٦٧.

(٢) انظر: المرجع السابق ٥/٤٦٧.

(٣) الآداب الشرعية، حماد بن عبدالله الحماد ٢/١٧٨.

(٤) سورة البقرة، الآيات: ١٥٥-١٥٧.

قال ابن كثير: (وقوله تعالى: "أولئك عليهم صلوات من ربهم" أي: ثناء من الله تعالى ورحمة. قال سعيد بن جبير: أي أَمَنَة من العذاب "وأولئك هم المهتدون" قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: نعم العدلان ونعمت العلاوة، وهي ما توضع بين العدلين، وهي زيادة في الحمل وكذلك هؤلاء، أعطوا ثوابهم وزيدوا أيضاً)[1].

قال ابن مفلح المقدسي: (وعلى العبد أن يعلم أن الجزع لا يرد المصيبة بل هو مرض يزيدها، وأنه يسرُ عدوه ويسيءُ محبه، وأن فوات ثوابها بالجزع أعظم منها، ومنه بيت الحمد الذي يبنى له في الجنة على حمده واسترجاعه، كما بينه النبي ﷺ في قوله: ((إذَا مَاتَ وَلَدُ العَبْدِ قالَ الله لِمَلاَئِكَتِهِ قَبَضْتُمْ وَلَدَ عَبْدِي؟ فَيَقُولُونَ نَعَمْ فَيَقُولُ قبضتم ثمَرَةَ فُؤَادِهِ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ. فَيَقُولُ: مَاذَا قَالَ عَبْدِي؟ فَيَقُولُونَ حَمِدَكَ واسْتَرْجَعَ، فَيَقُولُ الله: ابْنُوا لِعَبْدِي بَيْتاً في الجَنَّةِ وسَمُّوهُ بَيْتَ الحَمْدِ))[2])[3].

وقال ابن مفلح: (قال عبدالقادر: يا بني، المصيبةُ ما جاءت لتهلك، وإنما جاءت لتمتحن صبرك وإيمانك، يا بني، القَدرُ سَبُعٌ، والسَّبُعُ لا يأكلُ الميتةَ؛ فالمصيبةُ كيرُ العبد، فإما أن يخرج ذهباً أو خبثاً، كما قيل:

سَبَكْنَاهُ ونَحْسَبُهُ لُجَيْنًا ... فأبدى الكيرُ عن خَبَثِ الحديدِ[4]

اللجين: الفضة جاء مُصغراً مثل الثُريا وكُمَيت.

واعلم أنه لولا المصائب لبطر العبدُ وبغى وطغى، فيحميه بها من ذلك، ويطهره مما فيه، فسبحان من يرحم ببلائه، ويبتلي بنعمائه كما قيل:

قد ينعمُ الله بالبلوى وإنْ عَظُمَتْ ... ويبتلي الله بعضَ القومِ بالنعمِ)[5]

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٤٦٨/١.

(٢) أخرجه الترمذي ١٠٢١، وحسنه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٨١٤).

(٣) انظر: الآداب الشرعية، حماد بن عبدالله الحماد ١٧٨/٢.

(٤) العقد الفريد ٤٢١/٣.

(٥) الآداب الشرعية، حماد بن عبدالله الحماد ١٨٢/٢. والبيت في خزانة الأدب ٣٧٧/٢، والعقد الفريد ١٧١/٣.

رابعاً- من موضوعات الدعوة: إجابة دعوة النبي ﷺ:

(لقد كان لرسول الله ﷺ من الدعوات المستجابات ما لا يُحْصى كثرةً مما حفلت به مصنفات الحديث ومدونات السير)[1]، وكان من ذلك ما ورد في نص الحديث من قول الراوي "فقال ﷺ أعرستم الليلة؟" قال: نعم، قال "اللهم بارك لهما"، فولدت غلاماً، وفي رواية "فحملت" ... فولدت غلاماً".

قال القرطبي: (وفي هذا الحديث ما يدل: على إجابة دعوة النبي ﷺ وعلى عظم مكانته، وكرامته عند الله، وكم له منها، وكم! حتى قدحصل بذلك العلم القطعيُّ، واليقين الضروري؛ وذلك: أنه لما دعا لأم سليم وزوجها ولدت له من ذلك الغِشْيَان عبدالله بن أبي طلحة وكان من أفاضل الصحابة)[2].

وكما ذكرنا أنه قد استفاضت الأدلة على إجابة دعاء النبي ﷺ، وكان مما يؤكد ذلك قول أنس بن مالك رضي الله عنه: ((أصابَتِ الناسَ سَنَةٌ على عَهدِ النبيِّ ﷺ فبَينما النبيُّ ﷺ يَخطُبُ في يومِ جُمعةٍ قامَ أَعرابيٌّ فقال: يا رسولَ اللهِ، هَلَكَ المالُ، وجاعَ العِيالُ، فادعُ اللهَ لنا. فَرفعَ يديهِ ـ وما نَرى في السماءِ قَزَعةً[3] فو الذي نفسي بيَدِه ما وَضعَها، حتى ثارَ السحابُ أمثالَ الجِبال، ثمَّ لم يَنزِلْ عن مِنبَرِهِ حتى رأَيتُ المطرَ يَتحادَرُ على لِحيتِهِ ﷺ. فمُطِرْنا يومَنا ذلكَ، وَمِنَ الغَدِ، وَبعَدَ الغَدِ، والذي يليهِ حتى الجُمعةِ الأُخرَى. وَقام ذلكَ الأعرابيُّ ـ أو قال غيرُهُ ـ فقال: يارسولَ اللهِ تهدَّمَ البِناءُ، وَغَرِقَ المالُ، فادعُ اللهَ لنا. فرفعَ يديهِ فقال: اللهمَّ حَوالَينا ولا علينا. فما يُشيرُ بيدِهِ إلى ناحيةٍ مِنَ السحابِ إلا انفرَجَتْ، وصارتِ المدينةُ مثلَ الجَوْبَةِ. وسالَ الوادي قناةُ شهراً، وَلم يَجِئْ أَحدٌ من ناحيةٍ إلاّ حدَّث بالجَودِ))[4] وفي ذلك يقين كامل على أن محمداً ﷺ رسول الله وأن الله تعالى يؤيده ويسدده ويستجيب دعاءه.

---

(١) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد ٥٣٩/١.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ٤٦٧/٥-٤٦٨.

(٣) السحابة الصغيرة.

(٤) أخرجه البخاري ٩٣٣.

خامساً- من موضوعات الدعوة: تحنيك المولود:

إن من الأحكام التي شرعها الإسلام للمولود تحنيكه عقب الولادة، وهذا ما أكده نص الحديث في قول أنس رضي الله عنه فقال لي أبو طلحة: احمله حتى تأتي به النبي ﷺ، وبعثت معه بتمرات، فقال: "أمعه شيء؟" قال: نعم، تمرات، فأخذها النبي ﷺ فمضغها، ثم أخذها من فيه فجعلها في في الصبي، ثم حنكه".

قال ابن هبيرة: (في هذا الحديث من الفقه حمل الصبي إلى الإمام أو العالم تبركاً به ليحنكه اقتداءً بالنبي ﷺ)(١).

وقال القرطبي: (فلا ينبغي أن يعدل عن ذلك اقتداءً بالنبي ﷺ واغتناماً لبركة الصالحين، ودعائهم)(٢).

(والتحنيك معناه مضغ التمرة، ودلك حنك المولود بها؛ وذلك بوضع جزء من الممضوغ على الأصبع، وإدخال الأصبع في فم المولود، ثم تحريكه يميناً وشمالاً بحركة لطيفة، حتى يتبلغ الفم كله بالمادة الممضوغة، وإن لم يتيسر التمر فليكن التحنيك بأية مادة حلوة كالمعقود، أو رائب السكر الممزوج بماء الزهر، تطبيقاً للسنة، واقتداءً بفعله ﷺ.

ولعل الحكمة في ذلك تقوية عضلات الفم بحركة اللسان مع الحنك مع الفكين بالتلمظ، حتى يتهيأ المولود لِلقم الثدي، وامتصاص اللبن بشكل قوي، وحالة طبيعية. ومن الأفضل أن يقوم بعملية التحنيك من يتصف بالتقوى والصلاح تبركاً به، وتيمناً بصلاح المولود وتقواه)(٣).

سادساً- من موضوعات الدعوة: بركة دعاء النبي ﷺ:

هذا ما يؤكده نص الحديث في قول ابن عيينة: فقال رجل من الأنصار: فرأيت تسعة أولاد كلهم قد قرؤوا القرآن، يعني من أولاد عبدالله المولود.

---

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة ٥/٦٧.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ٥/٤٦٨.

(٣) تربية الأولاد في الإسلام، عبدالله ناصح علوان، ١/٧١.

قال ابن هبيرة: (وفي الحديث أن النبي ﷺ دعا لهم بالبركة، والبركة في دعاء رسول الله ﷺ تتصرف إلى الدين، فإن الولد الذي ولد لهما كان عالماً قارئاً؛ لهذا قال الأنصاري: فرأيت تسعة من الأولاد كلهم قد قرأ القرآن)[١].

وقد شملت بركة دعاء النبي ﷺ المال والولد كما شملت البركة في الدين وليس أدل على ذلك من قول أنس بن مالك رضي الله عنه: ((جَاءَتْ بِي أُمِّي، أُمُّ أَنَسٍ إِلَى رَسُولِ اللّهِ . وَقَدْ أَزَّرَتْنِي بِنِصْفِ خِمَارِهَا وَرَدَّتْنِي بِنِصْفِهِ. فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللّهِ هذَا أُنَيْسٌ، ابْنِي. أَتَيْتُكَ بِهِ يَخْدُمُكَ. فَادْعُ اللّهَ لَهُ. فَقَالَ: اللّهُمَّ أَكْثِرْ مَالَهُ وَوَلَدَهُ، قَالَ أَنَسٌ: فَوَاللّهِ إِنَّ مَالِي لَكَثِيرٌ. وَإِنَّ وَلَدِي وَوَلَدَ وَلَدِي لَيَتَعَادُّونَ عَلَى نَحْوَ الْمِائَةِ، الْيَوْمَ))[٢].

قال النووي: (قوله: "إن ولدي وولد ولدي ليتعادّون على نحو المائة اليوم" معناه: ويبلغ عددهم نحو المائة. وثبت في صحيح البخاري عن أنس: أنه دفن مع أولاده قبل مقدم الحجاج بن يوسف مائة وعشرون والله أعلم، وهذا من أعلام نبوته ﷺ)[٣].

---

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة ٥/٦٧-٦٨.

(٢) أخرجه مسلم ٢٤٨١.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٥٠٤-١٥٠٥.

الحديث رقم (٤٥)

٤٥- وعنْ أَبي هُريرةَ ﷺ أَن رسول اللّه ﷺ قال: «**لَيْسَ الشديدُ بالصُّرَعةِ إنمّا الشديدُ الّذي يمْلِكُ نَفسَهُ عِنْد الْغَضَبِ**» متفقٌ عليه[1].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

الصُّرعة: من يصرع الناس، وفي النهاية: الصُّرَعَة: المبالغ في الصِّراع، الذي لا يُغلب، فنقله إلى الذي يغلب نفسه عند الغضب؛ فإنه إذا مَلَكَها كان قد قهر أقوى أعدائه وشَرَّ خصومه[2].

الشرح الأدبي

إن الصبر لا تنحصر أشعته الهادية في دائرة الابتلاءات فقط بكل ما تموج به من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات، فهذه الدائرة يمكن أن يقابل الإنسان طغيان أحداثها بالصبر والاحتساب والتأمل والحكمة والرضا والخشوع، وإنما الصبر تتسع دائرته لتشمل الصبر على النعمة، والصبر على أداء الطاعة، والصبر على مقاومة المعصية، والصبر على مقاومة جموح النفس، والانتصار لها، في المواقف التي يستثار فيها الإنسان، ويظن أن الإهانة لحقت به، وأن معالم شخصيته تتبدد.

والحديث النبوي الشريف يقودنا إلى مجاهدة النفس وهو الجهاد الأكبر، فالنفس أمارة بالسوء.

وغرور القوة يوقع الإنسان في حمأة الباطل، والاغترار بالمظاهر المادية والعنفوان الجسدي، ينسي الإنسان أحياناً، كثيراً من القيم الإنسانية الجميلة مثل التسامح، والتواضع، والاتزان والثبات.

---

(١) أخرجه البخاري ٦١١٤، ومسلم ٢٦٠٩/١٠٧ ولفظهما سواء. أورده المنذري في ترغيبه (٤٠٥٢). وسيكرره المؤلف برقم (٦٤٧).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ص ر ع)، ورياض الصالحين ٦٧.

والحديث في بنائه اللغوي يتكون من جملتين موجزتين ، ولكنهما تفصحان عن المعنى المراد والهدف المقصود، والجملة الأولى حكم عام، ومبدأ إسلامي وإنساني قويم: وقد صيغ في قالب النفي، والنفي هنا أسلوب يجسد المفارقة بين الشدة والصرعة، حيث يعدل البيان النبوي عن المألوف، ويلجأ إلى ما يسمى بالعدول والانزياح، "في علم الأسلوب"، فالذي ألفه العرب والناس جميعاً أن الشديد هو القوي الجسد المتكامل البنيان وهو الشخص "الصرعة" أي الذي يصرع الناس كثيراً؛ وربما قدرة هذا الشخص الجسدية لا تؤازرها قدرة عقلية، أو رقة شعورية أو حكمة نفسية وقلبية، ولذلك كان بيان الرسول ﷺ محكماً حين قال: "ليس الشديد بالصرعة" ولفظ الشديد يشع بكل ألوان الشدة والقوة على جميع توجهاتها وتصوراتها، ولفظ "الصرعة" على وزن "فُعَله" بضم الفاء وفتح العين، وبنية الكلمة هنا تجسد الفعل، وتوضح الحدث، وتومئ إلى ما ألفه الناس.

أما الجملة الثانية: فهي توضيح للإبهام الذي أثارته الجملة الأولى، وكأنها إجابة عن سؤال نشأ، ومن هو الشديد إذن؟ فأجاب رسول الله ﷺ في أسلوب القصر، كناية عن تلازم الشيئين وإتصاف الشديد بصفة مستقرة دائمة "فهو الذي يملك نفسه عند الغضب" إنما تدل على القصر إيماءً بثبات هذه الصفة، والتعبير بقوله: "يملك نفسه" كناية عن تحكم الإنسان في نفسه ساعة الغضب، لأن الغضب يحمل على الوقوع في أسباب الهلاك في دينه، ومن المفارقات اللغوية المثيرة للدهشة أن الغضب في مدلوله اللغوي يعني الرضا، وكأن الغاضب يرضى عن نفسه حالة هياجه وانفعاله؛ وسبب الغضب – كما يقول العلماء حصول مخالف لمراد الإنسان ممن هو دونه وتحت يده فيحصل منه تلك الحالة المقتضية لفعل ما لا يجوز، من قتل أو ضرب أو سب، وقال: جعفر ابن محمد: "الغضب مفتاح كل شر" قال الحسن: أربع من كن فيه عصمه الله من الشيطان وحرَّمه على النار: من ملك نفسه عند الرغبة والرهبة والشهوة والغضب وقال بعض السلف: الغضبان إذا كان سبب غضبه مباحاً كالمرض والسفر أو الطاعة كالصوم لا يلام عليه ،لأنه لا يؤذي غيره[1].

---

(١) انظر: جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي ص ٣٦٨، ٣٧٤.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكم الغضب وأثره في التصرفات، وقد ذكر الفقهاء[(١)] أن الغضب منه المحمود ومنه المذموم، فالغضب المحمود ما كان في جانب الحق والدين، والذب عن الحرم، والعرض، وانتهاك حرمات الدين وما ماثل ذلك، والغضب المذموم ما كان في سبيل الباطل، ويهيجه الكبر والاستعلاء والأنفة.

وقد ذهب جمهور الفقهاء[(٢)] إلى أن الغضبان مكلف في حال غضبه ويؤاخذ بما يصدر عنه من كفر وقتل وطلاق وعتاق ويمين وأخذ مال بغير حق وغيره، كما أنه لا يجوز للمفتي أن يفتي في حال غضبه.

المضامين الدعوية

أولاً: من مهام الداعية: تصحيح المفاهيم السائدة بين الناس.

ثانياً: من أساليب الدعوة: أسلوب النفي وأسلوب القصر.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: فضيلة كظم الغيظ.

أولاً- من مهام الداعية: تصحيح المفاهيم السائدة بين الناس:

إن من أبرز المهام التي ينبغي أن يقوم بها الداعية: تصحيح المفاهيم السائدة بين الناس وتعديلها في ضوء الشرع وميزانه، وذلك لخطورة انتشار المفاهيم الخاطئة وتأثيرها الشديد على المجتمع؛ لأنها تسهم في تشكيل السلوك الفردي والجماعي لبعض فئات

---

(١) بريقة محمودية في طريقة محمدية وشريعة نبوية في سرية أحمدية، محمد بن مصطفى الخادمي ٢/٢٦٩، والمنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعد الباجي للباجي ٧/٢١٤، والزواجر عن اقتراف الكبائر، أبو العباس أحمد بن محمد الهيتمي ١/٨٣، وسبل السلام الموصلة إلى بلوغ المرام، الصنعاني ٢/٦٥٧، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٣١/٢٥٨ وما بعدها.

(٢) رد المحتار ٣/٢٤٤، وأحكام القرآن لابن العربي٢/٣٢٦، وحاشية الدسوقي على الشرح الكبير، محمد بن عرفة الدسوقي ٢/٣٦٦، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ١/٨٠، وتحفة المحتاج في شرح المنهاج، ابن حجر ٨/٣٢، وحاشية الجمل ٤/٣٢٤، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي ٥/٢٣٥، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، المرداوي للمرداوي ٨/٤٨١، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٣١/٢٥٩.

المجتمع، ومن ثُمّ يكون تأثيرها ممتداً إلى الأفراد والجماعات.

لذا كان وجود المفاهيم غير الصحيحة يمثل عائقاً كبيراً أمام الداعية في تبليغ دعوته، وجني ثمارها وتحقيق أهدافها؛ ومن ثمَّ وجب على الداعية أن يصحح هذه المفاهيم حتى يتصرف الأفراد وفق المفهوم الصحيح ويحكموا على التصرفات والأفعال في ضوئه.

وقد ضرب لنا النبي ﷺ المثل في ذلك فقد صحح مفهوم القوة، فإذا كان الناس يعتقدون أن القوي هو الذي يصرع الناس ويتغلب عليهم، وما يترتب على ذلك من انتشار ثقافة العنف في المجتمع واختفاء روح التسامح والرفق منه، وما في ذلك من أشد الضرر على الفرد والجماعة، لما كان الناس يعتقدون ذلك قام النبي ﷺ بتوجيههم إلى المفهوم الصحيح للقوة، وهو كظم الغيظ وتحمل الأذى والتحكم في النفس ودفعها عن إنفاذ الغضب وكفها عن الاستجابة لمقتضياته من رد العدوان والاقتصاص، أما قوة الجسد والتغلب على الآخرين فليست من القوة في شيء[١].

قال ابن هبيرة: "في هذا الحديث من الفقه نفي رسول الله ﷺ الشدة عن قوة أعضاء الإنسان وإثباتها في عقله الذي يصرع هواه عند الغضب"[٢].

كما خاطبهم النبي ﷺ فقال: ((فَمَا تَعُدُّونَ الصُّرَعَةَ فِيكُمْ؟)) فأجابوه بما هو شائع بينهم: ((الَّذِي لاَ يَصْرَعُهُ الرِّجَالُ)) فأجابهم مصححاً ومقوماً: ((لَيْسَ بِذَلِكَ. وَلكِنَّهُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ))[٣]. قال النووي: (تعتقدون أن الصرعة الممدوح القوي الفاضل هو القوي الذي لا يصرعه الرجال بل يصرعهم، وليس هو كذلك شرعاً بل هو من يملك نفسه عند الغضب فهذا هو الفاضل الممدوح الذي قلّ من يقدر على التخلق بخلقه ومشاركته في فضيلته بخلاف الأول)[٤].

---

(١) انظر: حاشية السندي على مسند أحمد (١٩٨/٣٨).

(٢) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة ٨٩/٦.

(٣) أخرجه مسلم (٢٦٠٨).

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٥٥٤.

وفي الحقيقة إذا نظرنا بالعين الفاحصة والفهم الدقيق لوجدنا أن القوة هي القوة النفسية التي تتحكم في الجسد وتوجهه وتضبطه، أما القوة الجسدية التي تتصرف في النفس وتوجهها وتقودها فليست من القوة في شيء؛ لأنها تجعل الإنسان يستجيب لنزعاته وأهوائه واندفاعاته، فيكون ضعيفاً أمامها مقوداً لا قائداً مفعولاً لا فاعلاً، ولذا رُوي عن النبي ﷺ أنه قال: ((الصُّرَعَةُ كُلُّ الصُّرَعَةِ، الصُّرَعَةُ كُلُّ الصُّرَعَةِ، الرَّجُلُ الذي يَغْضَبُ فَيَشْتَدُ غَضَبُهُ وَيَحْمَرُّ وَجْهُهُ وَيَقْشَعِرُّ شَعْرُهُ فَيَصْرَعُ نفسه))[1].

قال الغزالي: (ومن أشد البواعث على الغضب عند أكثر الجهال تسميتهم الغضب شجاعة ورجولة وعزة نفس وكِبَرْ همة، وتلقيبه بالألقاب المحمودة غباوة وجهلاً، حتى تميل النفس إليه وتستحسنه، وقد يتأكد ذلك بحكاية شدة الغضب عن الأكابر في معرض المدح بالشجاعة؛ والنفوس مائلة إلى التشبه بالأكابر فيهيج الغضب إلى القلب بسببه. وتسمية هذا عزة نفس وشجاعة جهل، بل هو مرض قلب ونقصان عقل وهو دليل على ضعف النفس ونقصانها. وآية أنه لضعف النفس أن المريض أسرع غضباً من الرجل، والصبي أسرع غضباً من الرجل الكبير والشيخ الضعيف أسرع غضباً من الكهل، وذو الخلق السيئ والرذائل القبيحة أسرع غضباً من صاحب الفضائل، فالرذل يغضب لشهوته إذا فاتته اللقمة، ولبخله إذا فاتته الحبة، حتى أنه يغضب على أهله وولده وأصحابه)[2].

ولا شك أن الإنسان إذا جمع بين القوة النفسية والقوة الجسدية فإنه يكون قد جمع من الخير الكثير.

وعلى نهج تصحيح المفاهيم جاء حديث النبي ﷺ ((أَتَدْرُونَ مَنْ الْمُفْلِسُ؟)) فأجابه الصحابة الكرام بما استقرَّ في وجدانهم من أنه الفقير، فقالوا: ((الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لاَ دِرْهَمَ لَهُ وَلاَ مَتَاعَ)) فصحح لهم النبي ﷺ هذا المفهوم فأخبرهم أن المفلس الذي يحق أن يطلق عليه لفظ المفلس هو الذي يأتي يوم القيامة وقد زادت سيئاتهُ عن حسناته، بسبب

---

(١) أخرجه أحمد ٥/٣٦٧ رقم ٢٣١١٥، وقال محققو المسند: هذا إسناد ضعيف ٣٨/١٩٦.

(٢) إحياء علوم الدين، الغزالي ٣/١٦٥٧.

عدوانه على الناس وظلمه لهم"[1].

قال النووي: (إن هذا حقيقة المفلس، وأما من ليس له مال ومن قلّ مالُه فالناس يسمونه مفلساً. وليس هو حقيقة المفلس، لأن هذا أمر يزول وينقطع بموته وربما ينقطع بيسارٍ يحصل له بعد ذلك في حياته، وإنما حقيقة المفلس هذا المذكور في الحديث، فهو الهالك الهلاك التام، والمعدوم الإعدام المقطع)[2].

ثانياً- من أساليب الدعوة: النفي والقصر:

استخدم النبي ﷺ في هذا الحديث أسلوب النفي والقصر، وذلك لأنه ﷺ أراد أن ينفي المفهوم الشائع للقوة عند المدعوين، فاستخدم أسلوب النفي ((ليس الشديدُ بالصّرَعة))؛ لينزع من النفوس ما استقر فيها.

ثم استخدم ﷺ أسلوب القصر "إنما" ليثبت المفهوم الصحيح للقوة، وليقضي نهائياً على المعنى السائد وينشر المعنى الصحيح، ويُقره في الأفهام والعقول، لتتمثله في أعمالها وأحكامها.

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: فضيلة كظم الغيظ:

لما كان الإنسان مدنياً بطبعه يعيش في مجتمع تختلف فيه الطبائع والمشارب والرغبات، فتنشأ الاختلافات وتظهر المنازعات، فتتوافر الأسباب الداعية للغضب، وما يترتب على ذلك من إنفاذه والاقتصاص من المسبب له؛ وما يترتب على ذلك أيضاً من العداوة والشقاق والتنازع والتخاصم بين أفرادِ المجتمع وجماعاته لما كان الأمر كذلك، فإن كظم الغيظ يبرز هنا ليقطع هذا التسلسل وذلك الترتيب بين دوافع الغضب في النفس وبين إعماله وإنفاذه في أرض الواقع؛ ولاشكّ أن هذا يحتاج إلى مجاهدة شديدة وقوة نفسية كبيرة.

وقال ابن هبيرة: "والذي أرى أن رسول الله ﷺ ذكر الغضب من أجل أنّ النفس إذا غضبت فإنما يكون ذلك منها لأذى اتصل بها فتفور إلى الانتقام، ولا يكون ذلك في الأكثر إلا على مقدور عليه، فذكر رسول الله ﷺ هذا العارض منبهاً لها أنه إن

---

(١) أخرجه مسلم ٢٥٨١.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٥٤٤.

كان عن خوف أو عن طمع أو عن هوى كان في كل ذلك مكابداً بها منها ما لا يلحق درجة الغضب، لأنها لا تغضب إلا في مقام تظل فيه متسلطة، والمؤمن يذكرها عن استشاطتها بالغضب وما في عاقبة الكظم واطلاع الله عز وجل عليه، مع كونه قد أتى من مساخط الله تعالى أضعاف ما أتاه المسخوط عليه، فأمهل سبحانه وسامح فليمثل في نفسه عفواً بعفو وانتقاماً بانتقام.

وقوله: "الشديد"؛ بالألف واللام المعرفتين، يريد به أن الرجل ذا اللب مسلط عليه الغضب أكثر من غيره؛ لأنه كله حسن وجملته فطنة، فإذا أتى عليه ما يغضبه ثار في طلب الانتقام بجملته وأحس بالمؤذي، فجميع أجزائه حينئذ ينبغي أن تشكر نعمة الله عليه في تعزيز لبه وزيادة حسه، وليكن أشدّ كفًا، كلما كان أشد قدرة ليحظى بالإخلاص في العفو لوجه الله عز وجل"[1].

لذا كان كظم الغيظ من صفات المتقين أصحاب الجنة، فهم ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[2]، كما أن الله سبحانه يعظم له الأجر والمكافأة، فأخبر النبي ﷺ أنه ((مَا مِنْ جُرْعَةٍ أَعْظَمُ أَجْراً عِنْدَ اللَّهِ، مِنْ جُرْعَةِ غَيْظٍ، كَظَمَهَا عَبْدٌ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ))[3]، فيكافئه سبحانه بطريقة تدل على تميزه وعلو مكانته عنده سبحانه، وذلك بأن كافأه أمام الناس يوم القيامة، مباهاة ومفاخرة بفعله، بأن ((دَعَاهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ حَتَّى يُخَيِّرَهُ فِي أَيِّ الْحُورِ شَاءَ))[4]، وذلك لأنه لما ضيّق على نفسه في الدنيا بسط الله له الجزاء يوم القيامة.

لذا كان كظم الغيظ صفةً من تحلى بها فاز وربح. فما أحسن أن يتحلى بها المسلمون[5].

---

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة ٦/٨٩ - ٩٠.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٣٤.

(٣) أخرجه ابن ماجه (٤١٨٩)، وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ٣٣٧٧).

(٤) أخرجه أبو داود (٤٧٧٧)، وحسنه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٣٩٩٧).

(٥) انظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد ٨/٣٢٣٦-٣٢٤٤.

الحديث رقم (٤٦)

٤٦- وعنْ سُلَيْمانَ بْنِ صُرَدٍ رضي الله عنه قال: كُنْتُ جالِساً مع النَّبي ﷺ، ورجُلان يستَبَّانِ وأَحدُهُمَا قَدِ[1] احْمَرَّ وَجْهُهُ. وانْتفَخَتْ أوداجهُ. فقال رسولُ اللَّه[2] ﷺ: «**إنِّي لأعلَمُ كَلِمةً لَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ عنهُ ما يجِدُ، لوْ قَالَ: أَعوذُ بِاللّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ذَهَبَ عنْهُ ما يجدُ**». فقَالُوا لَهُ: إنَّ النَّبيَّ ﷺ قَالَ: «**تعوَّذْ بِاللّهِ مِن الشَّيطان الرَّجِيمِ**» متفقٌ عليه[3].

ترجمة الراوي:

سليمان بن صُرد: سليمان بن صُرد بن الجَوْن بن أبي الجَوْن، الأَزديُّ السلوليّ الخزاعيّ الكوفي، صحابي ومن الزعماء القادة.

وكان قبل أن يدخل الإسلام يُسمى يساراً فغير النبي ﷺ اسمه كعادته في تغيير الأسماء السيئة إلى الحسنة فسماه سليمان.

له في المرويات خمسة عشر حديثاً وكان ممن سكن الكوفة، وابتنى بها داراً في خزاعة، وكان نزوله بها في أول ما نزلها المسلمون، وكان رضي الله عنه خيِّراً فاضلاً له دين وعبادة، وفي قومه كان له سن عالية وشرف، وقدر وكلمة فيهم.

وكان ممن شهد مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه الجَمَل وصفين وهو الذي قتل حوشباً ذا ظُليم الألهاني بصفين مبارزة ثم اختلط الناس يومئذ، ثم كان ممن كاتب الحسين يسأله القدوم إلى الكوفة، فلما قدمها ترك القتال معه، فلما قُتل الحسين قدم هو والمسيب بن نَخَبَه وجميع من خذله على رأس أربعة آلاف سموا بالتوابين فخرجوا إلى الشام في الطلب بدم الحسين، وكانوا يطلبون قتل عبيدالله بن زياد، وأن يخرج مَنْ في العراق مِنْ أصحاب ابن الزبير، ويردوا الأمر لأهل البيت، فالتقاهم عبيد الله بن زياد

---

(١) (قد) لا توجد عند البخاري في هذه الرواية، وإنما عنده برقم (٦١١٥).

(٢) لفظ البخاري: (النبي).

(٣) أخرجه البخاري (٣٢٨٢) واللفظ له، ومسلم (١٠٩/٢٦١٠). أورده المنذري في ترغيبه (٤٠٦١).

بمكان يُسمى عين الوردة بعسكر مروان فقتل سليمان بن صُرد ومن معه، وكان الذي قتل سليمان بن صُردٍ يزيدُ بن الحصين بن نمير رماه بسهم فقتله وحمل رأسه ورأس المسيب بن نَخْبَة إلى مروان بن الحكم أدهم بن محرز الباهلي، وكان ذلك في سنة خمس وستين في شهر ربيع الأول، وكان سليمان يوم أن قتل ابن ثلاث وسبعين سنة[١].

غريب الألفاظ:

يَسْتَبّان: أي يسبُّ كل منهما الآخر، والسب: الشتم[٢].

الأوداج: واحدها وَدَجٌ: ما أحاط بالعنق من العروق وهما وَدَجَان[٣]، ينتفخان عند شدة الغضب.

الشيطان الرجيم: المطرود عن الخيرات وعن منازل الملأ الأعلى[٤].

الشرح الأدبي

يقدم هذا الحديث الشريف دواء ناجعاً لداء "الغضب"، من خلال موقف عملي، وتجربة واقعية، وهذا الحديث يأتي توضيحاً وتفصيلاً للإجمال والإيجاز في الحديث السابق، وهو ثمرة نافعة نقطفها من رياض الصالحين وكلام سيد المرسلين، وكثير من الأحاديث تصاغ في قالب حواري تشهده مجالس الرسول ﷺ، وتعمر بها مواقفه الراشدة في توجيه عامة المسلمين وخاصتهم إلى سبيل الرشاد ووقائع هذه الجلسة يقدمها الراوي: سليمان بن صرد رضي الله عنه، وكان خيّراً فاضلاً ذا دين وعبادة وشرف في قومه، ويبدأ بقوله: "كنت جالساً مع النبي ﷺ" وأَعْظِم بهذه الجلسة وأَكْرِم بها ولهذه

---

(١) الطبقات، ابن سعد (٢٩٢/٤، ٢٩٣)، (٢٧/٦)، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر (٢٩٤)، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير (٥٤٨/٢، ٥٤٩)، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني (٥٣٦)، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي (٢٨٤/٣، ٢٨٥)، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني (٩٨/٢، ٩٩)، والأعلام، خير الدين الزركلي (١٢٧/٣).

(٢) انظر: الوسيط في (س ب ب).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (و د ج)، والوسيط في (و د ج).

(٤) المفردات ١٩٠.

الجلسة آداب ومقاييس وملامح ومعالم فكان رسول الله إذا تكلم سكت جلساؤه، وإذا سكت تكلم أصحابه كل حسب دوره، لا حسب مكانته، لا يقاطع أحدُهم الآخر، ولا يقاطع رسولُ الله أحدهم وكان صبورا حليماً صبراً على الغضب، وحليماً على الجهل، وكان حازماً في رد النفاق، كان صبيح الوجه حسن الصوت، عليه الصلاة والسلام[1].

هذه آداب مجلس رسول الله ﷺ، وهذه شمائله مع أصحابه.. ولكن... ويا للعجب!! هذا المجلس النبوي تقطع سكونه المهيب وجلالَه الوضاء، هذه السلوكيات من بعض الذين لم يقطعوا أسباب الغضب، والذين ينتصرون لرغبات أنفسهم، ولا يتحكمون في جموح انفعالاتهم، ففي مجلس رسول الله ﷺ الذي تحفه السكينة وتغشاه الرحمة، وتحضره الملائكة نشهد على مرآى ومسمع من رسول الله رجلين يستبّان: أي يسب كل منهما الآخر، وأحدهما بلغ به الغضب ذروته، فظهر أثر الغضب على هيئته، فاحمر وجهه وانتفخت أوداجه، والأوداج ما أحاط بالعنق من العروق التي يقطعها الذابح.

ولنتأمل موقف مَنْ بالمؤمنين رءوف رحيم؛ هل نَهَرَهُما؟ هل حاكمهما؟ هل أمر بطردهما؟ لا لا، هكذا تكون أخلاق النبوة: إنه عالج الموقف بالحكمة والموعظة الحسنة، وأرشدهما إلى كبح جماح الغضب بالالتجاء إلى الله، والاستعاذة به من الشيطان الرجيم، لأن الغضب - من الشيطان، والشيطان من النار، وإنما تطفأ النار بالماء، والوضوء مع الاستعاذة والبسملة هو الطريق إلى الانتصار على شيطان الغضب، ولذلك قال رسول الله: في أسلوب التأكيد، ودلالة العلم اليقينية، "إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد"، والكلمة هنا: المراد منها الكلام المفيد كما قال ابن مالك، "وكلمة بها كلام قد يؤم"[2]، وهذه الكلمة التي جاءت في صيغة النكرة تدل على العموم والشمول: لأنها حين حددها رسول الله ﷺ، تظل دواءً لآلاف بل وملايين

(١) انظر: محمد رسول الله ﷺ، محمد متولي الشعراوي ص ٣١.

(٢) أي يراد أو يقصد بها جمع من الكلام.

الحالات الانفعالية الغضبية في كل الأزمنة وجميع الأمكنة، وسائر الأحوال وهي: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وأعوذ: معناه: ألجأ وأعتصم بالله، من الشيطان، ومَنْ غير الإله القوي القادر يستطيع حماية الإنسان من أغواء الشيطان؟ والمدلول اللغوي للفظ الشيطان يصور وظيفته ودوره في إضلال البشرية، لأن لفظ الشيطان إما أن يكون من شاط أي احترق، وهذا المدلول ينبئ عن مصير الذين يتبعون وساوس الشيطان، وعن مصير الشيطان نفسه، فمآله الجحيم، وإما أن يكون أصل الكلمة، "شطن"، وتومئ بالبعد عن رحمة الله. أو تكسيل العبد وتصيده بالذنوب، وهكذا يكون العلاج النبوي هو الطريق السوي للقضاء على نزغات الشياطين.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكم الاستعاذة من الغضب، والاستعاذة سنة عند أغلب الفقهاء[1] وقال البعض بوجوبها عند قراءة القرآن وعند الخوف، أما في حالة الغضب فقد ذكر الفقهاء أنه ينبغي لمن غضب أن يتعوذ بالله من الشيطان الرجيم فإنه علاج لغضبه ومسكن لما تهيج منه كما أخبر بذلك النبي ﷺ.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة رضي الله عنهم على مجالسة النبي ﷺ.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: بيان مساوئ الغضب.

ثالثاً: من مهام الداعية: تقديم العلاج المناسب للمشكلات.

رابعاً: من أساليب الدعوة: التوكيد والتشويق والأمر.

خامساً: من مهام الداعية: التحذير من الشيطان وعداوته للإنسان.

سادساً: من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة رضي الله عنهم على نقل الأخبار الواردة عن النبي ﷺ.

---

(١) بريقة محمودية في طريقة محمدية وشريعة نبوية في سرية أحمدية، محمد بن مصطفى الخادمي ٢/٢٧٦، وشرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٦/١٦٣، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٤/٥.

أولاً- من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة رضي الله عنهم على مجالسة النبي ﷺ:

لقد بعث الله النبي محمداً ﷺ بالإسلام، وأمره أن يبلغه للناس، فمنهم من أعرض عنه، ومنهم من شرح الله صدره فآمن به وصحبه. فكانوا أصحابه، وكان من أخلاقهم الحرص على مجالسة النبي ﷺ، وذلك للتعلم منه والاقتداء به، وحفظ شريعته ونقلها إلى من بعدهم؛ لذا كانوا أحرص ما يكون على مجالسته ﷺ وملازمته، كما في هذا الحديث: ((كنتُ جالساً معَ النبيِّ ﷺ)).

وقد بلغ من حرصهم على ذلك أنهم إذا شغلهم طلب العيش تناوبوا النزول عليه ﷺ، فينقل من حضر إلى من غاب ما كان من أمره ﷺ.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ((كنتُ أنا وجارٌ لي مِنَ الأنصارِ في بني أُمَيَّةَ بن زيدٍ -وهيَ مِن عوالي[1] المدينةِ- وكنا نَتَناوَبُ النُّزولَ عَلَى رسول الله ﷺ، يَنزِلُ يوماً وأَنزِلُ يَوماً، فإذا نَزَلتُ جِئتُه بِخَبَرِ ذلكَ اليومِ مِنَ الوحيِ وغيرِه، وإذا نَزَلَ فَعَلَ مِثلَ ذلِكَ))[2].

وكانوا في مجالستهم إياه ﷺ يلتزمون الأدب الرفيع والتبجيل والإجلال له، مع مراقبة أحواله وسرعة الامتثال لأوامره. قال عروة بن مسعود الثقفي واصفاً أحوالهم معه ﷺ في غزوة الحديبية، وقد راعه ذلك: ((واللهِ لقَد وفَدْتُ على المُلوكِ، ووَفدتُ على قَيصَرَ وكِسْرَى والنَّجاشيِّ، واللهِ إنْ رأيتُ مَلِكاً قطُّ يُعظِّمُهُ أصحابُهُ ما يعظم أصحابُ محمدٍ ﷺ محمداً، ... إذا أمرَهم ابتَدروا أمرَه، ... وإذا تكلموا خَفَضوا أصواتَهم عندَه، وما يُحِدُّونَ إليهِ النَّظرَ تَعظيماً له))[3].

ثانياً- من موضوعات الدعوة: بيان مساوئ الغضب:

كل حالة شعورية تنتاب الإنسان تظهر ملامحها عليه في الأغلب الأعمّ، ومن أشد الحالات الشعورية التي تنعكس على الإنسان ومظهره وهيئته وتصرفاته - حالة الغضب، يظهر ذلك جلياً في خروجه عن شعوره، وفقده السيطرة على نفسه وضبطها،

---

(١) اسم مكان قريب من المدينة المنورة.

(٢) أخرجه البخاري (٨٩)، ومسلم (٣٤-١٤٧٩).

(٣) أخرجه البخاري (٢٧٣١، ٢٧٣٢).

فضلاً عن تغير شكله وهيئته؛ فيحمر وجهه وتنتفخ عروقه ويضيق نَفَسُه ونحو ذلك. مما قد يكون نذيراً ومقدمة إلى فعل ما لا تحمد عقباه، فيندم بعد ذلك أشد الندم، أو إلى تأثر صحته تأثراً سلبياً قد يكون كبيراً. ومن ثم كان من الموضوعات الجديرة بأن تعالج دعوياً بيان مساويء الغضب التي تؤثر في الجسد والنفس. وهذا ما فعله الصحابي الجليل في هذا الحديث (وأحدهما قد احمرَّ وجهه وانتفخت أوداجه) وقد وصف معاذ بن جبل أثر ذلك فقال: ((اسْتَبَّ رَجُلَانِ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، فَغَضِبَ أَحَدُهُمَا غَضَباً شَدِيداً حَتَّى خُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّ أَنْفَهُ يَتَمَزَّعُ مِنْ شِدَّةِ غَضَبِهِ))[1].

قال ابن رجب: (إن الغضب جماع الشر، وأن التحرز منه جماع الخير... قال جعفر بن محمد: الغضب مفتاح كل شر. وقيل لابن المبارك: اجمع لنا حسن الخلق في كلمة، قال: ترك الغضب. وكذا فسر الإمام أحمد وإسحاق بن راهويه حسن الخلق بترك الغضب ... والغضب هو غليان دم القلب طلباً لدفع المؤذي عند خشية وقوعه، أو طلباً للانتقام ممن حصل منه الأذى بعد وقوعه، وينشأ من ذلك كثير من الأفعال المحرمة كالقتل والضرب وأنواع الظلم والعدوان، وكثير من الأقوال المحرمة كالقذف والسبِّ والفحش، وربما ارتقى إلى درجة الكفر وكالأيمان التي لا يجوز التزامها شرعاً، وكطلاق الزوجة الذي يُعْقِب الندم)[2].

ثالثاً- من مهام الداعية: تقديم العلاج المناسب للمشكلات:

يواجه الداعية كثيراً من المشكلات التي يستطيع بعلمه وحكمته أن يضع لها العلاج المناسب. وفي هذا الحديث رأى النبي ﷺ الرجل قد غضب غضباً شديداً، وقد ظهر ذلك على هيئته وعلى لون وجهه وانتفاخ أوداجه ونحو ذلك. وهذا كله قد يدفعه إلى أن يُنفذ غضبه، فيقتص ممن أغضبه، ومن ثم قد يزداد هذا الغضب ويؤدي إلى

---

(١) أخرجه أحمد (٢٢٠٨٦/٣٦) وأبو داود (٤٧٨٠) وضعفه الألباني (ضعيف سنن أبي داود ١٠٢٤) لكن قال محققو المسند: صحيح لغيره.

(٢) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٣٦٢/١، ٣٦٣، ٣٦٩.

نتائج غير مرضية. لذا سارع النبي ﷺ إلى وضع العلاج المناسب حتى يذهب ما في نفسه من الغضب، فقال: ((لو قال: أعوذُ باللهِ منَ الشيطان الرجيم ذَهبَ عنه ما يَجدُ))، فكان من صفات هذا العلاج أنه يُذهب الغضب وبآثاره الناتجة عنه فيما لو استمرّ وتطور.

وقال ابن رجب: (وكان النبي ﷺ يأمر من غَضِب بتعاطي أسباب تدفع عنه الغضب. وتسكنه، ويمدح من ملك نفسه عند غضبه... أخرج الإمام أحمد وأبو داود من حديث أبي ذر أن النبي ﷺ قال: ((إِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمُ وَهُوَ قَائِمٌ فَلْيَجْلِسُ، فَإِنْ ذَهَبَ عَنْهُ الْغَضَبُ وَإِلاَّ فَلْيَضْطَجِعْ))[1]. وقد قيل: إن المعنى في هذا أن القائم متهيئ للانتقام، والجالس دونه في ذلك، والمضطجع أبعد عنه، فأمره بالتباعد عن حالة الانتقام)[2].

رابعاً- من أساليب الدعوة: التوكيد والتشويق والأمر:

١- التوكيد: في قوله ﷺ: "إني لأعلم كلمةً...". وقد جاء هذا التوكيد مناسباً لحالة التأزم بين الرجلين بسبب التشاتم والتغاضب بينهما، فجاء التوكيد ليكون على مستوى هذا التأزم، ليؤكد أن ما يقوله النبي ﷺ هو الحل المناسب لهذا الموقف.

٢- التشويق: في قوله ﷺ: "إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد..." فقد ذكر النبي ﷺ أن هذه الكلمة تذهب الغضب دون أن يصرح بها مباشرة، وذلك ليدفع السامعين إلى التشوق والتطلع إلى هذا الحل. وقد جاء هذا التشويق مناسباً للحالة النفسية للمدعوين: فهو من ناحية يصرف أذهان السامعين عن الاسترسال مع التشاتم والتساب. ويدفع المتشاتمين إلى التوقف عن ذلك. كما أنه يثبت هذا العلاج في أذهان المدعوين من ناحية أخرى.

٣- الأمر: وذلك في قول الصحابة للمغضب: إن النبي ﷺ قال: "تعوذ بالله من الشيطان الرجيم".

---

(١) أخرجه أحمد ٢١٣٤٨/٣٥، وأبو داود ٤٧٨٢، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٤٠٠٠).

(٢) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٣٦٤/١-٣٦٥.

فقد أمر النبي ﷺ بالاستعاذة من الشيطان الرجيم، للتغلب على وسوسة الشيطان ومحاولته السيطرة على الإنسان في مثل تلك الحالات من الغضب.

خامساً- من مهام الداعية: التحذير من الشيطان وعداوته للإنسان:

إن مما ينبغي للداعية أن يحرص عليه تحذير المدعوين من الشيطان وعدواته للإنسان، ويقتدي في ذلك بقول النبي ﷺ: "لو قال: أعوذُ باللهِ منَ الشيطان ذَهبَ عنه ما يَجدُ"، وذلك لأن الشيطان عدو الإنسان، فيريد أن يخرجه من ملة الإسلام، فإن لم يستطع ذلك أوقعه في الكبائر، فإن لم يستطع أوقعه فيما دون ذلك. قال النووي: (إن الغضب من نزعات الشيطان، ولهذا يخرج الإنسان عن اعتدال حاله، و يتكلم بالباطل ويفعل المذموم، وينوي الحقد والبغض وغير ذلك من القبائح المترتبة على الغضب)[(١)].

وقد قال الله تعالى محذراً منه: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾[(٢)] وعلى ذلك فهو لا يفوت فرصة تسنح له في إيقاع المرء فيما لا تحمد عقباه إلا واستغلها. ومن أنسب الحالات التي يستطيع أن يوسوس للإنسان ليدفعه لارتكاب ما حرم الله -حالة الغضب، لأن الإنسان قد يرتكب هذا بزعم رد العدوان عنه، والاقتصاص من المعتدي، وهذا من تلبيس إبليس، فأرشد النبي ﷺ الغضبان إلى الاستعاذة بالله والالتجاء إليه، ليحميه من وساوس الشيطان.

قال الطوفي: (أقوى الأشياء في دفع الغضب استحضار التوحيد الحقيقي، وهو أن لا فاعل إلا الله، وكل فاعل غيره فهو آلة له، فمن توجه إليه بمكروه من جهة غيره فاستحضر أن الله لو شاء لم يمكن ذلك الغير منه-اندفع غضبه، لأنه لو غضب والحالة هذه كان غضبه على ربه جلّ وعلا. وهو خلاف العبودية). قال ابن حجر معقباً على ذلك: (وبهذا يظهر السر في أمره ﷺ الذي غضب بأن يستعيذ من الشيطان، لأنه إذا توجه إلى الله في تلك الحالة بالاستعاذة به من الشيطان، أمكنه استحضار ما

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٥٥٥.

(٢) سورة فاطر، أية: ٦.

ذكر، وإذا استمرّ الشيطان متلبساً متمكناً من الوسوسة، لم يمكنه من استحضار شيء من ذلك، والله أعلم)[١].

سادساً- من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة على نقل الأخبار الواردة عن النبي ﷺ:

يتضح ذلك في قولهم للرجل المغضب: إن النبي ﷺ قال: "تعوذ بالله من الشيطان الرجيم" بعد سماعهم قول النبي ﷺ "لو قال: أعوذُ باللهِ منَ الشيطان الرجيم ذَهبَ عنه ما يَجدُ"، وهذا يدل على حرصهم على تبليغ الرجل ما قاله النبي ﷺ لينتفع به هو ومن يأتي بعده. وفي رواية أبي داود: ((فَجَعَلَ مُعَاذُ يَأْمُرُهُ))[٢] قال ابن حجر: (وليس في الخبر أنه أمرهم أن يأمروه بذلك، لكن استفادوا ذلك من طريق عموم الأمر بالنصيحة للمسلمين).

وهذا الحرص هو الذي حفظ لنا سنة النبي ﷺ نقية، تتدارسها الأجيال على مر العصور وتعمل بها وقد نُفي عنها تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين. قال الدكتور عمر سليمان الأشقر: (قد قام الصحابة على دين الله، فحفظوه من الضياع، وبلغوه للعالمين، وجاهدوا في الله حقّ جهاده، وقد تحققت الشورى في أسمى مراتبها في عهد الخلفاء الراشدين، وكانت الشريعة الإسلامية هي المهيمنة على الأمة الإسلامية، وهي المصرفة لأمورهم، والقائدة لشؤونهم، وقد كان فقهاء الصحابة هم أصحاب الشورى وبيدهم تدبير الأمور، فلم يكن يصدر أمر إلا إذا كان موافقاً للشريعة، وقد كانوا يشجعون المسلمين على مراقبة الحكام وفق مقاييس الشريعة، وكانت نصوص الشريعة غضة طرية لم تدخلها التأويلات والتمحلات المتكلفة)[٣].

جاء في كتاب أصول الإيمان: "الصحابة ﷺ هم خير القرون وصفوة هذه الأمة، وأفضل هذه الأمة بعد نبيها ﷺ ويجب علينا أن نتولاهم ونحبهم ونترضى عنهم وننزلهم

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٠/٥٣٧.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٧٨١).

(٣) تاريخ الفقه الإسلامي، د. عمر سليمان الأشقر ص ٦٤.

منازلهم، فإن محبتهم واجبة على كل مسلم وحبهم دين وإيمان وقربى إلى الرحمن، وبغضهم كفر وطغيان. فهم حملة هذا الدين، فالطعن فيهم طعن في الدين كله، لأنه وصلنا عن طريقهم بعد أن تلقوه غضاً طرياً عن رسول الله ﷺ مشافهة ونقلوه لنا بكل أمانة وإخلاص ونشروا الدين في كافة ربوع الأرض في أقل من ربع قرن وفتح الله على أيديهم بلاد الدنيا، فدخل الناس في دين الله أفواجاً"[١].

---

(١) أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة، إعداد: نخبة من العلماء ص ٢٧١.

الحديث رقم (٤٧)

٤٧- وعنْ مُعاذ بْنِ أَنَسٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبيَّ ﷺ قَالَ: «**مَنْ كظَمَ غيظاً، وهُو قَادِرٌ علَى أَنْ يُنْفِذَهُ، دَعَاهُ اللَّهُ سُبْحانَهُ وتَعالَى عَلَى رُؤُوسِ الْخلائقِ يوْمَ الْقِيامَةِ حَتَّى يُخَيِّرَهُ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ مَا شَاءَ**» رواه أَبُو داوُدَ، والتِّرْمِذيُّ وقال: حديثٌ حسنٌ(١).

ترجمة الراوي:

معاذ بن أنس الجُهَني: هو معاذ بن أنس الجهني حليف الأنصار، له ولأبيه صحبة، ونزل مصر والشام وهو والد سهل بن معاذ الذي قال عنه المزي: لين الحديث إلا أن أحاديثه حسان في الرغائب والفضائل.

كان من المجاهدين في سبيل الله بنفسه وماله في عهد النبي ﷺ وبعده؛ مُعلياً كلمة الله ومخرجاً الناس من الظلمات إلى النور وناشراً العدل على ربوع العالم.

قال ابنه سهل: غزوت مع أبي الصائفة [الغزوة وقت الصيف] في زمن عبدالملك بن مروان وعلينا عبدالله بن عبدالملك، فضيّق الناس المنازل وقطعوا الطريق فقال معاذ: أيها الناس إنا غزونا مع رسول الله ﷺ غزوة كذا وكذا. فضيق الناس الطريق. فبعث النبي ﷺ منادياً فنادى: ((من ضيق منزلاً أو قطع طريقاً فلا جهاد له))(٢).

ومقتضى ذلك أن وفاته تأخرت إلى ما بعد ٦٥هـ وهي السنة التي تولى فيها عبدالملك الخلافة بعد أبيه مروان(٣).

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٧٧) واللفظ له، والترمذي (٢٠٢١)، وقال: هذا حديث حسنٌ غريبٌ. قال العقيلي في الضعفاء الكبير (١٠٣/٣): قد روي بأسانيد صالحة. أورده المنذري في ترغيبه (٤٠٥٩).

(٢) أخرجه أحمد ٤٤١/٣ رقم ١٥٦٤٨، وقال محققو المسند: رجاله ثقات ٤٠٥/٢٤، وأبو داود (٢٦٢٩، ٢٦٣٠) وحسنه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٢٢٨٩، ٢٢٩٠).

(٣) الطبقات، ابن سعد (٥٠٢/٧) والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ٦٥٥ وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير (١٨٦/٥) والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني ١٢٥٢، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي (١٣٧/٧) وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني (٩٧/٤) وموسوعة عظماء حول الرسول، خالد عبدالرحمن العك (١٧٨٤/٣).

غريب الألفاظ:

كظم غيظه: تجرّعه واحتمل سببه وصبر عليه[١].

الحور العين: هن نساء أهل الجنة، واحدتهن حوراء وهي: الشديدة بياض العين الشديدة سوادها وذلك نهاية في الحسن من العين[٢].

الشرح الأدبي

العفو عند المقدرة من شيم الكرام، وسمات الصالحين، وأرباب النهى، وأولي العزم. يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾[٣].

والصبر على أذى الناس من أعلى مراتب الصبر، لأنه يتعاون فيه باعث الدين وباعث الشهوة والغضب جميعاً، وليس للإنسان اختيار في بواعث هذا الأذى، ولكن له اختيار في دفعه بالصبر والتحمل والعفو وكظم الغيظ، وذلك إذا أوذي الإنسان بفعل أو قول، أو جُني عليه في نفسه أو ماله، فالصبر على ذلك بترك المكافأة تارة يكون واجباً، وتارة يكون فضيلة، ويقول بعض الصحابة تأكيداً لهذا الموقف الإيماني، "ما كنا نعد إيمان الرجل إيماناً إذا لم يصبر على الأذى"، قال تعالى: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾[٤].

وفي هذا الأفق الإيماني الوضاء تتوهج أضواء هذا الحديث النبوي الشريف، ترغيباً لكل مسلم في التحلي بهذا الخلق الإسلامي الرفيع، ولغة الحديث وصياغته وكلماته كلها ترغب في العفو والتسامح. فالحديث يرد في جملة شرطية: وركنا: الشرط والجزاء، من كظم غيظاً، وهو قادر، ثم الجواب: دعاه الله سبحانه وتعالى على رؤوس الخلائق يوم القيامة... وهذه الصيغة اللغوية تفصح عن تحقق الجزاء والثواب، وهو جزاء

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ج ر ع).

(٢) المفردات والنهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ح و ر).

(٣) سورة الشورى، آية: ٤٣.

(٤) سورة إبراهيم، آية: ١٢.

مضاعف، وثواب جزيل.

ومادة كظم مرتبطة بالغيظ، تدل على أن هذا الصابر المحتسب: تجرَّع الغيظ، واحتمل وقائعه وصبر عليه، والغيظ تغير يطرأ على الإنسان عند احتدام الغضب، ولكن صاحب الإرادة القوية والإدراك الإيماني يكتم غيظه، ويقاوم موجات الغضب المحتدمة في نفسه.

وجاء لفظ: غيظاً نكرة، ولم يأت مُعرّفاً لإفادة العموم والشمول، فهو ليس غيظاً واحداً محدداً ولكنه ألوان من الغيظ، وأنواع من الغضب تأتي وتتكرر كثيراً.

وجملة: "وهو قادر على أن ينفذه" في موقع الحال: أي أن ذلك المسلم الذي يكتم غيظه ليس عن ضعف أو هوان أو قلة حيلة لأنه يملك أسباب القوة والانتقام ورد الأذى، ولكنه تحلى بالصبر الجميل، والصفح النبيل، وجواب الشرط هو، "دعاه الله سبحانه وتعالى على رؤوس الخلائق".

وهو ثواب مضاعف، وأجر جزيل، فإذا كان ذلك المؤمن كظم غيظه في موقف أو موقفين وأمام عدد محدود من الخلائق، فالله سبحانه وتعالى يضعه في قمة التقدير، والخلائق جميعاً تشهده يوم القيامة وهو يأخذ جائزته، ويُخيِّر في اختيار ما يريد وما يشاء من "الحور العين"، وما شاء توحي بالاختيارات الكثيرة، وسبحان الله الخلاق العليم، وأي مكافأة أعظم من هذه المكافأة لكل من يحرص على إقامة جسور المودة وهي تتمثل في قول رسول الله ﷺ، "صِلْ من قطعك، وأعط من حرمك، واعف عمن ظلمك"[١].

(١) أخرجه أحمد في مسنده ١٤٨/٤، ١٥٨، رقم ١٧٣٣٤، ١٧٤٥٢، وقال محققو المسند: حديث حسن ٥٧٠/٨، ٦٥٤.

المضامين الدعوية

أولاً: من آداب الداعية: الثناء على أهل الأخلاق الطيبة والإشادة بهم.

ثانياً: من أساليب الدعوة: التبشير.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: بيان فضل كظم الغيظ.

أولاً- من آداب الداعية الثناء على أهل الأخلاق الطيبة والإشادة بهم:

يؤخذ هذا من قوله ﷺ "من كظم غيظه ... دعاه الله سبحانه وتعالى على رؤوس الخلائق يوم القيامة.." فإن الله عز وجل يدعو من كظم غيظه وهو قادر على أن يقتص ممن أغضبه. يدعوه على رؤوس الأشهاد يوم القيامة ليكافئه ويعطيه ثوابه، فيكون هذا أعظم الجزاء وأحسن المكافأة له؛ فإنه يقال في حقه أمام الناس في هذا المشهد العظيم: (هذا الذي صدرت منه هذه الخصلة العظيمة)[1].

وإذا كان الله وهو رب العالمين يثني على أهل الأخلاق الطيبة، فإنه حريٌّ بالداعية أن يثني على أهل الفضل ويشيد بهم، إذا كانوا يستحقون ذلك ويُؤمن عليهم الاغترار، فإن في ذلك فائدتين: الأولى: تثبيتهم على هذه الأخلاق إن لم يكن العمل على زيادتها. والأخرى: دعوة غيرهم، لأن يكونوا مثلهم.

وهذا ما فعله النبي ﷺ حين أثنى على عمرو بن تغلب رضي الله عنه الذي قال: إن رسول الله ﷺ أتى بمالٍ أو بسبي فقسمه فأعطى رجالاً وترك رجالاً، فبلغه أن الذين تركَ عتبوا، فحمد الله ثم أثنى عليه ثم قال: ((إني أُعطي الرجلَ وأَدَع الرجل، والذي أدع أحبُّ إليَّ من الذي أعطي، أعطي أقواماً لما في قلوبهم من الجزع والهلع، وأَكِلُ أقواماً إلى ما جعل الله في قلوبهم منَ الغِنى والخير، منهم عُمرو بن تَغلب، فقال عَمرو: ما أحبُّ أنَّ لي بكلمةِ رسولِ الله ﷺ حُمْرَ النَّعم))[2].

قال ابن مفلح: (كراهة المدح في الوجه لمن خيف عليه مفسدة من عُجْب ونحوه، وجوازه لمن أمن من ذلك في حقه... فأما من مدح على الفعل الحسن، والأمر المحمود

---

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ٩/٢٤٤.

(٢) أخرجه البخاري (٩٢٣، ٣١٤٥، ٧٥٣٥). وحُمْر النَعَم هي أفضل أنواع الإبل عند العرب.

ترغيباً في أمثاله، وتحريضاً للناس على الاقتداء به في أشباهه فليس بمداح، وإن كان قد صار مادحاً بما تكلم به من جميل القول)[١].

ثانياً- من أساليب الدعوة: التبشير:

وهذا يؤخذ من قوله ﷺ "دعاه اللهُ سبحانه وتعالى على رؤوس الخلائق يوم القيامة حتى يخيّره من الحور العين ما شاء"، فالداعية يسلك في سبيل إنجاح دعوته التبشير بالثواب العظيم الذي أعده الله للصالحين من عباده؛ وذلك تشجيعاً لهم وحثّاً لهممهم على الاستجابة والطاعة، فإن النفس مجبولة على معرفة ثواب الأعمال التي تكلف بها.

وعن طريق هذا الأسلوب يدفع الداعية المطيعين إلى زيادة الطاعة والإكثار منها، كما يجذب المقصرين والمتخاذلين إلى ساحة الإذعان وميدان التطبيق.

وقد بشر النبي ﷺ في هذا الحديث من يكظم غيظه بالثواب العظيم، ليدعو المسلمين إلى الالتزام بهذا الأدب الرفيع والخلق الكريم.

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: فضل كظم الغيظ:

يتضح هذا في قوله ﷺ "من كظم غيظاً... دعاه الله على رؤوس الخلائق..." فقد أبان ﷺ عن فضل كاظم غيظه وهو أن الله يدعوه يوم القيامة على رؤوس الأشهاد مباهياً ومفاخراً سبحانه وتعالى به، ليعطيه جائزته ومكافأته على فعله، بأن خيره من الحور العين -نساء أهل الجنة- يأخذ أيهن شاء. وهذا (كناية عن إدخاله الجنة المنيعة وإيصاله الدرجة الرفيعة)[٢]. وإنما استحق ذلك كاظم غيظه لأنه قهر نوازع الاقتصاص ودوافع الانتقام في نَفْسه الأمّارة بالسوء، ولم يستجب لها، وارتفع عن رد العدوان وارتقى إلى درجة تحمل الأذى والصبر، فكان مجاهداً لنفسه، فحملته المجاهدة إلى الدرجات العلا، لذا قال ﷺ ((مَا مِنْ جُرْعَةٍ أَعْظَمُ أَجْراً عِنْدَ اللَّهِ، مِنْ جُرْعَةِ غَيْظٍ، كَظَمَهَا عَبْدٌ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ))[٣].

---

(١) الآداب الشرعية، حماد بن عبدالله الحماد ٤٣٦/٣-٤٣٧.

(٢) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري ١٦٧١.

(٣) أخرجه ابن ماجه (٤١٨٩)، وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ٣٣٧٧).

قال الطاهر بن عاشور: (كظم الغيظ إمساكه وإخفاؤه حتى لا يظهر عليه، وهو مأخوذ من كظم القربة إذا ملأها وأمسك فمها، قاله المبرد، فهو تمثيل الإمساك مع الامتلاء ولاشك أن أقوى القوى تأثيراً على النفس القوة الغاضبة فتشتهي إظهار آثار الغضب، فإذا استطاع إمساك مظاهرها مع الامتلاء منها، دل ذلك على عزيمة راسخة في النفس، وقهر الإرادة للشهوة، وهذا أكبر من قوى الأخلاق الفاضلة)[1].

إن مما ينبغي للداعية أن يبينه، ويشيد به فضل الله تعالى وكرمه على عباده المؤمنين. ويقتدي بالنبي ﷺ كما في هذا الحديث عندما قال: "دعاه الله سبحانه وتعالى على رؤوس الخلائق يوم القيامة حتى يخيّره من الحور العين ما شاء"، فهذا يدل على فضل الله وكرمه على عباده، فهو سبحانه يُثيب على العمل اليسير بالثواب العظيم، كرماً منه ومِنةً، مع أنه سبحانه لا تنفعه طاعة ولا تضره معصية، فرتب سبحانه على مجرد كظم الغيظ هذا الثناء الجميل والجزاء الجزيل، (فكيف إذا انضم العفو إليه أو زاد بالإحسان عليه؟!)[2].

فكظم الغيظ، وإن كان عملاً شاقاً على النفس، إلا أنه في ميزان تقييم الأعمال لا يبلغ هذا الثواب العظيم الذي أعده الله له، لكن كرماً من الله وتفضلاً على عباده وَعَدهم بهذا الجزاء الكبير، لهذا خاطب النبي ﷺ أصحابه فقال: "لن يُدخِل أحداً منكم عملُه الجنة" قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ((وَلاَ أَنَا. إِلاَّ أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللّهُ مِنْهُ بفضلٍ وَرَحْمَةٍ))[3]. وصدق الله إذا قال: ﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾[4].

---

(١) التحرير والتنوير، ٩١/٤/٢.

(٢) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري ١٦٧١.

(٣) أخرجه البخاري (٥٦٧٣) ومسلم (٢٨١٦).

(٤) سورة النساء، آية: ١١٣.

الحديث رقم (٤٨)

٤٨- وعَنْ أَبي هُرَيْرَةَ ﵁ أَنَّ رَجُلاً قَالَ للنَّبِيِّ ﷺ: أَوْصِنِي، قَالَ: «**لا تَغْضَبْ**» فَرَدَّدَ مِراراً قَالَ، «**لا تَغْضَبْ**» رواه البخاريُّ[1].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

الشرح الأدبي

إن الغضب يجمع الشر كله، ويلقي بالإنسان في مهاوي الرَّدى، وأوهام الباطل، وربما تحكمت فيه شهوة الغضب فأفسدت عليه حياته، وباعدت بينه وبين رَحِمه.

وربما يدفع الغضب الإنسان إلى ارتكاب الحماقات، وإلى ردَّة الفِعْل العمياء- وكما يقول الشاعر:

مالي غضبت فطار أمري من يدي والأمر يخرج من يد الغضبان

والمصطفى ﷺ، يعالج أمراض النفس البشرية، ويداوي كل من أصابه داء من الهم والوسواس، والإحساس بالقهر، والشعور بالظلم، وتسلل داء الغيرة أو اليأس إلى النفس، والغضب من أشد الأمراض السلوكية فتكاً وتدميراً لقواعد السلوك البشري، وتقطيعاً لأواصر المودة والرحمة، والحديث السابق يجعل الذي يكظم غيظه، ويكتم غضبه في الدنيا على رؤوس الخلائق يوم القيامة، ويخيره الله من الحور العين ما شاء.

وهذا الحديث الشريف يُقدِّم في صيغة أسلوبية جديدة: وهى الوصية: وهي تفيد الوجوب وهذه الوصية تشرق كلماتها الموجزة في سياق حواري مقنع، فأبو هريرة ﵁ يروي أن "رجلاً" قال للنبي ﷺ: "أوصني": فمن هو ذلك الرجل؟ ومتى قال للنبي ﷺ ذلك وفي أي مكان طلب هذه الوصية، ولماذا طلبها: كل هذه أسئلة تتحرك في فضاء هذه الوصية الجامعة المانعة التي تعالج داء ذلك الرجل، وحالته ربما تشابه ملايين الحالات الإنسانية في كل زمان ومكان، فاسم الرجل ليس مطلباً ضرورياً لأن القضية ليست ذاتية وإنما هي قضية عامة.

---

(١) أخرجه البخاري (٦١١٦). أورده المنذري في ترغيبه (٤٠٤٦). وسيكرره المؤلف برقم (٦٣٩).

ولذلك يأتي طلب الوصية في صيغة الأمر وهي للالتماس والرجاء، وليست أمراً حقيقياً لأن الأمر من الأدنى للأعلى دعاء، ومن الأعلى للأدنى أمر حقيقي واجب التنفيذ، وإذا كان من متساويين فهو التماس، وهذا الرجل مساو للرسول ﷺ في بشريته وإنسانيته، ولكن الرسول ﷺ تعلو درجته بالنبوة والعصمة والرسالة، وبأنه يوحى إليه ، وبأنه لا ينطق عن الهوى وأنه خاتم الأنبياء والمرسلين، وأنه أفضل خلق الله تعالى.

وإجابة رسول الله ﷺ، ترد حاسمة جازمة موجزة مقنعة في صيغة النهي: "لا تغضب" وكأن الرجل يشعر بأنه مازال محتاجاً إلى مزيد من الوصايا – ولكن الرسول عليه الصلاة والسلام يعرف داءه، ويدرك الطريق الصحيح لعلاجه وهو ترك الغضب، وفي ذلك حفاظ على نفسه وبدنه لأن الجسم يتأثر بالغضب الشديد، وتحدث مضاعفات مرضية خطيرة ربما تؤدي إلى هلاك الإنسان، وكذلك تنتشر سموم الغضب وتصيب كل من حول ذلك الغاضب الذي لا يدري عاقبة أمره، وربما يدفعه الغضب إلى تشتيت شمل أسرته، أو تقطيع رحم قرابته، أو الاعتداء على الغير ثأراً لكرامته، أو ظلم الناس صوناً - كما يزعم لعزته أو إذلال الرعية حفاظاً على هيبته، واستمرارا لسلطته، لأن الغضب من نزغات الشيطان، ولذا يخرج الإنسان عن اعتداله فيتكلم بالباطل، ويفعل المذموم، ولذلك يوصي رسول الله بعدم الغضب لأن ترك الغضب مفتاح الخير كله.

المضامين الدعوية

أولاً: من آداب المدعو: طلب النصيحة والوصية من أهل العلم.

ثانياً: من مهام الداعية: توجيه المدعو إلى ما ينفعه.

ثالثاً: من أساليب الدعوة: النهي والتكرار.

أولاً– من آداب المدعو: طلب النصيحة والوصية من أهل العلم:

هذا الرجل ذهب إلى النبي ﷺ وقال له: "أوصني" عدة مرات. قال ابن حجر: (قوله "فردد مراراً" أي: ردد السؤال يلتمس أنفع من ذلك أو أبلغ أو أعم، فلم يزده على ذلك)[1].

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٥٣٦/١٠.

وهكذا شأن المدعو دائماً مع أهل العلم الصادقين، يسألهم ويطلب منهم النصيحة، ليستفيد من ذلك في دنياه وآخرته؛ لأنهم أعلم بما يصلحه وبما هو أنسب له وأرفق، ولذا كان هذا السائل حريصاً على أن يعقل الوصية ويفهمها حتى يطبقها خير تطبيق، ففي رواية الترمذي: ((عَلِّمْنِي شَيْئاً وَلاَ تُكْثِرْ عَلَيَّ لَعَلِّي أَعِيهُ))(١).

ولاشك أن خير ما يسأله طالب الوصية ما يبعده عن غضب الله وما يدخله الجنة فهذا عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما يسأل رسول الله ﷺ: ماذا يباعدني من غضب الله عز وجل؟ قال: "لا تغضب"(٢). وهذا أبو الدرداء رضي الله عنه يسأله فقال: يا رسول الله دلني على عمل يُدخلني الجنة. قال ((لاَ تَغْضَبْ وَلَكَ الْجَنَّةَ))(٣).

وهكذا حال المدعو، يطلب من أهل العلم الأتقياء الصالحين أن يدلوه على طرق الخير الموصلة إلى جنة الرحمن المبعدة عن غضبه عز وجل.

ثانياً- من مهام الداعية: توجيه المدعو إلى ما ينفعه:

يتضح هذا في قوله ﷺ: "لا تغضب"، فدلّه على ما ينفعه في الدنيا والآخرة، فنهاه عن الغضب الدنيوي؛ لأنه يؤدي إلى مفاسد جمّة تشمل الظاهر والباطن، وتظهر في اللسان واليد، كما أنها لا تقتصر على الغضبان ومن أغضبه فحسب، بل تمتد كذلك إلى غيره ممن لا يكون له علاقة بسبب غضبه؛ يقول ابنُ حجر في ذلك: (يترتب على الغضب من تغير الظاهر والباطن كتغير اللون والرعدة في الأطراف وخروج الأفعال من غير ترتيب، واستحالة الخلقة حتى لو رأى الغضبان نفسه في حال غضبه لكان غضبه حياءً من قبح صورته، واستحالة خلقته، هذا كله في الظاهر، وأما الباطن فقبحه أشد من الظاهر، لأنه يولد الحقد في القلب والحسد، وإضمار السوء على اختلاف أنواعه، بل أولى شيء يقبح منه باطنه وتغير ظاهره ثمرة تغير باطنه، وهذا كله أثره في الجسد.

---

(١) أخرجه الترمذي ٢٠٢٠، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٦٤٤).

(٢) أخرجه أحمد ١٧٤/٢ رقم ٦٦٣٥، وقال محققو المسند: صحيح لغيره ٢١١/١١.

(٣) ذكره الهيثمي في ال مع ٧٠/٨ وقال: رواه الطبراني في الكبير والأوسط وأحد إسنادي الكبير رجاله ثقات.

وأما أثره في اللسان فانطلاقه بالشتم والفحش الذي يستحي منه العاقل ويندم قائله عند سكون الغضب، ويظهر أثر الغضب أيضاً في الفعل بالضرب أوْ القتل، وإن فات ذلك بهرب المغضوب عليه رجع إلى نفسه فيمزق ثوب نفسه ويلطم خده، وربما سقط صريعاً، وربما أغمي عليه وربما كسر الآنية وضرب من ليس له في ذلك جريمة، ومن تأمل هذه المفاسد عرف مقدار ما اشتملت عليه هذه الكلمة اللطيفة من قوله ﷺ: "لا تغضب" من الحكمة واستجلاب المصلحة في درء المفسدة، مما يتعذر إحصاؤه والوقوف على نهايته، وهذا كله في الغضب الدنيوي لا الغضب الديني)[١].

ولهذا قال الرجل الذي أوصاه النبي ﷺ بألا يغضب- قال: ففكرت حين قال النبي ﷺ ما قال، فإذا الغضب يجمع الشر كله[٢] وهذا يلزم عنه أنّ (التحرّز منه جماع الخير)[٣].

قال ابن رجب: (قوله ﷺ: "لا تغضب" يحتمل أمرين: أحدهما أن يكون مراده الأمر بالأسباب التي توجب حسن الخلق من الكرم والسخاء والحلم والحياء والتواضع والاحتمال وكف الأذى والصفح والعفو وكظم الغيظ والطلاقة والبشر ونحو ذلك من الأخلاق الجميلة، فإن النفس إذا تخلقت بهذه الأخلاق وصارت لها عادة أوجب لها ذلك دفع الغضب عند حصول أسبابه، والثاني: أن يكون المراد لا تعمل بمقتضى الغضب إذا حصل لك، بل جاهد نفسك على ترك تنفيذه والعمل بما يأمر به، فإن الغضب إذا ملك ابن آدم كان كالآمر الناهي له)[٤].

ثالثاً- من أساليب الدعوة: النهي والتكرار:

النهي في قوله ﷺ: "لا تغضب" وكذلك التكرار منه ﷺ رداً على تكرار الرجل سؤاله: (فردد مراراً)[٥] وفي رواية الترمذي (قال: لا تغضب فردد ذلك مراراً، كلُّ

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٥٣٧/١٠، وانظر: جامع العلوم والحكم، ابن رجب ٣٦٩/١.

(٢) أخرجه أحمد ٢٣١٧١/٣٨، وقال محققو المسند: إسناده صحيح.

(٣) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٣٦٢/١.

(٤) المرجع السابق ٣٦٣/١ - ٣٦٤.

(٥) انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٥٣٦/١٠.

ذلك يقول لا تغضب)[١]، وإنما استخدم النبي ﷺ النهي؛ لأنه في مقام توجيه النصيحة والوصية، كما استخدم التكرار رداً على إعادة الرجل سؤاله، ليؤكد له أهمية عدم الغضب وأثر ذلك في حياة الفرد والجماعة. وكان من عادة النبي ﷺ أنه كان يعيد الكلمة ثلاثاً -أحيانًا- لتفهم عنه. قال أنس بن مالك رضي الله عنه: ((إن النبي ﷺ كان إذا تكلَّم بكلمةٍ أَعادَها ثلاثاً حتّى تُفهمَ عنه))[٢].

(١) أخرجه الترمذي ٢٠٢٠.

(٢) أخرجه البخاري ٩٥.

الحديث رقم (٤٩)

٤٩- وَعَنْ أبي هُرَيْرةَ رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللّهِ ﷺ: «**مَا يَزَال الْبَلاءُ بِالْمُؤْمِنِ وَالْمؤمِنَةِ فِي نَفْسِهِ وَولَدِهِ ومَالِهِ حَتَّى يَلْقَى اللّه تعالى وَمَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ**» رواه التِّرْمِذيُّ وقال: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ[1].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

البلاءُ: الامتحان والاختبار[2].

الشرح الأدبي

إن المؤمن أمره كله خير، في السراء والضراء، فهو حامد شاكر في زمن السراء، وهو محتسب صابر في زمن الضراء، والشكر جزاؤه موفور، والصبر يتضاعف ثوابه، فهو نصف الإيمان، والمؤمن يسير في ظل شجرة إيمانية ثمارها الشكر والصبر، والحمد والاحتساب، وهذه الشجرة الوارفة الظلال، جذورها تمتد في قلب المؤمن الصبور، وتسري أفياؤها في شرايين المسلم الشكور، فلا يزال العبد في نعمة البلاء.. والمحنة في ظل هذا النعيم تغدو بفضل الله منحة، والابتلاء في ظل الاحتساب يغدو تمحيصاً وعطاء.

والحديث الشريف يصور حياة المؤمن تصويراً واقعياً ممتزجاً بسمات الشخصية الإيمانية، وخصائص التصور الإسلامي للكون والحياة والإنسان، فالمسلم تحكم شخصيته، وتؤطر سلوكه عدة أسس تمثل قواعد المنهج الإسلامي، وخصائص الشخصية المؤمنة.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٩٩). وصحّحه ابن حبان (الإحسان ٢٩١٣)، وقال الحاكم (٣٤٦/١): هذا حديثٌ صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. أورده المنذري في ترغيبه (٥٠٠١).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ب ل و).

وهذه الخصائص هي: [الربانية، التوازن، الثبات، الشمولية، الواقعية، الإيجابية، التوحيد، فالمسلم في استقباله لأحداث الحياة وابتلاءات الزمن لا يلجأ إلا إلى الله رب العالمين، ولا يهزمه القلق والشك بل يظل متوازناً في السراء والضراء، ولا تتغير مواقفه وتصوراته ومبادئه؛ بل يظل الثبات هو ميزان حياته، ومنهاج تفكيره في مسيرته ومصيره، وهو لا ينظر من خلال منظور جزئي قاصر بل تظل نظراته للأشياء شمولية سابحة في محيط الإيمان بالقضاء والقدر، وهو مع ذلك يخوض غمار الحياة مؤمناً بالقدر خيره وشره، وحلوه ومره.

إن هذه القيم المضيئة وهذه السلوكيات الإيجابية في الحياة من سمات المؤمن الذي يتوج مشاعره وتفكيره ومنطقه وسلوكه بالتوحيد، فمصدر قوته وعزته وأمله ينبع من معتقده وهو التوحيد "**لا إله إلا الله محمد رسول الله**"؛ والحديث الشريف يرشد إلى كل المعاني السابقة من خلال كلماته المشعة، وعباراته الرصينة، ودلالاته الموحية الهادية.

فالفعل: ما يزال: يدل على الاستمرار، ويؤكد بأن حياة المؤمن كلها جهاد، ومعاناة، وابتلاءات، وكلمة "البلاء": تشمل جوانب جميع المصاعب والمتاعب، واقتران لفظ "المؤمن" بحرف الباء يوحي بمصاحبة المؤمن للبلاء بكل أنواعه: في نفسه وولده وماله، والبلاء في النفس من أشد أنواع الابتلاءات وهو متعدد الألوان والأشكال، فهو إما أن يكون مرضاً يصيب الجسد، فهو بلاء ذاتي، أو يكون فقراً وضيقاً في الرزق فهو بلاء اجتماعي، أو يكون غربة نفسية ومكانية وزمانية حيث يشعر المؤمن بأنه غريب في تمسكه بأصول دينه، ومعالم عقيدته، وهذا ابتلاء نفسي روحي؛ ويتعدى البلاء هذه الدرجة الذاتية إلى الابتلاء في الولد، من عدم البر، والانحراف عن السلوك الجاد، أو المرض أو الموت، أو الاختلاط بقرناء السوء، أو الإدمان، أو غير ذلك من المعاصي، والابتلاء في المال تتعدد وجوهه، ويظل المؤمن في هذه المحنة حتى الموت، ولكنها في النهاية تتراءى للمؤمن منحة من الله العلي القدير، لأن العبد الصابر المحتسب، يلقى ربه وهو يرفل في الطاعة وما عليه خطيئة واحدة وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

المضامين الدعوية

أولاً: من مهام الداعية: إعداد المدعو وتهيئته لتحمل ما يلحق به من ضرر.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: بيان أن نزول البلاء كفارة للذنوب.

ثالثاً: من أساليب الدعوة: الترغيب.

أولاً- من مهام الداعية: إعداد المدعو وتهيئته لتحمل ما يلحق به من ضرر:

إن للداعية دوراً بارزاً في الإعداد المعنوي للمدعو وتهيئته لتحمل البلاء والصبر على الضرر، يظهر ذلك في قوله ﷺ "ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله..." فالحياة إنما جعلت للاختبار والابتلاء، قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾[1] فعلى الداعية أن يُعلم المدعوين أن الحياة ليست بالطريق المفروش بالورود والرياحين، وإنما يجتمع فيها الخير والشر والنفع والضر والسعادة والشقاء. وهذا من سنن الله في خلقه وعباده، وسنن الله جارية وواقعة لا تتخلف.

وهذا ما استصحبه النبي ﷺ في بداية دعوته في مكة، فقد شكا إليه المسلمون ما يلقونه من المشركين من شدة وأذى وقالوا له: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو لنا؟ فقال: ((قد كان من قبلكم يؤخذُ الرجل فيُحفرُ له في الأرض فيجعَل فيها، ثم يؤتى بالمنشار فيوضعُ على رأسه فيجعل نصفين ويُمشط بأمشاط الحديد من دُونَ لحمه وعظمه، فما يَصدُّه ذلك عن دينه. والله ليَتِمَّنَّ الله هذا الأمر حتى يسيرَ الراكبُ من صنعاءَ إلى حَضْرَمَوتَ لا يخافُ إلا الله والذِّئبَ على غَنَمه، ولكنكم تَستعجلون))[2].

وهذا النبي ﷺ يضرب المثل الأعلى والقدوة المثلى للمدعوين في تحمل ما يلحق به من ضرر، فقد لحقه بعض الأذى، فقال: ((رَحِمَ اللهُ موسى. قد أُوذِيَ بأكثرَ من هذا فصبرَ))[3] ولا شك أن إعداد المدعو لهذا فيه من الفوائد الكثيرة فإنه يجعل المدعو

---

(١) سورة محمد، آية: ٣١.

(٢) أخرجه البخاري ٣٦١٢.

(٣) أخرجه البخاري (٣١٥) ومسلم (١٠٦٢).

يوطن نفسه على تحمل ما لحق به، فلا تتأثر همته وعزيمته سلباً، وإنما تزداد عزيمته صلابة وهمته قوة ومضاء، وفضلاً عن هذا فإنه يرضى بما نزل به فلا يسخط ولا يتضجر وإنما يسلم الأمر كله لله ومن ثم يرضى الله عنه. قال رسول الله ﷺ: ((إِنَّ عِظَمَ الْجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلاَءِ، وَإِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْماً ابْتَلاَهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَى، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ))[1].

"قال الله تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ﴾[2] جفّ القلم ورفعت الصحف وقضي الأمر، كتبت المقادير ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا ﴾[3]، ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك. إن هذه العقيدة إذا رسخت في نفسك ووقرت في ضميرك صارت البلية عطية والمحنة منحة. وكل الوقائع جوائز وأوسمة ((ومن يرد الله به خيراً يصب منه))[4]، فلا يصيبك قلق من مرض أو موت ابنٍ أو خسارة مالية أو احتراق بيت، فإن الباري قد قدّر والقضاء قد حلّ، والاختيار هكذا. والخيرة لله والأجر حصل والذنب كُفّر"[5].

ثانياً- من موضوعات الدعوة: بيان أن نزول البلاء كفارة للذنوب:

إن من المعاني التي ينبغي للداعية أن يرسخها في أذهان المؤمنين أن ما ينزل بالمؤمن من بلاء كفارة للذنوب وهذا ما يجعل المؤمن يصبر ويحتسب الأجر عند الله تعالى، يتضح ذلك في قوله ﷺ: "ما يزال البلاء بالمؤمن... حتى يلقى الله تعالى وما عليه خطيئة" وقد ضرب النبي ﷺ مثلاً لهذا، قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: ((دَخلتُ على رسولِ الله ﷺ وهو يوعَك فقلتُ: يارسولَ الله، إنك توعَكُ وَعْكاً شديداً. قال: أجَل، إني أوعَك كما يوعكُ رجُلان منكم. قلت: ذلك بأن لك أجرَين. قال: أجَل، ذلكَ

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٩٦)، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٩٥٣).

(٢) سورة الحديد، آية: ٢٢.

(٣) سورة التوبة، آية: ٥١.

(٤) أخرجه البخاري ٥٦٤٥.

(٥) لا تحزن، عائض القرني، ٢٥.

كذلك، ما من مُسلم يُصيبُهُ أذىً - شَوكةٌ فما فوقها - إلا كفَّرَ اللّه بها سَيِّئاته، كما تَحُطُّ الشجرة وَرقَها))[١] وقال ﷺ: ((ما يُصيبُ المسلمَ من نَصبٍ ولا وَصَبٍ ولا هَمّ ولاَحَزَن ولا أذى ولا غَمّ - حتى الشَّوكةِ يُشاكها - إلا كفَّرَ اللّهُ بها من خَطاياه))[٢].

وعلى ذلك كان البلاء خيراً للعبد، لأنه لا ينفك غالباً عن ارتكاب الذنوب وفعل السيئات.

كما أن البلاء ينزل على قدر درجة العبد ومنزلته عند ربه، فلا يزال به حتى يكفر عنه كل خطاياه، عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال قُلْتُ: ((يا رسولَ اللّه، أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلاَءً؟ قال: الأنْبِيَاءُ ثُمَّ الأمْثَلُ فالأمْثَلُ: فَيُبْتَلَى العبد عَلَى حَسَبِ دِينِه، فَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ صُلْباً اشْتَدَّ بَلاَؤُهُ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلَى حسب دِينِهِ، فَمَا يَبْرَحُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الأَرْضِ مَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ))[٣].

(وفي هذه الأحاديث -كما يقول ابن حجر- بشارة عظيمة لكل مؤمن، لأن الآدمي لا ينفك غالباً من ألم بسبب مرض أو همٌّ أو نحو ذلك، وإن الأمراض والأوجاع والآلام - بدنيةً كانت أو قلبية- تكفر ذنوب من تقع له)[٤].

بل إن البلاء ينزل ليعوض النقص في العمل حتى يبلغ العبدُ المنزلة التي كتبها اللّه له، ففي الحديث: ((إنَّ الْعَبْدَ إذَا سَبَقَتْ لَهُ مِنَ اللّه مَنْزِلَةً لَمْ يَبْلُغْهَا بِعَمَلِهِ ابْتَلاَهُ اللّه فِي جَسَدِهِ أوْ فِي مَالِهِ أوْ فِي وَلَدِهِ، ثُمَّ صَبَّرَهُ حَتَّى يُبْلِغَهُ الْمَنْزِلَةَ الَّتِي سَبَقَتْ لَهُ مِنه))[٥].

ثالثاً- من أساليب الدعوة: الترغيب:

للترغيب أثر عظيم في الدعوة إلى اللّه تعالى، حيث يحمل المدعوين على الإقبال على

---

(١) أخرجه البخاري (٥٦٤٧، ٥٦٤٨)، ومسلم ٢٥٧١.

(٢) أخرجه البخاري (٥٦٤١، ٥٦٤٢)، ومسلم (٢٥٧٣).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٣٩٨)، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٩٥٦)، وابن ماجه ٤٠٢٣ وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ٣٢٤٩).

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني (١٠/١١٣).

(٥) أخرجه أبو داود ٣٠٩٠، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٢٦٤٩).

الطاعات طمعاً في الأجر من الله تعالى، وهذا واضح في قوله ﷺ: "ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة... حتى يلقى الله وما عليه خطيئة" فإنه لما كان البلاء ثقيلاً على النفس شديداً عليها، ذكر النبي ﷺ أن البلاء يكفر الذنوب والخطايا، حتى يُرغّب من وقع به ومن سيقع به على الصبر عليه والرضا بقضاء الله وقدره[1].

(١) انظر: تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري ١٨٩٠.

الحديث رقم (٥٠)

٥٠- وَعَنْ ابْنْ عَبَاسٍ رضي الله عنهما ، قال: قَدِمَ عُيَيْنَة بْنُ حِصْنٍ[١]، فَنَزلَ عَلَى ابْنِ أَخيـهِ الْحُر بْنِ قَيْس، وَكَانَ مِن النَّفرِ الَّذين يُدْنِيهِمْ عُمرُ رضي الله عنه ، وَكَانَ الْقُرَّاءُ أَصْحابَ مَجْلِس[٢] عُمَرَ رضي الله عنه وَمُشاوَرَتِهِ كُهولاً كَانُوا أَوْ شُبَّانًا، فَقَالَ عُيَيْنَةُ لابْنِ أَخيـهِ: يَا ابْنَ أَخِى لَكَ وَجْهٌ عِنْدَ هَذَا الأمِيرِ فَاسْتَأْذِنْ لى عَلَيْهِ، فاستَأذنَ[٣] فَأَذِنَ لَهُ عُمرُ. فَلَمَّا دخَلَ[٤] قَالَ: هِيْ يا ابْنَ الْخَطَّاب، فَوَاللَّه مَا تُعْطِينَا الْجَزْلَ وَلا تَحْكُمُ فِينَا[٥] بِالْعَدْل، فَغَضِبَ عُمَرُ رضي الله عنه حتَّى هَمَّ أَنْ يُوقِعَ بِهِ، فَقَالَ لَهُ الْحُرُّ: يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إنَّ اللَّه تعالى قَال لِنبِيِّهِ ﷺ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الجاهلينَ﴾[سورة الأعراف: ١٩٨]، وإنَّ هَذَا مِنَ الجاهلِينَ، وَاللَّه ما جاوَزَها عُمَرُ حِينَ تلاها، وكَانَ وَقَّافاً عِنْد كِتَابِ اللَّهِ تعالى. رواه البخارى[٦].

ترجمة الراوي:

عبد الله بن عباس: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١١).

غريب الألفاظ:

القراء: العلماء العباد[٧].

هـي: ويقال: هيه وتبدل الهاء الأولى ألفاً فيقال إيه. وهي كلمة تقال لغرضين: الاستزادة من عمل أو حديث. والآخر: الزجر والتهديد والكف. والذي يقتضيه السياق أنه أراد بهذه الكلمة الزجر وطلب الكف لا الازدياد[٨].

---

(١) عند البخاري زيادة: (ابن حذيفة).

(٢) عند البخاري: (الس).

(٣) عند البخاري زيادة: (لي عليه، قال: سأستأذن لك عليه، قال ابن عباس: فاستأذن الحرّ لعيينة).

(٤) عند البخاري زيادة: (عليه).

(٥) لفظ البخاري (بيننا).

(٦) برقم (٤٦٤٢)، وسيكرره المؤلف برقم (٣٥٧).

(٧) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٣/٢٧٢.

(٨) انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٣/٢٧٣.

الجزل: الكثير العظيم من كل شيء[١].

هم أن يوقع به: أي يضربه[٢].

كان وقّافاً عند كتاب الله تعالى: أي يعمل بما فيه ولا يتجاوزه[٣].

الشرح الأدبي

هذا مشهد من مشاهد الحياة يتكرر بين الراعي والرعية، ولكن قد لا تتفق النتائج مع المقدمات، فكم من كلمة صدق أطاحت برأس قائلها، وكم من نصيحة مخلصة أودت بحياة مُسْديها.

وقليلة هي المواقف التي يستجيب فيها الراعي لنصح رعاياه، ولكن للنصيحة معالم وسمات، يجب أن تقدم في ثوب جميل، وأن تغلفها الحكمة والقصد النبيل، وأن لا تكون تشويهاً لصورة الحاكم، أو تضخيماً لعيوبه، فالدين نصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم.

ويقدم هذا الحديث الشريف صورة زاهية متموجة بالتواضع والإنصاف من صور عدالة الحاكم وصبره على الرعية؛ ويقدم لوحة من لوحات كظم الغيظ، والعفو عن الناس، والإعراض عن الجاهلين الذين لم يفقهوا لغة الخطاب الراشد في إسداء النصيحة وهى مراعاة مقتضى الحال، ومعرفة أن لكل مقام مقالاً وأسلوباً يناسب ذلك المقام.

وهذا الموقف الإسلامي يرد في سياق قصة واقعية في أحداثها وأشخاصها؛ وشخصية الفاروق عمر بن الخطاب هى القدوة المثلى في الصبر والتواضع والخضوع للتوجيهات القرآنية، فهو أمير المؤمنين، وهو من هو: زهداً وعدلاً ورحمة وتواضعاً وقوة وشجاعة وحمية لله ولرسوله.

---

(١) الوسيط في (ج ز ل).

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٣/ ٢٧٣.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٣/ ٢٧٣.

وعلى الرغم من هذه السجايا الكريمة يواجهه عيينة بن حصن الفزاري مواجهة شديدة ويتهمه بما هو منه براء، وعيينة كان قائداً في جيش الأحزاب، وله مكانته في الجاهلية والإسلام.

وأسلم يوم فتح مكة وقيل قبله، وكان من المؤلفة قلوبهم، ومن الأعراب الجفاة، وارتد وأُتي به أسيراً إلى الصديق فأسلم فأطلقه[1].

هذا الرجل مازال يحمل ميراث الرفض والعناد، والكبر، وقد أصابته هذه الخصال بغشاوة حجبت عنه أضواء الشخصية العمرية فلم يبصر ملامحها ولم يدرك عبقريتها، ولم يفطن إلى أبعادها الإيمانية، ولذلك نراه يقول بعد أن أذن له عمر: هي يا ابن الخطاب: فوالله ما تعطينا الجزل، ولا تحكم فينا بالعدل! ولنتأمل التشكيل الأسلوبي لهذه العبارة ذات الدلالة الرافضة، إنها لم تلتزم بأدب الخطاب في مواجهة ولى الأمر، ولم تخاطب عمر بلقبه الرسمي: أمير المؤمنين، ولكن الرجل توعد وقال: هي يا ابن الخطاب: وهي؛ كلمة تقال في مقام التهديد، وقيل هي ضمير وبعده محذوف والتقدير: هي داهية، وقوله يا ابن الخطاب: فيه إشارة إلى عدم احترامه لمنصب أمير المؤمنين.

والقسم في قوله: "فوالله ما تعطينا الجزل"، فيه مبالغة مرفوضة حيث يتهم عمر بن الخطاب بمنع العطاء أو بقلّة العطاء؛ والقسم نفسه يغلف التهمة الثانية، "ولا تحكم فينا بالعدل".

ولا يملك أمير المؤمنين إلا أن يغضب من هذا الهجوم السافر الذي يجافي الحقيقة، وهمّ أن يعاقب عيينة، ولكن يأتي دور المشير الناصح، والصاحب الصادق: وهو الحر بن قيس ابن أخي عيينة، وكان عمر يدنيه من مجلسه لأنه من الفقهاء والقراء، وقال الحر: يا أمير المؤمنين: إن الله تعالى قال لنبيه ﷺ: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾[2]، فامتثل عمر، وعفا عن الرجل اقتداء برسول الله ﷺ، وما أجمل

---

(١) انظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ١٤٠.

(٢) سورة الأعراف، آية: ١٩٩.

العفو عند المقدرة! وما أكرم الصفح الجميل! وما أحوج ولاة الأمور في عصرنا إلى هذه الدروس النافعة الهادية الراشدة!

فقه الحديث

١- ورد في الحديث الأمر بحسن المعاشرة مع الناس، وبذل الجهد في الإحسان إليهم والمداراة معهم، والإغضاء عنهم[(١)].

٢- إذا جهل شخص على الحاكم عمدًا، واستخفافًا بحقه فله تعزيره، وإذا كان غير ذلك: فالإعراض والصفح أولى، كما فعل الخليفة العادل عمر بن الخطاب رضي الله عنه[(٢)].

٣- ينبغي على الحاكم أن يقرب أهل الفضل والدين، ويتخذهم مرجعًا للرأي والمشورة.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: الحرص على مجالسة أهل العلم ومشاورتهم.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: الاستئذان.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: مراعاة آداب الخطاب مع ولاة الأمر.

رابعاً: من أساليب الدعوة: التوكيد والاستشهاد بآيات القرآن الكريم.

خامساً: من صفات الداعية: القدوة الحسنة.

سادساً: من موضوعات الدعوة: التحلي بمكارم الأخلاق.

أولاً- من موضوعات الدعوة: الحرص على مجالسة أهل العلم ومشاورتهم:

لقد بين الإسلام فضل مجالسة أهل العلم، والحرص على ذلك، نظراً لتلك الرحمة التي تغشى هذه المجالس كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ فعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((مَنْ سَلَكَ طَرِيقاً يَطْلُبُ فِيهِ عِلْماً سَلَكَ اللهُ عز وجل بِهِ طَرِيقاً مِنْ طُرُقِ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضاً لِطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنَّ الْعَالِمَ

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٣/٢٥٩-٢٦٠.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٧/٣٤٧.

لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْحِيتَانِ فِي جَوفِ الْمَاءِ، وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَاراً وَلا دِرْهَماً، وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ))[1].

لذا كان عمر رضي الله عنه حريصاً على مجالسة أهل العلم وتقريبهم منه ووجه الدلالة هنا قوله (وكان القراء أصحاب مجلس عمر رضي الله عنه ومشاورته كهولاً كانوا أو شباباً) لما في مشاورة أهل العلم والرأي من سداد في القصد وصواب في الرأي، وقد أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾[2] وأثنى الله بها على جماعة المؤمنين فقال ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾[3]، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم حريصاً كل الحرص على استشارة أصحابه رضي الله عنهم في الأمور التي لم ينزل فيها الوحي مثل استشارته لأهل بدر من المهاجرين والأنصار وغير ذلك مما يؤكد على أهمية مجالسة أهل العلم والرأي ومشاورتهم.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: الاستئذان:

إن الاستئذان من الآداب الإسلامية التي ينبغي الالتزام بها خاصة في الاستئذان على أصحاب الشأن والوجاهة وأهل الفضل، ويتضح ذلك في الحديث من خلال طلب عيينة ابن حصن من ابن أخيه الحر بن قيس أن يستأذن له على عمر بن الخطاب، فاستأذن له فأذن له عمر، وكان عمر رضي الله عنه لا يحتجب عن الناس إلا في وقت خلوته، وكان استئذان الحر بن قيس من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه حتى يجتمع عيينة بن حصن به، لذا ينبغي الالتزام بهذا الأدب وحث الناس عليه، لأن الاستئذان من الآداب الاجتماعية التي أدبنا الله تعالى بها، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ

---

(١) أخرجه أبو داود ٣٦٤١، والترمذي ٢٦٨٢، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٣٢٦٥، وصحيح سنن الترمذي ٢١٥٩).

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٥٩.

(٣) سورة الشورى، آية: ٣٨.

بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾[١].

(فهذه آداب شرعية أدّب الله بها عباده المؤمنين ففي الاستئذان أمر الله المؤمنين ألا يدخلوا بيوتاً غير بيوتهم حتى يستأنسوا أي يستأذنوا قبل الدخول ويسلموا بعده)[٢].

إن الاستئذان من الآداب السامية، ومن دواعي البعد عن الريبة والظن ومن أسس الآداب والمدنية الإنسانية، وفي هذه الآيات يوجه الله تعالى عباده المؤمنين إلى أهمية الاستئذان، لأنه أدعى للأنس وإزالة الوحشة، ولذا سمي الإذن أنساً، بدليل قوله تعالى: (فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم)، والاستئذان بقرع الباب أو النداء لمن في البيت، أو التسبيح والتحميد أو صريح الاستئذان وغير ذلك من الصور المشروعة.

ومنع الدخول قبل الاستئذان عام في الرجال والنساء، مع المحارم وغير المحارم وذلك حال المجيئ من خارج السكن وأما حال الإقامة معًا فلا إلا ما ورد به النص إذ كل إنسان له حالات لا يحب أن يطلع عليها أحد، ولو كان والداً أو ولداً، حتى تستأنسوا، وتسلموا على أهلها أي على من فيها، وظاهر الآية أن الاستئذان يحصل ثم السلام، وبعضهم يرى العكس، والبعض يرى أنه إذا رأى أحد في الدار سلم أولاً ثم استأذن، فإن لم ير استأذن أولاً.

ذلكم خير لكم وأفضل، فإنه أغض للبصر، وأحفظ للسر، وأدعى إلى احترام البيوت والحرمات، ولا تظنوا أن في الاستئذان مذلة، بل هو خير لكم وأزكى، لعلكم تذكرون ذلك فتعملوا بمقتضاه.

---

(١) سورة النور، الآيات: ٢٧ - ٢٩.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٣٦/٦.

فإن لم تجدوا فيها أحداً من ساكنيها فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم، وهذا تعبير دقيق يشير إلى معنى أدق، فربما كان في البيت صاحبه، ولم يرد عليك ولم يأذن لك فيصدق على المستأذن أنه لم يجد أحداً في البيت.

وقد يكون في البيت ما يدعو إلى الدخول بلا إذن كحريق أو حادث أو استغاثة مثلاً وهنا تدخل بلا إذن. ولا حرج عليك.

ومن الآداب أنك عند زيارتك لإنسان، ووجدت الباب مفتوحاً، أن تقف بحيث لا تطلع على شيء في البيت، وروي في الصحيح عن سهل بن سعد رضي الله عنه: ((أن رجلاً اطلعَ من جُحرٍ في دارِ النبيِّ ﷺ -والنبيُّ ﷺ يَحُكُّ رأسَهُ بالمدرَى- فقال: لو علمتُ أنك تَنظرُ لطعَنتُ بها في عينك، إنَّمَا جُعلَ الإذنُ من قِبل البصر)[1]"[2].

وقد تحرى الصحابة رضي الله عنهم الدقة في الامتثال لهذا الأدب والالتزام بآدابه، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: كنت في مجلس من مجالس الأنصار، إذ جاء أبو موسى كأنه مذعور، فقال: (استأذنت على عمر ثلاثاً فلم يؤذن لي فرجعت، قال: ما منعك؟ قلت: استأذنت ثلاثاً فلم يؤذن لي فرجعت، وقال رسول الله ﷺ إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له فليرجع، فقال: والله لتقيمن عليه بينة، أمنكم أحد سمعه من النبي ﷺ؟ فقال أبيٌّ: والله لا يقوم معك إلا أصغر القوم فكنت أصغر القوم فقمت معه فأخبرت عمر أن النبي ﷺ قال ذلك)[3].

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: مراعاة آداب الخطاب مع ولاة الأمر:

يبدو ذلك واضحاً جلياً في كلام الحر بن قيس مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه يا أمير المؤمنين: إن الله تعالى قال لنبيه: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾[4]

---

(١) أخرجه البخاري ٥٩٢٤، ومسلم ٢١٥٦.

(٢) انظر: التفسير الواضح، د. محمد محمود حجازي ٢/١٨/٦٠ - ٦٢.

(٣) أخرجه البخاري ٢٦٢٤٥، ومسلم ٢١٥٣.

(٤) سورة الأعراف، آية: ١٩٩.

وإن هذا من الجاهلين، فيبدو منه استصحاب الحر بن قيس للتلطف والرفق والابتعاد عن التعنيف والغلظة، فنجده يبتدئ كلامه بقوله: (يا أمير المؤمنين تأدباً معه، ثم يستشهد بآية من القرآن ليكون أدعى للقبول، ثم يعتذر عما بدر من عمه عيينة بن حصن بقوله "وإن هذا من الجاهلين" لذا ينبغي على الإنسان أن يتصف بالتلطف والرفق خاصة مع ولاة الأمر وأصحاب الشأن.

وقد أمر الله بالإلانة القول والتلطف فيه فقال: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾[1] ففي الآية أمر من الله للمؤمنين بأن يقولوا أقوالاً تعرب عن حسن النية وعن نفوس ذكية، في كلمة جامعة يقولوا التي هي أحسن واسم التفضيل "أحسن" مستعمل في قوة الحسن، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ﴾[2] والمقصد الأهم من هذا التأديب تأديب الأمة في معاملة بعضهم بعضاً -خاصة مع ولاة أمرهم- بحسن المعاملة والإلانة القول"[3].

رابعاً- من أساليب الدعوة: التوكيد والاستشهاد بآيات من القرآن:

يتضح ذلك من خلال استخدام الحر بن قيس في توكيد قوله بـ"إن الله يقول"، ولقوله: "وإن هذا من الجاهلين" لما في التوكيد من دواعي قبول الحق والاطمئنان إليه، كذلك استشهاده بالقرآن وذلك من خلال سوقه لقول الله ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾[4] وذلك لما جبلت عليه النفوس من تسليم بالأمر إذا شُفّع بالدليل خاصة إذا كان من كتاب الله تعالى أو سنة رسوله ﷺ.

خامساً- من صفات الداعي: القدوة الحسنة:

يستنبط ذلك من قوله (والله ما جاوزها عمر حين تلاها، وكان وقافاً عند كتاب

---

(١) سورة الإسراء، آية: ٥٣.

(٢) سورة النحل، آية: ١٢٥.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، ١٣١/٦، ١٣٢.

(٤) سورة الأعراف، آية: ١٩٩.

الله تعالى) فقد أعطانا عمر رضي الله عنه مثالاً حياً يحتذى به في الاقتداء، وذلك مما يجب أن يتسم به من نصب نفسه للإمامة أو الإفتاء والدعوة أو ما شاكل ذلك، ليكون حافزاً لغيره على الالتزام بما يسمع أو يقرأ من كتاب الله وسنة رسوله الكريم ﷺ حيث كان عمر رضي الله عنه نموذجًا رائعًا في الوقوف عند كتاب الله، والسمع والطاعة لأوامر الله تعالى.

لقد غرس الإسلام في نفوس أتباعه أدب الاقتداء بأهل التقى والعلم وبمن يؤخذ عنهم وعلى رأسهم رسول الله ﷺ فقال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾[1] (وهذه الآية الكريمة أصل كبير في التأسي برسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله)[2] وبين الحق تبارك وتعالى الدافع الذي يدفع المسلم إلى التأسي برسوله ﷺ وهو رجاء ثواب الله، والأمن يوم القيامة فقال: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾.

لقد حث الإسلام أتباعه على الاقتداء بالصلحاء والشرفاء والعقلاء، وفي مقدمة أولئك أنبياء الله صلوات الله وسلامه عليهم، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ﴾[4].

قال الحسن البصري: (عظ الناس بعملك ولا تعظهم بقولك).

وقال أيضاً: (الواعظ من وعظ الناس بعمله لا بقوله وكان ذلك شأنه إذا أراد أن يأمر الناس بشيء بدأ بنفسه ففعله، وإذا أراد أن ينهى عن شيء انتهى عنه، فمن أسرته

---

(١) سورة الأحزاب، آية: ٢١.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٣٩١/٦.

(٣) سورة الأنعام آية: ٩٠.

(٤) سورة المتحنة، آية: ٦.

نفسه،وأصبح عبدًا لهواه فلا يمكن أن ينكر على الآخرين)[١].

وقديماً قيل: ما خرج من اللسان لا يتجاوز الآذان، وما خرج من القلب فإنه يستقر في القلب.

وإذا خالف فعل الداعية قوله ربما لم يقتصر الضرر على نفسه، بل تعدى ذلك الضرر إلى غيره، وكان قدوة سوء في المجتمع.

ولهذا ذم الله تعالى مثل هذا السلوك فقال سبحانه: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[٢].

وقال سبحانه: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٣].

لذا ينبغي على الداعية أن يلتزم بحسن الأخلاق والأعمال وأن يبتعد عن دنيئها، فالداعية إلى الله يكسب لدعوته بسلوكه الحسن، وقدوته الطيبة أكثر مما يكسبه لها بأقواله اللبقة، لأنّ الناس ينظرون دائماً إلى الدعاة كنماذج حيّة لما يدعونه إليه، ويتأثرون بسلوكهم العملي أعظم مما يتأثرون بكلماتهم وخطبهم المثيرة[٤].

سادساً- من موضوعات الدعوة: التحلي بمكارم الأخلاق:

يستنبط هذا من الآية التي استشهد بها الحر بن قيس وهي قوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[٥] والآية قد جمعت مكارم الأخلاق، لأن فضائل الأخلاق لا تعدو أن تكون عفواً عن اعتداء فتدخل في ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ أو إغضاء عما لا

---

(١) فقه الدعوة في إنكار المنكر، عبدالحميد البلالي ص ٥٠ - ٥١.

(٢) سورة البقرة، آية ٤٤.

(٣) سورة الجمعة، آية: ٥٠.

(٤) أسس الدعوة وآداب الدعاة، محمد السيد الوكيل ص ٧٤.

(٥) سورة الأعراف، آية: ١٩٩.

يلائم فتدخل في ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ أو فعل خير واتساماً بفضيلة فتدخل في ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾[(١)] وبهذا جمعت الآية حسن الخلق مع الناس، وما ينبغي في معاملتهم من شكر لهم على إحسانهم واستقامتهم، وتجاوز عن تقصيرهم، وأمر بكل قول حسن وفعل جميل وخلق كامل للقريب والبعيد، ولما كان لابد من أذية الجاهل أمر الله تعالى أن يقابل الجاهل بالإعراض عنه وعدم مقابلته بجهله[(٢)].

لقد أعلى الإسلام مرتبة الأخلاق، وجعل من الدين الخلق الحسن، وأكمل المؤمنين إيماناً أحاسنهم أخلاقاً، إنه الدين الذي أرسى مبادئ الأخلاق ونهى عن دنيئها وسافلها، وبُعث النبي ﷺ ليتمم صالحها ومكارمها، فقال ﷺ: ((إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ صَالِحَ الأَخْلاَقِ))[(٣)(٤)].

---

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٢٩/٩/٤.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٣١٣.

(٣) أخرجه أحمد ٨٩٣٩، والبخاري في الأدب المفرد ٢٧٣، وصححه الألباني، (سلسلة الأحاديث الصحيحة ٤٥).

(٤) الوجيز في الأخلاق والآداب الشرعية، حماد بن عبدالله الحماد ، حماد بن محمد الحماد ص ٧.

الحديث رقم (٥١)

٥١- وعَن ابْنِ مسعُودٍ رضي الله عنه أنَّ رسولَ اللَّه صلى الله عليه وسلم قال: «**إِنَّهَا سَتَكُونُ بَعْدِي أَثَرَةٌ وَأُمُورٌ تُنْكِرونَهَا**»، قَالُوا: (يا رسُولَ اللَّهِ فَما تَأمرُنا)[1]؟ قال: «**تُؤَدُّونَ الْحقَّ الَّذي عَلَيْكُمْ وتَسْألونَ اللَّه الذي لكُمْ**» متفقٌ عليه[2].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن مسعود: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٣٦).

غريب الألفاظ:

الأثرة: الانفراد بالشيء عمن له فيه حق، وفي النهاية: الأثَرَة: الاسم من آثرَ يؤثر إيثارًا، أراد أنه يُسْتأثر عليكم فيُفَضَّلُ غيرُكم في نصيبه من الفَيْءِ[3].

الشرح الأدبي

إن أسلوب الحوار بين الرسول وأصحابه من أجمل الأساليب المقنعة، وهو من وسائل التربية الحديثة، فالنفس الإنسانية قد لا تستجيب للموعظة المرسلة،أو الحكمة المجردة، ولكنها تنفعل بالموقف وتستجيب للأمر المطروح على مائدة الحوار الإيجابي البناء، وما أجلَّ الحوار بين أستاذ الإنسانية وهادي البشرية وبين الصحابة الأخيار! إنه حوار أساسه القواعد الإيمانية، والتوجيهات النبوية، والحوار هنا يأخذ صبغة جديدة، لأنه لا يفتتح بسؤال من الصحابة أو طلاب الهداية كما هي العادة في مثل هذه المواقف، "التحاورية"، ولكن الحوار يبدأ بطرح قضية سلوكية يتنبأ بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهي واقعة لا محالة لأن من أخبر عنها هو الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم كما أن وقوعها جزء من تكوينات النفس البشرية، وهي "الأثرة" وحب النفس، والرغبة في المزيد مع الميل إلى تفضيل الذات والاستئثار بحق الغير، وهذا المسلك المعوج بمنأى عن السلوك الإيماني

---

(١) لفظ مسلم: (يا رسول الله! كيف تأمر من أدرك منا ذلك) وإنما هذا لفظ البخاري (٣٦٠٣).

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٠٣)، ومسلم (١٨٤٣/٤٥).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (أ ث ر)، ورياض الصالحين ٦٩.

السوي المتمثل في قول الله جلّ وعلا: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[(١)]، وفي قول الله عز وجل: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[(٢)].

إن هذه القضية الاجتماعية يقدمها سيد الخلق في أسلوب بياني بليغ، وسياق بلاغي حواري محكم، ولنتأمل التشكيل الأسلوبي في عرض هذه المسألة: إن رسول الله ﷺ يتوجه إلى صحابته ولم يحددهم، إيحاءً بأن هذا الخطاب لعامة المسلمين ولخاصتهم حتى يتنبهوا إلى علامات الفتن وأمارات الانحراف، وبدأ الكلام بالتأكيد وقال: "إنها ستكون بعدي أثرة" والتأكيد يحتم الوقوع، وارتباط الضمير بحرف التأكيد يوحي بوقوع هذه المشكلة وغيرها من المخالفات: لأن الضمير لا يعود على مجهول، بل "إنها" والتعبير بالفعل "ستكون" يتضمن أكثر من إشارة بلاغية: فصيغة المضارع تومئ إلى استمرارية هذا السلوك، والاقتران بالسين يدل على قرب الوقوع ولكن بعد وفاة رسول الله ﷺ، ولذلك قال رسول الله "بعدي"، والأثرة: هي الانفراد بالشيء ومنع المستحق من نصيبه أو من بعضه.

وتنكير اللفظ يرشد إلى شيوع هذه الظاهرة وانتشارها لأن النفس الإنسانية في غياب الوازع الإيماني تظل عرضة لنزغات الشيطان ووساوسه، والتعبير بقوله: "أمور تنكرونها" فيه إيجاز وتكثيف لأن كلمة "أموز"، تشمل كل المنكرات والمنهيات وتنكيرها يومئ إلى هذا الشيوع، والأمور المنكرة نشهدها في مجال العقائد والعبادات والمعاملات وما أكثرها وما أبعدها عن التصور العقدي الصحيح!

والتعبير بالمضارع وصيغة الجمع يلقي بالمسؤولية على كل مسلم في موقفه من المنكر وفي حتمية السعي إلى تغييره وإزالته إما باليد أو باللسان أو بالقلب، ولذلك يسأل الصحابة رسول الله: "فما تأمرنا"، واختيار مادة الأمر، يرشد إلى وجوب التنفيذ وعدم التفريط في متعلقات هذا الأمر، ولذلك وضع لهم الرسول المنهج حيث قال: "تؤدون الحق

---

(١) سورة الحشر، آية: ٩.

(٢) سورة الحشر، آية: ٩.

الذي عليكم، وتسألون الله الذي لكم". والتعبير بصيغة الجمع يدل على أن المسؤولية جماعية.

والمادة اللغوية المختارة في الفعل "تؤدون"، تفصح عن قيمة هذا الحق، وهو أمانة يجب أن تؤدي، والتعبير بقوله: "عليكم" يؤكد هذا المفهوم، والطباق بين "عليكم" "ولكم" يرشد إلى الموقفين موقف الواجب والحق الذي يجب أن يؤدى، وموقف الطلب والحاجة وهو لا يتحقق إلا بسؤال الله عز وجل، وسؤال الله عز وجل منهج إسلامي سديد، كما جاء في الحوار بين رسول الله وابن عباس وهو غلام حيث قال له: ((إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله))[١].

وصيغة المضارع في الجملتين تعلن عن استمرار هذا المنهج الذي يبتعد بالإنسان المسلم عن الأثرة وحب الذات، والرغبة في الاستعلاء على الغير وتفضيل النفس.

وهذا الحديث الشريف قد يبدو غريباً إدراجه في باب الصبر، وحين نتأمل مقاصد الحديث وندرك مراميه وأسراره، نعرف أنه يرشد إلى التحلي بالصبر، والانتصار على النفس حين نقاوم الأثرة، ونؤدي الحق الذي علينا. وهو أفق واسع، ومجال ينأى عن التحديد، والمقاومة في هذا الميدان تحتاج إلى إرادة قوية، وعزيمة نافذة.

فقه الحديث

في الحديث الأمر بطاعة أولي الأمر، وقد أجمع العلماء على وجوب طاعة أولي الأمر من الأمراء والحكام ما التزموا بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ. وقد نقل النووي عن القاضي عياض وغيره هذا الإجماع[٢]. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ وقد ذهب جمهور الفقهاء والمفسرين إلى أن المقصود بأولي الأمر في الآية: الأمراء وأهل السلطان والحكم[٣].

---

(١) أخرجه أحمد ٢٩٣/١، والترمذي ٢٥١٦، قال محققو المسند: إسناده قوي، ٤٠٩/٤-٤١٠.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١١٨٩.

(٣) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٤٢٨/٦ وما بعدها، و انظر كذلك: الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٣٢٣/٢٨، وشرح رياض الصالحين ١١٨/١-١١٩.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: من دلائل نبوته ﷺ إخباره ببعض ما يحدث بعده.

ثانياً: من أساليب الدعوة: الإخبار والتوكيد.

ثالثاً: من صفات المدعو: الحرص على السؤال عن الأمور المهمة والتفقه في الدين.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: الحث على السمع والطاعة.

خامساً: من موضوعات الدعوة: الصبر.

أولاً- من موضوعات الدعوة: من دلائل نبوته ﷺ إخباره ببعض ما يحدث بعده:

إن من معجزات النبوة التي أيد الله بها نبيه محمداً ﷺ إخباره ببعض الأمور التي ستحدث من بعده، كما في قوله ﷺ: "إنهاستكون بعدي أثرة وأمور ينكرونها" قال ابن عثيمين: (فيه دليل على نبوة الرسول ﷺ لأنه أخبر بأمر وقع، فإن الخلفاء والأمراء منذ عهد بعيد كانوا يستأثرون بالمال فنجدهم يأكلون إسرافًا، ويشربون إسرافًا، ويلبسون إسرافًا، ويسكنون إسرافًا، ويركبون إسرافًا، وقد استأثروا بمال الناس لمصالح أنفسهم الخاصة، ولكن هذا لا يعني أن ننزع يدًا من طاعة، أو أن ننابذهم، بل نسأل الله الذي لنا ونقوم بالحق الذي علينا) ولاشك أن ذلك ينطوي على حكم بالغة من أبرزها تحذير أمته مما يحدث من فتن وأمور يستنكرها المؤمنون، وإرشاده إلى كيفية التعامل مع تلك المتغيرات. فمن معجزات رسول الله ﷺ ودلائل نبوته ما اطلع عليه من الغيوب الماضية والمستقبلة وإخباره عنها، ومن المعلوم المقرر أن علم الغيب مختص بالله تعالى وحده، وقد أضافه إلى نفسه في غير ما آية من كتابه العزيز قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[1] وقال: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾[2] ومن المعلوم أيضاً أن الأنبياء لا يعلمون الغيب ولا اطلاع لهم على شيء منه، ذكر الله تعالى عن غير واحد من رسله الكرام أنهم قالوا لأقوامهم

(١) سورة النمل، آية: ٦٥.

(٢) سورة الأنعام، آية: ٥٩.

﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾[(١)]. وكما جاءت النصوص تدل على أن الله تبارك وتعالى قد اختص بمعرفة علم الغيب وأنه استأثر به دون خلقه، جاءت أدلة أخرى تفيد أن الله استثنى من خلقه من ارتضاه من الرسل فأودعهم ما شاء من غيبه بطريق الوحي إليهم، وجعله معجزة لهم ودلالة صادقة على نبوتهم، قال تعالى: ﴿ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ﴾[(٢)])[(٣)].

ثانياً- من أساليب الدعوة: الإخبار والتوكيد:

ورد ذلك في قوله ﷺ: "إنها ستكون بعدي أثرة وأمور تنكرونها"، وذلك إخبار منه ﷺ وتأكيده بقوله "إنها" وذلك أوقع في قلب المستمع بحصول ذلك الأمر وتيقن القائل به لتأكيده ذلك الأمر؛ مما يحض المستمع على أخذ الأهبة والاستعداد.

ثالثاً- من صفات المدعو: الحرص على السؤال عن الأمور المهمة والتفقه في الدين:

لقد كان الصحابة رضي الله عنهم حريصين كل الحرص على السؤال عن الأمور المهمة، ومما يبين ذلك سؤالهم للنبي ﷺ فور إخبارهم بما سيحدث من بعده حيث قالوا: "يا رسول الله فما تأمرنا"، وذلك حتى لا يقعوا في محظور شرعي فيعبدوا الله ويدعوا إليه على بينة من أمرهم وكما قال الله تعالى: ﴿ قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ ﴾[(٤)]. وحتى يكونوا على بينة من أمرهم، فلا تختلط عليهم الأمور، ولا يخوضون مع الخائضين، بل يتبعون المنهج الذي انتهجه لهم رسول الله ﷺ، وهذا دليل على حرص الصحابة رضي الله عنهم على التمسك بالمبادئ الإسلامية الصحيحة في التعامل مع المتغيرات.

---

(١) سورة الأنعام، آية: ٥٠.

(٢) سورة الجن، آية: ٢٦ - ٢٧.

(٣) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد ١/٥٤٢، ٥٤٣.

(٤) سورة يوسف، آية: ١٠٨.

رابعاً- من موضوعات الدعوة: الحث على السمع والطاعة:

إن السمع والطاعة مما يحفظ على الأمة تماسكها وسلامتها من التفرق شريطة الائتمار بالمعروف والانتهاء عن المنكر. قال النووي في شرحه هذا الحديث: (وفيه الحث على السمع والطاعة وإن كان المتولي ظالماً عسوفاً فيعطى حقه من الطاعة، ولا يخرج عليه ولا يخلع، بل يتضرع إلى الله في كشف أذاه ودفع شره وإصلاحه)[1].

وقد أمرنا النبي ﷺ بالسمع والطاعة في كثير من النصوص ومن ذلك ما رواه العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: ((وَعَظَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَوْعِظَةً، وَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، وَذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَأَنَّهَا مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ فَأَوْصِنَا. قَالَ ﷺ: أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ. وَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلَافاً كَثِيراً، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ))[2].

قال ابن رجب الحنبلي: (وقوله ﷺ: "أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة"، فهاتان الكلمتان تجمعان سعادة الدنيا والآخرة، أما التقوى فهي كافلة بسعادة الدنيا والآخرة لمن تمسك بها وهي وصية الله للأولين والآخرين كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾[3].

وأما السمع والطاعة لولاة أمور المسلمين ففيها سعادة الدنيا وبها تنتظم مصالح العباد في معايشهم وبها يستعينون على إظهار دينهم وطاعة ربهم، كما قال على بن أبي طالب رضي الله عنه إن الناس لا يصلحهم إلا إمام بر أو فاجر، إن كان فاجرا عبدالمؤمن فيها ربه وحمل الفاجر فيها إلى أجله.

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٩٣.

(٢) أخرجه أبو داود ٤٦٠٧، والترمذي ٢٦٧٦، وابن ماجه ٤٣، ٤٤، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٣٨٥١).

(٣) سورة النساء، آية: ١٣١.

وقال الحسن في الأمراء: هم يلون من أمورنا خمسا: الجمعة والجماعة والعيد والثغور والحدود والله ما يستقيم الدين إلا بهم وإن جاروا أو ظلموا، والله لما يصلح الله بهم أكثر مما يفسدون، والله إن طاعتهم لغيظ وإن فرقتهم لكفر"[١].

خامساً- من موضوعات الدعوة: الصبر:

إن مما ينبغي للمسلم أن يتحلى به الصبر، فهو من أعظم أسباب نجاح الدعوات، وهو سبب من أسباب النصر، ومن ألوان الصبر: الصبر على ما يقع من ولاة الأمر من بعض التجاوزات، وهذا ظاهر من قوله ﷺ لما سئل "فما تأمرنا؟ قال: تؤدون الحق الذي عليكم وتسألون الله الذي لكم" فقوله "تؤدون الحق الذي عليكم" أي: بذل المال الواجب في الزكاة والنفس في الخروج إلى الجهاد عند التعيين ونحو ذلك، وقوله "وتسألون الله الذي لكم" بأن يلهمهم إنصافكم أو يبدلكم خيراً منهم[٢].

وفي ذلك حض على الصبر ولزوم الطاعة على كل حال والاستسلام والضراعة إلى الله في كشف ما نزل[٣].

قال ابن عثيمين: (أخبر النبي ﷺ بما يكون بعده من أثرة فقال: (إنها ستكون بعدي أثرة)، والأثرة يعني الاستئثار بالشيء عمن له فيه حق. يريد بذلك ﷺ أنه يستولي على المسلمين وُلاة يستأثرون بأموال المسلمين يصرفونها كما شاؤوا ويمنعون المسلمين حقهم فيها. وهذه أثرة وظلم من الولاة أن يستأثروا بالأموال التي للمسلمين فيها الحق، ويستأثروا بها لأنفسهم عن المسلمين، ولكن قالوا: "فما تأمرنا؟". قال: "تؤدون الحق الذي عليكم" يعني: لا يمنعكم استئثارهم بالمال عليكم أن تمنعوا ما يجب عليكم نحوهم من السمع والطاعة وعدم الإثارة وعدم التشويش عليهم. بل اصبروا واسمعوا وأطيعوا ولا تنازعوهم الأمر الذي أعطاهم الله "وتسألون الذي لكم" أي:

---

(١) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ١١٦/٢ – ١١٧ بتصرف.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٨/١٣.

(٣) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض ٢٥١/٦.

اسألوا الحق الذي لكم من الله. أي: أسألوا الله أن يهديهم حتى يؤدوكم الحق الذي عليهم لكم، وهذا من حكمة النبي ﷺ؛ فإنه عليه الصلاة والسلام علم أن النفوس شحيحة وأنها لن تصبر على من يستأثر عليهم بحقوقهم، ولكنه ﷺ أرشد إلى أمر يكون فيه الخير. وذلك بأن نؤدي ما يجب علينا نحوهم من السمع والطاعة، وعدم منازعة أولي الأمر وغير ذلك، وندعو الله لهم بأن يعطونا حقنا وفي هذا خير.

وقد جاءت الآيات والأحاديث حاضة على الصبر والتخلق به منها قوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[1] قال الطبري: أي اصبروا على دينكم وطاعة ربكم، وذلك أن الله لم يخصص من معاني الصبر على الدين والطاعة شيئاً فيجوز إخراجه من ظاهر التنزيل، ومن ثم يكون الأمر بالصبر على جميع معاني طاعة الله فيما أمر ونهى صعبها وشديدها وسهلها وخفيفها[2].

---

(١) سورة آل عمران، آية: ٢٠٠.

(٢) جامع البيان ٤/١٤٨، ١٤٩.

الحديث رقم (٥٢)

٥٢- وَعن أبي يحيَى أُسَيْدِ بْنِ حُضَيْرٍ ﷺ أَنَّ رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ قَالَ: يا رسولَ اللَّهِ أَلا تَسْتَعْمِلُني كَمَا اسْتَعْملتَ فُلاناً وفلاناً[١]، فَقَالَ: «**إِنَّكُمْ[٢] سَتَلْقَوْنَ بَعْدي أَثَرَةً فاصْبِرُوا حَتَّى تلقَوْنِي علَى الْحوْضِ**» متفقٌ عليه[٣].

ترجمة الراوي:

أُسَيْد بن الحُضَيْر: هو ابن سماك بن عتيك بن عبدالأشهل.

كان شريفاً في الجاهلية والإسلام، مقدماً في قبيلته (الأوس) من أهل المدينة، وكان من عقلاء العرب وذوي الرأي فيهم، وكان من السابقين إلى الإسلام وكان إسلامه علي يد مصعب بن عمير، وهو أحد النقباء الاثني عشر، فقد شهد العقبة الثانية مع السبعين من الأنصار، ولم يشهد بدراً، فندم وقال ظننت أنها العير، ولو ظننت أنه غزو ما تخلفت، وقيل: إنه شهد بدرًا. وشهد أحداً وثبت مع رسول الله ﷺ حين انكشف الناس عنه ﷺ وجرح سبع جراحات، وشهد الخندق والمشاهد كلها. وقد آخى النبي ﷺ بينه وبين زيد بن حارثة ﷺ.

وقال فيه رسول الله ﷺ ((نعم الرجل أسيد بن حضير))[٤].

وكان فيه مُزاحٌ وطيب أخلاق، فبينما يحدث القوم ويضحكهم، طعنه النبي ﷺ في خاصرته (بعود فقال: أصبرني، فقال: اصطبر[٥]، قال: إن عليك قميصاً وليس عليَّ قميص فرفع النبي ﷺ عن قمصيه، فجعل يقبل فاحتضنه وجعل يقبل

---

(١) عند البخاري ومسلم: (فلانًا) مرّة فقط، قال الحافظ ابن حجر في الفتح (١١٧/٧): ذكرتُ في المقدمة أن السائل أسيد بن حُضير، والمستعمل: عمرو بن العاص، ولا أدري الآن من أين نقلته.

(٢) (إنكم) عند البخاري برقم (٧٠٥٧).

(٣) أخرجه البخاري (٣٧٩٢) واللفظ له، ومسلم (١٨٤٥/٤٨).

(٤) الترمذي، رقم ٣٧٩٥، وصحّحه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٩٥٩).

(٥) أي: أقدني من نفسك. قال: استقد. يقال: صبر فلان من خصمه واصطبر. أي اقتص منه. وأصبره الحاكم أي: أقصه من خصمه. النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ص ب ر).

كشحه قال: إنما أردت هذا يا رسول الله)[1] وكان من أحسن الناس صوتاً بالقرآن، فقد كان يقرأ من الليل سورة البقرة فإذا في السماء مثلُ الظُّلَّة فيها أمثال المصابيح فقال له النبي ﷺ ((تلك الملائكة دنت لِصَوتِك، ولو قرأت لأصبحت ينظُر الناسُ إليها، لا تتوارى منهم))[2].

وكان أبوبكر رضي الله عنه يكرمه، ولا يقدم عليه أحداً، من الأنصار، وقد شهد فتح المقدس مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقدم الجابية معه.

وقالت فيه عائشة رضي الله عنها إنه من أفاضل الناس، وقالت أيضاً: ثلاثة من الأنصار لم يكن أحد منهم يلحق في الفضل كلهم من بني عبد الأشهل سعد بن معاذ وأسيد بن حُضير وعباد بن بشر وروى له البخاري ومسلم (١٨) حديثاً. وتوفي بالمدينة سنة ٢٠هـ[3].

غريب الألفاظ:

تستعملني: أي تجعلني عاملاً على الصدقة أو على بلد[4].

الأَثَرَةُ: سبق تفسيرها في الحديث السابق بالمعنى نفسه.

الشرح الأدبي

في ظل هذا الحديث الشريف نستروح نسائم الصبر، ونتذوق حلاوة الإيثار، ونتأمل أحوال الخلق، ونستكشف كثيراً من أسرار السلوك الإنساني.

والحديث في صيغته اللغوية والفنية محاورة بين رسول الله ﷺ، ورجل من الأنصار، وقيل هو: أسيد بن حضير نفسه. موضوع الحوار: هو طلب الولاية، وهذا

---

(١) أبو داود، رقم ٥٢٢٤، وقال الألباني حديث صحيح.

(٢) أخرجه مسلم ٧٩٦، وهو عند البخاري ٥٠١٨ معلقًا.

(٣) الطبقات، ابن سعد (٣/٦٠٣-٦٠٧)، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر (٤٤-٤٦)، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير (١/٢٤٠-٢٤٢)، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني ٥٤، وسير أعلام النبلاء، الذهبي (١/٣٤٠)، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي (١/٢٦٦)، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني (١/١٧٦)، والأعلام، خير الدين الزركلي (١/٣٣٠)، وموسوعة عظماء حول الرسول، خالد عبدالرحمن العك (١/٤٤٤-٤٤٧).

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٧/١٤٧.

الطلب -كما توحي بذلك إجابة رسول الله ﷺ- لم يكن بدافع الرغبة في السيطرة والمنفعة والتسلط، وإنما الحافز هو طلب تحمل المسؤولية. والطالب يرى نفسه أهلاً لذلك، وهو: أسيد بن حضير، وقد شهد له الرسول بالفضل، فقال: "نعم الرجل أسيد بن حضير"[١]. وكان أبو بكر يكرمه ولا يقدم عليه أحدا.

ولذلك نراه يلتزم بآداب الخطاب في حضرة رسول الله، وهذا الالتزام يتجلى في هذا النداء الجميل "يارسول الله" ولم يتقدم بطلبه مباشرة، ولم يطلب الولاية في صيغة الأمر أو الاستفهام، وإنما الطلب يجيء في ثوب ملائم وسياق كريم أقرب إلى الرجاء: "ألا تستعملني".

والمادة اللغوية لهذا الفعل وهي: الاستعمال، ترشد إلى أن الرجل يطلب الولاية من أجل العمل الصالح المفيد، ولم يقل "ألا تؤمرني"، أو "أريد أن تجعلني والياً"، ولكنه طَلَبَ الولايةَ من أجل العمل الدائب النافع في ظل تحمل المسؤولية، وقوله: "كما استعملت فلاناً وفلانا" ليس غيرة ولا طلباً للأثرة ولكن للتدليل على أن نظراءه في الفضل والإخلاص تحملوا المسؤولية، ولم يحدد الراوي اسم فلان وفلان، حتى لا تنشأ شبهة الغيرة، أو يظن بهذا الطالب الأثرة.

وتكملة هذه المحاورة الموجزة تتوهج في إجابة رسول الله ﷺ التي جاءت غير مباشرة، حيث لم يحقق للسائل رجاءه، ولم يرفضه، وإنما وضع قاعدة صادقة شريفة تتجاوز الحدود الزمانية والمكانية والذاتية لتمتد في شعاب الحياة المستقبلية، ولتقرأ أحداث الحياة المطوية في عالم الغيب، ويحذر الرسول من طلب الولاية من "الأثرة" التي تهزم إرادة كثير من الولاة، فيسعون إلى اغتصاب المواقع، وإلى الصراع والتنافس المريب في ميدان الوصول إلى باب السلطان.

ولذلك يأمر الرسول ﷺ المخلصين من طلاب الولاية بالصبر في مواجهة من يحاولون إزاحتهم عن موقع المسؤولية، أو التشكيك في قدراتهم ونواياهم.

والتعبير بقوله: "حتى تلقوني على الحوض"، إشارة إلى أن الصراع والأثرة سيظلان

---

(١) أخرجه الترمذي ٣٧٩٥، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي، ٢٩٥٩).

يسيطران على حركة الحياة المائجة بالتقلبات والنوازع والأهواء إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

واللقاء على الحوض بشارة من الرسول الكريم لكل الصابرين الذين لا يتبوأون المنزلة اللائقة بهم في دنيا الناس، ويكفيهم لقاء الحبيب المصطفى يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، ومن شرب من الحوض شربة لم يظمأ بعدها أبداً، كما جاء في وصفه عن رسول الله ﷺ[1].

فقه الحديث

ورد في الحديث أن الرجل قد سأل النبي ﷺ أن يستعمله فقال: "يا رسول الله ألا تستعملني كما استعملت فلانًا وفلانًا؟"، فما الحكم في أن يطلب المرء الولاية؟

لقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال لعبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه: ((يا عبدالرحمن بن سَمُرة لا تسأل عن الإمارة، فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها، وإن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها))[2]. قال النووي: (في هذا الحديث فوائد منها: كراهة سؤال الولاية سواء ولاية الإمارة والقضاء والحسبة وغيرها)[3].

قال القرطبي صاحب المفهم: (وسببه أن سؤالها والحرص عليها مع العلم بكثرة آفاتها وصعوبة التخلص منها دليل على أنه يطلبها لنفسه ولأغراضه، ومن كان هكذا أوشك أن تغلب عليه نفسه فيهلك، وهذا معنى قوله "وكل إليها"، ومن أباها لعلمه بآفاتها ولخوفه من التقصير في حقوقها، وفرّ منها، ثم ابتلي بها فيرجى له ألا تغلب عليه نفسه، للخوف الغالب عليه، فيتخلص من آفاتها، وهذا معنى قوله "أعين عليها". وهذا كله محمول على ما إذا كان هنالك جماعة ممن يقوم بها، ويصلح لها، فأما لو لم يكن هنالك ممن لا يصلح إلا واحد لتعيّن ذلك عليه ووجب أن يتولاها ويسأل ذلك

---

(١) أخرج البخاري ٦٥٧٩، ومسلم ٢٢٩٢ مرفوعًا: حوضي مسيرة شهر، وزواياه سواء، وماؤه أبيض من الورق، وريحه أطيب من المسك، وكيزانه كنجوم السماء، فمن شرب منه فلا يظمأ بعده أبدًا".

(٢) أخرجه البخاري ٧١٤، ومسلم ١٦٥٢.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٩٧/١١/٦.

ويخبر بصفاته التي يستحقها من العلم والكفاية وغير ذلك، كما قال يوسف عليه السلام: ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾[1])[2] وقال القرطبي صاحب التفسير: (فأمّا لو كان هناك من يقوم بها ويصلح لها، وعلم بذلك فالأولى ألا يطلب)[3].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الاستفهام، والإخبار والتوكيد، والأمر.

ثانياً: من دلائل نبوته ﷺ إخباره ببعض ما سيقع بعده.

ثالثاً: من صفات الداعية: الحكمة في الإجابة.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: الصبر.

خامساً: من موضوعات الدعوة: الحوض.

أولاً- من أساليب الدعوة: الاستفهام والإخبار والتوكيد والأمر:

أ- الاستفهام في قول الصحابي: ألا تستعملني كما استعملت فلانًا وفلانًا؟ وقد كشف هذا السؤال عما يدور بداخله وعما يشغله وعن رغبته في الولاية، منتظرًا الإجابة من النبي ﷺ الذي سيرشده إلى ما فيه خيره ونفعه.

ب- الإخبار والتوكيد: يتضح ذلك في قول رسول الله ﷺ "إنكم ستلقون بعدي أثرة" فقد جاء الإخبار مؤكدًا ليبين تحقق وقوع المخبر به، ومن ثمّ يستعد المخاطب بما يناسبه ويلائمه.

ج- الأمر: في قوله ﷺ "فاصبروا" وقد جاء ليرشد المخاطبين إلى ما يفعلونه تجاه

---

(١) سورة يوسف، آية: ٥٥.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ٤/١٦.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ١١/٣٨٥. ولمزيد من التفصيل انظر: تبيين الحقائق، الزيلعي ٤/١٧٦، وبريقة محمودية في طريقة محمدية وشريعة نبوية في سرية أحمدية، محمد بن مصطفى الخادمي ٣/٢٨٠، ومعين الحكام، الطرابلسي ص ٩، والعناية على الهداية، البابرتي ٧/٢٦٢ وما بعدها، وتبصرة الحكام، ابن فرحون ١/١٥، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ٦/١٠٣، وأحكام القرآن، ابن العربي ٣/٥٩، وإحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، تقي الدين بن دقيق العيد ٢/٢٥٣.

الأثرة التي يلقونها من الحكام والولاة.

ثانياً- من دلائل نبوته ﷺ إخباره ببعض ما سيقع بعده:

ذلك من قوله ﷺ: "إنها ستكون بعدي أثرة وأمور تنكرونها" قال ابن حجر: (وأشار بذلك إلى أن الأمر يصير في غيرهم فيختصون دونهم بالأموال، وكان الأمر كما وصف ﷺ وهو معدود فيما أخبر به من الأمور الآتية، فوقع كما قال)[1]، وهذا من الدلائل على أنه نبي من عند الله مؤيد بوحيه ومنصور بقدرته ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾[2].

فما وقع على لسان رسول الله ﷺ من الإخبار بالمغيبات فبوحي من الله تعالى، وهو إعلام من الله عز وجل لرسوله ﷺ للدلالة على ثبوت نبوته وصحة رسالته، وقد اشتهر أمره ﷺ بإطلاع الله له على المغيبات: قال حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما: ((قَامَ فِينَا رَسُولُ اللّهِ مَقَاماً. مَا تَرَكَ شَيْئاً يَكُونُ فِي مقَامِه ذلك إلى قِيَامِ السَّاعَةِ. إلاَّ حَدَّثَ بِهِ. حَفِظَهُ مَنْ حَفِظَهُ وَنَسِيَهُ مَنْ نَسِيَهُ))[3].

قال القرطبي: "قلتُ: على أني أقولُ: إن النبي ﷺ كأن الله تعالى قد أعلمه بتفاصيل ما يجري بعده لأهل بيته وأصحابه، وبأعيان المنافقين، وبتفاصيل ما يقع في أمته من كبار الفتن، وصغارها، وأعيان أصحابها، وأسمائهم، وأنه بث الكثير من ذلك عند من يصلحُ لذلك من أصحابه كحذيفة رضي الله عنه وبهذا يُعلم أن أصحابه، كان عندهم من علم الكوائن الحادثة إلى يوم القيامة العلمُ الكثير والحظُ الوافر لكن لم يشيعوها، إذ ليست من أحاديث الأحكام، وما كان فيها شيء من ذلك حدثوا به، ونقضوا عن عهدته"[4].

وقال القاضي عياض عن الأحاديث التي ورد فيها إخباره عما يقع بعده من الغيوب:

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٦٩٨/٢.

(٢) سورة النجم، الآيتان: ٣، ٤.

(٣) أخرجه البخاري ٦٦٠٤، ومسلم ٢٣، ٢٨٩١.

(٤) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ٢٢١/٧.

(والأحاديث في هذا الباب، بحر لا يدرك قعره ولا ينزف غمره، وهذه المعجزة من جملة معجزاته، المعلومة على القطع الواصل إلينا خبرها على التواتر، لكثرة رواتها واتفاق معانيها على الاطلاع على الغيب)(١).

ثالثاً- من صفات الداعية: الحكمة والإجابة:

الملاحظ أن سؤال الصحابي كان مُنْصبًا على طلب الولاية "يا رسول الله ألا تستعملني كما استعملت فلانًا وفلانًا" وكان من المتوقع أن تكون إجابة النبي ﷺ مباشرة على سؤال الصحابي، لكنه ﷺ عدل عن ذلك إلى إخباره بما يقع في المستقبل من أثرة واستئثار، "إنكم ستلقون بعدي أثرة" وهذا له من الأولوية ما ليس لسؤال الإمارة. لذا اقتضى الإخبار به والإنباء عنه، وإذا كان أمر الأثرة مما تتحير أمامه العقول وتضطرب الأفئدة ويملؤها الغضب والحنق، فتقع في مفاسد عظيمة في سبيل الحصول على حقوقها، جاء الأمر النبويّ "فاصبروا حتى تلقوني على الحوض".

والمقصود أن في الحديث درسًا بليغًا فيما ينبغي أن يكون عليه الداعية مِنْ حكمة في الإجابة، ومن ألوان هذه الحكمة الإجابة بما هو أولى وأهمّ فيما يخصّ السائل وإرشاده إلى ما يفعل ويعمل فيه. ويلاحظ كذلك أنّ جوابه ﷺ كان فيه بشارة للأنصار: "اصبروا حتى تلقوني على الحوض" قال القرطبي: (فيه بشارة لهم بأنهم يَرِدُون عليه الحوض، ولعلّهم المشار إليهم بقوله ﷺ: ((إني لأذود الناس عن حوْضي بعصاي لأهل اليمن))(٢) فإن المدينة يمانية، وأهلها سبّاق أهل اليمن إلى الإسلام، وهم الأنصار)(٣).

ولعله من قبيل الحكمة في الإجابة لِلَفْتِ نظر السائل إلى ما هو أولى بانشغاله واهتمامه، ما وقع من ابن عمر رضي الله عنهما حينما سأله رجل من أهل العراق: عن المُحْرِم يقتل الذباب؟ فقال: أهل العراب يسألون عن الذباب وقد قتلوا ابن ابنة رسول الله ﷺ وقال

---

(١) الشفا، بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض ٣٢٩/٢.

(٢) اخرجه مسلم ٢٣٠١، وانظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي عليه.

(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ٥٤/٤.

النبي ﷺ: ((هما ريحانتاي من الدنيا))[1] قال ابن حجر: (أورد ابن عمر هذا متعجبًا من حرص أهل العراق على السؤال عن الشيء اليسير وتفريطهم في الشيء الجليل)[2].

والمقصود أنه في بعض الأحيان لا يجيب الداعية على سؤال المدعو مباشرة، وذلك لحكمٍ يراها، منها لفت انتباه المدعو إلى الانشغال بما هو أولى وأنسب له، ونحو ذلك. وهذا مجال رحب فسيح يتفاوت فيه الدعاة بحسب فطنتهم وخبرتهم وحسن تصرفهم، ومما لا شك فيه أنه إذا أحسن الداعية هذه المهارة كان ذلك من الأسباب القوية لنجاحه في دعوته.

رابعاً- من موضوعات الدعوة: الصبر:

ورد الأمر النبويّ صريحًا بالصبر: "اصبروا حتى تلقوني على الحوض" قال ابن عثيمين: (يعني أنكم إذا صبرتهم، فإن من جزاء الله لكم على صبركم أن يسقيكم من حوضه، حوض النبي ﷺ، ففي هذا الحديث: حث على الصبر على استئثار ولاة الأمور في حقوق الرعية)[3].

وفي الحديث دعوة إلى مواجهة الشدائد بالهمة والصبر والعمل الثابت المفيد وذم الاستئثار بالشيء عن مستحقيه وأنّه مُبعدٌ عن الحوض والثواب يوم القيامة وبيان فضل الصبر والصابرين[4]، إذ أن الصبر من جميل الأخلاق التي يتحلى بها الإنسان ومن ألوان الصبر في الحديث الصبر على الولاة وما يقع منهم من تجاوزات فبعد أن أخبر النبي ﷺ "إنكم ستلقون بعدي أثرة" قال "فاصبروا" أي على استئثارهم عليكم بما تستحقونه، ولا يكون ذلك داعياً للخروج عليهم أو الثورة على حكمهم أو ما شاكل ذلك، حماية للأمة من معاول الهدم والضعف وصيانة لوحدة الأمة من التفرق والتشرذم

---

(١) أخرجه البخاري ٢٧٥٣، ٥٩٩٤.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٦٩٠/٢.

(٣) شرح رياض الصالحين ١١٩/١.

(٤) شرح رياض الصالحين، د. الحسيني هاشم ص ٧٠.

استجابة وإعمالاً لقول الله عز وجل: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾(١).

خامساً- من موضوعات الدعوة: الحوض:

بشّر رسول الله ﷺ الصابرين من أصحابه وأتباعه بلقائه على الحوض "فاصبروا حتى تلقوني على الحوض"، وهذا يكون يوم القيامة، لذا كان من عقيدة المسلم الإيمان بالحوض وقد جاءت الأحاديث النبوية بإثبات حوض النبي ﷺ حتى عُدَّت من الأحاديث المتواترة، قال السيوطي: (ورد ذكر الحوض من رواية بضعة وخمسين صحابيًا، منهم الخلفاء الأربعة الراشدون، وحفاظ الصحابة المكثرون وغيرهم، رضوان الله عليهم أجمعين)(٢) قال ابن أبي العز الحنفي: (والذي يتلخص من الأحاديث الواردة في صفة الحوض، أنه حوض عظيم ومورد كريم، يُمَدُّ من شراب الجنة، من نهر الكوثر الذي هو أشد بياضًا من اللبن، وأبرد من الثلج، وأحلى من العسل، وأطيب ريحًا من المسك، وهو في غاية الاتساع، عرضه وطوله سواء، كل زاوية من زواياه مسيرة شهر)(٣).

ومما لا شك فيه أن الإيمان بالحوض يدفع المؤمن إلى الجدّ والاجتهاد في الطاعة، لأن (هذا الحوض الذي يكون في يوم القيامة -كما يقول ابن عثيمين- في مكانٍ وزمانٍ أحوج ما يكون الناس إليه، لأنه في ذلك المكان والزمان في يوم القيامة يحصل على الناس من الهمّ والغمّ والكرب والعرق والحرّ ما يجعلهم في أشد الضرورة إلى الماء، فيروون من حَوْض الرسول ﷺ)(٤).

قال أبو عبدالله القرطبي: (قال علماؤنا رحمة الله عليهم أجمعين: فكل من ارتدّ عن دين الله أو أحدث فيه ما لا يرضاه الله ولم يأذن به الله فهو من المطرودين عن الحوض المبعدين عنه وأشدهم طردًا من خالف جماعة المسلمين وفارق سبيلهم على اختلاف فرقهم -أي الخارجين-، فهؤلاء كلهم مبدلون وكذلك الظلمة المسرفون في

(١) سورة آل عمران، آية: ١٠٣.

(٢) نقلاً عن الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد، الفوزان ص ٢٣٢.

(٣) شرح العقيدة الطحاوية ١/ ٢٨٠-٢٨١.

(٤) شرح رياض الصالحين ١/ ١١٩.

الجور وتطميس الحق وقتل أهله وإذلالهم والمعلنون بالكبائر المستخفون بالمعاصي، وجماعة أهل الزيغ والأهواء والبدع، ثم البعد قد يكون في حال ويقربون بعد المغفرة، إن كان التبديل في الأعمال، ولم يكن في العقائد)[1].

---

(١) التذكرة في أحوال الموتى والآخرة ص ٣٠٦-٣٠٧، وانظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٨/١٥/٤٣-٥٣.

الحديث رقم (٥٣)

٥٣- وَعنْ أبي إبْراهيمَ عَبْدِ اللَّه بْنِ أبي أَوْفَى رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ رسولَ اللَّه ﷺ في بعْضِ أَيَّامِهِ التي لَقِيَ فِيهَا الْعَدُوَّ، انْتَظر[١] حَتَّى إِذَا مَالَتِ الشَّمْسُ قَامَ فِيهِمْ فَقَالَ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ لا تَتَمنَّوا لِقَاءَ الْعدُوِّ، وَاسْأَلُوا اللَّه العَافِيَةَ، فَإِذَا لقيتُموهم فاصْبرُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلالِ السُّيُوفِ**» ثُمَّ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ[٢]: «**اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ وَمُجْرِيَ السَّحَابِ، وَهَازِمَ الأَحْزَابِ، اهْزِمْهُمْ وَانْصُرْنا عَلَيْهِمْ**» متفقٌ عليه[٣]، وباللَّه التَّوْفيقُ.

ترجمة الراوي:

عبدالله بن أبي أوفى: وهو عبدالله بن علقمة بن خالد بن الحارث بن أبي أَسيد بن رفاعة بن ثعلبة بن هوازن بن أسلم، الأسلمي، كان يكنى بأبي معاوية، ويقال: أبو إبراهيم وبه جزم البخاري، ويقال: أبو محمد، له ولأبيه صحبة ورواية.

وكان من المجاهدين في سبيل الله مع رسول الله ﷺ فقد شهد الحديبية، فهو معدود من أصحاب الشجرة، وشهد خيبر وما بعد ذلك من المشاهد، وقد قال: غزونا مع النبي ﷺ سبع غزوات أو ستًا كنا نأكل الجراد[٤]، وقال إسماعيل بن أبي خالد: ((رأيت بيده [أي بيد عبدالله بن أبي أوفى] ضربة على ساعده، فقلت: ما هذه؟ قال: ضُربتها يوم حنين، فقلت له: أشهدت معه حنينًا؟ قال: نعم، وقيل ذلك))[٥] بل إن ابن حجر قال: وفي كتاب الجهاد من صحيح البخاري ما يدل على أنه شهد الخندق[٦]. ولم يزل مقيماً بالمدينة المنورة حتى قُبضَ رسول الله ﷺ ثم تحول إلى الكوفة، وكان قد ابتنى بها داراً في حَيّ -أسلم- وهو آخر من بقي بالكوفة من أصحاب رسول الله ﷺ

---

(١) لفظ مسلم: (ينتظر).

(٢) لفظ مسلم: (ثمّ قام النبي ﷺ، وقال).

(٣) أخرجه البخاري (٢٩٦٥، ٢٩٦٦)، ومسلم (١٧٤٢/٢٠) واللفظ له. وسيكرره المؤلف برقم (١٣٣٣).

(٤) أخرجه البخاري ٥٤٩٥، ومسلم ١٩٥٢.

(٥) أخرجه أحمد ٣٥٥/٤، ١٩١٣١ وقال محققو المسند: إسناده صحيح.

(٦) تهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني ٣٠٥/٢.

وكان كُفَّ بصره، وكان يصبغ رأسه ولحيته بالحِنَّاء، وكان له ضفيرتان، مات بالكوفة سنة (٨٦)، أو (٨٦)، وقيل (٨٨)، وهو آخر من مات بالكوفة من صحابة رسول الله ﷺ[١].

غريب الألفاظ:

مالت الشمس: زالت عن كبد السماء. وكبد الشيء: وسطه ومعظمه[٢].

تحت ظلال السيوف: يعني الجهاد في سبيل الله.

الشرح الأدبي

إن قيمة الصبر في هذا الحديث الشريف تتجاوز الصبر على الابتلاءات الذاتية في الأنفس والأموال والثمرات، وتدخل بنا منطقة الجهاد والمكابدة، والدفاع عن العقيدة ضد البغاة والمحاربين من الكفار والمشركين، والمصطفى ﷺ هو القدوة المثلى والأسوة الحسنة في الشجاعة والفداء، وكان الصحابة يقولون: "كنا إذا حمي الوطيس نتقي برسول الله. وأن الشجاع منا للذي يحاذي به"، وفي رواية "كنا إذا احمر البأس..."[٣].

ويقدم هذا الحديث درساً عملياً في خبرة القتال، والتخطيط لإحراز النصر، وينقل إلينا عبدالله بن أبي أوفى مشهداً من مشاهد هذا الصراع بين المسلمين والكفار،

---

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر (٣٨٢، ٣٨٣)، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير (١٨١/٣، ١٨٢)، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني (٧٤٣، ٧٤٤)، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي (٩١/٤)، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني (٣٠٤/٢، ٣٠٥)، والسندي (٤٤٩/٣١).

(٢) الوسيط ٧٧٢، ٨٩٤.

(٣) أخرجه أحمد ١٥٦/١ عن علي بن أبي طالب > قال: كنا إذا احمرَّ البأس ولقي القومُ القوم، اتقينا برسول الله ﷺ، فما يكون منا أحد أدنى إلى القوم منه"، وأخرجه النسائي في السنن الكبرى ٨٥٨٥ بلفظ: كنا إذا حمي البأس -وفي رواية إذا احمرَّ البأس- ولقي القوم القوم، اتقينا برسول الله ﷺ فما يكون منا أحد أدنى إلى القوم منه. والحديث صححه محققو المسند ٤٥٤/٢، وانظر: الشفا، بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض ١٨١/١-١٨٢.

ولنتأمل كيف أفصح التشكيل الأسلوبي والبناء اللغوي عن الدلالات الكثيرة المتعددة.

فالتعبير بقوله: "في بعض أيامه" يتجاوز الدلالة الزمنية لليوم المألوف، حيث تدخل دلالة جديدة يفرضها السياق، فالمراد بالأيام هنا، "أيام الحروب"، لأن أيام الحرب تطلق على الأيام التي كانوا يتقاتلون فيها، ولذلك يقول الراوي الذي بايع رسول الله يوم بيعة الرضوان، وشهد خيبر وما بعدها: يقول: "في بعض أيامه"، لأن أيام الرسول ﷺ لم تكن حروباً متواصلة، وإضافة الأيام إلى الضمير العائد على رسول الله ﷺ يضيف دلالة أخرى وهى أن رسول الله ﷺ هو القائد وهو الذي يخطط للدفاع عن العقيدة ونشر راية الإسلام.

والتعبير بالفعل "لقي" يحدد طبيعة هذا اللقاء فهو ليس هجوماً ولا اعتداء وإنما هو لقاء بين الفريقين، وكلمة "العدو" المراد منها، الكافر والمشرك وكل من يتصدى للمسلمين بالإيذاء.

وكلمة "انتظر": تفيد تأخر القتال إلى الوقت الملائم وهو وقت الزوال، وحتى، غائية وما بعدها مترتب على ما قبلها، والجملة بعد "حتى"، شرطية "حتى إذا مالت الشمس قام فيهم فقال" وأداة الشرط "إذا" تفيد التحقق والوقوع، والرواية أحداثها واقعية والراوي يحكي ما حدث حقيقة، ولم يحدد اليوم أو الغزوة لأن هذا كان منهج رسول الله في حربه مع أعدائه[١]، وقيل إنه كان يؤخر القتال إلى ميل الشمس ليبرد الوقت على المقاتلة، ويخف عليهم حمل السلاح الذي يؤلم حمله في شدة الهاجرة، وقيل: بل كان يفعل ذلك لانتظار هبوب ريح النصر التي نُصر بها، وفي حديث عند أبي داود عن النعمان بن مقرن قال: "شهدت رسول الله ﷺ إذا لم يقاتل من أول النهار أخر القتال حتى تزول الشمس وتهب رياح النصر"[٢][٣].

---

(١) أخرج البخاري ٢٩٤٨، ومسلم ٢٧٦٩ من حديث كعب بن مالك >: كان رسول الله @ قلما يريد غزوة يغزوها إلا ورى بغيرها. قال ابن حجر: معنى ورّى: ستر، وتستعمل في إظهار شيء مع إرادة غيره. فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢/١٤٣٠.

(٢) أخرجه أبو داود ٢٦٥٥، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٢٣١٣).

(٣) انظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ١/١٧١

ولنتأمل مقالة رسول الله ﷺ: "يا أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو...".

إن الخطاب موجه إلى كل الخلائق من المسلمين، ولفظ "الناس" فيه إيحاء بالأنس والإيناس، حتى يتذكر المتقاتلون رابطة الإنسانية بينهم، وأنهم منتسبون إلى أب واحد وأم واحدة.

وأن الإسلام نعمة كبرى، ومنّة فضلى، وأن الناس كلهم لآدم وآدم من تراب. ولذلك ينهي رسول الله عن أن يكون لقاء العدو أمنية، لأن الحروب دمار وخراب، وأن القاعدة الإسلامية تنطلق من قول الله عز وجل: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾[1].

وأسلوب الشرط والجواب يغلف المعنى الذي قدمه رسول الله ﷺ في صياغة لقاء الأعداء، وأداة الشرط "إذا" تفيد تحقق التقاء الجمعين؛ لأن أعداء الإسلام يتربصون به الدوائر، ويكيدون له، ويحيكون المؤامرات والدسائس، ولذلك يأتي جواب الشرط في صيغة الأمر بالصبر، والصبر في القتال من أقوى مراتب الصبر وأعلاها منزلة، وصفة الصحابة مع رسول الله أنهم، "صبر في الحرب".

"واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف" وهذه الجملة تشع ببريق النصر، وبشارات القوة. وهي كناية عن الاستشهاد في سبيل الخير والحق، ونشر راية التوحيد، وكلمة، "ظلال السيوف" فيها من التصوير والبلاغة ما فيها، ولم يقل تحت قعقعة السيوف أو صليل السيوف، لأن السيوف هنا تحمي الحق، وتحمي الخير، وتقضي على كل باطل ينشر الفساد في الأرض، ويحاول تشويه خيراتها ونهب ثرواتها لاستغلالها في سبيل الشيطان.

وقال القرطبي: (هذا من الكلام النفيس البديع الذي جمع ضروب البلاغة من جزالة اللفظ وعذوبته وحسن استعارته وشمول المعاني الكثيرة مع الألفاظ المقبولة الوجيزة بحيث يعجز الفصحاء اللسن البلغاء عن إيراد مثله، وأن يأتوا بنظيره وشكله،

---

(١) سورة الأنفال، آية: ٦١.

فإنه استفيد منه -مع وجازته- الحض على الجهاد والإخبار بالثواب عليه، والحض على مقاربة العدو واستعمال السيوف والاعتماد عليها، واجتماع المقاتلين حين الزحف بعضهم ببعض حتى تكون سيوفهم بعضها يقع على العدو ويرتفع عليهم حتى كأن السيوف أظلت الضاربين بها)[1].

والظلال توحي بالرحمة والخير، وتوحي بأن القتال والجهاد من أجل الحياة الكريمة القائمة على طاعة الله ومحبة رسوله، وإسعاد المسلم بما أحل الله له من الطيبات في الرزق الحلال.

ويأتي دعاء النبي ﷺ في ختام الحديث إرشاداً للمسلمين بالتوكل على الله وعدم الاغترار بالقوة والكثرة والعدة والعتاد، ولم يدع الرسول على أعدائه بالهلاك لأنه يرجو أن يهديهم الله للإسلام، وقد حدث ذلك حينما أسلم أهل مكة وأهل الطائف، وكثير من أهالي البلاد التي فتحها المسلمون ودخل الناس في دين الله أفواجاً.

وجمال الإيقاع، والسجع الجميل في الدعاء، وحين تقسيم العبارات، ينبئ عن فصاحة الرسول وعذوبة أسلوبه حتى في وقت الشدة، ولا غرو فقد أوتي جوامع الكلم.

فقه الحديث

في هذا الحديث يمكن ذكر ما يلي:

أ-استحباب القتال بعد الزوال: قال ابن دقيق العيد: (فيه دليل على استحباب القتال بعد زوال الشمس)[2].

ب-تمني لقاء العدو:

قال النووي: (إنما نهى عن تمني لقاء العدو لما فيه من صورة الإعجاب والاتكال على النفس والوثوق بالقوة وهو نوع بغي، وقد ضمن الله تعالى لمن بُغي عليه أن ينصره، ولأنّه يتضمن قلة الاهتمام بالعدو واحتقاره، وهذا يخالف الاحتياط والحزم، وتأوّله

---

(١) انظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ١/١٧١.

(٢) إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، تقي الدين بن دقيق العيد ٣٧٥.

بعضهم على النهي عن التمني في صورة خاصة وهي إذا شكّ في المصلحة فيه، وحصول ضرر وإلا فالقتال كلّه فضيلة وطاعة. والصحيح الأول)[(١)].

وقد ذكر القاضي عياض بعض أفراد هذه الصورة الخاصة، فقال: (أو يكون المراد: لا تتمنوا لقاءه على حالة يشك في غلبته لكم أو يخاف منه أن يستبيح الحريم أو يذهب الأنفس والأموال، أو يدرك منه ضرر)[(٢)].

ج-طلب المبارزة: قوله ﷺ: "لا تتمنوا لقاء العدو، سلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا" قال ابن حجر: (واستدل بهذا الحديث على منع طلب المبارزة، وهو رأى الحسن البصري)[(٣)].

وقال القرطبي: (وقد فهم بعض العلماء من هذا الحديث كراهة المبازرة، وبها قال الحسن)[(٤)] وقال القاضي عياض: (روى عن عليٍّ رضي الله عنه أنه قال: يا بني لا تدعونّ أحدًا إلى المبارزة، ومن دعاك إليها فاخرج إليه، فإنه باغٍ، وقد تضمن الله سبحانه وتعالى نصر من بُغِيَ عليه)[(٥)]. وقال ابن المنذر: (أجمع كل من أحفظ عنه العلم على جواز المبارزة)[(٦)]. وقال ابن قدامة: (ولم يزل أصحاب النبي ﷺ يبارزون في عصر النبي ﷺ وبعده، ولم ينكر منكر، فكان ذلك إجماعًا)[(٧)].

وهل يشترط إذن الإمام لطلب المبارزة؟ قال القاضي عياش: (شرط بعضهم فيها إذن الإمام، وهو قول الثوري وأحمد وإسحاق وبعضهم أجازها مطلقًا ولم يشترط فيها أمر الإمام، وهو قول مالك والشافعي، واختلف في ذلك قول الأوزاعي)[(٨)]، ويبين ابن

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٩.

(٢) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض ٤٣/٦ وهو موجود بنصه في المعلم بفوائد مسلم ١٢٨/٢.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٤٤٨/٢ ، وانظر المغني، ابن قدامة ٣٩/١٣.

(٤) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ٥٢٤/٣.

(٥) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض ٤٣/٦.

(٦) المرجع السابق، الموضع نفسه، والمفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ٥٢٤/٣.

(٧) المغني، ابن قدامة ٣٨/١٣-٣٩.

(٨) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض ٤٣/٦.

قدامة الحكمة من شرط إذن الإمام: (إن الإمام أعلم بفرسانه وفرسان العدو، ومتى برز الإنسان إلى من لا يطيقه، كان معرضًا نفسه للهلاك، فيكسر قلوب المسلمين، فينبغي أن يفوض ذلك إلى الإمام ليختار للمبارزة من يرضاه لها. فيكون أقرب إلى الظفر وجبر قلوب المسلمين وكسر قلوب المشركين فإنه إذا كان مبارزًا تعلقت قلوب الجيش به وارتقبوا ظفره، فإن ظفر، جبَرَ قلوبهم وسرّهم وكسر قلوب الكفار، وإن قُتل كان بالعكس)[١].

د-السجع في الدعاء: قال القرطبي: (قوله ﷺ "اللهم منزل الكتاب ومجري السحاب وهازم الأحزاب، اهزمهم وانصرنا عليهم" دليل على جواز السجع في الدعاء إذا لم يتكلف)[٢].

هـ-الدعاء عند اللقاء والاستنصار: قال النووي: (فيه استحباب الدعاء عند اللقاء والاستنصار)[٣].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: النداء والنهي والأمر والشرط.

ثانياً: من فقه الداعية: مراعاة نشاط النفوس لفعل الطاعة.

ثالثاً: من مهام الداعية: وصية المدعوين بما فيه صلاح أمرهم وتعليمهم ما يحتاجون إليه.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: استحباب الدعاء عند اللقاء والاستنصار.

خامساً: من ميادين الدعوة: ساحات الجهاد وميادين المعارك.

سادسًا: من وسائل الدعوة: الجهاد.

أولاً- من أساليب الدعوة: النداء والنهي والأمر والشرط:

النداء في قوله ﷺ "يا أيها الناس" وذلك لإعدادهم ولفت انتباههم لما يلقى عليهم بعد ذلك، و إن كان الصحابة رضي الله عنهم قلوبهم قبل أبصارهم معلقة بالنبي ﷺ

---

(١) المغني، ابن قدامة ٣٩/١٣.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ٥٢٥/٣.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١١٩.

ويصيخون الأفئدة قبل الأذان لما يقوله لهم، فيكون المقصود بهذا النداء توكيد إعدادهم ولفت انتباههم.

ويأتي بعد النداء النهي "لا تتمنوا لقاء العدو" ويأتي بعده أمر لتوكيد هذا النهي "واسألوا الله العافية" فإن هذا النهي (نظير سؤال العافية من الفتن)[1]، وبعد ذلك يأتي أسلوب الشرط "فإذا لقيتموهم فاصبروا" ويتبع هذا الشرط بالأمر "واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف" ليؤكد أمر الصبر في الجهاد، فإنه لا يتصور جهاد بدون صبر ومثابرة، وعلى قدر ذلك يكون الجزاء عند الله وهو الجنة.

ثانيًا- من فقه الداعية: مراعاة نشاط النفوس لفعل الطاعة:

وهذا واضح جليٌّ من قول الصحابي عبدالله بن أبي أوفى رضي الله عنهما: "أن رسول الله ﷺ في بعض أيامه التي لقي فيها العدو انتظر حتى مالت الشمس قام فيهم ..." الحديث. فلم يقاتل النبي ﷺ وقت اشتداد الحرّ بل أخر ذلك إلى وقت الإبراد ووقت النشاط، قال ابن حجر: (وفي الحديث ... مراعاة نشاط النفوس لفعل الطاعة)[2] وقد بوّب البخاري على هذا الحديث في كتاب الجهاد: باب كان النبي ﷺ إذا لم يقاتل أوَّل النهار أخّر القتال حتى تزول الشمس[3]، قال ابن حجر: (لأن الرياح تهب غالبًا بعد الزوال فيحصل بها تبريد حدّة السلاح والحرب وزيادة في النشاط)[4] وقال القرطبي عن ذلك: (إنه كان يؤخر القتال عن الهاجرة إلى أن تميل الشمس ليبرد الوقت على المقاتلة [أي المقاتلين] ويخف عليهم حمل السلاح التي يؤلم حملها في شدة الهاجرة، ولأن ذلك الوقت وقت الصلاة، وهو مظنة إجابة الدعاء)[5] وقد ذكر البخاري[6] ذلك مبينًا فقال:

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٤٤٨/٢، وهو قول ابن بطال.

(٢) المرجع السابق ١٤٤٨/٢.

(٣) فوق الحديثين ٢٩٦٥، ٢٩٦٦.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٤٣٣/٢.

(٥) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ٥٢٣/٣، وانظر: إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض ٤٤/٦.

(٦) أخرجه البخاري ٣١٦٠.

(حتى تهب الأرواح وتحضر الصلوات)[١]. وذكر القرطبي كذلك - تبعًا للقاضي عياض- احتمالاً آخر لانتظار النبي ﷺ للقتال لما بعد الزوال، فقال: (وقيل بل كان يفعل ذلك لانتظار هبوب ريح النصر التي نُصر بها كما قال: "نصرت بالصبا"[٢]، وفي حديث آخر: "أنه ﷺ كان ينتظر حتى تزول الشمس وتهب رياح النصر"[٣]).

وسواء كان تأخير القتال بعد الزوال لكون هذا أنسب للقتال والحرب، أو انتظارًا لهبوب ريح النصر، فإن في هذا مراعاة لنشاط النفوس لفعل الطاعة، فإن كان للسبب الأول فهذا واضح، وإن كان للسبب الثاني فإنه لا شكّ أن إشعار المجاهدين بأن ريح النصر تهب وشعورهم بذلك يدفعهم إلى النشاط والإقبال على القتال إقبالاً شديدًا يجعلهم لا ينصرفون إلا بإحدى الحسنيين: إما النصر أو الشهادة.

ثالثًا- من مهام الداعية: وصية المدعوين بما فيه صلاح أمرهم وتعليمهم ما يحتاجون إليه:

لقد خاطب النبي ﷺ أصحابه قائلاً: "يا أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنّة تحت ظلال السيوف"، لقد وصّى النبي ﷺ صحابته المجاهدين بما فيه نفعهم وخيرهم، قال ابن حجر: (وفي الحديث ... وصية المقاتلين بما فيه صلاح أمرهم وتعليمهم بما يحتاجون إليه)[٤].

أ- النهي عن تمني لقاء العدو: قال ابن دقيق العيد: (لما كان لقاء الموت من أشقّ الأشياء وأصعبها على النفوس من وجوهٍ كثيرة، وكانت الأمور المقدرة عند النفس ليست كالأمور المحققة لها، خشي ألا تكون عند التحقيق كما ينبغي فكره تمني

---

(١) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض ٦/٤٤.

(٢) أخرجه البخاري ١٣٠٥، ومسلم ٩٠٠.

(٣) أخرجه أبو داود ٢٦٥٥، والترمذي ١٦١٣ من حديث النعمان بن مقرن > قال: شهدت مع رسول الله @ فكان إذا لم يقاتل أول النهار انتظر حتى تزول الشمس وتهب الرياح وينزل النصر" والحديث صححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٢٣١٣).

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٤٤٨/٢.

لقاء العدو لذلك، ولما فيه -إن وقع- من احتمال المخالفة لما وعد الإنسان من نفسه، ثمّ أمر بالصبر عند وقوع الحقيقة)[١] وفي هذا المعنى يقول ابن بطال: (حكمة النهي أن المرء لا يعلم ما يؤول إليه الأمر، وهو نظير سؤال العافية من الفتن)[٢] وقال ابن حجر: (ويؤيد هذا النهي بقوله: "وسلوا الله العافية" وأخرج سعيد بن منصور من طريق يحيى بن أبي كثير مرسلاً: "ولا تمنوا لقاء العدو فإنكم لا تدرون عسى أن تبتلوا بهم")[٣].

لكن القرطبي يقدّم في بيان الحكمة من هذا النهي هي كون تمني اللقاء مع عدم الاستعداد الجيد للعدو يشكل خطرًا عليهم، فيقول: (قيل: إن فائدة هذا النهي ألا يستخف أمر العدو فيتساهل في الاستعداد والتحرز منه، وهذا لما فيه من المكاره والمحن والنكال ولذلك قال متصلاً "واسألوا الله العافية")[٤] وفي ذلك يقول القاضي عياض: (فيكون المراد بهذا لا تستهينوا بالعدو فتتركوا الحذر والتحفظ على أنفسكم وعلى المسلمين)[٥]، لكن قد يرد إشكال هنا: "إذا كان الجهاد طاعة فتمني الطاعات حسن، فكيف ينهى عنه؟" فلقاء العدو وقتاله طاعة يحصل منه إما الظَّفر بالعدو وإما الشهادة، فكيف ينهى عنه، وقد حضّ الشرع على تمني الشهادة ورغب فيه فقال: "من سأل الشهادة صادقًا من قلبه، بلغه الله منازل الشهداء، وإن مات على فراشه"[٦])[٧].

ويجيب القرطبي عن هذا الإشكال بأن متعلق النهي يختلف عن متعلق الترغيب، فإنما تعلق النهي بما يؤول إليه اللقاء من محن ومكاره ونحو ذلك بسبب عدم أخذ الاستعداد المناسب له في الغالب، أما إذا كان اللقاء يؤول إلى ظفر أو شهادة فهذا

---

(١) إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، تقي الدين بن دقيق العيد ص ٣٧٥.

(٢) نقلاً عن فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٤٤٨/٢١.

(٣) المرجع السابق، الموضع نفسه بتصرف.

(٤) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ٥٣٥/٣.

(٥) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض ٤٣/٦ وهو بنصه في المعلم بفوائد مسلم ١٢٨/٢.

(٦) المعلم.١٢٨/٢.

(٧) أخرجه مسلم ١٩٠٩.

مرغب ومندوب إليه، يقول القرطبي: (لقاء العدو وإن كان جهادًا وطاعة[١] ومحصلاً لأحد الأمرين فلم ينه عن تمنّيه من هذه الجهات، وإنما نهى عنه من جهات تلك الاحتمالات المتقدمة[٢]، ثم هو ابتلاء وامتحان لا يعرف عما تسفر عاقبته، وقد لا تحصل فيه غنيمة ولا شهادة، بل ضد ذلك، وتحريره: أن تمني لقاء العدو المنهي عنه غير تمني الشهادة المرغب فيه، لأنّه قد لا يحصل اللقاء ولا تحصل الشهادة ولا الغنمية [أي تكون الهزيمة] فانفصلا)[٣].

ب- سؤال الله العافية: نهى رسول الله ﷺ أصحابه: "لا تتمنوا لقاء العدو" ثم عقب هذا النهي بأمر "واسألوا الله العافية" قال ابن بطال: (حكمة النهي أن المرء لا يعلم ما يؤول إليه المرء، وهو نظير سؤال العافية، وقد قال الصديق: (لأن أعافى فأشكر أحبّ إليّ من أن أبتلى فأصبر). وقال القاضي عياض: (قال بعضهم: نهى النبي ﷺ أمته عن تمني المكاره، ولهذا قال السلف: الصالح العافيةُ من الفتن والمحن؛ لاختلاف الناس في الصبر، ولهذا قال متصلاً بقوله هذا في الحديث: "واسألوا الله العافية")[٤] وبيّن النووي مدلول كلمة العافية، التي تدل على نفي جميع ما يكره في الدين والدنيا والآخرة، فقال: (وقد كثرت الأحاديث في الأمر بسؤال العافية، وهي من الألفاظ العامة المتناولة لدفع جميع المكروهات في البدن والباطل في الدين والدنيا والآخرة)[٥].

ج- الصبر في القتال: لقد أمر النبي ﷺ أصحابه بالصبر عند لقاء الأعداء فقال: "وإذ لقيتموهم فاصبروا" قال القاضي عياض: (حض على الصبر وتوطين النفس في هذا يكون الثبات ويرجى النصر، ومع الهلع تحذر اليد والرجل، ويستولي العدو)[٦] وقال

---

(١) ذكر القرطبي ثلاثة احتمالات، ذكرنا فيما تقدم أولها، ثم قال القرطبي: وكل ذلك محتمل، انظر: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ٥٢٣/٣.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ٥٢٣/٣-٥٢٤.

(٣) نقلاً عن فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٤٤٨/٣.

(٤) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض ٤٣/٦.

(٥) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١١٩.

(٦) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض ٤٤/٦.

النووي: (فهذا حث على الصبر في القتال وهو آكد أركانه، وقد جَمَعَ الله سبحانه آداب القتال في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٤٥ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝٤٦ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[(١)])[(٢)].

د- الحض على الجهاد: وذلك في قوله ﷺ: "واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف" قال القرطبي: (إنه استفيد منه مع وجازته الحض على الجهاد، والإخبار بالثواب عليه، والحضّ على مقاربة العدو، واستعمال السيوف والاعتماد عليها واجتماع المقاتلين حين الزحف بعضهم لبعض حتى تكون سيوفهم بعضها يقع على العدو، وبعضها يرتفع عنهم حتى كأن السيوف أظلّت الضاربين بها، ويعني: أن الضارب بالسيف في سبيل الله يدخله الله الجنة بذلك)[(٣)] وقال النووي: (معناه: ثواب الله والسبب الموصل إلى الجنة عند الضرب بالسيوف في سبيل الله ومشي المجاهدين في سبيل الله، فاحضروا فيه بصدق واثبتوا)[(٤)].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: استحباب الدعاء عند اللقاء والاستنصار:

بعد أن وصّى النبي ﷺ أصحابه وعلمهم بما يحتاجونه، توجه إلى الله بالدعاء فقال: "اللهم منزل الكتاب ومجري السحاب وهازم الأحزاب، اهزمهم وانصرنا عليهم" قال ابن حجر: (أشار بهذا الدعاء إلى وجوه النصر عليهم، فبالكتاب إلى قوله تعالى:

---

(١) سورة الأنفال، الآيات: ٤٥-٤٧.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١١٩.

(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ٣/٥٢٥-٥٢٦، وانظر: إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض ٦/٤٤.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٩، وانظر: إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، ابن دقيق العيد ص ٣٧٥.

﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ﴾(١) وبمجري السحاب إلى القدرة الظاهرة في تسخير السحاب حيث يحرك الريح بمشيئة الله تعالى. وحيث يستمر في مكانه مع هبوب الرياح، وحيث تمطر تارة وأخرى لا تمطر فأشار بحركته إلى إعانة المجاهدين في حركتهم في القتال، وبوقوفه إلى إمساك أيدي الكفار عنهم وبإنزال المطر إلى غنيمة ما معهم حيث يتفق قتلهم، وبعدمه إلى هزيمتهم حيث لا يحصل الظفر بشيء منهم، وكلها أحوال صالحة للمسلمين. وأشار بهازم الأحزاب إلى التوسل بالنعمة السابقة، وإلى تجريد التوكل واعتقاد أن الله هو المنفرد بالفعل(٢). وفيه التنبيه على عظم هذه النعم الثلاث، فإن بإنزال الكتاب حصلت النعمة الأخروية وهي الإسلام، وبإجراء السحاب حصلت النعمة الدنيوية وهي الرزق، وبهزيمة الأحزاب حصل حفظ النعمتين، وكأنه قال: اللهم كما أنعمت بعظيم النعمتين الأخروية والدنيوية وحفظتهما فأبقهما. وروى الإسماعيلي في هذا الحديث من وجه آخر أنه ﷺ دعا أيضًا فقال: "اللهم أنت ربنا وربهم ونحن عبيدك وهم عبيدك نواصينا ونواصيهم بيدك، فاهزمهم وانصرنا عليهم" ولسعيد بن منصور من طريق أبي عبدالرحمن الحنبلي عن النبي ﷺ مرسلاً نحوه، بصيغة الأمر عطفًا على قوله "سلوا الله العافية، فإن بليتم بهم فقولوا اللهم ..." فذكره وزاد "وغضوا أبصاركم واحملوا عليهم على بركة الله" ... وفي الحديث استحباب الدعاء عند اللقاء والاستنصار)(٣).

خامساً- من ميادين الدعوة: ساحات الجهاد وميادين المعارك:

إن الدعوة لا تقتصر على أماكن العبادة أو على المنابر، وإنما تمتد لتشمل جميع ميادين الحياة حتى أشدها وأثقلها وطأة وهو ميدان الجهاد في سبيل الله، إذ أن الدعوة في هذا الوقت من أهم الأسباب التي تحث وتحفز المقاتلين على الجهاد في سبيل الله والثبات عند لقاء الأعداء، وقد كانت الدعوة هنا في ساحات الجهاد كما هو ظاهر في الحديث.

---

(١) سورة التوبة، آية: ١٤.

(٢) انظر: إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، تقي الدين بن دقيق العيد ٣٧٥.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٤٤٨/٢ ، شرح الحديثين ٣٠٢٤، ٣٠٢٥، وانظر: إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض ٤٥/٦، والمفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ٥٢٥/٣.

سادساً- من وسائل الدعوة: الجهاد:

لقد حثّ النبي ﷺ على الجهاد فقال: "واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف" والجهاد يكون موجهًا في المقام الأول إلى أعداء الدعوة الذين يملكون من الأسباب والوسائل ما يستطيعون به محاربة الدعوة الإسلامية وإرهاب أفرادها بل ودفع بعضهم كرهًا إلى الارتداد عن الإسلام. فشُرع الجهاد، حماية للدعوة والمؤمنين بها والراغبين في التعرف عليها، فضلاً عن أهداف وأغراض أخرى لشرع الجهاد، ليس هنا مجال للإشارة إليها وتفصيلها، وإنما يهمنا في المقام الأول هنا أن نبين كيف يكون الجهاد من وسائل تأمين الدعوة وحمايتها. يبين ذلك الدكتور محمد أبو شهبة في معرض حديثه عن أسباب الجهاد وحكمه فيقول: (شرع الجهاد لتأمين دعوة الإسلام، الدين العام الخالد، الذي ارتضاه الله للبشرية جمعاء، ولمساندة هذه الدعوة التحريرية الكبرى، حتى يتمكن النبي ﷺ من تبليغ رسالة ربه حسبما صدع به الوحي في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[١]، وقوله: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾[٢].

وتأمين المسلمين الذين اعتنقوا الإسلام عن رضا واطمئنان، وحمايتهم من أذى المشركين، ومنحهم حقهم في الإعلام عن عقيدتهم وهم آمنون، وليس من الحق والعدل أن يدافع أصحاب المذاهب الباطلة عن باطلهم بالقوة، وأن يترك أصحاب العقائد الصحيحة والشريعة السمحة من غير أن يؤذن لهم في الدفاع عن عقيدتهم ودينهم، فإنه من الظلم البين أن لا يجد الهداة والمصلحون متنفساً لدعوتهم في أرض الله الواسعة وأن يحجر عليهم فلا يستطيعون الإعلان عن عقائدهم، ولا إظهار شعائرهم[٣].

---

(١) سورة المائدة، آية: ٦٧.

(٢) سورة الأنعام، آية: ١٩.

(٣) السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، د. محمد بن محمد أبو شهبة ٧٦/٢ بتصرف.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

شاء الله تعالى ألا تستقيم الحياة على وتيرة واحدة، فالله تعالى يقلب الليل والنهار، ويغير الأحوال ويرفع قوماً ويخفض آخرين، ويعطي ويمنع، ويقبض ويبسط، والمؤمن يواجه الحياة بكل تقلباتها، وأفراحها واتراحها، ولذا فهو يحتاج إلى عون الله وتوفيقه، ثم إلى المزيد من الصبر الذي لا يستغنى عنه بحال من الأحوال حتى يستطيع الصمود في تلك الحياة.

ولذا فإن الله تعالى أمر عباده المؤمنين بالصبر والمصابرة فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ﴾[1]، وأمر سبحانه بالاستعانة بالثبر والصلاة فقال: ﴿ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ...﴾[2]، إلخ النصوص التي وردت في الأمر بالصبر والاستعانة به.

وفي هذا الباب -باب الصبر- جملة من الأحاديث النبوية التي وردت في الإشادة بالصبر وبيان فضله، والحث عليه، وحاجة كل مؤمن أن يتربى على مائدة الصبر.

إن الله تعالى أراد إعانة عباده على طاعته، فأمرهم بالصبر من خلال تربية النفس وتهذيبها بالصبر على الشدائد والمصائب، وإن النبي ﷺ بيّن أهمية حرص المؤمن على التزام الصبر والتذرع به، ليوفق لكل خير، بل الخير كل الخير في تربية النفس وترويضها على الصبر، ولذا فإن الله تعالى قال: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[3].

وحينما يصبح الصبر خلقاً للمؤمن ومنهجاً تشرق نفسه بالرضا والشكر والحمد.

لقد كان من هدي النبي ﷺ تربية أصحابه رضي الله عنهم على الصبر والاحتساب، ومن أبرز المضامين التربوية في هذا الباب -الصبر- ما يلي:

---

(١) سورة آل عمران، آية: ٢٠٠.

(٢) سورة البقرة، آية: ١٥٣.

(٣) سورة الزمر، آية: ١٠.

أولاً- التربية بالقدوة:

وهي من أعظم أساليب التربية تأثيراً في النفوس، وقد ضرب رسول الله ﷺ أروع الأمثلة في الصبر والتحمل وربى أصحابه رضي الله عنهم على ذلك فهو ﷺ الذي صبر واحتسب، وتحمل الأذى والبلاء في سبيل نصرة هذا الدين، وحرص على تربية أصحابه رضي الله عنهم على ذلك، فحينما جاءوا يشكون إليه شدة العذاب من المشركين، بيّن لهم أنه لابد من الصبر على البلاء حتى يمكن الله لهذا الدين وكان قدوتهم في ذلك.

ثانياً- من أهداف التربية الإسلامية: بناء الشخصية الإسلامية السوية:

إن الصبر يسهم إسهاماً كبيراً وعظيماً في بناء شخصية المسلم، من خلال تربية النفس على الصبر وتعويدها عليه، مما يكسبها الثبات والمرونة في مواجهة المصائب والمحن، وقد بيّن الرسول ﷺ لأصحابه رضي الله عنهم أجر الصابر المحتسب، وما ينبغي للمسلم قوله عند وقوع المصيبة كنوع من أنواع الوقاية حتى لا يصاب المسلم بصدمة قوية عند حلول المصيبة التي قد تفقده صوابه، وتدفعه إلى التصرف بخلاف ما يرضي الله تعالى[1]، فبين أجر المؤمن الصابر بقوله: "عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير...".

ثالثاً: من أساليب التربية الوصية:

وقد استخدم النبي ﷺ الوصية كأسلوب تربوي ناجح، لما له من أثر كبير على سلوكيات المؤمن، حيث أوصى النبي ﷺ من جاءه طالباً وصيته بألا يغضب، وردد مراراً قال: لا تغضب، وفي هذا توجيه تربوي نبوي عظيم لتجنب أسباب الغضب، ذلك لأن الغضب مفتاح لكل شر، فالذي يعجز عن قهر غضبه فهو عن غيره من السلوكيات الخاطئة أعجز...

إن الصبر من الصفات اللازمة لكل إنسان، إذ بدونه لا يستطيع بلوغ ما يريد، وإذا كان الصبر لأي إنسان من لوازم بقائه وسيره في الحياة، وبلوغ ما يريد، فإن المسلم أحوج من غيره إلى التذرع بالصبر في سائر الأحوال، لأن المسلم مطلوب منه أن يهذب نفسه، ويكفها عن المعصية، لأن في المعصية نوع من لذة النفس، لذا يحتاج الإنسان إلى

---

(١) انظر: أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية، د. زياد العاني، ٢٦١.

قدر كبير من ضبط النفس، وإرادة قوية تكفه عن مقارفة الخطايا[١].

رابعاً: التربية بالتحفيز:

إن التربية بالتحفيز من الأساليب التربوية المهمة في مجال التربية، حيث فطر الله تعالى الإنسان على محبة الخير والاستزادة منه، والحذر من الألم والشقاء وسوء المصير...

ولما كانت سبل الخير محفوفة بالمكاره ومخالفة هوى النفس، وسبل الشر محفوظة بمغريات الأنفس، وفواتن الأهواء والأفكار، كانت إذن أصول التربية تستدعي إيجاد قوة محرضة وجاذبة إلى طريق الهداية، زائدة على الإقناع الفكري المجرد، وتستدعي كذلك إيجاد قوة صادة عن سبيل الشر وطريق الغواية، زائدة بعضها أيضاً على قوة الإقناع الفكري المجرد[٢].

وهاتان القوتان هما الترغيب والترهيب، أو: التحفيز والتحذير، وهما من الأساليب التربوية التي اعتمدها النبي ﷺ، والتربية بالتحفيز تحتوي على الترغيب من خلال القوة المحرضة الدافعة لفعل الخير، ووظيفتها دغدغة المطامع الإنسانية في اتجاه طرق الخير التي قد ترتفع عن الإنسان الصوارف النفسية التي تصرفه عن فعل الخير إذ تستعطف شهواته مغريات أخرى واقفة في اتجاه سبل الشر المختلفة[٣].

وقد استخدم الرسول ﷺ الترغيب كأسلوب من أساليب التربية والإعداد مصحوباً بتصوير فني رائع لنعيم الجنة، مثيراً الانفعالات الوجدانية والعواطف الربانية[٤]، لأنه ﷺ لم يغفل عن أية طريقة، أو أي أسلوب يوجه به الإنسان ويرشده إلى السلوك الذي يصلح لحياته[٥].

ومن أمثلة ذلك ما ورد في أحاديث الباب والتي نذكر منها: أن رسول الله ﷺ

---

(١) المرجع السابق، ٢٧٤-٢٧٥، ٣٣٤.

(٢) انظر: أسس الحضارة الإسلامية ووسائلها، عبدالرحمن حبنكة الميداني، ٥٣-٢٥٤.

(٣) انظر: أصول التربية ووسائلها ٢٥٧ وأسس الحضارة الإسلامية ٢٥٣، نقلاً عن أساليب الدعوة والتربية، ٢٢٠.

(٤) انظر: أسس الحضارة ٢٥٤.

(٥) انظر: فلسفة التربية الإسلامية في الحديث الشريف، د. عبدالجواد سيد بكر ص ٣٤٥.

قال: ((يَقُولُ اللّه تَعالى: ما لِعَبْدِي المُؤمِنَ عِندِي جَزَاءٌ إذَا قَبَضْتُ صَفِيَّهُ مِنْ أهْلِ الدُّنْيا ثُمَّ احْتَسَبَهُ إلاَّ الجَنَّةَ))، وقوله ﷺ: ((مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلاَ وَصَبٍ، وَلاَ هَمٍ، وَلاَ حَزَنٍ، وَلاَ أَذَىً، وَلاَ غَمٍ، حَتَّى الشَّوْكَةُ يُشَاكُهَا إلاَّ كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ)).

وقوله ﷺ: ((مَنْ كظَمَ غَيْظاً وهُوَ قادِرٌ على أنْ يُنْفِذَهُ دعاه اللّهُ سُبحانَهُ وتَعالى على رؤوسِ الخَلائِقِ يَومَ القِيامَةِ حتَّى يُخَيِّرَهُ مِنَ الحُورِ الْعِينِ ما شَاءَ)).

وقوله ﷺ: ((مَا يَزَالُ الْبَلاَءُ بِالْمُؤْمِنِ وَالْمُؤْمِنَةِ فِي نَفْسِهِ وَوَلَدِهِ وَمَالِهِ حَتَّى يَلْقَى اللَّهَ تَعَالَى وَمَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ)).

خامساً: تعميق القيم الإيمانية:

تأتي القيم الإيمانية في مقدمة القيم التي يجب تربية النفوس عليها والحرص على التزامها في الحياة، وقد أمر النبي ﷺ بتقوى الله تعالى والصبر في قوله للمرأة التي فجعت بموت ولدها، وهي تبكي بكاء شديد فقال لها: ((....اتق الله واصبري.....)).

وقد بين النبي ﷺ أن من أراد الله به خيراً أصاب منه، وفي ذلك تعميق لقيم الإيمان بالله والرضا بما قدره سبحانه، فالله تعالى لا يريد خيراً إلا بالمؤمنين الطائعين المخبتين، والنبي ﷺ يأمر بالاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم عند الغضب، ولاشك أن المؤمن بحاجة إلى تلك تعميق تلك القيم الإيمانية في نفسه، وأن يلزمها بذلك، ومن هنا كان النبي ﷺ حريصاً على تعميق ذلك، وربطه بالمواقف العملية التي قد يتعرض لها المسلم في حياته، فما أكثر صور الابتلاء في الحياة، مما يستلزم المزيد من الإيمان، الذي يكسب النفس الثبات والتسليم والرضا.

سادساً: تعميق القيم الأخلاقية:

النفس الإنسانية بحاجة إلى التربية والتهذيب وغرس القيم الأخلاقية فيها، ولذا حرص النبي ﷺ على تربية أصحابه رضي الله عنهم على القيم العليا التي تؤهلهم رضوان الله تعالى، فما أجمل الاستعفاف والاستغناء عن الناس، وما أروع أن يربي المسلم نفسه على ذلك، إن النبي ﷺ أراد أن يعمق قيم الاستعفاف والاستغناء في نفوس أصحابه رضي الله عنهم، حينما جاءه أناس يسألونه فأعطاهم ثم سألوه فأعطاهم حتى نفد ما عنده ثم قال لهم

حين أنفق كل شيء بيده، ما يكن من خير فلن أدخره عنكم، ومن يعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله، ومن يتصبر يصبره الله، وما أعطى أحدٌ عطاء خيراً وأوسع من الصبر.

إن الإسلام يستعلي بالمؤمن ويربأ به أن يريق ماء وجهه، أو يفقد عزته بالسؤال، بل يأمره أن يلتمس أسباب العزة والكرامة من خلال استعفافه واستغنائه عن الناس وسعيه في طلب الرزق وأن يكون صاحب اليد العليا.

فحرى بالمؤمن أن يربي نفسه وأولاده وأهله وإخوانه على تلك القيم الأخلاقية النبيلة، ومن القيم الأخلاقية الرائعة التي أراد النبي ﷺ أن يعمقها في نفوس أصحابه وأمته قيمة الصبر والإعراض عن جعل الجاهلين، مثلما حدث في توزيع النبي ﷺ للغنائم يوم حنين وقول الرجل: والله إن هذه قسمة ما عدل فيها وما أريد بها وجه الله، فلما بلغ الخبر رسول الله ﷺ تغير وجهه ثم قال: فمن يعدل الله ورسوله؟ ثم قال: يرحم الله موسى فقد أوذي بأكثر من هذا فصبر.

ويتكرر موف آخر مع عمر رضي الله عنه حينما يدخل عليه عيينة بن حصن ويقول له: ((هِي يَا ابنَ الْخَطَّابِ فَوَاللَّهِ مَا تُعْطِينا الْجَزْلَ، وَلاَ تَحْكُمُ فِينَا بِالْعَدْلِ فَغَضِبَ عُمَرُ رضي الله عنه حَتَّى هَمَّ أَنْ يُوقِعَ بِهِ، فَقَالَ لَهُ الْحُرُّ بن قَيس: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّ اللَّهَ قَالَ لِنَبِيهِ: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾[1]، وَإِنَّ هَذَا مِنَ الْجَاهِلِينَ، فَوَاللَّهِ مَا جَاوَزَهَا عُمَرُ رضي الله عنه حِينَ تَلاَهَا عَلَيْهِ، وَكَانَ وَقَّافاً عِنْدَ كِتَابِ اللَّهِ تعالى)).

۞ ۞ ۞

(١) سورة الأعراف، آية: ١٩٩.

فهرس المحتويات



فهرس المحتويات

الموضــــــــــوع	الصفحة